مما قرأت

الجزء الأول

تأليف

أحمد الحمدان

تقديم

عمر بن محمود

محمد إلهامي

مما قرأت

[الجزء الأول]

تأليف:

أحمد الحمدان

تقديم:

الشيخ عمر بن محمود الأستاذ محمد إلهامى

إهداء

إلى والدي الحبيبين ..

إلى زوجتي الغالية ..

وإلى ابني عبد اللّه ..

مقدمة الشيخ عمر بن محمود أبو قتادة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين:

تلخيص الكتب والتعليق عليها اختصاراً فن قديم، وذلك لوجود سببه وضرورته، وهو لا يخلو من بيان عقل المختصِر وعلمه وقوة منهجه أو ضعفه، فما من كلمة يختارها المرء دون سواها إلا وهي كاشفة عن نفس الإنسان ومقدار عقله، كما لا يوجد اختيار لكتاب دون غيره إلا وهو دال على اهتمام أكثر من غيره، ولذلك ليس في شيء أن اختصار كتاب أو التعليق عليه عمل آلي لا يدخل في عداد الفنون العلمية، بل هو فن وعلم، بل هو كتابة أخرى، ونص جديد، قد يحتاج هو لكلمة أخرى تدرسه وتكشفه، ولذلك ففن الاختصارات وعرض الكتب والتعليق عليها هو إنشاء لنص فيه دلالة علمية وعقلية ومعرفية.

من أجل هذا لا يقال إن الذهاب لهذا النوع من الفن لضيق وقت القراءة وطلبًا للب الكتب، لانشغال المرء، وهذا وإن كان عند البعض على هذا المعنى في المختصرات إلا أنه عند الأكثر قراءة أخرى لكتاب آخر، وتاريخ القراءة يشرح هذا تمامًا، وكم من قراءة لكتاب شكلت كتابًا معرفيًا جديدًا، وعلمًا وفنًا يستحق البحث والنظر والاهتمام.

والعرض عند هؤلاء يعني المناقشة، وتثوير العقل للقبول أو الرد، أو التقييد والتخصيص؛ ولذلك هو نص جديد، والقراءة كما قلت قديمًا تصنع القراءة وتولد القراءة، وهذا شأن لا يجهله من عاش لهذا الفن العظيم، والذي هو من أسمى ما يصبغ سمة الإنسان واسمه السامي في هذه الحياة، وهو من أعظم أعماله وممارساته وشغله الصحيح وهواياته.

المرء يقرأ التاريخ ويفسره ويناقشه ويستخرج منه علومًا وقرارات ونتائج ثم هو يدخل في التاريخ بعد ذلك ويصبح جزءًا منه وعلامة من علاماته، وهكذا هي القراءة في مستوياتها المختلفة، تمارس

بصورتها الأولى، وهو طلب المعرفة ثم لمناقشة المعارف ثم لصياغة العلوم ثم للحياة مع الكلمة التزامًا وسلوكًا،ثم يصبح هذا القاريء مادة للقراءة والبحث، ولَبِنَةً من لَبِنَات المعرفة في تاريخ الكتابة والقراءة.

كل الذين صاروا مادة لفن القراءة إنما هم في الأغلب صناعة لهذا الفن، مارسوه ابتداءً ثم صاروا هم مادة بحثه.

من أجل هذا فمنفذ صناعة النص مناقشة النصوص،وأرجو أن يصبح صاحب هذا الكتاب يومًا مادة لصناعة نص آخر،يكون هو مادة السؤال والبحث والمناقشة،وهذا طريق كله جد، وكله صدق، وكله التزام تعيشه في الابتداء متعة قراءة ثم يصبح بعدُ التزامًا للكلمة، يعيش معها ولها،صادقًا في طلب معالي العلم فيها ليدخل بعد ذلك في سلك العلماء والمفكرين .

هذا ما أرجوه لصاحب هذا العرض الجميل في هذه الورقات التي استكملت معنى الكتاب، لكتب قرأها وفتشها وذهب في الابتداء لظواهرها وفقراتها، وأرجو أن يكون هذا منه سلمًا لمرحلة أكبر وأعلى وأهم.

وفي الختام: القراءة فن عظيم وهي الدرجة الأولى لصنع الكبار، والطريق يمتد ليشمل كل المعالي، وكل مطالب العقلاء، وقد سلكه صاحبنا هنا، فليهنأ، وليلتزم، وليفهم أن الكلمة أمانة، وقد مات شهداء من أجلها.

وفقنا الله وإياه لأداء حقها والثبات على أطيب كلماتها: لا إله إلا الله مُحَمَّدٌ رسولُ الله، وجعلنا الله تعالى من أهل كلماته وكتابه، أهل القرآن الكريم.

والحمد لله رب العالمين.

٢٦ شوال ١٤٤١ هـ

مقدمة المؤرخ محمد إلهامي

نبذة في مقاومة انحلال العلم

فاجأني صديق ظريف ذات يوم على صفحته في الفيس بوك بقوله: «قال الذي اخترع المسدس: "الآن لم يعد من فارق بين الجبان والشجاع"، وقال الذي اخترع الفيس بوك: "الآن لم يعد من فارق بين الحمار والفيلسوف"».

عبارة لاذعة في توصيف معنى انحلال العلم، حيث صار لكل قائل منبر، وصار لكل قولٍ مُعْجَبون ومشجعون، ولربما كتب المرء كلمة على سبيل المزاح أو زفرة غضب وهو يعلم أنها نوع من المبالغة والزفرة، فإذا بالتعليقات المؤيدة والمستحسنة - بل والمهاجِمة - تجعل هذه الكلمة نظرية فكرية ومذهبًا اجتماعيًا، فإذا بالذي قالها يعتقد في نفسه أنه ينطق بالحكمة ويقول ما يطرب له الناس ويحسب أنهم مفتقدون لذكائه مفتقرون لحكمته متشوفون لزعامته! وبهذا يولد فيلسوف جديد من لحظة مزاح أو لحظة غضب، وهكذا كثر الفلاسفة في زماننا!!

لكن: متى بدأت ظاهرة «انحلال العلم»، ومتى بزغت الفوضى في إبداء الرأي والنظر قبل التأهل الواجب لهذا؟

كالعادة ستختلف الإجابات عند الحديث عن بذرة أي ظاهرة تاريخية، حتى لقد سادت بين المؤرخين مزحة تقول: "يقول المؤرخ كانت بداية الظاهرة الفلانية في العام كذا، فيستدرك آخر فيقول: بل جذورها موجودة قبل هذا في العام كذا، فيستدرك ثالث ويقول: بل بذورها موجودة

قبل ذلك في العام كذا... على أننا مهما اختلفت الإجابات فسنقف لا شك عند اللحظة التي حرَّم فيها العلماء المطبعة وجرموا طباعة الكتب الدينية.

تلك لحظةٌ يكثر فيها التشنيع على علماء الدولة العثمانية، ثم على علماء الأزهر فيما بعد، إذ نُسِب إلى كلا الفريقيْن تحريمهما للطباعة. لست الآن بصدد تحقيق هذه الحادثة التاريخية، حيث يدور حولها كثير من الأخذ والردّ، ولكن القدر المؤكد فيها أن من أهم الدوافع التي جعلت العلماء ينظرون إلى المطبعة بارتياب وإلى آثارها بتخوف وحذر هو هذا المعنى الذي نتحدث فيه، معنى: انحلال العلم.

كان العلم يؤخذ عن أهله، يجلس الطالب في حضرة الشيخ فيقرأ عليه الكتاب، فيصحح الشيخ قراءة القارئ ويصحح فهمه كذلك، ومنذ فجر تاريخنا الإسلامي حذر العلماء من أخذ العلم عن الكتب دون شيخ، وذكروا أقوالا كثيرة تدور حول معنى أن الأخذ من الكتب دون شيخ يكثر فيه الغلط والوهم.

انتشر النسّاخون والورّاقون في حضارتنا الإسلامية انتشارًا عظيمًا، وسجَّل المؤرخون والرحالة والمستشرقون كثرتهم كما سجلوا عظمة المكتبات وانتشارها، ولكن هذا لم يمنع أن تكون الوسيلة المعتمدة لتلقي العلم هي الأخذ عن الشيوخ وإجازاتهم، ولا يرتفع قدر العالِم باتساع قراءاته بل باتساع مشيخته.

فمن ها هنا تخوف العلماء حين قدوم هذا الاختراع الجديد (المطبعة) أن يؤثر على انحلال العلم، إذ ستلد المطبعة في الدفقة الواحدة من الكتب ما كان النساخون يسهرون فيه شهورا، وهو ما ستفيض به الكتب عن حاجة طلاب العلم فيقرؤها من لا يجلس إلى الشيوخ، فيَضِلّ ويُضِلّ، فيولد بهذا طبقة جديدة من «علماء» جدد كانت مشيختهم هي الكتب.

فكأن المطبعة لم تلد كتبًا إلا وولدت معها طبقة من القارئين قد انحلّ عندهم العلم!

ناهيك عن أمور أخرىٰ تخوف منها العلماء، كأن تستخدم هذه المطبعة في تحريف القرآن وما يتصل به من علوم التفسير والحديث والفقه، إذ مهما كان الرأي في النساخين فإنهم في عمومهم من طلبة العلم وأهله والمتصلون به، فهم من جملة البيئة العلمية، ثم هم ينقلون عن أصلٍ هو خط المؤلف العالِمِ أو عن نسخة قُرِأَت عليه وأجازها، وإذا وقع الخطأ والتصحيف في نسخةِ ناسخٍ أمكن له أن يتداركها في نسخة أخرىٰ ولن يقع ذات الخطأ لدىٰ ناس آخر.. أما المطبعيون فأهل حرفة صناعية لا تتصل بالعلم بل بمهارة استعمال الآلة، ثم إن هذه الآلة التي تلد عددًا كبيرًا من النُسَخ لن تترك مجالًا للاستدراك عليها.

بهذا التصوّر لم يكن الوقوف ضد المطبعة خطأً وتخلفًا، بل ربما عددناه من أبواب حراسة الدين وحماية الثغور وصيانة العلم.

علىٰ أن مسيرة المطبعة قد بلغت شأوًا لم يتوقعه أحد في زمن ظهورها، لقد صارت المطبعة عمليًا آلة مسعورة لا بُدَّ لها أن تستمر وتواصل الطباعة مما كان مؤديًا ولا بُدَّ إلىٰ انحلال العلم انحلالًا مريعًا! كيف ذلك؟!

إليك مختصر القصة المؤسفة!

لقد رافق اختراع المطبعة زمن بزوغ الدولة الحديثة، الدولة المركزية التي تعتني بالسيطرة التامة علىٰ كل ما فيها ومن فيها، وقد اخترتُ لفظ «رافق» الذي يدل علىٰ المصاحبة هروبًا من النقاش الجدلي حول موضوع: هل كانت فكرة الدولة الحديثة ومطالبها هي التي دفعت لاختراع المطبعة؟ أم كان اختراع المطبعة بمثابة السلاح الذي وجدته أحلام السيطرة في يدها فأولعت بها؟!

لنبتعد عن هذا الجدال الآن، يكفينا منه أن الدولة الحديثة المركزية استثمرت المطبعة كما تستثمر سلاحًا جديدًا، إلا أن المطبعة سلاح ناعم، يُخْضع لها الجماهير دون أن يستشعروا منه عنفا وخطرا مهددا. فبالمطبعة استطعت الدولة بسهولة تضخيم جهازها الإداري وتوحيد وثائقها وتكثير دفاترها

التي صارت تستوعب كل التفاصيل، ومن بعد ما كان الحاكم مكتفيًا بمتابعة الأمور الخطيرة والمهمة عبر رسائل الولاة أو عبر الوثائق التي تسجل الشؤون الكبيرة والإجمالية، صار بإمكانه أن يفتح الدفتر ليعرف تفاصيل التفاصيل، فزادت بهذا سيطرة الدولة على الناس واستيعابها لدقائقهم الخاصة بما في ذلك أحوال صحتهم ومرضهم وأعدادهم ومواردهم وأرزاقهم مهما كانت حقيرة، وإن كل ما تطورت إليه الأنظمة المعاصرة من المراقبة والمتابعة والتدقيق فإنه فرع عن الإمكانية التي أتاحتها المطبعة.

وأخطر مما سبق أن المطبعة وفَّرت للسلطة أداة إعلامية لا ينافسها فيه أحد، ويرى بندكت أندرسون أن المطبعة واحدة من ثلاث أو أربعة وسائل أنشأت المجتمعات الحديثة التي هي «جماعات متخيلة»، حيث استطاعت السلطة من خلال وسيلة المطبعة (لأنها وسيلة إعلام) أن تُشَكِّل خيالًا عامًا، تصنع به انتماءً مخصوصًا لم يكن موجودًا من قبل. فالدولة من خلال المطبعة أصدرت الصحيفة الرسمية، وهي الصحيفة التي تنشر القوانين الجديدة وتنشر التعليمات الرسمية كما تنشر ثقافتها ورسائلها وقِيَمَها التي تريد ترسيخها، هذه الصحيفة الرسمية ينشغل بها كل الذين وضعتهم هذه السلطة ضمن حدودها فهم الذين تُوَجِّه إليهم خطابها، وبهذا صُنِعت «جماعة مُتَخَيَّلة» حيث صار الذين في أقصى جنوب البلد يشعرون بانتمائهم إلى ذات الجماعة التي ينتمي إليها من هم في أقصى شمال البلد، رغم أنه ليس بينهم في الواقع أي تشابه ولا علاقة.

في مصر مثلًا يشعر الذي يسكن في رفح - أقصى الشمال الشرقي - أنه مصري مثل الذي يسكن في السلوم - أقصى الشمال الغربي - مثل الذي يسكن في آخر أسوان - أقصى الجنوب - مع أن التشابه والصلة والعلاقة بين ساكن رفح وجيرانه في غزة أكبر بكثير مما بينه وبين ساكن السلوم، وكذا ما بين ساكن السلوم وجيرانه في ليبيا أكبر بكثير مما بينه وبين ساكن أسوان، وكذا ساكن أسوان فإن ما بينه وبين أهل السودان أكبر وأقوى مما بينه وبين هؤلاء. ومع ذلك فإن المطبعة - باعتبارها وسيلة

إعلامية سلطوية – جذبت هذه الأطراف لتربطها بخطاب واحد ولتصنع لها انتماءً متخيلًا واحدًا. وبهذا طرأ وضع جديد على عالمنا الإسلامي، فلقد كانت الأمة متصلة ببعضها مهما تقسمت أرضها بين الأمراء والملوك، وأما الآن فقد اتخذت هذه القسمة طابعًا اجتماعيًا وثقافيًا وصارت أمرًا عميقًا في الوجدان الشعبي.

يمكن أن نتحدث طويلًا في الآثار الضخمة التي ترتبت على وجود آلة إعلام سلطوية قوية الصوت واسعة التأثير، لكن الذي يهمنا الآن هو جانب واحد منها، الذي نحن بصدده، وهو مسألة «انحلال العلم» وكثرة المتصدرين والكُتّاب.

لقد كثرت المطابع، وكثر ما تخرجه من الكتب، ثم كَثُر ما تُخرجه من الصحف.. ولقد تعددت مشارب الصحف واتجاهاتها الفكرية، إلا أنها محكومة دائما بالمساحة التي تتيحها لها السلطة، فإذا اتسع صدر السلطة لبعض الحرية كان خيرًا، وإلا فإن الصحف تعرف جيدًا كيف تتجنب ما يسخط السلطة لتبقى على قيد الحياة.

في تلك اللحظة بدأت المطبعة تتحول إلى هذه الآلة المسعورة، الآلة التي لا بُدَّ لها أن تطبع، ولا بُدَّ لها أن تنشر. هنا ظهرت طبقة جديدة ممن يقدمون العلم للناس ويوجهون أفكارهم، طبقة الكُتَّاب والمثقفين والصحافيين، طبقة لا هي معدودة في العلماء ذوي التكوين الأصيل الرصين الثقيل، ولا هي معدودة في العامة، طبقة في منزلة بين المنزلتين. ولأن الصحف تحتاج أن تبيع فقد كانت رشاقة القلم وحسن الأسلوب مقدمًا على جودة المضمون وقوة المادة العلمية.

وهكذا بدأ انحلال العلم..

صاحب العمود اليومي أو الأسبوعي مضطر لأن يكتب، فهذا مورد ارتزاقه، وهذه نافذته إلى جمهوره، وهذا باب شهرته بين المثقفين والمفكرين وأهل القلم... وحيث أنه مضطر أن يكتب فلا بُدَّ أن يخوض فيما لا يعرف بعد أن استنفد ما يعرف، ولا بأس أن يكتب ما يعن له من الأفكار

والخواطر وإن كانت لم تنضج ولم يُتَمَعَّن فيها، ثم لا بأس أن يقصَّ بعضا من ذكرياته وما يمر به من أحداث، وعليه أن يُبدي رأيه في أحداث السياسة وشؤون العلم وحوادث التاريخ وسائر ما يستهوي أن يكتب فيه ويبدي رأيًا.

وقد ظلت تلك الطبقة تنمو وتتوسع مع توسع وسائل الإعلام حتى أنتجت الإعلاميين في الإذاعة والتلفاز، ثم بلغت أقصاها مع مواقع التواصل الاجتماعي حيث صار الكل يكتب ما يريد ويلقي ما يريد، ولا تسأل عن ضياع العلم في ظل هذه الفوضى المريعة.

ولأن المطبعة صارت تلد كثيرا من الكتب، وتلد كثيرا من الصحف، فقد ظهرت مع ذلك ظاهرة أخرى هي عروض الكتب والتعريف بها.. وهذه الظاهرة كانت تسد حاجة لا بد منها، لقد صارت الأعمار أقصر كثيرا من أن تستوعب فيضان الكتب الذي تنهمر به المطابع، واتسعت المعارف اتساعًا اختفت معه الموسوعية العلمية التي كانت سائدة في العصور الإسلامية الوسيطة، وصار الذي يحب متابعة شأن العلوم والمعارف محتاجا إلى من يقدم له فكرة عن الكتاب وعرضا له يُعَرِّفه بموضوع الكتاب وغرضه وأبوابه. وفي نفس الوقت فإن المؤلف نفسه، وكذا دار النشر، صار حريصا على أن يُنشر مقال عن كتابه ليعرف به، في ظل فيضان الكتب المستمر، ففي هذا غرض تسويقي للكتاب ومؤلفه.

وتوسعت هذه الظاهرة حتى صارت لعروض الكتب صحفا ومجلات متخصصة، وأحيانا صارت المجلات تتخصص في فرع واحد من فروع المعرفة تتابع ما يصدر فيه من الكتب. وأفرد كثير من المؤلفون كتبا يروون فيها أخبارهم مع الكتب والقراءة ويُبدون فيها آراءهم فيما قرؤوه منها، وبعضهم يضع أمانيه في كتب يحب أن تُؤَلَّف.

إن ظاهرة عروض الكتب هي في ألمع وجوهها نوعا من مقاومة «انحلال العلم»، فكأنها ارتياد أحدهم لمكان ما يستطلعه ويتبين معالمه، ثم يعود إلى قومه يخبرهم الخبر، كأن أولئك الذين يقرؤون

ثم يرجعون لنا بالمراجعة كالطائفة التي نفرت من الفرقة تكفيهم عناء تجريب المُجَرَّب وارتياد المجهول.

لكم يكون المرء سعيدًا حين يجد كاتبا مُجِيدا يقرأ الكتاب ثم يقدم له عرضًا جميلا وافيا، فهذا يُوَفِّر عليه وقت استكشاف الكتاب وقراءته بنفسه، وربما كانت المراجعة بحد ذاتها سببًا في انطفاء الشوق أو اشتعاله لقراءة كتاب، فهي سبب أصيل في قرار القارئ أن يقرأ أو يترك.

وكان هذا الباب هو سبب التعارف على الصديق العزيز الأستاذ أحمد الحمدان عبر مدونته التي احتوت مراجعاته للكتب، حيث ظللت شهورا أتابع مدونته وألتهم جديد مراجعاتها الطريفة المفيدة. وكانت العديد من مراجعته مما اكتفيت به عن قراءة كتاب ما أو شجعتني لقراءة كتاب ما. وقد استفدنا منه والحمد لله في مجلة (كلمة حق) حيث كان له مقال ثابت يستعرض فيه كتابا جديدا بأسلوبه الرشيق.

ولقد كنتُ واحدًا ممن تشوّف وتشوّق أن يجمع أخونا أحمد هذه المراجعات في كتاب واحد، ليكون ذلك سببًا في اتساع الانتفاع بها، لا سيما بعد تكرر إغلاق حساباته في مواقع التواصل الاجتماعي، وحين عرض عليَّ هذا الكتاب وجدتُ أنه فاتني من مراجعاته أكثر بكثير مما قرأته، ودخلت معه في رحلة لذيذة بين أروقة الكتب المتنوعة، من الدين إلى السياسة إلى التاريخ إلى الأمن إلى الروايات إلى المذكرات الشخصية إلى غير ذلك من فروع المعرفة.

ومن مزايا أخونا أحمد ومراجعاته أنه يربط كثيرًا بين ما يقرؤه، فربما لفت نظره موقف رواه ابن حزم في طوق الحمامة مع موقف آخر يرويه رجل أمن معاصر في كتاب عن الجاسوسية، أو معلومة يرويها نسابة في كتاب أنساب قديم مع معلومة أخرى من كتاب في السياسة المعاصرة... وهكذا!

إنه كتاب يغني عن كتب كثيرة، ويفتح الطريق لآفاق عديدة، ويُعَرِّف بنَوَاحٍ ما كان ليتعرف عليها القارئ بنفسه لا سيما إن كان متخصصًا في مجال بعينه، ولهذا فهو رحلة تجمع بين الجمال والمتعة وبين الفائدة والمنفعة.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بها قارئها، وأن يتقبلها من كاتبها، وأن يكتب لها القبول، وأن يجعلها علمًا نافعًا خالصًا لوجهه الكريم.

محمد إلهامي

اسطنبول – يوليو ٢٠٢٠.

المقدمة

أُقدم مجموع المراجعات التي كتبتها لقراءاتي للكتب عبر امتداد خمس سنوات، ولا أزعم أن هذا الكتاب نسج على منوال (خزانة الكتب) للشيخ علوي السقاف الذي قام بتعريف ألفي كتاب، فلم تكن مراجعاتي مجرد تعريف – أي مجرد عرض –، بل تخللها الكثير من المناقشات والنقد، وأحياناً أُهمل التعريف وأدخل في التعقيب.

وقد كتبت في مواضع أخرى الدوافع التي جرتني للقراءة التراكمية، والتي كان لا بُدَّ معها من ضرب عصافير بحجر، ومن بينها تدوين المراجعات ونشرها، ففائدتها تعود على الناشر والقارئ معًا، والمراجعات هي خلاصة الخلاصة إن صح التعبير، وأحياناً قد يستطيل البعض في مراجعة كتاب معين إلى حد أن يخرج بكتاب مستقل مثل كتاب (ثمار رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية) للدكتور عمرو شريف.

والخلوص بأكبر فائدة من الكتاب لا تكون عبر نشر مراجعة اعتمادًا على الذاكرة فقط (فالذاكرة غدارة)، وهذا خطأ قد وقعت فيه، بل لا بد من تدوين الملاحظات أثناء القراءة، وفهرسة المواضيع زيادةً على فهرسة المؤلف، ويجب أن يكون المراجع من أكبر الكارهين لعذرية الصفحة، فالبعض يصعب عليه أن يكتب بالحبر أو القلم الرصاص على ورق الكتاب، فبسبب هذه الرغبة أو هذا الطبع يهدر الكثير من وقته وجهده في نسيان الكثير من الأمور، وتدوين الملاحظات وفهرسة المضامين من أفضل الأمور التي يستفيد منها القارئ المنتج – كالمؤلف أو معد الحلقات – يقول الشيخ الدكتور محمد موسى الشريف: «**ثم لما تعمّقت في القراءة رأيت أن أضع علامة على المواضع المهمة في الكتاب حتى أعود إليها فيما بعد، وقد أفادتني هذه الطريقة فيما بعد، فقد كنت إذا أردت الرجوع إلى كتاب قرأته من قبل فإني أقلّب صفحاته لأعرف المواضع المهمة فيه. وربما وضعت بعض التعليقات داخل الكتاب على ما أجده جيداً أو مستهجناً مما أقرؤه، وربما وضعت في صدر الكتاب بعد فراغي من قراءته رأيي فيه وفي مصنفه بكلمات موجزة قليلات.**

ثم إني انتهيت في القراءة إلى وضع فهرسة خاصة لفوائد كل كتاب أقرأه غالباً، وذلك الفهرست - فهرست الفوائد - هو العمل الأرضى عندي في باب القراءة؛ وذلك لأن الفهرست يعد خلاصة ما في الكتاب، فإذا أردت العودة إليه فإني أكتفي بمطالعة فهرست الفوائد، وهذه الطريقة ساعدتني كثيراً في كثير من الحلقات التي سجلتها في القنوات الفضائية، فقد كنت إذا طُلب مني التسجيل في موضوع ما فإني أرجع غالباً إلى الكتاب الذي قرأته قديماً في الموضوع نفسه وأكتفي بمطالعة فهرست فوائده لأستحضرها في ذهني مرة أخرى»[1].

وطرق التدوين التي اتخذتها متعددة، من بينها: تخطيط الفائدة بالقلم، أو تسجيلها صوتياً، أو تصويرها بالهاتف، أو كتابة رقم الصفحة التي وردت فيها الفائدة في مقدمة الكتاب، أو حتى وضع إشارة بالقلم في رأس الصفحة التي وردت فيها الفائدة إن لم أرد أن أحددها في المتن.

وإن لم يضع المراجع هذه الإشارات التي تُسَهّل عليه كتابة المراجعات، واعتمد على ذاكرتهِ، فسوف يتصفح الكتاب مجددًا إلى أن يقع على الصفحة التي يريدها، وقد يتعب في البحث عنها أو في البحث عن السطر المقصود، وفي ذلك من إهدار الوقت والجهد ما فيه، وكما قال الشيخ عمر بن محمود لنا ذات يوم: «**فأنا أتذكر كلمة مثلا لابن تيمية في المجلد الفلاني، فأمكث ساعات في البحث عنها**».

وقد بدأت في تدوين المراجعات بشكل عفوي - أي: ليس ضمن خطة أو برنامج معين -، وقد بدأت في بعض الروايات التي كنت أقرأها؛ لأن تقييمها أسهل من الكتب الجادة، وتعطيك مراناً جيداً للتبصّر في مواطن ضعف وقوة في الكتاب، فالقصص هي مرآة جيدة ليقيم الشخص ذاته وينمي من مهارة النقد، ولكن لا تكفي ولا يجب الوقوف عندها لتفصيل طويل قد ذكرته في موضع آخر حول الروايات.

---

[1] رحلتي مع القراءة، صـ١٩-٢٠.

وقد تنوعت طرق المراجعات أيضاً، فأحياناً أكتبها على شكل مقال أحرص على وضع الكثير من الهوامش، وأحياناً تكون بعرض موجز ثم ذكر خلاصة الرأي - وذلك لأنَّ الناس كثيراً ما تهتم برأي المقيم، وقد يجعل هذا التقييم أحيانًا البعض يُحجم أو يُقدم على قراءة الكتاب الذي تكلمت عنه، خصوصًا إن كانت الناس تثق في ذائقتك -، وأحيانًا عرض مطول ولكن دون أسلوب المقالة.

وكل على يختلف بالختلاف الأحوال والأوقات، فلا يوجد نسق واحد على طول الطريق.

وكذلك بيئة كتابة المراجعات لا تأخذ لدي شكلًا واحدًا، فأحيانًا أحضر معي حاسوبي إلى مقر العمل وأكتب المراجعات هناك، وبيئات العمل تختلف وذلك لتنقلي دائمًا في الوظيفة، فأحيانًا تكتبها في جو مكيّف، وأحيانًا تكتبها في مكان شبه صحراوي بلا أي تكييف، وأحيانًا تكتب وفق الظرف الطبيعي وهو في المنزل، ولكن الشاهد من هذا كله؛ أن الشخص إذا أراد أن ينتج فلا بد أن يكيف نفسه للتعايش مع كل الظروف.

وقد ساعدني الكثير من الأشخاص الذين رافقوني خلال هذه الفترة على الاستمرار في العطاء، فرأيت أثر هذه المراجعات على الكثيرين؛ فالبعض أصبح يتحمس للقراءة، والبعض أصبح يكتب مراجعات على غرار ما أفعل، والبعض استفاد عموماً وشكرني عليها، فالشخص غالباً سيستمر في العطاء إذا رأى أن ثمة هنالك أثر وتفاعل مع ما يكتب أو ينتج.

ويجب الإشارة والتنبيه إلى أن هذه المراجعات ليست هي كل الكتب التي قرأتها، فبعض الكتب لم أكتب لها مراجعات؛ وليس ذلك لأنها سيئة أو لا تستحق، بل أضع الكتاب أمامي حتى أكتب عنه مراجعة ولكن عوضاً عن ذلك أقوم وأبدأ بكتاب جديد وثم أدخل في كتاب آخر إلخ..، فتتراكم الكتب! وهذا يجعلك تتكاسل أو تتباطأ في الكتابة عن كتاب قد فرغت منه قبل فترة، وهذه من مشاكل التسويف.

وكما أني لم أضع مراجعة نقدية مطولة لكتاب قد قرأته وقد رد علي مؤلفه وثم كتبت رداً مطولاً آخراً على ما كتبه ولكن حالت الظروف من نشر هذا الرد، وذلك لأن مضمون هذه المراجعة النقدية أشبه بمادة مستقلة ولم تنحو منحى مراجعة الكتب أو النساق العام لها.

وقد رتبت المراجعات وفقًا لتاريخ نشرها، وليس وفقًا لتاريخ انتهائي من الكتاب، فقد أنتهي من مراجعة كتاب ثم أنشر المراجعة لهذا الكتاب بعد سنة، وقد أقوم بنشر المراجعة بعد انتهائي من الكتاب مباشرة، فالعِبرة بتاريخ النشر.

والصحبة الطويلة مع الكتب والكتابة عنها ليس من ورائها خسارة؛ لأنك سوف ترى أثر ذلك على نفسك على الدوام، «ومن كان يومه كأمسه فهو مغبون»، وكلما طال مراس الشخص على أمرٍ معين كلما ازداد فيه خبرة، فتزيد خبرتك في ضغط المضمون قدر المستطاع في عبارات موجزة دون الدخول في التفصيلات المطولة التي قد يمل القارئ منها، وهذه الخبرة أيضًا قد تجعلك تفرق بين النقاط الفرعية والأساسية التي يستحق الكلام عنها، وماذا تستبعد وماذا تبقي؟ وكل هذا لا يأتي إلا بالممارسة.

وكما قيل: «إن الكتاب أفضل مدخل للصداقة»، فهذه الكتب والمراجعات والاقتباسات رغم تنوعها واختلاف تصنيفاتها كانت مدخلًا لتعرفك أو تعرف الكثيرين عليك، مما ساهم في إنماء هذه المعرفة وخروجها عن الفضاء الرقمي إلى المجال الواقعي، فالكلام في مواضيع متعددة يجلب لك أشخاصاً متعددين، فإن تكلمت عن الروايات تعرفت على محبي الروايات، وإن تكلمت في التاريخ أتاك محبو التاريخ، وإن تكلمت في السياسة أتاك أهلها، وهكذا... وهذا بخلاف من تكلم في فنٍّ واحد، فهو له جمهور محدود، ولكن ما يعيب هذه الطريقة، أنها تجعلك مثقفًا وحسب، لا مختصًا، فالاختصاص يكون بالانشغال في فن واحد ويكون أغلب التركيز عليه.

وأثناء تصفحي ومراجعتي لهذه المراجعات، أحببت أن أشير إلى **أن بعض النقاط قد تتغير وجهة نظر الشخص عنها، ورغم ذلك أبقيتها أرشفةً لي وصورةً لتطور الفكر عبر الوقت، ولم أعدّل إلا بعض الأخطاء الإملائية التي أشار إليها المراجعون أو أعدّل صياغة الجملة التي كان ثمة خطأ في صياغتها أو بعض المعلومات التي وقع فيها الغلط.**

وأحب أن أشكر بعض الفضلاء الذين كان لهم دور في خروج هذه المادة، أولهم من راجعوا الكتاب مراجعة أولية ونهائية، وعلى اعتكافهم لمراجعة المادة وتدقيقها وتصويب ما فيها من أخطاء وإرسال الملاحظات حولها، وأشكر كذلك (مجلة كلمة حق) والقائمين عليها على الفرصة التي أتاحوها للكتابة في مجلتهم، وأشكر الشيخ عمر بن محمود الذي كان له إسهام في حبنا للقراءة والتعليق على الكتاب، من خلال سلسلة (ألف كتاب قبل الممات) و(كليمة في كتاب)، وأخيرًا أشكر زوجتي التي صبرت عليّ، وتحملت انشغالي في الكتابة، وأشكر كل شخصٍ ساهم في خروج هذه المادة عبر هذه السنوات من نصيحة أو شكر أو حتى قدح وذم، فكل هؤلاء لهم دور - بالضرورة - في إكمال المسيرة والوصول إلى هنا.

وأختم وأقول: إن هذا الجزء هو الجزء الأول من المراجعات، إذ بطبيعة الحال أصبحت كتابة المراجعات أشبه بالعرف السائد عندي، ولا بُدَّ أن أستمر بها، وإن كنت أفكر بتقليل المضامين التي سوف أتكلم عنها، وإذا تجمّعت إن شاء الله مادة مطولة كهذه مستقبلًا سنصدر لها جزءًا ثانيًا مكملًا لما سبق.

هذا والله أعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أخوكم أبو عبد الله - أحمد الحمدان.

يوم الخميس ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠م الموافق ١ محرم ١٤٤٢ هـ

الفهرس

الجهاد الفريضة الغائبة

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: الفريضة الغائبة.
- اسم المؤلف: محمد عبد السلام فرج.
- عدد الصفحات: ٣٢.
- دار النشر: نسخة رقمية.

التعليق والمناقشة:

كتاب (الجهاد الفريضة الغائبة) رُفِّع في الإعلام كونه أبرز الكتب الجهادية التي تُنَظّر للفكر الجهادي المعاصر في مهده، اعتمد الكاتب كثيرًا على أقوال ابن تيمية والعلماء المتقدمين، وبسط في الكتاب استراتيجية «العدو القريب أولى من العدو البعيد» ولا يمكن أن نقاتل العدو البعيد ما لم نجعل من أوطاننا قاعدةً للانطلاق منها، وحاول أن يُبرهن الكاتب من خلال الكتاب هذا، أن الحل الأوحد لحل أزمة الأُمَّة هو الجهاد والقتال، ولم يكتفِ بإثبات ذلك بل حاول أن يُسقط كل شُبَهِ الخصوم التي يتذرعون بها للقعود كأن يقول البعض أننا في المرحلة المكية، أو أن يقول البعض لا بد من التغلغل في الحكومات أو قول البعض أن السياسة تُقَسّي القلب، اللافت في ردود محمد فرج أمرين، أنها مختصرة وبسيطة، ويجمع بين الحجة النقلية والعقلية في كلامه.

حاول الكاتب أن يُنزل واقع التتار الذي شخّصهُ ابن تيمية في عصره على واقعنا الآن، وهذه النقطة - لاحظ - أكثر نقطة شنّعوا عليه فيها الخصوم، رغم أن قياسه صحيح، لوجود علة مشتركة وهي **«وجود دستور يتحاكم إليه غير الشرعية الإسلامية، فالدساتير في وقتنا تنصّ على أن الشريعة ليست هي المصدر الوحيد بل هي المصدر الرئيس، يعني أن هنالك مصادر أخرى تشاركها كحال الياسق**

الذي كانت الشريعة أحد مصادره ولم تكن الوحيدة، فلم يقل العلماء أن التتار كانوا يحكمون بالشريعة بل نصّوا على عدم حكمهم بالشريعة كما نقل ذلك ابن كثير في البداية والنهاية».

في ظني أخطأ الكاتب في مسألة تناوله لقضايا القيادة بكثير من السطحية.

ولكنه أجاد في الردّ على شبهة المرحلة المكية بأسلوب جيّد، وأكثر من الاستدلال بأقوال العلماء، أن آية السيف ناسخة بالإجماع لآيات الصفح والعفو التي نزلت في مكة والتي أمرت المسلمين أن يكفوا أيديهم عن الكفّار، رغم أنه لم يُجب على استدلال المخالفين بقول ابن تيمية بتنوع استخدام الآيات حسب الظرف الزماني، كما يقول ابن تيمية: «**فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف: فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله، من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة: فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**»[٢].

لم يوفّق الكاتب في الرد على شبهة من زعم أن الجهاد محصور في جهاد الدفع. هناك آيات صريحة وكذلك إجماع الصحابة. كل هذا لم يتطرق إليه وسرد أقوالاً محتملةً للنبي ﷺ كقوله لقيصر (**أسلم تسلم**).

خرج الكاتب من الجدال الحاصل في مسألة حكم جند الطواغيت وخَلُصَ بحكمٍ هو وجوب قتالهم حتى وإن كان فيهم مسلمون. واستدلَّ بحديث أمِّ سَلَمة عن الجيش الذي يُخسف به. وقول ابن تيمية في شرح هذا الحديث وهذا ما ذهبت إليه وتبعته جماعة الجهاد المصرية لاحقاً ضمن بحث لها تحت عنوان (جهاد الطواغيت: سنة ربانية لا تتبدل).

---

[٢] الصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ٤١٣).

في حديثه عن فصل «خشية الفشل» كان يُفضّل أن يَذكُرَ الحديث الذي يَذكُرُ حال الأنبياء يوم القيامة عندما يأتي ولم يؤمن معه أحد من بني قومه، ويقول أن الشخص مطلوب أن يؤدي الذي عليه حتى وإن لم يستجب أحد أو يُحقق نجاحاً ماديًا.

كان من الأفضل أن يتوسّع في كلامه عن مسألة «البيعة» فهي أمر مهم جدًا، فكان عليه أن يقول: حتى وإن كانت بيعة الجماعات ليست بيعةَ إمامةٍ عُظمى فلا يعني هذا أن يتفلّت الشخص من أوامر أميره في المعروف.

هل الأطروحات في الكتاب هي متناسقة مع المدرسة الجهادية؟ إلى حد كبير نعم، الخطوط العريضة في الكتاب هي نفسها موجودة في المدرسة الجهادية كـ«الكفر بالطواغيت، ووجوب بل فرض قتال أجنادهم، توصيف الديار».

لم يوفّق الكاتب في مسألة سرد «جواز قتل الذراري تبعاً لا قصداً» وأتى بكلام عام للإمام النووي قد لا يؤدي المطلوب، ولو استدل بقول الإمام ابن حجر وابن قدامة وابن الأثير في الشرح لكان أفضل؛ فمقصودهم أوضح، فالأئمة عندما تتعارض ظواهر النصوص يجمعونَ بينها وقد جمعوا بين هذا النص، وبين نص حرمة قتالهم، قالوا في حالة عدم التمييز يجوز قتالهم تبعاً لا قصداً. وقد روي عن الصحابة أنهم رموا بعض المدن بالمنجنيق والله أعلم بصحة الروايات. وقد جمع الشيخ ناصر الفهد أقوال المذاهب الأربعة وغيرهم من غير المقلدين بجواز إحراق القرى وإغراقها بالذي فيها في فتواه (حكم استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد الكفار)، بل وقال أحدهم حتى وإن كان بينهم مسلمون، ومن أفضل التأصيلات التي قرأتها لهذه المسألة هو تفصيل هيئة كبار العلماء بالسعودية في أحد مجلداتهم!

أخطأ بعض الإعلاميين في نسبة محمد عبد السلام فرج إلى مذهب سيّد قطب، بل هو في نفس الكتاب يرد على أحد نظريات سيد قطب وهي نظرية «البعث» والتي تقوم على إنشاء نخبة ثم توسّع

قواعدها حتى تُهيمن على المجتمع، وهذه النظرية قد درسناها في الجامعة على يد أ.د سيد عمر. وأظن أنها ذكرتها زينب الغزالي في كتابها (أيام من حياتي)، ومن أتى بعد سيّد قطب وتأثروا بمنهجه، لديهم إشكالية (المرحلة المكية) وفي هذا الكتاب نسفها محمد عبد السلام فرج نسفًا! وللزيادة ارجع إلى مقدمة الدكتور هاني السباعي لرسالة (النوافح المسكية في نقش شبهة المرحلة المكية)، فلا أظن أن كلاهما يمثل طريقة واحدة في العمل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين [٣].

[٣] [ملاحظة: هذه القراءة هي أول كتاب ضمن السلسلة، ولكن التاريخ الأصلي غير موجود بسبب الحذف المتواصل لحساباتي في مواقع التواصل الاجتماعي، ولم ألحق على توثيقها مع التاريخ].

رواية: حكومة الظل

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: حكومة الظل.**
- **اسم المؤلف: منذر قباني.**
- **عدد الصفحات: ١٧٤.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

من المعلوم أن الحديث عن «الماسونية» بلغ الآفاق بسبب السلسلة الوثائقية (القادمون) التي بلغت ٥٢ حلقة، وخلاصتها أن كل شيء صغير وكبير في هذا العالم لا يتم إلا بمؤامرة وتخطيط من الماسونية! ومن انجذب إلى هذه الأطروحة فَقَدَ الأمل من أي تغير ولم يبقَ أمامه إلا المسايرة، ولكن هذه السلسلة صدرت عام ٢٠٠٩ والكتاب صدر في ٢٠٠٧، فهذه تُحسَب له، فلو كَتَبَ الكتاب بعد ٢٠٠٩ لقالوا أنه ركب الموجة وحاول أن يستغل حديث الناس.

أسلوب الروائي جميل جداً وأعجبني، وهو البساطة وسلاسة الطرح، وللأسف أن غالب إنتاجية المكاتب في وقتنا هذا تقوم على الروايات، فقذفت المكاتب أطناناً من الروايات لهواة ومبتدئين! غلب أسلوب بعضهم إلى التكلف الممقوت في صياغة الكلام، بل قد يبرز هذا الجانب على الجانب القصصي في حبكة القصة وترابط فصولها.

أبرز المؤلف أسلوب المؤامرة من قبل الماسونية في إسقاط الخلافة وإقامة ما يسمى بالكيان الصهيوني، وبل واستطاع أن يبرز أن لديهم من القوة ما يجعلهم يقتلون من يشاءون في الوقت الذي يشاءون! جميع هذه الصور وهذه المشاهد قد تُرسّخ في ذهن القارئ العجز والضعف هذا إن لم

تورث الجُبن والخَور، فلا بد من عمل موازنة تقتضي أن مواجهة هذه الجماعة ممكنة وهنالك طرق لذلك.

ولكن أنا شخصياً أحس أن المؤلف تورط في الكلام عن الماسونية! لأن إتمام القصة سوف يستلزم منه إيجاد ساحة معركة متكافئة بين نعيم الوزان وبين الماسونية، فكيف يمكن لشخص واحد لا يوجد ظهر يحميه أن يواجه ويُصارع منظمة تدير العالم؟!

الرواية رغم أنها طُبعت ٧ مرات على امتداد ٨ سنوات وربما قرأها الملايين إلا أنه لا يزال يوجد فيها خطأ مطبعي واضح! (انظر: الصفحة ١٥٤).

المشكلة التي تطرأ على بعض الروايات خلط المؤلف بين التفاصيل الحقيقية للجماعات والتنظيمات وما بين أحداث مصطنعة كتبها المؤلف في الرواية، وتمنيت لو سرد المؤلف معلومة خبرية تاريخية أن يوثقها في الهامش، والمعلومات التي من بنات أفكاره لا يضع لها توثيق، حتى لا يحصل أي تعارض، وقد قال لي أحد الأصحاب: «**أنا قرأت بعد رواية حكومة الظل كتاب فيصل الكاملي (اليسوعية والفاتيكان)... غيرت كثير من فهمي للرواية**».

حول تفاصيل الرواية:

ذكر المؤلف قصة شنق الدكتور عبد القادر لنفسه؛ ثم شك نعيم الوزان بحدوث أمر له! ولكن كيف يبقى الدكتور مشنوقًا يومًا كاملًا دون أن يحس حراس القصر والخدم والحاشية؟! الروائي عرض اعتراضًا وهو من جملة ما خمّن فيه نعيم وقال: «**هل يمكن أن الخدم كلهم في إجازة اليوم**» ولكن لم يجزم نعيم بهذا الأمر! بل مر التساؤل مرور الكرام دون أن يقطع المؤلف الشك باليقين.

ثانيًا: بيت الدكتور عبد القادر قصر كبير؛ هل من المنطقي عندما يتصل نعيم به من أمام بوابة القصر أن يسمع رنين هاتفه من داخل أحد الغرف في هذا القصر؛ ما هي رنّة هاتف هذا الدكتور التي يصل

مداها إلى خارج المنزل؟! لو كنت مكان المؤلف لقلت: «رأىٰ نعيم مصابيح منزل الدكتور عبد القادر مفتوحة رغم حلول النهار فساورت نعيم شكوك وتخيلات سوداوية فأراد أن يقطع الشك باليقين فأمر السائق أن يقفز ويفتح الباب» بدل ما قيل وذكر في هذه الجزئية بالذات!

البعض انتقد كون حل آخر أُحجية من رسالة الدكتور عبد القادر كان من خلال رؤية رآها نعيم في المنام! والانتقاد يكون صحيحًا إن حُلَّت جميع الأحجيات في الرسالة من خلال الرؤية، هنا الكلام قد يكون غير منطقي.

وفي النهاية هنالك قاعدة تندرج عليها كل روايات الغموض: افتعال الغموض في الرواية كاللعب بالنار، إن لم يستطع الروائي إخمادها بتفسير منطقي حرقت روايته.

٢٣ أغسطس ٢٠١٥م – ٩ ذو القعدة ١٤٣٦هـ

يسمعون حسيسها

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: يسمعون حسيسها.**
- **اسم المؤلف: أيمن العتوم.**
- **عدد الصفحات: ٣٦٨.**
- **دار النشر: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.**

التعليق والمناقشة:

هذه الرواية تتكلم عن قصة الدكتور إياد أسعد، وهو معتقل سابق في سجن تدمر بسورية، صاغها الروائي المبدع أيمن العتوم على لسانه، وقد ذكر الدكتور إياد في مقدمة الرواية أن هذه الرواية ليست مصطنعة الأحداث بل هي حقيقة الأحداث عاشها بنفسه في السجن.

وأغلب من قضى دهرًا من السجون يحاول السكوت عن ما لاقى احتسابًا للأجر وإن تكلمَ تكلمَ بالكلام العام المجمل المختصر الذي لا يصلح لتوصيف معاناة حقيقة، ولكن صاحبنا الدكتور إياد أسعد استفرغ ذرات عقله حتى يتذكر كل ما لاقى وشاهد وشهد. وصَوَّر التعذيب والعذاب في سجون الأمن في سورية قد يعدها القارئ الذي لا يملك الخلفية السياسية حول أنظمة الحكم في بلادنا العربية ضربًا من المبالغة وتهويلًا لضنك الحياة في مقابر الأحياء! ولكن تضافر الروايات وتواترها وكثرتها جعلتها تصل إلى مرحلة الثبوت، فالعديد الذين كتبوا روايات حول سجون سورية تشابهت أقوالهم حول أدوات التعذيب!

حقيقةً لا أنسى المبدع أيمن العتوم صاحب القلم السيال والبلاغة التعبيرية! شخص تستلذ بقراءة توصيفه للمشاعر وللمشاهد! هو نموذج مثالي للأدبي المطبوع لا المصنوع المتكلف.

الرواية حَوَتْ معانيَ عدَّة؛ وهي نموذج جيّد لمعرفة نفسيات البشر في مواطن الشدة والرجاء، وكذلك روابط العلاقة النفسية ما بين السجين والسجان! حَوَتْ فوائدَ جمّة، ولكن أكتفي بواحدةٍ وهي عن قضية استخراج المعلومة باللين إن عجزت القوة عملًا بسياسة العصا والجزرة؛ فالمثل الدارج يقول: إن لم تأتي باللين أتيناك بالقوة! ولكن حتى هذا المثل قابل للانعكاس فيصبح إن لم تأتي بالقوة أتيناك باللين!

تكلم أيمن العتوم في كتابه (يسمعون حسيسها) عن قصة المعتقل إياد أسعد التي سردها على أيمن فخرج بهذا الكتاب. وتكلم إياد أسعد أن ضراوة التعذيب في السجون السورية؛ تُفتت حتى الحجر! ونادرًا ما يُبدي الشخص مقاومة جراء هذا السيل اللا منتهي من التعذيب، إلا شخصاً كان استثنائياً بحق وهو محمود الفحّام، وكان من تنظيم الإخوان، وقد عُذِّب ولم يهمس بحرف! فلم يكن محمود سهلًا، ولكنهم لم يكونوا أسهل منه؛ كيف سحبوا المعلومات منه؟! أدخلوا في الزنزانة التي بجانبه صديقاً له في التنظيم، وكان هنالك ثقبٌ متعمد بين الزنزانتين، فتكلم الصديق الجاسوس إلى محمود، وتوثّق محمود أنه فعلًا هو، وقال له: «**الحمقى صدّقوا أن لم تكن هنالك علاقة تربطني بتنظيم الإخوان وسوف أخرج بعد يومين! هل تريد أن أوصل شيئًا إلى الجماعة؟!**» فقال له نعم: « **أريد أن توصل بعض المعلومات إلى فلان وفلان وفلان**». فقال له: «**اسمع أنا أخاف أن أنسى أسمائهم بسبب التعذيب، فالتعذيب يُذهب العقل! ما رأيك أن تكتب ما تريد على ورقة؟!**» فخلصوا إلى أن يكتب المعلومات على «ليرة» موجودة عند أحدهم، وقد وقع محمود في الفخ واستخرجت الليرة المعلومات فيما عجزت عنها سياط التعذيب؛ فقال أيمن العتوم واصفًا الحال: «**كسب الجولات جميعها، ولكنه تعثّر وهو يتقدم إلى خط النهاية!**» فلما تمت مواجهته بالليرة «**ففقد محمودٌ لسانَه، وظل صامتًا كأن ذلك اللسان انعقد بحبل إلى السلسلة، أما عيناه فظلّتا مُعلّقَتَيْن بالليرة في شرودٍ طويل، وأمّا عَقله فشعر أنه تبخّر في ثانية واحدة، وصار يَهذي دون أن يَدري: أنا حْمار... أنا حْمار... أنا حْمار**». فلم

يمكث طويلًا، فلم يكن ليبقى حيًا إلا بسبب هذه المعلومات، وأما وقد حُصل عليها! فلم تكن لحياته أي قيمة، فأُعدم بعدها شنقًا.

«كان عظيمًا، ولكن عظمته انتهت عند الليرة ذات القيمة الأقل في تاريخ حياته... كان شُجاعًا، ولكنّ شجاعتهُ خانته وهو ينهار أمام حروفه التي صاغ منها أسماء أعز الناس إليه، وشعر أنه خانهم خيانةً لا يمكن أن يغتفرها لنفسه ولو ظل يستميحهم طوال حياته».

كما لا أنسى أن هذه الرواية تحتاج إلى قوة قلب، لا أقول لقراءة لحظات التعذيب الجسدي ولكن حين قراءة لحظات التعذيب النفسي فهي أشدُّ وأنكى؛ فاليأس والعجْز بكل صوره سوف تراه في هذه الرواية، وسوف ترى نفوساً غاية في الانسحاق! تُفَضِّلُ وتُقْدِمُ على الموت نيابةً عن التعذيب؛ تفقد عقلها وتجن، وتموت قهرًا وكمدًا دون الإعدام والتعذيب!!

٦ سبتمبر ٢٠١٥م - ٢٣ ذو القعدة ١٤٣٦هـ

رواية: وطن

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: وطن.**
- **اسم المؤلف: محمد بن صالح الشمراني.**
- **عدد الصفحات: ٣٠٢.**
- **دار النشر: منتدى المعارف.**

التعليق والمناقشة:

تدور أحداث القصة عن ناشط إعلامي يدعىٰ فهد التركي، يتكلم عن قضايا الفساد والبطالة وأصبح ممن يُحرّك الرأي العام في تويتر ببلاده، التجأت إليه أحد سيدات الأعمال التي طُردت من وظيفتها، ولكن قبل أن تُطرد سحبت معها الوثائق الرسمية التي تثبت فساد هذه المؤسسة وعن إقامة مشاريع وهمية أو مشاريع بقيمة أقل من تكلفتها، ثم تبدأ الحرب بين أرباب الفساد وبين فهد التركي في شِقّين «العالم الحقيقي والافتراضي» لإسكاته وإخضاعه.

وفي ظني أن رواية (وطن) فيها شيء مُستغرب من الجرأة في الطرح؛ لأن أغلب المنشغلين بالجانب السياسي أو بالقضايا الحقوقية في السعودية وبالأخص الإسلاميين تجد أن انتقاداتهم موَّجهة للخارج أكثر من الداخل! طبعًا والسبب معروف وهو طلب السلامة وأنهم يرون أنفسهم غير مستعدين لتحمل تبعات هذا النقد أو المطالبة بالحقوق الشرعية التي تكفلها لهم الدولة، لذلك طَرْحُ محمد بن صالح الشمراني في بداية الرواية في ظني الشخصي أَحْدَثَ نقلةً نوعيةً، فَضَمَّنَ النصَّ الروائيَّ قام بتوثيق جملة من المعلومات المتعلقة بإحصائيات أو دراسة تتكلم عن مستوىٰ الفقر ومستوىٰ البطالة والفساد وعن تصنيف السعودية بين الدول في متوسط الدخل ونحو ذلك، فبيّن أن ما يذكره ضمن الرواية ليست من بنات أفكاره، بل هي معلومات حقيقية لواقع مرير. هذه المقدمة بنىٰ عليها المؤلف

تعليلًا لتنشئة نفسية المعارض (أمثال: مجتهد والذي سماه في الرواية بمجهد)، وأن وجود أمثال هذه الشخصيات مرتبط بالضرورة بالفساد الحاصل، فتلازم تواجد هؤلاء مع وجود الفساد ثبوتًا وعدمًا! فإنهاء هؤلاء يكون بالتوازي مع إنهاء الفساد.

أوجد محمد بن صالح الشمراني إيقاعًا متناغمًا في سيكولوجيا الصراع ما بين الحكومة والمعارض! أي الطرق الأكثر نكايةً في هذا الصراع؟ وما تبعات هذه المعارضة؟ (سمعة، روح، أهل وأقارب، سجن)، جميع هذه أدوات ضغط استخدمت في توضيح مآلات هذا الصراع، وأحسن الروائي حينما استخدمها في الرواية لأنها تجعل نفس القارئ تندمج مع الرواية خوفًا وترقبًا... وغالبًا عندما يصبح الشخص معارضًا ويدخل في مواجهة وجهة بوجهة مع الجهة الفاسدة دون استعداد نفسي، إلا وتساوره الشكوك وتحوم حوله، ويفقد الثقة بكل من حوله، وما يفتئ يتساءل: أهم معي أم أصبحوا جواسيس ضدي؟! هذه النقطة تُتعب الشخص وتشتت تركيزه وتجعله يدخل في دوامة لا نهاية لها! حتى تستقر في النهاية إلى أن يفقد الشخص ثقته بنفسه... وهذه الركيزة قد جعلها المؤلف أُس من أساسيات الصراع في الرواية.

هنالك بعض الروايات الغاية منها التشويق والإثارة ولكن في المحصلة خاوية الهدف. والمتتبع لروايات محمد بن صالح الشمراني ترى أن أغلب رواياته يريد إيصال رسالة معيّنة، تلميحًا وتصريحًا، وهذا النوع هو أعلى درجة قطعًا. لأن قراءتها لا تكون مجرد ضياع وقت وقتلًا للملل... والرسالة هذه رسالة توعوية، تكون النصوص الروائية داعمةً لها. وبذلك هو وظف الرواية في خدمة الفكرة.

بعد الانتهاء من الرواية: يظهر لي أن المؤلف في النهاية ماشى هؤلاء الفاسدين، وبيّن أن مآل أي منافحة عن حقوق المسلوبين هو السجن وتدمير السمعة! وقد أعطى أكبر حُقنة لتخدير القارئ وتخويفه! ربما وصل إلى هذه النتيجة لأن هذا هو الواقع في بلاده، أو أنه خاف أن توَّجه الأنظار إليه

بعد الرواية من قبل الجهات الأمنية فحاول قدر المستطاع أن يصل إلى نتيجة مرضية من قبل كل الأطراف، وتقييمي للرواية قبل النهاية ٧ ولكن بعد النهاية ٥.

ولا أنسى أن العلاقة التي صنعها المؤلف ما بين فهد التركي وزوجته ملاك، غاية في الجمال، وإن قد هدمها بشكل فجائي في منتصف الرواية وثم أصبحت شخصية ملاك شخصية أقرب إلى الشخصية الفرعية بعد المنتصف، إلا أنه حاول أن يلملم هذا الهدم في نهاية الرواية بكلمات مؤثرة للغاية! فما أجمل طُهرية الحب!

أنهى المؤلف الرواية دون توضيح لمصير بعض الشخصيات، مما جعل النهاية وكأنها تبدو مفتوحه نوعًا ما...

رغم أن النهاية فيها شيء من الواقعية لذلك قلت: «ربما وصل إلى هذه النتيجة لأن هذا هو الواقع في بلاده»، ولكن المؤلف تفنّن في تفتيت وتدمير شخصية البطل على امتداد القصة، فكل من تحمّس وحاول أن يمشي على نهجه في محاربة الفساد سوف يتوقف! ويقول كما قال المؤلف عن تصوّر البطل في الصفحة ١٣٧: «**منذ سنوات وهو يتحدث ويصرخ في وجه الظلام ولم يتغير شيء، فكر بأن يعتزل كل ذلك، وأن يعيش هانئًا في عشّه الصغير وأن يهتم بملاكه**» فمن باب أولى أن يعتزل المرء وهو يرى أن مآل نضاله تدمير السمعة والاعتقال والنسيان، فضلًا عن عدم تغير شيء.

والكلام عن الجهد الجماعي - لا الفردي - صحيح، لذلك ذكر مقولة التونسي أحمد الحفناوي في آواخر الكتاب، وكأنه يقول أن التغيّر الذي يصنع الفارق هو التغير الجماعي الذي جعل مثل هذا التونسي يقول هذا الكلام.

تعليق المؤلف محمد بن صالح الشمراني على مراجعتي:

«سَعدتُ جدًا بالاطّلاع على قراءتك الناقدة، وأتشرف بالتعرف على أصدقاء الثقافة والقلم، ولا مكان للاعتذار أبدًا، بالعكس أهتم كثيرًا بالنقد الموجه أكثر من الإطراء، استفدت من قراءتكم الرصينة فلك الشكر... كل الود».

اقتباسات من الرواية:

- **«كان يعتقد دومًا؛ أن أعظم القلوب: هي تلك التي لا تنام، بل تُفني نبضها من أجل المحاماة عن المهمَّشين، عن الرازحين تحت الظلم، ومع ذلك تظل تتلقى الضربات منفردة، حتى تموت أو تنتصر». صـ٧٩.**
- **«بين خيام الفقراء ... يولد البؤس، ويَشبّ بين رحالهم، ثم يظل طيلة أيامه يبتز دمعات الصغار، ليريق بعدها مياه الكبار، ثم لا يُغادرهم .. إلا إلى حيث أضرحتهم». صـ٩٥.**
- **«السرقات المليارية تتمدد في الأزمة الساكنة، في أجواء الصمت، تحت أفياء الخوف، ولا تنحسر إلا حينما يرتفع الصخب، وتتعالى أصوات الضجيج، خُلق الفساد عاريًا، لذلك لا يستطيع أن ينتشر إلا في الظلام، ليستر شيئًا من سوءته، هل عرف الناس سارقًا يعاقر جُرمه وسط النهار؟!» صـ١١١.**
- **«بعض الجراح، يغمرها النسيان، ويجتثّ حتى تشوهاتها الصغيرة، إلا أن جرح الخيانة لا يموت، ولا يلتئم، يظل ساقي الحزن يتعاهده، كل ليلة، يجعله ينزف حتى يحين موعد التلف الأخير!» صـ١١٥.**

- «الحب لا يعيش إلا منفردًا، خُلق ليكون في عزلة، فإذا جاورته البغضاء أو الشك؛ انسحب في صمت، وارتحل إلى مكان قَصِيّ ليبني مسكنه من جديد، أو يموت وحيدًا». صـ١٢٥.
- «أثقل ما يكون الحب؛ حينما يكون شِقُّه مائلًا، يتحمل أحد الطرفين جميع الأعباء والتضحيات، ثم بعد ذلك... يظل يتلقّى صرخات التخوين كلما فكر في فك رباط هذا الاشتباك الجائر!» صـ١٣٧.
- «الشك أقوى من الحب، وإذا لامس يومًا قلوب المحبين، أمات فيها كل شيءٍ جميل». صـ١٤٢.
- «السارق... يتذكر تفاصيل سرقته الأولى؛ الرهبة، تأنيب الضمير، تفاصيل انكسار الفطرة، ثم بعد ذلك... ينسى، ويظل يألفها وتألفه». صـ١٥١.
- «أنْ يتسرب الشك إلى الدائرة الضيقة من الأصدقاء، فهذا يعني أن يفقد الإنسان الثقة حتى في نفسه». صـ٢١١.
- «الانتظار؛ من أكثر لحظات العمر مرارةً، يتباطأ فيها الزمن، وتستثار فيها المخاوف والذكريات». صـ٢١٦.
- «أصعب ما يكون الرحيل؛ حينما يكون خَلِيًا من وعود التلاقي، مُحاطًا بأمارات اليأس». صـ٢٧٤.
- «اليد التي استمرأت الخيانة لا يشبعها أي شيء أبدًا». صـ٢٨١.

٩ أكتوبر ٢٠١٥م - ٢٦ ذو الحجة ١٤٣٦هـ

رواية: جانجي

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: جانجي.**
- **اسم المؤلف: طاهر أحمد الزهراني.**
- **عدد الصفحات: ١٨٨.**
- **دار النشر: رياض الريس للكتب والنشر.**

التعليق والمناقشة:

هي رواية كانت ممنوعة إلى أمد معيّن، أُس الرواية يتكلم عن معنى الأُخوّة أو الصداقة، وإن كنت أرى أن طاهر قد بالغ أو أخرج هذه الصداقة من إطارها الطبيعي - حتى يتخيل للقارئ أنها وصلت إلى مرحلة الشذوذ - كما وصفها هو في مقدمة روايته. والرواية تتكلم عن المعتقل السابق في غوانتنامو خالد القرشي وعن علاقته بصاحب الرواية طاهر الزهراني، مع التأكيد أن مرجع الأحداث المسرودة في الرواية قصةً أحداث القلعة في جانجي قد استقاها المؤلف من المعتقل نفسه؛ فقد ذكر في تويتر أنه التقى به بعد الإفراج عنه، وأحداث القلعة وإن كانت قد احتوت على جزء ضئيل من مجموع الرواية إلا أنها أوجدت ٣ وجوه في مقابل رواية وليد محمد الحاج في كتابه (مذبحة القلعة) ألا وهي:

١. موافقة رواية وليد.
٢. معارضتها
٣. التكلم عن شيء وليد لم يتكلم عنه.

وقد تناقشت مع صاحب الرواية في تويتر حول إشكالية أو معضلة الاستشهاد بالرواية على أنها مرجعٌ معتبر للمعلومة! فهو يقول أن الأصل صحيح ولكن توجد بعض الزيادات الحوارية التي هي من أجل الصنعة الروائية. وهذه المشكلة التي تجعلك «دائمًا» تتوجس في قبول أي معلومةٍ عامةٍ أو ثقافيةٍ في أي رواية مالم يضع المؤلف هامشاً لها بالتدليل عليها بمرجع أو مصدر معين، (كما صنع غازي القصيبي مثلًا مع روايته: الجنية) أو أن تكون الرواية ذات أحداث حقيقة بنسبة مئةٍ بالمئة فتغنيك عن هذا التردد.

في ظني أن الرواية قد تطرقت إلى أمر مهم ألا وهو لا يمكن أن ينفصل الشخص عن ماضيه مهما التزم وسلك مسلكًا معينًا، وإن كانت بعض الشخصيات القابعة في ماضي الشخص قد تجد بعض المعضلات في تقبل هذا الشخص لها بعد تغيره، أنا هنا أتساءل ولا أُجيب إذ ذكر المؤلف بعض الشواهد في روايته كقصة تلك الفتاة الوفية التي لم تستطع أن تنسى ذلك الرجل!

الرواية قصيرة، تقع في قرابة ١٩٠ صفحة، وقد رأيت انتقادات لها من بعض محبي الروائي لأن الرواية طبع عليها الطابع البسيط وليس الأدبي المركّز كما هو معهود من الكاتب، أنا أستطيع أن أقيمها بـ٤/ ١٠، لأنها أولًا شهادة تاريخية لحدث كبير لم يشهده إلا قلة قليلة.

٣١ ديسمبر ٢٠١٥م – ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٧هـ

رواية: مزرعة الحيوان

المعلومات العامة:

- اسم الرواية: مزرعة الحيوان.
- اسم المؤلف: جورج أورويل.
- اسم المترجم: محمد العريمي.
- عدد الصفحات: ١٨٥.
- دار النشر: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.

التعليق والمناقشة:

رواية (مزرعة الحيوان) لجورج أورويل أفضل رواية قرأتها حتىٰ الآن علىٰ قصرها، وينصح قادة العمل الإسلامي بقراءتها؛ فبعض القيادات تتأثر من سلوك الحكومات في البطش بها؛ فتعيد صياغة هذا البطش تحت مسمياتٍ أخرىٰ إن وصلت إلىٰ سدة الحكم وتمكّنت من خصومها، فبعض مناصري الجماعات لا يرفض الظلم المنصوص شرعًا كونه قيمة مرفوضة بحد ذاتها، وإنما يرفضه علىٰ حساب الشخص الذي يمارسه، إن كان يكرهه فينكره وإن كان يحبه فسوف يُقرُّه ويقول نفس الأقوال التي يُنكرها علىٰ المرقعين لمن يكرهه.

الرواية تذكر مشكلة تسرب الاستبداد إلىٰ النخب الثائرة ضد الاستبداد نفسه، فتعيد تشكيله من جديد بصور مختلفة وبشكل تدريجي...

استخدم الكاتب أسلوب الكناية في روايته وترك مجال الاستنتاج إلىٰ القارئ (وهنا يستطيع القارئ أن يختبر ذكائه في تفكيك الرسائل التي وضعها المؤلف في ما بين السطور) وناقش مشكلة أخرىٰ وهي مدىٰ صمود المبادئ أمام ضغوط الواقع، فتتحول الدولة تلقائيًا إلىٰ دولة براغماتية. تغلب فيها

المصلحة على المبدأ. وأظن أنه قصد بذلك الاحتياط في وضع المبادئ الأساسية للدولة مع وضع المخارج لها عند الحاجة، دون التزمت حتى لا يضع الشخص نفسه أمام حرج في المستقبل.

الجميل في الرواية الدمج بين علم النفس والسياسة في قالب واحد جميل، تعلم من خلالها أن مداخل النفوس واحدة، وأن الاستبداد سيرته واحدة، وحجته واحدة وإن تغيرت الشخصيات أو الشعارات التي ترفع، من قرأ الرواية يظن أن المؤلف قد أطلع على العالم العربي فكتبها بينما الرواية قديمة وقد كتبت قبل أن تستقل الدول العربية من الاستعمار ظاهريًا.

أسهمت الرواية أيضًا ولو بشكلٍ جزئي في التصديق على أن باب «الرواية» ليس ساحة خلفية للاستجمام، وإنما قد تُؤصّل وتُؤطّر بعض الأفكار عند المتلقي وتغيّر شيئًا من القناعات، وتحديداً عندما يستخدم المؤلف سيف الحجج ولا يكتفي بحسن الصياغة والبلاغة.

تقييمي لها: ٩/ ١٠.

٣٠ يناير ٢٠١٦م - ٢٠ ربيع الثاني ١٤٣٧هـ.

رواية: الخيميائي

المعلومات العامة:

- اسم الرواية: الخيميائي.
- اسم المؤلف: باولو كويليو.
- اسم المترجم: جواد صيداوي.
- عدد الصفحات: ١٩٧.
- دار النشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

التعليق والمناقشة:

وقفت على رواية من أشهر الروايات العالمية، (الخيميائي) لباولو كويلو، الطريف أن دار النشر شركة المطبوعات قد اشترت حقوق الترجمة، وقد أصدرت حتى العام الماضي ٣١ طبعة لنفس الرواية!

وقد خصّهم المؤلف باولو كويلو بمقدمة قد كتبها زيادةً عن أصل الرواية، خصّ بها هذه الدار لأنها اشترت الحقوق منه بشكلٍ رسمي، وبذلك أعطاها أفضليةً على النسخ المترجمة الأخرى والتي ربما تجاوزت قضية الحقوق، وهنالك العديد ممن يفضّلون قراءة الرواية تحت ترجمة بهاء طاهر مع العلم أني عندما حاولت أن أُقارن بين النسختين وجدت أن هنالك ثمّة زيادة ملحوظة في نسخة المطبوعات.

ويظهر لي أيضًا أن المؤلف بولو كويلو قد استلّ أو - بلفظ أدق - استوحى روايته من قصص ألف ليلة وليلة العربية، والكاتب كما يظهر لديه اطلاع على الإرث الأدبي العربي؛ وهذا يتجلى في تقديمه

للرواية؛ ويتبين أيضًا من روايته الأخرىٰ التي لا تقل شهرةً عن الخيميائي وهي (زهير) وهي مستوحاة أيضًا من الأدب العربي.

وروايته هذه - أي الخيميائي - هي إحدىٰ الروايات المشهورة عالميًا وقد دخلت موسوعة غينيس لأكثر كتاب مترجم علىٰ قيد الحياة!

القصة التي عرضتها الرواية تتكلم عن راعي أغنام يدعىٰ سنتياغو كان يعيش حياة بسيطة في الرعي والتنقل بين البلدان، وفجأة - بسبب أمور حصلت له - قرر أن يذهب إلىٰ الأهرامات في مصر حتىٰ يحصل علىٰ كنز قد نبئ بأنه من نصيبه (ربما التلخيص الظاهري لا يَجذب).

الرواية تتكلم عن أمور عدة، وقد أعطت أولوية لقضية القدر ثم تفرعت في معانٍ عامة دون الإسهاب في ربطها ببعض كقضايا (التأمل، الحكمة، صراع النفس، الهدف، الغاية من الوجود)، بمعنىٰ قد تجعلك أكثر دقة وتأمل في مجريات الحياة؛ فغرض الرواية متعدٍ إلىٰ شخص القارئ نفسه؛ ولا تقف عند حد الرف في المكتبة.

ومسطرة القارئ في هذه الرواية هي محاكاة المعاني علىٰ واقعه الشخصي.

ومن جميل ما تُكلم به في القدر في هذه الرواية؛ هي خوف عدم الارتباط أو الاقتران بالشطر الآخر الذي تثبت به؛ و أن لا تقلق علىٰ فقدانك لبعض الأمور أثناء السعي لتحقيق غايتك؛ فالحرص عليها عائق، والقدر هو الحكم في اللقاء المترقب.

وما تكلم عنه الروائي عن ما يسمىٰ بـ«الإشارات»، هو ما يسمىٰ بـ«استشعار التوفيق» ومن صوره انشراح الصدر لأمر ما، أو رؤية يراها، فالاستخارة هي الممهدة لحدوثها ونتيجة ذلك انغلاق أو انشراح الصدر، ولكن هذا الأمر سيف ذو حدين في التعامل معه، الإشارات في الكثير من الأحيان

تندرج في خانة الاستئناس – وهي أمر زائد على الدليل –، وليست دليلًا مستقلًا، فهنالك من جعلها في خانة الدليل، فظن أنه المهدي أو أنه رسول مرسل.

أيضًا تعامل الفتى مع مصطلحات ومقولات الملك فيه شيء من السذاجة، وهو إركانها في «خانة» ما هو مقطوع به دون النظر والتأمل بمدلولاته، فمن الأمور التي أعانت الفتى في مسيرته مقولة الملك «**إذا رغبت في شيء... فإن العالم كله يطاوعك لتحقيق رغبتك**»، صحيح أن هذه العبارة تَشحذُ الهِمم، ولكن لو نظرنا إليها على الحقيقة، لرأينا أنها مجانبة للصواب، فكل الذين خسروا تجارتهم وأصبحوا مديونين كانوا يريدون تحقيق الربح، فلو كان مجرد رغبتهم مناط يحقق الهدف لما كان هنالك خاسر.

وكنت أستبطأ المشي بالرواية؛ لأنها تحتاج إلى كثير تأمل وتفكيك، فالنصوص ملغمة، قد يطغى المعنى على السرد القصصي كثيرًا؛ أقصد أن المؤلف يترك سرد الأحداث ويسلط الضوء على مناقشة الفتى لنفسه في بعض القضايا! أو أن تكون نصوص الحوار فلسفية. ثم عمل الروائي مقارنة بديعة في خاتمة الرواية في إظهار الفارق بين أخذك الأمر بعد عناء، وبين أخذك إياه بالساهل.

فخلاصة الرواية هي يُنصح بها من كان على شفا جرف هار من اليأس والقنوط، ليتزوّد بالأمل، وكيف أن الرغبة والهدف الواضح هما معولان للوصول إلى غايتك.

تقيمي: ٧/ ١٠.

تعليق على أحدهم: حقيقةً رواية الخيميائي ندمتُ عندما قيّمتها بتقييمٍ مجحف كما ندمت عندما قيمت القصة اليابانية المصورة (Monster). مع مرور الوقت يتبين أثر هذه الرواية وما تتركه على الشخص.

أنا قلت أن «القصة في ظاهرها سطحي شخص يبحث عن كنز» وفي طياتها أمور كثيرة جدًا تدعوا إلى الهيمان في بحر التأمل والاستغراق فيه. ربما توجد قضايا كالسيف ذو حدين، تركيز الرواية على موضوع القدر قد يجعل الشخص يتخبط فيه بشكل يقدح من عقيدته أو تجعله يبحث عن هذا الموضوع أكثر في طيات المعتقد. فيحصل له تحصين وسعة معرفية أكثر.

- بخصوص ما ذكرتَ عن قصة خسارة الأموال ثم البدء من جديد أنا أستفدتُ أمرين:

١. أن الشخص التجاري لا بد أن يكون مقامرًا أو - بلفظ أدق - مجازفًا بحيث لا يجعل من نفسه نسخة مكرره من المحلات في السوق. بل لا بد أن يخاطر بالإتيان بالشيء الجديد، لأن هذا الجديد هو الذي سوف يكسر الروتين (الحالة السائدة)، وأن يستفيد الشخص التجاري من الموقع الجغرافي في توظيفه لصالح المشروع، أي لا يكون شخصًا جامدًا، وهذه المقامرة يجب أن تقيد بقيد وهو أن تضمن الحد الأدنى من السلامة. (لو فشل الراعي في ابتكاره فلن يخسر شيئًا أو لن تتضاعف عليه الديون).

٢. عند السفر وفي أماكن الغربة فكر بالأسوأ دائمًا، كلما فكرت بالأسوأ كلما قلّت الخطوات غير الضرورية، لو فكر الراعي بالأسوأ عندما أعطى شخصًا مجهولًا أمواله عند إعطائها إياه فلن يُقدِمَ قطعًا على هذه الخطوة. بل سوف يكون محتاطًا في الكثير من الخطوات.

وهنا دعني أذكر لك قصة حصلت بعدما أعطيت الرواية أحد الأصحاب: قد راسلتني فتاة أجنبية، تقول أنها تريد أن تُسلم ونحو ذلك ولكنها كانت كثيرة الكلام... فقلت لصاحبي عن هذا، فقال كُن كما كان ذلك الشخص المذكور في الرواية الذي دخل القصر وحاول أن يجمع ما بين رؤية القصر وما بين أن يُبقي الملعقة في فمه، فعمل موازنة... فأنت كذلك وازن ما بين الاحتياط في المراسلة وما بين الدعوة. فكان التشبيه عجيبًا...!

١ مارس ٢٠١٦م - ٢٢ جمادى الأول ١٤٣٧هـ

رواية: عودة الغائب

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: عودة الغائب.**
- **اسم المؤلف: منذر القباني.**
- **عدد الصفحات: ٢٧٩.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

الفكرة العامة لهذه الرواية هي أن الأحداث المصيرية في الماضي لها انعكاس حاضر في واقعك الحالي، والفكرة الخاصة: أن توجد بعض الطوائف قد تتعرض لإبادة ولأجل إبقاء كيانها يُعلن من تبقىٰ منها الانضمام إلىٰ كيان أكبر، ثم تبدأ هذه المجموعات بالتدرج في هذه الطائفة الكبرىٰ بتحريف معتقداتها، حتىٰ تمتطي الأقلية الأغلبية في هذه الطائفة، وضرب الكاتب مثالًا مجموعةَ «الحشاشين» الذين حاولوا تصفية صلاح الدين الأيوبي ثم وجّهوا بحرب الإبادة جعلتهم ينضمون إلىٰ الإسماعيلية ثم أثّروا في هذه الطائفة وابتدعوا أموراً جديدةً فيها.

السرد التاريخي في تعارض وتوافق الحضارات وتفرغها عن بعض جيّد وجميل، ولكن الأستاذ منذر القباني لديه عيب وهو عدم توثيق هذه المعلومات تاريخيًا، بحيث تكون روايته «سرداً قصصياً» يُضاف إليها «درسٌ تاريخي» بذكر المعلومة في الهامش، والكاتب - في ظني - تكلم عن نقطتين مهمتين، وهما:

١. أن بعض الدعاة يَنفع معهم القوة الخشنة (الاعتقال أو الكبت) ولكن بعض الدعاة استخدام القوة الخشنة معهم يزيد من شعبيتهم ويجعل الموضوع خارج سيطرة القوة المتنفذة، فيلجؤون إلىٰ

أسلوب القوة الناعمة، فلسفة هذا الأسلوب هو غمس هذه الدعاية في الملذات، وإن وصل إلى مرحلة اللاعودة؛ سوف يضحي بكل شيء لأجل أن يبقى في دائرة الملذات، وهذه التضحية واستخدام الدين لأجل الدنيا؛ سوف تسقطه من أعين الناس، بل وسوف تجعل الناس تفقد ثقتها بأي دعوة مشابهة لدعوته.

٢. أن البعض يتعامل مع المسلم وكأنه قنبلة موقوتة، فمهما كان هذا الشخص المنسوب إلى الإسلام داخلًا في مشاريع تهدم الإسلام، إلا أنه يبقى غير ثقة بسبب هويته أو بيئته المحيطة به. فبسبب هذه الهوية أو البيئة قد ينقلب بين ليلةٍ وضحاها إلى شخص متدين، ثم يكون أثره سلبياً على هذا المشروع الذي يعمل فيه والذي يريد أن يقوض من هيمنة الإسلام على المجتمع، وقلت: لذلك بعض الدول الغربية تتخوف من المسلمين في بلادها وتتجسس عليهم؛ لأن المنطق الأمني يقول: «استبق التهديد قبل أن يتشكل»، فهم يخافون أن أحد هؤلاء المسلمين قد ينقلب بين ليلة وضحاها بسبب هويته وبيته إلى «إرهابي» يُهدد أمنهم وهذا تعليل مفهوم لهذا السلوك العنهجي من قبل دول «الحريات» كدول الغرب.

ملاحظة: بعض الكتّاب وبالأخص كتّاب الروايات البوليسية يحتاجون لأن يقرأوا مباشرة من الأطروحات الأمنية التي تبثّها الجماعات المسلحة أو حتى في مذكرات ضباط الاستخبارات حتى يكتشفوا الأخطاء الأبجدية الفادحة التي يقعون فيها وهم يصيغون النصوص المتعلقة بالإجراءات الأمنية المتبعة من قبل أشخاص من المفترض أن يكونوا ذو حصانة أمنية متينة في القصة.

والحديث بشكل عام عن الرواية؛ فهي تتمة لرواية (حكومة الظل) وواضح أن المؤلف قد شَعَّب القصص ولكن لم يُحسن إنهائها واغلاقها فالقارئ لم يشف غليله ويقتل الفضول الموجود فيه، فضلًا أنه جعل النهاية مفتوحة، وهذا يمهد لجزء جديد مُكمل للرواية. (تقيمي: ٦.٥/ ١٠).

٢٠ مارس ٢٠١٦م – ١١ جمادى الآخر ١٤٣٧هـ

القائد العزيز

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: القائد العزيز.**
- **اسم المؤلف: جانغ جين – سونغ.**
- **عدد الصفحات: ٣٣٥.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب من أفضل الكتب التي قرأتها في عام ٢٠١٦ وأفضلها في بابه، وهو يتكلم عن قصة منشق عن النظام الكوري الشمالي، وهذا المنشق كان يعمل في مكان وجهاز سري من أجهزة الدولة، فلما خرج نشر الكثير من أسرار هذه الدولة، رغم انشقاقه قبل عشر سنوات إلا أن القناة الكورية الشمالية الرسمية ما زالت إلى وقت قريب تكرر تهديداتها له، وأثناء قراءتي لهذا الكتاب لازمني حديث ابن عباس الموجود في الترمذي: (**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**)[٤].

الذي توجد لديه هوامش من الحرية لن يعرف قيمتها بمثل الشخص الذي لم يكن يستطع أن يتنفسها، فانعتاق الثاني يختلف بكثير عن انعتاق الأول، وجميل ما اختتم بِهِ كتابه حيث قال بمعناه إن اكتفاء الفرد بتحرره هو ضرب من ضروب الأنانية، وإنما السعي والاستمرار لتحرير الآخرين – رغم أدوات ووسائل التهديد – لأن بذلك فقط تُريح ضميرك.

[٤] رواه الترمذي وصححهُ الألباني في صحيح الترمذي (٢٥١٦).

المشاكل التي واجهتها في هذه الكتاب تتمثّل في أسمائهم الصعبة والتي قد تتكرر كثيرًا في الكتاب والتي بسبب تشابهها قد تخلط بين الشخصيات أحيانًا، والثقافة الكورية أيضًا فيها أمور قد لا تكون مفهومة كثيرًا وتلقي هذه الثقافة بظلالها على التصرفات وردود الأفعال ولا يقوم الكاتب بشرحها إلا في بعض الأحيان.

٢٥ مارس ٢٠١٦ م – ١٦ جمادى الآخر ١٤٣٧ هـ

شذرات من أقبية الأبالسة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: شذرات من أقبية الأبالسة.**
- **اسم المؤلف: بلا اسم.**
- **عدد الصفحات: ١٣٠.**
- **دار النشر: نخبة الإعلام الجهادي.**

التعليق والمناقشة:

شذرات من أقبية الأبالسة؛ هي مذكرات صيغت بشكل أدبي فغدت وكأنها رواية، وقد كتبها معتقل مغربي معروف داخل الأوساط الإسلامية، وتقع في ١٣٠ صفحة فقط.

الغريب أن هذه الرواية لها انعكاس مؤثر على أرض الواقع، فعندما نُشرت لاقت صدًى أفضى في النهاية إلى إغلاق معتقل تمارة السري وتوقف التعذيب بشكل شبه نهائي عام ٢٠٠٩ بسبب الحملة التي أقامتها بعض المنظمات والمواقع الحقوقية في المغرب.

المذكرات تحكي - باختصار - عن قصة شخص اعتقل بعد الغزو الأمريكي للعراق، ثم يذكر يومياته وما رآه وما لاقاه من تعذيب في السجن، الشد النفسي سوف يلازمك من أول المذكرات حتى نهايتها، وسوف تحبس أنفاسك أكثر من مرة.

الغاية من المذكرات في ما أظن، هو إرسال رسالة عن أحوال المعتقلين إلى المنظمات الحقوقية والشارع المغربي، فالشريحة المستهدفة الأولى من الرواية هم الحقوقيون ثم الشارع المغربي، وهذا شيء جيد وسيء في آن واحد، عندما استهدف الكاتب المنظمات الحقوقية بدأ يسرد سردًا ظلاميًا جدًا يُغفل كثيرًا عن الأمور المضحكة التي تحصل والطرائف ومواقف الثبات (كما صنع إسماعيل جاد القمري

المصري في سلسلة كتبها عن ذكريات السجن) الجو الذي يريد أن يفرضه الكاتب لأجل الحقوقيين ألغىٰ كل شيء إيجابي حصل في السجن، وهي في المقابل قد تكسر إرادة البعض وتخوف أُناساً كثر وتثبّط أكثر مما تشجع.

الإشكالية الثانية وهي أن الشعب المغربي هو المستهدف الثاني من المذكرات، فتجد في غير موضع بعض الكلمات المغربية العامية، والتي قد لا يفهمها العربي العادي، وهذه العامية تَهدم تسلسل الأفكار التي يمرُّ بها القارئ، يعني يقرأ شيئًا مفهومًا ثم فجأة شيئًا غير مفهوم ثم يرجع إلىٰ النص المفهوم، فيوجد لديه نقص في الإلمام بتفاصيل الرواية أو المذكرات.

واستفدتُ من الرواية كيف أن بعض الدول ترمي شبابها في المعتقلات لغير جرم تحت جريرة الإرهاب فقط لكي تُثبت وتبيّن للعالم أنها تحارب الإرهاب وتغلق باب المزاودة علىٰ من يتهمها بالتغافل أو عدم المحاربة، ولا بأس في ذلك أن تضيع أعمار الشباب بالسنوات والعقود في المعتقل ضريبةً لهذه الصورة التي تريد بعض الحكومات العربية أن ترسمها عن نفسها.

والكاتب في ما بلغني لم يُكمل الرواية بسبب تقلبات السجن وعدم الاستقرار.

١٢ أبريل ٢٠١٦ م – ٥ رجب ١٤٣٧ هـ

رواية: رجل النظام البوليسي

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: رجل النظام البوليسي.**
- **اسم المؤلف: توم روب سميث.**
- **اسم المترجم: مروان سعد الدين.**
- **عدد الصفحات: ٤٨٦.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

هذه الرواية دخلت اللائحة الطويلة لترشيحات جائزة (مان بوكر) عام ٢٠٠٨، وكذلك وضعت على لائحة الإنتاج للتحول إلى فلم سينمائي من إخراج ريدلي سكوتّ كما هو مكتوب على غلاف الرواية.

عن ماذا تتكلم الرواية؟!

سوف نتطرق في هذه الجزئية إلى أول أربع فصول من الرواية وهي لا شيء من مجموع الرواية ولكن الضرورة تقتضي حرقها على القارئ:

تحكي الرواية عن ضابط الاستخبارات الروسية ليو، البطل الذي قاوم المحتلين النازيين ببسالة، فالفرقة العسكرية التي هو فيها قد تم دمجها مع الاستخبارات الروسية، فأصبح ضابطا في الاستخبارات بعد أن كان جنديًا عسكريًا. ترسخت لدى ليو قناعة؛ أن كل ما يقوم بهِ من اعتقال وتدمير للأسر وزج بالأبرياء في السجون هو ضروري ومُسَوَّغ؛ لأنه يساهم في الحفظ على النظام

والثورة، فأن تؤذي عشر أبرياء خيرٌ من أن يفلت المذنب، أي لا بأس أن تسحق تسعة أشخاص مقابل أن تجد المذنب فيهم.

كُلِّفَ ليو بمهمة تقتضي مطاردة شخص مريب افتتح عيادة بيطرية بالقرب من السفارات الأجنبية... وفجأة أصبح العاملون في هذه السفارات يتوافدون عليه، فزادت الشكوك حوله. واستطاع أن يهرب من النطاق المفروض عليه من الرقابة ويختفي، فتحولت الشكوك إلىٰ يقين. فطلب من ليو ملاحقته، وبعد قصة طويلة من الملاحقة استطاع أن يقبض عليه، ولكن بعد أن أُجهد جسديًا، فأصبح مريضًا أثناء الاستجواب، فزاره الطبيب زير النساء، وبينما هو يرتعد علىٰ الفراش استقبلت زوجته هذا الطبيب، وكانت جميلة جدًا، فسال لعاب هذا الطبيب وجنّ جنونه، فأعطىٰ ليو مخدرًا وطلب منها أن تقيم علاقة معه، مقابل أن يوصل رسالة إلىٰ الحزب أن ليو فعلًا مريض ولا يتصنع المرض، رفضت ذلك وهددته... فخرج، ولكن الغريب أنه كتب في التقرير أن ليو فعلًا مريض، ثم وبشكل مفاجئ كتب في تقرير الاعتراف للشخص الذي قبض عليه ليو أن من بين المتعاونين معه مع السفارات زوجة ليو، فطلب من ليو أن يتجسس علىٰ زوجته وأصبحت محط أنظار جهاز الاستخبارات الذي لا ينجو أحدٌ إن وضعت عينه عليه. فما الذي سيفعله ليو؟! هل سيكافح ليحرف العرف السائد ويبرئ زوجته أم سيضحي بها مقابل منصبه وسمعته وحفاظًا علىٰ حياة والديه؟! هنا تبدأ القصة الحقيقة للرواية.

هل قررت أن تقرأ الرواية بعد هذا العرض الموجز؟! إن كان: نعم، فتوقف إلى هنا، فالنص اللاحق كله حرق لأحداث الرواية.

استطاع المؤلف أن يزاوج ما بين أسلوبي «الفلاشباك والفلاش فورورد»؛ دمج بين أحداث قديمة حصلت قبل النسق الزمني الحالي للرواية مع الأحداث الحالية. وتضمنت هذه المزاوجة الدمج ما بين الجريمة السياسة والجنائية معًا.

ثانيًا: زاد من هذا الامتعاض أن المؤلف أوهم القارئ لفترة طويلة أن هنالك أيدٍ عابثة في التحقيقات، وهذه الأيدي بلا شك تملك من المنصب في الدولة، قد يتوهم القارئ أيضًا أن هذا الضوء الأخضر ناجز عن موافقة الدولة لمشروع معيّن أو دراسة معيّنة، ولكن المؤلف وقع في فخ التكرار وبيّن أن سلسلة الجرائم هذه نابعة عن مريض نفسي.

شخصية ريزا زوجة ليو من أغرب الشخصيات النسائية التي وقفتُ عليها في الأعمال الروائية، وهي تُجسّد حقيقة أن رغبة البقاء إن خالجتها رغبات أُخرىٰ فسوف تكون مرجوحة بلا شك، وتطرح تساؤلات علىٰ القارئ المتأمل: كيف يمكن أن يُلغي الشخص مشاعره وأحاسيسه ومبادئه ويغلفها بغير غلافها بغية البقاء فيعيش في زيف لا منتهي إلا بأيدي القدر؟

استطاع المؤلف أن يبرز بعض جوانب الحرب الأمنية القائمة علىٰ أساليب نفسية وليست مادية؛ فالمادية يُقصد بها التزييف وتزوير الأوراق مثلًا، ونحو ذلك مما هو ملموس. ولكن النفسية هي المتعلقة بدراسة نفسيات العدو ووضع استراتيجية مضادة بناءً علىٰ ذلك.

مثلًا استطاع ليو أن يجد برودسكي بعد أن قام الأخير بوضع رسالة في غرفته - والتي توقع أن يفتشها ضباط المخابرات - تُثبت فيها مكانه. وكان الموقع الذي وضعه غير صحيح، ولكنه أراد لضباط المخابرات أن يقعوا في هذا الفخ فيشتت جهودهم إلىٰ مكان آخر ريثما يستغل الوقت المتاح للهرب. ولم يقعوا في هذا الفخ وإنما استثنوا هذا المكان من أماكن التعقب.

تفرّع عن هذه الحادثة أنه كُشف بسبب بسيط؛ فقد قال لجارته أن لديه صديقًا في منطقة معيّنه؛ وهذا يعطيك درسًا أمنيًا أن مكان التخفي المناسب والمثالي يجب أن لا يكون لدىٰ معارفك أي معرفة مسبقة به.

الحرب الأمنية في الاتحاد السوفيتي شرسة جدًا؛ لأن نتاجها هو القتل أو ما هو أسوأ من القتل وهو معسكرات الاعتقال والأعمال الشاقة الأبدية؛ فلذلك الحكم على الآخر غالبًا بما ينتهض بالقرائن – لا بما هو ثابت وقطعي –، وهذا الأسلوب انتهجته الدولة والمخالفون للدولة في آن واحد.

استطاع ليو مثلًا أن يكتشف أن إيفان – وقد كان زميلًا لزوجته في التدريس – عميل استخبارات، بسبب أن جميع أصحاب زوجته المعارضين أصبحوا ما بين قتيل وأسير، باستثناء هذا الشخص والذي كان يصنع أشياء أقوى بكثير مما صنعه أصحابها الآخرين.

ثانيًا: الغرفة التي يسكنها؛ فقد كانت فخمة، وهذه القدرة على التأثيث غير موجودة لدى عامة الناس.

ثالثًا: أسلوب الخطاب الذي تكلم بهِ في الهاتف أمامهم، حيث نادى دكتورًا «منشقًا» بصفته ولم يناده باسمه.

جميع هذه العوامل المتضافرة معًا ارتقت إلى ما هو ثابت ويقيني لدى ليو، رغم أنها لا تخرج من كونها استنتاجات حمالة أوجه.

كذلك التعليمات التي أعطاها ليو لزوجته عندما رجعوا إلى موسكو من جديد في التعامل مع أفراد الأجهزة الأمنية، كانت نصائح متعلقة بمعرفة النفسيات؛ مثلًا: لا تنظر إليهم ثم تشح بوجهك مباشرة، فهذا مدعاة للشك.

وثانيًا: تصنّع الخوف منهم أثناء تدقيقهم في أوراقك؛ لأن رؤيتهم للخوف تشعرهم بالرضى فيتغاضون، بينما لو جعلت نفسك في موطن الند أو غير الخائف فقد يتكلفون في نسبة الخطأ إلى أوراق الثبوتية أو يصنعون لك مشكلة من لا شيء.

المؤلف أوصل رسالتين من خلال الرواية:

١. أن الظلم سهم مرتد على الظالم، فمهما تصنع في الناس قد تجد نفسك مكانهم يومًا ما.

٢. أن إصلاح الأنظمة الدكتاتورية الشمولية من الداخل مهمة مستحيلة؛ لأنك لن تواجه أخطاءً فردية يسهل الاستدراك عليها، وإنما نُظُمًا تشرع الاستبداد، والذي يُلتمس منه أن انتقادها يصنّف في مصاف الخونة «أعداء الثورة».

وقع المؤلف في النهاية في تناقض فج؛ فبيّن من خلال الرواية أن ليو قد اكتشف زيف النظام الشيوعي، واكتشافه هذا أفقده الثقة مطلقًا بهِ، ولكن في النهاية عندما حلت قضية القتل رجع ضابطًا في جهاز الأمن، ربما التدرج الذي صنعه المؤلف في العلاقة ما بين ليو وزوجته أعطى مفارقة واضحة بين الحب بدافع الخوف والحب بدافع القناعة؛ ففي الأولى عندما تزول أسباب الخوف سوف يُتخلى عنك لأنه كان الضابط الوحيد للعلاقة. بينما في الثاني سوف تستمر التضحية في الحلوة والمرة – كما يقولون –.

الرواية تفيد من:

– يدرس النظم السياسة أو لديه فضول لمعرفة المزيد عن المجتمعات الشيوعية.

– والذي يبحث عن الثقافة العامة الروسية فيما يتعلق بالمأكل والمشرب والطقس.

– والذي يريد أن يستفيد في علم النفس.

ويجب أن أذكر مزية هنا: أن الأسلوب السفسطائي الذي استخدمه المؤلف عند حديث بعض الشخصيات مع نفسها، أمر في غاية الإبداع، ويبين لك علو كعب المؤلف، وفيها تعرف أيضًا ماذا يصنع الناس عندما يتبعون غريزة البقاء.

إن كنت محبًا لروايات الغموض والإثارة؛ ستجد نفسك تلتهم الرواية بشكل سريع رغم طولها فهي تقع في قرابة الـخمسمئة صفحة، وهذا الأسلوب قد تنبّه له كايت ساوندوز من صحيفة التايمز فقال واصفًا الرواية: « **الرواية الأشد بلاغة وذكاء وتشويقًا حول الوقائع المثيرة للحرب الباردة**».

ويجب التنبيه: أن الرواية تخللها في جزء بسيط جدًا مقطع فيه تلميح جنسي، ولكن يقع في سطر واحد من صفحة واحدة.

وأختم بسؤال: لماذا قرأت هذه الرواية؟!

عندما درستُ مادة «النظم السياسية العربية» في الجامعة، كان هنالك تفرع عن هذه المادة وهي دراسة بعض المذاهب الفكرية وأنواعها، فَكَلَّفَنا أستاذ المادة ببحث، فكان نصيبي «الاشتراكية»، وفعلًا هممت في البحث وتقدمت، ولكن آنذاك كنت سطحيًا جدًا في تفكيك المعاني والمفردات الدالة على بعض المقاصد التي تدعو إليها الاشتراكية. وقَدَرًا توقفت عن الدراسة فركنت مُسَوَّدَةَ البحث في إحدى الزوايا، وبعد أربع سنين من التوقف، وأثناء البحث وجدت بحثي القديم، فتذكرت مشروعي الأقدم منه وهو دراسة التيارات والأحزاب والأفكار من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، وقلت لنفسي أنها فرصة كي أُكمل هذا البحث وأستمر متجاوزًا إياه. فاشتريت كتباً متنوعةً عن الشيوعية أو - بصفةٍ أعم - عن الاشتراكية، فكابدت نفسي في فهم هذا المذهب والأطروحات التي يؤصّل لها، حتى أني اشتريت غير موسوعة فلسفية، وأكثر من كتاب يشرح المذهب، ولكن أغلب هذه الكتب تكتفي بالوصف دون الشرح، وهي منفصلة تمامًا عن التمثيل بالواقع أو بالتجربة؛ فَتَحْفَظُ أن من مبادئها كذا وكذا ولكن لا تعرف ما هي إسقاطات هذه المبادئ على الواقع وكيف تُطَبَّق؛ فكانت هذه الرواية نموذجًا تطبيقيًا للمواد النظرية التي درستها.

١٠ مايو ٢٠١٦م - ٣ شعبان ١٤٣٧هـ

مساجد الضرار

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مساجد الضرار: كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟**
- **اسم المؤلف: محمد سرور زين العابدين.**
- **عدد الصفحات: ٢٢٠.**
- **دار النشر: مكتبة دار اليقين ودار الأرقم.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب قد قرأتهُ قبل ست سنوات تقريبًا بعدما نصحني شخص متأثر بأطروحات الشيخ سرور، وهذا الكتاب قد يُفهم منه سبب إحجام الشيخ وجماعته من قضية العمل التنظيمي المسلح، فأظن أن الكتاب والقصص التي سردها الشيخ سرور سواء التي مر بها أو سمع عنها؛ أوجدت لديه تصورًا مطلقًا أن السلطة وذراعها الأمنية غالبًا ما تكون قد استحكمت وتغلغلت في صفوف خصومها بحيث أن أي تحرك قد يُفهم منه بدء العمل ضد السلطة إلا وغالبًا ما يجهض بسبب هذا الاختراق المسبق، ومن المفارقات الغريبة أنهُ عابَ في بداية المجلد الثاني من كتابه (الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو) أن توجس من أسماهم بالغلاة وصل إلى حد الهوس من حصول الاختراقات والمتابعة والرصد من طرف الأجهزة الأمنية، ولكن يبدو أن الحال واحدة.

هذا الكتاب يتكلم عن قضية واحدة فقط: كيف نحصن الصف الإسلامي من اختراق المنافقين؟ وهو كأي كتاب معاصر عندما يريد أن يعرَّف أي قضية لا بد يذكر الأُسس الاصطلاحية للمفهوم المراد الحديث عنه، مثلًا ما هو النفاق، أنواعه، صوره... إلخ. وأغلب هذه التعاريف قد تكررت عليك، وإن كنت مضطرًا أحيانًا أن تطلع عليها لأن المُعرِّف لا يكتفي بالتعريف وإنما يردفها بالتعليق والإسقاط؛ تعليقه أو ربطه بالواقع هو أهم سمة لأنه يذكرك بالحجة ولكن إن كان مجرد

تكرار فلا بأس فالتكرار يرسّخ المعنى في الأذهان، خاصةً في قضية مثل قضية النفاق؛ فأنت لا بد أن تكون خائفًا على الدوام، مذكرًا نفسك باستمرار من خشية الوقوع فيه، وقد جاء في صحيح البخاري في كتاب الإيمان قول ابن أبي مليكة: «**أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل ويذكر عن الحسن:** «**ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق.**»»[٥].

والفصول الوسطى من الكتاب هي لبه وهي المهمة بالنسبة لنا: يذكر الشيخ سرور ست صور من اختراق الجماعات الإسلامية بعدما كان شاهدًا على بعضها وعاينها وبعضها قد نُقلت له.

- تجربة الإخوان المسلمين في مصر مع جمال عبد الناصر.
- تجربة سيد قطب مع تنظيمه الخاص.
- تجربة الطليعة المقاتلة في سورية مع حافظ الأسد.
- تجربة الإخوان المسلمين في سورية.
- تجربة جبهة الإنقاذ في الجزائر.
- تجربة الشيخ عمر عبد الرحمن في أمريكا.

تجربة الطليعة:

في الجهاد السوري الذي قامت به جماعة مروان حديد بعد مقتل شيخهم، ترسّخت قناعة لدى الشيخ سرور أن الإسلاميين لم يستطيعوا إسقاط النظام، وزادت هذه القناعة عندما ذهب والتقى مع مندوب الطليعة في بغداد، يقول الشيخ سرور: «**جلست مع هذا الشخص فتساءلت كيف يرجو النصر على بعثية الشام وهو مُرتَمٍ في أحضان بعثية العراق؟!**» (نستطيع أن نكرر هذا التساؤل الآن

[٥] انظر: صحيح البخاري (٣٦).

ولكن بصيغة مختلفة: كيف ترجو بعض الجماعات النصر على طاغوت الشام وهم مرتمون في أحضان بقية الطواغيت؟). ولكن سوف تُرمى من قبل المتأثرين بطرح الشيخ سرور بالغلو والجهل.

على كل حال؛ زاد امتعاض الشيخ سرور من هذا المندوب عندما كان حليقًا ويشرب الدخان فتساءل هل هذه صفات شخص يرجو النصر؟! (لو قلتها الآن لاتهمت من قبل المتأثرين بطرح الشيخ سرور بأن عقلك لا يستوعب جهاد الأمة!)

على العموم تبيّن أن هذا المندوب أراد أن يوقع الشيخ سرور في مصيدة فاقترح عليه أن يدخل سورية ويساعد المجاهدين ولكن لغبائه أعطى معلومات غير منطقية أو كان الكذب واضحاً فيها كالقول أن عدد المجاهدين في حلب عشرة آلاف شخص؛ فَشَكَّ الشيخ سرور بذلك، فسحب نفسه وقال لو كانوا كذلك لما احتاجوا إلى شخص واحد لأن بهذا العدد سوف يسيطرون أو يسقطون المدينة أو نحو ذلك من الكلام. فسحب نفسه، ثم تبين بعد ذلك أن المندوب هذا كان جاسوسًا للنظام النصيري فقد رجع إلى سورية.

فاستخلص الشيخ سرور من هذه القصة أمرًا واحدًا: **الجماعة التي ليست لديها القدرة على ضبط عناصرها غالبًا ما يسهل اختراقها**، فلذلك من المجازفة الدخول معهم.

ثم ذكر قصة القائد عدنان عقلة وكيف أن النظام السوري أوقع به من خلال شخص اسمه عبد الله الجسري، وحقًا كما قال ابن عمر : «**من خدعنا بالله انخدعنا له**»[٦]. ولكن قال والده الفاروق: «**ولستُ بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يَخدعُني**»[٧]، التظاهر بالورع والخشية والزهد ليست علامة كافية في أرض المعارك على رفع صاحبها إلى إدارة الجماعة أو تمكينه من مفاصلها من دون تزكية ولا تمحيص حقيقي.

---

[٦] رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ١٧٠٧).

[٧] انظر: مجموع الفتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية (٥/ ٢٦٥).

عبد الله الجسري هذا تظاهر بالفرار من جحيم النظام السوري وانتقل إلى عمّان، كان يظهر الورع وكان يكثر من قراءة القرآن ويصلي والناس نيام، وكان يوقظ زملائه الذين يسكنون معه للصلاة، ومن خلال هذه المشاهد قد رفعوه وأعطوه مناصب عليا في الجماعة، فماذا صنع هذا العميل؟

قال: «**لدي جماعة في الشمال السوري فلو ينضم أحدكم إليهم حتى نبدأ بالعمل**»، فذهبت مجموعة إلى الكمين فتم اعتقالها فتم سلخها سلخًا في المعتقلات وكتبوا رسالة بخط أيديهم إلى إخوانهم الذين خارج سورية أن الوضع آمن وبدأنا عملنا ولا خوف من الدخول، وكلما دخلت مجموعة سُلخَت وكتبت إلى من بعدها إلى أن تم اعتقال الشيخ عدنان عقلة، ثم بدأت تتكشّف خيانة هذا العميل فهرب وتم استقباله بدمشق وتم ترقيته.

الغريب أن هذه القصة قريبة من قصة قد ذكرها عبد الله بن محمد في كتابه (حرب العقول) إذ قال أن أحد الذين عرف بتشددهم وورعهم وزهدهم إلى درجة أنه إذا رأى الإخوة يلعبون الطائرة يبكي ويقول: «**كيف تلعبون وأخواتكم تغتصب في السجون؟**»[٨] تبين لاحقًا بشكل يقيني أنه جاسوس مزدوج! فتستفيد من هذه القصة ثلاثة أمور:

١. إظهار الورع والزهد والتقوى ليس معيارًا أو حدًا لتزكية فلان أو علتان. بل لا بد أن تتضافر معها أمور أخرى، كالتمحيص والثبات عند البلاء أو تزكية عدول.

٢. ضع في ذهنك أن الجاسوس قد يكون إمامًا في الورع والتقوى والخشية الظاهرة، فهو يتشكّل لك في أي صورة، فلا تقل: «لا، لا، مش معقول أن يكون هذا جاسوس فكيف يصلي ويقرأ ووووو...» بل ضع احتمالات لكل شيء.

٣. احرص أن تكون لديك ملكة الفراسة، فتُشكك عند حصول ما يوجب الشك إن كان كلام الطرف الآخر غير منطقي.

---

[٨] حرب العقول.. أبعاد وخفايا عالم المخابرات والتجسس، صـ٧٨ .

تجربة الإخوان مع جمال عبد الناصر:

أما القصة الاخرىٰ التي ذكرها الشيخ سرور هي تجربة الإخوان المسلمين مع جمال عبد الناصر.

وكان يروىٰ أن جمال عبد الناصر عندما كان متحالفًا مع الإخوان أو - بشكل أدق - مستغلًا لهم كان يردد مقولة مضحكة: «**إنني أمين على المبادئ التي كان يرددها حسن البنا، وخلافي ليس مع مبادئ الإخوان، وإنما مع قيادة الهضيبي التي انحرفت عن خط الشيخ حسن البنا!!**».

كل فئة أرادت أن تستغل الحمقىٰ من أنصار جماعة معيّنة وتوظيفهم ضد إخوانهم. فإنها - غالبًا - تستخدم ذات العبارة. فالإخوان المسلمين تساهلوا جدًا في ضم الأعضاء إليهم، وتكثير سوادهم، والسعي في ذلك، وقالوا أن هذا الكم غير المتجانس سوف ينسجم مع أطروحات الجماعة عندما يرون النماذج الحسنة داخل الجماعة. وهذا بلا شك خطأ، بل الواجب إقامة الدورات وتوعية هؤلاء المنضمين الجدد وتثقيفهم دينيًا ودعوتهم بالتي هي أحسن وليس السكوت عنهم، بل قد يحصل العكس؛ لأن المثل العامي يقول لدينا: «**الطماطم الخربان يفسد الطماطم السليم**». ثم لخوفهم من فقدان شعبيتهم عندما رفض جمال عبد الناصر شروط الجماعة لعضويتها منها:

- ضرورة المواظبة علىٰ الصلاة.
- التزام أهل الضابط بالزي الإسلامي.
- الطاعة لمكتب المرشد.
- اجتناب الخمر والميسر والنساء الساقطات.

فتم قبول هذا الرفض علىٰ مضض، بينما المفترض أن تفرض الجماعة سياستها علىٰ أفرادها لا أن يفرض أفرادها الجدد سياستهم علىٰ الجماعة بحيث يحرفوها عن خطها ويلغون مبادئها، فَقَبِلَ محمود لبيب قصة عدم اشتراط الطاعة للجماعة وأن اشتراطها سوف يعزل الإخوان عن قاعدة عريضة من

الضباط الوطنين، فاستغل جمال عبد الناصر هذا لتحويل ولاء الضباط له. ولا يستطيع الإخوان محاججته لأنهم قبلوا بعدم اشتراط الولاء للمرشد.

وهنا تَفهم أهمية القيادة يجب أن تكون واحدة فجعلها هلامية يفتح مجال التنافس .. تنافس يُسحب من خلاله البساط من تحت المشروع الإسلامي بـ«دَرْوَشَةٍ» من أصحاب المشروع الإسلامي.

ثم بعدما تم الانقلاب ونجحت ثورة ١٩٥٢ تعجّب مرشد الإخوان حسن الهضيبي من ردود أفعال جمال عبد الناصر فسأل حسن الهشماوي متعجبًا: «**ألم يتفقوا على المشاركة؟**» فتم إقصاء الإخوان بعدما تم امتطائهم. وهنا يتبين لك ضرورة إيجاد ضمانات تحفظ أي اتفاقية مبرمة بين طرفين، ولا يكتفى بالوعود؛ مثلًا لو قلنا أن هنالك مجلسًا عسكريًا يقود جمال عبد الناصر، فالضمان قد يأخذ شكلًا كأن يتم إشراك أفراد من الإخوان المسلمين في قيادة هذا المجلس ويأخذون قطاعات فيه؛ على غرار تقسيم الوزارات في الدول الجمهورية.

وجود ثقل لك في المجلس العسكري قد يكون ضمانًا لك يحول دون الانقلاب عليك أو تنصّل الطرف الآخر من أي اتفاق مبرم.

وعالم السياسة عمومًا عالمٌ قذرٌ لا توجد فيه ثقة مطلقة فحتى الحلفاء يتجسسون على بعضهم البعض خوفًا من انقلاب أي طرف على آخر؛ فكيف يكون الإسلامي «درويشًا» إلى درجة يسلم الخَيط والمِخيَط إلى طرف ليس بينه وبينهم أي ضمان يمنعه من التنصّل والانقلاب عليهم بعدما يستتب له الأمر؟

ثم ذكر قصة الباقوري الذي أصبح نائب المرشد دون تمحيص، فأصبح في ثاني أخطر منصب في الجماعة، وبعد الانقلاب وإقصاء الإخوان فجأة أصبح وزيرًا للأوقاف، وبين ليلة وضحاها أصبح مؤيدًا للاعتقالات لجماعات الإخوان وناظمًا للقصائد في هجوهم والثناء على جمال عبد الناصر.

وهذا الأمر يذكرني في ما قاله أسامة بن لادن إذ روي عنه في أبوت آباد الأولى قوله: «**ينبغي أن تكون قيادات الصف الأول من العناصر الممحصة تمحيصًا جيدًا**»[٩].

لأن التمحيص يغربل الشخص فيميز الخبيث من الطيب ويظهر الأشخاص على معادنهم. بينما الشخص غير الممحص؛ هو ورقة رهان مخيفة، فهو عرضة بشكل أكبر للانتكاسة والتغير من غيره؛ فإذا كنت غير واثق فلا تقدمه؛ لأنه لو انقلب قد يضرك كثيرًا فأبقه في أماكن لا يكون هنالك فيها أي ضرر إن تراجع أو انقلب ضدك.

ثم ذكر قصة المنشقين وكيف أن بقاء جمال عبد الناصر في الإخوان أو بالأخص في مناصب القيادة أتاح له اتصالات ببعض أفرادها فألبهم على إخوانهم. وهذا من مضار الاختراق.

فتستفيد من هذه القصة ثلاثة أمور:

١. يجب على كل منضم جديد إلى الجماعة الإسلامية أن تلزمهُ الجماعة الإسلامية بمبادئها وعدم الشذوذ عنها، وإن التنصل المبكر لهذه المبادئ، هو فتح باب للفوضى داخل الجماعة، وتحريف لسياسة الجماعة من داخل الجماعة نفسها، بحيث تَعجزُ فيها القيادة عن المحاسبة أو حتى لوم بعض الأطراف المفسدة؛ لوجود اتفاق مبرم بينها رُفع من خلاله القلم عن تصرفاتها.

٢. الأمير أو المدير أو المرشد ونائبه ومجلس شوراه وأصحاب القرار في الجماعة؛ لا بُدَّ أن يكونوا ممن تم تمحيصهم وثبتوا بعد البلاء، لأن أصحاب مراكز النفوذ في الجماعة هم المخولين لأن يعرفوا أسرارهم وعملية سيرها، ووجود شخص غير موثوق ومدسوس بينهم يعني أنه لم تعد هنالك أمانة سر بالجماعة، فضلًا أنه قد يُعرّض سياسة الجماعة للتغير، بحصول انقلابات بيضاء كما حصل مع الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر، عندما انقلب الزيتوني وبعض الذين في مجلس الشورى على الأمير الشرعي ومجلس شوراه وحرفوا سياسة الجماعة بالكليّة نحو منهجهم الضال.

[٩] وثائق أبوت آباد، الدفعة الاولى، صـ١١٠.

٣. لا تبرم أي اتفاقية مع أي جهة غير موثوقة إلا بضمانات تلجأ إليها في حال عدم التزامهم بالوعد، أي لا بُدَّ من توفير حد أدنى يجعل الاتفاق مع هؤلاء ممكنًا ولو حصلت خيانة أو غيروا رأيهم تكون لديك سبل تستطيعُ من خلالها أن تضمن حقك.

١٣ مايو ٢٠١٦م - ٦ شعبان ١٤٣٧هـ

لماذا رفضت الماركسية؟

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: لماذا رفضت الماركسية؟**
- **اسم المؤلف: مصطفى محمود.**
- **عدد الصفحات: ٨٧.**
- **دار النشر: أخبار اليوم.**

التعليق والمناقشة:

انتهيتُ من قراءة كتيب (لماذا رفضت الماركسية) للمفكر د. مصطفى محمود، وهذا الكتاب ينبئك عن وجود مشكلة، ربما العرب قد امتازوا بها عن غيرهم، فلما درسنا «مدخل الفكر السياسي» على يد الأستاذ السيد عمر، حول «الرأي العام وكيفية تشكيله» قال أن الشعوب العربية عاطفية بفطرتها [١٠]، أي هذه العاطفة التي تردد شعارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، والبعض لا يمحصها ولا يُدقق ما فيها، ومع ذلك يدعو إليها بعاطفية جيّاشة، ولا يلتفت إلى مدى تطابق ما بين هذه النماذج المثالية وعن كيفية تطبيقها على من يدعو إليها، أمور قد تكررت سواء في التنظير الاشتراكي أو حتى ما نعيشهُ الآن تحت شعارات إسلامية، فالدكتور مصطفى يقول: «لما رأينا بصيصًا لتناقض موجود ما بين النظرية والتطبيق، (أي ما هو موجود في الكتب الشيوعية وبين ما تطبقه النظم الشيوعية) قام بعض المطبلين بالتبرير؛ برمي العلة على التطبيق وسوئه، وأن المشكلة في طريقة التطبيق، وإنما النظرية لا لبس ولا غبار عليها». وهذا يذكرك ببعض الجماعات الإسلامية التي تُعلل أخطائها دائمًا بلفظ «خطأ فردي» وليس منهج الجماعة، وهي في حقيقة الأمر تَستخدمُ شماعة «الخطأ فردي» لتطبيق

[١٠] قال ذلك في أحد المحاضرات التي حضرتها له في تدريس كتاب (المدخل إلى العلوم السياسة) وضرب مثالًا كيف أن صدام كان مجرمًا وبمجرد إعدامه تحول إلى بطل شعبي. واستند على هذا التغير على إثبات على أن الشعوب العربية عاطفيةً بطبعها.

سياسة معينة مع تبرئة نفسها في الوقت نفسه، فلم يرق للدكتور مصطفى هذا التسويغ فقام بسبر أُمّات الكتب الشيوعية فوجد أن العلة فيها ابتداءً، ولا يستقيم الظل والعود أعوج.

أسلوب الدكتور مصطفى في الرد رغم اقتضابه وقصره، إلا أنه بليغ الدلالة، فلا يلزم حين الرد أن تتعقب الذي ترد عليه، فترد على كل كلمة قالها، فأحيانًا مقارنة مختصرة كافية لأن تنسف أصول قد قعَّد لها خصمك في مجلدات [11] وأغلب من عاب على الماركسية عاب عليهم اجتزائهم للتاريخ الذين بنوا عليه نظريتهم «**القراءة المادية للتاريخ**»[12]، فأخذوا من شواهد التاريخ ما يؤيد نظريتهم، وتغافلوا عن ما ينقض أصل ما يريدون، فعليه لا يصح أن يُطلق على ما استنبط من هذه النظرة المجتزأة صفة الإطلاق ولا تصدق عليه صفة القوانين.

ثم ضرب مصطفى محمود مثالًا وكيف أن الإسلام قد خرم بظهوره مقولة أن التغيرات الاجتماعية إنما هي منبثقة من الواقع الاقتصادي وأن كل التغيرات ترجع إلى وسائل الإنتاج وتطورها.

وقلتُ زيادةً معقبًا على ما قد غاب عن الدكتور محمود أننا: نحن بصفتنا مسلمين يوجد في مراجعنا ما يجعلنا نستغني عن هذه الأطروحات، ولا يلزم بالضرورة أن ما هو حجّة علينا يكون حجة على الماركسية، لاختلاف المراجع وأصول الاستدلال، ولكن في الوقت نفسه نمنعهم أن يلزمونا بما

---

[11] يقول الشيخ عمر محمود: «**هناك طريقتان للرد: أولاهما: أن تتعقب الكتاب فِقرة فِقرة، وتعالجه جملة جملة، وكلمة كلمة منفردة عن بقيتها دون النظر إلى منهجية الكتاب التي صاغته إلا لمامًا، وهذه الطريقة هي الأشهر والأكثر انتشارًا في كتب الردود. ثانيهما: معالجة منهجية الكتاب، والرد على أصوله التي بني عليها**». [جؤنة المطيبين – صـ١٣]، قلت: ويبدو أن مصطفى محمود قد سار على الثانية.

[12] يقول د. عبد الله النفيسي في شرح مفهوم «التفسير المادي للتاريخ»: «**المادة عند ماركس، هي المحرك الرئيسي للتاريخ، والعامل المهيمن في التطور، وعن طريقها تتحدد العوامل الأخرى، لأن العوامل ليست مستقلة في تكوينها وتشكيلها، بل تتأثر في وجودها وفي صورها بالظروف المادية المتصلة بطرق الانتاج وبعلاقات التبادل التي تنشأ بين طبقات المجتمع نتيجة لهذه الطرق، ويقول ماركس بأنَّ الأوضاع القانونية والاجتماعية والسياسية والفنية والأدبية والفلسفية، وجميع النواحي الفكرية عمومًا، لا يمكن أن تُفهم بذاتها؛ لأنها تتحدد وتتشكل وفقًا لتأثير العوامل المادية أو الاقتصادية عليها. فالأوضاع الاقتصادية هي الأساس الرئيسي الذي يؤثر في كافة الأوضاع والنظم الاجتماعية والفكرية الأخرى، بحيث تنطبع هذه الأوضاع والنظم بالصورة التي يقتضيها البناء الاقتصادي القائم**».
[في السياسة الشرعية – صـ٢١٥، ط: دار الدعوة – الكويت]

لدينا، فمثلًا إن كانت الماركسية تقول إن الدين هو أفيون الشعوب وعبارة عن خزعبلات اخترعتها الطبقة البرجوازية لتعبيد وتركيع طبقة البروليتاريا (الطبقة العاملة)[١٣]، حتى تستمتع طبقة البرجوازية بثمرات الدنيا؛ أليس غريبًا أن يكون محمدًا ﷺ كما جاء في حديث عمر في مسلم: (**لقد رأيت رسول الله ﷺ، يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بطنه**)؟ [١٤] أو رواية عائشة في البخاري: (**توفي رسول ﷺ، وما في بيتي من شيءٍ يأكله ذو كبدٍ إلا شطر شعيرٍ في رفٍّ لي**)[١٥]، فلو كانت الأديان ومن أتى بها - بالضرورة - إنما قد أتى بها لمصلحته الشخصية حتى يستمتع بحياة الدنيا، ألا ينقض حال هذا النبي ما قد قررته الشيوعية في حال الأديان؟!

وإن كانت الشيوعية قد أتت بشيء جديد غاب عن كل الأديان والمذاهب الفلسفية والسياسة، لتحقيق مصلحة واحدة لم تستطع أن تحققها كافة هذه الملل والنحل، وهي إيجاد مجتمع لا طبقي يمتاز بالوفرة في كل شيء، بلا ظلم ولا استغلال، فنحن المسلمون وفي سبر تاريخنا نرى أن هذا قد تحقق في زمن عمر عبد العزيز - رغم وجود الطبقية في المجتمع - فقد تراسل عمر بن عبد العزيز مع عبد الحميد بن عبد العزيز وكان الأخير يخبره بأن في بيت المال مال فائض بعد أن وزعت الزكوات على المحتاجين[١٦]، فهذا المجتمع قد حقق الاكتفاء الذاتي ووجدت لهُ وفرة وزيادة رغم أنه لم يطبق خزعبلات الماركسية بإلغاء الطبقية والملكية الخاصة؛ بل تحقق ذلك مع وجود توازن اقتصادي جمع

---

[١٣] يقول المؤسس الثاني للفكر الماركسي فريدريك إنجلز: «**البروليتاريا هي تلك الطبقة من طبقات المجتمع التي تكسب قوتها من بيع عملها حصرًا، وليس من الربح الناجح عن رأسمال ما، فساعدتها وشقاؤها، وحياتها ومماتها، ووجودها كله، أمور مرهونة بطلب العمل، وبالتالي بتتابع أزمات السوق وانتعاشها، وبتأرجحات مزاحمة لا يردعها رادع. فالبروليتاريا أو طبقة البروليتاريين هي بكلمة واحدة: الطبقة الكادحة في القرن التاسع عشر**». [مبادئ الشيوعية - صـ١٥، ترجمة وطباعة: دار الفرابي - بيروت]

[١٤] صحيح مسلم: ٢٩٧٨.

[١٥] صحيح البخاري: ٣٠٩٧.

[١٦] انظر: كتاب (الأموال - صـ٣٤١) للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، طـ: دار الشروق - القاهرة، تحقيق: د. محمد عمارة.

بين مبادئ الملكية العامة والخاصة والاقتصاد الحر الموَّجه، فمواجهة الطمع وتحقيق اكتفاء ووفرة لا يلزم منه إلغاء الملكية وإنما بتقيدها كما قال سيد قطب [١٧].

والصراع بين محمد ﷺ - إن سلمنا جدلًا - أنه صراع نفعي لا علاقة بالمعتقد بهِ، فأين نصرف - نحن المسلمون - عرض عتبة بن ربيعة - المفوض من قريش للتفاوض نيابةً عنها - إذ قال لمحمد ﷺ: «**إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم؛ فاسمع مني أعرض عليك أمور تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فإن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا**»[١٨]، فهل قَبِلَ النبي ﷺ؟ بل رفض ليؤكد أن الصراع ليس صراعًا نفعيًا بل هو عقديٌّ.

الأمر الآخر الذي انتقده الدكتور مصطفى هو جعل الاقتصاد الآلة المفسّرة لكل الظواهر الاجتماعية، وبذلك عزلُ الظواهر الأخرى عن الدخول في صفة التأثير، كالعوامل القومية أو النفسية أو العنصرية أو العقائدية، وضرب مثالًا واضحًا على بطلان هذه النظرية بتسليط الضوء على الصراع ما بين روسيا والصين رغم أن كلاهما دولة شيوعية، فالصراع هنا ليس طبقي ولا اقتصادي، وبذلك تفهم أن العوامل الأخرى داخلة في مسببات الصراع أو التأثير في الظواهر البشرية والاجتماعية ولا يلزم انحصارها في الاقتصاد أو الصراع الطبقي، فهاتين الدولتين تحكمها البُرُولِيتاريا ومع ذلك بنيهما صراع [١٩].

---

[١٧] يقول السيد قطب: « **لأنهم - أي المسلمون - إنما هم وكلاء مستخلفين في الأرض بشرط وعهد، وليسوا ملاكًا خالقين لما في أيديهم من أرزاق، ومن بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله فيكون بعضهم أولياء بعض، وأن يتنفعوا برزق الله الذي أعطاهم على أساس هذا التكافل لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية، ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة، فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه**». [تفسير آيات الربا - ص٩، ط: دار الشروق].

[١٨] السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٢٣)، ط: دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد عبد السلام تدمري.

[١٩] بعض المُعجبين أو المنظرين لهذا القول قد خفف من لهجته، فبدّل الجزم بأنها المحرك الوحيد الى القول أنه أهم مؤثر بالإضافة مع بقية المؤثرات. [راجع: تفسير التاريخ لعبد الحميد صديقي - صـ١٠٤ وما بعدها، طـ: دار القلم - الكويت].

النقطة التي بعدها والتي تطرق إليها الدكتور مصطفى وهي نقطة في غاية الأهمية وهي اختلاف ظروف الواقع الذي كان يكتب ماركس عنه وينتقده عن ظروف واقعنا الحالي، وقلت: لعل هذا الذي أوجد لنا بذرة ما تسمى بـ«الاشتراكية الديمقراطية» التي تكافح من أجل حقوق العمال من خلال مؤسسات المجتمع الرأسمالي لا من خلال الثورة[٢٠]، وفي الفترة التي كان يكتب فيها ماركس عن العمال كان العامل مطحونًا لا يجد قوت يومه ويعمل أغلب اليوم! لذلك لا يجد ما يخسره إن ثار حتى أنَّ ماركس يقول: فليس للبروليتاريين ما يفقدونه - أثناء سعيهم لإسقاط النظام بالعنف - سوى أغلالهم[٢١]، ولكن حال العامل في زامننا -أو بالأخص في مجتمعنا - اختلف كثيرًا، فانضبطت ساعات العمل وأصبح يأخذ راتبًا ممتازًا (حتى أنه أكثر من بعض راتب الموظف في بعض الدوائر الحكومية) وأصبحت هنالك خلفهُ نقابة تكافح وتناضل عنه [٢٢] فضلًا عن خصائص التأمين التي يمتاز بها العامل، سواء للعجز والشيخوخة والمرض، والراتب التقاعدي. فأين حال العامل في ذلك الزمن في حال العامل في زماننا هذا؟! فلذلك التنظير الحرفي وإسقاطه على واقع مغاير هو «**انفصال عن واقع القرن الذي نعيشه**» كما وصفها الدكتور مصطفى.

وقد ذكر الدكتور أن النظم الشيوعية إن ثارت وألغت النظام الطبقي إلا أنها أوجدت نظامًا طبقيًا آخر؛ فلو كانت الشيوعية هي المساواة بين المواطنين، فلماذا القادة في الحزب يحصلون على امتيازات

---

[٢٠] انظر: الموسوعة السياسة لعبد الوهاب الكيالي (١/ ٢٠٠)، طـ: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

[٢١] البيان الشيوعي لكارل ماركس وفريدريك أنجلز ودراسة وتحليل هرمان دونكر - صـ١٢١، ترجمة: عصام أمين، ط: دار الفارابي - بيروت.

[٢٢] مثلًا تم فصل مئة متدرب في شركة ألومنيوم البحرين (ألبا) قبل بضعة أشهر لداعي التقشف فبسبب النقابة ونضالها من أجلهم أرجعوا إلى وظائفهم. (انظر: صحيفة الوسط البحرينية: العدد ٤٨٠٠ - الخميس ٢٩ أكتوبر ٢٠١٥م و العدد ٤٨٠٥ - الثلاثاء ٠٣ نوفمبر ٢٠١٥م).

كثيرة سواء في السكن أو في الخدمات بخلاف بقيَّة المواطنين؟ فهؤلاء النخب يعيشون في رفاهية لا يعيشها الشعب، فهل دعواهم للمساواة حقيقة؟ [٢٣]

تكلم أيضًا الدكتور محمود عن الانتهازية أو – بلفظ أدق – «البراغماتية» التي قام بها بعض المنظرين للفكر الماركسي في بلادنا العربية بالمناداة لإضافة البعد الروحي إلىٰ هذه النظرية والخروج بما يسمىٰ بـ«الماركسية الإسلامية» وقلت: ولو تأملت فيها قليلًا سوف تجد أنها لفظ مقارب لـ«اليهودية الإسلامية» أو «النصرانية الإسلامية» إذ أن أُسس هذه النظرية لا تستقيم مع هذا الدين، فكلاهما ينقض الآخر من حيث المرجع، فإنجلز مثلًا يقول: «**الدين – أيًا كان – ما هو إلا انعكاس خيالي في أذهان الناس للقوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية**»[٢٤]، فكيف يستقيم ويُساوَىٰ ما بين المؤمن الذي يستمد تصرفاته من هذا الإيمان بالملحد الذي يقول أن الأديان ليس إلا خيالات؟

وإن اتباع منهجية مخالفة ومضادة للإسلام لا يهجنها مع الإسلام اتباع سفاسف الأمور في الدين الإسلامي، كإماطة الأذىٰ عن الطريق، فلو فعلها ماركسي لما جاز لهُ أن يقول أنه قد دمج بين الاثنين في قالب واحد بفعلهِ هذا!

---

[٢٣] فمثلًا تكلم جانغ جين – سونغ المنشق عن النظام الكوري الشمالي الشيوعي عن هذه المفارقة والازدواجية في مذكراته، وقال: «**وعلى غرار شبح طائف، تُوزَّع الطاقة الكهربائية بالتناوب على أجزاء من بيونغ يانغ لمدة أربع ساعات في اليوم ولكن منطقة واحدة في المدينة تكون وضّاءة على الدوام: منطقة جونغ – غو الواقعة في قلب بيونغ يانغ. هناك توجد مكاتب الحزب المركزي، والمناطق السكنية للكوادر رفيعي الرُّتَب**» [صـ١١]. ويقول: «**في أي قطار، تكون المقطورة الأمامية مخصَّصة بشكل حصري لكوادر الحزب**» [صـ٦٤]. ويقول: «**خُصِّصت الحصص الغذائية الشهرية للغالبية العُظمى من الكوريين الشماليين العاديين، ولكنها سرعان ما اختفت مع انهيار نظام التوزيع العام عام ١٩٩٤، ولا تزال الحصص الأسبوعية والدرجات العليا سارية المفعول. كان الكوادر يُمنَحون حصصًا من دون معرفة عامّة الناس بها لأنهم كانوا يتّكلون على الحصص الغذائية فقط وتعيّن عليهم فجأةً إعالة أنفسهم؛ في حين تَواصل مَدّ الكوادر بالمؤن**». [صـ٦٦]. ويقول: «**يعيش معظم كوادر الحزب المركزي، المنطقةَ السكنية الوحيدة التي تزوّد سكانها بمياه ساخنة**». [صـ١٦٤]. ا.ه. من كتابه (القائد العزيز)، طـ: الدار العربية للعلوم – بيروت.

[٢٤] ضد دوهرنج – صـ٣٦٦، ترجمة: محمد الجندي، طـ: دار التقدم – موسكو (الاتحاد السوفيتي).

وفي ذلك يقول الشيخ عمر محمود تعقيبًا على مسمى كتاب د.مصطفى السباعي (اشتراكية الإسلام): «**نحن قلنا مرة بأن مصطفى السباعي ألّف كتاب (اشتراكية الإسلام). والاشتراكية لا تمّت للإسلام بصلة؛ لأنّ الاشتراكية هي فرع من عقيدة فلا يجوز قصّ الفرع عن العقيدة بعد ذلك يخرج إلى شيء آخر. الإسلام له عقيدة وله منهج وله فرعية. الأديان تتشابه في بعض صورها فهل يعني ذلك أنّ الإسلام هو النصرانية؟ عندما يدعو الإسلام للتسامح والنصرانية تدعو للتسامح فهل يعني الإسلام هو النصرانية؟ هذه القضيّة يجب أن ننتبه لها**»[٢٥].

ربما الجميل في الكتيب هو أنه وضع مقالات الذين كتبوا ردودًا عليه ثم ردَّ عليها، وغالبًا ما يقتطع المؤلف كلام خصومه بمعنى لا يضع كلامهم كاملًا ربما لأمرين:

- توجد هنالك نقاط لا يستحق الرد عليها أو هي محل اتفاق.

- حتى لا يتأثر القارئ «الحكم» بوهن صاحب الرد أو قوة حجة خصمه.

ولكن الدكتور مصطفى محمود وضع المقالات التي رد عليها كاملةً في كتابه ثم رد عليها في خاتمة الكتاب.

والحمد لله رب العالمين.

٢٠ سبتمبر ٢٠١٦م – ١٩ ذو الحجة ١٤٣٧هـ

[٢٥] سلسلة: مشروع ألف كتاب قبل الممات (١/ ٦٣)، من مناقشة كتاب (مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة) لجورج طرابيشي.

متشردًا في باريس ولندن

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: متشردًا في باريس ولندن.**
- **اسم المؤلف: جورج أورويل.**
- **اسم المترجم: يوسف سعدي.**
- **عدد الصفحات: ٢٢٠.**
- **دار النشر: منشورات الجمل.**

التعليق والمناقشة:

أحيانًا تدخلُ في صراع مستمر مع النفس، وأنت تعلم أن الناس لا تحب تقرأ إلا القصير ونفسها ملولة (هذه المعرفة قد وظفها مؤسسوا تويتر أحسن توظيف لكسب الناس إلى موقعهم) فتحتار بين الاختصار وبين أن تأخذ راحتك في الكتابة وتطلق العنان لقلمك؟! فتدخل في صراع هل تقزم هذه الأفكار بحيث يتطعمها الغير بسهولة أم تجعل هذه المراجعات مواد أرشيفية لك وللنخبة المحبة لنوعية الكتب التي سوف تتكلم عنها فيتجشمون عناء قراءة النصوص الطويلة كاملةً؟! أظن من الجيّد أن تنوع بين الاثنين.

وأما عن الكتاب: صحيح أن كتاب أورويل هذا ليس مذكرات عسكرية لقائد عسكري، وليست مذكرات سياسة لرئيس دولة أو رئيس وزراء، وإنما يوميات أديب، الأحداث فيها تتباطئ بشكل كبير، وأحيانًا تتسائل ما هي الفائدة التي سوف تستلها من هذه القراءة، ولكن - شخصيًا - أسلوب البلاك كوميدي الذي يستخدمهُ أورويل جدير بالانتباه وكذلك تهكمه اللاذع، فهو يحسن صياغة النكتة من الحدث العابر. هذا الأسلوب يروق لي محاكاته في الكتابة والتأليف، وهو الذي جعلني ألتهم الكتاب كلما وجدتُ فرصةً للقراءة، لذلك كنت أقرأ وأضحك، وأحيانًا أضحك بصوت عالي

من صياغته الحدث بشكل كوميدي مبطن، وما أسعلني من الضحك هو ذكره لقصة القسيسة إيلواز.

نعم، الكتاب قد لا تجد منه الفائدة المرجوَّه ولا الممتعة التي تسد نهمك، ولكن إن كنت محبًا لأسلوب أورويل التهكمي فأظن أنك سوف تتعايش مع الكتاب بشكل جيّد. ربما ترتكز في صفحاتها الأولى، عن البؤس... فأورويل هنا لا يعطيك تعريفًا اصطلاحيًا لمعنى البؤس، وإنما يَنقل صوره في أشكال قد عايشها بنفسه. هذه النقولات توضح لك معنى البؤس وجه يكون أكثر وضوحًا من التعريفات الاصطلاحية الموجودة في الكتب المعنية بعلم الاجتماع، وربط جورج أورويل في مقدمة الكتاب أن البؤس يجعل الشخص بالضرورة متخليًا من أن يكون شخصًا طبيعيًا أو معقولًا، فهو يحرر الشخص من المقاييس المألوفة للسلوك، فقلتُ معلقًا: لا شك أن الضغط المتكرر على النفس يفك طبيعتها.

هذه الأمر لا بد أن تضعه في ذهنك وتستحضره في قراءة تتمة الكتاب، لأنك مثلًا ستجد أمورًا فعلها أورويل يصفها بالسعادة أو الحب؛ وهي أمور غير مفهومة كقصة ضربه لفتاة ضرباً مبرحًا حتى كاد يقتلها ثم يقول أن ذلك كان أسعد يوم في حياتي.

جورج أورويل هنا، يذكر قصة المكان الذي يعيشه والأشخاص الذين سكنوا معه في المنزل (شخصياتهم، هوياتهم، أفعالهم)، ولكن النقطة المهمة جدًا، مدى أهمية المال في ضبط حياة الشخص، وأغلب الروايات القصصية لا تتطرق إلى هذه المشكلة، بخلاف المذكرات الحقيقة (ككتاب القائد العزيز مثلًا).

الكتاب أيضًا يقدم حقنة أمل للمخفق الذي يرجو البروز والتألق على حساب أقرانه، حيث لا يشترط أن تنشأ على الكتب والقراءة في كافة الفنون حتى تبرز، فأورويل الذي صنف على أنه من أعظم خمسين كاتب بريطاني من عام ١٩٤٥ لم يكن إلا غاسل صحون.

في الكتاب:

- تكلم أورويل هنا بشكل تفصيلي عن الوضع البائس الذي مرَّ فيه مع شح المال، فاضطر أن يضع جدولًا أو ميزانية معيّنة لكل يوم. فعاش في حياة تقشف شديدة جدًا. يقول لقد ألفت الجوع فلم أعد إنسانًا، إنما معدة مع بضعة أعضاء ملحقة! وهنا أورويل يصوّر أن حتى هذا التقشف أحيانًا لا ينضبط بالجدولة المعينة، لأنه قد تطرأ عليك أمور قد تسحب منك مصروفك اليومي فتبقى يومًا كاملًا بلا طعام، ويلخص أورويل هذا البؤس الذي عاشه في خاتمة الفصل الثالث: «**غالبًا ما تحدثت عن الهلاك بين الكلاب - حسنًا - هاهم أولاء الكلاب، وقد بلغتهم!، وهذا الشعور يزيل الكثير من القلق**»، وتجده مثلًا يقول كنت أخاف أن أموت وسط الكلاب، ولكن وصلت إلى مرحلة أني أنا والكلب سواء فلم يعد هذا القلق والخوف موجودًا.

- تستفيد من هذه الرواية أن لا تراهن على الأمر غير المستقر، بل - لو جاز الرهان - قم بالرهان على الحد الأدنى المضمون، فأورويل وصديقه الروسي بوريس عندما كانا يعملان في فندق سي كانت لديهما وظيفة مستقرة وثابتة، تركاها لأن هنالك مطعم «قد» يفتح في أحد الضواحي، ولما تركا عملهما تبين أن المطعم وصاحبه يُعانيان من ركود وعجز في السداد، طبعًا كان الحظ فقط قد حالفهم وحصل غير المتوقع! حيث استطاع رب المطعم أن يستأنف التجهيزات، ولكن لا تراهن على الحظ بل على ما هو ملموس، فلا تترك المضمون لأجل «لعل وعسى».

- ما بعد الفصل الثالث تكلم فيه أورويل عن قصته مع الروسي بوريس الشخص الذي كان يَقبضُ ١٠٠ فرانك في الأسبوع ثم فقد العمل ثم أصبحت ظروفه المعيشية أسوأ من ظروف أورويل نفسه! وكيف أنهما حاولا حمل بعضهما البعض فخططا معًا، واشتركا في السكن ودمجا ميزانيتهما لإنقاذ نفسيهما، وتسائلت ما هو وجه الربط بين الذي حصل بين أورويل وصديقه الروسي بوريس وبيّن أثر عمر بن الخطاب الذي سأل فيه أحدهم فقال: «**فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره**

ومدخله ومخرجه؟ فمعاملك في الدينار والدرهم اللذين يستدل بهما على الورع؟ فرفيقك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟» فلما أجاب الرجل بالنفي، فقال له عمر: «**لست تعرفه**»[٢٦].

حقًا، لا تَعرِفُ معادن الرجال ولا تُميزُ الغث من السمين من الصحب والأصحاب إلا عندما تتشاركان مثل هذه المصائب والبلاءات معًا.

الجميل في هذا الفصل هو تفاؤل بوريس الدائم، أن كلما أُغلق بابًا حاول أن يجد مسلكًا آخر يمضي منه، وكأن إخفاقه في أحلك الظروف ليس نهاية العالم.

– هنالك نقطة قد تكون مهمة وهي أن أورويل والروسي بوريس كلاهما كانا جنديين سابقين، بل أن بوريس كان ضابطًا سابقًا، فأظن أن المؤسسات العسكرية – في الدولة المنشودة – يجب عليها أن تخصص رواتب تقاعدية توفر الحد الأدنى الذي يمكن للجندي السابق أن يعيش فيه؛ لأنه عمل في مؤسسات حساسة جدًا في الدولة، فلو كان بمثل حالة بوريس أورويل كان بالإمكان أن يتم إغراؤهم بالمال من دول معادية لدولتهم، فيتجاوبون معها من باب «مستعد أعمل أي شيء حتى أعيش»، فيعطونها أسرارًا حربية أو بعض المعلومات العسكرية الخاصة للدولة التي خدما فيها.

– والنقطة الأخيرة اتفقا على رهن معاطفهما، فلما ذهب أورويل إلى المكان، تم إعطائه سعراً أكبرَ من الذي حلم به بـأربع أضعاف.

فمن المهم إن أردت أن ترهن ممتلكاتك، أن تضع أكبر سعرٍ ممكن أو أن تسكت حتى يعطيك الراهن السعر، بينما لو طلبت بسعر محدد منذ البداية قد يكون أدنى من السعر الذي يريد الراهن أن يشتري ممتلكاتك فيه فتكون أنت الخاسر الوحيد في هذه الحالة، وقد قرأتُ مرة لعبد الله العدم أنه قال في العمل السري التنظيمي لا بُدَّ يكون لكل ما تفعلهُ غطاءٌ منطقي، وفي هذه الرواية مثلًا ذكر أورويل وصاحبه أنه عندما ذهبا إلى المنظمة السرية التي تقول أنها شيوعية، غضبا منهما جدًا عندما أتيا بشكل

---

[٢٦] سنن البيهقي (١٠/ ١٢٥).

مباشر، وقالوا – أي المنظمة – أننا اخترنا هذا الموقع بسبب وجود مغسلة في الأسفل، فلا تأتيان مرة أخرى إلا ومعكم صرَّة ملابس للغسيل! حتى يكون لدخولكم وخروجكم من المبنى سبب منطقي.

– والكتاب أيضًا يَهدم التعنت الموجود لدى الشخص في موضوع الوظيفة، وقد تُخفض من مستوى اشتراطاتك لنوعية العمل، فتقبل أكبر عدد ممكن متاح من الوظائف حتى تلك التي كنت تنظرُ إليها بدونية، وكما قال لي أحد المشايخ يومًا، أن بعض الناجحين يقارن بين البقاء على الصفر (أي دون عمل) وبين العمل بأجر زهيد مؤقتًا ريثما يجد غيره! فيقدم العمل بأجر زهيد وفي وظيفة دونية حتى يرتقي ويكسب الخبرات في هذه الأعمال؛ ثم يُقبل في العمل الأفضل بدافع «الخبرة» التي أحرزتها من هنا وهناك فيضرب عصفورين بحجر وهو عدم البقاء خالي اليدين ويؤهل نفسه للعمل الأفضل بدافع الخبرة، فالكثير من مراكز التوظيف الآن تقدم صاحب الخبرة على غيره، وأنا أقرأ محاولات أورويل وصاحبه الروسي في البحث عن أدنى عمل يؤمنان فيه حياتهما بالحد الأدنى، تحسرت على فرصتي عمل قد أتت إلي وإلى مكاني وقد عرضهما علي أرباب العمل أنفسهم... أحيانًا إن لم تصفعك الحياة فسوف تصفعك تجارب الآخرين.

– والكتاب أيضًا يُبرز ويبين كيف أن الدعاية والمظهر قد تجعل العقل الباطن للشخص يصدق أن كل خدمات الفندق ذات جودة عالية، وقد شهد شاهد من أهلها وهو أورويل عندما عمل في الفندق كيف أن نوعية الطعام المشتراة من قبل الفندق هي من أردى النوعيات، يصفه هذا أورويل بقوله: «**الخضروات من النوع التي لا يمكن لربة المنزل أن تنظر إليها في السوق، والشاي والقهوة من نوعية متدنية، والمربّى مادة مركّبة تؤخذ من علب كبيرة بدون علامات تجارية، وكل الخمور الرخيصة توضع عليها علامة «خمر عادي» واللحم من نوعية عاديةٍ في أفضل الأحوال**». ومع رداءة هذه المشتريات كان الزبائن يدفعون بلا وعي لأنهم يتصورون طالما الفندق فخم فأكيد الطعام

سوف يكون متوازيًا مع فخامة هذا المظهر، ناهيك عن قضية النظافة والقذارة التي قال أورويل أنها لا توجد في المطاعم الرخيصة حتى، لماذا استطاع هذا الفندق وغيره أن يُلغي هذا الاحتمال من أذهن الناس؟ بسبب المظهر الفخم والدعاية التي تطمس أي وسوسة قد تنشأ حول احتمالية حصول هذا من هذا الفندق، وكما تقول العامة: «المظاهر خداعة». وعندما ترمي نقودك يجب أن تتفحص السلعة التي أخذتها وتسأل نفسك هل كانت تستحق ما دفعت لأجلها؟! هذه المسائلة لا بد أن تكون مصحوبةً مع كل عملية شراء كبيرة حتى لا تكون ساذجًا؛ تدفع وتمشي.

- والكتاب يصوِّر لك - بشكل غير مباشر - السبب الذي جعل لأطروحات الشيوعيين آنذاك زخماً لدى الطبقة العاملة، فعندما تُسحق الطبق العاملة بعدد ساعات طويلة وبأجور زهيدة ومن غير أمان وظيفي أو صحي ثم تجد هنالك من ينادي بحقوق العمال! فلا ريب أن هذه الطبقة المسحوقة من العمال سوف تؤيد هذا الحزب الذي ينادي بحقوقها! تصرفات البُرْجُوازيَّة المتغطرسة هي أكبر مُجَنَّد لأن يصطف الناس ويحتشدوا ضدها.

- نَمط الحياة في بعض المدن الغربية، وأساليب العمل وحيثياته، جعلت العزوف عن الزواج أمرًا طبيعيًا، فالطبقة العاملة وإن سُحقت جسديًا؛ فإن شظف العيش لا يقف عند هذا السحق بل يتعاده إلى السحق العاطفي، فيذكر أورويل أن الأجور بالكاد تكفي العمل في يومه فمن الاستحالة بمكان أن يصرف على شخص آخر، لذلك يقول أورويل: «**الكثير من رجال الحي وهم غير متزوجين، ولا مستقبل لهم كي يفكروا فيه أصلًا!**»، وفي الجانب الآخر ازدهرت الدعارة، لأنها لن تدفع من خلالها التكاليف العالية للزواج ولن تضطر أن تصرف على هذه المرأة كل يوم، لذلك أصبح العاجزون عن إقامة العلاقات الشرعية يجنحون إلى هذه العلاقات العابرة، مرددين عبارة ما زالت إلى الآن تقال في لندن: «**لماذا أشتري البقرة وهي تعطيني الحليب بالمجان؟!**» بمعنى لماذا أتزوجها وأخسر الأموال وأنا أحصل على مبتغاي منها بالمجان، إشكالية هذه النقطة أنها ما زالت تتكرر رغم مرور قرن عليها

ولكن بصفة وشكل أخف. وهي «تعسّر الزواج وتيسّر الزنىٰ». وتناولنا لهذه النقطة من باب الشرح وليس الإقرار ولا التزيين. وهنا المفارقة بين هذا الأسلوب وبين ما حثّنا عليه الشرع في حال استحالة الزواج وتعسره، فقال ﷺ عن الزواج: (**ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**)[٢٧] أي غاية إشباع الشهوة لا تسوّغ الوسيلة المستخدمة فيها.

- الرسام بروز صديق المتشرد الإيرلندي بادي: حقيقةً هذا الرجل صاحب حكمة في المنطق الذي يتكلم فيه، تطرق إلىٰ عدة نظريات أو أساليب في التسويق منها أنه عندما يقوم بعرضه ويخلع القبعة لأخذ المال من المتفرجين، فإنه يسحب المال من القبعة باستمرار ويبقىٰ علىٰ النزر اليسير منه، لأنه لو رأىٰ الناس أن هنالك مبالغ كبيرة موجودة في القبعة فإنهم سوف يعزفون عن الدفع، وعوضًا عن ذلك يُبقي القليل جدًا حتىٰ يستثير الشفقة فَيُدفع له! وأذكرُ في هذا المقام قصةً لأحد الذين أعرفهم قد تواصل مع جهة لدعمه للزواج، وعرض إشكالياته المادية، ولكن أخطأ في نقطة وهي ذكر تكاليف جامعته التي خرج منها، فلما رأوا أن المبلغ ضخم وأن من المستحيل أن يدفعه فقير، فحرموه من المنحة؛ يقول أنك لو رسمت رسمتك ثم بقيت صامتًا فلن تحصل علىٰ أي ربح ولن تبيع أي شيء، بل لا بد أن تحاور الناس وتعرض عليهم بضاعتك وتدعوهم إليها أو بمعنىٰ آخر «تورطهم بها»، فأحيانًا لما تعرض بضاعتك وتتحمس في عرضتها الزبون يخجل أو يستحي من أن لا يشتري بضاعتك، وأظن أن هذه النقطة مرَّت علينا جميعًا، وأذكر أن إحدىٰ معارفي قد أشترت مكنسة بسعر راتبين بسبب كلام المسوق وتحمسه فاستحت أن ترده فاشترتها بهذا المبلغ الضخم.

الخلاصة:

هذا الكتاب كان تجربة مسليّة لي بسبب الأسلوب، وربما لدافع الفضول أيضًا، فوجدتُ في نفسي شغفًا بالقراءة عن عادات وتقاليد الآخرين وكيف تبدو الحياة في المجتمعات الأخرىٰ، وكيف يكون

---

[٢٧] صحيح البخاري (١٩٠٥)، صحيح مسلم (١٤٠٠).

الشخص في أحلك الظروف وأصعبها وكيف يتصرف بغريزة البقاء، جميع هذه التصرفات أو هذه الأنماط تعلمنا أمورًا في حياتنا، وقد روي عن العقّاد أنه قال: «**ليس هناك كتابا أقرأه و لا أستفيد منه شيئا جديدا، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أني تعلمت شيئا جديدا هو ما هي التفاهة؟ و كيف يكتب الكتاب التافهون؟**»، فمن الجيّد أن تنقب عن الفائدة بين طايات النصوص. والكتاب يَصلحُ لمن أُعجب بطرح أورويل في أعماله الأدبية الروائية فأراد أن يكتشف هذا الشخص من خلال مذكراته الشخصية. وسوف يُعجب من يحب أسلوب التهكم أو بصفةٍ أعم «البلاك كوميدي» وأظن أنك لو قرأت النص الأصلي بالإنجليزية سوف تجد أن التعبير البلاغي أشد حضورًا وقد تنبه إلى ذلك الجاحظ فتجدهُ يقول: «**وأنا أقول: إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، لأن سامع ذلك الكلام أنها أعجبته تلك «الصورة» وذلك المخرج، وتلك اللغة، وتلك العادة، فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه، وبعض الكلام العجمة فيه - حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل، وحولته إلى «صورة» ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته**»[٢٨].

لذلك قد تَخْلُص إلى أن النص الإنجليزي أكثر طرافةً وإيصالًا لمعنى الكاتب من النص المترجم خصوصًا في التهكم والطرفة.

والحمد لله رب العالمين.

٧ يونيو ٢٠١٦م - ٢ رمضان ١٤٣٧هـ

[٢٨] الحيوان (١/ ٢٨٢).

رواية: ١٩٨٤

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: ١٩٨٤.**
- **اسم المؤلف: جورج أورويل.**
- **اسم المترجم: أنور الشامي.**
- **عدد الصفحات: ٣٥١.**
- **دار النشر: المركز الثقافي العربي.**

التعليق والمناقشة:

الرواية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، الجزئية الأولى من رواية (١٩٨٤) وهي التي وصلت عندما تتكلم عن قضية غسل الدماغ من قبل الأنظمة، وكيف أن الحقيقة ليست هي ما يحدث وإنما ما يقوله النظام، وإذا تعارض الحدث مع القول فإن القول هو المقدم. بمعنى أدق وأشمل: «تزييف الوعي»، وأن «**الولاء المطلق للحزب يعني انعدام الوعي**» (صـ٦٦).

الأهم من ذلك يجب أن تفهم السياق التي أتت فيه هذه الرواية، فهي أتت بعد أن ثبت الاتحاد سوفيتي نفسه بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح واقع مُهدد لكيان أوروبا الرأسمالي، فالرواية جاءت في سياق خوف النظم من تمدد هذا النظام، فكانت مواجهته على أشدها من كل النواحي والجوانب. ومن بينها الأدب.

وأنا شخصيًا استفدت من روايات أورويل في تفكيك معنى «الاستبداد» أكثر من كتاب الكواكبي (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).

الجزء الثاني من الرواية؛ أظنه هو السبب في كون رواية أورويل رواية تاريخية يُشار لها بالبنان؛ فقد خرج عن النمطية والمألوف في باب الرواية، فالرواية غالبًا ما تدمج بين أسلوبي «الحوارات» و«التوصيف الموجز للحدث» ولكن أورويل عندما أراد أن يُفكك معاني وشعارات الكتاب (الحرية هي العبودية إلخ ...) وضع نصب عينيك مقالًا سياسيًا قد امتدَ على طول الخمسة عشر صفحة أو أكثر!

تطرق أورويل على أن الولاء الفرعي غالبًا ما يكون محاربًا إن غدا له تأثير بشكل مباشر أو غير مباشر على الولاء العام، فتكلمنا أن الولاء المطلق يكون للحزب؛ ولكن إن تزوج أفراد الحزب من بعضهم البعض قد ينتج عن هذا الزواج وجود بذرة للحب ووجود ولاء متبادل؛ فلو كانت الزوجة خائنة فبسبب حب زوجها لها فإنه يُداري عليها، وهذه المداراة تتضاد وتتصادم بشكل مباشر مع الولاء للحزب، فالحل إذن هو غسل دماغ نساء الحزب وإفراغ الزواج من أي تبادل عاطفي – بل إن التبادل العاطفي يكون مُستغربًا – فالعملية الجنسية وعملية الإنجاب تكون أداة حزبية بحتة لا علاقة لها بأي ارتباط عاطفي متبادل بين الطرفين؛ وبذلك يضمن الحزب عدم تفرع ولاءات أفراده.

المقالات السياسة التي وضعها أُورويل الحقيقة أنها تحتاج إلى شروح، ولكن تمثل خلاصة الكتاب، فالبعض يقول أنا لست متفرغًا لأن أضيع وقتي على ٣٥٠ صفحة، فأقول أن قراءة هذه القصاصات والمقالات تكفي.

ولكن إشكالية هذه الفقرات أنها تحتاج إلى خلفية مسبقة حول التضارب الحاصل بين المذهبين: الشيوعي والرأسمالي، وبالأخص الشيوعية وما تنقمه على الرأسمالية والغاية التي تصبو إليها، فإن لم تفهم هذا جيدًا فلن تفهم إذن كلام أورويل عن تقسيم طبقات المجتمع وإلغاء الملكية الفردية وإحداث المشايعة... إلخ.

السؤال المهم هو كيف وُظِّفت هذه الرواية في ظل الحرب الباردة؛ يعني هل توجد هنالك تطبيقات عملية؟ بلا شك أن الجواب نعم، وانظر إلى الكتاب المهم للغاية: (حرب الثقافة الباردة) للباحثة الأمريكية سوندرز فقد تكلمت في الصفحة (٣٢٢-٣٢٩) عن أبعاد الرواية الإعلامية والتوظيف من قبل أجهزة المخابرات وعن أورويل نفسه، وهذا الكتاب آنف الذكر قد تكلم عنه الدكتور محمد العوضي والشيخ عمر محمود، فهو كتاب مهم يُبَيّن لك مدىٰ أن الحروب مسوغٌ تتساقط معها كل الفضائل، وكيف توجه العقول وتكسر العظام. ولكن يجب الاحتراز في قراءة الجزء الثاني ألا تخلط يبن تنبؤ أورويل للمستقبل وبين الماضي الذي قد تضمن شيئًا من الحقائق.

٤ نوفمبر ٢٠١٦م - ٤ صفر ١٤٣٨هـ

أيام مع جهيمان

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: أيام مع جهيمان.**
- **اسم المؤلف: ناصر الحزيمي.**
- **عدد الصفحات: ١٨٣.**
- **دار النشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.**

التعليق والمناقشة:

كتاب (أيام مع جهيمان) لناصر الحزيمي؛ وأظن أنه هو الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة من الدائرة الضيقة للجماعة وظهر على الإعلام. أحيانًا إن فعل الشخص شيئًا ما؛ ثم ندم على ما قد صنع قد يبالغ في التنقّص والهجوم على الشيء الذي فعله من باب إظهار التأسف والتوبة مما كان عليه، ربما تستطيع أن تقول أن الحزيمي من هذا الصنف، فقد أصابه رد فعل لا أقول تجاه جماعة جهيمان فحسب بل تشعر أن رد الفعل أصبح أشملَ وأوسعَ من ذلك، ففي كتابه سوف تعيش متناقضات: كأن يكلمك عن العلم الشرعي وطلب العلم والعلماء والمتون والدروس العلمية بحيث تشعر أنك تقرأ لشخص سلفي ولكن فجأة ينقلب نَفسُ الكاتب فَيجلد هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وينتقد جمود المشايخ وانتقائهم لفتاوى من العصور الوسطى، وينتقد ضعف النهم الوطني لديهم وينتقدُ كافة السلفيين وسطحيتهم.

إذن لا نستطيع أن نتعامل مع الكتاب إلا على وجوه معينة مثلًا:

- محاججة من يعتبر الكتاب حجة وإلزامه بما فيه.

- وثانيًا لا نعتمد ما ورد في الكتاب إلا في حال تضافر أدلة وروايات أخرىٰ تعضد ما ذُكر في هذا الكتاب.

المحصلة النهائية أن ما ورد في الكتاب يؤخذ للاستئناس، وأما مناقشة ما فيه كأنه أمر واقع لا يكون إلا بالتسليم جدلًا أن كل ما ذُكِرَ صحيح وهذا ما سوف يحدث في تعليقنا علىٰ الكتاب، سوف نفترض أن كل المعلومات التي قد ذُكرت صحيحة.

الكتاب ربما يُفسر لك عقلية بعض الأجهزة الأمنية تجاه بعض الحركات الإسلامية، فالعقلية الأمنية هي عقلية تراكمية، فالخطأ أو الاختراق الذي يحصل ويتم، غالبًا ما يُعالَج بعد حصوله بحيث لا تُعاد الكرَّة، والذي أظنه أن الأجهزة الأمنية السعودية وصلت إلىٰ خلاصة مفادها أن إتاحة كل مجال لأي جماعة إسلامية لكي تكون نفسها، فغالبًا ما سوف يؤول بها الأمر، إلىٰ ما آلت إليه حركة جهيمان، فحركة جهيمان حركة بدأت بقضية التوحيد والدعوة إلىٰ الكتاب والسنة (لأن جماعة التبليغ لم يهتموا في هذا الجانب بدعوتهم) ونبذ التعصب إلىٰ المذاهب الفقهية، وفضلًا أن جهيمان قد ذكر أن عندما أسس الجماعة لم يكن الغرضُ من تأسيسها أي هدف دنيوي وهذا الذي جعل ابن باز يقرهم علىٰ تأسيسهم لهذه الجماعة.

ولكن مع الوقت أخذت الجماعة تدريجيًا شكل الطابع التنظيمي، فتمددت إلىٰ مناطق السعودية أو حتىٰ خارج مناطق السعودية كالكويت، فأصبح هنالك أمراء علىٰ المناطق، فمثلًا أمير الرياض كان محمد الحيدري، ثم أسسوا لهم مُجتمعًا خاصًا عُرف بـ«بيوت الإخوان» كان الأول في الحرة الشرقية بالمدينة المنورة، ثم فتحوا بيتًا آخر في مكة المكرمة وفتحت ثلاث بيوت في الرياض، ثم فتحت بيوتًا أيضًا في جدة وفي الطائف وغيرها، وكان لهم مساجد خاصة بهم وكان مقر مدارستهم والتقائهم، فأصبحوا وكأنهم سلطة مستقلة في ظل سلطة الدولة، ثم آل بهم الأمر إلىٰ الجهر بمخالفة الدولة والتنبيه علىٰ منكراتها في العلن كما حصل في كتيبات (رفع الالتباس) وغيرها، فالدولة السعودية

أظنها قالت أن هذه التجربة هي نتاج طبيعي لأي مجال يُتاح لأفراد الحركة الإسلامية أن يشكلوا أنفسهم في أُطُرٍ تنظيمية حزبية، فمنعت الأحزاب مطلقًا في السعودية. وأصبح المشايخ وشباب الصحوة يتقلبون في تكتلات بعيدة عن الوجه الحزبي التنظيمي، ولا يستطيعون أن يأخذوا شكلها لأنها تهمة، وبما أن العقلية الأمنية هي عقلية احترازية فهي دائمًا تقطع حصول التهديد قبل تشكله. وأظن أن هذا هو سبب عدم وجود جماعة مثل جهيمان في الهامش الذي أُتيح لها بعد أن قُضي على هذه الجماعة.

والجماعات الجهادية المعاصرة غالبًا ما توصف على أنها امتداد لحركة جهيمان، وفي ذلك نظر، إذ أنه توجد فوارق كقضية التسلسل لإقامة الجهاد أو العمل المسلح، فجهيمان يُنزل أحداث السيرة تنزيلًا معاصرًا، فيقول لا جهاد إلا بإيمان ثم هجرة واعتزال ثم يبدأ بعد ذلك القتال[٢٩]، والجماعات الجهادية وبالأخص «القُطرية» – التي نشطت في التسعينيات – جميعها بدأت عملها المسلح في بلدانها بشكل مباشر، فهي لا تأخذ بهذا التسلسل، وقضايا التكفير وما يتفرع عنها من توصيف الحاكم والمشرعين والطائفة الممتنعة أيضًا كانت نقطة صدام ما بين هذه الجماعة وأبو محمد المقدسي[٣٠] الذي عُرف لاحقًا بأنه من أبرز المُنَظّرين الجهاديين، وأيضًا من معالم الاختلاف في الأولويات هي قضية شن الحروب

---

[٢٩] يقول جهيمان العتيبي: «**منهاج نصر الدين يتلخص في ثلاثة أمور:**

١. أن نقول بالحق في الدعوة لتوحيد الله عز وجل، والتبرؤ من الشرك وأهله والبدع وأهلها والمعاداة في ذلك، وتجريد المتابعة لمحمد ﷺ.

٢. عند ذلك يحصل الإيذاء والإخراج من الديار والأموال وتكون الهجرة إلى مكان يجتمعون فيه .

٣. ثم بعد ذلك يكون القتال» [رفع الالتباس – صـ١٦].

[٣٠] يقول المقدسي في سلسلة ولكن كونوا ربانيين: «**وكانت تطورات توجّهي واستبانتي في سبيل المجرمين وبعض المسائل التي كنت أطرحها دائمًا تزيد حدّة الخلاف بيني وبين بعض هؤلاء الأفراد، حتى أنه في مرحلة من المراحل لـمّـا ظهر كتاب (ملة إبراهيم) حصلت بسببه جلسات، وظهر الخلاف بيني وبين مجموعة منهم، ولذلك وُجِدت فيه طائفة عارضت ما كنت أطرحه من مسائل واختصموا، وكانت هذه أيضًا مرحلة من المراحل التي حصل فيها بيننا خلاف مع هذه الجماعة لبداية تبلور هذه المسائل؛ تكفير الجيش والشرطة، تكفير البرلمانات، بعضهم لـمّـا كنت أحاججه –نحن طبعنا هذا الكتاب مع بعض – يقول: "نحن كنّا مخطئين"**» [الحلقة الثالثة: الحديث عن جماعة جهيمان وحادثة الحرم].

علىٰ المتمذهبين والمقلدين للمذاهب الفقهية الأربع، فجهيمان جعل هذه الدعوة أساسًا من أُسس حركته، وإن كان قادة الحركات الجهادية بأغلبهم لم يُعرف عنهم التمذهب إلا أنهم لم يجعلوا الحرب علىٰ التقليد أولوية لديهم، بل قد يحصل العكس أحيانًا، من حيث ترك الراجح في المذهب للمرجوح بغية التأليف، كقضية ترك التأمين جهرًا بعد الفاتحة في أفغانستان كونهم أحناف، وأن هذا الفعل قد يحدث فتنة وتنافرًا، واستدلوا بتبويب البخاري: «**باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه**»[٣١]، وآخر النقاط الرئيسية هي ما قد تبنته الجماعة من إسقاط نصوص آخر الزمان علىٰ الجماعة نفسها، والادّعاء أن محمد بن عبد الله القحطاني هو المهدي واقتحام الحرم [٣٢] أملًا في حصول النبوءة؛ هذا الأمر وما ترفع عنه وما ترتب عليه أيضًا يشكل نقطة افتراق ليس مع جماعة الجهاد فحسب بل مع كل أطياف الحركة الإسلامية.

ربما المثير في قضية الامتداد، هو البيئة التي نشأ فيها جهيمان، فالمنطقة التي ولد ونشأ بها هي ساجر وهي إحدىٰ الهجر التي أنشئها «إخوان من أطاع الله»، ولما هُزموا بعد تمردهم علىٰ الملك عبد العزيز آل سعود، ولد هذا الأمر شعورًا بالغبن عند أهل ساجر، ونشأ جيل ورث بعضهم الضغينة والتمرد علىٰ النظام، فضلًا أن والد جهيمان هو صاحب مقرب لسلطان بن بجاد العتيبي (أحد قادة الإخوان) ربما هم امتداد طبيعي لحركة «إخوان من أطاع الله» ولذلك يسمون بعضهم البعض بـ«الإخوان». وقد دافع عنهم جيهمان في رسالة (البيعة) في نفي مسمىٰ الخوارج عنهم ممن وصفهم من بعض أهل العلم آنذاك[٣٣]، وبما أن المصادر التي تكلمت عن حركة إخوان من أطاع الله قليلة

---

[٣١] انظر: وصايا للمجاهدين الدّاخلين إلىٰ أفغانستان للشيخ أبي يحيىٰ الليبي – صـ٢.

[٣٢] يقول الشيخ عطية الله الليبي: «**في الواقع معرفتي قليلة بحال الشيخ جهيمان العتيبي رحمه الله، والقدر القليل الذي رأيته من كتاباته يبدو جيدًا، مشبّعًا بالتوحيد والسنة وقوة الديانة، وما فيه من أخطاء فهي كما يخطئ سائر البشر، وظاهرٌ أنه كان صاحب دين وتوحيد، لكن قد وقع له هو وأصحابه فتنة، وهي التي عُـرِفت بـ«فتنة الحرم المكي» سنة ألفٍ وأربعمائة للهجرة**» [أجوبة الحسبة – صـ٢٦٢].

[٣٣] يقول جهيمان العتيبي: «**وآخر التبس عليه الأمر فقد دعا «الأخوان» رحمهم الله الذين هاجروا في القرى المختلفة هجرة لله عز وجل دعاهم إلى بيعته على الكتاب والسنة فكانوا يجاهدون ويفتحون البلاد، ويرسلون له بها للإمام من الغنائم والخمس والفئ ونحو ذلك**

وتكاد تكون معدومة فمن الصعب إقامة المقارنة وإيجاد التباين بين الحركتين. ولكن الحكم على البيئة الناشئة يبين بلا شك أن الحركة الأولى أثّرت في الثانية، فضلًا عن التقاءٍ حصل ما بين بعض الشخصيات التي مثّلت آخر جيل من «إخوان من أطاع الله» مع جهيمان، وسماع حكايات الجهاد منهم مباشرة، فجهيمان يرى نفسه أنه استفاد من تجربة الإخوان في تعاطيه مع السلطة؛ فهو لم يسلم نفسه - كما يقول - حتى لا يحصل له ما حصل للإخوان القدماء أمثال سلطان بن بجاد العتيبي الذي توفي في المعتقل.

من أشد الآفات هي التطبيق الحرفي للنصوص، والشدة التي مبعثها الحماسة؛ غالبًا ما تجعل الشخص يتعامل بشكل سطحي في التعاطي مع النصوص الشرعية، فناصر الحزيمي مثلًا لما درسَ متن (السلم المورق في علم المنطق)، أنكرت عليه الجماعة بزعم أن هذا العلم لم يدرسهُ السلف، رغم أن دراسة الأصول في زماننا ضرورة تستوجبها محاكاةُ المبتدعة في هذا العلم والردُّ عليهم [٣٤].

على أنه إمام المسلمين ثم لما استقر سلطانه، وحصل مقصوده وآلى النصارى، ومنع مواصلة الجهاد في سبيل الله خارج الجزيرة فلما خرجوا لقتال المشركين في العراق الذين يدعون عليًا وفاطمة والحسن مع الله لقّبهم هو ومشايخ الجهل الذين معه لقبوهم باسم يكرهه أهل الإسلام وهو «الخوارج»، حتى إنك لتجد اليوم من أهل الخير الملتبس عليه أمرهم من لا يترحم عليهم» [رسالة الإمارة - ص٢٧].

[٣٤] يقول أبو بكر ناجي: «إنّ طالب العلم الذي لا يطلب علوم الأدوات لن يتقدم في الطلب، وأقصى غايته أن يصبح وعاءً للحفظ فقط، وهناك علمان أساسيان من علوم الأدوات ألا وهما: علم اللغة وعلم أصول الفقه، وهناك علوم أخرى مساعدة مثل علم مصطلح الحديث وقد كان علم المصطلح فرعًا من فروع علم أصول الفقه إلا أنه عندما تضخمت مباحثه أصبح علمًا مستقلًا، ولما كان انتشار أصحاب المدرسة العقلية متمثلةً فيما يسمى بـ«المفكرين الإسلاميين» وبعض قيادات الأخوان أو بعض ممن يلتف حوله شباب الأخوان المسلمين كثيرًا فقد شعر طلبة العلم بأهمية إتقان علوم الأدوات الأساسية للرد على أصحاب المدرسة العقلية الذين يحفظون بعض الأصول وبعض القواعد الفقهية ويُنَظِّرون بها بما يوقع كثيرًا من طلبة العلم في حالة من الحيرة عند الإنكار على بعض ترهات هؤلاء العقلانيين، ثم ظهرت بعد ذلك مدرسةٌ تبناها جمهور فقهاء الأمة أدخلت علم الكلام والمنطق في مباحث هذا العلم، واعتمد الخلف هذه الطريقة في كل المذاهب تقريبًا، ورغم تحذير علماء السنة منها إلا أن هجمة مدرسة الاعتزال المتمكنة من هذا العلم دفعت كثيرًا من العلماء إلى تعلم هذا العلم للرد على المعتزلة، وقد أدى هذا الأمر بعد ذلك إلى شحن آلافٍ من كتبِ الفقهِ عند المتأخرين بمصطلحاتِ علم الأصول المعتمدِ على طريقة علم الكلام، مما دفع كثيرًا من طلبة العلم إلى تعلّم الأصول على طريقة المتكلمين». [الخونة - صـ١٩]

ومن ذلك الصلاة بالنعل في المساجد المفروشة، فقد جاء في صحيح البخاري أن أنس بن مالك رضي الله عنه سئل: «أكان النبي ﷺ يصلي في نعليه؟» فقال: «نعم»[35]، فكانوا يصلون في المساجد استنادًا على هذا الحديث بشكل تُستَفزُ بِهِ العامة، حتى حصلت مشادات ومشاكل وفتن بسبب صنيعهم، فإن كان المنكر والذي من الواجب أن تنكره - إذا ترتب عليه مفاسد - أشد من المنكر نفسه لم يجز لك أن تنكره [36] فمن باب أولى السُنّة التي لا يأثم من تركها.

فضلًا أن الرسول قد صلى حافيًا ومنتعلًا، فلم يرد أنه صلى بصفةٍ واحدة، وقد ترك النبي ﷺ أمور من الجائز فعلها حتى لا تحدث فتنة لدى الناس، كقولِهِ لعائشة: (**يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه**)[37].

من أشد الأخطاء إشراك الرؤى في العمل التنظيمي[38]، وإن من الخطأ أن تعد الجماعة الإسلامية استراتيجيتها العامة على الرؤى لا على المعطيات المادية الموجودة على أرض الواقع، فالمعطيات التي على أرض الواقع أن قبل ظهور المَهدي تسبقهُ أحداث معيّنة [39]، فتجاهل هذه الأحداث والقفز

---

[35] صحيح البخاري (٣٨٦).

[36] وقد جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/ ٢٣٠): «**ويكون الاحتساب حرامًا في حالتين: الأولى: في حق الجاهل بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يميز موضوع أحدهما عن الآخر، والثانية: أن يؤدي إنكار المنكر الى منكر أعظم منه**».

[37] صحيح البخاري (١٥٨٦).

[38] يقول المؤرخ عمر عبد الحكيم: «**إلا أن الغريب والذي يدفع للتنبيه على عدة أمور، هي إن البعض - وبينهم بعض الكبار والعاقلين - بدأ يميل لرسم خططه وتصرفاته بحسب تلك المنامات**». [رؤى وأحلام أم تمنيات وتخيلات وأوهام - صـ٤].

[39] يقول أبو محمد المقدسي: «**طبعًا أنا عاصرت هذه الأحداث، كنت وقتها في الجامعة في العراق، ولكنني تابعت الأمر بعد ذلك من خلال بقايا هذه الجماعة، وعرفت تفاصيل الأمور، حتى أنّهم أخبروني بأنّ بعض شباب الكويت، وبعض طلبة العلم في الكويت كانوا معارضين جهيمان في هذه المسألة، ومنهم شاب آنذاك كان يقال له «شاعر الإخوان» الذي هو أحمد المعلم؛ يمانيّ كان في الكويت، وكتب رسالة عن الفتن والملاحم والأحداث التي تحدث قبل ظهور المهدي، يعارض فيها جهيمان أنّ هذا ليس هو زمان المهدي؛ فذكر أدلة قال: أن الرايات السود تخرج قبل، ذكر أدلة كلها - اجتهد - بأنّ هذه الأحداث تخرج قبل ظهور المهدي، وكتب هذه الرسالة على عجالة وأرسلها مع شخص ليدرك جهيمان قبل أن يقوموا ببيعة محمد بن عبد الله القحطاني، فجاء هذا الشاب ومعه هذه الرسالة، وقد**

مباشرة على المهدي استنادًا على الرؤى من الأخطاء الشنيعة التي أدت في النهاية إلى كارثة اقتحام الحرم، و «**الإشكال عمومًا في التعاطي مع نصوص الملاحم وآخر الزمن تكمن في ثلاث صور:**

الأولى: تعين الواقع ثم البحث عن نصوص تطابقه.

الثانية: إسقاط دليل صحيح أو غيره على واقع غير مناسب.

والثالثة: الجزم بمطابقة الواقع المعين لظاهر النص بما يدل عليه يقينًا». كما قال الأستاذ ياسر الأحمدي في كتابه (ملاحم آخر الزمان عند المسلمين وأهل الكتاب وآثارها الفكرية) وحبذا الرجوع إليه خصوصًا في المطلب الثالث في الفصل الثاني (المخالفات في الاستدلال: الاستدلال بالمنامات والأوهام والخرافات) صـ١١٨-١٢٢.

ذكر الحزيمي أيضًا نفرة جهيمان من أدوات الاجتهاد وتشنيعه على من يشترط توفر خصائص معينة في المتحدث بالمسائل الشرعية، ونفرتهُ أيضًا من بعض علوم الآلة، والاقتصار على فنون معيّنة من العلم الشرعي كعلم الحديث؛ وأنا أقول لو كان مبلغ جهيمان ومن حوله من العلم هو تعلم بعض مسائل العقيدة والحديث لهان الخطب، ولكن الإشكالية في التشنيع من الاستكثار والاستزادة من العلم الشرعي بحجّة أنه غير مطلوب! فأي جماعة تقوقع نفسها في أُطُرٍ علميةٍ معينة فهي غير مؤهلة للتصدر والحكم، فالمعرفة - ليست الشرعية فحسب - ضرورة تستوجبها المرحلة لأي جماعة تسعى إلى التمكين، فبعض الجماعات قد وظفت الكوادر لديها في زيادة الجانب الإعلامي في حملتها الدعائية والدعوية، وكان لهذا الأثر الإعلامي ارتداد إيجابي على مستوى الجماعة من زيادة رصيدها البشري وتكثير سواد الجماعة، فالعلوم والمعارف هي كالسلسلة التي يكمل بعضها الآخر، كما قال

وجد الجماعة دخلت الحرم، والرسالة ما زلت أحتفظ بنسخة منها إلى اليوم بعنوان (الفتن والأحداث التي تكون بين يدي المهدي). »

[الحلقة الثالثة: الحديث عن جماعة جهيمان وحادثة الحرم].

المؤرخ عمر عبد الحكيم: «**لقد أصبحت المعرفة أهم أسلحة هذا العصر، ولا يمكن أن يقود الجهلة هذا الصراع مهما كان من إخلاصهم المفترض**»[٤٠].

وأما بخصوص «الجدال البيزنطي»: هل الشورىٰ مُلزِمةٌ أو مُعلِّمةٌ ومدىٰ انعكاس هذه المسألة علىٰ حادثة الحرم؟ فمن الواضح أن كون الشورىٰ مُلزِمةً أو مُعلِّمةً إنما ترجع إلىٰ شخص الأمير نفسه، فلو عُرف من الأمير الضعف وعدم السعة والتخصص فحينها تكون الشورىٰ مُلزمة، وبما أن جهيمان لديه ضعف ونقص في الجانب الشرعي، فحينها يكون قرار ما يُعرف بالمصطلح المعاصر «الشرعيين» مُلزم له [٤١]، فتقرير إنزال نصوص دينية علىٰ وقائع معيّنة هو أمر منوط باللجنة الشرعية أو طلاب العلم في أي جماعة بالمقام الأول، وقد ذكر الحزيمي أن الرؤوس الشرعية للجماعة مثل علي المزروعي وفيصل محمد (ابن تيمية الصغير) وعبد الله الحربي وبالإضافة إلىٰ هؤلاء: أحمد المعلم، كانوا جميعهم رافضين قضية المهدي ودخول الحرم، ومع ذلك حَسمت الجماعة قرارها في هاتين القضيتين.

فالجماعة إذن مرت في أطوار في التحلل في علاقتها مع المشايخ وطلاب العلم بدأت من المشايخ الرسميين وانتهت بطلاب العلم الموجودين في الجماعة نفسها، والذي يستقيم معه المقام أن اللجنة الشرعية في أي جماعة لا بُدَّ أن يكون لها القسط الأكبر من الصلاحية، فالجماعات الإسلامية تستند إلىٰ شرعية أفعالها من الدين مباشرةً وأعلم الناس بالدين هم طلاب العلم، فتستطيع اللجنة الشرعية إلغاء أي عمل أو أي خطوة للجماعة بشقها العسكري أو السياسي إن أرتأت أن مفاسدها أكبر أو أنها مفسدة يقينية، ولكن إشكالية الجماعات الإسلامية مع طلاب العلم تتمثَل في أمرين:

---

[٤٠] دعوة المقاومة الإسلامية العالمية – صـ٤٢.

[٤١] راجع كتاب (الدرر الحسنية؛ شرح كتاب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية – صـ٦٢) للشيخ أبي يحيىٰ الليبي.

١. لا يؤخذ بقولهم إلا في الاجتهادات التي تتوافق مع هوىٰ الأمير وما دون ذلك يُضرب بعرض الحائط، فيكون قرارهم معلم لا ملزم، ولا تكون لهم أي صلاحية فعلية.

٢. تقزيم دورهم في الجماعة مما يؤدي إلىٰ تركهم لها؛ وبقاء صنف واحد من طلاب العلم وهم الذين يستخدمون النصوص الشرعية في التبرير والتطبيل لأفعال القيادة.

ولكن يبدو أن حال الكثير من الجماعات كما قال الشيخ عمر بن محمود: «**هنالك نكتة قلتها لإخواني في الأيام الخوالي، كنت أقول لليبيين مثلًا: أنتم قذافي صغير، وللعراقيين: أنتم صدام صغير. كلكم ورث شيئًا من طاغوته بطريقةٍ مصغرة، ومهما تكلمتم عن الحكم في الإسلام فأنتم رأيتم الحكم من خلال حاكمكم، وهو من صبغ هذه الأذهان**»[٤٢].

وعطفًا علىٰ النقطة التي سبقت، استبان أن سبب دخول فيصل محمد (ابن تيمية الصغير) الحرم رغمًا عن قناعته هو الانجرار خلف ضغط الأصحاب، فقال له جهيمان: «**معليش تعال وعَلَيّ!!**» ثم دخل وشارك في الأحداث وشارك في القتل وتعطيل الصلاة رغم عدم قناعته ابتداءً بكل هذا، فهذا هو ضرر تقديم رضى الأصحاب علىٰ القناعة الشرعية المستقرة لديك، فلذا لو كان الشخصُ مصاحبًا لزمرةً من الشباب؛ ثم هؤلاء الشباب تبنوا أراء شاذة وغالية فلا بُدَّ أن يتحلىٰ بالشجاعة التي تجعلهُ يفضل مفاصلتهم والاحتفاظ بموقفه الشرعي علىٰ أن يجبن وينجر معهم فيما هو غير مقتنع به، وأحسن الشيخ عمر محمود إذ قال: «**فلا يخدعنك يا طالب العلم تشدد الجهلة، ولا تنساق وراءهم طمعًا بمدحهم وخوفًا من ذمهم، فوالله لا يريدون منك الا أن تكون جسرًا لهم على جهنم**»[٤٣].

قلنا في بداية الحديث أن المؤلف بسبب حادثة الحرم أصبح لديه رد فعل غير منضبط، فهو يحاكي الباحثين المتكلفين في انتقاد التراث، فلما فرغ من الشهادة تكلمَ ناقمًا علىٰ السلف أنهم هم الذين

---

[٤٢] بغية الآمل في جمع المقالات والمسائل (١/ ٦٥).

[٤٣] جؤنة المطيبين – صـ٣٢.

أصّلوا لقضية الرؤىٰ والتي أفضت في النهاية إلىٰ مأساة الحرم، وهذا حقيقةً من الجهل المرَّكب، فكلام أهل العلم منضبط في الفصل ما بين الرؤىٰ وحديث النفس وأضغاث الأحلام، فلو كان ما رآه جهيمان وجماعته هو أضغاث أحلام وحديث نفس؛ فلا يُلام السلف في حديثهم عن الرؤىٰ والإيمان بأنها حق، فالسلف يتكلمون عن «رؤىٰ» وما حصل لجهيمان ليس رؤية بل «أضغاث أحلام» فإنزال صنيع جهيمان علىٰ الرؤىٰ من هو جنس الخطأ في التصور. وفي العرف يطلق اسم «رؤىٰ» علىٰ كل ما ورد؛ ولكن عند التقصّي فإنه يستفصل ويُفصل ما بين الأصناف الثلاث، ورغم إيمان السلف أن الرؤية حق ولكن رّتبوا عليها أمرًا قد تجاهل عنه أو جهله الحزيمي وهو «**أن رؤيا المنام لا تثبت بها الأحكام؛ ولكنها استئناس**» كما قال الإمام البهوتي الحنبلي[٤٤]، وهذا خلاف قوله أنهم جعلوا من الرؤيا مصدرًا للتشريع والاستدلال ثم يسترسل الحزيمي في نقده للجماعات الإسلامية بنقد غريب فيقول: «**ولهذا من الخطأ أن نستغرب عدم وجود مشروع مستقبلي للجماعات الأصولية فهي تعتقد عمومًا إننا في آخر الزمان وأن المهدي المنتظر والمسيح الدجال سيظهر فما الداعي للقلق على المستقبل؟**»، هذا الكلام له وجه من الاعتبار حينما تكون الجماعات «الأصولية» معتزلةً تنتظر خروج المهدي، ولكن الجماعات «الأصولية» لديها مشاريع تريد تطبيقها؛ ولديها سعي حثيث للسلطة، وأن جميع غاياتهم من التملك – كما يقولون – هو النهضة بالأمة – أي مشاريع مستقبلية – فلا يقول كلام الحزيمي إلا شخص منفصم عن الواقع.

ثم يسترسلُ الحزيمي ويقول أن الخلاف ما بين الظاهرية والحنابلة خلاف بسيط، وأن كلاهما يتفق في أصل أخذ النص علىٰ ظاهره، وهذا أمر مضحك، لأن الحنابلة – جميعهم – يأخذون بالقياس [٤٥] بخلاف الظاهرية الذين لا يأخذون به، فإن اختلفت أدوات الاجتهاد والاستنباط فلا تسل عن

---

[٤٤] كشاف القناع عن الإقناع (١٤/ ٣١٤).

[٤٥] انظر الى كتاب (أصول الفقه) لمحمد أبو زهرة، صـ٢٧٣، وكتاب: (أصول مذهب الإمام أحمد: دراسة أصولية مقارنة) – صـ٦٢٩ للدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة.

الاختلاف في الفتوىٰ. فضلًا علىٰ أن ابن حزم الظاهري لم يأخذ النصوص علىٰ ظاهرها في الكثير من أبواب العقائد، بل أجرىٰ مجرىٰ التأويل[46]، مما دفع بعض السلف أن يصفه بالجهمي الجلد، وهذا خلاف منهج السلف في التعاطي مع الصفات بإمرارها علىٰ ظاهرها من غير تشبيه ولا تكيف ولا تعطيل ولا تأويل، فكيف يقول الحزيمي: «**لاحظ أن ابن حزم يكاد ينادي بنفس ما تنادي به الجماعة السلفية المحتسبة من الأخذ بظاهر النص في الكتاب والحديث**»؟ ثم يقول الحزيمي: «**فالحلف الذي كان بين عوام الحنابلة وبعض الظاهرية مثل أبو بكر محمد بن داود كان مستغربًا، فكان ابن داود يحرض عوام الحنابلة على ابن جرير الطبري؛ لأن كلهم يتفقون على الأخذ بظاهر النص**».، فهل حقًا أن سبب اتفاق الحنابلة مع ابن داود الظاهري في خصومتهم لابن جرير هو الأخذ بظاهر نص؟ فالتهمة التي بسببها اتفق هؤلاء معًا هي رميه بالرفض، وقد قال ابن كثير في البداية والنهاية: «**وإنما تقلدوا** - أي الحنابلة - **ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري، حيث كان يتكلم فيه، ويرميه بالعظائم والرفض**»، وهي تُهمة باطلة بلا أدنىٰ شك، وأقام طه محمد نجار رمضان بحثًا في أصول الخلاف الذي حصل بين الحنابلة وابن جرير الطبري في كتابه (أصول الدين عند الإمام الطبري) ما بين (صـ٢٦-٣٣) فَيُرجع إليها.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٠ نوفمبر ٢٠١٦م - ٢٠ صفر ١٤٣٨هـ

[46] يقول الشيخ سليمان العلوان: «**وأما ابن حزم في مسألة الأسماء والصفات فنعم فهو يجري على أصول المتأخرين من أهل الكلام، فيأول في الأسماء والصفات، ويأول كثيرًا جدًا، والإمام ابن عبد الهادي وصفه في كتابه (طبقات علماء الحديث): "بأنه جهمي جلد!"**» [مادة: مذهب ابن حزم في الأسماء والصفات/ من أسطوانة العلوان الثالثة].

الحيل النفسية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الحيل النفسية.**
- **اسم المؤلف: نهاد درويش.**
- **عدد الصفحات: ٤٠.**
- **دار النشر: مكتبة دار الفتح والمكتب الإسلامي.**

التعليق والمناقشة:

كتاب (الحيل النفسية) لنهاد درويش، هو كتاب جميل وقصير ويُنتهي منه في جلسة، وفي نفس الوقت عميق الدلالة، الذي جعلني أشرعُ فيها هو نصيحة الشيخ عمر محمود بقراءته ضمن مناقشتِهِ لكِتاب (المسؤولية) لمحمد أمين، والشيخ معروف أنه يضيف البعد النفسي في التحليل والاستقراء، فلذلك نصيحته معتبرة في هذا الباب، الكتاب باختصار يناقش قضية الحيل الشيطانية التي تعيق الشخص من التقدم أو العطاء، وهذه الحيل لا تتجلىٰ بأوضح صورها لمن يقع فيها، بل هي تتزخرف وتُخفي نفسها، فأول حيلة من هذه الحيل «العائق الوحيد» وهي أن الشخص يقول لن ألتزم حتىٰ أنهي الدراسة ولما ينهي الدراسة يُعيد هذا العائق بتشكيل نفسه في قالب جديد، فيقتنع الشخص أنه لم يلتزم حتىٰ يعمل، ولما يعمل فإنه لم يلتزم حتىٰ يتزوج إلىٰ أن ينقضي العمر وهو يسوّف بسبب «العائق الوحيد»، فلذلك هذه الخطط لا يصلح تأجيلها بل إشراكها في واقعك مع مشاغلك الأخرىٰ، ثم النظر في حال الآخرين والمقارنة معهم، فلماذا أنا لا ألتزم وفلان ملتزم وهو يعمل ويدرس في آن واحد؟ إذن ممكن أن يلتزم الشخص وهو يدرس أو يعمل، ومن الجيد أن الكاتب أضاف تجربة أخرىٰ في مجال التكوين الثقافي؛ وأنا شخصيًا وقعتُ فيها، فأقول: لن أقرأ حتىٰ أشتري كذا وكذا ولن أقرأ حتىٰ أُهيّئ لي زاوية خاصة للقراءة...إلخ، فوجدت أن العمر يضيع وأنا لم أقرأ

شيئًا، فبدأت أقرأ في كل الظروف وبشكل مباشر دون إكمال المقدمات التي لن تنتهي. وأحيانًا يُعطل البعض نفسه سعيًا من الحصول على أمور بعيدة لا يمكن الوصل إليها دفعةً واحدة، ولكن يصر أنهُ لن يبدأ إلا بها، ويكون هذا التمني النرجسي هو «العائق الوحيد»، بينما لو بدأ بالمتاح وعمل بما يستطيع، لمكنه الله من عمل ما لم يكن يستطيعه، وهنا أذكر قصة أحد الشباب الذين اشتغل منظفًا في أحد الوزارات حتى تدرج وأصبح مسؤول قسم، ولكن تخيل لو قال أني لن أعمل في هذه الوزارة إلا مسؤول قسم؛ فهل كان سوف يقبل ويصل إلى هذا المنصب؟ الجواب: لا. فالحل الغائي من التخلص من هذا الداء هو باستثمار الوقت - ولو كان قليلًا - للبدء. مع وجود الصبر ورغبة غير منقطعة في المحاولة، فصاحب «الحلم النرجسي» إن قرر أن يبدأ من البداية ثم تعثر؛ ولم يكن صاحب صبر فسوف يعود إلى ما كان عليه، ويقول: لا فائدة! وسوف يدور في دائرة مفرغة؛ لا هو الذي استفاد ولا هو الذي فاد.

أما باقي الحيل في الكتاب فلن أتكلم عنها وهما «الكمال الزائف» و«تضخيم جانب واحد لتسويع حالة معينة» وأتركهم لمن سوف يقرأ الكتيب فهو يقع في ٤٠ صفحة فقط.

٥ ديسمبر ٢٠١٦م - ٦ ربيع الأول ١٤٣٨هـ

ملاك غروزني

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: ملاك غروزني: بارقة أمل في ظلمة الشيشان.**
- **اسم المؤلف: آسني سيرستاد.**
- **اسم المترجم: أفنان سعد الدين.**
- **عدد الصفحات: ٤٤٧.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

فهمت من أحد الأصحاب مرةً أنه قد أشار علي بكتاب (داغستان بلدي) لرسول حمزاتوف، وهذا الكتاب يُجسّد فعليًا مشكلة تحويل النصوص الأدبية من لغة إلى لغة أخرى، فالنص المتضمين للبلاغة تكمن قوته في اللغة التي كتب فيها، فقوة ودقة المعنى الذي يريد الكاتب إيصاله يكمن غالبًا باللغة التي يتقنها المؤلف ويستطيع أن يعبر من خلالها، ولكن عندما يتم تحويل هذه النصوص إلى لغة أخرى، فغالبًا ما تصبح كلمات عادية وتُفرغ من قوتها البلاغية، ومن كان لديه إلمام باللغة الإنجليزية مثلًا فليقارن بين نصوص وليم شكسبير الأدبية بلغتِهِ الأم وبين النص المترجم، وكذلك من يجيد الروسية فليطلع على الملحمة الأدبية التي كتبها ألكسي تولستوي في مقدمة ثلاثية (دروب الآلام) وبين النص المترجم، تجد تباينًا واضحًا، وتستطيع أن تعمل عملية عكسية، فاقرأ مثلًا أبيات الشعر العربية التي تترجم إلى لغات أخرى، هل يحافظ النص الشعري على قوته نفسها بلغة أخرى؟ الجواب: لا.

فالخلاصة من هذا كله، أن هذا الكتاب سبب لي غثيانًا، رغم أن رسول حمزاتوف من الشعراء والأدباء البارزين، ولكن عملية الترجمة تَهدم أحيانًا أكثر مما تبني، فاشتكيت إلى صاحبي الذي أشار

علي، فأشار عليّ بكتاب آخر تعويضًا، وهو كتاب (ملاك غروزني: بارقة أمل في ظلمة الشيشان) للصحفية النرويجية آسني سييرستاد، ومن الغريب أن هذه الصحفية أغلب كتبها كتبت من داخل أراضي الحروب، مثلًا كتابها عن الشيشان الآنف ذكره، ثم كتابها الذي ذاع صيتها من خلاله وتصدر قوائم الكتب الأكثر مبيعًا وهو عن أفغانستان بعنوان: (بائع الكتب في كابول)، ثم لها كتاب آخر عن العراق تحت عنوان: (مائة يوم ويوم في بغداد).

أسلوب الكاتبة في التوثيق يذكرني بما قاله الشيخ المفكر عمر محمود أبو قتادة، في مناقشتهِ لكتاب (السجينة)، إذ يقول أنه أُعجب بأسلوب الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته، إذ بدأ يسرد ويَحكي القصص من الأسفل أي من المجتمع نفسه، وليس من الأعلى، أي أن عملية التأريخ انقلبت رأسًا على عقب، بخلاف النمط التقليدي في كتب التاريخ، الذي يركز على حال علية القوم كالملوك وأحوالهم وحال السلطة وتقلباتها[٤٧]، مع الإهمال الواضح للشريحة التي تقبع في الأسفل، فهذا الكتاب يمشي على هذا النمط في الأغلب، رغم أنه دمج بين الاثنين، فالصحفية هذه أقامت مقابلة مع الرئيس الشيشاني الحالي رمضان قديروف، واستطردت نوعًا ما في الكلام عن المجتمع الخاص برمضان، ومع ذلك المساحة الأكبر في كتابها لقصص البسطاء من الناس.

أنا أقول أن استخدام أسلوب الأرشفة من الأسفل جيد وهو إضافة جديدة ولكن بشرط ألا يلجأ إلى هذا الأسلوب في السرد إلا إذا كان هنالك فائض في الكلام عن التغيرات الكبرى سياسيًا، ولكن لا قيمة لكلام الطبقة السفلى من المجتمع، مع وجود النقص في الأعلى.

فالكتاب باختصار لم يركز على كيفية سير الحرب في الشيشان، بل ركز في المقام الأول على أثر الحروب على البشر.

نستفيد من الكتاب أمورًا منها:

---

[٤٧] انظر: مناقشة كتاب (السجينة) ضمن مشروع: ألف كتاب قبل الممات.

قصّة الجندي الروسي (نيكولاي) الذي أُصيب بلغم أرضي فغدىٰ مصابًا، وفي قصّة نيكولاي إشارات تؤكد علىٰ بعض المعاني القرآنية في الصراع، فسوف ترىٰ هذه الآيات في أبهىٰ صورها [**إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**]، **وقوله**: [**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**]، فنيكولاي داس علىٰ لغم أرضي، فأُصيب بتهشيم في الجمجمة، وضرر في الدماغ، وكدمات شديدة، ونزيف وضرر واضح في الجهاز العصبي المركزي، وجسم غريب في الصدغ الأيسر، وتلف في كلا بؤبؤي العينين، مما أدىٰ إلىٰ العمىٰ التام، كل هذه الأمور التي أصابته جراء خدمته في الجيش، فلما قدم أوراقًا للحصول علىٰ راتب تقاعدي فرد الموظف المسؤول علىٰ والدته: «**وفقًا لوثائقنا هو لايزال في الشيشان**». فقالت والدته: «**لقد أمضى الربيع كله في مستشفى وزارة الدفاع في موسكو**». فردّ عليها بنفس الرد! وفي اليوم التالي جلبت والدة نيكولاي ابنها بنفسه إلىٰ المقر، فرد عليها الموظف البيروقراطي دون أن يضرب اعتبارًا: «**في كل الأحوال، ما لم أحصل على تأكيد أنه سُرِّح من الجيش، فهو بالنسبة لي لا يزال في الشيشان**». فأصبحت والدته تتنقل من الهيئة العسكرية المحلية وإلىٰ الهيئة العسكرية في المقاطعة، وإلىٰ المقر العسكري الإقليمي، ووزارة الدفاع وتتصل علىٰ أعضاء البرلمان، وعلىٰ فرقة نيكولاي العسكرية في الشيشان، بعد كل هذا الذل وسؤال الناس، أتتها رسالة التسريح أخيرًا، ولكن تم تصنيف إصابة نيكولاي علىٰ أنها من الدرجة الثانية (وهم الذين يعانون من مشاكل صحية معينة ولكنهم لائقون صحيًا بشكل جزئي للعمل)! أي أنه لا يستحق أن ينال راتبه التقاعدي كاملاً.

وقد ذكر نيكولاي أن أثناء الحرب في الشيشان أصبح الجنود ملزمين بشراء طعامهم الشحيح من مالهم الخاص، وأن الضباط يستولون علىٰ أغلب راتب الجندي هناك، وتَعيّن علىٰ الجنود شراء الملابس العسكرية بأموالهم، وأجبرهم الضباط بالإكراه والضرب والتهديد علىٰ توقيع العقود لبقائهم في الجيش ثلاث سنوات إضافية، حتىٰ يسدوا النقص الموجود في صفوفهم. وإذا أُصيب

الجندي وتم نقله إلى مستشفى وزارة الدفاع فإن الخدمة الملائمة لا تكون مجانية، بل لا بد أن يدفع الجندي المصاب قرابة المئة روبل عن كل يوم.

فرغم تنصلهم من جنودهم الذين يضحون من أجل حكومة بلادهم عندما يصابون، إلا أنها الحكومة تضيف فوق ذلك كله أنهم يرمون جنودهم في المهالك دون أي اعتبار لهم، فمثلًا جاء في الكتاب أن وزير الدفاع الروسي وفي أثناء الاحتفال بعيد ميلاده أصدر قرارًا باقتحام الشيشان وقال أن فوجًا واحدًا ممكن أن يحل المشكلة في غضون ساعتين! فدخل هذا الفوج إلى الشيشان دون خرائط ولا أوامر محددة ومن دون أن تعرف القوات أين يجب أن تتمركز، ولم يتلق أيًا من الجنود أي تدريب خاص بحرب المدن، فتم استدراجهم إلى داخل العاصمة الشيشانية فتمت إبادتهم عن بكرة أبيهم. وتقول الكاتبة أن أوامر غراتشف باقتحام غروزني قد صدرت منه تقريبًا بناءً على نزوة أصابته في حفلة السكر بقاعدة عسكرية بعيد ميلاده الثالث والأربعون!!

بل والأشدُ منه والأشنع - وهذا خارج عما في الكتاب) ولكن تكميلًا للفكرة العامة - في الحرب العالمية الثانية، عندما انحاز الجيش الأحمر عن المناطق الشرقية لروسيا فكان يُدمِّر القرى الروسية ويحرقها بأهلها في طريق انحيازه، حتى لا يجد النازيون أي مورد غذائي أو أي مسكن خلال سيرهم الطويل إلى موسكو! [48]

والمقصد من هذا السرد هو توصيف لحال وبيان العقلية العسكرية الشرقية؛ التي لم تلق بالًا قط بالعنصر البشري في صراعاتها العسكرية! وقولنا بالعنصر البشري ليس المقصود فيهِ هو خصومهم

[48] هذه المعلومة قد استقيتها من أحد الأفلام الوثائقية، ولكن بحثت عنه طويلًا ولم تسعفني الذاكرة لتذكر اسمه، والتكتيك هذا يسمى في العرف العسكري بـ«الأرض المحروقة»، وقد استخدمته روسيا القيصرية أثناء غزو نابليون لهم، واستئناسًا وليس استدلالًا فقد قرأت عن هذا أيضًا في رواية (Child 44) لتوم روب سميث، وهي قصة حقيقة ذُكرَ فيها أمر حرق القرى بأهلها عند الانسحاب. ولكن بمنظور عام فالعقيدة الشيوعية والتي انتقلت من حيز التنظير إلى التطبيق في العالم الشرقي بالاتحاد السوفيتي، كانت تؤمن بقضية المجازر الجماعية لغربلة المجتمع، فمثلًا قتلوا سبع ملايين شخص في أوكرانيا في الثلاثينات، وراجع إن شئت الفلم الوثائقي المهم والضخم (The Soviet Story).

بل ذواتهم ومن هو محسوب عليهم، يقول عبد الله العدم شارحًا العقلية العسكرية الشرقية: «**العقيدة الشرقيّة قائمة على مبدأ «مزيد من الرجال قليل من النيران» أي أن الهدف الذي يعترض القوّة المُتقدمة من الجيش الشرقي (كالجيش الروسي أو الدول التي في المنظومة الشيوعيّة الاشتراكيّة، كأوروبا الشرقيّة) فالجيش الذي يعترضه هدف مُعيّن ليس ضروريًا أن تدكَّه أنت بالنيران حتى تُخمد أي مُقاومة فيه، هذا ليس عندهم ضرورة؛ عندهم الأساس تقدم موجات إثر موجات من الرجال والجنود حتى يُحكموا السيطرة على هذا الهدف أو هذا الموقع، فالجندي الشرقي ليس له أي قيمة**»[٤٩]. وقد علل عبد الله العدم سبب تقديم قيمة الآلة على قيمة البشر في المنظومة الشرقية في نص لم أضعه لأنه طويل، يراجع في مظانه. ولكن أقول: رغم أن الدول الشرقية قد تغيرت نظمها السياسة كثيرًا بسقوط الشيوعية أو تعديل النظام إلى نظام رأسمال الدولة [٥٠] (كالنظام الصيني) إلا أن العقلية العسكرية ما زالت كما هي في الأغلب.

حصلت تغيرات مثل استخدام مبدأ الكثافة النيرانية في المعركة مع تكتيك الموجات البشرية، وهذا رأيناه مؤخرًا في معارك حلب وريفها: قصف جوي روسي جنوني مع اقتحام القوات الإيرانية كالموجات البشرية على الأرض، ومع ذلك مازالوا يستخدمون أسلوب الموجات البشرية دون اعتبار أي قيمة لجنودهم، وهذا له أسباب ربما تختلف نوعًا ما عن تعليل العدم، أو ربما شرحًا لما تطرق إليه.

فقلت: أن عملية التدويل السياسي في هذه النظم لا تسير وفق الآلية الديمقراطية... بمعنى أن ما يسمى في علم السياسة بـ«جماعات الضغط» [٥١] والتي تشكل الرأي العام، فتجعل الساسة يحجمون

[٤٩] سلسلة صناعة الإرهاب، الدرس (٣٨) و (٣٩).

[٥٠] راجع مقال: (الصين.. اقتصاد رأسمالي تقوده الدولة)، الجزيرة نت، ٨ أبريل ٢٠١٢.

[٥١] وجماعات الضغط هي أطراف تمارس الضغط على السلطة لكي تعدل عن خطوة ترى أنها تتضاد مع مصلحتها، وراجع في ذلك تعريف د.ناظم الجسور المطول لمصطلح ومفهوم «جماعات الضغط» في كتابه (موسوعة العلوم السياسة - صـ١٤٩)، والأحزاب

ويخافون من ردود الأفعال إن تصرفوا بحماقة كما حصل مع الأمريكان في حرب الفيتنام عندما تسربت الأرقام الحقيقة لأعداد القتلى[٥٢]، هؤلاء غير موجودين في هذه النظم الشرقية، فهذه النظم وإن استخدمت الديمقراطية غطاءً شكليًا، إلا أنها ليست كذلك في الحقيقة، فهي تُقْدِمُ على خطوات تراها مناسبة دون أن تخاف من ردود الفعل، فالمعارضة في تلك الدول يكمم صوتها، وتمارس كل أساليب الضغط والابتزاز ضدها، فلا تستطيع أن تستغل أي زلة قد يقع فيها الحزب الحاكم! لإحداث ضغط حقيقي قد تجعل الجماهير تنقلب عليه[٥٣].

فلا يوجد رد فعل قد يسقط حكوماتهم - كما سقطت حكومة حزب الشعب اليميني في إسبانيا - بعد حصول تفجيرات مدريد عام ٢٠٠٤، فكانت نتيجة سقوط مئتي قتيل في مدريد: سقوط الحزب الحاكم بالإضافة إلى سحب القوات الإسبانية من العراق![٥٤]

السياسة غالبًا ما تتزاوج مع اللوبيات لدعمها ماديًا لخوض الانتخابات، فاللوبيات تضمن مصالحها من خلال من تدعمهم في مجلس الكونجرس - مثلًا -، وهؤلاء الساسة قد يستغلون سقطات خصومهم السياسيين من أجل إسقاطهم وتحقيق أغلبية تمكنهم من كسر المشاريع التي يسنها خصومهم والتي قد تتعارض مع مصالح لوبيات ومجموعات الضغط التي يدعمونهم، ومايكل دوبز وصف - نوعًا ما - دور هذه الشركات واللوبيات في صياغة القرار السياسي في روايته (House of Cards)، وهذا النوع من التنافس السياسي غير موجود في الكثير من الدول الشرقية، لذلك يطلق بعض المفكرين تسمية «ديمقراطية ناشئة» على هذه الدول لعزلها عن الدول التي تمارس الديمقراطية بشكلها الحقيقي.

[٥٢] وثائقي: (نهاية الحرب) ضمن سلسلة (جيل السبعينيات)، قناة الجزيرة الوثائقية.

[٥٣] على سبيل المثال لا الحصر يقول العبيري عن عملية مسرح موسكو التي سوف يأتي الكلام عنها: «**صوت مجلس النواب الروسي (الدوما) بعد العملية على مشروع قانون يحد بقوة من حرية إعطاء المعلومات لوسائل الإعلام حول (عملية مكافحة الإرهاب) وبناءً عليه قامت الاستخبارات الروسية بمداهمة مكتب مجلة (فرسيا) الروسية المعروفة بإحراجها للحكومة، وكانت المجلة تعزم إصدار تحقيق من أربع صفحات في عددها القادم عن عملية احتجاز الرهائن، وكعادتها فإن التحقيق لن يروق للاستخبارات الروسية التي قررت مصادرة معدات و إرشيف المجلة منعًا لصدورها مرة أخرى**». [عملية مسرح موسكو - صـ٩].
وعملية الاغتيال السياسي في روسيا طالت بعض أقطاب المعارضة مما على صوتهم! كأمثال زعيم المعارضة الروسي بوريس نمتسوف وكذلك الصحفية آنا بوليتكوفسكايا التي أتى ذكرها في الكتاب.

[٥٤] راجع: وثائقي (خيوط مدريد)، قناة الجزيرة الوثائقية.

تغيرات سياسة هائلة تحصل فقط من أجل مئتي نفس، وأما في روسيا فعلىٰ سبيل المثال عندما حصلت عملية حصار مسرح موسكو، بدخول قوات شيشانية واحتجزوا الرهائن، وطالبوا بسحب القوات الروسية من الشيشان، ماذا كان رد الفعل؟ يقول العدم: «**عندما استطاع الإخوة في الشيشان أن يسيطروا على مسرح موسكو وأخذوا الرهائن – حوالي ألف رهينة – بعد ذلك قامت المخابرات الروسية برش الغازات السامة والكيماوية مما أدى إلى مقتل الأخوة ومقتل الناس أيضًا، قُتل تقريبًا أربعمائة روسي في هذه العملية بسبب استنشاقهم للغازات السامة، طبعًا بلد مثل روسيا تفعل ذلك لأن الإنسان ليس له قيمة كبيرة في روسيا فيجرؤون على ذلك، أما في بلاد مثل أمريكا أو ألمانيا أو أوروبا الغربية لا تستطيع الحكومة أن تجرؤ على مثل هذا الفعل**»[٥٥].

وهذا كلام أكده الصحفي البريطاني مارك فرانشتي والموجود آنذاك مغطيًا لعملية الحصار: «**إن الرأي العام في روسيا يتعاطى بطريقة غريبة، فمن السهل إلى حد ما في روسيا التعامل مع عملية اختطاف رهائن بعدد كبير من الإصابات بعكس ما يجري في بلد آخر من طرح أسئلة وطلبات استقالة**»[٥٦]. والأكثر غرابةً من هذا، هو طلب المشافي التي استقبلت الرهائن الذين اختنقوا بالغاز من السلطات الروسية أن يعرفوا مكونات الغاز حتىٰ يعملوا ترياقًا مضادًا له، فرفضت السلطات ذلك بدعوىٰ السرية وجعلت المصابين يلاقون مصيرهم!

فمن المعاني القرآنية كذلك: إنهم ويخافون من مسلمي الشيشان أشد الخوف، وحالهم كنا يصف الله عز وجل: [**لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ**]، فقد ذكرنا أن كان هنالك نقص في عدد الملتحقين في الجيش في تلك الفترة، وقد ذكر نيكولاي أن وسيلة الضغط التي اعتمدها الضباط علىٰ الجنود لتمديد عقودهم ثلاث سنوات إضافية هي تهديدهم بنقلهم إلىٰ الجبال حيث تكون هناك أشد المعارك ضراوةً مع الشيشانيين، فعلىٰ إثر ذلك وافقوا خوفًا من المواجهة، فهم ليسوا جميعًا وليسوا يدًا

---

[٥٥] سلسلة صناعة الإرهاب، الدرس (٨).

[٥٦] وثائقي (حصار مسرح موسكو) ضمن سلسلة (مواقف حرجة)، قناة: ناشيونال جيوغرافيك.

واحدة، بل القوي فيهم يأكل حق الضعيف - كما أسلفنا -، وهم يألمون كما نألم، وفوق ما أنهم يألمون إلا أنهم يتم تجاهلهم وإقصائهم والتخلص منهم كما يتخلص قاضي الحاجة من المنديل بعد الانتهاء من قضاء حاجته. فهذه المعاني لا بد من استحضارها، ولا بد من قراءة المشهد من كافة زواياه للوصول إلى تصور أوضح، وقد أحسن شيخنا المفكر عمر محمود أبو قتادة إذ قال: «**نحن لا نرى إلا أنفسنا فنظن أن الآخرين أفضل حالًا منا**».

ونستفيد أيضًا من عدم إحسان الظن بـ«العدو» و«العدو المحايد» وأن الاستبانة بسبيل المجرمين، سوف تختصر عليك أشواطًا طويلةً، وتُغنيك عن الوقوع في حيل ومكر هؤلاء لك، فلا يهم ما مدى نوع الماء إن كان باردًا أو حارًا طالما سوف يُفتت الصخرة وينهي تصلبها؛ فلذلك الكثير من المخالفين يستخدمون معك سلاحي النار والدبلوماسية لتحقيق مرادهم ووأد غايتك، فمحمد ﷺ عرضوا عليك المُلك، واستخدموا معه أساليب التضييق والحصار والنكال ولم يقتصروا على أسلوب واحد.

التقت الصحيفة مع رئيس الشيشان جوهر دوداييف بعد أن تقدم الروس وأصبحت قرابة ٨٠٪ من الشيشان تحت أيديهم، وعقد مؤتمرًا صحفيًا مع بعض الصحفيين، فقال لهم - والخطاب هنا موجه لدول الغرب -: «**إنكم لم تحركوا ساكنًا لتحملوا روسيا على احترام حقوق الإنسان، فبينما هم يقصفون بلدتنا تهزون أنتم أكتافكم بكل رضًا طالما أنكم تعيشون بسلام، إن عجز الأمم المتحدة عن التصرف هو وصمة عار على جبينهم! لقد كنا نأمل أن نحظى بمساعدتكم ولكنكم ختنتمونا، منذ بدأت منظمة الأمن والتعاون الأوروبية والاتحاد الأوروبي بالتوسط، ازداد الصراع سوءًا بعشرة أضعاف، كان ينبغي على الأمم المتحدة أن تفرض عقوبات اقتصادية على روسيا، ولكنكم عوضًا عن ذلك، تريدون أن تقبلوا روسيا عضوًا في الاتحاد الأوروبي!!**».

لا يجب البتّة التعويل على ما يسمى بالأمم المتحدة، خصوصًا أن تصريح دواديبف هذا كان بعد مجزرة سربرنيتسا التي حصلت في البوسنة بتواطئ مع قوات الأمم المتحدة، فالأمم المتحدة والدول الراعية ليس في قاموس مصالحها البتّة أن تقوم دولة إسلامية من طريق القتال، لأن هذا يؤثر على مصالحهم، فهذه الدولة الفتية لن تعاملهم معاملة التابع بل الند؛ فعليه كل الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها في السابق مع الحكومة التي تتعامل معهم من خلال التبعية سوف تضمحل، وزوال هذه الامتيازات يعني أن كل شيء سوف يكون بقيمته الحقيقة، وهذا بلا شك يؤثر على اقتصادهم، وأي دولة تقوم بالمفهوم الإسلامي - لا القومي - يعني أنها سوف تُهدد استقرار الدول المحيطة بها؛ يعني اتساع رقعة الظاهرة الإسلامية وتقويض نُظُمٍ حليفةٍ أو تابعةٍ لأقطاب الأمم المتحدة، مما يعني أن تكلفة الخسارة سوف تزيد عليهم. هذا اختصار موجز في بيان أن هؤلاء لم ولن يساعدوك مساعدة حقيقة لكسب قضيتك، فجميع القضايا الإسلامية التي تم تدويلها في الأمم المتحدة، فهي تدخل - في أحسن الأحوال - في مرحلة التدويل والتأجيل والتمطيط، ولدينا نماذج كالقضية الفلسطينية التي منذ إقامة الأمم المتحدة، وهي موجودة فيها ولم تحل إلى اليوم، وما يحصل كالتالي: تأتي إسرائيل وتهدم بيوت الفلسطينيين وتبني مستوطنات جديدة، فتستنكر الدول الغربية ذلك الفعل بأشد العبارات وأقساها، ثم تستمر إسرائيل في الهدم والبناء وتستمر تلك الدول بالصراخ، ولو كانت هذه الدول جادة فعلًا لَتَحَوَّلْنا من طور الكلام إلى طور الفعال، ولكن صراخهم حقن تخدير للفلسطينيين فقط حتى يروا أنهم معهم ومؤيدين لحقهم، وإن كان هذا لا قيمة له على أرض الواقع، فلذلك لا قيمة لكلام هؤلاء المعسول البتّة، ومن المحال أن يكون الداء هو الدواء.

والاستطراد في هذه النقطة، في بيان المغفلين ممن لم يستبينوا سبيل المجرمين من المعارضة السورية، فرغم تخاذل المجتمع الدولي وتفرجه على القضية السورية، لا يزال البعض يأمل أو ينادي أو يطلب من الأمم المتحدة التدخل! رغم مرور ست سنوات[٥٧]، ومن نادى واكتفى بالمناداة أهون من الذين

[٥٧] وقت كتابة هذه المراجعة.

دخلوا في التفاوض، فأصبح حالهم كحال الفلسطينيين، يأتي النظام وينقض اتفاق وقف إطلاق النار ويحرز تقدمًا ويسقط مناطقًا والدول الضامنة أو المشاركة في عملية التفاوض تصرخ وتستنكر وتشجب، وثم ماذا؟ لا أثر لهذا الصراخ على أرض الواقع، فالفصائل تتفرج وتجمد عملها وتكتفي بصراخ الدول على النظام السوري؛ لأنها تظن أنه سوف يحق حقًا ويبطل باطلًا! وسوف يستمر النظام على هذه السياسية حتى يسقط كل المناطق - لا سمح الله - ثم سوف تقول الدول لفصائل المعارضة الموجودة في تركيا: انتهى التفاوض، ليس لديكم شيء لتتفاوضوا عليه وعليكم بقبول الأمر الواقع.

وأما النقطة الثانية، وهي نقطة اغتيال جوهر دودابيف وهي إحسان الظن بخصومه، عندما طلب رقم البرلماني الروسي قسطنطين بوروي ليتكلم معه في محادثات السلام المحتملة، ولما حصلت المحادثة تعمد قسطنطين إطالتها بحيث تسنى لطائرة حربية روسية أن تلتقط الإشارة وتطلق قذيفة جو أرض مباشرة نحو الهدف لتقتل الرئيس الشيشاني. فلا يكون هنالك اتصال مباشر ما بين القائد وما بين العدو أو العدو المحتمل، إلا عندما تجرد الخصم المحتمل من أي وسيلة خطرة قد يستغلها ضدك، ومن ذلك أن بعض القيادات في مناطق الحروب، لا تدخل إليها إلا بعد أن يتم تفتيشك تفتيشًا دقيقًا وتغطية عينيك والقيادة في اتجاهات متعددة يصعب أن يخمنها الشخص في ذهنه، وإزالة كل ما هو حديد لديك من أقلام أو ساعات أو هواتف، وبعد أن ينتهي اللقاء لا تكون أنت أول من يخرج بل القائد هو أول من يخرج ويغير مكانه ثم بعد ذلك تخرج.

وقولنا: «العدو» هو ما كان صريحًا بظهور عداوته، كالطرف الذي تقاتله، وأما «العدو المحتمل» هو المدسوس من العدو ولكن لا تستطيع أن تجزم بذلك، أمثال الصحفيين، فبعض الصحفيين ليسوا صحفيين بالمعنى المستقل، بل الصحافة لم تكن له إلا غطاءً لمهنة الجاسوسية، وفي ذلك يقول العدم: **«الصحفي الأمريكي الذي قابل الشيخ في نهاية التسعينات قبل سنوات عُيّن نائبًا لمسؤول الشرطة**

الاتحادية (FBI) للأمن الداخلي الأمريكي؛ كيف ترقّى خلال سنوات إلى هذا المنصب الكبير وأصبح نائبًا أو أحد كبار المسؤولين في الـشرطة الاتحادية؟ هذا لا بُدَّ أنه عندما جاء إلى أفغانستان كان من الأمن الداخلي الأمريكي في الـشرطة الاتحادية ولكن غطاءه كان صحفيًّا، فالدول دائمًا تستخدم الصحافة غطاءً لعملية التجسس على من تريد».[٥٨] فلذلك لا بُدَّ أن تردد مقولة الفاروق عمر: «**لستُ بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يَخدعُني**». فالتصفية في سورية لا تستثني أحدًا، فتطال من يسمون بـ«المتشددين»، وتطال من يسمون بـ«المعتدلين» كأمثال قادة أحرار الشام وزهران علوش؛ لذا فلا يستطيع أن يقول أحد: أنا استثناء، أو أنا لستُ هدفًا مُحتملًا، فالكل مستهدف والاحتياط واجب.

الأمر الآخر المستفاد من هذا الكتاب، هو قضية الهيئة الدالة على الشخص؛ فبعض الهيئات مثل طريقة اللبس تدل على منهج معيَّن، فتصنف أو في أحسن الأحوال يُشك فيك لو لبست لبسًا معيَّنًا أو أخذت هيئة معينة، مثلًا اللحية التي يطلقها صاحبها دون أن يقصّرها ويخففها مع إطالة الشعر مع لبس ساعة كاسيو، له دلالة معينة، فمثلًا تم اعتقال أحدهم - كما ذكر في الكتاب - ومُورس بحقه التعذيب الشديد لأنه فقط كانت هيئته بهذا الشكل، والتي جعلت السلطات الأمنية تشك فيه وأنه من الثوار الشيشانيين فلذا من كان في دول قمعية من التي تعتقل الشخص لهويته الإسلامية المجردة؛ وينكّل فيه من أجل لبسة، لا بُدَّ أن يراعي قضية اللبس، وقضية الهيئة.

وقد حدثني أحدهم وقال ذات مرة أن أحد رجال الأعمال الذين لا شأن لهم بالعمل الإسلامي، كلما ذهب إلى مطار يؤخّر ثم يُسمح له بالدخول بعد فترة دون أي سبب واضح، ومع تكرار العملية، تسائَل «ما السبب؟!» فألمح إليه أحد رجال الأمن في المطار أن السبب هو ساعة كاسيو، فكانت هذه الساعة كأنها علامة تجارية حصرية لتيار إسلامي، واختلاف الهيئات بين الجماعات الإسلامية أحيانًا يكون واضح، فمن يخفف اللحية معروف هو من أي تيار، ومن كانت آثار الزهد

[٥٨] سلسلة صناعة الإرهاب، الدرس (٤)

والتنقل الجماعي واضحةً عليهم يعرفون هم من أي تيار، وهكذا فيستطيع الشخص أن يبعد عن نفسه التهمة بمعرفة ما هو خاص بالآخرين.

ومن الأمور التي تطرق إليها الكتاب، قصاصة أو وثيقة كتبها أحد الشيشانيين بعدما تم نفي شعب الشيشان إلىٰ كازاخستان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لاتهامهم بأنهم تعاونوا مع النازيين، وهذه الوثيقة أو المذكرات تعتبر وثيقة أرشيفية هامة تؤرخ حياة شعب عانىٰ من أجل حريته، كتبها طفل يسدعىٰ بشلام، ومما جاء فيها قوله أننا دائمًا ما كنا جائعين، ودائمًا كنا نأكل ما يجعلنا أحياء، فكنا نتسائل كيف يكون الشعور بالشبع؟

هذا النص لفت انتباهي فالكثير منا يأكل حتىٰ التخمة، فيحرك فمه ساعة أو نصف الساعة دون انقطاع من أجل الأكل، ثم «يتكاسل» أن يحرك فمه مرة واحدةً ليقول: «الحمد لله» بعد الانتهاء! فالحمد والشكر لله واجب، بينما الكثير من البشر لا يجد ما يسد ريقه وأنت أنعم الله عليك بما يتمناه أو يحلم به غيرك.

أيضًا تكلم الكتاب عن قضية الضغط علىٰ المعارض من خلال أهله، أو ما يُعرف بسياسة «العقاب الجماعي» وهذه سياسة تستخدمها الكثير من الدول بما فيها الدول العربية، والشيشان طبعًا ليست بمعزلٍ عن هذه السياسة القمعية، فتكلمت الكاتبة عن مريم، وهي إحدىٰ النساء اللواتي شاركن في عملية مسرح موسكو، فبعد أن انتهت العملية حاصروا منزل عائلتها وطاردوا أخاها الثاني حتىٰ قتلوه ثم طاردوا أخاها الثالث واعتقل ولم يسمع أحد بعدها عنه أي شيء وتم طرد الأب من العمل فضاق الحال علىٰ العائلة، فاضطروا أن يكلفوا الأخت الصغرىٰ (تسعة عشر عامًا) مع ابنها الصغير للذهاب إلىٰ جورجيا للتجارة، فهل انتهت مأساة هذه العائلة عند هذا الحد؟ الجواب: لا، فتم اعتقال الأخت الصغرىٰ وابنها علىٰ الحدود ووجِّهَت لها تهمة محاولة نسف مبنىٰ في داغستان! فلما سأل والداها عنها قالت لهم السلطات: «**إنه بقي لديكم ابن واحد، فإن أردتم الاحتفاظ به فكفوا**

عن المجيء!» هل انتهت المأساة عند هذا الحد؟! الجواب: لا!! تم الإعلان في إحدىٰ القنوات الداغستانية عن طفل ضائع يتكلم الشيشانية ووضعوا إعلانًا كي يراه أهله ولما ذهب جده وأخذه وجد أن الطفل أصبح مريضًا نفسيًا! كل هذه المصائب عقابًا لمريم، فأخذوا عائلتها بجريرتها هي اتباعًا للسياسة القائلة أن «شجرة الفاسد أصبحت كذلك لأن جذوره فاسدة؛ فلا بُدَّ من اجتثاث الجذور، لأن هذه الجذور لن تخرج لنا إلا الفاسد»[٥٩] وقد ذهب البعض ممن رأىٰ أن الحل لا يكون إلا بالعمل المسلح، أن لا بُدَّ أن يوطّن الشخص نفسه، لدرجة يصل فيها أنه لو سمع خبر مقتل عائلته بأكملها أن لا يرف لهُ جفن [٦٠]، طبعًا بغض النظر عن رد الفعل المبالغ فيه هذا والذي لا يصدر إلا من شخص قد مات قلبه وتجرد من إنسانيته، ولكن في المجمل من اختار طريق المقارعة، فلا بُدَّ أن يضع في ذهنه حصول الانتقام من أهله لما يفعله، وهذا من ردود الفعل المفهومة، ليس لدىٰ الإنسان فحسب بل حتىٰ لدىٰ الحيوان، فلو تقاتل أسدين علىٰ زعامة القطيع وهُزم الملك السابق، فإن الملك الجديد أول ما يقوم به هو أن يقتل أبناء الأسد السابق جميعًا، ويعيد غربلة القطيع من جديد، وقد تكلم شيخنا المفكر عمر بن محمود أبو قتادة عن هذا في مطلع مناقشتهِ لكتاب (السجينة) لمليكة أوفقير، وهي ابنة الجنرال المغربي محمد أوفقير الذي قاد محاولة انقلاب علىٰ ملك المغرب الحسن الثاني وفشلت، فقام الحسن الثاني بالتنكّيل بأسرة محمد أوفقير بعد فشل الانقلاب، فرد الفعل هذا من قبل سلطات لا أخلاقَ لها، أمرٌ طبيعي.

[٥٩] وهذه النماذج سوف تراها كثيرًا في كتاب (القائد العزيز) للمنشق الكوري الشمالي جانغ جين سونغ، مثلًا لما كان يحلم أن يكون كدفورجاك، زجرتهُ أمهُ قائلتةً إن قلت هذا لأحد فسوف تتهم العائلة كلها بالفساد! (انظر: كتاب القائد العزيز – صـ٥١)، وكذلك مجرد عدم الإذعان الوفي لسلاة كيم، والتحدي مهما كان طفيًا فإنه يرسل مع ثلاثة أجيال من عائلته (يعني الجد والأب والابن) إلىٰ معتقل للتعذيب حتىٰ تنتهي سلالة العائلة. (انظر: كتاب القائد العزيز – صـ١٥١).

[٦٠] يقول أبو بكر ناجي مثلًا: «**حتى إن أحد القادة الأفغان كان يجلس مع الشيخ عبد الله عزام رحمه الله فأتته رسالة فيها خبر قتل أكثر من عشرين فرد من عائلته أثناء قصف إحدى القرى والرجل يستمر في الحديث فيقول له الشيخ: "ما الخبر الذي جاءك" فيخبره، ويكمل ما كانا يتحاوران فيه وكأن شيئًا لم يحدث، وهذه هي الحرب، ويجب أن تتعوّد الشعوب عليها وإلا فمتى وكيف سنخرج من التيه؟**» [إدارة التوحش – صـ٤٤]

وختامًا تكلم الكتاب أيضًا عن العادات والتقاليد الشيشانية، ومن أكثرها بروزًا للقارئ العربي هو أنه في حين الزواج فإن أقارب الزوج يأتون ويأخذون الزوجة كما يقضي التقليد في الشيشان، ويقام حفل الزفاف بهدوء دون حضور أفراد أسرتها، وهذا أيضًا بحسب التقاليد الشيشانية: فعائلة العريس فقط هي من تحتفل بالزفاف.

فلا نملك إلا أن نقول: اللهمَّ شَيِّشِنْ عاداتنا وتقاليدنا!!

١٢ فبراير ٢٠١٧م – ١٥ جمادىٰ الأول ١٤٣٨هـ

مذبحة القلعة وغياهب غوانتنامو

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مذبحة القلعة وغياهب غوانتنامو.**
- **اسم المؤلف: وليد محمد الحاج.**
- **عدد الصفحات: ١٧٥.**
- **دار النشر: دار القمري للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

ما يميز كتاب وليد محمد الحاج هو بساطة الطرح دون إسهاب ممل ولا اختصار مخل، فكان مباشرًا في طرح الحدث ولم يستعض بأدوات الإطالة كالتأمل الأدبي (الذي استخدمه أيمن العتوم مثلًا في رواية: يسمعون حسيسها) أو الحشو الزائد (لأن البعض ارتسم في أذهانهم أن الكتاب لا بُدَّ أن يتجاوز ٣٠٠ صفحة حتى لو كان محتواه يقع في ١٠٠ صفحة، فهم يحشون ويُكثرون من الكلام الإنشائي لتكثير عدد الصفحات) وكذلك لم يكن الكتاب مختصرًا الحدثَ على شكل رؤوس أقلام، بل كان متزنًا في طرحه بسيطًا في عباراته.

وتكمن أهمية كتاب وليد محمد الحاج الثانية في كونه يؤرخ لحدثٍ مهمٍ ومِفصَلي في أحداث الغزو الأمريكي لأفغانستان وهو حدث مذبحة القلعة الجنك، وهو من القلة القليلة الناجية فأوجد في روايته مصدرًا جديدًا يتفوق على الرواية الوحيدة التي رُواتُها الصحف والقنوات عن الحدث ذاته (والتي نقل شيئًا منها الإعلامي أحمد منصور في برنامج شاهد على العصر)، ولاحقًا أُضيفت شهادة جديدة ولكنها مختصرة للغاية، رواها أحد الناجين الذين أُفرج عنهم من غوانتانامو وقد أوردها (طاهر الزهراني) في روايته (جانجي) وقد سألت المؤلف شخصيًا إن كان هذا الفصل من الرواية

هو تأليف من الروائي أم شهادة تاريخية للمعتقل السابق في غوانتانامو مع بعض الإضافات الأدبية؟ فقال هي شهادة تاريخية منه مع بعض الإضافات للصنعة الروائية، وصاحب طاهر كان معتقلًا سابقًا في غوانتانامو رَمَزَ إليه في الرواية باسم مستعار وهو (خالد القرشي) هي شهادة مُجملة تجد تفصيلها في كتاب وليد الحاج، وأحيانًا يتكلم صاحبه عن أحداث لم يروها وليد لأن كل واحد منها شاهد زاوية معينة من الحدث والكثير من سردهم متفق عليه، وأحيانًا يكون السرد متعارضًا، وسوف نركز هنا على التعارض، فمثلًا من نقاط التعارض:

- الاختلاف في عرض بنود الاتفاق ما بين الطالبان وقوات دستم، فوليد يقول:

١. أن تترك قوات طالبان مدينة قندوز لدستم ولا تأخذها قوات مسعود شاه (وهذا ذكره أيضًا طاهر في روايته).

٢. أن يمر عبرها الأفغان والباكستايون والأوزبك دون العرب ثم لما قيل لهم لا يوجد عرب سمحوا بذلك (وهذا لم يذكره طاهر في روايته).

ولكن نقطة الاختلاف تكمن في الشرط الثالث:

٣. حمل الأسلحة الشخصية: (وليد أكد على أن الاتفاق تم بالسماح بحمل الأسلحة الخفيفة بينما طاهر قال العكس وهو الاتفاق تم بعدم حمل الأسلحة).

ولكن كلا الروايتين أكدتا على حمل السلاح حتى قبل دخول مزار شريف! وأظن والله أعلم أن جماعة دستم وافقوا على حمل السلاح الخفيف وثم بعد أن يخرج هؤلاء ويحصل الانقطاع ما بينهم وما بين مركز في القيادة في قندوز يضعونهم تحت أمر الواقع ويطالبونهم بنزع السلاح، وأظن أن هكذا سوف نوفق بين الروايات.

- والاختلاف أيضًا حول عدد المجاهدين الذين دخلوا القلعة، فوليد يقول ٥٠٠، وطاهر ينقل عن صاحبه أنهم كانوا ٥٢٣.

- والاختلاف أيضًا حول عدد الناجين بعد انتهاء المذبحة، فوليد يقول ٦٥ بعد أن عَدّهم بنفسه، وطاهر ينقل عن صاحبه أنهم ٤٢ فقط.

- والاختلاف أيضًا في ترتيب الأحداث، فما جعلهُ طاهر هو أحداث اليوم الثاني كانت لدىٰ وليد ضمن أحداث اليوم الأول، فضلًا عن بقية الأحداث وترتيبها حسب الأيام؛ لذلك كان اليوم الأخير لدىٰ طاهر هو اليوم الثامن الموافق ١٧ رمضان ١٤٢٢هـ واليوم الأخير لدىٰ وليد هو اليوم السابع الموافق ١٦ رمضان ١٤٢٢ هـ.

- وأيضًا قضية سكب البنزين فطاهر يقول أنه «**بعد سكبه حصل حريق فأطفا الشباب الحريق بملابسهم وعمائمهم وانتشر الدخان انتشارًا مفزعًا في القبو**». بينما وليد يقول «**أطلقنا الرصاص على المكان الذي يسيل منه البنزين وكانت المفاجأة أن اشتعل البنزين وخرجت ألسنة اللهب إلى الخارج بدلًا من الدخول إلينا وبفضل الله لم يحترق أحدٌ منا! وكان قصدهم إجبارنا على الاستسلام تحت وطأة الاختناق فباءت هذه المحاولة بالفشل**».

فمن الواضح وجود افتراق بيّن في سرد هذه الرواية، فأحدهم يقول أن الحرائق حصلت وانتشر الدخان والآخر يقول أن بإطلاقنا النار اشتعلت النار ولكن إلىٰ الخارج ولم يحصل الحريق.

ولكن تبقىٰ رواية وليد مقدمة علىٰ رواية طاهر في نظري لأسباب:

- لأن الخبر ليس كالمعاينة!
- وحافظة وليد يظهر أنها قوية لاستحضاره المواقف والشخصيات وأشكالهم وأسمائهم.

- أن وليد كان قائدًا في القبو فهو ضمن أحد الذين كان يحق لهم اتخاذ القرارات المصيرية. فهو كان يشاهد الموقف من الأعلى لا من الأسفل!

وأما في الجانب الآخر، أن رواية وليد لم تنحصر في جانب السرد الورقي (وهو الطريقة القديمة للتوثيق) بل أُتبعت بلقاء تلفزيوني امتد لقرابة الـ(١١) حلقة على قناة الجزيرة انقسمت ما بين برنامج (شاهد على العصر) و(بلا حدود)، ومن نافلة القول أن طريقة التوثيق وكتابة المذكرات في دول الغرب وهو أن لا يقوم صاحب الشأن بفتح ملف الـWord ثم يكتب ما يستحضر؛ وإنما تقوم مؤسسات متخصصة بلقاءات مسجلة مطولة معه، وتسأله الأسئلة المهمة والتي أجوبتها تكون هي المادة الأساسية لكتابة المذكرات ومع طول الأسئلة يتم تفريغ هذه الأجوبة ثم تقوم هذه المؤسسة بالاتفاق مع صاحب الشأن بهندسة المادة من حذف أو تقديم أو تأخير، فخلاصة المذكرات هي لقاءاتٌ صوتيةٌ مسجلة مع أُناس متخصصين في طرح الأسئلة وجر الأجوبة التي يريدونها من صاحب الشأن، لذلك لقاء الجزيرة ربما أضاف شيئًا جديدًا على السرد الورقي الموجود في الكتاب، ومثلبة أحمد منصور – وهي المقاطعة المتكررة لطلب التفصيل. – انقلبت هذه المرة إلى منقبة.

وكذلك أحيانًا تكون لديك معلومات ولكن لا تعرف كيف تصفها ولا تجد أحدًا يسألك لتجيب، فوليد هنا استخدم أسلوبًا جميلًا جدًا، وهو أخذ رؤوس أقلام من كتاب (غوانتانامو: المعتقل الرهيب بين الاستبداد الأمريكي واتفاقيات حقوق الإنسان) لأميرة فكري وسامح الدهشان في كلامهما عن أساليب التعذيب في غوانتانامو واستطرد في شرحها وذكر المواقف التي شاهدها وسمعها داخل المعتقل. فأوجد هيكلية جيدة لصف المعلومات في الكتاب.

وأما منهجية الكتاب، فأظن أن مؤلفها تأثر بأسلوب بعض الشباب المعتقل في غوانتانامو والذي كان يرجع من التحقيق وقد نُكِّل به وإذا سأل كيف جرت الأمور؟ تراهُ يقول: «**لا شيء! الأمور بسيطة جدًا**»؛ وذلك حتى لا يزرع الخوف والقنوط واليأس في قلوبهم، فلذلك يقول وليد في

الكتاب نفسه: « **هنالك أيادٍ تعمل في الخفاء وتصطاد في المياه العكرة لتخويف المسلمين، لذلك كنت أتجنّب الحديث عن التعذيب النفسي والجسدي في المعتقل، وتركت التفاصيل الدقيقة عن الممارسات والأساليب الوحشية التي كانت تستخدم لوجهة نظر خاصة بي تحتمل الخطأ والصواب، فوجدت من المصلحة عدم ذكر كل شيء**».

فلذلك أظن أنه كان مترددًا في توثيق هذه الأحداث لما فيها من تخويف للقارئ، فأظن أنه أوجد حلًا وسطًا، تمثل في التالي: يسرد قصص التعذيب ثم يختتم الكتاب بقصص المشاغبات وتنكيل المعتقلين بسجانيهم! حتى يُحدث نوعًا من الموازنة وتكون الصورة اللاحقة والذي أُختتم بها الكتاب هي الثابتة.

وقد تكلمنا مثلًا عن أخطاء الروايات والقصص التي تتكلم عن السجون، فمثلًا الأخ أحمد المغربي لما نشر مجموعة مقالات تحت عنوان (شذرات من أقبية الأبالسة) أوجد صورة سوداوية شديدة القتامة؛ لأنه تكلم عن جانب التعذيب فقط، ولما تكلم إسماعيل القمري في سلسلة (الصولة والجولة في نوادر السجون وأمن الدولة) صوّر السجن وكأنه ساحة ترفيه للضحك! فالموازنة مطلوبة في أي كتاب يتكلم عن السجون وقد أوجدها الأستاذ وليد في كتابه هذا.

والمفارقة ما بين الكتاب واللقاء التلفزيوني هو أن في اللقاء في قناة الجزيرة أصرَّ أحمد منصور عن التوقف عن الكلام عن الرؤى والمنامات، في حين أن للكتاب أفردَ فصلًا كاملًا عنهم!

وأختم في مقدمة العرض: وهو أن الكتاب الموجود بين يدي هي الطبعة الأولى من الكتاب، فلذلك توجد بعض التطبيعات، مثل استخدام مفردات عامية بدلًا من الفصحى، فمثلًا تجد وليد يقول: «رزاز الفلفل» والصحيح: رذاذ الفلفل، وإنما استبدل الذال بالزاء لشيوع هذا في اللهجة المحلية في السودان، وكذلك كلامه عن أبو مصعب الزرقاوي فقال: «وهو الذي أزاق الأمريكان الأَمَرَّين».

والصحيح: أذاق، وأظن أن هذه الأخطاء وزيادة سواء التي كانت في الهامش أو المتن قد صححت في الطبعات اللاحقة.

وأما الجوانب المستفادة من الكتاب باختصار شديد هي كالتالي:

- تجعل القارئ يستبين سبيل المجرمين، ومن خلال تجربة طويلة في القراءة بأدب السجون وصلتُ إلى خلاصة مفادها أنك لن ترى وجه دولتك الحقيقي إلا في غياهب السجون والتحقيق؛ حينها سوف تَعرض لك الدولة وجهها الحقيقي من غير مكياج، وسوف ترى هي أي سياسة تريد وأي غاية تقصد، فمثلًا رأى معتقلي غوانتنامو أن إشكالية أمريكا ليست مع القاعدة أو الإرهاب أو الإرهابيين - كما يسمى - وإنما المشكلة أساسًا هو كرههم لدينهم! فمن يشتم ربك ونبيك ويستهزأ بشعائرك ويهين مصحفك، فهذا - باختصار - مشكلته مع دينك وليس مع فئة قليلة من أهل هذه الديانة. وعندما تعلم أن هؤلاء في بواطنهم يكرهون الإسلام لم ولن تخدع بمظاهر زائفة فلن تغير موقفك من أوباما فقط لأنه ألقى محاضرة في جامعة القاهرة وافتتحها بـ «السلام عليكم». ولن تكتب مقالًا عنوانه (وش ها الساعة المباركة يا بو حسين!).

فهؤلاء يستخدمون النفاق حتى يحيدوا خصومًا جدًا، فإن كانت مشكلتهم مع «فئة من المسلمين» بإظهار ما في بواطنهم علانيةً سوف تتوسع دائرة العداء مع المسلمين من فئة معينة إلى فئات كثيرة، وبدلًا من أن تقاتل عشرة سوف تقاتل ألف. وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل هؤلاء يتعاملون بوجهين معك، ففي خطاباتهم العلنية يقولون مشكلتنا ليست مع الإسلام، وفي غرفهم المغلقة تراهم يشتمونه بأقذع الأوصاف!

وقضية الإهانة الدينية ليست سلوكيات فردية من جنود معتقل غوانتنامو وإنما هي سياسة معتمدة عند إدارة المعتقل والحكومة الأمريكية؛ فمثلًا لما رأى المعتقلون أن المصحف يُهان ويوضع في سطل القاذورات أو يمزّق ويمسح به الحذاء من أجل تعذيب المعتقلين نفسيًا، قرروا بالاتفاق أن يسلموا

مصاحفهم إلىٰ إدارة المعتقل، ولكن كما يقول وليد: «**مباشرة جاءت أوامر من واشنطن لا بُدَّ أن ترجعوا القرآن إلى المعتقلين على حسب ما ذكر المحققون والمترجمون، ونحن رفضنا استلام القرآن، وبعدما رفضنا أَدْخَلُوا القرآن بالقوة بفرقة الشغب**».

فالإدارة الأمريكية قررت أن تُرجع المصحف إلىٰ هؤلاء حتىٰ تهينهم به من خلاله! فالأمر ليس تصرفًا فرديًا طائشًا من أحد الجنود بل هو قرار إدارة.

– وأما الفائدة الثانية فهي بيان براغماتية هذه الدول في التعامل مع المصطلحات والمبادئ، فمصطلحات مثل «حقوق الإنسان» هي في الحقيقة مصطلحات تتعامل الدول الكبرىٰ معها بنفعية بحته؛ فمثلًا إن أرادت أن تحشر أنفها في شؤون دول معينة دخلوا عليها من بوابة «حقوق الإنسان»، لذلك يقال أن زمن العولمة هو زمن انتهاك سيادة الدول فيجعلون من أنفسهم أوصياء علىٰ اعتبار أنهم من حماة حقوق الإنسان، فُتقيِّم هذه الدولة أو تلك حسب احترامها لحقوق الإنسان. هذا الكلام يبدو رومانسيًا وواقعيًا إن كانت هذه الدول تُقدّس حقوق الإنسان فعلًا، ولكنها تتعامل مع هذه المصطلحات تعاملًا منفعيًا بحتًا؛ فهي تُنكر علىٰ الدول الأخرىٰ إن لم تضرب لحقوق الإنسان رأسًا من أجل الحفاظ علىٰ أمنها القومي، في حين أن أمريكا نفسها تمارس نفس ما تنكر علىٰ الآخرين، فهي من أجل الحفاظ علىٰ الأمن القومي تكون أول من يضع حقوق الإنسان تحت قدميه، فهي مارست كل أصناف وأشكال وأنواع التعذيب في غوانتانامو من أجل أن تحصل علىٰ معلومات تحفظ بها أمنها القومي، ولأجل الحفاظ علىٰ الأمن لا بأس أن تستخدم كافة الأساليب والسبل. في حين أن هذا الأسلوب مُحَرَّمٌ علىٰ الدول الأخرىٰ التي لم ترضَ عنها أمريكا، فلذلك تجد أمريكا تُصنّفها علىٰ أنها لا تحترم حقوق الإنسان! وأن «سجلها في ملف حقوق الإنسان سيء» وربما اتخذت بحقها عقوبات اقتصادية. كل هذا من أجل الإنسان – زعموا – وإنما من أجل مصالحهم تحت عباءة حقوق الإنسان.

فمثلًا تجد الرئيس الأمريكي جورج بوش يقول في مذكراته ما يلي: «**كنت واثقًا من أن حكم الشعب الأمريكي أفضل، فَهم معظم الأمريكيين ضرورة امتلاك خبراء الاستخبارات أدواتٍ للحصول على معلوماتٍ من الإرهابيين الذين يخطّطون لهجمات على بلادنا. كما أنهم لم يكونوا يريدون سوْق معتقلي غوانتانامو إلى الولايات المتحدة ومحاكمتهم أمام محاكم مدنية تعطيهم الحقوق الدستورية نفسها المعطاة للمجرمين العاديين! في غضون شهر من خطابي في القاعة الشرقيّة، أقرّ الكونغرس قانون اللجان العسكرية لسنة ٢٠٠٦ بأغلبيّة مريحة من الحزبين. وردَ فيها كل شيء طلبناه، بما في ذلك أن للرئيس استخدام تقنيات الاستجواب المتطورة إن قرّر القيام بذلك**»[٦١].

وجورج بوش تكلم عن المسوّغ الذي اتكأ عليه في تجويز استخدام أساليب التعذيب الوحشية من أجل الدفاع عن أمن أمريكا، ارجع إلى مذكراته وبالأخص فصل (التأسيس للحرب) فهنالك استطرد وذكر أمثلة لبعض هذه الأساليب التي سمح باستخدامها كالإيهام بالغرق.

- وتستفيد أيضًا من هذا الكتاب، وهو أنك تعتمد على أهل البلد دائمًا في تقييم الشخصيات المشكوك فيها من بني جلدتهم، فهم أعرف الناس بهم، وقد ذكر وليد في كتابه قصة خيانة دستم الأوزبكي فالبعض كان متشككًا أو لم يقطع الشك باليقين بعد، ولكن الذين حسموا الموضوع هم المقاتلين الأوزبك هم الذي عرفوا أن الخيانة قد تمت في حين أن البعض كان متشككًا، ويقول وليد في كتابه: «**خرج جميع الإخوة من القبو إلا «الأسود الأوزبكية» كانت تشم رائحة الخيانة من أول لحظة؛ لأنهم يعلمون صفات الجنرال دستم تمامًا، كيف لا وهو من بني جلدتهم وقد حاربوه من قبل ولم يخرجوا في بادئ الأمر بل اجتمعوا مع أميرهم وتبايعوا على الموت**».

- وتطرق الكتاب إلى جزئية معينة كذلك: فالدول الغربية قد قطعت شوطًا طويلًا في العلوم الإنسانية ومن بينها علم النفس، ووظّفت هذه العلوم في خدمة مصالحها، سواء كانت الأمنية أو

[٦١] قرارات مصرية – صـ٢٤٢، ط: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

العسكرية أو غيرها، وهذه التَوْطِئة لا بُدَّ منها، فتوصيف الواقع مهم جدًا لتعرف كيف تتعامل معه، فأنت أمام دهاقنة في المكر والدهاء، فلذلك لا يمكن أن تحسن الظن بتصرفاتهم قط، فحتى الإحسان من طرفهم لم يكن إلا للإضرار بك، فلذلك لا ينفع البتّة أن تقيم الأمور على ظواهرها فقط، فأحيانًا يفعلون شيئًا ولكن يقصدون شيئًا آخر! فعلوم النفس هي ما تُقيِّم الأنفس البشرية وتتنبئ بتصرفات معينة من قبل أفراد معينين إن اتخذ معهم سلوك معين، مثلًا: لو حصلت مشاجرة بين اثنين والأول هزم الثاني، وكان من مصلحة المنهزم أن يكتفي بما نال من الضرب وأنت تعرف نفسية الطرف الثاني، فتقول له: حقيقةً أخجلتنا، أهكذا يُفعل بك؟ فبسبب كلامك يقوم ويحاول أن يعيد المشاجرة ولكن يأكل علقة أشد من التي قبلها ويتضرر أشد من الضرر الذي حصل لهُ سابقًا، فأنت تنبّأت بتصرف هذا الشخص إن استخدمت معهُ أسلوبًا معينًا، فوجهته إلى حتفه دون أن يشعر.

ولو قرأ الباحث المهتم في علم النفس كتاب وليد فسوف يجد كنوزًا تصلح مادةً خام للدراسات والأبحاث، وسوف أكتفي بمثال واحد، يقول وليد: «**بدأت إدارة المعسكر بالتعاون مع العيادة النفسية لوضع خطة ذكية لإدخال هؤلاء الأسرى في المستشفى النفسي حتى يتم تشخيص هؤلاء المجاهدين، فكان أولى الخطوات هي أن يعرفوا مشاكل الأسرى وتم ذلك عن طريق أحد الضباط كانت مهمته الوحيدة أن يحمل دفترًا أخضرًا ويمر على الأسرى عنبرًا عنبرًا، ويسأل - المعتقلين -: "ما هي المشاكل التي تواجهك في هذا المكان؟!" ويخبر الأسير بأنه سوف يرفع هذه المشاكل لإدارة المعسكر حتى ينظر فيها ومن ثم يحدد العلاج ويشرع الأسير في سرد مشاكله بنفس طيبة وبنية صادقة، منهم من يخبره بأمراضه ومنهم من يطلب النقل من زنزانة إلى أخرى...إلخ، وبعد الانتهاء يرفع تقاريره إلى العيادة النفسية والإدارة وتقوم إدارة المعسكر والعيادة النفسية بدراسة هذه المشاكل ليس من أجل حلها ولكنها تستخدمها سلاحًا ضدهم فيما بعد، فما كان يقوم به الضباط ليس سوى معرفة مكامن الضعف لدى الأسرى حتى يتكمنوا من هزيمتهم نفسيًا**». فلذلك لا بُدَّ تكون محتاطًا في ما تقول في المعتقلات وأعرف أن هؤلاء لن يألوا جهدًا أن يستخدموا ما يعرفونه عنك ضدك

غدًا، ففي الكتاب ذكر وليد الحاج أنهم استغلوا مرض ياسر الزهراني بالسرطان ضده حتى يتعاون معهم. وإن كان ولا بُدَّ أن تذكر نقاط ضعف اذكر نقاط ضعفٍ وهمية، حتى لو استُخدمت ضدك غدًا يكون تأثيرها عليك أقل من نقاط الضعف الحقيقة.

- وأيضًا من الفوائد التي تستفيد منها، وهو أنك إذا دخلت معتقلًا أو سجنًا، ضع أسوأ الاحتمالات دائمًا، يعني توقع أنك سوف تبقى ٢٠ سنة في هذا المعتقل، لأنك لو توقعت الخروج قريبًا ولم يحصل فسوف تتعذب نفسيًا، وأحيانًا يكون شغفك للخروج مدخلًا من مداخل الشيطان عليك للتنازل عن ما تعتقد فقط لكي تخرج [٦٢] فلذلك توطين النفس منذ البداية على حصول الأسوأ هو حصانةٌ لك من العذاب النفسي والتنازل في آن معًا. وقد ذكر وليد الحاج أنه توقع أن يمكث في السجن قرابة العشر سنوات ولكنه خرج قبل ذلك، وغيرهُ وطّن نفسه أن يبقى قرابة العشرين سنة.

وقد سألت أنا شخصيًا أحد المعتقلين السابقين في غوانتانامو، فقلت له: «ألم تظن أن بدخولك لن تخرج منه طوال حياتك». فقال: «وُجِدَ شيءٌ من القنوط عند البعض، ولكن البعض الآخر ساهمَ في رفعه، بتذكيرهم بأجر الصبر على البلاء، وحتى أن أحدهم قال: "لا يهمني إن بقيت هنا طوال حياتي طالما عداد الحسنات شغّال"».

- وتستفيد أيضًا من الكتاب أن خصومك تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى! ويحكي وليد عن قصته مع الضابط الذي استخدم عليه «النووي» (وهو خلط البول مع الغائط ورميه على وجوه الجنود)، فيقول أنه توافد على الجنود ليهنؤوه ومنهم من صافحه بحرارة ومنهم من ابتسم في وجهه، كل هذا بسبب الأحقاد التي بينهم، فهم يشُون على بعضهم البعض عند المعتقلين حتى يستخدمون على زملائهم الجنود «النووي». فيذكر وليد في الكتاب أن بعضهم ينقل أخبار زميله الجندي إلى المعتقلين

---

[٦٢] فائدة: قال الشيخ سليمان العلوان – فكَّ الله أسره –: « **بعض الناس إذا سُجن قال: "ربِّ أخرجني!" غلط، بل قل: "ربِّ ثبتني"؛ كم شخص سُجن وخرج صار منحلًا عن عقيدته منحرفًا ضالًا زنديقًا أو فاسقًا أو عارًا على أهل الحق، فسلِ اللهَ الثبات، ولا حرج أن تسأل بعد ذلك المخرج**». [شريط: أسباب الثبات].

وأنه ضرب أصحابكم وفعل وكذا وأنا مستعد لأن أساعدكم في استخدام النووي ضده بإحضار الأكواب، ولكن المعتقلين حتى لا يكونوا مطية للجنود ضد الجنود، فهم يتثبتون من صحة كلام هذا الجندي أولًا، هل الجندي المستهدف فعل هذا فعلًا أم أنها جناية من زميله؟ فإن ثبت استخدموا «النووي» وإن لم يثبت فلا! ويقول وليد لو لا الأوامر لاقتتلوا في ما بينهم للعداوة والبغضاء التي بينهم، وحقا كما قال الله: [**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**[1]].

- ومن المفارقات المؤلمة في الكتاب هو قول وليد عن سبب إنشاء معسكر اعتقال جديد: «**كان العمل مستمرًا في بناء السجون ليس من أجل التوسعة وراحة الأسرى كما يظن البعض بل للتضييق وتفادي الأخطاء التي تحدث في المعسكرات الأولى، فهم لا يقعون في خطأ إلا ويستفيدوي منه ويسرعون في إصلاحه، كان هذا من الأسباب الرئيسية التي جعلت هذه الأُمَّة في تقدمٍ وتطور**». فهؤلاء يحددون خطأهم ويصلحونه مباشرةً، ولا زالت الكثير من الجماعات الإسلامية تنازع في أن أخطائها ليست أخطاءً أصلًا فلا حاجة للإصلاح، ولذلك ترى الكثير من الجماعات الإسلامية تدور في دائرة التِّيه وتُكرر نفس الأخطاء مِرارًا وتِكرارًا على امتداد عقود، فلذلك لا بُدَّ من وجود دائرة تسمى في بعض الدول بـ«دائرة تشخيص النظام»، فمن الأفضل أن تستحدث واحدة مقاربة لها باسم «تشخيص الجماعة»، وتُقَيِّم أداء الجماعة ومسيرتها خلال فترة زمنية معينة وتقوم بتوجيه النقد مهما كان قاسيًا لصنّاع القرار حتى لا يكرروا أخطائهم. ولكن لم يدمر الجماعات الإسلامية شيئًا مثل المجاملة التي تَغلبُ دائمًا على المكاشفة والمصارحة.

ومن صور ذلك: مثلًا تعيين شخص في المكان الخطأ، ثم بسبب المجاملة وللعلاقة التي تربطك معهُ تخجل من أن تطرده من مكانه رغم ارتكابه الكوارثَ، فبسبب المجاملة نراعي مشاعر فرد على حساب الأداء العام للجماعة. فالعاملون في الحقل الإسلامي يحتاجون إلى جرأة ترامب عندما عَمل مُقيِّمًا في برنامج (The Apprentice) لاختبار بعض المتنافسين في طرحهم للمشاريع، واشتهر

ترامب في هذا البرنامج بتكرار كلمة "You're Fired" (أنت مطرود) ويقولها بكل برود لأصحاب المشاريع الفاشلة في نظره ولا تتحرك بهِ شعرة.

وفي نهاية التعليق: الكتاب يعتبر جزءًا مهمًا في سلسلة من كتبوا عن تجربهم في سجن غوانتانامو ككتاب (مذكرات عادل كامل البحريني العائد من غوانتنامو)، وكتاب (ذكريات معتقل من غوانتانامو) لحسين عبد القادر، وكتاب (القيود المحطمة) لعبد الرحيم مسلم، وكتاب (يوميات غوانتانامو) لمحمدو ولد صلاحي (وهذا الكتاب بالذات أتوقع أن تصدر له طبعة ثانية بعد خروج مؤلفه لأن الكتاب نشر ومؤلفه لا زال حينئذٍ في المعتقل لذلك تجد الكثير من نصوص الكتاب محجوبة باللون الأسود)، ومقالة (أيام في غوانتنامو) لعبد الله العجمي، وسلسلة (السجين ٣٤٥) لمصور الجزيرة سامي الحاج والتي تقع في ٦ حلقات، والفصول (١٧-٢٠) من كتاب (حياتي مع طالبان) لعبد السلام ضعيف.

وأما لماذا هنالك شح في الكتابة والتأليف حول تجربة الاعتقال في سجن غوانتنامو؟

١. لأن الكثير ممن خرجوا يريدون الاندماج في المجتمع من جديد، والكتابة عن هذه الأمور تجعل الأنظار مسلطة عليهم من جديد! مما تجعل سلطات بلادهم قد تتخذ ضدهم بعض الإجراءات وتعوّق من اندماجهم في المجتمع من جديد.

٢. البعض قد تراه يقول: « ما لدي طرحه غيره فكلامي هو تكرار للمكرر».

٣. والبعض قد تراه يقول: «أنا ودي أنشر ولكن لا أعرف من أين أبدأ! ».

ولكن هل هذه الكتب لها أهمية؟ هل كتب المذكرات يمكن أن تكون لها أهمية يومًا ما؟ نحن الآن نتكلم وربما لدينا فائض من القصاصات الإخبارية التي تتكلم عن غوانتانامو، ولكن شيئًا فشيئًا هذه المواقع سوف تحذف وتنتهي من الوجود على الشبكة العنكبوتية وغالبًا لن تؤرخ أو تؤرشف مما

يعني ضياعها، وحينها لن تجد سوى هذه الكتب فتكون كالماء للظمآن في أرض قاحلة، ومن نافلة القول أن نقول أن سلسلة BBC الضخمة عن الحرب العالمية الأولى عمودها الفِقري هي مذكرات جنود وضباط خاضوا الحرب؛ فانظر إلى أهمية المذكرات!

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٩ مارس ٢٠١٧م - ١٠ جمادى الآخر ١٤٣٨هـ

روايتين: السعادة الزوجية وبوليكوشكا

المعلومات العامة:

- **اسم روايتين: السعادة الزوجية وبوليكوشكا.**
- **اسم المؤلف: ليو تولستوي.**
- **اسم المترجم: سامي الدروبي.**
- **عدد الصفحات: ٢٥٦.**
- **دار النشر: دار التنوير للطباعة والنشر.**

التعليق والمناقشة:

رواية (السعادة الزوجية):

الرواية تتكلم - باختصار مُخل - عن زواج ريفي بين زوجين من الطبقة الارستقراطية، هذا الزواج هو نتاج إعجاب متبادل تُوِّج لاحقًا بالزواج، هذا الإعجاب تحول أقصىٰ ذروة الحب والتجانس، ولكن انحدر، فكيف انحدر؟! الرواية أعطتنا نموذجًا للمثل الدارج: أجمل أيام الزواج هي الأيام الأولىٰ، ويُستفاد من هذه الرواية عدة أخطاء يقع بها الزوجان وتؤدي هذه الأخطاءُ في النهاية إلىٰ تفكك الأسرة والعلاقة الزوجية، منها:

١. عدم المصارحة: أو كما تقول ماريا ألكسندروفنا في الرواية: «**كل منا يصدر حُكمًا في حق الآخر بينه وبين نفسه**»، وعدم المصارحة هي علة تتفاقم بسببها الأمور، قد تخطأ الزوجة وهي لا تعلم أن ما فعلتهُ خطأ، فالزوج يكون بين خيارين، إما أن يُصارحها فتوأد المشاكل في مهدها، وإما أن يَحملُ في نفسه وينعكس ذلك علىٰ سلوكهِ مع زوجته، وسوف تقول الزوجة حينها: «**أنا لم أخطئ ومع ذلك يعاملني ببرود وتجاهل**» فتعامل الزوج بالمثل، فتَكبرُ المشاكل وتتوسع، وحينها لو حصلت المصارحة

وانفجر أحد الزوجين في وجه الآخر، سوف يقابله الآخر بنفس الحدة وكل طرف سوف يحمل الآخر المسؤولية لما آلت إليه الأمور، بينما كان بالإمكان إنهاء هذا كله منذُ البداية بالمصارحة المبكرة.

٢. الكبرياء المزعوم: قد يخطأ أحد الزوجين في حق الآخر، ثم بعد فترة يكتشف المخطأ أنه قد أخطأ، فيريد الأعتذار والصفح من الطرف الآخر وإرجاع المياه إلى مجاريها، ولكن الطرف الآخر يتجاهل هذه المبادرة، حتى يتأدب الطرف الأول ولا يُعيدها مرة أخرى - بزعمه -، ولكن هذا التعنت له إنعكاسات سلبية، فتجعل الطرف الأول يقول: «أنا يللي عَلَيّ عملته»، وأما إذا لم يرد أن ترجع الأمور كما كانت فليكن... وأحيانًا يكون هذا التجاهل هو أسلوبٌ عقابي مؤقت ولكن شيئًا فشيئًا يصبح هو الأصل في العلاقة مابين الزوجين.

٣. مهما فترت العلاقة، فيجب على الزوج - بالتحديد - أن يُعطي زوجته الحد الأدنى من الاهتمام والمتابعة، هذا الاهتمام هو الذي يحفظ العلاقة ويقطع حبائل الشيطان أمام زوجته، فالمرأة إن لم تجد الاهتمام من زوجها سوف تبحث عنه عند آخر، وهذه باكورة الخيانات الزوجية، وهذا الذي جعل ماريا تتماهى مع إغواء ماركيز لها.

٤. التقارب العُمري عامل مهم في ديمومة العلاقة الزوجية، لأن الاهتمامات والرؤى والتصورات تختلف باختلاف العمر، فكلما يكبر الشخص يَنضج عَقله، فالزوجة كانت بعمر ٢٢ والزوج كان بعمر ٤٠، وهذا الذي يجعله لا يشاركها بعض مشاريعه أو أعماله أو مشاكله، لأنهُ كما تقول الزوجة: «لأنه يعدني طفلة عاجزة عن فهم ما يشغل باله»، وبعد سنوات من الزواج واختلاف الأولويات بين الزوجين، فقال لها: «**أنت في ريعان الصبا، وأنا شيخ هرم لم يبق عندي ما تبغين، لماذا يغش المرء نفسه؟**» فالزوج قد بلغ الأربعين وربما زاد، وأصبح لديه أولاد، ولازالت الزوجة تحنّ إلى شخصه الذي كان عندما تزوجتهُ، ما زالت تشعر أن لديها طاقة الشباب بخلاف زوجها الهرم.

٥. إن أردت أن تنبه زوجتك إلىٰ فعلٍ خاطئ فلا يلزم ذلك أن تجعلها تقع فيه حتىٰ تعي بنفسها أنهُ خطأ، فالزوج في القصة حذر زوجته من حياة مجتمع الأغنياء والسادة، وأن هذا المجتمع قذر، ولما ذهب بها إلىٰ هذا المجتمع أُعجبت به حتىٰ صارت تفضله علىٰ زوجها وعائلتها، ولكن بعد سنوات اكتشفت مدىٰ دناءة هذا المجتمع، ولكن بعد أن خسرت حبّ زوجها لها. وكان من الأَوْلىٰ أن يجنبها زوجها هذا المجتمع منذ البداية، فالوقاية خير من العلاج.

هذه نقاط علىٰ عُجالة، ولفتت انتباهي أيضًا مقولة لماريا ألكسندروفنا إذ قالت: «**الكتب التي كانت حتى ذلك الحين لا أقرأها إلا دفعًا للضجر ومنعًا للسأم أصبحت فرحًا من أكبر أفراح حياتي، لا لشيء الا لأننا تبادلنا بعض الأحاديث عن الكتب أو قرأنها معًا، أو جاءني ببعضها**». (صـ٣٠) يُلاحظ أنه بسبب الحب تغير هذا الطبع من حال إلىٰ حال فأصبح ما يُكره هو نفسه ما يحب تِباعًا لطبع الحبيب، وهذا تمامًا ما نصَّ عليهِ ابن حزم في طوق الحمامة (صـ٦٢) إذ قال: «**ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه قسرًا إلى طباع من يحبه**».

وكذلك أعجبني المؤلف عندما بَيَّنَ أَثَرَ الزمن علىٰ تغيُّر الأشياء، وذلك لما رجعت إلىٰ مسقط رأسها في نهاية الرواية، فكلما دخلت غرفة تذكرت مواقف حصلت مع زوجها في هذه الغرفة في بداية حياتهم ثم تقارن بينها وبين ما أصبح حالهم عليه الآن؛ حقيقةً هذه أبدع فيها المؤلف كل الإبداع.

تقيمي للرواية: ٨/ ١٠.

رواية (بوليكوشكا):

تتكلم الرواية عن قرية لا بُدَّ أن تنتدب أُناسًا يتطوعون للحرب مع القيصر الروسي (كان آنذاك لا بُدَّ أن تنتدب كل قرية بعض رجالها ليقاتلوا في حروب القيصر ضد خصومه)، ورئيسة القرية محتارة تنتدب من، فكل أسرة تتذرع بأوضاعها حتى لا ترسل أحد أبنائها، فمن الذي سوف يُرسل في النهاية؟!

فوائد الرواية:

- من فن الحوار، أنت تعرف النقاط التي تؤثر بها على الطرف الذي تحاوره، فتعرف كيف تجلب استعطافه دون أن يشعر أنك تريد ذلك فعلًا... فتورد جملة عرضية ولها واقعًا مؤثرًا لمعرفة مسبقة بهذا الشخص؛ فمثلًا لما حصل قضية التجنيد الإجباري أراد الوكيل إيجور ميخائيلوڤتش أن يؤثر على قرار السيدة التي هي من تختار الشخص، وكانت هذه السيدة متدينة جدًا، فتكلم عن أحد المُجنّدين فقال إنه يُدبّر أملاك الكنيسة منذ ثلاثين عامًا ولا ينقطع عن حضور قداس قط، وهنا يضع تولستوي ملاحظة بعد إيراد هذا النص فيقول: «**كان الوكيل يعرف النقطة الحساسة في نفس السيدة**»، حتى قالت السيدة أنها لن تفعل ذلك وأنها لا تريد الضرر لهذه العائلة!

وروائي مثل تولستوي عُرف عنه إضافة البعد النفسي في استقراء مكنونات شخصيات رواياته، وقد سمعت هذا من أحد أشد القارئين له أن هذا الطرح بارز في روايته آنا كارنينا بشكل أكبر من سواها من الروايات. لذلك لو ركزت كثيرًا حول الحوارات والتعليقات الجانبية الموجودة في الحوارات فربما تستفيد أمرًا قد تُعملهُ في حياتك الشخصية، وليس للقراءة من أجل المتعة كحال الكثير ممن يقرأون الروايات.

- الأمر الثاني المُستفاد هو أمرٌ قد لا تكسبهُ من خلال قراءتك لهذه الرواية وإنما في حياتك العادية عامةً ومع الاختلاط بالناس والمجتمع الصغير (القرية أو الحي)، وهو: أنك شخص كورقة بيضاء،

فأحرص أشد الحرص على أن لا تلطخ هذا البياض الموجود في صفحتك، أي احترز في أعمالك وشقاواتك وليكن دائمًا لديك حد لا تتجاوزه. فالشخص مثل الورقة البيضاء وأعماله هي ما يُكتب فيها. فلو تمت الشخبطة على هذه الورقة البيضاء (أي فعل أفعالًا سيئة) ثم ندم وتاب فهذه الأفعال لن تمحى ولو استخدمَ مزيل الحبر عليها فسوف يبقى هذا الأثر موجودًا على الصفحة، ولن يكون بنفس البياض السابق.

وفي الرواية عندما كان بوليكاي معروفًا بالسرقة فقرر الإقلاع عن هذا نهائيًا، وبدأ مرحلة جديدة، لم يشفع لهُ هذا «**فكان الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى السارق، حتى إذا جاء موعد التجنيد أجمع رأيهم على اختياره**».

فالثقة إن اهتزّت لدى الناس فمن الصعب أن تعيدها وسوف تكون الناس دائمًا في موطن التوجس منك مهما تغيرت. وفي مجتمعاتنا على وجه الخصوص نجد هذا الأثر الرجعي (ففي الرواية أرادوا عزل بوليكاي عن المجتمع برميه في إتون الحرب)، ولكن في المجتمعات العربية أو المحافظة ترى أنهم يعزلون الشخص في أمور أخرى، مثلًا لما يكون هنالك مدمن مخدرات عُرِفَ بين العامة أنه كذلك! وأنه صاحب شر، فلما يتوب هذا الشخص أيضًا يحاول الناس عزله بعدم تزوجيهم بناتهم، وذلك لأن الثقة قد اهتزّت بفعلهِ السابق، فيقولون: «كيف نزوج شخصًا كان بالأمس تاجر أو مدمن مخدرات ما الضامن أنه لن يرجع من جديد كما كان؟!» فيعيش هذا الشخص أحيانًا حياة من العزلة تجعلهُ يَسخط على المجتمع الذي لا يريد أن يندمج معهُ من جديد لغلطة قد فعلها وهو طائش.

وهذه التجارب الإنسانية تُعرِّف الشخص أن الأثر السيء الذي تتركه بين الناس من الصعب أن يُمحى! وإن عرف الإنسان حقيقة هذا الأمر، فسوف يثمن أعماله ويحتاط في تصرفاته.

وتوجد نماذج مستفادة من الرواية ولكن هذه النماذج سوف أتطرق لها بشيء من الحذف؛ أي لم أُستدل بها في الرواية، لأن مجرد الاستدلال وبيان الموقف يعني أني حرقت الرواية على القارئ.

- ومن الفوائد أيضًا: وهو أن سعادتك أحيانًا قد تُبنى - ودون أن تعلم - على حساب تعاسة غيرك، ولن أتعرض للمثال الموجود في الرواية؛ وسأكتفي بنماذج واقعية من حياتنا، فمثلًا عندما يَعملُ شخص - دون الكفاءة المطلوبة - في عمل ما من خلال الواسطة ويُقدّم على المستحق الكفؤ الذي يملك المؤهلات دون أي وجه حق وإنما فقط بسبب معرفة الفلان المسؤول له، فالسعادة التي حصلت عليها جرّاء الوظيفة والراتب والمكافأة والعلاوات هي تكون على حساب الشخص العاطل المستحق الذي يُعاني جراء تعطله عن العمل.

- ومن الفوائد أيضًا: وهي فائدة تتعلق بالمبالغة والاحتراز في إيصال الأمانات التي لا تتعلق بك، فلو أضعت ماهو لك، قد تتحسر بشدة، ولكن لو أضعت ما هو لغيرك، فسوف تتحسر وتعيش في رحلة من القلق والعذاب النفسي مما سوف يحصل جرّاء فعلتك هذه من قبل الشخص الذي ائْتَمَنَكَ.

وأنا شخصيًا مُصاب برُهاب من هذا الأمر، وهو إذا نقلت شيئًا ما هو أمانة أضع عدة حلول وافتراضات وخيارات قبل أن أقوم بنقل هذه الأمانة، ولا أجازف ولا أتعامل بتسيب وآخذ كافة احتياطاتي، وبالأخص الأمانات التي تتعلق أو ترتبط بالمال؛ فضياعها أو فقدناها يعني أنك سوف تفقد معهُ سمعتك، والذي سوف يفقد ماله بسببك لن يقول: «هذا قضاء وقدر» أو «خطأ من الناقل»، بل سوف يقول في نفسه أنك أنت من سرقتها وتظاهرت بأنها ضاعت! وأردت أن تستعطفنا حتى تنفذ بالمال وتنفقه على نفسك.

فبوليكاي وضع ظرف المال في قبعة ممزقة، وأنت عندما يكون لديك موضع مثل هذا لا بُدَّ تضع كافة الاحتمالات وتقيم هل تصلح القبعة أو لا تصلح، ويسأل الشخص نفسه ماذا لو استمر

الحصان في المشي ومع كثرة اهتزاز الجسم انفكّت خياطة الموضع الممزق؟ ثم إذا كان ولا بُدَّ من المجازفة بوضع ظرف المال في هذه القبعة المهترأة لا بُدَّ من وضعها في موضع تستطيع أن تتحسسها من حين إلى آخر، لا أن تدخلها في العمق بحيث يصعب التأكد هل ما زالت في مكانها أم لا.

والخطأ الثاني أن ضمن مسيرة بوليكاي إلى المكان الذي سوف يأخذُ فيه المال، كان يُحدث بعض الذين يعرفهم أو يراهم أثناء مسيرته بأنه ذاهب لأخذ المال، وهذا خطأ وخطر، لأن من الاحتمال أن يقوم هؤلاء بكمين لك حين عودتك ويسلبون منك المال، وتستطيع أن تروي وتقول أنك ذاهب لجلب البضائع أو أن تذكر أنك ذاهب لجلب جزء معين من البضائع ويكون هذا الجزء غير مرغوب فيه عادةً من الناس.

فالشخص لا بُدَّ أن يأخذ أو يبذل كافة الأسباب التي تجعل رحلته سليمة مع جلب المطلوب منه أن يجلبه! وهذا ما فشل فيه بوليكاي.

١٥ مارس ٢٠١٧م – ١٧ جمادى الآخر ١٤٣٨هـ

التأول في إباحة الدماء

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: التأول في إباحة الدماء: المفهوم والحدود والضمانات الشرعية.**
- **اسم المؤلف: فهد العجلان.**
- **عدد الصفحات: ١٤٣.**
- **دار النشر: مركز تكوين للدِّارسات والأبحاث.**

التعليق والمناقشة:

هو كتاب يناقش قضية استثنائية خارجة عن الأصل، (الأصل هو أن حرمة دماء المسلمين معصومة ولصيانة هذا الأصل الشرعي قد رتبت الشريعة القصاص علىٰ من قتلها ظلمًا وعدوانًا) ولكن الاستثناء هو (توجد حالات يقوم الشخص المسلم بقتل المسلم الآخر عمدًا ومع ذلك لا يُقام عليه القصاص) فما هي هذه الحالات الاستثنائية وما هو ضابطها؟ والكتاب أساسًا أُلِّفَ لبيان أن ليس كل دعوىٰ للتأويل تُقبَل وأن ليس كل تأويلٍ يسقط القصاص! وذلك لاستسهال القتل – لوجود صورة نمطية عند القاتل – أن دعوىٰ تأويل – العريضة – تَعذرهُ وتسقط عنه القِصاص، فالبعض يظن أن دعوىٰ التأويل هي مسقطة للقصاص مطلقًا.

والكتاب هذا لا يصلح أن يُقرأ إلا ومعك دفتر للتلخيص (القول الأول كذا، والحكم كذا، ولو كان القارئ متمذهبًا فإنه يَعتمد علىٰ حكم المذهب في المسألة) لأنك سوف تدخل في متاهات وصور متعددة وأحيانًا صور متداخلة مع بعضها البعض، فالتلخيص أفضل طريقة للخروج بأكبر فائدة من الكتاب.

أسلوب الشيخ فهد العجلان يَقوم غالبًا على تلخيص القول ووضع المرجع في الهامش، وهذا الأسلوب أفضل بكثير - من حيث هضم المعلومة - من أسلوب النقل المباشر الذي ينقل لك أقوال كلها في الصفحة، وذلك لسببين:

١. أن المؤلف يقوم أحيانًا بنقل قول الإمام كاملًا وفي طياته جزئيات تشعر أن لا علاقة لها أو لا تضيف شيئًا جديدًا، قبل أن يضع الحكم، فيكون لديك نص طويل وخلاصته تقع في جزئية معينة، فتلخيص هذا النص وبيان المقصد أولى.

٢. أحيانًا يعتري بعض أقوال الفقهاء تعقيد أو مصطلح فقهي غير مفهوم عند القارئ العامي، فعندما يلخصه المعاصر تراه يُبين عن وجه الإشكال ويبسطه.

٣ أبريل ٢٠١٧م - ٧ رجب ١٤٣٨هـ

رواية: الجريمة والعقاب

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: الجريمة والعقاب.**
- **اسم المؤلف: فيودور دوستويفسكي.**
- **اسم المترجم: سامي الدروبي.**
- **عدد الصفحات: ٨٨٦ (مجلدين).**
- **دار النشر: المركز الثقافي العربي.**

التعليق والمناقشة:

الجريمة والعقاب، هي من جملة الروايات العالمية التي ذاع صيتها، وحقيقةً أن أكثر المؤلفين الروائيين الذين وجدت كتبًا تتكلم عنهم وعن فكرهم هو مؤلف هذه الرواية وهو فيودور دوستويفسكي.

حول معيار التقييم:

ولا شك أن هذه الرواية أعجبتني للغاية، فكلما قرأت النزر اليسير منها بشكل متقطع إلا وأجد أنه أحدث في نفسي أثرًا، ولكن يجب أن أُفرق أو نفرِّق ما بين الطرح الذي يعجبك والطرح العالي أو القوي، فأنا أرىٰ أن الرواية ليست ذات طرح عالي جدًا، ولكن لماذا أعجبتني؟ لأن النمط أو النوع أو الموضوع الذي تتكلم عنه الرواية يستهويني للغاية وهي المواضيع السيكولوجيا (النفس البشرية)، ولكن ليس كل شيء يستهويني فهو من - ناحية موضوعية أو علمية - يكون عالي الجودة، فهنالك معيارين للحكم في قراءتي الأدبية: «معيار ذاتي» و«معيار موضوعي». وقد يكون هنالك عملٌ يجمع بين المعيارين، أي طرح يشدك ويجذبك ويعجبك للغاية وفي نفس الوقت هو طرح عالي الجودة والسقف، وهذا يجب التفريق فيه، فلو جعلت كل شيء يعجبك هو أفضل رواية

أو كتاب، ولم تستطع أن تبين أو تُدلل لماذا هذه الرواية قوية واكتفيت فقط بجملة «أعجبتني» فبلا شك أنك سوف تُسحل من قبل النقاد الذين جمعوا من الحجج المنطقية والعقلية والواقعية ما يجعل هذه الرواية في أسفل السافلين، وحينها لن يكون لتقييمك أي مصداقية أو قيمة حقيقة.

فأنت لا تستطيع أن تقول أن الرواية قوية إلا بعد أن تمتلك أدوات النقد الأدبي، فتطبقها وتنزلها على الرواية، وتتأكد مدى مطابقة الرواية لها، وقد تكلم سيد قطب عن هذا في كتابه (النقد الأدبي أصوله ومناهجه) فارجع إليه.

وخلاصة القول: تستطيع أن تقول أن هذا العمل من أفضل الأعمال بالنسبة لي، فعندما تتكلم في مجال المعيار الذاتي لا يحق لأحد أن يناقشك فيما تراه أنت جميلًا، ولكن عندما تقول أن هذا العمل من أفضل الأعمال فكأنك تفرض هذا العمل على الجميع ولا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بعد أن تمتلك الأدوات لتبرهن وترد اعتراضات المعترضين.

نبذة موجزة عن الرواية والروائي:

تتحدث الرواية عن شاب جامعي يدعى راسكولنيكوف، من بيئة ريفية، سافر إلى مدينة بطرسبرغ للدراسة وكانت والدته ترسل له الأموال، ولكن توقف عن الدراسة ثم بدأ كل شيء في حياته ينحو منحى التدهور، فتوقف عن الدراسة ثم توقف عن الدروس التي كان يعطيها ويجني من ورائها الأموال التي يعيل نفسهُ بها، ثم أصبح مريضًا ومع طول المرض واستمرار الحمى دخل مرحلة الهذيان أو الاضطراب النفسي، هذه المرحلة جعلت سلوكهُ عَصيًا على التفسير، فراسكولنيكوف اضطرابه قادة إلى ارتكاب جريمة، وقد قتل عجوزًا قد رهن عندها بعض الأشياء حتى يحصل مقابلها على أموال يَصرفُ بها على نفسه، وهذه الجريمة حيرت من بحث في شأنها، كأنها جريمة متكاملة الأركان، التحقيق فيها يقود إلى نهاية مسدودة.

الروائي: يجب أن نَقرُ هنا أن المؤلف دوستويفسكي أحد رجلين:

- شخص مضطرب نفسيًا بالأصل فهو استطاع أن يُحاكي هذا الاضطراب بشكل دقيق في روايته هذه؛ إذ أن «غالبًا» الشخص السوّي يصعب عليه أن يصوّر أو يُحاكي المضطرب نفسيًا في الكثير أو في أدق التفاصيل.

- أو أنه شخص بلغ من المعرفة النفسية مبلغًا كبيرًا وقطع شوطًا طويلًا في تصور مكامن النفوس البشرية، فلذلك هو يحسن تصوير نفسيات شخصياته وتبيانها.

علىٰ العموم هذا أمر من الصعب ترجيحه من قراءة رواية واحدة له، ولكن حسب توقعي أن دقة استقراء دوستويفسكي للنفوس البشرية، لم تكن لو لم يوضع في ظروف قاهرة وصعبة مثل الاعتقال والنفي والحكم بالإعدام، لأن الابتلاءات والمصائب تظهر معادن وحقيقة النفوس كما قال ابن تيمية: « **وكمائن القلوب تظهر عند المحن**»[٦٣]، فهو رأىٰ أنفس البشر كيف تتغير أو تظهر علىٰ حقيقتها بوضعه علىٰ المحك، هذا التغاير كان لهُ أفضل فرصة لدراسة أو تأمل النفوس البشرية.

وقد قرأتُ مقالًا لـعبد المجيد سباطة بعنوان (كيف تقرأ دوستويفسكي) يَتكلم فيه عن التدرج في قراءة روايات دوستويفسكي، وأنا أقول أن هذا التدرج ليس بملزم لمحبي الأعمال السيكولوجية، وإنما قد يَلزم الهواة أو المبتدئين أو من لا علاقة لهم بهذا الطرح والذين يحبون الطرح السلس المباشر، وأنا شخصيًا أظن أن بعض من قد يَعجبه كلامي في استقراء الرواية وثم قرر الشروع فيها، قد يتفاجئ ويغص فيها ثم يُقَرِرُ ترك قراءتها أو يصاب بخيبة أمل.

فالبعض يقول أن الرواية ساحة استجمام خلفية (أي بعد أن تصدع رأسه من كتب التخصص أراد الترويح عن نفسه من خلال الروايات وهذا كلام صحيح) ولكن هنالك تباينات واختلافات في كيفية هذا الاستجمام، فالكثير يقول لك أنا لا أقرأ إلا للروايات الحماسية والتي فيها إثارة وتشويقًا، وهذا الصنف بلا شك أنه سوف يَحرمُ نفسه من أكبر الروايات علىٰ مستوىٰ الأدب العالمي، لأن

---

[٦٣] مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٩).

أغلبها ليس فيها إثارة وتشويق وإنما تسير ببطئ، أو حتى بعبارة أدق لا يوجد ضمن عناصرها تشويق أو إثارة - كالتي تتواجد في «روايات السندويتش» هذه الأيام -، نعم يوجد تشويق ولكن ليس كالتشويق المنشود، بمعنى في رواية الجريمة والعقاب تصرفات البطل غير منطقية ومتضاربة، وترى أن في الأفق أحداث سوف تحصل وسوف تتشوق ماذا سوف يكون ردة فعل البطل فيها؟ فهذا من تصور التشويق ولكن ليس التشويق روايات السندويتش الذي يستهوي الكثير.

فلذلك أنا أستطيع أن أقولها بملء الفيه أن روايات دوستويفسكي يفضل أن لا يقرأها إلا من كان مُحبًا للطرح النفسي (السيكولوجي) والذي يحب التأمل في النفوس البشرية وأثر الحياة على تقلباتها، وأما غير ذلك سوف يجد الشخص من تلقاء نفسه النفور والامتعاض.

في الجريمة:

دخولًا في تفاصيل وأحداث الرواية نقول:

إن الرواية أحيانًا تُفيدك سلبًا أو إيجابًا، وأما السلب هنا فهي تجعلك تستقرأ الأخطاء التي وقع فيها راسكولنيكوف في جريمته، هذا الاستقراء يجعلك تقلب الصورة فَتسّدُ الثغرات وترقعها.

- التوافق القدري لا يجعل الجريمة أمرًا صائبًا أو صحيحًا: أحيانًا القدر يجمع مواقف بشكل مرتب ومتناغم على نحو عجيب، تضمر النية لقتل العجوز فتتفاجئ وأنت تَمشي عَرضًا في أحد الأسواق فتسمع أن العجوز غدًا سوف تكون لوحدها (وهذه أفصل فرصة للقتل)، فأنت تجمع ما بين التطابق القدري هذا لتدليل أو التأكيد على أن هذه الخطوة يجب المضي بها قُدمًا وأنها خطوة صحيحة وهذا التوفيق القدري ليس إلا دلالة على صحة خطوتي، ولكن من ناحية مادية نقول: مجرد التوافق ليس معيارًا أكيدًا لصحة الخطوة ولا حتى لضمان نجاحها، إذ أن العديد من الجرائم التي استلهم بها المجرمون دافعهم من «رؤية» رأوها في الأحلام أو أمور متناغمة لم تُصحح فعلهم ولم تمنعهم من الانكشاف.

- خطأ التعويل على مجرد خبر عابر: استند راسكولنيكوف على خبر يقول أن العجوز سوف تكون غدًا وحيدة للتحرك والإعداد حتى لو كان هذا صدر من أختها؛ لأن من الممكن أن تغير العجوز رأيها فجأة أو يطرأ ظرف خلال ٢٤ ساعة، تتغير فيه الخطة، وأظن أن هذا ما حصل، فأثناء قتل العجوز وجدت أختها بشكل غير متوقع في مسرح الجريمة، وبسبب هذا الخطأ أضطر راسكولنيكوف أن يقتلها مع العجوز، فالاعتماد على هكذا خبر لا يكفي لأنه لم يأخذ بالحسبان أن هنالك أمور قد تطرأ أو تتغير، والتعويل يكون بعد رصد طويل، يَرى المجرم طبائع معينة لضحيته لا تنفك عن فعلها، كأن يُعرف أنها تختلي بنفسها على الدوام كل يوم أحد وهذه عادتها، فهذا ما يَصحُ التعويل عليه.

- جغرافيا موقع الجريمة، أمر يُحدد ما بين أن تكون الجريمة صعبة مستحيلة وفيها مخاطرة أو تكون سهلة وفيها فرصة كبيرة للنجاح: وذلك أن العجوز تَسكن في شقة سكنية أصلًا - أي هنالك احتمال كبير أن يُشاهد أحد السكان أو الموجودين أو المتوافدين عليها لطبيعة عملها - أثناء دخولك أو حتى خروجك؛ بل والشقة التي كانت أسفلَ من شقة العجوز كان فيها إصلاحات ودهان الشقة كاملةً من جديد وكان بابها مفتوح وداخلها عمال يعملون، فضلًا أن العمال ليسوا منهمكين في العمل تمامًا بل يلعبون مع بعضهم ويركضون خلف بعض خارج الشقة؛ يعني جميع الأمور المنطقية تقول لك: الموضوع فيه مخاطرة كبيرة جدًا!

- من أظهر اهتمامه في قضية ما بشكل مبالغ فيه؛ قد يَربط البعض مابين اهتمامه المبالغ وتورطهِ بها: فسيكولوجيا الإنسان عمومًا فيها الفضول الفطري لمعرفة ما حصل، ولكن لو كان الإنسان متورطًا في حادثةً ما سوف يزيد فضوله أشد من فضوله السابق حتى يعلم هل يطمئن على نفسه أو يعلم أن الخناق بدأ يُضيّق عليه، فلا بُدَّ من الإيحاء أو التعمية هنا حتى تورّي عن موقفك وأن اهتمامك هذا ليس اهتمامًا خاصًا لهذه القضية، فمثلًا راسكولنيكوف لما تُكلِّم أمامهُ عن قضية العجوز وكان

مريضًا وفاتر الهمة ومُهملها من حوله فجأة تفاعل معها وبشدة، وأصبح يسأل ويستفهم، رغم أنه يستطيع التعمية، فالذين حوله كانوا يقولون أنه يهذي وكلامه غير مترابط وهذا غطاء جيّد، فمثلًا مثلما أظهر اهتمامه بهذه القضية بهذه الشدة والشغف يجب عليه أن يظهر نفس الاهتمام والشغف بشيء آخر - أثناء كلام من حوله - حتىٰ يقولوا أن هذا الشخص لا يزال يهذي، ولكن عندما يتوقف الشخص ويركز علىٰ قضية معينة قد تكون هذه دلالة أوكد أن اهتمامه المبالغ هذا ليس من الهذيان بل اهتمام فعلي، وإلا لماذا اهتم كل هذا الاهتمام؟! وهذا السؤال بمثابة الخيط الأول بجعلهِ داخل دائرة الشك.

- لا تعمق الشكوك: لما ذهب راسكولنيكوف إلىٰ أحد القهارات طلب أعدادًا سابقة من الصحف المحلية حتىٰ يقرأ تفاصيل قتل العجوز، جلسَ بجانبهِ الطبيب زاميوتوف قال راسكولنيكوف للطبيب: «**أعرف أكثر مما تعرف أنت عن قضية قتل العجوز**». ثم قال مُعللًا طلبهُ للعديد من الصحف: «**ما جئت إلا لقراءة جميع الأخبار التي تتصل بمقتل العجوز**»، ثم تكلما عن القضية وما الذي يمكن للقاتل أن يفعله بالمال أو الأشياء المرهونة بعد قتل العجوز، فقال راسكولنيكوف نفس السيناريو الذي فعله بالضبط في إخفاء الأشياء! ثم قال الأحمق راسكولنيكوف: «**ماذا لو كنت أنا قاتل العجوز؟**» ولكن جميع هذه الأمور كان يقولها بشيء من الاضطراب أو السخرية أو التهكم وهذه الأمور الإضافية قد لا تجعل الطرف الآخر يأخذ كلامه بمحمل الجد، ولكن أحيانًا حتىٰ مع إضافة هذه الأمور إلىٰ كلامك قد لا تصرف الفكرة من ذهن الشخص الآخر الذي تتكلم معه بل بالعكس قد تؤكدها وترسخها فيه! (وهذا ما حصل).

- التردد وأثرهُ علىٰ زيادة الشكوك: فأحيانًا لظرف أو لآخر يقوم المجرم ويحاول الاعتراف ويَرمي ببعض الخيوط بشكل صريح ومباشر، مثلما ذهب راسكولنيكوف إلىٰ مكان الجريمة وقرر الاعتراف، وسمعه بعض الناس المتواجدين هناك، وكان قد قرر أن يذهب بعد ذلك إلىٰ الشرطة

ويسلم نفسه، ولكن بعد أن طرده الناس ظنًا منهم أنه مجنون غيّر رأيه وقرر عدم تسليم نفسه، ولكن هذا التردد ما بين الاعتراف وعدم الاعتراف تخللهُ شيء من الصراحة غير المسؤولة أمام الناس (وهذا التردد سوف يؤثر لاحقًا في الأحداث التالية).

- خطورة استهداف الحذرين: طبيعة عمل العجوز وهي رهان أغراض الناس مقابل أموال يقترضونها، ومع وجود فوائد على هذا الرهن وتضاعف الفوائد كلما تأخرت في السداد فضلًا عن أسلوبها الجاف والقاسي، تَجعل العجوز تظن أنها مستهدفة، خاصةً أن القاصدين لها هم أُناس مسحوقين ماديًا، وأن من الطبيعي أن يصل أحدهم مرحلة «أن لا يوجد شيء يخسره» فيقوم بفعل أحمق من محاولة هجوم أو سرقة بالإكراه أو حتى القتل، لذلك العجوز تلقائيًا أصبح لديها عدم ثقة بكل من يأتيها، وتَلمسُ ذلك من خلال تعاملها مع الشخص الداخل إلى شقتها، وعادةً هذا الشخص الحذر المتوجس يكون قتلهُ أكثر صعوبةً من الشخص التلقائي العفوي الذي لا يحسب حسابًا ويتعامل بشكل أعمى مع الكل، فلاحظ كيف أن العجوز لما توجست من راسكولنيكوف خيفةً ماذا صنعت؟! بعدما أدخلتهُ تركت باب الشقة مفتوحًا - حتى لو حصل أمر ما - يكون ضجيج الصوت الصادر إلى الخارج يصل بشكل أوضح، وبذلك تأمن على نفسها، ولم ينتبه راسكولنيكوف إلى هذه الخطوة إلا متأخرًا وبعد أن قتل العجوز وأختها وكادت هذه الخطوة أن تكشفه تمامًا لو لا أنه تصرف في آخر رمق.

- أحيانًا يكون الخوف من الاشتباه هو ما يزيد الاشتباه حقًا: بعد قتل العجوز كل الذين رهنوا أغراضهم لديها راجعوا مركز الشرطة لاستلام أغراضهم المرهونة المكتوبة بأسمائهم إلا اسم واحد لم يأتي وهو راسكولنيكوف ربما لم يكن يريد أن يَلفتُ الأنظار حوله، ولكن ما فعله كان له أثر سلبي أو عكسي، مع كل ما سبق زادت الشكوك حوله.

- ربما الوضع النفسي لا يسمح: يَحصلُ أحيانًا أن يكون الشخص كثير الهذيان، والهذيان هو أن يقول شيئًا ولا يشعر أنه يقوله بصوت مرتفع أو يقوله دون أن يضع اعتبارًا أن هنالك أشخاص بجانبه يسمعونه أو حتى أنه لا يشعر أن ما قد اعتلج في ذهنه قد نطق به، فمن عرف أن هذا الداء كان به، فأصبحَ ارتكابهُ للجريمة أصعب، لأنه لا يضمن نفسه أن يَرمي ببعض شذرات الهذيان فيفضح نفسه، فراسكولنيكوف عندما أشتد مرضهُ أصبح يَهذي ببعض الأمور حول الجريمة والتي ترسخت في ذاكرة رازميخين فيما بعد.

- يقول الإمام علي: «**سرُّك أسيرك، فإن تكلمت به، صرت أسيره**»[٦٤]، من الأمور التي تحصل حاليًا أن الأسرار تتفشى بسبب فعل غالبًا ما يحصلُ بين الناس، وهو أن يقول أحدهم سرًا للآخر ويختم كلامه بـ: «لا تقل لأحد»، ثم يتداول هذا السر بين الناس وكل شخص يقول للذي بعده: «لا تقل لأحد»، فإذن كلما بحت بسر لأحد ومهما كان هذا الشخص ثقة ضع احتمالية كبيرة أن يتسرب يومًا ما، فأنت بدلًا من أن تضع نفسك تحت هذه الاحتمالية، وتعيش في قلق وتوتر، اكتم هذا السر ولا تخبر بهِ أحدًا مهما كبرت ثقتك بهذا الشخص، وأحسن الإمام القحطاني عندما قال في قصيدته النونية:

واحفر لسرك في فؤادك ملحدا ... زادفنه في الأحشاء أي دفان

إن الصديق مع العدو كلاهما ... في السر عند أولي النهى شكلان [٦٥]

فـراسكولنيكوف عندما أخبر صونيا بجريمته مباشرةً تسرب الخبر وأصبح كلًا من سفدريجايلوف ودونيا يعرفان الحادثة، وكان سفدريجايلوف شخص غير موثوق وقد كان بالإمكان أن يستخدم هذا السر لابتزاز راسكولنيكوف، فأصبحت أنت تحت رحمة الناس بسبب تكلمك عن سرك.

---

[٦٤] أدب الدنيا والدين للماوردي – صـ٣٠٦.

[٦٥] نونية القحطاني، ت: محمد بن أحمد سيد أحمد، صـ٣٨.

مالذي يمنعك من فعل الجريمة وأنت تسوغ هذه الأفعال: من أسباب الاتهام أحيانًا بجريمة معينة عندما يكون الشخص الفلاني قد عُرف عنهُ سَلفًا تسويغه لهذه الجرائم، فالجريمة ليس فقط المعاقب عليها هو مرتكبها بل حتى من يسزغها أو يفرح بها، وراسكولنيكوف قد كتب مقالةً أصّل فيها تأصيلًا مُبهمًا فُهِمَ منه إباحة القتل لظروف معينة، وهذا التأصيل كان أحد أسباب اتهامه لاحقًا، بالقول: أنك إذا أصلت لجواز القتل فمالذي يمنع أن ترتكب ما تراهُ جائزً؟

والخلاصة: أن الروايات التي تتكلم عن جرائم القتل أو الروايات البوليسية كروايات أجاثا كريستي قد تصنع قاتلًا بغير قصد وذلك بالنظر في كيفية حصول الجرائم وكيفية كشفها ثم ترقيع الثغرات وتطبيقها على أرض الواقع.

في العقاب:

- الجلوس مع المحققين عندما يشتبهون بك، هي كالمحاكمة المصغرة، لا يوجد محامي يرافع عنك بل أنت ترافع عن نفسك! وعدم انتقاء الكلام الجيد قد يوقعك في فخ أو يَحكمُ الحِصار عليك، أو يجعلك تدين نفسك من حيث لم تشعر، فلذلك عندما ترتكب ما يدينك يجب أن ترسم سيناريو واحدًا تتذكر فيه أدق التفاصيل، لأن أحيانًا صغار التفاصيل هي ما توقعك في مشكلة، وأحيانًا يأتيك سؤال مُفخخ تراه سؤالًا عاديًا أو سؤالا روتينيًا ولكنه فخ يجعلك تدين نفسك بنفسك! وهذا ما حصل مع راسكولنيكوف عندما زار المحقق بورفيري وسأله سؤالًا مباغتًا: «**عندما ذهبت لترهن أغراضك لدى العجوز ألم تَرَ وأنت تصعد السلم بعد الساعة السابعة في شقة كان الباب مفتوحًا هل تتذكر ذلك؟ ألم تر عمالًا كانوا يعملون في تلك الشقة وهم دهانون كانوا يدهنون الشقة ألم تلاحظهم؟**» فقال المؤلف هنا واصفًا حال راسكولنيكوف: «**أجاب راسكولنيكوف ببطيء وكأنه ينبش ذاكرته وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذي ينصب له ليتحاشى الوقوع فيه**» ثم اعتذر المحقق وقال «**عفوًا لقد اختلط علي الأمر**» ولكن بعد أن أخذ الجواب من راسكولنيكوف.

ويجب التنبيه هنا أنك لو جلست مع المحقق جلسة غير رسمية وأخذ منك اعترافًا بشكل غير مباشر لا يستطيع أن يدينك من خلاله، ولكن عندما تكون الجلسة غير الرسمية جماعية ويوجد بها أكثر من شخص، فشهادة هؤلاء عليك هي ما سوف يدينك. وشخصية المحقق بورفيري تؤكد لك علو كعب دوستويفسكي في الطرح النفسي، فالفصل الخامس من المجلد الثاني من الرواية وكان الفصل كله منصبًا على التحقيق وكانت مبارزة نفسية قل أن تتكرر ما بين المحقق بورفيري وراسكولنيكوف، فكانت جلسة مليئة بالفوائد النفسية أو أساليب التحقيق، فمثلًا قضية الخلط ما بين الأسلوب الناعم والحار في التحقيق هو أسلوب قديم وليس بأسلوب مستجد وقد تم استعماله في غرف التحقيق منذ قرون، فتاريخ رواية دوستويفسكي كان في القرن التاسع عشر.

فبور«يري افتتح جلسة التحقيق على أنها حوار ودردشة ودية ثم بدأ يتكلم عن مكان سكنه وأن السكن تم منحه من الحكومة، ثم بدأ يتكلم عن نفسه ويضحك، ثم فجأة دخل على الثقيل وبدأ يمهد على أن راسكولنيكوف هو الشخص المُتهم ولكن كعادة رجال المخابرات لا يوّجه التهمة بشكل مباشر وإنما يحوم حول الحمى... وهذا الانتقال الفجائي يؤثر بشدة على نفسية المتهم، فللتو كانت نفسة مطمئنة وفجأة سُلب هذا الاطمئنان وهذا يؤثر على استقرار نفسيته وتجعلها تهتز وبشدة، وهذا الاهتزاز والخوف والهلع الذي أصابه فجأة جعلته يتخيل أنه قد تم كشفه أو في أحسن الأحوال أنه سوف يعيش مطاردًا أو تحت الرقابة أو سوف يأنبه ضميره لما فعله من جريمة أو سوف يتذكر كيف سوف تكون ردة فعل أهله وأقاربه ومعارفه وهو يجرجر أمامهم، فجميع هذه الضغوط قد تجعل من خيار الاعتراف أفضل من العيش في قلق على الدوام! فبالاعتراف سوف يزول هذا القلق الدائم ولن يبقى شيء يخاف من أن يُكشف يومًا ما.

ولاحظ أن بورفيري استخدم أسلوب الإيحاء، وهذا الأسلوب يخدع المتهم بأنه يظن أنه مكشوف سلفًا، فالذي حصل هو أنه أتى شاهد عيان وقال أني رأيت راسكولنيكوف قد وَفَدَ إلى مكان

الجريمة وتضمن كلامه اعترافًا بالجريمة، فجميع هذه الأمور لم تكن الشرطة تعرفها أصلًا ولكن كيف استثمرت الشرطة هذا في التحقيق؟! قال بورفيري: «**نحن نتابعك منذ البداية ونعلم أنك أتيت في الساعة الفلانية إلى المكان الفلاني وقلت الكلام الفلاني**».، فالمتهم هنا يقول: «خلاص كُشفت، إذن فأنا متابع منذ البداية». والحقيقة أنه لم يكن متابَعًا أو مُلاحَقًا ولا تعرف الشرطة أين كان يتنقل وأين كان يذهب، ولكن انظر كيف استثمرت هذه المعلومة لإيهام المتهم بهذا؟ ويستطيع أن يقلب المتهم الطاولة عليهم ويقول: «طيب أخبروني إذن أين كنت في الساعة الفلانية في اليوم الآخر؟» حينها سوف يعرف أنهم لا يعرفون شيئًا وأنهم يكذبون بادعائهم أنه كان تحت الرقابة الدقيقة. والأمر الآخر أن الإدانة تحصل بالاعتراف وهو سيد الأدلة، أو بالأدلة المادية الملموسة، وحتى لو كان المحقق مقتنعًا أشد الاقتناع أنك مجرم بنسبة ١٠٠٪ فاعلم أن الاقتناع اليقيني ليس هو ما يرمي الشخص خلف القضبان وإنما البينة، فكما جاء في الحديث: (البينة على من ادعى)[٦٦]، فالدعوة لا تُقبل إلا ببينة ومجرد الشك أو حتى الجزم فإنه لا قيمة له.

فبورفيري وصل إلى مرحلة اقتنع بشكل نهائي أن الجريمة لم يرتكبها إلا راسكولنيكوف، ولكن في الوقت نفسه اعترف أنه لا يستطيع أن يرميه في المعتقل لأنه لا بُدَّ من وجود أدلة مادية.

نقد لفلسفة القتل في الرواية:

إشكالية الكثير من الجرائم هي التأثر بالطرح الذي يطلع عليه المجرم فيتأثر، فيحاول أن يُحاكي ما قد أطّلع عليه، فمثلًا فلسفة القتل عند بطل الرواية راسكولنيكوف والاستهانة بها، وجودت بالتأمل في حال بعض الشخصيات، وقال فالإنجازات العظيمة لا تتحقق إلا بالتضحية، فلو كان هنالك فرد أو عشرة أو مائة أو أكثر يقفون ويحولون بين نيوتن واكتشافه الذي ينفع به الإنسانية؛ فجاز له أن

[٦٦] قال الرسول ﷺ: «**لو يُعطى الناس بدعواهم لأدَّعى رجال أموالَ قومٍ ودماءهم، ولكن البينةً على المدعي واليمين على من أنكر**». (صححهُ الألباني)، أي أن مجرد الدعوى لا تقبل إلا ببينة، ولو كانت الدعوى تقبل بدون بينة لادعى كل شخص أن لديه حق من الآخر فيأخذه بغير حق.

يقتلهم حتى يَصل إليه، فدائرة الإباحة هي تشمل الذي يقفون عائقًا ولكن لا يعني بالضرورة أن الشخص له الحق في قتل من يريد أن يقتل، وإنما يقتل من يعيقونه من الوصول إلى هدفه الأسمى.

وإن التغيرات الجذرية التي أحدثها بعض الشخصيات مثل النبي محمد وليكورگوس وصولون ونابيلون، ما كانت تتم إلا بالتمرد على النظام السابق المقدس والموروث، فهم اعتبروا مجرمين عند النظام التي انقلبوا عليها وسفكوا الدم لإحداث هذا التغير، فالتغير الجذري الذي سوف يحصل يتحتم عليك إراقة الدماء وعند حصوله سوف يتحول وصفك من مجرم إلى بطل.

ولكن هذا التسويغ والفلسفة مغلوطة، لأسباب منطقية، فالتغيرات الجذرية هذه لها أسباب موضوعية.

فالنبي محمد ﷺ أو ربما حتى هؤلاء المذكورة أسمائهم عندما استخدموا أداة القتل لم يوجهوها ضد المحايدين بل ضد الذين يمثلون السلطة التي تمردوا عليها، بينما راسكولنيكوف عندما استخدم أداة القتل لم يحدد نوع السلطة التي يجب أن يتمرد عليها وهل العجوز التافهة موجودة داخلة في هذه السلطة وهل قتلها يُحدث أثرًا ولو جزئيًا في منظومة الصراع؟

والأمر الآخر أن هؤلاء كان لديهم دافع واضح قد تحركوا من خلاله، فهم لديهم مبادئ واضحة يريدون ترسيخها، فلذلك لم تَفتُ المحن من عضدهم، ولم تشككهم في مبادئهم بل تقلبت بهم الأحوال حتى حققوا التأثير، ولكن ما هو المبدأ الشمولي الذي يتبناه راسكولنيكوف ويريد ترسيخه؟ لا شيء! لذلك اعترف في النهاية أن هؤلاء كانت لديهم القوة للصبر على ما يريدون بينما أنا لا.

والأمر الأخير أن هؤلاء أوجدوا لأنفسهم حلفاء وأعوان يؤيدونهم للوصول إلى غايتهم، ولم تحصل هذه الانتقالات الجذرية في التاريخ بمجهود فرد واحد، وإنما فرد واحد وتحته أتباع بالمئات أو الآلاف ساعدوه للوصول إلى ما يطمحُ إليه، ولكن كيف يريد راسكولنيكوف أن يحاكي هذه

الشخصيات وهو منطوٍ على نفسه ومنعزل ويكره الاختلاط بالناس والكلام معهم فضلًا عن دعوتهم إلى ما يؤمن به - إن كان هنالك شيء يؤمن به فعلًا -؟!

فلما تكون هذه الشخصيات مُلهمة وتحاول أن تحاكيها يجب أن لا تهمل الظروف الموضوعية التي أوصلتهم إلى ما وصلوا إليه، فلا يمكن أن تصل إلى نفس النتيجة وأنت لم تفعل نفس الأسباب؛ هذا يسمى محاولة الوصول إلى نفس النتيجة دون النظر إلى الأسباب، وفي ذلك يقول الشيخ سليمان العلوان: «**بعض الناس يقفز على حقائق الواقع، فيضع نفسه في مكان ابن تيمية وهو لا يساوي حذاء ابن تيمية، ثم يؤدي به الأمر أن يضع نفسه في مواقف لا يطيقها لأنه قرأ سيرة ابن تيمية ويريد أن يطبق ما صنعه ابن تيمية دون المقدمات الموجودة، فهو يريد أخذ النتيجة ولكنه لم يأخذ بالأسباب**»[٦٧].

فأحيانًا يحصل هناك اختلاق أو محاولة تقليد عاطفية ليس لها أسباب موضوعية أو منطقية، وأذكر هنا أن أحد الأشخاص الذين أعرفهم، كان يُكثر من مشاهدة أفلام عصابات السود، فتأثر بأحد الأفلام التي حصل فيها اقتحام مسلح لأحد المصارف، فحاول أن يحاكي نفس المشهد تمامًا وأن يعيش اللحظة، واقتحم أحد المصارف بسلاحه، وكانت النتيجة أن حُكِمَ عليه بعشرين سنة للا شيء. فأقول حتى لو لم يكن هذا تمثيل وإنما قصة حقيقة فقصتهم أنهم اقتحموا المصرف لأنهم لم يجدوا ما يسدون به رمقهم فهم مسحوقون ماديًا، ولكن هل من الحكمة أن تقتحم أنت المصرف وراتبك يكفيك وزيادة؟

ولكن أحيانًا بداعة التصوير وعنفوان المجد تجعل الشخص يهمل قيمته وقدرته الحقيقة، ولا يفكر بعقله بل بعاطفته، وشخصية مثل راسكولنيكوف أكاد أجزم أن من تتبعها في الرواية وراق لهُ أسلوبها المضطرب لربما تخيل أو توهم أن الاضطراب الذي يحصل راسكولنيكوف قد بدأ يحصل له.

---

[٦٧] شريط (أسباب الانتكاسة) ضمن الاسطوانة الثانية. [بتصرف]

فإذن هنالك مشكلة ما بين الإعجاب ومحاولة إسقاط هذا الإعجاب على واقعك ولو بالقوة أو بالتوهم؛ فبعض الأمور التي نعجب بها تكون بمنزلة المنوم المغناطيسي لنا.

وقبل الختام: أحب أن أشير إلى أن الرواية قد أبدعت في بعض الجوانب الدرامية، كمسببات جنون وفقدان العقل لـكاترينا إيڤانوڤنا وبولخيريا إلكسندروڤنا، وما جنون هاتين الشخصيتين إلا انعكاس لقسوة الحياة إن كُسرت فيها مسببات وقوفك على قدميك! فالشخص لا يخضع الظروف وإنما الظروف هي التي تخضعه، فهنالك خيوط رفيعة بين ما نحب وبين ما يمكن، وعدم وجود القدرة للجمع بين ما تريد أن يحصل وبين ما تحب وكان ما تحب قد بلغ مبلغًا كبيرًا في ذاتك من التثبت والتعلق، كلما كانت نسبة حصول الجنون أكبر! إن وجدت أن القدر والظروف قد فرضت رأيها عليك رغمًا عنك وعلى خلاف ما تهوى.

ويجب أن أشير إلى بعض الأخطاء التي حصلت، فدونيا وزوجها أخفيا أمر راسكولنيكوف عن والدته، ويجب أن نعلم أن عدم معرفة مصير الابن تكون أشد وأقسى وأشنع من معرفة مصيره ولو كان سيئًا، لذلك تجد الكثير من الأسر التي لديها أفراد قد اختفوا فجأة وطال أمد اختفائهم يقولون: نريد أن نعرف مصيرهم حتى لو كانوا موتى على الأقل نرتاح ولا نعيش هذه هكذا معلقين لا نعرف هل نأمل أن يعود أو نعده ميتًا أو هل أصابه مكروه أو هو في حاجة إلى المساعدة، فلذلك دونيا وزوجها رازميخين قد أساؤوا إلى والده راسكولنيكوف من حيث أرادوا أن يحسنوا.

وفي الختام: ربما لم أذكر كل الجوانب التي تستحق الذكر من الرواية، وذلك لأني لا أوثق ما يستحق التعليق أثناء القراءة، وإنما أستندُ إلى ذاكرتي بعدما أنتهي من الكتاب، وأتذكر بجهد ما النقاط التي تستحق التعليق، وإلا هنالك جوانب كثيرة قد تكون أهم من التي ذكرت قد أهملت ذكرها، والسلام!

١٨ مايو ٢٠١٧م – ٢٢ شعبان ١٤٣٨هـ

نوادر البخلاء

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: نوادر البخلاء: نصوص ودراسة.
- اسم المؤلف: محمد الربيع.
- عدد الصفحات: ٨٥.
- دار النشر: دار الشروق للنشر والتوزيع.

التعليق والمناقشة:

هو كتاب تستطيع أن تقرأهُ للتحلية - أي في جلسة واحدة - لأنهُ ٨٥ صفحة فقط، عَرض الدكتور ربيع جملة من قصص البخلاء من مصادر عربية متعددة في أول ٥٠ صفحة ثم في ٣٠ صفحة المتبقية حاول التحليل واستنباط الفوائد أو استقراء نفسيات البخلاء ضمن القصص التي عرضها.

هنالك كتب أو فلنقل مواضيع كلما ذُكرت أقترن في ذهنك اسم شخص معين، فمثلًا لما تقول «البخلاء» و«قصص البخلاء» يخطر في ذهنك أحد أعمدة الأدب العربي وهو الجاحظ وكتابه (البخلاء). وسابقًا عندما أقرأ قصص البخلاء ألاحظ وأعجب أن أغلب القصص كانت في خراسان، ولكن من خلال قراءتي لهذا الكتاب وجدت تَعليلًا لهذا الذكر المتكرر، وهي أن في حقبة الجاحظ ظهرت الحركة الشعوبية الفارسية التي تَدعوا للتحقير من العرب ونَفي الصفات الحميدة منهم كالكرم ونحو ذلك، فالدكتور ربيع في هذا الكتاب وَصف كتاب الجاحظ على أنه رد فعل ضمن هذا السياق للانتصار للعرب، ولذلك شُنِّت الغارات تلو الغارات على أهل خراسان الأعاجم، حتى يقول لهؤلاء الشعوبيين لا تعيبوا على غيركم ما أنتم واقعين فيه!

وحقيقةً هذا الكتاب انتقى أساليب متنوعة للبخل، منها البخيل الفيلسوف الذي يسرد الحجج والبراهين لإضفاء الشرعية على فعله، أو أثر البخل على البيئة الأسرية ومدى توارث هذه الصفة من الأب إلى الابن وأثرها على المنزل بعد وفاة الأب، فغالب الكتاب ركز على قضية تَعليل البخلاء لتصرفاتهم أو أساليبهم في الاحتيال، وبلا شك أن الكتاب يَتضمن شيئًا كثير من الطرافة التي تجعلك تضحك، فأنا أعتبر أن قصص البخلاء داخلة ضمن الكوميديا السوداء، فهم في الأصل لم يَصنعوا صنيعهم من أجل إضحاكك ولكن أفعالهم تجرك إلى الضحك!

٢٣ مايو ٢٠١٧م – ٢٧ شعبان ١٤٣٨هـ

الإنجيل برواية المسلمين

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الإنجيل برواية المسلمين.**
- **اسم المؤلف: طريف الخالدي.**
- **عدد الصفحات: ٢٥٤.**
- **دار النشر: دار الجمل.**

التعليق والمناقشة:

كتاب الدكتور طريف الخالدي هذا ربما يكون جديدًا في فكرته، وهو أوجد نوعًا جديدًا من الأناجيل أسماه بالإنجيل الإسلامي، قام بجمع روايات الرواة في كتب الرقائق والآثار عن نبي الله عيسىٰ بن مريم عليه السلام، وعلق عليها.

وأظن أن المؤلف – من خلال بعض الصياغات التي صاغ بها كلامه أو تعليقاته – غير مسلم، ولكن اطلاعه جيد نوعًا ما حول التاريخ والأديان.

الشيء الغريب أن الروايات الإسلامية عن الأئمة الكبار كابن مبارك وأحمد بن حنبل وابن أبي الدنيا وغيرهم من الأئمة والأدباء، غالبًا ما تقابلها نصوص مقاربة في (إنجيل متّىٰ)، فأنا أقول – ربما – لو كانت هذه الروايات ليست من الروايات التي أخذها المسلمون من أهل الكتاب كالإسرائيليات أو ما شابه، فقد يكون (إنجيل متىٰ) من أصح الأناجيل.

والكتاب مصنف علىٰ حسب الرواة بالأقدمية، الأقدم ثم الذي يليه، ولكن أحيانًا تَلمس مواضع الوضع في الروايات، مثل تكرار السجع والجناس في قول عيسىٰ ابن مريم رغم أنه لم تكن لغته العربية.

ولكن الذي جعلني أقول أن المؤلف طريف الخالدي قد لا يكون مسلمًا هو المقدمة الطويلة التي كتبها في مقدمة الكتاب والتي - ربما - ألمح على أن الروايات المنسوبة إلى المسيح إنما وضعت لظروف سياسة أو اجتماعية أو مذهبية، فكل طائفة تضع من الروايات ما تقوي بِهِ مذهبها وترد بِهِ على المخالف وتستغل اسم المسيح في ذلك، وأحيانًا يتعسف في إثبات ذلك.

والأمر الآخر هو تعليله للسرد القرآني عن المسيح إن بعض الأحداث التي وردت في القرآن غير موجودة في الأناجيل المعتمدة وإنما في الأناجيل الشرقية المنحولة، فهو كان يلمح على أن مصدر هذه القصص ليس الوحي وإنما هذه الأناجيل المكذوبة؛ لذلك أنا شخصيًا أُفضّل أن يَقفز الشخص عن قراءة المقدمة - رغم أهميتها في كل كتاب - خروجًا من التشويش الذي قد يوجده المؤلف في ذهن القارئ.

ولكن خلاصة المقال أن الكتاب يتعامل معه على أنه جملة من الإسرائيليات -رغم أن أول أثر ورد في صحيح مسلم -، وذلك لوجود انقطاع في السند ما بين الراوي الأول والواسطة التي أخذ منها قصة المسيح، فعندما يقول مثلًا عمر بن خطاب أن المسيح قال كذا وكذا، فعمر من أين أخذ هذه المعلومة؟ فلو كان هذا الأثر مرفوعًا لنسبه إلى النبي ﷺ، ولكن الأرجح أنه من أخبار أهل الكتاب (الإسرائيليات) وقد وضع الإمام ابن كثير منهجًا في التعامل مع هذه الروايات في مقدمة كتابة (البداية والنهاية)، فأقوال المسيح هنا يستأنس بها، وفيها من البلاغة والقوة الدامغة وجلد علماء السوء الشيء الكثير.

٢٨ مايو ٢٠١٧م - ٣ رمضان ١٤٣٨هـ

حكايتي مع صدام

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: حكايتي مع صدام.**
- **اسم المؤلف: طالب البغدادي.**
- **عدد الصفحات: ١٠٤.**
- **دار النشر: دار الوراق.**

التعليق والمناقشة:

في الفترة الأخيرة أثناء تجولي في المكتبة الوطنية وجدت هذا الكتيب، رغم أني لا أعرف الكاتب ولا توجهه، ولكن اشتريته لأن فترة السجون العراقية في زمن صدام حسين نوعًا ما غامضة، بخلاف الدولة البعثية في سورية والتي تجد حول سجونها كتب وتجارب مدونة كـ(القوقعة) و(تدمر: شاهد ومشهود) و(يسمعون حسيسها) ونحو ذلك من الكتب والروايات والشهادات الشخصية. ولكن سرعان ما تبدد شغفي بمعرفة الواقع عندما علمت أن توجه الكاتب ماركسي.

وغالبًا كان ما يقول الإسلاميون في أكثر الدول: ياليتنا نُعامل ربع معاملة اليساريين! فلذلك لم يستطع المؤلف أن ينقل الصورة بوجها الحقيقي الكالح، فمثلًا اعتقاله الأول قد مرَّ دون تعذيب في دولة التعذيب، بل وأتيح له المجال أن يُدخل إليه الكتب وأن يترجم داخل السجن!! فضلًا عن أن الجلاوزة والجلادين عاملوه معاملة حسنة.

ولكن الجميل في الكتاب هي واقعية المؤلف؛ دون أن يُثبت أنه بطل أو شجاع، بل يذكر مواقف أتعرض فيها للمهانة والذل وأنه قد سايرها وتماشى معها. كأن يُبصق في عينه أو يطلب منه النباح أو تظهر ملامح الخوف الشديد عليه، فبعض الكُتّاب يتجنب ذكر المواقف هذه ويحرص على إبراز

جانب (الشجاعة) دون جوانب الضعف. وقد ذكر الكاتب أن من بين أسباب ثباته أو حتى جرأته غير المعهودة، هي زوجته وتحريضها له، فالزوجة هي سيف ذو حدين كما قال الشيخ عطية الله الليبي في المجموع «إما أن تساهم في الثبات أو تُساهم في الانكسار»[68] ومن رزق الأولى فقد أُوتيَ خيرًا كثيرا.

تستفيد من الكتاب صور سرعة البديهية التي تنجيك في التحقيق، أو التركيز على الأمور التي يحبها المحققون وكيف تستغل الموقف، كقصته بالقسم بصدام أمام برزان، أو عندما عرف أحد معصوبي الأعين أن صدام جالس في غرفة التحقيق سب المحققين وقال أنهم جميعًا جبناء لولا صدام، فاستحسن صدام منه هذا فأطلق سراحه.

وذكر قصصًا يُستحسن أخذها بعين العبرة، كقصة القاضي الذي حكم على فتاة الثانوية بالإعدام ثم أُصيب بالشلل عندما رجع البيت للغداء وهو القاضي جار الله العلاف.

ومن الأمور التي تُحرض الشخص على الثبات؛ عندما يرى في الكتاب أن بعض أهل الباطل يثبتون على باطلهم رغم سَحقِهم سحقًا فمن باب أولى أن يثبت أهل الحق على الحق الذي لديهم، كقصة ذلك الشخص المنحرف عقديًا والذي كان يُعَذَّب بشكلٍ يومي لا انقطاع فيه حتى يُغمى عليه، إلى أن أُعدم وهو ثابت على موقفه.

تكلم الكتاب بشكل مختصر جدًا عن الخلاف الاقتصادي ما بين الماركسية والبعثية في الشعار الاقتصادي: «من لا ينتج لا يأكل» وبين «من لا يعمل لا يأكل». وهو ربما يفيد المهتم والباحث في المدارس الفكرية السياسة وبالأخص في الحالة العربية (العراق أنموذج).

الكتاب يقع حول ١٠٠ صفحة ويقينًا يُنتهى منه في جلسة واحدة، والشخص غالبًا يحاول أن يستشف الفوائد من جرد النصوص، فربما يوجد قارئ آخر قرأ الكتاب واستخرج فوائد أضعاف

[68] انظر: الأعمال الكاملة للشيخ عطية الله الليبي، صـ١٤٥٢.

أضعاف ما استخرجت أنا وربما مرَّت عليَّ أمور مرور الكرام ولم أنتبه لها. فلا تظن أن ما ذكرته هو خلاصة الكتاب وعصارته، بل أنا ذكرت ما علق في ذهني. فتوجد جوانب أخرى ربما لم أتنبّه لها.

١٢ يونيو ٢٠١٧م - ١٩ رمضان ١٤٣٨هـ

رواية: زوجة رجل آخر وزوج تحت السرير

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: زوجة رجل آخر وزوج تحت السرير.**
- **اسم المؤلف: فيودور دوستويفسكي.**
- **اسم المترجم: إدريس الملياني.**
- **عدد الصفحات: ١٠٩.**
- **دار النشر: المركز الثقافي العربي.**

التعليق والمناقشة:

تكمن أهمية الروايات لما تقرأ ثلاثة كتب تخصصية في آن واحد، وتشعّر أن رأسك تصدع، فتكون الروايات حينئذ كالمسكن، فتقوم بضبط وموازنة المزاج للاستمرار في القراءة، بين أيدينا هنا رواية (زوجة رجل آخر وزوج تحت السرير) للروائي الروسي دوستويفسكي.

الرواية قصيرة، ولكن لا أنصح بها، وأرىٰ أن الانشغال بغيرها من الروايات القصيرة أولى، والرواية تتكلم عن قضية هوس الزوج بقضية الخيانة الزوجية، فهو يختلق هذا الأمر ثم يؤمن به إيمانًا قطعيًا ثم يحاول أن يسوّغه بإيجاد دلائل وقرائن الخيانة ويضبط زوجته متلبسة، فهو كما نقول في المثل العامي: «كذب الكذبة وصدّقها». الرواية أو خلاصتها أو العبرة منها تقول أن أحيانًا الهوس بهذا الأمر قد يجعلك تدخل في مغامرات غير محسوبة تضعك أنت نفسك في الموطن الذي تريد أن تضبط زوجتك متلبسةً به.

ودوستويفسكي بخلاف تولستوي في قصصه القصيرة التي اطّلعت عليها، فتولستوي يعطيك عبرة في نهاية رواياته القصيرة تهزك وتكون عبرتها مؤثرة جدًا، بخلاف دوستويفسكي الذي يجب أن

يشرح شخصياته تشريحًا نفسيًا، وهوسه في بسط نفسيات شخصياته قد تغلب عليه أحيانًا من إيضاح العبرة أو المقصد بشكل أكبر، وتبرز رواية (زوجة رجل آخر وزوج تحت السرير) وهي أنها تصنف ضمن أولى روايات دوستويفسكي - أي قبل مرحلة الاعتقال والسجن والحكم بالإعدام - والتي كما يبدو أو يظهر أن هذه المراحل أثرت على شخصيته وربما جعلته شخصية أكثر عُمقًا لأن بعد تلك المرحلة ألف أكبر وأقوى أعماله كـ(الجريمة والعقاب) و (الإخوة كارامازوف)، فربما تساهم هذه الرواية في استقراء خط دوستويفسكي العام - وهذا يهم غالبًا الذين بلغوا مرحلة متقدمة في الروايات ووصلوا إلى حد الشغف بأصحابها -.

وعيب هذه الرواية أنها انتهت نهاية مفتوحة، أي لم تكتمل القصة، والفائدة الثانية من هذه الرواية هي محاولة تجنب ما يسمى بـ«النشبة» أو «الغثيث» فقد صورت الرواية هذه الشخصية أنك كلما تفاعلت معها زادَ تعلقها بك، وإن كانت هذه الشخصية شكاكّة فقد يؤدي الانبساط في الحديث معها إلى اتهامك بحيث يصعب الخلاص منها! الشق الأول أمر معروف أو يعرفه الجميع كلما تفاعلت مع «الغثيث» غثّك أكثر، ولكن الأمر الثاني وهو المهم أنه إن كان «الغثيث» شكاكًا ومهووسًا قد يؤدي التفاعل معه ليس إلى غثك فحسب بل إلى اتهامك.

كانت لدي بعض الملاحظات حول الأداء العام للرواية مثل التغير الفجائي وأثره، ومثل إبهام أسماء بعض الشخصيات أو تكون أسماء الشخصيات متقاربة.

وفي الختام أقيم الرواية بـ٢/ ١٠ وإن شاء الله ما أكون ظلمتها!

٢٨ يوليو ٢٠١٧م - ٥ ذو القعدة ١٤٣٨هـ

السلفيون والربيع العربي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: السلفيون والربيع العربي: سؤال الدين والديمقراطية في السياسة العربية.**
- **اسم المؤلف: محمد أبو رمان.**
- **عدد الصفحات: ٣١٤.**
- **دار النشر: مركز دراسات الوحدة العربية.**

التعليق والمناقشة:

وهو كتاب يقع في ٣١٤ صفحة تقريبًا، يحاول يبحث ويدرس فيه قضية بزوغ ظاهرة الأحزاب السلفية التي دخلت الحقل السياسي بعد فتاوىٰ التحريم وعدم القناعة بالعمل السياسي وسَلّط الضوء علىٰ الحالة المصرية (حزب النور والأحزاب السلفية نموذجًا) ثم مدىٰ تأثر بقية الأقطار العربية بتجربة حزب النور حتىٰ تحاول أن تحاكيها أو تستنسخها فتدخل إلىٰ العمل الحزبي بعد أن كانت تُحَرِّمُه.

الجانب الذي قد تستفيد منه في هذا الكتاب هو السرد التاريخي مع نسبة الأحداث إلىٰ المراجع التي أخذ منها المؤلف، أي أنك تستطيع أن ترىٰ الأحداث والمواقف حسب التسلسل الزمني وترجع إلىٰ المصدر حتىٰ يطمئن قلبك أكثر بدلًا من تلخيص المؤلف أو الباحث فيتشكّل لديك تصور أوضح، فالمؤلف أو الباحث قد لا يلخص لك الكلمة أو الخطبة أو الندوة كاملةً وإنما يضع جزءًا معينًا منها، فبوجود المراجع تستطيع أن تستغني من التلخيص إلىٰ المتن نفسه، وبذلك يكون نقدك أكثر دقة – إن أردت أن تنقد – لأنك استندت إلىٰ المصدر الرئيس بدلًا من المصدر الوسيط.

بحث المؤلف قاصر أو شعرت أنه لم يقتل القضية بحثًا وشعرت أن المؤلف لم يتابع الثورة المصرية منذ بدايتها أولًا بأول، ولم يشهد معارك كسر العظام بين التنظيمات والتيارات الإسلامية آنذاك التي كانت تموج بها مواقع التواصل الاجتماعي (الفيسبوك خاصةً) واكتفىٰ بالبيانات والمواقف الرسمية فقط، رغم أن صراعات المناصرين آنذاك كانت تعتبر هوامش تُجلّي الكثير مما قد يَرِدُ في البيانات الرسمية، وهذه النقاشات التي كانت لا تنتهي آنذاك أعطتنا خلفية جيدة لتصور منطلقات الجماعات الإسلامية في الاستنباط والاستشراف، وخلفية أفضل لفهم المواقف السياسية الرسمية ولماذا وكيف حصلت.

ثم تكلم المؤلف عن قضية التأصيل الشرعي الذي كان يجعل هذه الجماعات أو الأحزاب تبتعد عن العمل الحزبي ثم بيّن ما هي الحُجج التي استندَت إليها في ركوبها موجه التغيرات وما هي التأصيلات التي استندَت إليها في تجويز العمل السياسي وما هي مطالبها (ومدىٰ واقعية أو طوباوية هذه المطالب) وما هي نظرتها إلىٰ الديمقراطية وحقوق الأقليات والحقوق الفردية.

فالخلاصة التي توصّل إليها المؤلف أن هذه الأحزاب السلفية بدأت كبداية الإخوان المسلمين في العمل الحزبي، سقفٌ عالٍ وعباراتٌ حادةٌ وتصلبٌ علىٰ المواقف، ولكن إقصاء هذه التيارات عن العملية السياسية سوف يجعلها أشد تمسكًا وتصلبًا علىٰ ما تدعو إليه، والحل هو أن نشركها في العمل السياسي ونضعها تحت الأمر الواقع حتىٰ ترضخ لواقع العملية السياسية مثلما رضخ الإخوان من قبلها فتتحول إلىٰ تنظيمات أكثر براغماتية وتتحول خطاباتها المتزمتة تدريجيًا إلىٰ خطابات أكثر واقعية ومنطقية، والديمقراطية في المنطقة العربية لا يمكن أن تصل إلىٰ مرحلتها المتطورة إلا بقناعة الأحزاب الدينية بقبول قواعد اللعبة بحيث لا يستخدمون سلاح الأغلبية لهدم قواعد الديمقراطية نفسها أو التضييق علىٰ حريات الأفراد أو نحو ذلك.

ولا أنسى أن هذا الكتاب فيه من «العك» الشيء الكثير، يعني أنا شخصيًا أعتبر أن الكتاب ابتدأ من الصفحة ٩١ لأن أول ٤١ صفحة تلخيص لما في الكتاب، وأنا إن كنت سأقرأ الكتاب فلماذا أقرأ التلخيص؟ وما بعد الأربعين حتى التسعين هو نبذة عن السلفية وتطورها...إلخ، وهذا الكلام قد قرأته في غير كتاب وتشبعت منه، فلذلك الفصل الأول هو البداية الحقيقية لهذا الكتاب.

١٩ سبتمبر ٢٠١٧م - ٢٨ ذو الحجة ١٤٣٨هـ

من محرق إلى سجن بيت الدولة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: من محرق إلى سجن بيت الدولة.**
- **اسم المؤلف: عبد الله مطيويع.**
- **عدد الصفحات: ٢٢٨.**
- **دار النشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.**

التعليق والمناقشة:

عبد الله مطيويع نسميه نحن بـ«خالي» وهو في الحقيقة ليس كذلك بل شقيق جدي وبمعنى آخر عم والدتي، ولكن نسميه خالي تجوزًا، ولذلك هذا الكتاب تطرق إلى أشخاص في أسرتي من طرف والدتي دهشتُ لما ذكر عنها، مثلًا أن جهاز الأمن اعتقل جدي إبراهيم، ومثل أن خالتي نورة حُاصر جهاز الأمن بيتها ثلاثة شهور، فقالت متهكمة: «**والله حصّلنا حراسة أمنية مجانية من الداخلية**»، والمؤلف أهدى الكتاب إلى خالتي لطيفة ولكن أعرف حادثة عنها لم تذكر في الكتاب وهي أن في أحد المرات كان أحد المخبرين يتتبعها من مكان إلى مكان حتى «قَرفَت» من هذا الوضع فخلعت نعالها وطبعتها على وجهه. ولكن لم أعرف إن كان لها دور نضالي آنذاك، فقد كنت أظن أن تتبعهم لها إنما لسياسة العقاب الجماعي التي قد تفرضها أحيانًا الدول على أسرة المعارض.

ولكن هناك نقطة هامشية تتعلق بلقب الأسرة، وهي أن أسرة الوالدة هي الجابر ولكن بسبب امتهان الأجداد لمهنة القصاصيب أصبحوا يسمون بأسرة القصّاب كما جرت العادة في تلقيب الأُسر التي يقوم أبنائها بالعمل في مهنة واحدة، ولكن لقب «مطيويع» هي صفة شخصية لعبد الله، لأنها كما يقال في سن الطفولة كان مطوع أو ملتزم ولُقّب بهذا القلب ومشى معه حتى كبر. فلقب المطيويع ليس اسم عائلة بل هو صفة شخصية لفرد واحد من الأسرة.

وأظن أن اقتحامات الأجهزة الأمنية المتكررة لبيت كبير الأسرة، - والد جدي الذي كان يسكن فيه الجميع - للتفتيش والاعتقال أنشأ نوعًا من التحفظ على ممارسة أي عمل سياسي وأصابتهم ردة فعل نحو هذا الاتجاه. وقد ذكر الشعراوي في مذكراته (هو الراوي) أن بعض الأُسر التي تضررت من السياسة لديها رد فعل مبالغٌ فيها من أي عمل سياسي، وأظن أن هذا الذي حصل مع جزء كبير من الأسرة، فما زالت التحذيرات تنهال علي بأن لا أعمق تواصلي مع المطيويع خوفًا من أن يكرر التاريخ نفسه!

والكتب التي تكلمت عن حقبة النضال والصراع السياسي آنذاك قليلة، وأنا شخصيًا اطّلاعي قليل على هذه الكتب والأطروحات ولم ألتفت إلى تاريخ البحرين السياسي إلا مؤخرًا بعد أن عملت في مجال متعلق بتاريخ البحرين، فالجيل الأول جيل الخمسينيات وهو جيل هيئة الاتحاد الوطني قد كتب أحد مؤسسيها وهو عبد الرحمن الباكر مذكرات بعنوان (من البحرين إلى المنفى سانت هيلانه) تقع حول ٥٠٠ صفحة، قد قرأت بعض فصوله قديمًا، وكذلك الفصول الأولى من كتاب عبد النبي العكري (التنظيمات اليسارية في الجزيرة والخليج العربي)، ولكن الجيل الثاني جيل الستينيات والسبعينات لم أطّلع إلا على كتاب عبد الله المطيويع هذا وكتاب عبد النبي العكري الآخر (ذاكرة الوطن والمنفى) ولا ننسى المجلد الضخم الذي قامت عليه فوزية مطر في تدوين سيرة زوجها وهو (أحمد الشملان: سيرة مناضل وتاريخ وطن) طباعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر. وأما المراجع التي وقفت عليها في كتاب (الحراك الفكري السعودي) لوليد الهويريني كان من ضمنها (التنظيمات الماركسية في الخليج) للمعارض اليساري البحريني عبد الهادي خلف، وورقة بعنوان (شيء من تاريخ الحركة الشيوعية واليسارية في البحرين) لعضو اللجنة المركزية لمنبر الديمقراطي التقدمي فاضل الحليبي.

وعبد الله المطيويع يعتبر نفسه الأقرب إلى جبهة التحرير، وهذه الجبهة كما عرفها كريم مروة في كتاب (قضايا التحرير والديمقراطية في البحرين والخليج) بأنه أول تنظيم ماركسي لينيني وأول حزب للطبقة العمالية في البحرين وفي الخليج بأسرها.

ولكن من عمل في القطاع الخاص - كأمثالي - لا يستطيع أن يُنكر الجهود التي امتدت لأجيال منذ جيل الخمسينيات (هيئة الاتحاد الوطني) والتنظيمات العمالية التي أتت بعدهم في الستينيات كجبهة التحرير الوطني البحرانية والجبهة الشعبية وغيرها من التنظيمات القومية والتي أثمرت في النهاية في تصليح أحوال العمال عمومًا والعاملين في القطاع الخاص خصوصًا.

وكتاب عبد الله المطيويع من الكتب التي استعجل في نشرها، وكان المفترض أن يقوم المؤلف بإرسال هذا الكتاب إلى مُعدٍ ومنسق حتى يخرجه بحلة أفضل (ولاحظ بين كيفية كتابة المؤلف لكتابه وبين الكيفية التي تم نشر لقاء صحيفة الوسط معه ومن خلاله يتبين لك أثر المعد والمنسق)، فمن الأخطاء التي وقع فيها المؤلف، هو أنه لا يسرد الأحداث سردًا تسلسليًا من البداية حتى النهاية، وإنما يتنقل ما بين الأحداث، فمرة يضع لك أحداثًا في السبعينيات وثم يضع أحداثًا في الستينيات ثم يضع أحداثًا حصلت في السبعينات وهكذا.

والنقطة الثانية: وهو الإكثار من استخدام العبارات العامية، وكأن الكتاب قد وّجه إلى البحرينيين حصرًا، وأحيانًا يضع تعريفًا أو توضيحًا ولكن في أغلب الأحيان لا يضع التعاريف ولا يشرح المصطلحات. فالكتاب يحتاج إلى إعادة صياغة جديدة بحيث يقوم على الفصحى إلا ما اضطر إليه السياق بذكر الألفاظ العامية مع ذكر معناها في الهامش.

والنقطة الثالثة: أنه قام بسرد موجز في قضايا التعذيب وليس سردًا تفصيليًا، فلم يَذكرُ كيف تم التعذيب وإنما يكتفي ببيان أن التعذيب تسبب بآثار في الظهر أو أُغمي عليه أو أنه كاد يموت، ولكن لا شرح تفصيلي، يعني هل استخدمت الكهرباء أو الهراوات أو الكرباجات...إلخ؟

والنقطة الرابعة: ذكر الكثير من الشخصيات، وهذه الشخصيات لا توجد أي مراجع أخرى تتكلم عنها، فكان حري بالمؤلف طالما بينه وبين هذه الشخصيات معرفة أن يذكر تعريفًا موجزًا لها في هوامش الكتاب.

وكذا لا بأس أن يسترجع الشخص ذكرياته بسؤال الأشخاص الذين عايشوها مثلًا سلمان كمال الدين ذكر في مذكراته (ذاكرة وطن) حادثة عن المطيويع لم يذكرها المطيويع نفسه في كتابه! وقد التقيت بعبد الله أبو كميل –إن لم تخني الذاكرة– في مقر عملي، وقد ذكر لي أن هنالك بعض الأحداث غير صحيحة، فقلت ربما المؤلف أخطأ فيها لطول عهده بها، فلا بُدَّ من التوثق والتحري والسؤال وحتى لو كان الكتاب يتكلم عن تجربة شخصية، انظر مثلًا ما صنعته فوزية مطر مع أحمد الشملان فلم تكتفي بشهادة زوجها بل عضدتها بشهادات الكثيرين الذين عايشوا نفس الأحداث معه من أجل تكميل الصورة.

والنقطة الخامسة: وهي الملاحق وبالأخص الرسائل المكتوبة بخط اليد كان يفضل أن تُفَرَّغ طباعةً في الكتاب، لأن طباعة الرسائل المكتوبة بخط اليد وعرضها صفحةً في الكتاب جعلها غير واضحة ولا يعرف ما هو مكتوب فيها.

والكتاب يصلح أن يكون وجبة سريعة، فإذا حذفنا الصور والملاحق (التي هي كلها صور تقريبًا) يقع في ٢١٤ صفحة، وقد قدم له جمهرة كبيرة من رؤوس ورموز اليسار في البحرين.

١٩ سبتمبر ٢٠١٧م – ٢٨ ذو الحجة ١٤٣٨هـ

ولادة الأفغان العرب

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: ولادة الأفغان العرب.**
- **اسم المؤلف: عبد الله أنس.**
- **عدد الصفحات: ١٦٤.**
- **دار النشر: دار الساقي.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (ولادة الأفغان العرب) وهو كتاب قصير جدًا، تكلم فيه عبد الله أنس باختصار عن قصة جهاده في أفغانستان أثناء الاحتلال السوفيتي، ولو أردنا امتداح الكتاب بالمنظور العام، فأفضل ما فيه أنه لم يحاول أن يمط الكلام حتى يستكثر من عدد الصفحات، والأمر الثاني أنه كتب عن القضية من منظورهِ الخاص أو من خلال ما شاهده هو بنفسه، فلم يتسور للكلام عن مالم يشهده أو لم يسترسل في التحليلات والترجيحات. والأمر الثالث الجيد في الكتاب هو وضعهِ لرسالة حصرية في ملحق الكتاب للشيخ عبد الله عزام إلى أحمد شاه مسعود.

وأما مثالب الكتاب في نظري الشخصي هو تلميع بعض الشخصيات وعدم تناولها تناولًا موضوعيًا مثل أحمد شاه مسعود، فهنالك دروشة تحصل عند الكثير من الشخصيات التي إن أحبت عُميت، وأصبحت لا ترى إلا الجميل! فأحمد شاه مسعود لا يختلف عن بقية رؤوس الأحزاب الذين كل طرف أراد أن يبني المجد لنفسه على حساب تضحيات الآخرين!

هناك قادة لديهم صفات فطرية تتمثل في إظهار التمسكن أمام البيضة التي تبيض لهم ذهبًا (العرب أو المندوبين العرب) بينما في الجانب الآخر يمارسون دورهم بكل خبث (وارجع إن شئت إلى مقدمة كتاب: حروب الأشباح لستيف كول) حتى ترى الجانب الآخر لأحمد شاه مسعود.

ومن نافلة القول أن أقول أن شهادة الخصوم على خصومهم لا تقبل، خصوصًا إن كان هؤلاء الخصوم عليهم علامات استفهام، وهذا الأمر ينطبق على عبد الله أنس، فلا بُدَّ أن تكون حذرًا في كلامه عن خصومه (وهو غير موجود في هذا الكتاب تقريبًا وإنما في سلسلة بثت على التلفزيون الحكومي المغربي عن تجربته الشخصية).

٢٦ سبتمبر ٢٠١٧م – ٦ محرم ١٤٣٩هـ

حرب الصحراء

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: حرب الصحراء: غارات الإخوان الوهابيين على العراق.**
- **اسم المؤلف: جون غلوب باشا.**
- **اسم المترجم: صادق عبد الركابي.**
- **عدد الصفحات: ٤٦٤.**
- **دار النشر: دار الأهلية للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

المؤلف السير جون غلوب هو ضابط استخبارات بريطاني، معروف في الأوساط العربية بـ«جون غلوب باشا»، وهو كان رأس الحربة في تصفيف الداخل العراقي ومحاولة وضع الخطط والاستراتيجيات للتصدي لغارات «إخوان من أطاع الله» عند الحدود العراقية، وما يُعرف بـ«إخوان من أطاع الله» هم - بإمكانك أن تقول - الكتلة أو الجيش الديني لملك ومؤسس الدولة السعودية الحالية عبد العزيز آل سعود، ولماذا مذكرات جان غلوب باشا مهمة ربما أكثر من غيرها من الرحالة أو المستشرقين الذين عايشوا الأحداث؟ لأن جون غلوب باشا بخلاف هؤلاء المستشرقين والرحالة يتكلم لك من موقع سلطة ومنصب قيادي، أي يشرح لك الواقع من الأعلىٰ وليس من الأسفل، رغم أن كلا الشرحين مهمين لتأكيد المعلومة عند تطابق روايتهما أو في أسوأ الأحوال لوضعها بعين الاعتبار.

ولا يفوتني قبل البدء أن المؤلف يستخدم بعض المصطلحات (لنقل أنها تغيرت حاليًا) مثلًا يسمي السعودية بـ«نجد» فمصطلح «نجد» لدىٰ الكاتب معناه (السعودية) وليس إقليم «نجد» الحالي الموجود في وسط السعودية.

وكما قال المؤرخ عمر عبد الحكيم: «إن لم تكتب تاريخك، فسوف يكتبه أعدائك!» فالإخوان بما أنهم قبائل بدوية، فهي كما يبدو غير مهتمة بالتدوين ولا التأريخ لسيرتها وأحداثها، والعامل الثاني الأبرز هو أن فلول الإخوان المنهزمين قبلوا كما يُقال «السلم المخزية» بعد هزيمتهم في «الحرب المجلية»، أي بعض أفخاذ القبائل المتمردة على الملك عبد العزيز أُبيدت عن بكرة أبيها، والبعض حتى يحافظ على نفسه وقبيلته ارتمى عند أقدام الملك عبد العزيز، فهؤلاء أو هذه القبائل حتى لو تحضّرت لاحقًا وكان لديها خبر مُسند (أخبرني أبي عن جدي) فقد يتصور أنه ليس من الحكمة أن يفتحوا أو ينشبوا هذه المواضيع مما يجعل ولائهم محل شك.

فلذلك التاريخ المدون عن الإخوان كتبه أعدائهم، ولم نسمع منهم إلا بعض الحكايا التي قالها بعض كهولهم لبعض الأشخاص أو المشايخ ولكنها أحداث غير متسلسلة، ولا يوجد أي جهد حقيقي لمحاولة كتابة التاريخ حسب تصور «إخوان من أطاع الله» بلا شك لأن هذه الحكايا مبعثرة بين أشخاص متعددين لا يجمع بينهم رابط.

وقصة الكتاب تتكلم باختصار عن قبائل الإخوان وأبطال قصتنا هم قبائل ثلاثة (مطير، عتبة، عجمان)، ومدى الرعب التي كانت تلاقيه القبائل العراقية عندما تسمع كلمة أو شائعة أن الإخوان قادمون، والأثر الذي يَصنعهُ الإخوان عند غزو القبائل العراقية الشيعية في جنوب العراق، في محافظة (المنتفك) التي تسمى حاليًا بمحافظة (ذي قار). المؤلف رغم أنه تصدى للإخوان عبر استراتيجيات قتالية أو دفاعية أو حتى تأسيس ما يُعرف بـ(شرطة الصحراء) وهم شرطة يَمتطون الجمال، إلا أنه تلمس في ثنايا كلامه بعض الإنصاف لهم فقد يذكر أمورًا تُعد منقبةً لهم.

والفصل الأبرز والذي من أجله اشتريت الكتاب، هو الفصل الذي تكلم عن معركة (السبلة) وذكرت في الكتاب باسم (السبلا)، وهي عندما اعتد الإخوان بنفسهم بعد إسقاط الحجاز، تَمَرَّدوا على الملك عبد العزيز ولكن تمردًا غير مُعلن أو غير صريح، والحجة المستخدمة في هذا التمرد أن لا

طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فنظروا أن غزو القبائل العراقية الشيعية التي كانوا يصفونها بالمشركة هو من جنس الطاعات والواجبات وأن أمر الإمام بعدم الغزو هو من جنس المعصية التي لا يجوز السماع لهُ فيها، هكذا قنن الإخوان خروجهم عن الطاعة، والبيئة السلفية أو كما توصف بالوهابية آنذاك ترىٰ أن فعلهم صحيح، فكان الملك عاجزًا عن اتخاذ قرار يردعهم، فأي قرار قد يُتخذ سوف ينظر إليه علىٰ أنه حمىٰ المشركين أو منع غزوهم، فلذلك كان متفرجًا علىٰ هذا الانفلات الذي كان حاصلًا عند الحدود السعودية العراقية.

خطأ الإخوان التاريخي تمثل في أمرين، (وأنا هنا أُقيّم الواقع حسب ما قرأت في الكتاب وتسليمي جدلًا بأن ما ورد بهِ صحيح)، الأمر الأول وهو إعطائهم القيادة لسلطان بن بجاد العتيبي (ملاحظة: سوف يذكر في الكتاب تحت اسم سلطان بن حميد)، وهذا كما يبدو بخلاف فيصل الدويش، شخص متهور جدًا، الأمر الذي أنهىٰ الانقسام في الشارع السلفي أو الوهابي حول «إخوان من أطاع الله»، هو أن الإخوان بدأوا بمهاجمة رُعاة ابن سعود، وكان بعضهم تجارًا من القصيم، وقتل هؤلاء المسلمين علىٰ أيديهم كان نقطة التحول، التي جعلت الكثير يَنظر إليهم علىٰ أنهم يريدون الملك ليس إلا وما غزو الشيعة إلا كمثل قميص عثمان، تغير الرأي العام الوهابي كان في صالح ابن سعود الذي استغل هذا الخطأ للتحشيد ضد الإخوان، فبعدما كان الشارع مُترددًا في قتالهم لأنهم لا يفعلون شيئًا خطئًا اصطفوا جميعًا لمواجهتهم عندما بدأوا بقتال رعايا ابن سعود من المسلمين.

والأمر الذي (جعل الكاتب يخمن أنه سبب لهزيمة الإخوان في معركة السبلة أمام ابن سعود) هو أن اقتطاع بن حميد جزءًا من قبيلته العتوب وأرسلهم مع أحد القادة من قبيلة أخرىٰ لغزو بعض المناطق، وأبقىٰ بعض قطاعته في مكانها حتىٰ يحموا ظهرهم إن فكر حاكم الإحساء آنذاك الموالي

لابن سعود الالتفاف عليهم، ولكن حاكم الإحساء لم يلتف، فكان يقول المؤلف لو كان هؤلاء ضمن جيش الإخوان في معركة السبلة لتغيرت نتائجها بلا شك.

والكتاب وضع قواعد عامة وطبيعية في الحروب، وتتجسّد في المثل الشعبي الذي يقول: «إن طاح الجمل كثرت سكاكينه»، ولكن شرح هذه المقولة من شواهد الكتاب تحتاج إلى عشرات الصفحات.

الإخوان بمجرد ما كسروا، أصبحوا ملطشة، حتى السفلة تجرأوا عليهم، وحتى القبائل التي كانت تخاف من الإخوان أشد من خوفها من الله تجرأت عليهم، والأطراف الثلاثة نظرت إليهم على أنهم أصبحوا الطرف الأضعف فالكل يريد يأخذ حصته منهم، سواء كان ابن سعود أو القبائل العراقية الرخوة أو الحكومة العراقية، فزالت هيبة الإخوان من كل الأطراف التي تهابهم بعد أن هزموا هزيمتهم الأولى في السبلة.

لو كان الكتاب ينقل الحقيقة لسوف تخرج بفائدة: أحيانًا تكون الطرف الأقوى عسكريًا ولكن لجهلك بالواقع السياسي حولك تجعلك تتحول من الطرف الأقوى إلى الطرف الأضعف.

وسوف تستفيد أيضًا كيف تتقاطع الدبلوماسية مع الواقع العسكري أحيانًا والعرف القبلي أحيانًا أخرى وأثرها على مجريات الواقع، وهذا التقاطع هو من صور الواقع السياسي، الذي إن فقدت التصور الأمثل له سوف تعيش كحلقة أضعف ولو كنت مفتول العضلات!

والمؤلف كان على تماس مباشر مع الإخوان بعدما انهار الإخوان عسكريًا وذلك بعد تفتت الحلف القبلي الثلاثي (عجمان، مطير، عتبة) واستفراد ابن سعود بسحل خصومه واحدًا تلو الآخر. كان على تماس لأن بعض هذه الأطراف فتحت قنوات تواصل وكان وسيطًا بين الحكومة العراقية/ البريطانية والقبائل التي كانت تُنسب إلى الإخوان وأفخاذها، في قضية اللجوء إلى العراق أو إلى الكويت، ولا يفوتني هنا أن أذكر أن حتى الكويت كان لها نصيب وافر من الكتاب، فالإخوان شنوا غارات داخل حدود الكويت ووصلوا إلى أسوار العاصمة.

والكتاب ساهم ولو بشكل جزئي في أسباب تنقل واستقرار بعض القبائل في جغرافية معينة، مثلًا من المعروف أن شُمّر نجد وجدوا في حائل، ولكن الآن معروف أن هنالك قبائل شمر موجودة في جنوب العراق، الأحداث التي تلاها المؤلف تبين لك لماذا وكيف حصل هذا الانتقال ولماذا استقروا هناك وكذلك غيرها من بقية القبائل.

وأما مقدمة الكتاب وعلى ماذا احتوت؟ احتوت على تعريف للبيئة الصحراوية والمناخ القبلي الموجود في جزيرة العرب وعن شخصية البدوي والتجاذبات التي تحيط حول هذه الشخصية وعلى ماذا ترتكز وإلى ماذا تطمح وكيف يكون النصر في تصورها وفي مفهومها، وما هي علاقة الفرد بالقبيلة، وما هو دور أمير أو رئيس القبيلة.

ثم عرّج الكاتب على المذهب السلفي أو كما عرّفه بـ«الوهابية» ونشأته وتاريخ هذا المذهب بتعريف بسيط جدًا ثم استرسل في التاريخ العسكري لهذا المذهب منذ قيام الدولة السعودية الأولى حتى بداية قيام الدولة السعودية الثالثة، وخلال هذه الفترة بدأ يسردُ بشكل مختصر التسلسل الزمني للأحداث في الجزيرة من حيث تبدل الحكم وتغيّر أحوال الأسر الحاكمة وكيفية سقوط أحد هذه الأسر ثم ارتقاء الأخرى.

ثم بعد هذه التقدمة شرع الكاتب في سرد روايته الشخصية ولكن قبل أن يشرع في سرد روايته بدأ يتحدث عن واقعه السياسي الذي عايشه بظهور دول ذات سيادة تحدها حدود مرسومة ثم التحديات التي تواجهها هذه الدول من قبل أُناس لا يعتدّون بالحدود لسببين (لوجود قبائلهم في دول متعددة فهم يلجئون إليها أو العكس؛ أن البدوي يتنقل شمالًا أو جنوبًا استنادًا على مناخ الجزيرة فلا تستطيع أن تحده بحد).

وفي الختام أقول أن العوارض والشواهد التاريخية لا يجزم بها من قراءتك لمثل هذه الكُتب، وإنما يرتقي الحدث ليكون مقبولًا تاريخيًا في بيئة تعج بالتناقضات والاختلافات وهي عندما يتفق

الطرف، الطرفين الخصمين والطرف المحايد على خبر معيَّن، وكذلك عندما لا تكون هنالك أي مصلحة للشخص أن يروي هذا الخبر بالصيغة التي أوردها، وكذلك بالرواية التي عن سند واحد أو الرواية الشخصية، كل هذه الاعتبارات تجعل من الخبر إن لم يكن صحيحًا فهو في مرحلة الإسرائيليات التي لا تكذب ولا تصدق.

١ أكتوبر ٢٠١٧م – ١١ محرم ١٤٣٩هـ

التحفة النبهانية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: التحفة النبهانية: جزء البحرين.**
- **اسم المؤلف: محمد بن خليفة النبهاني.**
- **عدد الصفحات: ٢٦٣.**
- **دار النشر: الطبعة المحمودية.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (النبذة اللطيفة في الحكام من آل خليفة) وهو الأصل لـ(التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية) للشيخ محمد بن خليفة النبهاني، وقرأت الكتاب من خلال نسخة رقمية من طباعة (الطبعة المحمودية، القاهرة عام ١٩٢٣) وتقع في ٢٦٣ صفحة، وعلمت لاحقًا أن المؤسسة العربية للدراسات والنشر أعادت طبعهُ في ٤٨٨ صفحة.

والمؤلف مقرب لحاكم البحرين آنذاك، والشخص المقرب الذي يُغدق عليه الحاكم من العطايا، فلن يتناول السرد التاريخي إلا من جهة ذكر المناقب فقط، والمبالغة في الإطراء، ولكن مع ذلك الكتاب جيّد وهو يصلح كمدخل ونبذة عن تاريخ البحرين السياسي في تلك الحقبة (قبل ١٠٠-٢٠٠ عام)، والمؤلف النبهاني تنوعت طرق توثيقه، ما بين النقل من كتب الباحثين والمستكشفين الأجانب وكتب التراجم والسير والتاريخ والجرح والتعديل والوقوف شخصيًا على بعض المواقع والآثار وإعطاء تصور ذاتي عنها، فهو سرد لا يقف على آلية أو أسلوب واحد، وهذا التنوع قد يَدلُّ على سعة اطّلاع جيدة، والأمر الجيّد الآخر أن أغلب المناطق - إن لم يكن كلها - التي حصلت فيها الوقائع والأحداث المؤثرة ما زالت تحتفظ باسمها إلى اليوم، أي أن أسماء المناطق لم تتغير منذ قرون، وهذا أسهل للاستيعاب خصوصًا لمن كان من البحرين.

وهنالك ذكر لبعض القبائل العربية التي كان لها دور متقلب في سيرة دخول وسيطرة آل خليفة على البحرين، وأكثر قبيلة ذُكرت في الابتداء هي البنعلي (آل بنعلي) وأكثر قبيلة ذُكرت في الانتهاء النعيم (النعيمي)، وهنالك قبائل أخرى مثل (المعاودة والجلاهمة والكواري وآل فاضل وغيرهما) من القبائل والأسر التي لا يزال لها امتداد حتى اليوم إلى البحرين.

ولكن الأسر الكبيرة أو التي لها دور على المشهد الاقتصادي جميع أسباب هذه الصعود تكمن في أن هذه القبائل وقفت وقفة مع الأمير عيسى بن سلمان، ولعل هذه الوقفة لم تنساها الأسرة الحاكمة لهذه العوائل مما أعطتها مساحة جيدة للاستثمار والتوسع في التجارة وذلك بخفض الضرائب المفروضة عليهم، (وهذه المعلومة لم أقرأها من هذا الكتاب على فكرة وإنما من مجلة البحرين الثقافية في أحد أعدادها في مقال للتعليق على سلسلة (أعيان البحرين في القرن الرابع عشر الهجري للمؤرخ بشار الحادي)، ولكن الأحداث التاريخية قد تعطي لك تصورًا أوضح لماذا هذه القبائل أو بعض هذه القبائل أخذت هذا المشهد.

الكتاب كما ذكرت كتاب عبارة عن موجز أو نبذة، ولكن رغم ذلك إلا أن الكتاب أسقط الكثير من الحوادث أو لم يسلط عليها الضوء بشكل كبير جدًا، مثل بعض الظروف السياسة التي مرت بها البحرين مثل الاحتلال البرتغالي، وكذلك قلة كلامة عن الإنجليز (ربما لأن عندما أصدر المؤلف الكتاب كانت البحرين لا تزال تحت الانتداب البريطاني)، والكتاب على فكرة يستخدم مصطلح (الخليج الفارسي) وهذا المصطلح قد رأيته أكثر من مرة يُستخدم من قبل بعض المؤرخين القدامى بل وحتى في بعض كتب أهل العلم، ويبدو أن هذه هي التسمية الأصلية للخليج، ولكن والله أعلم أن حاليًا لو سميت هذا الخليج بالخليج العربي لما أبعدت كثيرًا، بسبب انتقال الكثير من العوائل العربية إلى الضفة الثانية من الخليج (سواحل إيران) واستيطانها مقابل الخليج، فالقبائل العربية موجوده في كلا الشطرين من الخليج.

من الأمور الملفتة للنظر في هذا الكتاب أن خليفة بن محمد آل خليفة وهو أحد حكام الزبارة كان من أهل العلم وكانت له منظومة رائية في الرد على الوهابية، قال فيها: (**ويا بدعة ما قد سمعنا بمثلها ... تكفر كل الناس حتى الموحدا**).

وعطفًا على هذا الموضوع فالفترة التي ألف فيها الكاتب كتابه لم تكن العلاقات ما بين الأسر الحاكمة في الخليج قد توطدت، فلذلك كان الكتاب صريحًا إلى حد ما في بيان الأحداث والاقتتال الذي جرى ما بين هذه الأسر الحاكمة في تلك الحقبة.

وأما التنوّع المذهبي عند أهل السنة في البحرين كان النصيب الأكبر للمالكية، ولكن هنالك عائلتين - حسب الكتاب - التزمت ببعض المذاهب، مثل آل محمود واتباعهم للمذهب الشافعي وقد ذكر المؤلف (محمد بن عبد الرزاق آل محمود الشافعي - الفقه النحوي الشيخ عبد اللطيف محمود آل محمود الشافعي) ثم أسرة (بن جامع) وقد عرفوا بالتمذهب بالمذهب الحنبلي وهو من ساداتنا الحنابلة.

ولعلي أشرع بعد هذا الكتاب بقراءة كتاب صاحبه له توجه معاكس أو ربما محايد آنذاك، وهو أحد مؤسسي المحاكم والأوقاف الجعفرية وهو محمد علي التاجر وكتابه (عقد اللال في تاريخ أوال) وهو قصير يقع في ١٦١ صفحة فقط، ولا ننسى أن مي آل خليفة لها مجهودات في محاولة عرض تاريخ البحرين السياسي وتناول بعض الشخصيات الحاكمة فيه مثل كتابي (محمد بن خليفة الأسطورة والتاريخ الموازي) وهو مجلد ضخم قرأت بعض فصوله وأفكر أشتريه وبقوة، وكتاب عبد الله بن أحمد محارب (لم يهدأ) وقد اشتريتهُ سَلفًا.

١٧ أكتوبر ٢٠١٧م - ٢٧ محرم ١٤٣٩هـ

نقض كتاب في الشعر الجاهلي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: نقض كتاب في الشعر الجاهلي.**
- **اسم المؤلف: محمد الخضير حسين.**
- **عدد الصفحات: ٤٩٦.**
- **دار النشر: دار الجداول.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة هذا المجلد الذي يَضمُّ كتابين معًا، كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين ثم كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) لشيخ الأزهر آنذاك محمد الخضير حسين، ويقع المجلد في قرابة الـ(٥٠٠) صفحة، من طبعة دار الجداول.

كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين، هو من الكتب التي أثارت لغطًا كبيرًا، وأثارت موجه انتقادات وردود ونقاشات دخل فيها كبار الأدباء والمشايخ والمختصين.

النقد الذي استخدمه طه حسين لم يكن نقدًا جزئيًا بمعنى أن يقول (هذا البيت لا تصح نسبته إلى امرئ القيس وهذا البيت مشكوك في صحته) بل سلك مسلك النقد الجذري، فقال أن «**النسبة الساحقة من الشعر الجاهلي منحول وما ثبتَ منه لا يدل على شيء يسمى بالأدب الجاهلي ولا يُعتد أن يكون مصدرًا للثقافة الجاهلية**».

فاستخدم طه حسين فلسفة ديكارت على الأدب الجاهلي، وهو أن الشك أول خطوة في سلم الحقيقة، فمن الأمور التي جعلها طه حسين مدخلًا للشك في الشعر الجاهلي هو خلو الشعر الجاهلي من العاطفة الدينية الوثنية، بينما استشهد بالقرآن على أنه من أقدم النصوص الثابتة التي وصلتنا في

أن العرب كانوا متعصبين جدًا لدينهم ووثنيتهم إلىٰ درجة أنهم لجئوا إلىٰ القتل والاضطهاد دفاعًا عن ما يؤمنون به، فكيف يكون هذا الشعر الجاهلي خاليًا من أي هذه المظاهر؟ الأمر الثاني هو ما ثبت في القرن العشرين أو التاسع عشر من خلال علماء الآثار في وجود نقوش في اليمن تُثبت أن القحطانيين لهم لغة أُخرىٰ مختلفة في صرفها ونحوها عن لغة العرب في شمال جزيرة العرب (العدنانيين)، والأمر الآخر أن ما يُعرف الآن باللغة العربية الفصحىٰ لم تكن هي الفصحىٰ لكل عرب، فكل إقليم وقاطع (خارج عن سلطة حجاز) له لهجته وفصاحته، وما يعرف الآن باللغة العربية الفصحىٰ إنما هذه الفصحىٰ الخاصة بقريش، ولما نزل القرآن وسيطر الإسلام أصبحت لغة قريش هي المهيمنة والسائدة علىٰ جميع اللهجات للقبائل العربية الأخرىٰ.

إذن: لو أردنا الكلام عن الشعر الجاهلي أي قبل أن تتوطد هذه اللهجة القرشية، فلا بُدَّ أن يكون هناك اختلاف ويكون أثر هذا الاختلاف في اللهجات ظاهرًا لكل شاعر جاهلي حسب قبيلته، ولكن الغريب أن الشعر الجاهلي كله كُتب أو نظم علىٰ لغة قريش، فإذن هو منحول أي أن ما يسمىٰ بالشعر الجاهلي قد كُتب في الفترة الإسلامية ونُسب إلىٰ هؤلاء الشعراء الجاهليين.

ثم أفرد في الفصل الثاني أسباب الانتحال في الشعر (سبب ديني أو قبائلي أو شعوبي أو للمهنة القصصية) واختتم الكتاب في الفصل الثالث بنقد لبعض المعلقات وأصحابها، وكيف أن هذه اللغة قد بلغت مبلغًا لا يمكن أن يتصور أنها تمثل لغة الجاهليين.

هذا الكتاب أحدث حربًا أدبية كبرىٰ دخل في أتونها (ركز علىٰ الأسماء) شيخ الأزهر آنذاك عندما كان الأزهر مؤسسة مستقلة وهو الشيخ محمد الخضر حسين، ودخل فيها من كان يسمىٰ بمعجزة الأدب العربي وهو مصطفىٰ الرافعي في كتابه (تحت راية القرآن)، ودخل فيها أحد أعمدة التعليم في الأردن ومؤسس الجامعة الأردنية وهو ناصر الدين الأسد في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي)، ودخل فيها عالم الاجتماع العراقي علي الوردي في كتابه (نقد كتاب في الشعر الجاهلي)، ودخل فيها الأديب

العملاق أبو فهر محمود محمد شاكر ولكن بشكل غير مباشر في كتيبه (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام)، ودخل فيها المفتش بوزارة المعارف المصرية الشيخ محمد الخضري بك، ودخل معه على نفس الخط رئيس النيابة المصرية محمد نور لأن تعليقهما طبع في كتاب واحد بعنوان (محاضرات في نقد كتاب الشعر الجاهلي)، وآخرهم هو الدكتور أحمد عثمان المختص في تاريخ الأدب بكتاب (كتاب الشعر الجاهلي واللغة العربية). ربما هذا اختصار مخل -حقيقةً- للكتاب، وضعيف البضاعة قد يظن لوهلة أن طرح طه حسين - نوعًا ما - متناغم أو معقول، فطه حسين يُحسن ابتلاع القارئ الجاهل إلى جوفه، ولكن أثر هذا الكتاب جيد أو انعكاساته ممتازة، وذلك لرؤية من هم الذين ردوا على طه حسين، أغلبهم أسماء لامعة، بل وأثروا الساحة الأدبية والشرعية والتاريخية إثراءً كبيرًا جدًا، فرب ضارة نافعة.

والشخص الذي يقرأ كتاب طه حسين وهو ليست عنده خلفية عن الموضوع الذي يتكلم عنه، سوف ينطبع في ذهنه أن ما خطّه من مادة متين المحتوى وصلب الحجة، ولكن ما إن يقرأ هذا النص للشيخ محمد الخضر حسين، إلا وسوف يرى الجانب المضاد من هذا التصور، ورد الشيخ محمد الخضر حسين كأنه من جنس ردود المتقدمين، أي أنه صاغ رده بتعقب كتاب طه حسين على شكل فقرات حتى أتى على الكتاب كله، وهو من الكتب التي تحتاج في نظري الشخصي إلى تهذيب أو اختصار باقتصار المهذب والمختصر على وضع الشاهد من الرد مباشرة من دون وضع المقدمات التي حشدها الشيخ لنقض كلام طه حسين.

فالنظرية التي تكلم عنها طه حسين بزهو وهي أنه أتى بتصور وآلية لم يأتي بها أحد قبله مما قسم الباحثين إلى قسمين، «أنصار القديم» و«أنصار الجديد»، وصياغة بحثه على فلسفة ديكارت وهي أن الشك في حقائق الأشياء هو الخطوة الأولى للوصول إلى اليقين، وأراد أن يُحاكي الباحثين الغربيين في نفس النتيجة التي توصلوا إليها مع الشعر اليوناني الإلياذة والأوديسة لهوميروس.

فقال أن الشعر الجاهلي كله منحول (أي مكذوب على أصحابه) ولا يوجد هنالك شيء اسمه شعر جاهلي ولا شعراء جاهليين، ثم ذكر الأسباب والدوافع التي حملته على أن يقول هذه المقولة، ولكن مع تقادم البحث سوف يرى الشخص والباحث أن طه حسين لم يلتزم منهجه وسوف ينقضه من كذا وجه، وهذا التناقض والاضطراب في المنهجية شدد الشيخ محمد الخضر حسين بتسليط الضوء عليها؛ وأوغل في قسوة العبارة والتهكم اللاذع.

وسعة إطلاع الشيخ محمد الخضر حسين فضحت طه حسين بأن ما ذكره أو كثير مما ذكره وإنما هو بذاته دوِّن في أبحاث من سبقوه ممن تناولوا الشعر الجاهلي من المستشرقين كمرغليوث وغيرهم، لذلك وفي الفصول الختامية للكتاب سوف ترى كثرة وضع الفكرة ثم ذكر أصلها من بعض الكتب، مما فوّت على المؤلف فرصة ادّعاء أنه أول من أتى بهذا التصور ولم يسبقهُ أحدٌ من العالمين!

وفي مقابل ذلك كان إطلاع طه حسين ضعيف، لذلك لسوقه رواية واحدة من كتاب واحد، ويوجد ما يقيدها ويضبطها من حيث المتن والسند والتوجيه من كتب أخرى، حيث أنه اقتطع المعلومة من سياقها للتدليل على ما قد ذهب إليه، وبيان تقييد وضبط الرواية غالبًا ما يرجع على تصور طه حسين بالإبطال. ويهزُّ من أركان نظريته، لذلك كان حري بطه حسين أن يستفرغ جهده وأن يتواضع في بيان ما توصل إليه ويخاطب الآخرين بصيغة فيها خطوط رجعة بدلًا من استخدام صيغة الجزم في أكثر من موضع.

وإشكالية طه حسين الأخرى أنه أحيانًا يَزيدُ عن الروايات بما لم يَرِد على لسانها، على سبيل المثال رواية ذكر أن المعتزلة قد استدلوا ببيت شعر لتأكيد مذهبهم، وزعم أن المعتزلة نسبوا هذا الشعر إلى الجاهليين، جميع الكتب التي تكلمت عن هذا البيت لم تذكر الجاهليين قط أو ادّعاء المعتزلة نسبة هذا الشعر إلى شعر جاهلي، وهذا مما يضرب في المصداقية.

وهذا الكتاب الراد على طه حسين ارتكز كثيرًا على نقطتين أولها نقض بنيان المؤلف في نظريته وبيان أنه ناقضها ولم يلتزم بها من وجوه، وثانيًا يُستفاد منه في دراسة تاريخ الأدب العربي وكيفية عزو الشعر واعتماده، ومن كان له حظ أو رغبة أو تخصص في هذا الجانب» سوف يستمع بهذه الكتب.

١٧ أكتوبر ٢٠١٧م - ٢٧ محرم ١٤٣٩هـ

رواية: الحاج المراد

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: الحاج المراد.**
- **اسم المؤلف: ليو تولستوي.**
- **اسم المترجم: هڤال يوسف.**
- **عدد الصفحات: ٢٠٦.**
- **دار النشر: دار التنوير للطباعة والنشر.**

التعليق والمناقشة:

رواية (الحاج مراد) لتولستوي من أواخر ما كتب، فقد كتب هذه الرواية وهو على فراش الموت، تولستوي كان كأي روسي يُجنّد إجباريًا في الجيش الإمبراطوري الروسي لغزو المناطق وإخضاعها للإمبراطورية الروسية، وقد أُرسل إلى القوقاز المسلم لخوض المعارك هنا، ولكن تولستوي قد وصل إلى قناعة تُناهض العنف نهائيًا مما جعله يستقيل من الجيش، ثم كتب هذه الرواية وحسب ما يقول مترجم الرواية هڤال يوسف أن الرواية كانت «**موقفًا أراد اتخاذه في مواجهة الظلم ومناقشة معنى العدالة، من جهة أخرى تحمل الرواية رأي تولستوي المنتقد لطريقة تعامل روسيا القصيرية مع شعب داغستان**».

وقصة (الحاج مراد) هي قصة حقيقية في أصلها ولكن ليس في كل تفاصيلها، كان تولستوي شاهد عيان وعاصرها فهو كما أسلفنا دخل الحرب وخاضها، فمصادر هذه الرواية ثلاثة: المعاينة، والوقوف على المذكرات والرسائل التي نشرت في الصحف والمجلات وفي الكتب، والثالثة: هي الاستقصاء من أشخاص كانوا على مقربة من هذه الحادثة بشكل مباشر أو غير مباشر.

أما الأولى: فيقول تولستوي في مقدمة روايته: «**وخطرت لي قصة قوقازية قديمة كنتُ شاهدًا على جزء منها وسمعتُ جزًا من شهود عيان، وتصوّرت ما تبقى**».

وأما الثانية: فما جاء في هامش صفحة ٢٨ في استناد تولستوي على مذكرات قائد كتيبة كورين الجنرال بولتوراستكي، وهامش صفحة ٧٨ في استناد تولستوي على مراسلات الجنرال كولغيانو قائد القوات الروسية في شمال داغستان التي جرت بينه وبين الحاج مراد التي نشرت في أحد الصحف الروسية آنذاك، وهامش صفحة ٨٢ في استناد تولستوي على مذكرات ميخائيل ميليكوف وزير الداخلية الروسي.

وأما الثالثة: ذكر أن تولستوي كان على معرفه شخصية بالأمير والجنرال ألكسندر بارياتينسكي الذي أجبر الإمام شامل على الاستسلام (هامش صفحة ١٦٧)، وذكر أن تولستوي أثناء عمله على الرواية توّجه إلى أرملة يوسف كارغانوف القائد العسكري لمدينة نوخا سائلًا إياها أن تخبره بكل ما تتذكر عن تفاصيل الأحداث وكان تولستوي مهتم بالتفاصيل (كما في هامش صفحة ٢٠١).

ولقد أضافت هوامش وتعليقات وتفسيرات المحرر الروسي والعربي لنص الرواية (طبعة دار التنوير) الشيء الكثير، سواء في بيان بعض العادات ومعان المصطلحات ومدلولاتها وحتى المعلومات الشخصية المتعلقة بالشخصيات سواء كان المؤلف أو الذي وردت أسمائهم في الرواية، ولعل أبرز هذه المعلومات هي بيان سبب خروج شائعة أن تولستوي قد أسلم، وهذه شائعة رائجة، حتى أن الصحفية الاستقصائية آسني سيرستاد نقلت في كتابها (ملاك غروزني) هذه المعلومة عن أشخاص قد جزموا بذلك.

ولكن جاء الشرح في هامش صفحة ١٧٤ إذ قال المحرر: «**يستخدم تولستوي كلمة المحمدية بدلًا من المسلمة وحتى في كتابته الفكرية وتأملاته الفلسفية يستخدم العقيدة المحمدية بدلًا من الإسلام أو الديانة الإسلامية، وذلك انطلاقًا من قناعته التي شرحها باستفاضة في كتابه (جوهر عقيدتي)**

ومفادها أن الأديان كلها ليست سوى تفريعات وتفسيرات لعقيدة إيمانية واحدة ووحيدة، وكان يؤمن بنوة النبي محمد، الأمر الذي دفع بعضهم إلى الزعم بأنه اعتنق الإسلام قبل وفاته، وهذا لم يحدث حسب علمي؛ لأنه لم يكن يرى فارقًا بين المسيحية والإسلام».

وأعقبت قصة (الحاج مراد) روايات أخرى كثيرة نشرت بعد وفاة المؤلف تولستوي ولم ينشرها في حياته وبقيت لديه كمسودة، وقد ترجمها صياح الجهيم مؤخرًا في مجلد يقع من ٨٣٨ صفحة تحت عنوان (الأعمال الأدبية لتولستوي المنشورة بعد موته) وقد ذكر في مقدمة هذا المجموع أن من جملة الأسباب التي كانت تدفع تولستوي إلى عدم نشر هذه القصص والمسرحيات والروايات أنه «**لم يكن يريد أن يزيد من خصوماته مع الرقابة**» ولا شك لدي أن رواية الحاج مراد داخلة في هذا العِلّة.

نبذة عن القصة:

قصة الحاج مراد باختصار مُخل ودون الدخول في كثير تفاصيل: هو أن إقليم القوقاز خاض حركة مقاومة شرسة ضد محاولة الإمبراطورية الروسية بسط نفوذها على الإقليم (والذي للأسف لازال إلى اليوم خاضعًا لروسيا) فقاد حركة النضال هذه قادة من جملتهم أو أبرزهم وأشهرهم كان الإمام شامل، وكان هو رأس المقاومة، وكان الشخص الثاني هو الحاج مراد.

ولكن فجأة قام الحاج مراد بفتح قناة اتصال مع الروس للانضمام لهم، .. فما لذي جعل الحاج مراد بعد أن كان نائب شامل يحاول أن ينضم إلى أعدى أعدائه؟!

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن من المصادر التاريخية العربية القليلة - حسب علمي المتواضع - التي تكلمت عن تلك الحقبة وتلك الحروب هو المجلد الواحد والعشرون لموسوعة المؤرخ محمود شاكر عن التاريخ الإسلامي وكان المجلد الواحد والعشرين تحت اسم (المسلمون في الإمبراطورية الروسية).

وأما التعليق بالتفصيل على الرواية:

- يجب علىٰ القائد أن يُعَبِّدَ أتباعه للحق بدلًا من أن يُعَبِّدَهم لذاته؛ فالحق ثابت والأشخاص يتبدلون ويتقلبون، فالحق أَوْلىٰ أن يُتبّع، والحاج مراد رغم أنه ولج باب الخيانة، إلا أنه لا تزال ترىٰ له أتباعًا يحامون عنه ويدافعون عنه رغم عظيم فعله! وابن تيمية عندما أراد أن يُعبِّدَ الناس للحق لا لنفسه، فقدَّم الحق علىٰ نفسه، فقال لجيش المسلمين قبل القتال مع التتار: «**إذا رأيتموني وأنا في ذلك الجانب** - أي مع التتار - **وعلى رأسي المصحف فاقتلوني**»[٦٩]. فمن عَبّد أتباعه للحق فسوف يزيحونه إن حاد عنه، ومن عَبَّدَ أتباعه لذاته فسوف يحيدون عندما يحيد.

- الخائن عندما يخون أصحابه وقضيته وينتقل إلىٰ صف الأعداء، يستفيد الأعداء من فعلته وفي نفس الوقت يتقززون من فعلته في قرارة أنفسهم، فلذلك لا يثقون به، فعندما أرسل الحاج مراد جواسيسه وعندما سلم نفسه لطالما نُظر إليه بنظرة ملؤها الشك والتوجس وحاولوا أن تكون الاستفادة من جانب واحد، فلذلك لم يرضَ الروس أن يلبوا طلبه في مبادلة أهله الأسرىٰ لدىٰ شامل مقابل الجنود الأسرىٰ لدىٰ الروس، وكانوا يريدونه فقط للاستفادة منه لوأد القضية القوقازية. فحقًا كما قال أحد الأصحاب: «الطغاة أحسن أحوالهم هي خذ وهات وإلا الأصل فيهم هات وهات». أي عطاء من غير مقابل.

- لو سلمنا جدلًا بصحة ما جاء في الرواية، فسبب انضمام الحاج مراد إلىٰ الأعداء هو لرغبته في تحصيل ثأر قديم، تسبب بهِ الإمام شامل بقتل الخانات وإبادتهم حتىٰ الصغار منهم وأمهم لأنهم خافوا من تبعات إعلان الجهاد علىٰ الإمبراطورية الروسية، - ولو صح هذا - فأفضل وسيلة لرمي المؤيدين أو المحايدين إلىٰ صف الأعداء هو بمجاهرتهم العداء ومضايقتهم والتضييق عليهم حتىٰ يُدفعون دفعًا نحو الأعداء، يقول عبد الله العدم: «**إن مجاهرة الناس بالعداء سواء كانوا أفرادًا أو**

---

[٦٩] البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٢٦).

جماعات تعد من الأخطاء القاتلة في العمل الجهادي خاصة في مرحلة دفع الصائل، فإن فعل ذلك يؤدي بهم للارتماء في أحضان العدو دون كثير عناء، فالحذر الحذر من مغبة معاداة عوام المسلمين وخاصة إذا كان هناك متسع لعدم قيام مثل هذا العداء»[٧٠].

وكذلك إثقال كاهل الناس بدفع الضرائب لدفع الجهاد، رغم مشروعية ذلك، ولكن لا يجب أن يُنظر إلى هذا بفقه المآلات، فليس كل شيء مباح جاز لك أن تفعله دون النظر بما سوف يترتب عليه، يقول عبد الله العدم: **«ومن ذلك أيضًا إلزام الناس بدفع بعض من أموالهم للمجاهدين من أجل الجهاد، وإن كان ذلك جائزًا عند بعض أهل العلم بشروط معروفة في كتب الفقه، إلا أن الواجب دائمًا النظر في مآلات الأمور وللمفسدة والمصلحة المترتبة على ذلك، فإن هذا الفعل يؤدي في الغالب إلى تكالب الناس على الحركة الجهادية وخاصة في حال الاستضعاف»**[٧١].

- عندما وضع الطعام أمام الحاج مراد والجنرال الروسي فورنستوف وزوجته، أكل الحاج مراد من طبق زوجة الجنرال حصرًا، وهذا إجراءٌ أمنيٌ سليم، وخصوصًا أن الروس قد يكونون من أكثر الأقوام الذين استخدموا السم في عمليات الاغتيال، وذكر رئيس أوكرانيا الأسبق ڤيكتور يوشتشينكو، أنه عندما أراد أن يخلق سياسة مكافحة اللغة (يعني يجعل التعليم في أوكرانيا بلغة واحدة ويلغي لغة الأقليات) دعي إلى لقاء رئيس خدمة الأمن الأوكراني الموالي للروس، وبعد أن انتهى اللقاء طلبوا منه البقاء وأحضروا طعامًا كان هو الطعام الوحيد الذي كان يقدم على شكل حصص فردية، وبعد أن تذوقه عانى من صداع شديد وحصلت له مضاعفات كثيرة جدًا كاد أن يموت بسببها، والذين أحضروا هذه الأطباق خرجوا في اليوم التالي من أوكرانيا إلى موسكو. [٧٢]

---

[٧٠] الصحوات والسبيل لمنعها – صـ٦.

[٧١] الصحوات والسبيل لمنعها – صـ٤.

[٧٢] السلسلة الوثائقية لقناة ناشيونال جيوغرافيك أبو ظبي (المواجهة، حلقة: بوتين).

- ومما يجب الانتباه والالتفات إليه أيضًا، هو محاولة معرفة عادات وتقاليد الآخر، سواء كان الصديق أو حتىٰ العدو، حتىٰ لا تُفسد من حيث أردت أن تُصلح، وربما كان قد فوّت الروس علىٰ أنفسهم فرصة ثمينة في استمالة الحاج مراد بسبب بعض الأخطاء التي تَنمُّ عن عدم معرفة عادات وتقاليد العدو، ومنها المصافحة مع لبس القفاز فهذا يدل علىٰ الاستهانة والعجرفة والاستخفاف بالطرف الآخر ومن أجل ذلك تردد الحاج مراد لمصافحة الجنرال الروسي الرفيع، ومنها مخاطبة الأكبر سنًا بصيغة الجمع وهذا هو المتعارف بينما مخاطبة الحاج مراد بصيغة الفرد وكأنهم يحقرونه - هم فعلوا ذلك ولم يقصدوا بالطبع إهانته - ولكن أحيانًا قد يفهمها الطرف الآخر علىٰ هذا النحو، فبدلًا من أن تريد استمالته قد ينقلب عليك بسبب هذه المواقف السخيفة، فمن أجل ذلك معرفة عادات وتقاليد أي شخص أو قوم تدخل موطنهم من الضروريات، فمثلًا عُدَّ محمد حسن قائدًا باحترام عادات وتقاليد شعب أفغانستان ما ليس فيه مخالفة صريحة للدين الإسلامي، وحتىٰ ولو كانت غير مفهومة أو لها مسوغاتها مثل قضية عدم النوم ورجلك باتجاه القبلة. [٧٣]

- من الأمور أيضًا يجب أن لا تحرق كل أوراقك مع خصمك، لا بُدَّ من تحجيم تحرك خصمك ضدك وإمساكه من الذراع التي تؤلمه بإبقاء بعض الأوراق لديك، مثلًا الذي جعل دور الحاج مراد مُحجمًا ولا يستطيع التحرك فعليًا ضد الإمام شامل هو بقاء عائلته في منطقة خاضعة لسلطة الإمام شامل وهي فيدينو وهي ذات المنطقة التي شهدت اشتباكات حامية قبل عقدين من الزمان ضمن الحرب الروسية الشيشانية من أجل استقلال الشيشان عن روسيا، ولما علم الإمام شامل رغبة الحاج مراد إخراج أهله علم أن هذا هو ما يؤلمه ويمسك ذراعة فشدد عليهم واعتقلهم وأبقاهم ضمن الإقامة الجبرية، وما بين تباطئ الروس وعدم مساعدته مساعدة حقيقة من أجل خلاص أهله، وتشديد الإمام شامل عليهم بحيث يتعذر هروبهم أو تهريبهم، استطاع الإمام شامل بذلك أن يمنع الحاج مراد أن يكون حرًا في قتال الإمام الشامل وأن يكون محمي الظهر ولا يوجد شيء يخافه،

[٧٣] وصايا للمجاهدين الدّاخلين إلىٰ أفغانستان - صـ٢.

واستطاع كذلك عندما رأىٰ أن الروس متباطئين في محاولة خلاص أسرته إلىٰ انقلاب الحاج مراد علىٰ الروس وقتل حمايته الروسية من أجل الهروب منهم! فضرب الإمام شامل عصفورين بحجر بسبب هذه الورقة: قَلَّصَ دور خصمه وقلبه علىٰ أسياده.

- الإمبراطور الروسي نيكولاي وصل إلىٰ مرحلة من الاعتداد والزهو بالنفس لدرجة أنه لا يستطيع أحد أن يقول له: «قرارك كان خاطئًا» أو «أنت مخطئ»، لم يجرؤ أحد أن يفعلها، وغالبًا ما يكون هؤلاء الأشخاص هم السبب الرئيس في دمار دولهم وأعني بذلك الذي يريدون إنفاذ قرارتهم دون تعقيب ولا استدراك، فيجب علىٰ المسؤول أن تكون له أعين أخرىٰ لرؤية الوضع من الأسفل غير الجهة المعتمدة التي غالبًا لا تذكر الحقيقة وإنما من أجل التملق سوف يقولون أن كل شيء علىٰ ما يرام والوضع علىٰ أفضل ما يرام، وكذلك من أجل أن يصل صاحب القرار إلىٰ مستوىٰ أفضل في اتخاذ القرار يجب أن يوظف حوله أشخاص من الطبيعي أن يختلفوا معه في وجهات النظر ويقولون أرائهم بكل وضوح دون الخوف من المسائلة عندما يخالفونه وحتىٰ ستالين الطاغية في الحرب العالمية الثانية عندما تقدم الألمان في المناطق السوڤيتية، فستالين الكل كان يخاف مجرد أن يخالفه! ولكن عندما أصبحوا في هذه المرحلة الحساسة، تفهم ستالين نفسه الموقف فكان وزير الدفاع السوڤيتي يخالف ستالين بصراحة ويرفع صوته في الغرف المغلقة لاتخاذ القرار، وهذا هو الطريق الأمثل لخروج قرار صحيح.

- كان أحد الجنرالات الروس قلقًا من التزام الحاج مراد الديني، ومن ذلك تفهم أن هؤلاء الأعداء عندما يفضلون أن يكون العميل ضد أمته مُنسلخًا من أي فضيلة متماهيًا معهم في السفول والانحطاط والتخلي عن كل ما يمت بقومه من صلة.

رواية الحاج مراد رواية قصيرة ولكنها عظيمة الفائدة، وللأسف أن هذه النقاط كتبتها بعد أسبوع من الانتهاء منها، فربما فاتتني الكثير من النقاط أو نسيتها وهي من الروايات التي أنصح بقراءتها عمومًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٧ أكتوبر ٢٠١٧م – ٢٧ محرم ١٤٣٩هـ

رواية: الفقراء

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: الفقراء.**
- **اسم المؤلف: فيودور دوستويفسكي.**
- **اسم المترجم: سامي الدروبي.**
- **عدد الصفحات: ٢١٦.**
- **دار النشر: دار التنوير للطباعة والنشر.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة رواية (الفقراء) لدوستويفسكي وتقع في ٢١٦ صفحة، وهي الرواية الأولى لدوستويفسكي، ولو ترجمت بالعربية تحت عنوانه الأصلي وهو (المساكين) لكان أقرب إلى مضمون الرواية؛ فالرواية تتكلم عن فتاة يتيمة نشأت في ظروف صعبة أصبح يرعاها أحد أقاربها من بعيد، ولكن الرواية كلها قائمة على التراسل ما بين هاتين الشخصيتين، الفتاة والشخص الذي يرعاها، يتكلمان من خلالها عن عدة مواضيع، ومن خلالها تعرف ماهي ظروف كل شخص منهما.

وتستفيد من هذه الرواية عدة مواضيع، منها أن الأب والأم كالعمود لأي بيت؛ إن وافتهم المنية فسوف يُكسر هذا العمود وإن قام فلن يكون كما في السابق، فالوالدان يوفران الحماية لأبنائهم وعندما تنتفي الحماية لهم سوف يقوم الآخرين باستغلالهم أو الاعتداء عليهم آمنين مطمئنين.

وتستفيد أيضًا من هذه الرواية، أن الإفراط في الكماليات وتقديمها على الضروريات هو أشبه بالموت البطيء، (يعني مثلًا أنت مصاب بمرض خطير، فبدل أن تقترض أموال للعلاج تقوم باقتراض أموال وشراء دراجة نارية!) هل هذا من العقل أو الحكمة؟ موضوع المال وتدبيره والصرف على

النفس والاقتصاد فيه وضبط الميزانية من الأمور الحساسة التي يجب أن لا يتهاون فيها الشخص أبدًا، وأن الاختلال في ضبط هذا الموضوع سوف يرجع سلبًا على الشخص نفسه وتتفاوت درجات الأثر الرجعي هذا باختلاف نوعية الصرف.

دوستويفسكي أبدع هنا في خاتمة الرواية، قرأت هذه الرواية بنفس مشدودة وفرغت من نصفها في جلسةٍ واحدة، ولكن وسط الرواية أصابني شيء من التَململ، وعاودني الشغف في نهايتها، وبعيدًا عن الرواية أقول: عندما تَتشارك مع أحدهم في مسكن لمدة طويلة، ثم فجأة يرحل عنك رحيلًا لا رجعة فيه، ثم ترى أغراضه كما هي في نفس المسكن، سوف تبقى هذه الذكرى تعذبك كلما بقت هذه الأغراض في أماكنها، هذا التشابه قد ترك أثر كبيرًا عند قراءتي لهذه الرواية.

٢٠ أكتوبر ٢٠١٧م – ٣٠ محرم ١٤٣٩هـ

أفراح الروح

المعلومات العامة:

- **اسم كتيب: أفراح الروح.**
- **اسم المؤلف: سيد قطب.**
- **عدد الصفحات: ١٨.**
- **دار النشر: منبر التوحيد والجهاد.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتيب (أفراح الروح) لسيد قطب، وهو عبارة عن مقتطفات لـ١٧ رسالة لسيد قطب أرسلها إلى بعض معارفه عندما كان في أمريكا، والجزء المتقطف من هذه الرسالة هو ما كان صالحًا للنشر، وهو من جمع الأستاذ عصام فارس وتقديم د.صلاح الخالدي (وهنا لا يفوتني أن أذكر أن صلاح الخالدي هو التلميذ الأول لسيد قطب بالتتلمذ على كتبه مباشرة، وهو نفسه صاحب أكبر وأهم ترجمة لسيد قطب التي عنونها بـ(من الميلاد إلى الاستشهاد) بخلاف التلاميذ الذين تعلموا على يد سيد قطب شخصيًا وقد ذكرهم سيد قطب في محضر التحقيق الذي طبع لاحقًا تحت عنوان (لماذا أعدموني).

تكلم سيد قطب في رسائله الشخصية عن عدة مواضيع، من بينها أن بذرة الحب إن تجذرت في قلب الإنسان فلن يحتاج إلى التملق، لأن الحب يَستلزم وجود الصدق في التعامل مع المحبوب وهذا الصدق سوف يغنيك عن الكذب والذي هو رديف التملق، وأنك لن تحتاج إلى مؤنة الصبر على أخطائهم ولن تتضايق بل نظرة العطف النابعة من الحب سوف تطردها! وأن هذا الحب غالبًا ما يكون طردي في الاهتمام غالبًا ما يقابله اهتمام مقابل.

وتكلم عن العزلة التي منشؤها اعتقاد أنك أطهر وأذكى من بقية الناس وأن هذا الفعل هو نتيجة صفرية لا يَنتجُ عنها شيء (ولا يفوتني هنا أن أنبّه إلى قراءة فصل العزلة والاختلاط من كتاب (مختصر منهاج القاصدين) لابن قدامة المقدسي).

وتكلم عن الأفكار ومحاولة احتكارها بأسمائنا، وأن هذا صنيع الباعة وأصحاب التجارة الذين يحرصون على «العلاقات التجارية» لبضائعهم كي لا يستغلها الآخرون، وأن هذا دلالة على عدم حب المفكر لهذه الأفكار حبًا حقيقًا، وإنما الرغبة يجب أن تكون في أن نرى أفكارنا تنتشر بين الناس ولو نسبوها إلى أنفسهم! وأن هذه الأفكار والعقائد ليست أمرًا حصريًا للمفكر وإنما كان دور المفكر هو الوساطة ما بين مصدرها الأصلي وبين المتلقي.

وذهب سيد قطب إلى التوسط ما بين الموجود والمجهول، وهذا أمر نلمس أثره ما بين إفراط وتفريط، فالبعض الذي يوغل بتفسير الماديات غير المفسرة بأنها كرامات وخوارق سوف يتدرج وتسيطر على رأسه الخرافة، وأما الإيغال في النفي وأنه لا توجد هنالك خوارق أو كرامات وقوى ما وراء الطبيعة يعني أننا نلغي باب المجهول وينكر كل قوة غير منظورة لكونها أكبر من إدراكنا البشري.

وتكلم سيد قطب على أن الغاية لا تبرر الوسيلة، وأن لو بررناها فسوف تبقى الوسيلة القذرة ملازمة لنا حتى ولو وصلنا إلى غايتنا، وأن الوسيلة يجب أن تكون جزءًا من تكوين الروح، فالروح النبيلة لن ترضى إلا بوسيلة نبيلة؛ فالوسيلة مرآة الروح.

٢٠ أكتوبر ٢٠١٧م – ٣٠ محرم ١٤٣٩هـ

رواية: كلمة الله

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: كلمة الله.**
- **اسم المؤلف: أيمن العتوم.**
- **عدد الصفحات: ٢٦٤.**
- **دار النشر: العربيّة للدّراسات والنّشر.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة رواية (كلمة الله) لأيمن العتوم وتقع في ٢٦٤ صفحة، وهي رواية تَحكي قصة بتول الفتاة المسيحية التي نشأت في أسرة مسيحية ملتزمة ودخلت الجامعة وألتقت هناك بأنصاف مُتعددة كمراد الملحد وصالح المسلم المثقف وغيرهم، لتبدأ قضية وجدلية الصراع ما بين الهويات المختلفة.

أولًا لا بُدَّ أن نقول أن أيمن العتوم يَملك قلمًا سيّالًا وهذا السبب الذي جعل الشباب يُقبلون على كتاباته ورواياته، وأعني أنه جيّد في صياغة التعبير البلاغي والهيمان فيه، لذلك هنالك العديد من الاقتباسات التي تَصلحُ للتصوير في هذه الرواية.

ثانيًا من المآخذ الشديدة على أيمن العتوم في هذه الرواية، وضع نموذجين لمناقشة الملحد:

الأول: هم أصحاب الالتزام التقليدي المتشددين الذين لا يستطيعون مبارزة الملحد في حججه ولا منطقه فيلجؤون إلى التهديدات ومحاولة التصفية.

والثاني: هو المسلم المثقف الواعي المنفتح على الكل والذي يَرفض التكفير حتى إكفار الملحدين أنفسهم، يترحم عليهم ويصادقهم ويصلي عليهم إن ماتوا!!

وقام المؤلف بالتسويق للنموذج الثاني على أنه هو النموذج الأمثل، وهذا الأمر جرَّ إلى مغالطات شرعية واضحة؛ عندما تَرفضُ تكفير أحدهم فأنت بين أمرين، إما التوقف فيه، وإما أسلمته – أي أنك تنسبه إلى الإسلام وأنه مسلم –، وعندما تقول للمحلد الذي يعلن كفره بدينك وطعنه فيه ويقول أنا لست منكم ولستم مني ثم تصير «أُوقَر» حبتين وترفض تكفيره وتُصر على أنه مسلم رغم كل هذا، فهذا تهريج.

فأيمن العتوم رفض حُجج المتشددين وأصدر عليهم أحكامًا معلبة – رغم رفضه لهذا الأمر في الرواية – دون أن يناقش حججهم ويبطلها، وهذا لا يسعفه، فكل المذاهب والفرق الإسلامية والمدارس الفقهية متفقون قديمًا وحديثًا أن من طعن في الدين صراحة وفي الرسول علانيةً وفي الله جهرًا أنه كافر وليس مسلمًا، فكيف استطاع أيمن العتوم أن يخرج لنا بتصور جديد خالف فيه جميع العلماء بأن المسلم المثالي هو الذي يرفض التكفير ويكتفي فقط بالمناقشة ويقيم جسور صداقة وعلاقة مع الملحد... ورحم الله الشاه محمد أنور الكشميري صاحب كتاب (إكفار الملحدين في ضروريات الدين). ورحم الله القاضي عياض الذي قال: «**إن إدخال كافر في الملة أو إخراج مسلم عظيم في الدين**»[٧٤] فإكفار المسلم قد يوازي أسلمة الكافر في مستوى ودرجة الخطورة.

والثالث من الأمور التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، أن الأجوبة الخاطئة للطفل عندما يَطرح أسئلة عفوية في ما يتعلق بالإله أو الدين قد تزرع بذرة الشك عند الطفل لما يكبر، فيبقى هذا الجواب ملازمًا لهُ وراسخًا في ذاكرتهِ، وعلى سبيل المثال أجوبة وائل على أسئلة ابنته بتول. وأذكر أني لما كنتُ صَغيرًا قد سألت أمي لماذا الله في السماء وليس في الأرض، فقالت ببديهية، لأنه إذا كان تحت الأرض فهذا يعني أنه تحت أقدامنا وهذا لا يليق بالله عز وجل أن يكون كذلك، وما زالت أذكر هذا الجواب

[٧٤] نقلاً عن فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٢/ ٣٠٠).

رغم أني لما سألته كان عمري ٨ سنوات. وإذا كان الأب أو الأم ليسوا أصحاب بديهة، فيقولون للطفل «سوف نجيب لاحقًا» أو «إننا مشغولون الآن»، ويفكرون مَليًا حتىٰ يَجدوا الجواب المناسب.

الرابع من الأمور المهمة جدًا، هو ضرورة اعتناق الدين قناعةً لا وراثة، لأن القناعة تجعلك كالنخلة الثابتة أمام رياح الشبهات بخلاف الوراثة التي قد تجعلك تطير مع الشبهات حيث ما رمت بك.

ولذلك أنا أشكر الأخ أحمد السيد علىٰ وجه الخصوص والطاقم الذي معه والذي أنشؤا برنامج صناعة محاور الذي يعتني جانب كبير منه في رد الشبهات المعاصرة والرد علىٰ الإلحاد.

وهناك نقاط عديدة جدًا وددتُ أن أعلق عليها؛ لأن الرواية ناقشت مواضيع عِدّة، ورغم أنها حاولت أن تناقش مآلات التعصب والتشدد الديني إلا أن التركيز كان منصبًا علىٰ التعصب المسيحي أكثر، فالتشدد الإسلامي قد تناولهُ المؤلف بألفاظ عامة، ولكن السجال اللاهوتي والسرد التاريخي وبيان التناقض فيه كان منصبًا علىٰ النصارىٰ؛ فالكاتب أراد أن يُبرهن أن التشابه ما بين بعض الأطروحات في المسيحية والإسلام ومحمد وعيسىٰ –عليهما السلام– دلالة علىٰ أنها تصدر من مشكاة واحدة، ولكن حاول أن يُبرهن أن النصرانية حرّفت بعد انتصار أصحاب عقيدة التأليه علىٰ عقيدة التوحيد بسبب ميول الإمبراطور الروماني إلىٰ أصحاب عقيدة التأليه كونه مشابهة للعقائد الرومانية القديمة، وأن أصحاب عقيدة التوحيد هم الأصل، وهذا التوحيد هو الذي بُعث بهِ محمد ولا يزال باقيًا كما هو الآن، فمن أجل اتباع عيسىٰ وأتابعه الحقيقين يجب عليك أن تتبع محمد ﷺ لأن ما دعىٰ إليه عيسىٰ هو نفس ما دعىٰ إليه محمد! وددت أن أناقش عدة مواضيع ولكن الذاكرة والوقت لا يسعفان.

ولكن لا أخفي دهشتي عندما عَلمتُ في نهاية الرواية أن أيمن العتوم استغرق أسبوعين فقط في كتابتها!

٢٦ أكتوبر ٢٠١٧م – ٦ صفر ١٤٣٩هـ

رواية: الأربعة الكبار

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: الأربعة الكبار.**
- **اسم المؤلف: أجاثا كرستي.**
- **عدد الصفحات: ٣١٣.**
- **دار النشر: مكتبة جرير.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة (الأربعة الكبار)، وهي أول رواية أقرأها لأجاثا كرستي، انتهيت منها في يومين فقط أو في جلستين إن صح التعبير، والمانجا غوشو أوياما في أحد أعماله التي تحولت إلى مسلسل كارتوني وهو (المحقق كونان) قد اقتبس أو تأثر كثيرًا من أجا كرستي عمومًا ومن هذه الرواية خصوصًا.

وأنا أظن أن أجاثا كرستي في طرحها للروايات البوليسية لم يسبقها به أحد بهذا الشكل، فكانت كالرمز الذي أثّر على من بعده في ذات التخصص والمجال، وتأليف الروايات البوليسية في ظني يحتاج إلى شخص متخصص في علم النفس أولًا ومتخصص في الطب الجنائي ثانيًا ومتخصص في الصنعة الأدبية (أي صياغة الحبكة القصصية) كالإثارة والتشويق وربط الخيوط ببعضها ونحو ذلك. وهذه الأمور توفرت بشكل لا بأس به في أجاثا كريستي في روايتها هذه.

وأما دخولًا في التعليق على الرواية فقد تُبين لك الرواية أنك عندما تدخل حربًا مع الجريمة المنظمة فلا بُدَّ من وضع احتياطاتك في كل خطوةٍ تخطوها (مثل أن تضع خطة طوارئ).

وتُبين لك أن الجريمة المنظمة لا يمكن مواجهتها إلا بالالتجاء إلى إمكانيات الدول، ومن أجل ذلك تكون أغلب الحروب التي يخوضها الصحفيون الاستقصائيون فاشلة تنتهي بقتلهم واستمرار الفساد والمفسدين.

وتُبين لك خطر وأثر المعلومة الواحدة والتي قد تراها أنت تافهة وليس لها قيمة على سير الأحداث، ومن أجل ذلك فأجهزة الاستخبارات لا تستخف بأي معلومة مهما صغر حجمها وكانت تافهة ظاهريًا.

رواية جميلة أكثر ما أعجبني فيها الفخ والفخ المضاد، وكل طرف يستدرج الطرف الآخر، وكأنك في لعبة شطرنج تمامًا.

٢٩ أكتوبر ٢٠١٧م - ٩ صفر ١٤٣٩هـ

رواية: أميرة ٢

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: أميرة ٢.**
- **اسم المؤلف: محمد بن صالح الشمراني.**
- **عدد الصفحات: ١٤٢.**
- **دار النشر: منتدى المعارف.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من رواية (أميرة ٢) لمحمد بن صالح الشهراني وهي أول رواية له، وبذلك أكون قد انتهيت من قراءة جميع رواياته، والمؤلف أو الروائي محسوب على الصفّ الإسلامي، وتدور تفاصيل الرواية حول العراق بعد الاحتلال. استطاعت المقاومة العراقية أن تُنتج رقاقة لتوضع في مكان فيقصف هذا المكان بالتحديد، واستطاعت الآلة العسكرية لهذه المقاومة أن تتفوق على التقنية الأمريكية في عدم استطاعتها كسر تشويش هذه الرقاقة وعدم استطاعة اعتراض هذا الصاروخ، وأما أفراد المقاومة هؤلاء فهم في حي الحارثية بشمال بغداد، والذي يصنع هذه التقنية يُكنى بـ«العميل رقم ٥» فمن أجل ذلك وضعت القوات الأمريكية أولولية لرصد «العميل ٥» والإيقاع به. فهل سوف ينجحون في ذلك؟

أبرز نقطة لفتت انتباهي كيف أن البعض يوظف علمه في عمله، والذين يدرسون في الجامعات في تخصص ما؛ الكثير منهم لا يملك قضية يوظّف ما يتعلم في خدمتها - إن كان تخصصه يساعده بذلك -، بل أغلب الذين يدرسون يريدون أن يأخذوا الشهادة الجامعية من أجل غاية واحدة وهي أن تتسع فرص توظيفهم أو أن ترتفع درجتهم في العمل فيزيد راتبهم، من أجل ذلك فالجامعة لدى الكثيرين كالباب الذي يفصل بين الجانبين يدخله الشخص ويخرج منه كما دخل! وكل الذي فعله

الشخص هو فقط المرور من خلال هذا الباب، ولكن الذي يحمل هم قضية تراه يوظف ما يتعلمه من أجل نصرة قضيته، فهو لا يتعامل مع العلم تعاملًا لحظيًا بل تعاملًا مستمرًا غير منقطع.

الجانب الآخر من الرواية تَجدهُ متمثلًا في القاعدة التي قعّدها منسق وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون مكافحة الإرهاب هنري كرامبتون وهي: «**لا توجد طريقة للإمساك بجاسوس تابع لجهاز معادٍ أفضل من اختراق ذلك الجهاز**»[٧٥]. فالرواية أظهرت أثر الاختراق والاختراق المضاد على سير الأحداث كلها، فأخطر الجواسيس هم الجواسيس المزدوجون، لأن أثر هؤلاء يتمثل في شلّ الجهاز الأمني الذي يعملون به، فأنت عندما تكون جاسوسًا روسيًا وفي الوقت نفسه رئيس وحدة مكافحة التجسس في أمريكا، فأنت سوف تخبر روسيا عن جميع الجواسيس الذي يتجسسون عليها ثم تقوم روسيا بالقبض عليهم أو قتلهم وبذلك تفقد أمريكا مصادر حيوية للتجسس والمعلومات، وتصبح كالشخص الأعمى الذي لا يرى. وتستفيد أيضًا إشكالية تحصل للكثير من جماعة المقاومة أن بعض الكوادر فيها يكونون معدودين، إن ذهبوا أو اعتقلوا لا يوجد أحد يسد مكانهم، فالكوادر عندما كانت موجودة لم تكن حريصة على تعليم ما لديها لمن حولها أو ربما تكون لديهم رغبة للتعليم ولكن الذين حولهم لم تكن لديهم رغبة للتعلم! وانعكاس ذلك أن العمل كله يتوقف إن ذهب هذا الشخص!!

٦ نوفمبر ٢٠١٧م – ١٧ صفر ١٤٣٩هـ

[٧٥] فن التجسس – صـ١٠٢، طـ: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

السجينة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: السجينة.**
- **اسم المؤلف: مليكة أوفقير وميشيل ڤيتوسي.**
- **اسم المترجم: غادة موسى الحسيني.**
- **عدد الصفحات: ٣٦٠.**
- **دار النشر: دار الجديد.**

التعليق والمناقشة:

مليكة أوفقير هي ابنة الجنرال محمد أوفقير الذي حاول الانقلاب على الحسن الثاني ملك المغرب ولكنهُ فَشل وتم قتله، ولكن لم يشفِ هذا غليل الملك ولم يكتفِ بمجرد قتل من خانه بعدما كان من أقرب المقربين، فقام برمي أسرة أوفقير في السجون لمدة ٢٠ سنة وحملهم جريرةَ ربِّ الأسرة.

طبعًا في نظري الشخصي محمد أوفقير ليس ممن يستحق التعاطف معه، وعاطفية كلام ابنته عنه في الكتاب أو المذكرات يجب أن لا تلغي كل ما فعله من جرائم، فهو كان وزير الداخلية وأشرفَ على تكميم واعتقال وتصفية معارضي القصر وطالت يده حتى المهدي بن بركة الموجود في فرنسا الذي لا تُعرف لهُ جثة حتى الآن لأنهم أذابوا جسده بالأَسِيد، وأحد المعتقلين السابقين وهو ضابط اسمه مؤمن ديوري تم اعتقاله ورأى أوفقير بنفسه يعذّب ولم يراعي لا امرأةً ولا طفلًا ولا غيرها وألف كتابًا أسماه (بلاغ إلى طاغية) يحكي جزءًا مما رآه في المعتقلات ومن بينها أساليب أوفقير في التعذيب مثل تعليق النساء من الأعلى وإبقاء أطفالهن في الأسفل وهم يبكون... وغيرها من الأساليب التي تعطيك نبذة موجزة عن رجل النظام أوفقير.

ومن المعلوم أن هذه الحكومات والأنظمة لا ترقيّ الشخص في سلمها إلا إذا كان متفانيًا في إفناء خصومها والتنكيل بهم، هذا أولًا، وثانيًا عائلة أوفقير كأي عائلة برجوازية لم تقم ثروتها إلا على ظهر الفقراء والمسحوقين في المجتمع، فلما كانت والدة مليكة كما تقول مليكة عنها أن المال في يدها مثل النار ولا تطفئ هذه النيران إلا بصرفها وتبديدها، فكانت لديهم بيوت في مناطق متعددة، وكانوا يسافرون ويتنقلون إلى أفضل وأضخم الأماكن، ويأكلون ما لذّ وطاب، وبيتهم كان عبارة عن قصر، فعاشوا حياة باذخة جدًا تتناقض بشكل كبير جدًا مع حياة عموم الشعب الذي يضطر أن يهاجر ويترك أهله وبلده من أجل أن يجد ما يسد رمقه، فلذلك هذان توضيحان أوليان في الكتاب حتى لا يذوب القارئ ويتماهى في سرد مليكة، أن والدهم فاسد ومجرم وأنهم هم أسرة فاسدة أيضًا. ولكن القدر هو من شاء أن يجعلهم في خانة المظلومين.

وقد استطردت مليكة استطرادًا عجيبًا في بدايات كتابها حول توصيف حياة القصر وعاداتها وتقاليدها والطقوس والبروتوكولات، لأنها عاشت في القصر الملكي لأن الملك محمد الخامس ثم الحسن الثاني قد تبنوها من أجل أن تسلي ابنة محمد الخامس اللا مينة (أمينة) وتؤنسها، وفهمت أن بعض المصطلحات كـ (اللا، ومولاي، وسيدي) كلها أوصاف تُطلق على الأسرة الملكية في المغرب.

ما لفت انتباهي في حياة القصور أن الملك لديه جوارٍ أو إماء، ويكون عددهن أربعون جارية ويتم إرسالهن من مناطق شتى من المغرب ويكن فائقات الجمال، ولكن لا تكون له إلا زوجة واحدة فقط أو زوجتين في أسوأ الأحوال وهي التي مخوّل لها أن تلد له ولي العهد، والزواج – حسب الظروف العرفية والسياسة – كما تقول مليكة يكون من أكبر الأسر البربرية في المغرب، وأنا حقيقةً لم أستوعب قصة البربر شعرت أن ثقافتهم المحلية قد انقرضت مع الفتوح الإسلامية وترسّخ العربية في الدول المغاربية مثلما حصل مع مصر وشمال الشام والعراق، ولكن لا يزال هناك بربر يتكلمون بلغتهم التي تنقسم – حسب كلام مليكة – إلى ثلاث لهجات كبرى.

ومما يَلفتُ الانتباه أيضًا في قضية حياة القصور، أن الذي يرىٰ حياة القصر من الخارج لا يسعه إلا أن يقول: [**يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**]، ولكن الذي في داخل القصر علىٰ العكس تمامًا يتمنون أن يعيشوا حياة الذين في الخارج من حيث الحرية وأن تكون لهم شخصية مستقلة ولا يعيشون إلا لذواتهم وليس من أجل شخص واحد، فالحياة في القصور هي سجن من ذهب.

ومما قد يتنبه إليه أن الكتاب كُتب بالفرنسية فهو موّجه إلىٰ الفرنسيين بالدرجة الأولىٰ، ومليكة رغم أنها تنسب نفسها إلىٰ المغرب وأنها امرأة شعبية وعربية الأصل، ولكن تلمس من كتابتها أن وجدانها فرنسي محض، فكأنك تلمس من كلامها وخطابها للفرنسيين أنها تقول لهم أنا منكم وأنا مثلكم، فما بلائنا إلا من طائفتين في بلادنا العربية من أقصاها إلىٰ أقصاها، أصحاب الثقافة الفرانكفونية في الغرب وأصحاب الثقافة الساكسونية في الشرق، فهؤلاء لا تجد لهم هوية مستقلة أو ذاتية بل هويتهم هي هوية غيرهم.

والكتاب أيضًا يُنبه حول قضية إنسانية فطرية، وهي أن الإنسان كائن اجتماعي، وقضية (أن يكون الشخص انطوائيًا) هي مجرد أمرٌ نسبي وليس مطلق، وهي بوجه آخر أن الشخص يحب أن لا يحتك مع الناس كثيرًا ولكن لا يستطيع أن يعيش إلا مع الناس مثله، وأحيانًا يكون هذا الانطواء قاصرًا علىٰ جهة ما دون أخرىٰ، فبعض الانطوائيين في العالم الواقعي اجتماعيون في العالم الافتراضي يحبون المشاركة ونشر كلامهم وانتظار تفاعل الناس معه، كل هذا الكلام مقدمة علىٰ أن أشد أنواع الفتك بهذه الفطرة الإنسانية هو السجن وأشدها ضراوةً هو السجن الانفرادي، وأشدها تدميرًا عندما تمنع من كل شيء فتصبح بالأيام والشهور لا تجد ما تشغل به نفسك به وتسليها مما يؤدي هذا في النهاية إلىٰ اضطرابات نفسية أو جنون لأن هذا ضد الفطرة التي فطرت عليها.

وهناك تبعات فرعية لمثل هذا الكبت والعمل بضد الفطرة - وبما أن أسرة أوفقير أسرة متحررة فقد ناقشتها مليكة بشكل مباشر - وهي الكبت الجنسي، فلكل شخص حاجته الغريزية في إشباع هذه

النهم وهذه الرغبة، ولكن في السجن تكون هذه الرغبة مكبوتة؛ لأنك لا تستطيع إنفاذها بل وإنفاذها بالاستنماء يكون قاصرًا، وهذا الكبت كلما تعاظم أحدث شروخًا على فطرة الإنسان، فقد يزني الأخ بأخته، وقد تجعل المرأة مستعدة أن تتخلى عن شرفها مقابل الفتات، وقد ذكرت مليكة أن عبد الرؤوف أخوها الكبير كان يُجاهر بأنه يريد أن يمارس الجنس مع كل امرأة يراها، وكانت هي تقول أنها تود أن تمارس هذا أيضًا مع أي شخص مجهول تلتقي معه بالصدفة، ولكن نقطة الخطر هو لما دخل أحد الحراس إلى زنزانتها وأرادوا مساومته بأن يحضر لهم المذياع من الخارج، فأراد اغتصاب مليكة، فقالت له: «**إن كنت تريد ممارسة هذا الأمر فلا بأس ولكن ليس الآن أحضر لي المذياع وبعدها أعطيك ما تريد!!**» لا أعلم إن كانت صادقة في كلامها لهذا الضابط أو لا، ولكن أوردت هذه المحادثة في الفصل الذي تكلمت عن الكبت الجنسي.

فهناك ظروف قد تجعل الشخص مستسلمًا للإغراء، منها الكبت الجنسي ومنها الوساوس الشيطانية بالقول أن شبابكِ يضيع هنا في السجن ولن تخرجي إلا بعد أن تذبلي فهذه فرصتك الوحيدة ونحو ذلك.

ولقد كان الإخوة في غوانتانامو يعرفون أن مكمن الخطر عند الشخص بعد البلوغ ويصبح شابًا فالرغبة الجنسية في هذا العمر أشدُّ من غيرها من الأعمار، وكان هنالك بعض الأمريكيات السجانات يعملن على إثارة هذه الشهوة عند الشباب ولكن قام الإخوة بمعالجة الموقف، يقول وليد محمد الحاج: «أما المجندات الأمريكيات فقد أخذن نصيبهن من النووي (النووي هو خلط البول والغائط في علبة واحده ورمي محتواه على وجوه المُراد استهدافهم) بما فيه الكفاية بسبب إغرائهن للشباب، كان بعضًا منهن يخلعن السترة العسكرية وتبقى بالملابس الداخلية بحجة أنها تريد نظافة العنبر والشباب في مرحلة حرجة من الأعمار ما بين ١٨-٢٦ هنا يتبرع أحدهم ويستخير الله ويطفئ

هذه النار بالنووي يضرب به وجهَ المجندة حتىٰ ترعب ولا تحاول مرة ثانية إفساد هؤلاء الشباب»[٧٦].

فلذلك إن كانت هنالك نار في السجن فلا تصب عليها الزيت وامنع كل الأسباب التي تؤدي إلىٰ انسكاب الزيت علىٰ النار.

ولعل أسرة أوفقير تمالئت الظروف عليهم بشكل أشد بشاعةً إذ أنهم غير محاكمين ولا يعرفون إلىٰ متىٰ سيبقون في السجن ولا يعرفون ما سيؤول إليه مصيرهم، فهل سيُعدمون في النهاية أم سيعدمون بشكل سريع إن تسنىٰ للملك ذلك أم سيبقيهم هنا حتىٰ يموتوا ببطئ، وهل سيُفرج عنهم وإلىٰ متىٰ سيبقون علىٰ هذه الحالة وإلىٰ متىٰ سسيعيشون هكذا؟! هذه أسئلة شديدة الوقع علىٰ النفس في مثل تلك الظروف، فالشخص المحاكم يعلم أنه لن يتعرض لشيء آخر مثل الإعدام أو القتل، وسوف يعلم أنه في النهاية سوف يخرج في هذه الوقت، مما يكون هذا سلوىٰ وبارقة أمل له تنتشله من غياهب ودهاليز الظلام التي تموج به داخل السجن، ولكن الأسئلة التي لا جواب لها هي قتل متكرر لكل من يفكر بها.

وأيضًا مما يجب التنبهُ إليه أن البعض يعبد الله علىٰ حرف فلا يسلم لله العبودية المطلقة بل يعبده عبادة مشروطة بمكاسب دنيوية، أو كما يقول إبراهيم السكران: «**إنما تعبر – هذه الحالة – في الحقيقة عن تدين غير جاد ذلك أنه مربوط بقدر ما يقدمه الوحي من معطيات دنيوية؛ فإذا نقصت تلك المعطيات الدنيوية أصابته فتنة، وهذه الحالة الدينية المهترئة حالة قديمة قد كشفها لنا القرآن بشكل مبكر كما يقول الله: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَّ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ]**»[٧٧] فأنا أعبد الله وأدعوه ولكن لماذا لا يُفرج عني، لماذا يتجاهلني، لماذا لا يفعل لي الله كذا وكذا، ولماذا لا أحصل علىٰ كذا وكذا؟!

---

[٧٦] مذبحة القلعة وغياهب غوانتنامو – صـ١٥٩، ط: دار القمري.

[٧٧] مآلات الخطاب المدني – صـ٣١٥، ط: مركز الفكر المعاصر.

فهناك فكرة مربوطة في أذهانهم أن هذه العبادة لا بُدَّ يكون لها مقابل فوري، صحيح أن الله يسخر لعباده وييسر لهم، ولكن في ذات الوقت يمتحن صبرهم وإيمانهم، وأحيانًا يكون الأثر ظاهرًا علىٰ النفس وليس علىٰ المادة، فمثلًا تجر إلىٰ ساحة الإعدام ولا توجد أي إشارة إلىٰ إلغاء هذا الحكم عليك، ولكن في الوقت نفسه تلمس السعادة والانشراح والرضى الكبير في الصدر، فلذلك ليست كل التدخلات فورية وليست كلها مادية ولو حصل تيسير مادي فلن يحصل في كل وقت وفي كل شيء!

وأما من ظن أن عبادة الله والتسليم له لا بُدَّ أن تنجيه من البلاء والامتحان وإن أُبتلي فإنه ينال الخلاص الفوري والفكاك العاجل فهو واهم، فالله يقول: [**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**]، وقال أيضًا: [**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا**].

فهؤلاء الرسل وأتباعهم وهم أحب الناس إلىٰ الله وهم أوليائه، ومع ذلك يزلزلون وتصيبهم الفتن والابتلاءات والعذاب بل ويطول هذا العذاب حتىٰ هؤلاء الرسل وأتابعهم يقولون متىٰ الفرج؟! فالله يخبر أن النصر والفرج لا يأتي إلا في الرمق الأخير بعد أن يطول البلاء!

وقد ذكرنا في إحدىٰ المناقشات قديمًا ضرورة توطين النفس علىٰ حصول الأسوأ، حتىٰ لا تنهار هذه النفس، مثل أن يضع الشخص في ذهنه تصور أنه لن يُفرج عنه إلا فترة طويلة جدًا، وقد ذكر ابن كثير كما في كتاب قصص الأنبياء أن نبي الله أيوب قد أعد نفسه لأن يتحمل البلاء الذي كان فيه لمدة ٧٠ سنة، فقال لزوجته: «**قد عشت سبعين سنة صحيحًا فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟!**» ولكن كما قال حميد: مكث في بلواه لمدة ١٨ سنة! [٧٨]

[٧٨] انظر: قصص الأنبياء لابن كثير – صـ٢٥٠، طـ: مكتبة المدينة النبوية، تحقيق: محمد عبد الرحمن عمر.

كانت النتيجة وعدم الفهم الصحيح لمثل هذه الأمور أدت إلى ارتداد العائلة إلى النصرانية وتركهم الإسلام لأنه لم يحقق لهم شيء نافعًا - كما تقول مليكة في كتابها -!

ولكن أسرة أوفقير خرجت بعد أن قضت ٢٠ سنة تقريبًا في السجون أسوة بغيرها كأصحاب انقلاب الصخيرات والذين بقوا على إسلامهم وحفظ كثيرٌ منهم القرآن، فلم يُقصّر ارتداد عائلة أوفقير عن الإسلام مدة حبسهم بل خرجوا كما خرج الذين بقوا على إسلامهم حافظين للقرآن!

ولكن متوقع أن تصدر مثل هذه الشطحات من هذه الأسرة التي كانت بعيدة عن الدين ولم تنشأ عليه، ولكن المحزن والمؤلم حقًا أن تصدر مثل هذه التصورات من أشخاص محسوبين على التيار الإسلامي وقد سُجنوا من أجل دينهم، مثل إياد أسعد الشخص الذي نشأ نشأة إسلامية فأثّر الضغط النفسي والبدني عليه جراء التعذيب في سورية وجعلهُ يقول: «**في لحظة مالت كفّة الجسد فيها للموت، بحثتُ عن الله لينقذني ممّا أنا فيه، ساءلته إن كان يراني - وهو يراني - فَلِمَ يُشاركهم النظر إليّ والتلذذ بتعذيبي دون أن يخلصني من بين أنيابهم؟ استغفرتُ الله بعدها وبقيت أستغفره ستّة أشهر في اليوم الواحد ألف مرة لذلك الخاطر اللعين الذي راودني في ليلة الكهرباء المشؤومة!**»[٧٩].
ومسألة الإضراب عن الطعام، من المسائل المهمة كذلك في حال تخوّف السجانون من هلاكك ولكن في حال كان هلاكك وبقائك حيًا سيّان عند السجّان فهذا من الرمي بالنفس في التهلكة، وفي زمن العولمة وتهتك سيادة الدول، فإن الدولة قد تحاسب في المحافل الدولية في سجلها لحقوق الإنسان فيما يحصل في سجونها وفيما تفعل من سياساتها، فلذلك أصبح الإضرابُ له أثر ويصنع شيئًا من الضجيج الذي تخاف الدول منه حتى لا يصل مداه إلى الخارج فيزيد الضغط عليها، وقد ألف شيخنا الحسن الكتاني وهو قد سُجن في المغرب أيضًا رسالة في حكم الإضراب شرعًا - وهو ممن يرى جواز ذلك - في رسالة قصيرة بعنوان: (الجواب عن إشكال من حرم الإضراب).

[٧٩] يسمعون حسيسها لأيمن العتوم - صـ٠، طـ: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

وهذه المسألة تَجرُّ أختها، لما استطاعت مليكة وأخواتها الهروب من السجن علموا أن لا محالة سوف يقعون في الأسر من جديد، فكان الرهان في تحقيق ما يمكن تحقيقه خلال هذه الفترة وقبل أن يُعتقلوا من جديد، فكان رهانهم حول إثارة قضيتهم التي طُمست ونُسيت خلال ١٥ عام والتي ظن الكثيرون ومنها أهل مليكة أنهم قد هلكوا وانتهى أمرهم، فجازفوا وحاولوا الارتباط بإحدى الإذاعات الفرنسية التي لها صيت ذائع، وأوصلوا صوتهم وثم اعتقلوا، وبسبب تفعيل القضية وإثارتها على الرأي العام، وبسبب أشكالهم المهترئة وخمسة عشر عامًا من التجويع جعل القضية قضية رأي عام فأُثيرت من جديد مما اضطر الحسن الثاني أن ينقلهم من سجنهم إلى إقامة جبرية وبظروف أفضل بكثير من الظروف السابقة.

ومما يُستفاد من هذه محاولة تصعيد أي قضية اعتقال وعدم طمسها خصوصًا إن كانت قضية عادلة ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها، فأسرة أوفقير لا شأن لها بما صنعهُ والدهم الجنرال محمد أوفقير الذي حاول الانقلاب على الملك، فلا يؤخذ الأطفال والأسرة بجريرة والدهم، فهي قضية واضحة، والحكومات تعلم مدى خطورة وأهمية تفعيل القضايا إعلاميًا، فمن أجل ذلك يحاولون قتل التفعيل في مهده، فيأتون إلى والد ووالدة المعتقل ويحقنونهم بمخدر: «لا سوف يخرج قريبًا فقط تحقيق عادي وكلها كم يوم ويخرج» وبما أن الأهل ليس لهم معرفةً بخبث هؤلاء ولا دناءتهم ولا كذبهم فيؤثرون الصمت على الكلام وعلى قتل القضية بدل إحيائها، ويظنون أن فعلًا كلها أيام ويخرج ابنهم، وأحد ضحايا هذه الوعود هي السورية هبة الدباغ التي قيل لها نريدك لخمس دقائق فقط ولكنها بقت في السجن تسع سنين وألفت كتاب بعنوان (خمس دقائق... تسع سنوات في سجون الأسد).

ومما يُستفاد أيضًا في الأسر هو تمحيص أصدقائك، وتعلم من هو الصديق الحقيقي من الصديق الزائف، وقد قيل: «الصديق وقت الضيق»، فمليكة تقول أن الغالبية من أصدقائهم إن لم يكن كل أصدقائهم تخلوا عنهم، وحتى لما هربت وحاولت الاتصال بهم الكل تنصل وهرب وأمرهم

بالابتعاد عنها، وهذا يذكرني برسالة للشيخ أبو محمد المقدسي بعنوان (كيلو جوافة) وهي تتكلم عن حال الأصدقاء الذين كانوا يملؤون البيت لكثرتهم حينما كان موجودًا وعندما أُسر لا ترىٰ أحدًا ولا يسأل عنك أحد! فذكر قصة الوفاء وحسن العهد لدىٰ أحد الأصحاب فيقول: «**قالت لي الوالدة في زيارتها للسجن: "جاء صاحبك فلان قبل أيام وطرق الباب، ففتحت وتفاجأت به لأني أعرف أنه مطلوب ومطارد، فقلت له: "يا بنيّي إيش جابك مش خايف يمسكوك؟" فقال: "يا خالة، أنا كنت أرى أبا محمد عندما يشتري لبيته خضار، إذا رأى جوافة في السوق، يشتري منها ويقول هذه للوالدة، فإنها تحب الجوافة، واليوم رأيت الجوافة في السوق فتذكرت أبا محمد، وأحببت أن أشتري لك جوافة كما كان يفعل" وناولني كيس الجوافة وذهب" فقلت: "بقي ولم يذهب**»[٨٠].

ففعلًا فعل المعروف والوقوف مع الخلان في وقت الخذلان هو من الفعل الذي يبقىٰ راسخًا في الذاكرة والوجدان ولا يذهب ويُحفظ لصحابه أنه وقف عند هرب الجميع وقالوا «نفسي، نفسي». فالأسير مثل الظمآن والتضامن معه في الخارج والسؤال عنه كالماء الزلال الذي يدخل في جوفه.

وكذلك مناقشة الشيخ عمر محمود تناولت عدة مواضيع، لعلَّ من أبرزها قضية أن الطغاة أُناس بسبب الملك جُردوا من عواطفهم تجاه خصومهم، وأي عفو عن الخصم لا يدخلُ في باب الرحمة والشفقة وإنما ضمن مبدئ الربح والخسارة، مثلًا أن يلمع الحاكم نفسه أمام الناس كونه يطلق أسرىٰ المسجونين وأنه شخص متساعد فيجب أن يعّي الشعب هذا وإلا في الحقيقة فهو لا تتحرك منه شعرة تجاه هؤلاء الذين أطلق سراحهم، وكما قال عبد الملك بن مروان: «**الملك عقيم**»[٨١]، وعقمه يتمثل في قتل الحاكم أخاه - إن نافسه - أو انقلابهِ علىٰ أباه من أجل سلب الحكم، فهل تتوقع من حاكم فعل هذه الأفاعيل تجاه أقرب الناس إليه أن يَنظرُ إليك بشي من العاطفة والرحمة إن نافستهُ علىٰ الحكم؟ وأيضًا تطرق الشيخ عمر إلىٰ قضية أن الدخول في انقلاب ضد السلطة فهذا يعني

[٨٠] كيلو جوافة – صـ٥،٦.

[٨١] تاريخ الرسل والملوك للطبري (٧/ ٤٤).

الوصول إلىٰ أبعد حد، إما قاتل أو مقتول، فإما أن تظفر أو يُظفر بك، وعليه فلا ينوح أحد علىٰ أحد! لأن هذا قانون الحياة، فالمواجهة أو الانقلاب لا توجد فيها خطوط رجعة، والمقتول فيها لا يؤسف عليه.

وقد كَتبت عائلة أوفقير بعض الكتب ولم يكن الأمر مُقتصرًا علىٰ مليكة، مثلًا كتبت والدتهم الأم فاطمة أوفقير كتاب (حدائق الملك)، وكتب أخوهم الأكبر رؤوف أوفقير كتاب (الزوار) وهو أضخم كتاب من حيث الصفحات، وكتبت أختهم سكينة أوفقير كتاب (الحياة بين يدي)، وكذلك مليكة أوفقير كتبت كتابًا آخر ولكن عن مرحلة ما بعد السجن وهو (الغريبة) وهو كتاب غير مهم - في نظري - لأني لا أهتم بالجوانب الشخصية بقدر ما أهتمُّ بالجوانب العامة كالتاريخ والسياسة والتبصير بواقع الطغاة وأحوال السجن.

ومن الهوامش التي يجب أن يُشار إليها علىٰ أن كتاب (السجينة) من طباعة دار الجديد، جزء من الكتاب كـ(المقدمة والملحق) لا علاقة له بمضمون الكتاب، وإنما يتطرق إلىٰ خلاف حصل بين دور النشر اللبنانية والسورية حول حقوق النشر لكتاب مليكة والقرصنة ونحو ذلك فتجاوزها اختصارًا للطريق.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٨ نوفمبر ٢٠١٧م - ١٠ ربيع الأول ١٤٣٩هـ

معالم في الطريق

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: معالم في الطريق.**
- **اسم المؤلف: سيد قطب.**
- **عدد الصفحات: ١٨٦.**
- **دار النشر: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت قبل فترة من كتاب (معالم في الطريق) لسيد قطب، وهذا الكتاب له إغرائين، الأول: أنه مَثَّلَ خلاصة فكر سيد قطب أو المنتج النهائي له، والأمر الآخر أنه قصير ويقع - حسب اختلاف النسخ - بما لا يتجاوز المئتي صفحة.

وقد شاهدتُ برنامج (أسمار وأفكار) الذي يَستضيفُ مجموعة من النخب الفكرية لمناقشة جماعية لكتاب معين، وهؤلاء المفكرين في تناولهم لكتاب سيد قطب هذا قد أجادوا تقريبًا في التعرض للمثالب والمحاسن، ولكن بشكل عام أقول أن كتاب سيد مليء بالعبارات حمّالة الأوجه، لذلك قد يقرأهُ شخصان وكلاهما يخرج بنتيجة مختلفة حسب تأويلهما لنص سيد، ولا تستطيع أن تستبين مراده بشكل واضح في الكثير من المعاني، وبعض هذه الأطروحات لها أصل يضبطها في مؤلفات سيد قطب القديمة مثل (الظلال) ومثال ذلك قضية كون العقيدة هي الجنسية للمؤمن والأثر الفقهي المترتب على ذلك، فمن رجع إلى الظلال يستطيع أن يضبط هذا الإطلاق ويستطيع أن يوّجه كلام قطب نحو معنى صحيح، الأمر الآخر هو استخدام سيد قطب العبارات الأدبية في تعرضه للمسائل الشرعية بدلًا من المصطلحات الفقهية، ونسبة تأويل الخطاب الأدبي أبعد وأصعب بكثير من المصطلح الفقهي الذي له قواعد واضحة المعالم، فلذلك إن قرأت الكتاب ورأيت أنك لم تفهم

المعنىٰ الغائي من كلام سيد قطب في الكثير من الجزئيات، فلا تقلق، فسيد قطب نفسه كما نقلت زينب الغزالي وغيرها قد عَجِبَ كثيرًا من تفسيرات البعض لهذا الكتاب وهو حي ووعد أن يُزيل اللبس في الجزء الثاني ولكنه أُعدم قبل ذلك.

وأنا شخصيًا وَصلتُ إلىٰ نتيجة في قراءتي لكتب سيد قطب، ولكني وجدت أن غيري من سبقني إليها كسيد إمام إذ قال: «**نرى أن كتابات سيد قطب رحمه الله لا يؤخذ منها شيء من أحكام الاعتقاد والفقه، وإنما يؤخذ منها فهم الواقع المعاصر وتعرية حقيقته الجاهلية**»[٨٢].

وفكرة كتاب معالم في الطريق وهو أننا حاليًا نعيش في مرحلة التيه والضياع والانحطاط، فهذا الكتاب هو معالم تدلنا علىٰ الطريق الصحيح للنهضة والارتقاء، وفي الكتاب معالم مهمة كقضية «الجيل القرآني الفريد»، وهو جيل الصحابة، فما هي المعالم أو السمات المشتركة التي وجدت في هؤلاء القوم حتىٰ حققوا هذه النهضة؟ ذكر ثلاثة أمور:

١. اكتفائهم بنبع وحيد للاستقاء منه وهو القرآن رغم وجود الكتب والثقافات والحضارات هنا وهناك.

٢. أنهم لم يكونوا يكتفون بمجرد القراءة والتثقّف وإنما كانوا يقرأون ليطبقوا ويعملوا بما علموا.

٣. عندما يدخل الشخص الإسلام «**يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية كأنه يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ هذا جديدًا، منفصلًا كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية**»، فهو لا يمازج ولا يزاوج مابين تصوراته وحياته القديمة والجديدة.

وفي اعتقادي الشخصي أفضل فصلين في الكتاب آخر فصلين، (الاستعلاء الإيماني) و(هذا هو الطريق)؛ وأما الاستعلاء الإيماني، فالبوابة التي تَلجُ منها الخسارة، فغالبًا ما تكون الهزيمة النفسية

[٨٢] الجامع في طلب العلم الشريف، صـ٥٩٩.

أمام العدو أو الآخر، هذا الاعتداد والثقة بالطرح الإسلامي في كتاب سيد قد ينتشل الشخص المهزوم نفسيًا من براثين فقدان الثقة! ويتلمس هويته المفقودة وقوتها، وسيد قطب تأثرًا كبيرًا بكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للشيخ أبي الحسن الندوي حتى أنه كتب مقدمة له، وقال أن هذا الكتاب من أعظم ما كتب في هذا الموضوع، وهو الاعتزاز بالهوية الإسلامية أمام الشعور بالضعف أمام الآخر المتقدم ماديًا. (ومن الكتب المعاصرة التي ناقشت هذا المفهوم باستفاضة كتاب مآلات الخطاب المدني للشيخ إبراهيم السكران).

وأما (هذا هو الطريق) وأصحاب الأخدود، فهو الصفة الملازمة لكل فعل داعية إلى الله، تتصادم دعوتها مع شهوات البشر ورغباتهم المُنفلتة المتفلتة فالبعض يريد أن ينتشل أمته ومجتمعه من غير أن يُخدَش بخُدش، ودون أن يُبتلى بابتلاء، فإن ابتُلي انقلب على عقبيه، وشكَّ في الموعود الإلاهي، وأنخلع عن كل ما آمن به. فكان هذا الفصل هو بيان للقدر الذي لا ينفك عن مصلح وهو الابتلاء وأن من أعظم النصر هو الثبات على ما تؤمن به ولو فُنيت عن وجه الأرض.

٧ ديسمبر ٢٠١٧م – ١٩ ربيع الأول ١٤٣٩هـ

النقد الذاتي عند الإسلاميين

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: النقد الذاتي عند الإسلاميين: التيارات القتالية.**
- **اسم المؤلف: محمد توفيق.**
- **عدد الصفحات: ٢٢١.**
- **دار النشر: مركز نماء للبحوث والدراسات.**

التعليق والمناقشة:

المؤلف - كما هو واضح - مهتم في قضية النظر في حالات النقد داخل المدرسة الإسلامية بكافة تياراتها، لأن له كتابًا آخر يتكون من ثلاثمائة صفحة ولكن عن ما يُعرف بـ«الإسلام السياسي»، وربما له جزء ثالث عن التيارات التي اعتزلت القتال والسياسة معًا، ولكن من الواضح أن كتبه عبارة عن وجبة سريعة، فيها اختصارات قاتلة وعدم احتواء واستفراغ الجهد لجمع أكبر عدد ممكن من عمليات النقد الذاتي والنقد المتبادل ما بين الرمزين أو الشخصين في المذهب الواحد.

تكلم في كتابه هذا عن النقد الذي يقوم به شخص ضمن تيار معين لتياره بأكمله، وتكلم أيضًا عن النقد المتبادل ما بين الرمزين داخل التيار الواحد، ثم يقوم بعملية تحليل للخروج بأهم خصائص سمة النقد الموجودة عند هذا التيار مثل أن هذا التيار اتصف النقد الداخلي فيه بالصرامة والصراحة...إلخ.

عيب الكتاب أنه لا يستطيع أن يلخص الفكرة تلخيصًا حسنًا، فبعض الأشخاص انتقدوا تيارهم أو أشخاصًا معهم في نفس التيار ويقع نقدهم في مئات الصفحات وتتفرع عنها عشرات المواضيع، فالمؤلف اكتفى أنه يضع لك اقتباسًا واحدًا أو اثنين من أحد الكتب وينتهي، يعني مثلًا (وثيقة

الترشيد)، على سبيل المثال، كانت مادة دسمة للكتاب حتى يُبرز العاصفة الداخلية التي أحدثته هذه الوثيقة، ولكن اكتفى بكتاب واحد علق عليها وهو (التبرئة) وأخذ بضع اقتباسات والسلام!

ويُعاب على الكتاب أيضًا أنه لم يبحث جيدًا في تراث التيار المُنتَقَد (التيار القتالي) وهو يقول أن «وصف قتال وصفٌ محايد لأنك إن قلت جهادية فهذا إعطاء شرعية لسلوكها وأنه جهاد شرعي»، وعدم بحثه أفضى إلى أنه أسقط مراكز مهمة من مراكز النقد الداخلي مثل وثائق أبوت آباد وغيرها من الرسائل الخاصة التي نشرت مؤخرًا مما يدل أن المؤلف كان بعيدًا عن واقع التيار الذي أراد سبر أغواره والبحث في أدبياته.

رغم أني مدحت الكتاب قديمًا، وذلك لاطلاعي على الفصل الأول من الكتاب ولكن خاب ظني بعد أن أنهيته، ولا أعلم هل صلح هذا الأمر في تناولهِ لحركات الإسلام السياسي أو أنه سار على نفس المنوال؟

ولا أنسى أن الطبعة الأولى مليئة بالتطبيعات فليُتَنَبَّه.

١٦ ديسمبر ٢٠١٧م – ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٩هـ

مآلات الخطاب المدني

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مآلات الخطاب المدني.**
- **اسم المؤلف: إبراهيم السكران.**
- **عدد الصفحات: ٣٦٠.**
- **دار النشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

كتاب (مآلات الخطاب المدني) هو كتاب مهم، ومعاصرة الكاتب ومضمون موضوعه غالبًا ما ترفع من وتيرة التفضيل، سوف أضرب مثالًا، كتاب (حصوننا مهددة من الداخل) من أهم الكتب التي ألفت في هذا الباب، ولكن مع تقادم الزمان تتغير الأولويات، فهذا الكتاب كان إنذارًا لخطر قادم في الأفق، ولكن أصحبنا نعيش في زمن نرىٰ أن حصوننا بدأت تتهدم لا أن هناك تهديدًا يمسها فقط، فلو أتىٰ شخص وكتب كتابًا ليقيم هذه الحصون من جديد وأبدع في ذلك، فهو من حيث الأولوية أهم من الكتاب الأول، لأنه يمس الواقع الذي نعيشه أكثر من الكتاب الأول.

الصراع ما بين الحداثة والتراث، صراع حاضر وبقوة في وجدان الفكر العربي المعاصر، ولكن نفتقد الشخص الذي يمثل صميم التيار الإسلامي في هذا الصراع، نعم هناك أشخاص لهم ميول أو مسحة إسلامية، ولكن نحتاج من ابن المذهب/ التيار أن يكون حاضرًا في هذا الصراع، ويستخدم نفس أدوات الصراع الفكري التي يستخدمها هؤلاء المفكرون في معتركاتهم الفكرية.

الشيخ إبراهيم السكران في ظني الشخصي - وأنا قليل الاطلاع علىٰ الأطروحات المستجدة - من القلة التي استطاعت أن تناقش الحداثيين بأدواتهم، وأن يرد عليهم تعريجًا علىٰ مناهجهم وطرقهم.

وأن يظهر مستوى ثقافة عالي لما عرُف عن الشخص المتدين، الذي يكون ضحل الثقافة عادةً وسطحي في التعامل مع هذه القضايا ويختزلها بشيء من العبارات الموجزة التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

البعض يستخدم النصوص الشرعية ليجعلها تتوائم مع هذا الواقع الذي تتصادم فيهِ مع أصلها، فيكيّف هذا النص من أجل خدمة الواقع، فتصبح وظيفة النص بدلًا من إصلاح هذا الواقع المرير إلى التبرير له والترقيع له، هذا الاستخدام السيء للنص وإخراجه عن سياقه، كان محاولة جدية لمسخ التراث وتوجيهه إلى حيث ما أراد الموّجه لا حيث ما أراد من أنزله.

الكتاب كله يمكن أن تختزله بعبارة ابن تيمية، أن «**لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله**»[٨٣]، فكان إبراهيم السكران يجرد هذا التوجيه تارةً ويجرد الأساس الذي بُنيٰ عليه هذا الخطأ تارةً أخرىٰ لينقضهما معًا. والنتيجة من هذه المجادلة في نظري هو إلجاء هؤلاء إلى خيارين، التزام النص بسياقه الكامل، أو ترك النص كليةً فلا يستخدموه.

علىٰ العموم، كان لي حضور متواضع في هذه المعركة التي خاضها أقطاب الفكر العربي المعاصر مثل محمد عابد الجابري وجورج طرابيشي وطه عبد الرحمن، وأعجبني جدًا رد طرابيشي رغم أنه يمثل هذا المذهب ولكن إنما رد علىٰ آلية البحث التي تقوم علىٰ أُسس خاطئة وإلا ليس لديه مشكلة مع نقد التراث إن استقام منهج البحث، وكان أصل كتابه يقوم علىٰ خطأ اجتزاء التراث حسب معايير مزدوجة، فكان كتابه (مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة).

فكنت أتمنىٰ أن يتصدىٰ لمثل هذه المهمة ليس من انتقد وعاب «أسس صياغة البحث» فقط بل شخص تعدىٰ ذلك إلى أنه يمثل هذا التراث المراد تشويهه. فكان إبراهيم السكران، وكان هذا الكتاب من أمتع الكتب التي قرأتها، وأفضلها في هذا العام علىٰ الإطلاق.

---

[٨٣] نقله عنه تلميذه ابن القيم في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (١/ ٢٩٣).

وانتهيت من هذا الكتاب وأنا في قمة الاعتزاز والاعتداد بالنفس، وللسكران أسلوب كنت أنتشي كلما استخدمه - وهو يكثر من استخدامه -، وهو التحليل النفسي لتعليل أسلوب المخالف، لذلك أحيانًا قد تجد أن هذا الكلام قد شعرت به أو مررت به أنت شخصيًا، ولكن تتفاجئ أنه يوضع مادةً للحديث عنها وعلاجها.

المهم هذا من الكتب التي أنصح بقراءتها جدًا وأن يُتبع بكتاب آخر للسكران نفسه (سلطة الثقافة الغالبة)، رغم أني لم أقرأه كاملًا ولكنه يخدم فكرة الكتاب الأول.

١٦ ديسمبر ٢٠١٧م - ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٩هـ

حدائق الملك

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: حدائق الملك: أوفقير والحسن الثاني ونحن.
- اسم المؤلف: فاطمة أوفقير.
- اسم المترجم: حسين عمر.
- عدد الصفحات: ٢٥٠.
- دار النشر: المركز الثقافي العربي.

التعليق والمناقشة:

كان من المفترض أن تصبح فاطمة أوفقير سيدة المغرب الأولى لو نجح زوجها وزير الداخلية والدفاع في الانقلاب على ملك المغرب، ولكنه أخفق وقُتِلَ ثم رميت هي وأبنائها في المعتقل تحت ظروف صعبة لمدة عشرين سنة متواصلة.

وفاطمة أوفقير تكون أم مليكة أوفقير التي تكلمنا عن كتابها السابق، والمقارنة بين الكتابين أشبه بما تكون مقارنة بين موسوعة ومقال في الويكيبيديا، فكانت مليكة تقف عند بعض المحطات التي جمعت الأسرة معًا في السجن ثم تستطرد فيها مثل (ليلة السكاكين) وهي الليلة التي قرروا فيها الانتحار جميعًا، ولكن الأم تأتي على هذه اللحظات بشيء من المرور السريع ولا تطيل النفس فيها، وأحيانًا تتفرد عن ابنتها ببعض الأحداث التي عاشوها معًا.

وجه المفارقة بين الكتابين أن الشخصيتين لم تكونا موجودتان في كل الأحداث التي حصلت في السجن، فلما هربت مليكة لم تذكر في كتابها ماذا جرى بالتفصيل لمن بقوا في السجن (من بينهم أمها)، فكانت شهادة أمها تَسد هذا النقص الموجود في كتاب ابنتها وتكمل الصورة والمشهد.

وهناك نقاط متفرعة عن بعض في هذا الكتاب، بُعد هذه الأسرة عن التمسك بالدين والعادات والتقاليد، جعل القبيح لدينا حسنًا، مثل كلامها في الكتاب بكل انبساط عن خيانتها الزوجية لزوجها والتي استمرت لمدة أربع سنوات وبعلم من زوجها الذي كان هو بدورهِ يخونها.

كذلك الجهل المركّب بالفوارق ما بين الأديان كالقول أن المسيحية الآن نفس الإسلام والفرق بينهما ضئيل متمثّل فقط في أن عيسىٰ ابن الله كما قالت في الصفحة ٢٢! وكقولها في صفحة ٧٦: «**لقد نبهنا القرآن الكريم بحكمته العالية: "اتقِ شر من أحسنت إليه، وكن على دوام متيقظًا"**»، رغم أن هذه ليست آية ولا حديثًا حتىٰ!

والكتاب افتتح بسرد جمع ما بين الوضع الاجتماعي في المغرب (أي حياتها الشخصية وتأثرها بهذه العادات) مثل كيف تعرّف جدها علىٰ جدتها والإقطاع والرق والوراثة وتداخل هؤلاء في الحياة العامة بالمغرب في تلك الحقبة نهاية القرن التاسع عشر، ثم كلامها بعد أن كبرت عن الوضع السياسي في المغرب، والتطورات التي طرأت علىٰ الحياة العامة مثل الصراع من أجل الاستقلال والعلاقة ما بين الأحزاب ونفي الملك والصراع علىٰ السلطة والفوضى بسبب الفراغ الذي خلفه المحتل بعد خروجه غير المدروس، ودور زوجها في تأسيس الأجهزة الأمنية وضبط الأمن وانتهاء التمرد والعصيان الذي سرىٰ في الكثير من المناطق آنذاك.

اللغة في الكتاب في بعض الأحيان سوف تتطور في حديثها عن بعض الشخصيات، مثل الحسن الثاني ملك المغرب سوف ترىٰ أن في مقدمة الكتاب وقبل أن يُسجنوا، في حديثها عنه بعض الثناء والإطراء، ولكن في خاتمة الكتاب سوف ترىٰ أن هذه اللغة سوف تتضاءل إلىٰ حدها الأدنىٰ بحيث تتحول إلىٰ إدانة ونقد صريح، ربما في سردها لبعض الأحداث كانت تُساير عاطفتها وشعورها آنذاك في تلك الحقبة وعزلته تمامًا عن التطور الذي طرأ عليه فيما بعد.

وأيضًا سوف ترىٰ أن الدولة العربية عادةً لا تعطي السجين حريتهُ مطلقًا وإن خَرج من أحد سجونها، فليس إلا كمن خرج من السجن الصغير إلىٰ السجن الكبير، ومن السجن الانفرادي إلىٰ السجن الجماعي، فالمضايقات والمتابعة والتحقيق الدوري ومضايقة كل زائر ومحاولة عزلهم عن المجتمع وعن الجميع ومنعهم من العمل والسفر بقت سارية حتىٰ استطاع لاحقًا أكثرهم الفرار طالبين اللجوء في بعض الدول الغربية.

ومن نافلة القول أن فاطمة لا تنتمي لأسرة أوفقير وإنما لأسرة الشنا، وأخذت اللقب كما جرت عليه العادة في الدول الغربية من أخذ الزوجات لألقاب أزواجهن، ثم سرت هذه العادة عند بعض الأُسر البرجوازية العربية، مثل سوزان مبارك زوجة حسني مبارك وغيرها.

١٩ ديسمبر ٢٠١٧م - ١ ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

مذبحة التراث في الثقافة العرية المعاصرة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مذبحة التراث في الثقافة العرية المعاصرة.**
- **اسم المؤلف: جورج طرابيشي.**
- **عدد الصفحات: ١٤٤.**
- **دار النشر: دار الساقي.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت قبل سنة من قراءة كتاب (مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة) لجورج طرابيشي، وهو يتكلم بشكل مختصر عن انتقاء الأشخاص أو التيارات الوافدة أو المستحدثة للتراث الإسلامي والعربي فهو لم ينتقد المذاهب أو الجماعات المرتبطة بالتراث (كالفرق والجماعات الإسلامية، ولا ينتقد الانتقاء بحد ذاته بل المعيار)، يعني أنت على أي أساس تقبل التراث وترفضه؟! وبلا شك أن كتب النقد ورد النقد هي تجليٍّ شيئًا من التعقيد في الأطروحات الفكرية أو الفلسفية بين المثقفين العرب حول رؤيتهم للنهضة، فكتاب جورج طرابيشي هذا كتاب نقدي في المقام الأول، يستعرض فيه ثم يَنقد، وآلية الرد تكمن في الإلزام أو في بيان التناقض، سوف أتكلم هنا عن أبرز الأخطاء المركبة التي وقع فيها من نَقَدَهُم جورج:

المشكلة الأولى: الاعتقاد قبل الاستدلال، يعني تشعر أن البعض عندما يتبنى عنوانًا عريضًا، تشعر أنه تورط في البرهنة على صحته، وتزيد الورطة عندما يرى أن دعائم فكره وما يستند فيه فيها ما ينقض بنيانه كله، فيعمد في هذه الحالة إلى بتر النصوص وإخراجها من سياقتها ويلي أعناق النصوص فقط حتى يُثبت أنه كلام صح ولو كان ذلك على حساب الأمانة العلمية، فحتى لا يشعر

بالضعف لتراجعه وحتىٰ لا ينظر إليه البعض علىٰ أنه متسرع في تبني رؤاه، فيحاول أن يتصلب علىٰ رأيه ولو كان خاطئًا فقط حتىٰ لا يتراجع بسبب ورطته الأولىٰ وهو الاعتقاد قبل الاستدلال.

المشكلة الثانية: عدم تحقق الاستيفاء المطلوب قبل الشروع في الكلام عن فكرة ما، يعني مثلًا فتحت كتاب لأقرأه ثم وجدت في مقدمة الكتاب النص الذي أريده لأنتقد، ثم بعد عثوري علىٰ هذا النص أقوم برمي الكتاب، ولا أكمله -وربما في تكملة ما يضبط ويقيد النص الذي فرحتُ فيه- فعدم وصول الفكرة كاملةً لي يعني أني سوف أُأول النص أو أُسقطه إسقاطًا خاطئًا بالضرورة، (الكاتب ضرب مثالًا علىٰ نقد محمد عابد الجابري لرسائل إخوان الصفا).

الكتاب صغير الحجم يقع في ١٤٤ صفحة انتقد فيه جورج طرابيشي الماركسيين ثم القوميين (بشقهم العَلماني والإسلامي) ثم التيار العلمي (بشقه البراغماتي والإبستمولوجي).

كان المفترض أن يتولىٰ التيار الإسلامي كتابة أطروحة جورج طرابيشي؛ فهو المعني الأساس بهذه القضية، وقد أطنب جورج طرابيشي في نقد محمد عابد الجابري، والغريب أن طرابيشي قد تعقّب الجابري في أغلب كتبه عن العقل، فكلما كتب الجابري كتابًا في سلسلته حول هذا الموضوع إلا وردّ الطرابيشي عليه بكتاب مقابل.

ولكن أزعم أن هذا الكتاب رغم قصره إلا أنه سوف يذهب هيبة التأليف وهيبة مصطلح «المفكر العربي»، فحتىٰ من يُشار لهم بالبنان يقعون في أخطاء مدمرة تظهر أنهم جهلة فيما يتكلمون عنه.

١ يناير ٢٠١٨م - ١٤ ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

يا صاحبي السجن

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: يا صاحبي السجن.
- اسم المؤلف: أيمن العتوم.
- عدد الصفحات: ٣٤٨.
- دار النشر: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.

التعليق والمناقشة:

أيمن العتوم اسم لمعَ مؤخرًا وذاع صيتهُ في مجال الروايات، ولكن كانت بدايتهُ مع هذا الكتاب (يا صاحبي السجن) والذي هو ليس رواية بالمعنى التقليدي ولا يتكلم عن غيره كما جرت العادة مع بقية رواياته، وإنما هي أشبه بالمذكرات الشخصية لتجربتهِ في السجن، وكما ذكرنا آنفًا أن أيمن العتوم لا يتكلم إلا في المواضيع الحساسة، ولم تكن هذه بدعةً استحدثها مؤخرًا بل كان أشبه بالعادةً، فمحور الكتاب هذا يدور حول ما حصل في قلعة عجلون، وقد ألقى أيمن العتوم فيها قصيدة بعنوان (يوميات مواطن) تطرق فيها إلى الجوع والفقر والتهميش، فَفهمت الحكومة أنه قد تعرَّض لها بالهجاء في هذه القصيدة، وكانت هي سبب سجنهِ.

فالكتاب مذكرات جزئية وليست سيرة ذاتية، بمعنى لم يتكلم أيمن العتوم عن سيرته الذاتية بشكل كامل وإنما عن جزء من سيرته الذاتية تمثلت في فترة اعتقاله.

وكان يتكلم أيمن العتوم بتفاصيل دقيقة جدًا عن مجريات الاعتقال والحياة داخل السجن، فالكتاب سوف يشبع نهم من أراد أن يعرف التفاصيل، وهنالك بعض المؤلفين والسجناء السابقين إن تكلموا

عن فتراتهم في السجن تكلموا باختصار لا يعطيك ولا جزءًا من التصور للحياة داخل السجن، بخلاف أيمن العتوم الذي تكلم عن أدق وأصغر وأتفه التفاصيل داخل السجن.

والتقى الشاعر في السجن بأصحاب قضايا سياسة متعددة وأصحاب قضايا رأي عام أمثال قضية (بيعة الإمام) وهم الجهاديون أو ما يعرف بالسلفية الجهادية، و(حزب التحرير) وهو أحد الجماعات الإسلامية الكبيرة والعابرة للقارات والحدود، و(ثورة الخبز) والتي كان أغلب معتقليها هم من العشائر الموالية للنظام والبعثيين وقد احتجوا على ارتفاع أسعار الخبز فتم اعتقالهم، و(قضية الموجب) وهم أفراد منتسبين إلى سلاح الجو الأردني قرروا تفجير باص لليهود ولكن كشفوا وتم اعتقالهم، و(الأفغان العرب) وهم مجموعة ارتبط اسمهم بتفجير بعض دور السينما، و(ألغام العجلون) وهم شباب انتزعوا ألغامًا من حقل ألغام في عجلون لاستخدامها ضد اليهود، وأخيرًا (ليث شبيلات) البرلماني السابق.

ربما هذه أبرز القضايا والتيارات والأشخاص الذين اختلط بهم أيمن العتوم في سجنه بسجن سواقة.

والمفارقة في هذا الباب، أن بعض الشخصيات السياسة في هذا السجن سوف يتوسّع تأثيرها ليس على مستوى الأردن أو الإقليم أو العالم العربي فحسب بل سوف يصل إلى النطاق العالمي، ومن أبرز هؤلاء هم عطاء أبو رشته الذي سوف يصبح لاحقًا أميرًا لحزب التحرير في العالم، وكذلك أبرز شخصين في قضية بيعة الإمام وهما أبو مصعب الزرقاوي الذي سوف يصبح أميرًا لقاعدة العراق وأبو محمد المقدسي الذي سوف يصبح منظرًا للحركات الجهادية.

وعند الحديث عن أيمن العتوم يصعب تجاهل أسلوبه البلاغي الجميل في التعبير، فأيمن العتوم كالبوابة الباردة وإن مررت عليها لا بُدَّ أن تحمل معها طيّات من النسيم البارد وكذلك يصنع الأدباء عادةً لقرائهم، وأن تقرأ لأمثال مصطفى الرافعي والمنفلوطي وغيرهم بلا شك أنه يحسّن من روح

التعبير لدى القارئ وترفع من ذائقته الأدبية في التعبير، وتحسن من أساليبه البلاغية. وقد تخصص أيمن العتوم في مجالين التشبيه والإسقاط كما أعتقد وأتصوّر.

ولكن هذه النقطة الإيجابية قد تنقلب إلى نقطة سلبية، لأني أنا أقرأ كتابًا لأدب السجون أو أحداث حقيقية وواقعية، ولا أقرأ كتابًا أدبيا محضًا كـ(العبرات) و(البيان والتبيين)، فأنا مهتم بتسلسل الأحداث وعدم انقطاعها بفواصل مطولة يهيم فيها المؤلف في تأملاته واستغراقاته، قد تستساغ هذه الفواصل إن قَصُرَت وقَلَّت، وقد تستاغ إن كانت هذه الفواصل تعليقًا على حدث قد حصل، ولكن في الفصول الأخيرة من الكتاب بدت تطغى بشكل أكبر من التفاصيل نفسها وتأخذ طابعًا مستقلًا، وتشعر أن التفاصيل قد انتهت وأراد المؤلف سد الثغرات بمثل هذه التأملات.

وتكلم المؤلف بشكل مركزي حول قضية تخفيف الوزن في السجن، فهو كما يصف نفسهُ أنه كان ثقيل الوزن وممتلئ، ولكن خرج من السجن وهو ضعيف، استطاع أيمن العتوم أن يستثمر فترة السجن والتي امتدت ثمانية شهور (فترة محكوميته) في التخفيف عن وزنه، وأبرز السبل التي استخدمها هي الرياضة مثل ممارسة الجري لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات متواصلة يومًيا، والحمية الشديدة من خلال أكل علبة لبن مُذاب فيها الملح فقط كل يوم، والإضراب عن الطعام.

ومما يجب الانتباه إليه أن السجن فعلًا هو المكان الأمثل لإضعاف الوزن - رغم عدم حرية الحركة فيه عادةً - ولكن أحيانًا يكون خفض الوزن لا إراديًا كأن تُجبر على التقشف في الأكل مثل ما حصل مع مليكة أوفقير وعائلتها، أو أن يكون الأكل متوفرًا ولكن لأن نفسيتك متعبة فتعاف نفسك الأكل فتؤدي قلة الأكل إلى انخفاض الوزن، والأمر الثالث هو الأسلوب الاختياري وهو ما صنعه أيمن العتوم وهو الرياضة مع الحمية. واستطاع في النهاية أن يتخلص من أكثر من عشرين كيلًا من وزنه داخل السجن خلال ثمانية أشهر!

وأما علاقة أيمن مع الكتب والقراءة فهذا مجال يستحق الاستطراد فيه، فقد حكى أن روتين السجين يَجلبُ الكآبة ولولا الكتاب لخاض في الكآبة مع الخائضين، لأن القراءة تبعدك ولو بشكل مؤقت عن روتين حياتك المكرر الذي تشعر أن لا نهاية له، وأن الأيام أصبحت بطيئة وثقيلة ولا تمر مرور الكرام، وهذا وإن كان في قراءة كتب البشر ففي قراءة كتاب رب البشر من باب أولى، فقد حكى الدكتور عمر عبد الرحمن الذي قضى عمرهُ في زنزانية انفرادية لمدة عشرين سنة أن لولا تلاوة القرآن لمسّته الكثير من الأمراض النفسية. [٨٤]

وعندما أُتيح لهم باب الاستعارة، استغرب أيمن من شح وقلة إقبال الإسلاميين على القراءة رغم أنهم أصحاب مشاريع، وهذا للأسف آفة تعاني منها التيارات الإسلامية قاطبة، وقد ذكرها المقدسي وهو أحد أفراد بيعة الإمام الذي كان سجينًا مع العتوم أن بعض أفراد تياره لا يعرف إلا التزيي بالزي الأفغاني وإطالة الشعر والعكوف على الأناشيد بدلًا من أن يوطّنوا أنفسهم للمطالعة وقراءة الكتب وبحث المسائل الشرعية وجردها. [٨٥] وهذا الأمر نسبي بين التيارات الإسلامية، ولكن يبدو أن هذا التيار يُعاني أكثر من غيره، وذلك لأنه عندما أقام المقدسي دورةً في أصول الفقه واظب أفراد حزب التحرير على حضورها وتخلف عنه الكثير من أبناء تياره. [٨٦]

فالقراءة والمطالعة تزيدان من درجة الوعي ما قد يجعل الشخص مؤهلًا للتعاطي مع الواقع بالشكل الصحيح، ولكن إن انعدمت المطالعة، وقَدَّرت الأقدار أن يكون أحد هؤلاء الجهلة قليلي الاطّلاع والمعرفة أميرًا على جماعة يُقَدَّر عددها بالمئات أو الآلاف فماذا يعني هذا؟! يعني أن ألف رأس سوف تتم المقامرة بهم بأيدي قيادة غير أمينة أو مُتَخَلِّفَة كما وصفها المؤرخ عمر عبد الحكيم. [٨٧]

---

[٨٤] انظر: وصية إلى أمة الإسلام – صـ١.

[٨٥] انظر: إرشاد المبتدي إلى قواعد السعدي – صـ٥.

[٨٦] انظر: سلسلة ولكن كونوا ربانيين، الحلقة الثالثة عشر: قضية بيعة الإمام.

[٨٧] انظر: شرح كتاب حرب المستضعفين لروبرت تابر – صـ٣٤١.

وكذلك مما يجب التنبه إليه، وهي أن التيارات الإسلامية لا تتحمل بقاءها مع بعض في مكان واحد لفترة طويلة، ولو كانت الفترة قصيرة لربما استطاع كل طرفٍ أن يكف بأسهُ عن الآخر، ولكن قيادة التيارات الإسلامية تتصارع فيما بينها حول المنطقة الرمادية وهم الأتباع الذين يمكن كسبهم إلى صفهم وإدخالهم إلى الحق الذي يعتقدونه، فلذلك الصراع والمناكفة بينهم هي أشبه بما يكون بالأمر القدري، وهذا أمر تطرق إليه وذكره أيمن العتوم، ولكن مما يجب التنبيه إليه أن درجة الصراع بين التيارات الإسلامية في سواقة لم ولن تكن بنفس درجة الصراع الذي حصل بين الإسلاميين في سجن صيدنايا السوري فتلك قصة أخرى، تنبئك كيف يمكن أن تستثمر إدارة السجن الفرص من أجل أن تجعل هناك سجنًا داخل سجن وتجعل الهم هميّن! وكنت وما زلت أظن أن تجربة صيدنايا لم تأخذ حقها من الدراسة، هناك كتابات قصيرة ومختصرة كما صنع الدكتور مظهر الويس في كلامه عن أحداث ٢٠٠٨ داخل السجن وكذا الفلم الوثائقي لقناة الجزيرة لم يكن يَكفي، الأمر له أبعاد أخرى ترك أثرها حتى على الثورة السورية بعد خروج هؤلاء الإسلاميين، والاحتكاك الدائم لا يقتصر فقط على حدوث المناكفات اللسانية بل إلى الضرب، فقد حكى أفراد حزب التحرير وهو سالم العمرو مثلًا أن أبو محمد المقدسي قد كبَّ سلّة الزبالة على رأس عصمت شكري أثناء شجار حصل بينهما. [88]

وللشيخ المفكر عمر محمود مقولة جميلة وهي: «**أن لا تزيد إخوانك السجناء معك ألمًا، للأسف إن أعظم ما يلاقي السجناء في السجن هو أن بدلًا أن يكون السجين في سجن واحد يصبح في سجن داخل سجن بسبب من معه يؤذونه ويؤذيهم وحينئذ بدلًا أن يصبر على سجن واحد يحتاج إلى صبر وصبر وصبر وإلى تحمل أكثر مما هو فيه**»[89].

---

[88] سلسلة: مذكّرات السجن وشرفُ الصُّحبَةِ، الجزء الرابع.

[89] نصائح إلى الإخوة السجناء ونظرة في نفسية بعضهم – الدقيقة ٥:١٠، بتصرف.

وكذا يُستفاد من خلال ما حكاه العتوم من أن إدارة السجن أحيانًا تقوم بعقوبات لا مسوّغ لها ولأسباب تافهة، وحقيقةً هذه العقوبات لها سبب ولكن يبدو أنه غير ظاهر للكثيرين، وهو أن السجون عمومًا لم تصمم إلا من أجل قهر سكانها وإذلالهم وكسر كرامتهم والتحقير منهم، وإدارات السجون لا تريد أن تجعلك تعيش داخلها معيشة هنيئة، لأنك إن عشت مرتاحًا فغالبًا يعني أنك لن تهاب العقوبة وسوف تكرر الخطأ، فمن أجل ذلك لا بُدَّ من أن تعيش في جحيم حتى إن خرجت تخاف ألف مرة حتى لا يكون مصيرك الدخول إلى السجن مرة أخرى، لذلك إذا رأت إدارة السجن أن غالبية السجناء يعيشون بطمأنينة إلا وتحاول أن تكسر هذه الطمأنينة، بسبب تافه فإن لم تجد سببًا تافهًا اختلقت سببًا لا وجود له، فقط من أجل التضيق على السجناء وتجعل حياتهم جحيمًا.

وكذا قد ذكر أيمن العتوم أن زيارات والده هي من أسباب ثباتِهِ، وأن الاهتمام الخارجي به سواء كان من الأقارب والأصدقاء هو زاد ورِيٌ يُصبُّ على أرض الثبات، وقد سُجن أحد الأصدقاء ذات مرة، فكنت أرسل السلام مع أحد أقاربه إليه، وكنتُ في قرارة نفسي أعلم أن هذا السلام لا أثر ولا قيمة له على نفسية السجن، ولكن بعدما خرج من السجن، تكلم وذكر أن أثر هذا السلام كم يكون كبيرًا في نفسية السجين، لأنه عندما يسجن السجين يظن أن الكل قد تخلوا عنه، ولكن هذه السلامات تثبت أن هنالك من لم ينسوه، فلذلك فلا تحقر من المعروف شيئًا مع السجين!

١ يناير ٢٠١٨م – ١٤ ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

حياتي مع طالبان

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: حياتي مع طالبان.**
- **اسم المؤلف: الملا عبد السلام ضعيف.**
- **عدد الصفحات: ٣٩٦.**
- **دار النشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.**

التعليق والمناقشة:

تكمن أهمية هذه المذكرات كون كاتبها الملا ضعيف هو أحد المؤسسين الأحياء القلة لحركة طالبان، وكتابه يعتبر الوثيقة التاريخية الوحيدة التي تروي كيفية نشوء وتشكل الطالبان بعد الفوضى العارمة إثر سقوط الحكومة الشيوعية في كابل، وبسبب ضعف الكوادر وقلتها تنقل الملا ضعيف ما بين المؤسسات الحكومية وشغل عدة مناصب منها (كاتب في سلك القضاء) ثم (المسؤول المالي في محافظة هيرات) ثم (مديرًا في وزارة الدفاع الوطنية) ثم (نائب وزير المنجم والصناعة) ثم (سفير الطالبان في باكستان) وبعدها اعتقل في سجن (غوانتانمو).

ما يميز الكتاب عن غيره، هو أن غالبية الشخصيات التي سوف تمر معك في الكتاب وحتى الأماكن، سوف تجد ذكرًا موجزًا عنها في الهامش حتى ولو كانت شخصية تافهة أو كانت قرية نائية.

كما أن في نظري الشخصي ما يميز الكتاب أني لم أقرأ شهادة عن أفغانستان لقيادي جهادي إلا وكان عربيًا؛ مثل كتاب (ذكريات عربي أفغاني) و(ذكريات نجم الدين أزاود مع الجهاد الأفغاني) وغيرها، فكانت المفارقة أن هذه المرة أصبحنا نرى أفغانستان بعيون أفغانية باللغة العربية أخيرًا! فضلًا عن أن هذه المادة ليست مقالًا ولا تقريرًا بل سردًا مطولًا أشبه بالمذكرات.

ومصطلح «الطالبان» هو مقابل لمصطلح «طلبة العلم»، وكان لهؤلاء الطلبة مشاركة في الحرب ضد الغزو السوفيتي لأفغانستان، فليس صحيح أن كل قادة الطالبان إنما كانوا يدرسون في باكستان أثناء الغزو ورجعوا بعد الانتهاء من الغزو، وقد ذكر الملا ضعيف في الكتاب قصة فقد الملا عمر لأحد عينيه في أحد معارك قندهار متصديًا للروس وكان آنذاك الملا ضعيف موجودًا في نفس الموقع الذي حصلت فيه الحادثة، فأحيانًا رواية واحدة من مصدر قريب تقطع دابر الشائعات والأساطير.

والطالبان منذ قيامها كانت تربطها علاقة وثيقة مع جارتها باكستان أو كما يقول الملا ضعيف: «**باكستان والمخابرات الباكستانية تحافظان على علاقات وثيقة مع طالبان**»، وهذه العلاقة الوطيدة جعلت الكثير يقول أن الطالبان ليست إلا صنيعة باكستانية أو دميتها ربما أكثر من وطد هذا التصور هو ستيف كول صاحب كتاب (حروب الأشباح)، ولكن مجريات الأحداث في الكتاب تجعلك تستبعد هذا التصوّر؛ وذلك لأن الطالبان أنفسهم كانوا يتجسسون على باكستان وكانت سفارتهم وكر تجسس وكما يقول الملا ضعيف: «**وتمكنّا من توسيع شبكتنا من المخبرين في الحكومة الباكستانية ووزارتها**»، والمعلومات التجسسية كانت ترسل إلى الملا عمر، فلم تكن هناك ثقة في باكستان، فضلًا عن عدم انصياع الطالبان لبعض طلبات باكستان كتسليم المطلوبين ونحو ذلك، وهذه أمور لا تحصل من العميل تجاه سيده!

وباكستان تُدار من الاستخبارات العسكرية، وهذه الاستخبارات لديها أكثر من وجهة، ويتلونون كتلون الحرباء، فهنالك أجنحة استخباراتية أحيانًا تعمل بشكل متعارض، فجناح يدعم الجهاد، وجناح يضرب الجهاد، ففي الأولى يكون هذا الدعم من أجل إرجاع حليف إلى سدة الحكم في أفغانستان بدلًا من الحكومة الحالية التي لها علاقة وطيدة مع الهند عدوة باكستان التاريخية، وفي الثانية حتى يواجهون العالم الخارجي بأن لنا جهود فعلية ضد الإرهاب، ولكن قبل أسبوع فقط إنزعج ترامب من هذه الازدواجية وقطع المعونات العسكرية عن باكستان.

في الكتاب سوف يبين لك المؤلف مدىٰ هيمنة وسيطرة وتوسع الاستخبارات الباكستانية علىٰ السلطة في باكستان بغض النظر عن الرؤساء الذين توالوا، وكذلك مدىٰ تجذرها في بعض الأماكن وتوسعها إلىٰ أماكن بعيدة.

كما أن من فوائد الكتاب تبيّن لك كيف يرتقي أو ترتقي الجماعة من عقلية «حزب» أو «تنظيم» إلىٰ عقلية «دولة» فالخيارات هنا تكون أكثر اتساعًا، وتلجئك أن تكون أكثر مرونةً، فبعض الدول تكرهها وتكرهك وبينك وبينها مشاكل ونزاعات ولكن تضطر رغم أنفك أن تتعامل معها إن أصبحت دولة، لأنها من الدولة الحدودية معك والتي من خلالها تدخل وتخرج البضاعات، فمقاطعة هذه الدولة يعني إضعاف الاقتصاد الداخلي لديك ثم سخط الناس عليك ثم تمردهم في النهاية، فكثير من الناس لا يفهمون أو لا يضربون للصراعات الأيديلوجية اعتبارًا وإنما يضعون اعتبارًا لكسرة الخبز، وبما أنك السبب في منعهم إياها، فأنت الملام وإذا كان بقاؤك علىٰ الحكم يعني استمرار حرماننا فلا بُدَّ أن تذهب ويأتي من يأتي بالفرج!

أيضًا سوف تضطر رغم أنفك أن تستعين ببعض رجالات النظام القديم، فالجماعات والتنظيمات أفرادها قليلون، وهؤلاء القلة لن يستطيعوا أن يسدوا عادةً جميع المناصب في الدولة، وإن احتلوا إدارتها كوزراء، ولكن كيف تسيّر العمل؟ كيف تدير وزارة هل تبدأ من الصفر مع أشخاص لا خبرة لهم أم تقطع شوطًا بإرجاع الكثير من المسؤولين القدامىٰ لدفع عجلة العمل إلىٰ أن تزيد خبرة العاملين الجدد ثم تستبدلهم؟ وستضطر أيضًا أن تتواصل مع الدول حول تأشيرات وبعض قضايا مواطنيك القاطنين فيها.

هذه أمور قد تكون مفهومة بالسليقة ولكن أحيانًا من الصعب استيعابها وتقبلها عند بعض العقليات ضمن العمل الاسلامي التي ترىٰ أن هذه المرونة المفروضة عليك واقعًا كونك تبوأت مسؤولية الدولة تتعارض مع المبادئ وبعض العقائد تجاه الكفار والدول الكفرية!!

وذكر الملا ضعيف أنه حصلت هنالك مفاوضات ما بين الطالبان وأحمد شاه مسعود، فشدد الطالبان حول قضية توحد القرار العسكري دون أن يكون لمسعود سلطه تقاسمهم فيه حتى لا يحصل هنالك نوع من التشتت في القرارات أو التضارب وإنما قرار واحد صادر من قيادة واحدة، ولكن في المقابل الأمر الذي أسقط الطالبان في ما بعد هو عدم حمل المجاميع الجهادية المتناثرة في بلادهم وبالأخص التابعة لهم على الانصهار والخضوع لسيادة الطالبان، فتصرف هؤلاء بشكل مستقل عن الدولة التي كانوا يقيمون فيها، فأعلنت بعض المجاميع الحروب على دول وشنت هجمات عسكرية على دول دون الرجوع إلى الطالبان!

وهذا ينبئك على قضية محورية، وهي عندما تقوم الدولة الإسلامية يجب أن تنصهر التنظيمات الإسلامية فيها، ولا يكون هنالك قرار ولا سيادة إلا لرئيس الدولة، فهو الذي يسن العلاقات مع بقية الدول سواء كان نوع هذه العلاقة علاقة حرب أو سلم ولا يصح أن يفتات عليه تابعوه ويتجاوزوه ويشنوا الحروب والمعارك وهو آخر من يعلم!

ولكن إن أردنا الكلام أكثر تحديدًا عن ١١ سبتمبر، فالملا عمر أذن بتنفيذ عملية، ولكن الخطأ في تفسير هذا الإذن، فالملا عمر طلب عملية ضد اليهود، ولكن المنفذ نفذها ضد أمريكا بحجة أنه لا يوجد هنالك فرق بين اليهود وأمريكا وأن كلاهما وجهين لعملة واحدة، فحصل هنالك تفسير زائد عن المطلوب، فضلًا أن عملية الإعداد للعملية كانت قبل أن يأذن الملا عمر، فيبدو أن العملية سوف تُنَفَّذ أَذِنَ أو لم يأذَن، وهذه تفاصيل تجدها في رسالة (القصة غير المروية لأحداث ١١ سبتمبر).

والطالبان رغم أنها عارضت العملية ونددت بها، إلا أنها فضّلت الحرب على الانصياع وخرق سيادتها، ورفضت أمريكا محاولات الحوار وأصرت على الحرب وها هي الآن تحرص على الحوار وخصومها في أفغانستان يحرصون على الحرب، فهذه هي عاقبة التكبر والغرور... فقُتل أسامة بن

لادن ولم ينته ما تسميه أمريكا «الإرهاب»، وقضت على جيل من الطالبان فخرجت من بعدهم أجيال! حُرِمَت القاعدة من الملاذ الآمن في أفغانستان فخرجت لهم فروع في اليمن والشام والعراق والمغرب والصومال ومالي، حاولت أن تقضي على كافة الجهاديين في أفغانستان وتنهيهم بالقتل والاعتقال والتنكيل فتكاثروا أكثر وأكثر؛ تشعر أن كل السبل نهايتها عكس المراد.

وسوف ترى في الكتاب أن التمحيص الحقيقي لم يكن في الغزو الروسي، لأن الكثير من المنتفعين والانتهازيين قد ركبوا الموجة من أجل الثراء والدعم السخي، وإنما التمحيص الحقيقي حصل مع الغزو الأمريكي الذي وقفت دول العالم كلها معه وشحت الأموال وزلزل المؤمنون زلزالًا شديدًا!

وكسوف ترى في الكتاب كذلك ازدواجية ومدى الحيادية المزعومة لمؤسسات دولية مثل الأمم المتحدة، ففرانسيسك ڤيندريل يتكلم وكأنه ممثل أمريكا وخادم مصالحها فيسعى خلف ما تطلبه أمريكا من الطالبان مثل تسليم بن لادن ونحو ذلك، ويلوح بعصى التهديد، ويقول إما أن تقبلوا بالطيب وإلا سوف ترضخون بالقوة. ونسى هذا الممثل حتى البرتوكول الذي يقضي بوجود اتفاقية تسليم الأسرى بين الطرفين فلم يضع اعتبارًا لذلك؛ وكأن الأمر بَلطجة.

الأمر لم يقف عند عدم الانحياز، بل كانت هذه المنظمات غطاءً تجسسيًا لصالح هذه الدول، فعندما سقطت قندهار ذهب الملا ضعيف إلى مكتب تنسيق الشؤون الاجتماعية للأمم المتحدة لطلب اللجوء، فلم يسأل أسئلة عادية كالتي يسألها عادةً الموظفون هنالك لطالبي اللجوء بل بدى الأمر كأنه تحقيق ما، وذكرت له المرأة العاملة بعدما تعذر الأمر أن هنالك أسئلة أكثر في انتظارك فيما بعد، فيقول الملا ضعيف لما وقعت أسيرًا بين يدي الأمريكان تذكرت كلماتها وفهمت معانيها! وكذلك إلى الحادثة التي حصلت بين الملا ضعيف وموظف الصليب الأحمر في سجن غوانتانامو، من المعلوم أن بعض الدول عندما تريد أن تجمع المعلومات من الخارج تعمد إلى بث جواسيسها تحت غطاءات

معينة مثل العمل ضمن المنظمات الاغاثية والاقتصادية [٩٠] ولا يعني هذا الأمر بالضرورة أن كل الموظفين العاملين في هذه الهيئات جواسيس.

والأمر الآخر أن للإعلام له أهميّة كبرىٰ في تزييف الحقائق أو حتىٰ إثباتها، ولا شك أن أي جماعة أو دولة تُهمل هذا الجانب فهذا الأمر يعد نعمة كبيرة جدًا لصالح خصومها وأعدائها، الذين سوف يخوضون حربًا بلا منازع في ميدان الإعلام! وأبرز من نصح الطالبان بجبر الكسور في هذا الجانب هو مصطفىٰ حامد.

وطبعًا رأىٰ الكثير مقطع الفيديو للطالبان في ملعب كرة وهم يعدمون امرأة، والكل استبشع هذا المقطع، وبما أنه لم يجد هنالك ثمّة توضيح فعدُّ ذلك بمثابة المثلبة بحق الطالبان، وقد ذكر الملا ضعيف قصتها، وهي امرأة قد قتلت زوجها وقد جرت العادة في أفغانستان أن أحكام القصاص تنفذ علىٰ أيدي أهالي المقتول، فأُقيم حد القصاص بحقها والتصوير لم تقم الطالبان به وإنما أحد المتطفلين، ولكن فجأة انقلبت العدالة إلىٰ مَظلمة، فأصبح مطبقي العدالة هم الجناة، كل هذا بسبب إهمال الإعلام، ولكن الكأس الفارغ من الموضوع هو أن الأمم المتحدة قد أصدرت حكمًا مُسبقًا دون معرفة التفاصيل أن الطالبان قد أصبحت تقتل النساء الأبرياء دون أن تكلف نفسها وتسأل ما سبب القتل ومن الذي قتل؟! وهذا يعطيك نماذج متعددة وواضحة حول أهمية الإعلام أولًا، وهي حيادية هذه المؤسسات ثانيًا، وأهمية السماع للأطراف المتنازعة جميعًا قبل الحكم ثالثًا.

أيضًا الحديث عن قسمين من الطالبان متشدد ومعتدل، قد يُكره البعض ذكر ذلك لأن هذا يؤدي إلىٰ تقسيم الحركة وإيجاد ثغرة يدخل منها العدو من أجل جعل البأس بين الأصدقاء ليتحولوا إلىٰ فرقاء، وإن كانت هذه حقيقة واقعة، فهنالك توجهين في الطالبان علىٰ الأقل قبل أحداث سبتمبر، يقول المؤرخ عمر عبد الحكيم عن الطالبان والذي كان مقربًا منهم:

---

[٩٠] مجلة البتار، العدد: ٢٠، صـ٣٠. وانظر أيضًا: سلسلة صناعة الإرهاب، الدرس (٤).

«نذكر أن الغالبية ومنهم أمير مؤمنين وكثير من الكمندانات (القادة) والوزراء وهذا الجناح مؤيد للعرب، ومؤيد للمبادئ، ومؤيد للجهاد وعالمية الحركة، كذلك يجب أن نذكر أن هناك جناح آخر موجود وأصبح يمتد وكل يوم يكسب أشخاصًا. هذا الجناح يرى إقليمية أفغانستان والاهتمام ببناء دولة أفغانستان الإسلامية وحكمها بالشريعة وتحويلها إلى ما يشبه السعودية يعني دولة محدودة تطبق الشريعة، تقطع الأيدي وتجلد ولكن لها علاقات مع الأمم المتحدة وعلاقات مع النظام العالمي ولها اتصالات مع كل الدول الطاغوتية، تتبادل معهم الزيارات وتتبادل التهاني بالأعياد الوطنية، وتفتح المجال للمنظمات الغربية لكي تأتي وتساعد أفغانستان، وإذا كان ثمن هذا وَقْف كثير من قضايا الدعوة والجهاد ووَقْف كثير من مساعدة الإخوة الجهاديين من الدول المجاورة (أوزباكستان، تركستان، طاجكستان) أو العرب أو حتى إخراج العرب فلا بأس؛ ولكن لا أحد يقول بتسليم العرب نهائيًا؛ لأن هذا يتناقض مع العرف القبلي ومع الشرف الأفغاني فضلًا عن الشريعة، ولكن يقولوا نخرجهم، ويعتبرونهم بلاء يحول بينهم وبين إعمار أفغانستان، وهذا الجناح بدأ يكبر»[٩١].

أيضًا ذكر الملا ضعيف قصة تلك المرأة المتدينة التي التقىٰ بها علىٰ الطائرة والتي كانت تنفق نصف راتبها لدعم الطالبان، وكيف أن الشك بالله قد بدأ يدب في قلبها بعد أن سقطت كابل فأصبحت تتسائل: «يا ترىٰ أين الله عما يحصل ولماذا حصل لهؤلاء المجاهدين هذا؟!» وقد ذكرنا الجواب علىٰ ذلك في مناقشة سابقة، كما أن الغلبة المادية ليست بالضرورة دليلًا علىٰ صحة معتقد الغالب ولا يدل كذلك علىٰ بطلان معتقد المغلوب! فالهزيمة والنصر العسكري ليست ميزانًا لازمًا لتصحيح أو تخطئة معتقدات المتصارعين، فالأنبياء قد قتل بعضهم علىٰ أيدي أعدائهم، فلم يُصبح أعدائهم هم المحقين بمجرد غلبتهم وقتلهم الأنبياء، وكذلك أصحاب الأخدود، وكذلك المصلحين في تاريخ أمتنا أمثال الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن الأشعث وغيرهم، فعدم تحقق مطالب هؤلاء وظهور أعدائهم عليهم لا تعني أنهم علىٰ باطل وأن مطالبهم خاطئة، وأن علّة هذا التفاوت

[٩١] جلسة مع شباب الجزيرة – صـ١٧.

وتداول النصر والهزيمة دون أن يكون هنالك نصر دائم للمسلمين أو هزيمة دائمة للمسلمين، فالأمر كما حكىٰ ابن القيم: «**حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يُدالوا مرةً ويُدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا، يدخل معهم المؤمنون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق**»[٩٢].

كما أن نسبة القتل لا تحدد دائمًا هوية المنتصر، ففي الغزو السوفيتي علىٰ أفغانستان قد قتل ١٣،٨٣٣ ألف جندي سوفيتي مقابل مقتل ١.٣ مليون أفغاني [٩٣] ولكن في النهاية انتصر الأفغان علىٰ السوفيت!

كما أن من الأخطاء التي ارتكبها الملا ضعيف هو عدم فِراره عندما تسّنت لهُ الفرصة بعدما بدأ الخناق يضيق عليه إلىٰ أن وصل إلىٰ مرحلة المحاصرة والإقامة الجبرية حيئنذ تسنىٰ للباكستانيين اعتقاله بسهولة، وفي هذه الظروف لا ينفع أن يقول الشخص أنا لم أرتكب جرمًا فلا داعي للخوف، فمن ذا الذي يقول أن هذه الحرب لا تصيب ولا تؤذي إلا من له جُرمًا - كما يزعم البعض - وتستثني البريء؟! فالمدنيون الذين أُبيدوا في أفغانستان ولا علاقة لهم لا بالقاعدة ولا طالبان دليلٌ حيٌ ومباشر علىٰ ذلك، فإن كان البريء الذي لا ذنب له يُستهدف فكيف يُستثنىٰ من له ارتباط وممثل مباشر للفئة التي يتم استهدافها؟!

وأيضًا ذكر الملا ضعيف عرض الأمريكان عليه إما أن يذهب إلىٰ كوبا ولن يعود إلىٰ أفغانستان أبدًا وإما أن يقبل أن يكون عميلًا للمخابرات الأمريكية وأن يعود فورًا إلىٰ منزله، وأن هذا العرض هو الفرصة الأخيرة، فرفض الملا ضعيف هذا الأمر، وقال قبول هذا العرض أو هذا الطلب سوف

---

[٩٢] زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١٩)، ط:مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية.

[٩٣] يوميات من خط النار لهاشم أهلبرا – صـ٨٢، ط:الدار العربية للعلوم ناشرون.

يجعلني عبدًا لهم إلى الأبد، وتمنى أن ينقل بأسرع وقت إلى المعتقل ولا يقبل هذا الطلب، فالشخص يستفيد إن عرض عليه أو عرضت عليه أجهزة المخابرات التعاون مع الكفار ضد إخوانه المسلمين أو أن يتعرض للعقاب يجب عليه أن يحرص على أن ينال عذاب الدنيا بدلًا من أن ينال عذاب الآخرة، فهذه العروض أشبه بعروض الدجال، جنتها نار ونارها جنّة.

تكلّم الملا ضعيف أيضًا عن قضية الجواسيس في سجن غوانتانامو، ومما يجب التنبه إليه أن كل سجناء غوانتانامو الذين بلغ عددهم على امتداد السنوات بالمجموع ١٠٣٠ سجين، فهؤلاء ليس كلهم لهم توجّه جهادي أو مرتبطون بأنشطة إرهابية كما تقول أمريكا، وإنما الدائرة تتوسع حتى تشمل معتقلين إسلاميين آخرين ليس لهم التوّجه الجهادي وإنما اعتقلوا لأنهم كانوا يعملون في المجال الإغاثي مثل حفر الآبار ونحو ذلك في أفغانستان [٩٤]، وكذلك تتوسع الدائرة حتى نقول أن ليس كل معتقلي غوانتانامو سنة بل يوجد بينهم شيعة [٩٥] وهم قلة وتتوسع الدائرة أكثر فأكثر فنقول أن ليس كل معتقلي غوانتانامو مأدلجين ولهم توّجه معين وإنما يوجد من بينهم عوام تم بيعهم للأمريكان مقابل حفنات معدودة بالتبلي عليهم والادعاء أنهم إرهابيون.

هذا الكمّ الكبير من الناس الذي جاوز ألف معتقل ليسوا على توجه واحد ولا تيار واحد ولا مذهب واحد، فليس كل من دخل غوانتانامو يعني بالضرورة أنه صاحب قضية وأنه شخص شريف، كل هذه المقدمات حتى لا تتفاجأ إن علمت أن هناك بينهم جواسيس، فهذه النماذج موجودة رغم أن الغالبية الأعم هم الإسلاميون الذين لم تغيرهم الأهوال.

والجواسيس هؤلاء على ضربين، الأول: لم يكونوا جواسيس وإنما أصبحوا كذلك في معتقل غوانتانامو، والضرب الثاني هم جواسيس أرسلتهم بعض الدول إلى أفغانستان ولكنهم اعتقلوا

---

[٩٤] انظر على سبيل المثال: اللقاء مع المعتقل السابق في غوانتانامو عادل الزامل.

[٩٥] انظر: القيود المحطمة لعبد الرحيم مسلم دوست – صـ٣١١.

ضمن الحملة الأمريكية ولم يصدقهم أحد أنهم مُرسلين من قبل بعض الدول فبقوا على مهنتهم في غوانتانامو ولكن مع تغير السيّد.

كما يجب التنبيه على بعض العروض التي كانت تُعطى للمساجين من بعض رجال الأعمال مقابل الاعتراف، فبعض هؤلاء عرض عَرضًا على الملا ضعيف قائلًا: سوف أعطيك خمس ملايين دولار مع سيارة وسوف تصبح الرجل الأغنى في أفغانستان مقابل أن تتعاون وتجيب على أسئلتنا، والدليل على أن هؤلاء كذبة وهي أن الجواسيس الذين تعاونوا معهم وأصبحوا أداة في أيديهم لم يحصلوا على هذه الجوائز، ولو كانوا صادقين على أن المتعاون ينال هذا لنالهُ المتعاونون السابقون.

كما تكلم الملا ضعيف عن المعتقلين الذين فقدوا عقولهم، وهؤلاء أيضًا أصناف، منهم من فقد عقله بسبب الحالة النفسية وأما الثانية فبسبب العقاقير التي كانت تُعطى لهم، والثالثة: بسبب السحر [٩٦].

ذكر الملا ضعيف بنود إطلاق السراح من معتقل غوانتانامو منها الإقرار بالجريمة وشكر أمريكا لغفرانها ذنوبه والسماح له بالخروج...إلخ، من الغريب حقًا أن بعد كل هذا التعذيب والتنكيل والمرارة يطلبون من ذاق هذا كله أن يشكره، فعلًا إن لم تستح فاصنع ما شئت.

من الاقتباسات الجميلة: «**لا يستطيع أحد رد السيف بالسلام، ولا غسل الدماء بالماء، فلا يرد على السيف إلا بالسيف، ولا يَردُّ على السلام إلا بالسلام**».

١٠ يناير ٢٠١٨م – ٢٣ ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

[٩٦] انظر: لقاء شاهد مع العصر مع وليد محمد الحاج، الحلقة الثامنة، قناة الجزيرة.

خلف الأسلاك الشائكة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: خلف الأسلاك الشائكة.**
- **اسم المؤلف: ياسر البحري.**
- **عدد الصفحات: ٣٤٤.**
- **دار النشر: طبعة خاصة.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (خلف الأسلاك الشائكة) لياسر البحري. طلب مني أحد الشباب قراءته ولكني لم أتحمس، فياسر البحري اسم مغمور، والشخص دائمًا يتوجس من الأشخاص الذين لم يَذع صيتهم، ولكن ما إن قرأته حتى غدوت وكأنني أركض في الكتاب!

أسلوبه في الكتابة رائع رغم أن هذه تجربته الأولى في التأليف، وأبرز ما يميز أسلوبه هو التهكم في ثنايا الكلام، ورغم أنك تعرف مجرى القضية سَلفًا إلا أنه استطاع بجدارة أن يحبس أنفاسي عند سرده لتفاصيل المحكمة! وهذا أسلوب لا يحسنه إلا الكبار الذي يُحسنون ما يكتبون!

مضت ٣ شهور تقريبًا مع أدب السجون، ولكن هذا الكتاب له مزية تميزه عن البقية، وهي أن التجربة التي حصلت لياسر - حسب علمي المتواضع - تعد فريدة، فالكل كتب عن تجربته في السجون العربية أو السجون الأمريكية العسكرية (غوانتانامو)، ولكن لا أذكر أني وجدت كتابًا لكاتب عربي يتكلم عن تجربته داخل السجون الأمريكية في أمريكا نفسها.

ولكن حتى لا نُطيل، قصة الكتاب تستطيع أن تقول أنها مقاربة لقضية السعودي حميدان التركي: «هل تقبل أن تصبح عميلًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي؟» الجواب: «لا»، إذن انتظر القضية التي

سوف تأتيك، القضية التي وجهت له هي الاغتصاب، وفي ثنايا الكتاب سوف ترىٰ كيف تتم لعبة القط والفأر ما بين المحامين وألاعيبهم والشرطة وقوات إنفاذ القانون وألاعيبهم.

وأكثر ما شدني في الكتاب هو تذليله لبعض التعقيدات القانونية أو ما يسمىٰ بإجراء التحاكم في المحاكم المدنية الأمريكية، فالكتاب يعطيك تصورًا سلسًا لواقع معقد، مثل قضية كيف تكون إجراءات الترافع وكيفية النطق بالحكم وما هو دور القاضي وهيئة المحلفين، فتكتشف في النهاية أنك تحت رحمة عاطفة أشخاص مهما كانت حجتك قوية وأدلتك لا غبش فيها!

سوف أُبَسّط الصورة: في أمريكا وفي بعض القضايا الجنائية لا يقضي القاضي إلا بسير المحكمة، من الذي يحكم؟ هم هيئة المحلفين، وهؤلاء أشخاص يستدعون من الشارع برسائل عشوائية (SMS)، فيأتيك بائع الخضروات ومصلح الأحذية والسبّاك حتىٰ يحكموا عليك دون أي خلفية قانونية.

يقولون نفعل ذلك حتىٰ نضمن أن القاضي لن يكون متحيزًا، ولا بُدَّ أن يتفق هؤلاء جميعًا علىٰ الحكم، فلو اتفق الأغلبية خلا واحد فلا يُنطق بالحكم فلا عبرة بالأكثرية وإنما بالإجماع، ولكن هيئة المحلفين حكمت علىٰ ياسر بأنه مذنب في كل القضايا بسبب نظرتهم وحكمهم المسبق عنه أنه شخص عربي، وفي نظرتهم كل عربي إرهابي! وضربوا بالأدلة عرض الحائط.

فهناك ثغرة في الجانب القضائي، فالتحيز قد يوجد عند القاضي كما أنه يوجد عند هيئة المحلفين، فـ«مثل ما رحتي جيتي» ويدل علىٰ ذلك ما قاله الزنجي متهكمًا عندما سُئل: «**هل تمت تبرئتك؟**» فقال: «**هل يوجد شخص ملون في أمريكا يخرج براءة؟!**» وهذا يَدلّ علىٰ أن هيئة المحلفين ليست هيئة نزيهة تضمن نزاهة القضاء وضمانته من التحيز، بل قد يكونون أشخاصًا لهم أحكام مسبقة وتصورات نمطية مغلوطة!

وذكر تركي حميدان التركي في لقاء مع روتانا الخليجية أن العبرة لدى هيئة المحلفين هي الاستعطاف، وأن معيار الحكم لا قوة الأدلة بل مدى قدرتك على استمالتهم عاطفيًا، فالعاطفة هي الفيصل لا الأدلة الجنائية ولا المخبرية ولا هم يحزنون!

كما أن أجواء الكتاب غير مستقرة بل متقلبة وأحيانًا تقلبك رأسًا على عقب، ومن ذلك كيف أن ياسر كان مجرد سجين بسيط عادي للتو دخل السجن ثم بعد أيام دون مقدمات أصبح أميرًا على المسلمين وبيده عقد هدن ورفع لواءات الحرب مع العصابات الأخرى!

وأريد التنبيه فقط على قضية الإمارة في السجن، هذا أمر جَرت عليه العادة للإسلاميين في الدول العربية ولكن توسّع الأمر حتى شمل الدول الغربية (أوروبا وأمريكا) والشرقية (روسيا والقوقاز وآسيا الوسطى)، وتأصيلهم الشرعي للإمارة داخل السجن هو قياس حالهم على حديث: ((إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا عليكم أحدكم))، فقالوا وكذلك في السجن.

والأمير هو المُخوّل بالتواصل مع إدارة السجن والمساجين الآخرين، فلا تحتاج إدارة السجن أن تحدث وتتفاوض مع كل السجناء الذين تحته بل تفاوضه هو نيابةً عنهم، ولا يُشترط أن يكون الأكثر علمًا بين الإسلاميين هو الأمير عليهم، بل الأشد هيبةً والذي يُحسن الإدارة، فلذلك ترى أن المشايخ ينزلون تحت إمارة تلاميذهم في الكثير من الأحيان. فهي إمارة قاصرة داخل السجن، وليست إمارة عامة (أي مثل حاكم البلد أو نحو ذلك)، فأنت عندما تجعل أحد الثلاثة معك في السفر أميرًا عليكم فهذا لا يعني أنك نقضت بيعة ولي أمرك «الشرعي»، فتنبه!

الجانب الأكثر إثارة في الموضوع، هو أنك تعيش أجواء السجون الأمريكية بلا رتوش، أو لنقل تعيشها بشيء كثير من الواقعية، والسجون الأمريكية تقتسمها العصابات، وينقسمون حسب العرق، (البيض، السود، اللاتين) هؤلاء الثلاثة في حروب دائمة مع بعضهم، ولكن الإعلام لا يصور أو لا يريد أن يصور أن هنالك طرف رابع في المعادلة وهم المسلمين، فهؤلاء ليسوا عصابات

ولكن يتم التعامل معهم على هذا النحو لأنهم أشخاص منظمين ولهم أمير وأعوان وأتباع مستعدين لتنفيذ ما يقوله الأمير.

الكتاب ذكر حادثة كانت سوف تحصل بسببها حرب شاملة ما بين المسلمين واللاتين بسبب ساعة تمت سرقتها من أحد المسلمين، فالكل جلس يحشد، وركب ياسر المنبر وأعلن الجهاد!!! فسمعت بذلك العصابات اللاتينية فتوحدوا تحت راية واحدة، وسمع بذلك السود فدخلوا مع المسلمين نكايةً باللاتين، وبدأت بحفر الأراضي واستخراج الأسلحة، ولكن ياسر خاف في اللحظة الأخيرة وأرسل رسالة سرية إلى إدارة السجن بأنه ستكون هناك مجزرة غدًا، فقامت الإدارة واعتقلت الرؤوس وتوقفت الحرب!

الطريف أن العصابات اللاتينية أو حتى السود متعاطفين مع أي شخص ضد أمريكا، فابن لادن بطل قومي لديهم، فلما رأى ياسر هذا الأمر وأنه العربي الوحيد، أراد أن يركب الموجه فقال للناس ترى ابن لادن ابن عمي، فوجهت له تهمة الانتماء للقاعدة.

والمضحك في الأمر أن عصابة (MS-13) اللاتينية العالمية، رئيسها على مستوى ولاية فلوريدا يضع صور ابن لادن على منتجاتهم عالية الجودة دلالةً على قوة جودة المنتج، وجلس هو وياسر معًا في الانفرادي وأخبره أني أنا مسلم ولكن بالسر لأنه لما أشهر إسلامه خيّرته العصابة بين القتل والرجوع عن الإسلام، فاختار الرجوع عن الإسلام ظاهرًا ولكن لا يزال مؤمنًا به!! وهناك من وضع وشم ابن لادن على جسمه، والكثير من الذين أسلموا سموا أنفسهم بأسماء مثل: القذافي والزرقاوي وصدام حسين، لأنهم يعتقدون أن كل شخص معادي لأمريكا فهو شريف.

ثم بدأ ياسر بالدعوة وجلب الكتب الإسلامية إلى السجن فأسلم قرابة المئتي شخص على يده، وهناك إقبال على الإسلام بسبب أن المسلمين لا يعادون من ينتمون إلى العالم الثالث لبشرتهم المغايرة مثل السود أو اللاتين، وعدم التوجه العنصري تجاه الآخر قد يكون سببًا كبيرًا لدخول الإسلام من

قبل هاتين القوميتين، وذكر ياسر في الكتاب أن أكبر رئيسي عصابتي سود على مستوى فلوريدا في السجن أسلما على يده بعد أن دخلا في حروب بينهما امتدت لسنوات، ثم أتى أحدهما برئيس عصابة سوداء ثالثة وأسلم على يده، وهذا الحديث الكبير جعل أتباع هذه العصابة كلهم يطلبون القرآن والكتب الدينية! فسمى ياسر هذه الحادثة بـ«حادثة الأوس والخزرج»، في الكتاب أيضًا تستفيد من عنصرية أمريكا – رغم أن القوانين تنص على المساواة – فالمقولة المأثورة تقول لكل قانون واحد تفسيران، واحد للبيض والبقية لغيرهم، فالجريمة واحدة ولكن تنزل بالأبيض أقل عقوبة لها وتنزل بغيره أشد عقوبة لها.

واستطرد ياسر كثيرًا في بيان هذه المظالم التي تقع على غير البيض مثل قصة ذلك السجين الأسود الذي لم يبق له سوى أربعة أشهر ويخرج فاختلق له السجان الأبيض تهمة حكم على إثرها بثلاثين سنة!، واستطرد أيضًا في الكلام عن بعض الأمراض النفسية التي تنتاب بعض المساجين (هناك فئة من المساجين لديهم مرض نفسي أنهم كلما رأوا الجنس الآخر يصبحون وكأنهم منومين مغناطسيًا)! وانتهى الكتاب بفصل من المفترض أن يسمى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)، وأسلفنا الذكر أن الجلاوزة والجلادين في السجون تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى! والكل يريد أن يكيد بالآخر حتى يصعد على ظهره، وأي شخص يتعاطف مع السجناء فهو عرضة لأن يركب الآخرون على ظهره، عيّنت إحدى الفتيات مديرةً في المنبر وهذه الفتاة كانت تعمل في محل ياسر للقهوة قبل الاعتقال، فكانت تسدي جميل المعاملة الحسنة التي كان يعاملها فأصبحت تسرب له الكثير من الأمور في الخارج مثل الدخان ونحو ذلك، فقال له مدير السجن نريدك أن تعمل كمين لها تضع الكاميرا خفية ولاقط صوت وتصورها وهي تدخل لك الممنوعات، فرفض ذلك، فتعرض لحفلات تعذيب وبقى على إثرها في الانفرادي عاريًا دون أي شيء مع حفلات تعذيب من حين إلى آخر لأنه رفض ذلك.

ولكن الأمر الذي لم أفهمه حتى نهاية الكتاب أنه لماذا لم يستأنف الحكم؟ الكتاب جميل جدًا وأعجبني للغاية حتى أني سألت هل للأخ ياسر كتب أخرى خصوصًا كونه كان يدرس دكتوراه في الفلسفة؟ فقيل إنه تحت الطبع.

١٦ يناير ٢٠١٨م - ٢٩ ربيع الثاني ١٤٣٩هـ

نقد كتاب في الشعر الجاهلي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: نقد كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين.**
- **اسم المؤلف: علي الوردي.**
- **عدد الصفحات: ٢٤٤.**
- **دار النشر: دار الوراق للنشر.**

التعليق والمناقشة:

الكتاب ليس من وضع الدكتور علي الوردي وإنما من وضع (صباح جمال الدين) وهو قد استلَّ فصوله من أحد كتب علي الوردي وهو (أسطورة الأدب الرفيع) والتي كانت تتكلم عن الشعر الجاهلي بعمومهِ والرد على الدكتور طه حسين خصوصًا، فجمعها في كتاب واحد وفي سياق واحد.

علي الوردي يُحسن أن يصيغ الفكرة بشكل مبسط، ويغلب على أسلوبه النقد اللاذع، أي أنه ليس شخصًا تقليديًا في التعاطي مع خصمه، وأشعر أنه يتلذذ بالسباحة عكس التيار. وأن الشخص الذي ليس لديه خلفية عن المواضيع التي يتكلم عنها الوردي فسوف يُبتلع! هذا انطباعي الأول عنه بعد قراءتي أول كتاب له.

لن نعيد نفس السِّيمْفُونِيَّة حول معركة الشعر الجاهلي التي بدأها ما يسمى بعميد الأدباء العرب طه حسين ومن دخل فيها من العمالقة والكبار، ولكن رد علي الوردي -أيضًا- رد استثنائي فلم ينجرف مع نظرية طه حسين ويتماهى معها، بل قال أن أصلها خاطئ، فالافتراق ما بين الشعر الجاهلي والقرآن في بيان حياة الجاهليين له أصل معتبر، وهو أن الشعر الجاهلي قد حَكى الصورة النمطية في البادية والتي عايشتها القبائل، بخلاف القرآن الذي يصور لك واقع مكة وقريش ونمط حياتها

المخالف في الكثير من جوانبه للقبائل في الصحراء، فهذا الافتراق ليس سببًا مؤذنًا لسقوط الشعر الجاهلي ودليل على انتحاله!

ولكن عيب علي الوردي هو استخدامه لبعض صيغ التمريض في الرواية، (حكى - روي)، وكنت أظن أن هذا الأسلوب ليس متعمدًا أو ربما جَهلهُ، ولكن تأكيده في خاتمة الكتاب على أساليب الجزم أوحى إلي أنه استخدمها عن قصد، وهذه الأساليب هي خطوط رجعة فتراه يورد النقل المغلوط وإن رُجع قيل: لم أوردها للاحتجاج!

ومن ذلك:

- حكايته أن بعض سادات قريش كان يفعل بهم اللواط أو كانوا شواذ، وهذا الإيراد لا ينهض أمام النقل الصريح، فقد قال ابن كثير: «**والمقصود أن مفسدة اللواط من أعظم المفاسد، وكانت لا تعرف بين العرب قديما كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم. فلهذا قال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا**»[٩٧]، وهذا دليل أن العرب لم تأنف هذا النوع من الفاحشة بخلاف معاشرة البغاء ونحو ذلك.

وكذلك من مثالب علي الوردي، هو يظن أن ما ليس بلازم لازم!

في حديثه عن أصل قريش وأنها لا ترجع إلى عدنان في الصحيح بل استدل بمقولة الإمام علي وأنها ترجع إلى (نبط كوثى) وكوثى من العراق، بينما عدنان في إقليم الحجاز! وظن أن هذا تعارض، بينما ليس من التعارض بل الإمام علي هنا يتحدث عن أصل النسب وهو راجعٌ بالضرورة إلى نبي الله إبراهيم الذي ولد في العراق وعدنان هو من أحفاد إبراهيم، فقد ذكر ابن منظور تعليقًا على كلام الإمام علي: «**وإنما أراد أن أبانا إبراهيم كان من نبط كوثى؛ وأن نسبنا انتهى إليه**»[٩٨].

---

[٩٧] البداية والنهاية (٩/ ١٨٥).

[٩٨] لسان العرب (٢/ ١٨٢).

ولا تعارض بين الأمرين.

فأنت تابع لعدنان وعدنان يرجع إلىٰ إبراهيم الذي سكن العراق وولد فيها!

ومن ذلك أيضًا بناء مقدمات متعددة بناءً علىٰ قاعدة هشة، فمثلًا قال أنه لا يوجد أحد من المقربين للرسول ﷺ محب للشعر ثم رتب علىٰ هذا أن الديوان الشعري المنسوب للإمام علي غير صحيح! ما دليله علىٰ كل هذه النتائج؟!

هي مقولة للإمام علي قالها لأصحابه: «**إذا تركتم عدتم إلى مجالسكم حلقًا عزين تضربون الأمثال، وتناشدون الأشعار. تبَّت أيديكم. نسيتم الحرب واستعدادها، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها**».

فقال هذا دليل أن الإمام علي لا يحب الشعر!

وأقول: لا يلزم من هذا النقل -إن صح- أن الإمام علي يكره الشعر، بل من الواضح أن الإمام علي كان في حالة استعداد للحرب وأن الناس كلها تستعد بينما هؤلاء جالسين يتبارون في الشعر وكأن الأمر لا يعنيهم، ومن أجل ذلك لامهم أنهم لم يستعدوا للحرب ونسوا ذلك! فأي شخص أو قائد ولو كان محبًا للشعر لقال مقولة الإمام علي!

ولو لامهم علىٰ الشعر في موطن غير الاستعداد للحرب وفي الموطن الطبيعي، لربما جاز لنا أن نقول مقولة الوردي!

ومن ذلك تناقضه، فيقول أن الرسول تعامل مع الشعر وفق مبدأ دفاعي فقط (أي أنه رد لعدوان) ولم يؤذن للشعر إلا من أجل ذلك! وبناء عليه طلب الرسول من حسان بن ثابت أن يهجو قريش، وفي موضع متقدم ذكر الرواية التي تقول أن عمر بن الخطاب مرَّ علىٰ حسان فرآهُ يشعر فقال أرغاء

كرغاء البعير؟! فقال حسان بن ثابت: «**كنت أنشد وفيه من هو خيرٌ منك - يقصد النبي ﷺ-**»[99] فيرضى.

فقال طه حسين أن حسان كان يتذاكر الأشعار في هجاء قريش وأن عمر أخذته الحمية، فعلق الوردي قائلًا: بل هذا غير صحيح ليس بسبب الهجاء فعمر يكره قريش وقريش تكرهه، فنفهم من هذا النص الطويل كله: أن حسان لم يكن ينشد قصائد الهجاء وأن الرسول كان يرضى بذلك، فإذن كيف يقول الوردي أن الرسول لم يتعامل إلا مع الشعر الهجائي؟!

وذكر مقولة ابن خلدون أن انصراف العرب عن الشعر في بداية الاسلام بسبب انشغال العرب بأمر الدين والوحي وإلى دهشتهم من القرآن وأسلوبه، ثم قال هذا غير صحيح بل بسبب سياسة الخلفاء الراشدين الذين كانوا يكرهون الشعر، والصحيح ما ذكره محمد لطفي جمعة حول إجماع المؤرخين أن الشعر توقف بسبب الغزو كما في كتابه (الشهاب الراصد) إذ قال: «**وكل مؤرخي الأدب على أن الشعر في عصر الراشدين وقف لانشغال المسلمين عنه بالجهاد**»[100]، ولعله يشير إلى مقولة ابن سلام الجمحي في مقدمة كتابه طبقات فحول الشعراء إذ قال: «**فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب** - أي عن الشعر - **وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار رجعوا إلى رواية الشعر**»[101].

وأما قوله أن الخلفاء كانوا يكرهون الشعر، فهذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، كيف يكون ذلك وقد طلب ابن الخطاب من لبيد والأغلب أن يرجعا إلى الشعر بعد أن وقفا عنه بعد الإسلام.

وأيضًا قال أن قلب المعاني في شعر الفرزدق (والصحيح أنه شعر النابغة الجعدي) عندما قال:

---

[99] صحيح مسلم (٢٤٨٥).

[100] الشهاب الراصد - صـ١٨٩.

[101] طبقات فحول الشعراء - صـ٣٤.

كانت فريضة ما تقول كما　　　كان الزناء فريضة الرجم [102]

لم يعترض عليه أحد والصحيح أن اعترض عليه البعض كالآمدي في كتاب الموازنة فقال: «**ولكن قلب القبيح لا يجوز في الشعر وهو ما جاء في كلامهم على سبيل الغلط**»[103] ثم ضرب مثلًا بالبيت هذا.

أيضًا قوله أن عثمان أمر بإلغاء جميع القراءات للقرآن عدا قراءة قريش، هذا قول مضحك، إن كان عثمان قد ألغى جميع هذه القاءات فما سر وجود عشر قراءات إلى اليوم في زماننا هذا.

ولو تتبعتُ جميع شطحات الوردي لطال بي المقام، ولكن أشدها ما قاله في فصل القرآن والنحو: «**نحن لا نستطيع أن ننكر وجود مخالفات نحوية في القرآن**»، وهذه الأخطاء بسبب أخطاء لغة العرب الأوائل، فجاء القرآن على نفس الخطأ الذي بدأ به هؤلاء، ولكن السؤال هل يعقل أن الله سوف يُنزل القرآن على قواعد خاطئة وهو يعلم أنها خاطئة؟!

وللأسف الكتاب سيء في نقده لكتاب طه حسين، وأفضل الكتب التي قرأتها في هذا الباب هي كتاب الشيخ محمد الخضر حسين.

١٧ يناير ٢٠١٨م – ١ جمادى الاول ١٤٣٩هـ

[102] ديوان النابغة الجعدي، صـ١٦٩.

[103] الموازنة بين أبي تمام والبحتري، صـ١٧١.

رواية: ساق البامبو

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: ساق البامبو.**
- **اسم المؤلف: سعود السنعوسي.**
- **عدد الصفحات: ٤٠٠.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة رواية (ساق البامبو) لسعود السنعوسي والحاصلة على الجائزة العالمية البوكر، وأنا أعتبرها من أفضل ما قرأت.

تميزت هذه الرواية بطرح جديد – فيما أظن – سواء في المضمون أو الأسلوب، وهي تتكلم عن التفاوت الطبقي في المجتمعات الخليجية ولكن ليس بين الخليجين أنفسهم ولا بين الخليجين وبقية العرب، وإنما بين المجتمع الخليجي والنظرة لغير العربي وبالذات الآسيوي، وتركز هذه الرواية على أن التواضع وحسن التعامل بين الطرفين حتى لو وصل إلى مرحلة متقدمة ليس دلالة على إلغاء الفوارق بالكلية؛ بل إن المحك لمعرفة إن كان الفارق إن أُلغي أو لا هو بمعيار واحد وهو الزواج، فالزواج امتحان حقيقي سوف تعرف من خلاله إن كان الطرف الآخر الذي يحسسك أن لا فرق بينك وبينه فعلًا كذلك أو لا.

ربما الغاية من هذه الرواية؛ أن هذه الزيجات مع وجود فوارق طبقية هائلة سوف تجعل ابنك في النهاية يعيش في جحيم تحديد الهوية، والتنازع ما بين هويتين وثقافتين مختلفتين، وأن النظرة الدونية سوف تلازمه ما عاش ولن يُقبل من بقية عائلته العربية ولو قَبلهُ والده، لأن أمه فلبينية! وحتى لو

أرادت الأسرة قبوله فلن تَفعل إحجامًا من ردود الفعل من المجتمع والأسر الأخرىٰ تجاهها لأن القبول بعنصر هجين من خادمة آسيوية، أمر يَصرف هذه الأسرة عن مصاهرة من هذه الأسرة، أي أنها تنبذ تدريجيًا فهي تحاول الحفاظ علىٰ محيطها بالدوس علىٰ عواطفها والتنكر لابنها الذي يحمل اسمها! لنقل أن الرواية ركزت علىٰ الصراع الناشئ مابين العاطفة والحفاظ علىٰ المكانة! وضرب اعتبار لرأي المجتمع أمر قديم عند العرب لذلك تجد الكثير من الشخصيات التاريخية لا تفعل الفعل بحجة «أتتحدث العرب أني فعلت كذا وكذا؟» والرواية سُردت من منظور الابن الذي ولد لأبوين مختلفين في المكانة والمجتمع واللغة والدين! فكل هذه الفوارق ما بين الأبوين سوف تُشكل تحديًا مُهلكًا لهذا الابن في المستقبل لتحديد إلىٰ أي الفئتين ينتمي!

التفاوت الطبقي بين المجتمعات له أسباب متعددة، ولكن في حالتنا الخليجية ربما الحالة الاقتصادية والعادات والتقاليد هي السبب، وهذا أمر قديم؛ وهي أن العرب لا تقبل المصاهرة مع غيرها من الأقوام، بل تأمل أن العرب لأول مرة تحدوا الإمبراطورية الفارسية وخاضوا حربًا معها وهي حرب (ذي قار) بسبب رفض المناذرة تزويج بناتهم للفرس.

وأما الحالة الاقتصادية فهل التي ميزت المحيط الخليجي عن غيره من المجتمعات العربية، فأصبحت هنالك نظرة دونية – بسبب الفقر الذي يمر به هؤلاء – وحتىٰ وإن كانوا أبناء قبائل وعشائر مُتصلة مع الخليج. فمن باب أولىٰ أن نظرة الازدراء تكون مع من لا يجمعهم معهم نسب ولا عادات وتقاليد وهم أشدُّ فقرًا من بقية العرب كالآسيويين أو الهنود وغيرهم من الشعوب الشرقية. وهذه الفوارق حقيقة، لا يمكن للشخص أن يكسرها وهو ساكن في موطنه في الأغلب الأعم، إلا أن يكون شخصًا غير مبالٍ واستلذ السباحة بعكس التيار أو شخصًا منبوذًا أصلًا، ولذلك فالزيجات مع هذه القوميات التي ينظر إليها علىٰ أنهم أدنىٰ منك اجتماعيًا والمخالفين لك في العادات والتقاليد؛ عادةً لا يمكن أن تثمر إلا بالسكنىٰ في موطن الزوجة أو في المواطن المحايدة التي تكثر منها الهجرات

والتي نسبة العنصرية فيها أقل من العنصرية التي سوف تلاقيها ويلاقيها أبنائك على وجوهٍ أخص في البلاد العربية.

ولماذا الرواية ذات مضمون جديد؟ لأنها ناقشت نوعًا من أنواع التميز (أظن لم يُتطرق له)، ربما هنالك روايات سابقة تَحكي عن التميز بناء على الجنسية أو القبلية أو قضية «السكان الأصليين» أو الحضر والبدو...إلخ من توليفة المجتمع الخليجي، ولكن فيما أعلم لم يَطرق أحد باب النظرة تجاه الآسيوي والتميز ضده رغم أنه من أوضح الواضحات في المجتمع.

ولكن ما هو الأسلوب الجديد في هذه الرواية؟! طبعًا من الأفضل أن لا تقرأ تتمة هذا النص وأن تستكشفه بنفسك، لأن الأسلوب كأنه أحجية، وكل شخص بمستوى تفكيره قد يستطيع أن يفك عقدها، فالنبيه سوف يتنبه من البداية، وأما أمثالي فلن يفكها إلا في الخواتيم.

وهي أن مقدمة الكتاب ومقدمة المترجم وعائلة الطاروف وموظف السفارة الفلبينية الذي ترجم الكتاب إلى العربية كل هؤلاء أمر مختلق لا حقيقة لهم! فالمؤلف جعلك تظن أن هذا الكتاب قصة حقيقة، واستطاع إلى حدٍ كبير جدًا أن يتقن الدور، وهذا أمر صعب جدًا، لأن نصف الكتاب هو الحياة في الفلبين، والاختلافات واللغات والعادات وطرق العيش والتاريخ والدين والثقافة، استطاع السنوسي أن يضبط هذا السرد وكأنك تقرأ لشخص فلبيني يَسرد حياة مجتمعة، ولم يكتفِ بذلك؛ بل أجاد لعب الدور ماذا يمكن أن يفكر الشخص الآسيوي عندما يأتي ويقابل هذه الكتلة الكبيرة من العادات والتقاليد في الخليج؟! كيف يمكن أن يصفها وينظر إليها ويعلق عليها؟! أيضًا استطاع لعب الدور جدًا هنا. ولكن أحد المثالب في تفاصيل الرواية تَكمنُ في أن عيسى الطاروف منذ البداية إلى النهاية، وهو لا يعرف كيف يصلي صلاة المسلمين، رغم أن الشخص الذي يريد أن يصلها بالشكل الصحيح لا بُدَّ طبعًا أن يستفصل عن كيفية أدائها، فلماذا أهمل السنعوسي هذه

النقطة وجعل عيسىٰ يصلي كل الصوات وهو لا يعرف كيف يؤديها دون حتىٰ أن يضع سببًا منطقيًا يجعل عيسىٰ لا يتعلم كيفية أداء الصلاة بالشكل الصحيح.

ذكرنا في البداية المقصد المحتمل من رسالة الكاتب في هذه الرواية، ولكن المقصد المحتمل الثاني هو لا بُدَّ من تغير نظرة المجتمع حول هؤلاء الأشخاص الذين من أب خليجي وأم آسيوية؛ لأن لم يكن القرار بيدهم، وأن تزيد همهم همين بعنصريتك تجاههم، وهو بدل أن يوعي أسرةً أو أسرتين لا بُدَّ من توعية شاملة؛ ولحسن حظ المؤلف أن روايته تحولت إلىٰ مسلسل درامي خليجي (وأظن أن هذه لأول مرة تتحول رواية إلىٰ مسلسل في الخليج)، أي أن رسالتها وتأثيرها قد يصل إلىٰ شرائح كبيرة جدًا تفضل المشاهدة علىٰ القراءة وأن أثر هذه الرواية سوف يَصل إلىٰ الشريحتين، الشريحة القارئة والتي لا تشاهد المسلسلات الخليجية (أمثالي) والمشاهدة لمسلسلات والتي تستنكف القراءة، ولكن السؤال: هل فعلًا سوف يثمر هذه الاطلاع إلىٰ فهم الرسالة فهمًا حسنًا والعمل بها؟! أخشىٰ أن يكون الجواب هو: بل سوف يكون الأمر كضرطة عير في فلاة.

ولا ننسىٰ أن نقول أن الدراما الخليجية كفقراء اليهود لا دنيا ولا دين، وتركز علىٰ المظاهر أكثر من المضمون، فالرواية «فن» والإنتاج المرئي «فن آخر» كما يقولون، ولكل فن قواعده الخاصة، فمن المستحيل أن تنزل الرواية علىٰ المسلسلات أو الأفلام بحذافيرها، وهذا لا يحصل إلا مع سيناريو معد سَلفًا للمسلسل ليتحول النص إلىٰ فعل مرئي بحذافيره، لكن الرواية تحتاج إلىٰ جراحات تعديلية كثيرة مما سوف يؤدي في النهاية إلىٰ تحريف المحتوىٰ أو اختصاره أو القفز عليه. وأنا أقرأ الرواية أقول مستحيل جدًا أن توضع جميع التفاصيل وجميع اللقطات (لأن عرفيًا مستحيل: مثلًا وضع يد راشد الطاروف بيد جوزفين) علىٰ سبيل المثال لا الحصر، ولا أظن أن المسلسلات الكويتية مستعدة أن تفتح الموضوع بشكل علني وصريح علىٰ قضية البدون أيضًا. وهلم جرًا.

٢٣ يناير ٢٠١٨م – ٧ جمادىٰ الاول ١٤٣٩هـ

أمريكا بلد المتناقضات

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: أمريكا بلد المتناقضات.**
- **اسم المؤلف: مازن موفق هاشم.**
- **عدد الصفحات: ٤٥٦.**
- **دار النشر: دار الفكر.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (أمريكا بلد المتناقضات) لمازن موفق هاشم، والمؤلف هو أستاذ في جامعة جنوب كاليفورنيا، أي أنه شخص أكاديمي ومختص في علم الاجتماع، وكتابه هذا بُني وأُقيم على أسس أكاديمية في علم الاجتماع، فهو مليء بالاستبيانات والإحصائيات والصور البيانية، ولحسن الحظ أن دراستي للعلوم السياسة أسعفتني في فهم بعض جزئيات هذا الكتاب، لاشتراك بعض المصطلحات بين التخصصين، فهذه الاختصاصات متداخلة تفسرها بعضها البعض، فمن المستحيل أن يفهم الشخص الواقع السياسي فهمًا جيّدًا وهو جاهل مثلًا في الاقتصاد أو في البنية الاجتماعية.

الكتاب يتكلم باختصار: أبرز المكونات التاريخية للمجتمع الأمريكي تستطيع أن تصفها بالمحطات المفاصلة في التاريخ الأمريكي مثل (نشوء الدستور والحرب الأهلي...إلخ)، ثم تكلم عن دور الدين في المجتمع (البروتستانت وانقسام هذه الطوائف إلى فرق وسمة كل فريق وطائفة)، ثم يأتي دور الإثنيات (البيض والسود واللاتين والآسيوين) وهم التكتلات الأكبر في أمريكا، بسرد تاريخهم وناضلهم ثم واقعهم الحالي، ثم قفز من الإثنيات إلى القوميات الدينية وعمل مقارنة بينهم (اليهود والعرب) كيف نجح اليهود في الاندماج بالمجتمع الأمريكي بينما فشل العرب في ذلك، ثم في

خواتيم الكتاب تكلم عن مسلمي أمريكا الشمالية (وتستطيع تقول أن أغلب الكلام كان منحصرًا حول السود الأفارقة كونهم يعتبرون من السكان الأصليين بخلاف الجاليات المهاجرة). كتاب ضخم وفيه الكثير من التفاصيل، ومن الاستحالة المرور عليها جميعًا أو حتىٰ علىٰ أغلبها، سوف نتكلم عن نقاط محددة فقط:

- تكلم المؤلف أن الكثير من القوانين أو ما تعد منقبة لأمريكا من قوانين، مثل حركة الحقوق المدنية وما أدت إليه في النهاية إلىٰ إلغاء التميز العِرقي في المؤسسات الحكومية - ولو ظاهرًا - ولكن الخلاصة أن جميع القوانين التي أعادت ضبط المجتمع وسيرورته لم تكن إلا نتاج ظلم اجتماعي كبير أو نتاج تحرك ضخم، أي أن القوانين فصلت علىٰ واقع عاشه الأمريكان، ونحن للأسف ترمي علينا قوانين مستوردة من الخارج ليست لها مقدمات في مجتمعنا ولا أهمية ولم يناضل من أجلها أحد إلا أشخاص بأعداد اليد الواحدة، مثل قانون: سيداو، فالقانون يكون أكثر ملائمة للمجتمع إن صدر من حراك داخلي لا من استيراد خارجي! هذا ناهيك أن القانون يستمد مشروعيته من مرجعية لا يأتيها الباطل لا من بين يديها ولا من خلفها، وإنما نتكلم هنا من منظور نسبي (هنالك قانون شديد الظلم وهنالك قانون قليل الظلم) فالثاني أفضل من الأول. كما أن النظام الأمريكي لم يصل إلىٰ نسخته الأخيرة دفعة واحدة بل أحتاج إلىٰ ٣ قرون (قرابة ٣٠٠ سنة)، أي أن المجتمعات تصل إلىٰ ذروة رقيها المادي عادةً بعد مقدمات طويلة، والبعض لا يراعي هذه السنن في التغير، بل يريد بمجرد تولي السلطة أن يحول بلده إلىٰ نموذج ينافس بها الشرق والغرب بسنة واحدة! كما أن هذه الدول الغربية والشرقية تريد لك التبعية دائمًا راعية لمصالحها، ولا تريد لك أن تكون نفسك وتكون منافسًا محتملًا، فكلما نَمَت لك بعض الأرجل لتقف إلا وقام هؤلاء بكسرها لك.

- أيضًا تكلم المؤلف عن «وَهْم التعددية»، وهي أن أمريكا لا تقبل الآخر إلا اذا انحل في ثقافتها انحلالًا يؤدي به نهاية المطاف إلىٰ مصادمة قومه وعاداتهم إن تعارضت مع الثقافة الأمريكية، بمعنىٰ

لو كنت أنا شخص عربي مستحيل أترقى في المجتمع الأمريكي وأنا متأثر بالعادات العربية التي تقول أن الفتاة يجب أن لا يكون لها حبيب (بوي فرند) وأهاجم العلاقات التي تنشأ خارج إطار الزواج، فلا بُدَّ أن أكون أمريكيًا على حساب هويتي وعاداتي، فأمريكا لا تقبل الآخر صاحب الهوية المستقلة بل تقبل الآخر الذي ينحل في قيمها الثقافية، وهذه هي التعددية الأمريكية، فإن كانت كذلك فهل تسمى هذه تعددية فعلًا؟ فهي لا تقبل عربيتي بل أمريكيَّ الثقافة والوجدان يحمل ملامح عربية.

- تكلم الكاتب أن شركات القطاع الخاص تنفق أموال اللوبي من أجل عدم إعطاء تواجد المهاجرين غير الشرعيين صفة شرعية أي أنها لا تريد أن تشرعن تواجدهم على الأراضي الأمريكية وفي نفس الوقت لا تريد طردهم من أمريكا، ولكن لماذا تقوم شركات القطاع الخاص بمثل هذا التصرف؟! يقول المؤلف: «**لأن العامل المؤقت غير القانوني والذي لا يملك أوراقًا ثبوتية يقبل بأزهد الأجور من ناحية ولا يكلف الشركات نفقات التأمين التقاعدي الذي يُشَكّل ٣٠٪ من كلفة العامل؛ كما أن هؤلاء عادةً لا ينضمون إلى النقابات العمالية**».

هذه الجزئية تحتاج إلى شرح، الشركات الرأسمالية تريد الربح السريع بأي طريقة، ولا يهمها إلا مصالحها، وسوف تقوم بذلك وإن استخدمت طرقًا تقوم على الاستغلال، أو أنها طرق غير أخلاقية. وتفضل ذلك على الربح القليل الذي يراعي السبل الأخلاقية. الجشع الرأسمالي - من المفارقات - يساهم في تشكل توجهين متضادين كل التضاد، أقصى اليمين وأقصى اليسار، فلماذا تكون هنالك شعبية للجماعات اليمنية؟ بسبب أن هذه الشركات تفضل العمالة الأجنبية الرخيصة على المواطن، وهذا يساهم في خلق البطالة، وهذه البطالة تجعل المواطن ينظر إلى الأجنبي على أنه تهديد، ثم يجد هذا المواطن جماعات اليمين التي تنادي بطرد المهاجرين غير الشرعيين فيؤيدها ربما ليس حبًا في مبادئها ككل ولكن فقط من هذه الجزئية، وأما أقصى اليسار وهم الشيوعيون وهؤلاء

أصل فكرتهم وأصل نشأتهم كانت بسبب استغلال الشركات أو المصانع للعامل بشكل تتنافى فيه أبسط مبادئ العدل، وهذا الاستغلال هو من الصور التي ناضلوا من أجل كسرها وإنهائها؛ لذلك تجد ماركس وإنجلز يقولان في كتابهما (البيان الشيوعي): «**يا عمال العالم انتفضوا فلن تخسروا سوى الأغلال التي في أعناقكم**»، ولكن هناك خلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين حول وضع الدولة يدها على القطاع الخاص، ومن خلال تجربة في القطاع الخاص أقول: أن إبقاء الدولة يدها في القطاع الخاص بإلزام بعض الشركات بأمور معينة، هو الأفضل، فعلى سبيل المثال الذي يجعل البحرينيين في القطاع الخاص هو إلزام الدولة من خلال وزارة العمل للشركات بنسبة معينة من البحرنة، لو رفعت الدولة يدها سوف يطرد كل البحرينيين في اليوم الثاني لأن الكل يريد أن يحقق ربحًا سريعًا، والربح السريع من الأجنبي أكثر حظًا، والمفارقة بين الأجنبي والبحريني متعددة، والشركات تفضل الأجنبي على البحريني لأن الأجنبي (لا توجد لدية إجازة لا مرضية ولا سنوية ولا من غير راتب، ولأنه يعمل ١٢ ساعة يوميًا، ولأنه يأخذ نصف راتب البحريني وليس له تأمين تقاعدي)، كما لا يفوتني أن أذكر أن كلامي بهذه اللهجة ليس تعصبًا أو تحيزًا ضد الأجانب، لأن بحرنة القطاع بنسب معينة سوف تؤدي إلى اقتسام الوظائف ما بين الأجانب وأبناء البلد وبذلك يكون كلا الطرفان مستفيدًا، ولكن عدم البحرنة فلن يستفيد إلا طرف واحد، فاستفادة الطرفان مقدمة على استفادة الطرف الواحد.

هذه نقاط قد دونتها في ذهني وليس في كراستي، فنسيت الكثير مما يستحق التعقيب عليه، فالكتاب يَصلح أن يكون مقدمة تتوسّع فيها في تاريخ أمريكا، فهو كالمقبلات الذي يحتاج إلى وجبات رئيسية بعده.

٢٩ يناير ٢٠١٨م – ١٣ جمادى الاول ١٤٣٩هـ

الطريق إلى القرآن

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الطريق إلى القرآن.**
- **اسم المؤلف: إبراهيم السكران.**
- **عدد الصفحات: ١٢٨.**
- **دار النشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

من حين إلى آخر يحتاج الشخص إلى من يذكره لأن هذه التذكرة تنفعه كما قال تعالى: [**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**]، فأنت تعلم شيئًا ولكن مع تقادم الوقت تنساه، فتذكيرك إياه بعد طول أمد من الأمور النافعة، وعلى هذه القاعدة والبنيان أُقيّم هذا الكتاب.

الشيخ إبراهيم السكران وكذلك مجموعة من طلبة العلم الناشئ والصاعد، تستطيع أن تقول أنهم لم يعودوا يتعاملوا مع بعض المواضيع الشرعية بنفس نمطية مشايخهم التقليديين، نعم تستطيع أن تقول أنهم أوجدوا سُبلًا وطرقًا جديدة أو مبتكرة في التعاطي مع الشأن الشرعي بما لا يقدح في أصل خطابه.

هذا الكتاب قد يتكلم عن القرآن بأمور أنت تعرفها أو مرَّت عليك، ولكن الجديدَ طريقةُ الاستنباط وطريقة الإسقاط وطريقة المقارنة، فَلم يكتفِ المؤلف بمجرد العرض بل عضدها بهذا كله، فكان واقعهُ عليك أشد، وتأثيره عليك أعظم؛ لذلك تستشعر وكأنك تقرأ هذه الآية لأول مرة، أو تقرأها بنظرة جديدة لم تكن قد استبانت لك من قبل رغم أن هذه الأمور تفعلها كل يوم عشرات المرات.

تكلمت سابقًا عن أسلوب السكران في تفكيك المعضلة النفسية لدىٰ الشخص، وكيف يربط بين هذا الداء والدواء الإلهي له، وكيف أن بعض النتائج لها مقدمات خفية لا يشعر بها الشخص، فكان هذا التفكيك هو إنذار للمصاب، بحيث يقيس حاله علىٰ كل مرض أو آفة يفككها السكران في كتابه هذا. وهذا الكتاب يَعدُّ من كتب الرقائق التي يحتاج إليها الشخص دائمًا بين الحينة والأخرىٰ، فهي كالملح؛ إن فقد فسد الطعام وإن كثر أيضًا فَسد الطعام.

ربما أبرز الملاحظات علىٰ الكتاب، هو فصل (تطويل الطريق) في أمر المماحكات الفكرية، وهو إرادة حصر الأمة في التدبر الفعلي، وهذا سوف يُغني عن جهود التألف والتأصيل ومناكفة الحداثيين وأطروحاتهم، وهذا أمر صحيح نظريًا ولكن تطبيقهُ عَمليًا ربما صعب، لأن ليس كل الناس يستطيعون أن يفهموا القرآن بشكل واحد، فهم متفاوتون في الفهم والإدراك والتدبر والوعي؛ ولذلك حتىٰ ابن تيمية يقول في نص نقله السكران نفسه في فصل آخر: «**ومن المعلوم أنه في تفاصيل آيات القرآن من العلم والإيمان ما يتفاضل الناس فيه تفاضلًا لا ينضبط لنا، والقرآن الذي يقرأه الناس باليل والنهار يتفاضلون في فهمه تفاضلًا عظيمًا، وقد رفع الله ببعض الناس على بعض درجات**».

أي أنه يحتاج مع حث الناس علىٰ التدبر لأن مع التدبر وحده سوف تسقط الشبهة، يحتاج معها أيضًا إلىٰ الكتابة والتأليف ويكون هذا الخطاب موَّجهًا إلىٰ من كانت درجتهم في الفهم هي أدنىٰ الدرجات فأنت تحتاج إلىٰ أن تبصره بما هو يراه ولكن لا يفهمه، أسوة بما صنع الأئمة من قبل، فقد ألفوا وردوا علىٰ كل المذاهب وتدبروا وحثوا الناس علىٰ التدبر، ولا تعارض بين الأمرين.

هذا وجه والوجه الآخر، أن بعض المناكفين ليسوا حداثيين يتدثرون بستار التراث، أي أن النزاع بيننا وبينهم ليس في فهم أصل الخطاب الإلهي وتنزيله تنزيلًا صحيح، بل هنالك بعض الأطروحات الفكرية مع أُناس لا يَعتدّون بمرجعيتك ولا بتصورك، ومن معلوم أن في فنون المناظرة لا يحتج علىٰ

الشخص بما هو ليس حجة عليك ولا بما لا يلزمه! أي أننا نحتاج إلى التدبر والتأمل الطويل في كتاب الله أمور أخرىٰ كذلك في هذه المعركة. مثل إلزامهم بلوازم مذهبهم وبيان تناقضه وهذا لا يتأتىٰ إلا بقراءة المختص لكتب المخالف.

٣١ يناير ٢٠١٨م - ١٤ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣٩هـ

الضيوف: عشرون عامًا في سجون الحسن الثاني

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: الضيوف: عشرون عامًا في سجون الحسن الثاني.
- اسم المؤلف: رؤوف أوفقير.
- اسم المترجم: حسين عمر.
- عدد الصفحات: ٧٦٠.
- دار النشر: المركز الثقافي العربي.

التعليق والمناقشة:

رؤوف أوفقير هو الابن الأكبر للجنرال محمد أوفقير صاحب انقلاب عام ١٩٧٢ على الحسن الثاني، والذي فشل ثم أُعدم الجنرال محمد أوفقير، ورُميت عائلتهُ في السجن لمدة ٢٠ سنة، كما هي القصة المعروفة، وقد كتب بعضُ أفراد الأسرة روايتهم للأحداث بعدما خَرجوا من السجن وهم ٤ من أصل ٩، ولعل من أشهر الكتب (السجينة) لمليكة أوفقير وهي الأخت الكبرى، و(حدائق الملك) للأم فاطمة أوفقير، و(الحياة بين يدي) لسكينة أوفقير، وكتابنا هذا.

ولكن بما أن كتب أسرة أوفقير متداخلة ويصعب فصلها عن بعض، لا بُدَّ من مقدمة قبل الدخول في تفاصيل الكتاب المراد الحديث عنه.

امتازت مليكة أوفقير في السرد الروائي، بطريقة تجذب القارئ لها، وهذا الذي جعل كتابها – يشتهر – بخلاف بقية كتب الأسرة، وهذا أمرٌ معلوم بسبب أمرين، أولًا: بقاء هؤلاء الأفراد لمدة ٥ سنوات في سجون كان من المتاح لهم أن يجلبوا الروايات والكتب، فذكرت الأم مثلًا أنها قرأت رواية (السلم والحرب) لتولستوي ٣ مرات، وكذلك صنع أفراد الأسرة بكثرة المطالعة من هذه الروايات لقتل

الوقت، فكثرة المطالعة والانتهاء من عدة كتب روائية كلاسيكية لا شك سوف يُساهم في تحسن مستوىٰ الحبكة والدقة البلاغية أثناء السرد، الأمر الآخر أن مليكة أثناء السجن اختصّت بسرد القصص علىٰ عائلتها بشكل يومي ومتكرر واستطاعت أن تجمع ما بين الاستزادة النظرية والتطبيق وهذا لا شك في أنه سوف يحسّن من مستوىٰ الشخص في السرد ويعزز ويعضد من الميزة الأولىٰ حتىٰ يجعلها مزيتان (كثرة اطلاع وكثرة إلقاء).

ولكن كان أن حَرصت مليكة أوفقير في مذكراتها أن تتجنب السياسة وأن لا تتوغل فيها كثيرًا، رغم أن أصل مصيبتهم هو عالم السياسة، واكتفت بالكلام عن الجوانب الإنسانية والشخصية، كل هذه المقدمة مهمة للكلام عن كتابنا وهو كتاب رؤوف أوفقير، فهذا الشخص بخلاف بقية أسرته من النساء اللاتي لم يتوغلن ولم يكن صريحات وحادات في تعاطيهم الشأن السياسي، ربما لأسباب موضوعية وهي أن النساء لم يكن لهن اختلاط دائم برجال الدولة والاحتكاك معهم في عمل ميداني كما حصل لرؤوف الذي توفرت له هذه الفرصة عندما اتخذه والده مرافقًا له في زيارة المسؤولين والكلام في شؤون العمل.

ولما خرج رؤوف من السجن أصبح مُحللًا سياسيًا، فهو يعلم قيمة أن يكون الشخص هو المصدر الوحيد لكتابة تاريخ دولة! فلذلك كان كثير الإطناب في ذكر التفاصيل حتىٰ الدقيقة منها، خصوصًا أحداث الانقلاب الذي شَارك فيهِ والدهُ. وكذلك أطنب بشكل تفصيلي دقيق - ربما زاد من حجم الكتاب - بذكر أدق وأتفه تفاصيل محاولة هروبهم من السجن، وكذلك زاد علىٰ مليكة ببعض التفاصيل المشتركة أثناء فترات سجنهم الأول، لم تذكرها مليكة ربما حتىٰ لا تسبب لمن ساعدهم أي حرج أو تسليط للضوء من جديد أو ربما حتىٰ تذكر الجوانب السلبية فقط من قضية احتجازهم الأول من أجل زيادة التعاطف، بينما لم يلتفت أخوها رؤوف أوفقير إلىٰ ذلك بل ذكر

بعض التفاصيل المفصلية والمهمة أثناء فترة سجنهم في تاماتاغت، مثل قضية إدخال الناس الدواء لهم والغذاء وحتى تجول رؤوف خارج السجن.

ولكن كما ذكرنا سابقًا أن هذه الكتب لم توّجه للعرب، وإنما جميع كتب هذه الأسرة كتبت بالفرنسية وتم مخاطبة أصحابها ووجه لهم الكلام. أي لو كان الكلام موجهًا للعرب لتحرز صاحبه من الكلام عن بعض النقاط الحساسة لدى العرب، فقد كان رؤوف يتغزل باليهود مثلًا ويُكثرُ تشبيه مأساة عائلته بمسأة المحرقة النازية! ويجعل أحد الناجين منها وهو ألفريد نقّاش بطله ومرشده ومستلهمه في الصبر والتحمل والعفو والصفح.

ولكن هذا التودد لليهود له سببه، وقد ذكر هو ووالدته أن لوالده محمد أوفقير علاقات قوية مع الكيان الصهيوني، وشارك بمحادثات سرية من أجل نقل اليهود المغاربة إلى الكيان الصهيوني، ولم يهتم أوفقير بالقضية العربية ولا الفلسطينية التي كانت تنادي من أجل تحرير فلسطين من اليهود الغاصبين، بينما هو يجمعهم ويزيد عددهم في الكيان الصهيوني، فقد حفظ اليهود هذا الفعل لأوفقير، ولما أراد الحسن الثاني أن ينفيهم إلى كندا تجمع اليهود هناك من أجل استقبال عائلة أوفقير كما قالت مليكة، فرؤوف أوفقير هنا يثبت أن والده له علاقات قوية مع الموساد وإسرائيل وله لقاءات سرية معهم وهو أحد الذين ساهموا في قضية نقل اليهود المغاربة من المغرب إلى إسرائيل. بل كان ضمن خياراتهم للنفي هو إسرائيل ولكن تحولت إلى كندا.

من الملفت أن ذاكرة رؤوف أوفقير كانت قوية لاستحضاره الكثير من الأمور والتفاصيل التي حصلت بينما هو صغير، وذلك أنه عندما تم سجنه وعزله في زنزانة انفرادية لمدة عشر سنوات، كان يَقتل الوقت بإعادة ذكرياته ويحاول أن يربط الخيوط ببعضها حتى غدا هذا تمرينًا يقتل به الوقت في زنزانة ليس معك شيء يسليك سوى أربعة جدران.

وأيضًا ربط أوفقير تاريخ مأساتهم بتاريخ المغرب، ولا يمكن فهم قضية الانقلاب والمأساة إلا بفهم السياق الزمني للأحداث السياسة في المغرب، وهنالك من يربط ما بين الواقع السياسي وسيرته الذاتية كثيرًا خصوصًا إن كانت جزء من تشكيل هويته أو حتىٰ كان هو بنفسه فاعلًا في تشكيلها، (مثل محمد سرور زين العابدين لما كتب مذكراته كانت أغلب تفاصيلها عن تاريخ سورية)، وهذا أمر انتبهت له والدته التي تكلمت عن جزء من تاريخ المغرب ولكن هناك فرق واسع بين سردها وسرد ابنها رؤوف، فقد كانت فاطمة مثلًا تمر مرورًا سريعًا جدًا علىٰ الكثير من المحطات المفصلية، بينما أوفقير قد أفرد فصولًا طويلة من الكتب من أجل ذكر التاريخ السياسي للمغرب وخصوصًا أبرز الأحداث التي هزت النظام الملكي.

ولكن في السرد التاريخي لأحداث المغرب وقع رؤوف أوفقير في خطأ، وهو النقل المرسل غير متصل السند، (بمعنىٰ هو يحدث عن أحداث لم يشارك فيها وأحداث خاصة وليست عامة مثل تفاصيل خاصة وجزئية قد حصلت) دون أن يذكر من أخبرهُ بها، بمعنىٰ هل من أخبره شخص موثوق أو شخص عايش تلك الأحداث بعينه؟! فعدم ذكر المصدر أو السند يجعل الرواية متأرجحه ما بين التصديق والتكذيب، وهذا حصل أثناء ذِكرهِ لانقلاب الصخيرات عام ١٩٧١ ولكن في الانقلاب الآخر الذي شارك فيهِ والده هنا ذكر أسماء الأشخاص الذين مدوه بالمعلومات والتفاصيل ومن بينهم كان مرافقين للجنرال ورافقوه حتىٰ اللحظة الأخيرة مثل: جيرونيمو، أو أشخاص كانوا في القصر الملكي قد حكوا له آخر لحظات والده قبل أن يُعدم في القصر، مثل: آسيا العلوي.

ومن الأمور التي يجب أن تلفت الانتباه هنا، أن تغير أوفقير الجذري من النظام الحاكم في المغرب كان بسبب انقلاب الصخيرات عام ١٩٧١، وهو أن أصحابه الجنرالات الذي يقتسم معهم الكثير من الذكريات في حروب فرنسا هم الذين شاركوا في هذا الانقلاب ولما فشلوا، سحقهم الملك

وأذلهم أمام الجميع، لم يستطع أن يتحمل حصول هذا لرفقائه في السلاح، ورغم انقلابهم وفشلهم في الانقلاب وأنهم أشخاص منبوذون تمامًا، حاول أوفقير أن يتوسّط لهم وأن يحصلوا على محاكمة عادلة وأن يحفظ شيئًا من كرامتهم، فلاحِظ رغم أنهم في موقف ضعف وخيانة واضحة إلا أنه لم ينسَ أصحابه وجلس يخاطر من أجلهم، وتأمل كيف يمكن أن يخذلك أصحابك في قضية عادلة يتفقون معك فيها إن حصل لك بلاء، فهذه لفتة مهمة وكيف يمكن أن يكون الفاجر أجلد من الثقة.

وحاول رؤوف أوفقير - بخلاف بقية أسرته - أن يفند الكثير من التهم الملقاة على والده، وقد أكثَرَ من ذكر القرائن والمقاربات والاقتباسات والشهادات من أجل تبرئة والده، وأسلوبه أفضل من أسلوب أهله الذين اكتفوا بالذكر أن وزير الداخلية كان شخصًا لطيفًا وطيبًا و«حَبوبًا» و«كيوت»!!

ولكن الغريق إن استطعت أن تنفي أنه ليس مبلل الرأس فلن تستطع أن تنفي أن بقية جسده لَيس مُبللًا، فمن المضحك أن نقول أن وزير الداخلية مجرد شخص غشيم ولا يعرف عن الاعتقالات والتعذيب في السجون ولا عن كيفية انتزاع المعلومات ولم يكن هو مشاركًا في قمع المعارضة - حتى السليمة منها -، فأسلوب رؤوف أوفقير يأتي لك بنفي حادثة واحدة ثم يريد تعميمها على كل الأحداث، وأحيانًا يرد شهادات الشهود بكتابات بعض الباحثين الفرنسيين. لم يستطع أوفقير أن يترقى في الحكم إلا بعد أن أثبت فاعلية في تثبيت العرش وإتاحة المجال أمام سلطة مطلقة بعد أن سَحق خصومها، ولو كان أوفقير فاشلًا في كنس خصوم العرش لما رقي بل لَأُزيلَ من منصبه، فلا يحاول البعض أن يغطي الشمس بغربال. ولكن رؤوف إن ضاق الخناق عليه؛ أثبت أن والده فعلًا قد شارك ولكن بأوامر الملك! فهل كان أوفقير مجبورًا أن ينفذ هذه الأوامر، هل هذا عذر؟ وهل كون هذه الأوامر آتية من الملك مسوغًا لأن يقوم بتطبيقها؟ شرعًا: لا يجوز؛ لأنه لا يجوز طاعة

المخلوق في معصية الخالق، وخصوصًا في قضايا القتل، فلو أكرهك شخص على أن تقتل شخصًا آخرًا لما جاز لك ذلك بالإجماع، هذا في حال الإكراه (أي الإجبار) فكيف بما هو غير ذلك؟

وأوفقير من الواضح أن ضميره لم يستيقظ بعد أن قمع الانتفاضات وأصبح رئيسًا لوزارة الدفاع والتي هي مسؤولة عن أساليب القمع والضغط والإرهاب والتعذيب والسجون والاعتقالات والتغيب، بل استفاق فجأة بعد انقلاب أصحابه عام ١٩٧١! فهل كانت دماء أصحابه أغلى من دماء الذين قمعهم قبله؟! نترك الإجابة لرؤوف أوفقير.

وكذا من الأمور التي قد تستفيدها من هذا الكتاب، أن للسلطة ألاعيبها، يعني يذكر رؤوف أن التنزه عن الفساد في السلطة علامة خطر، فالنزيه هو الأكثر عرضةً للانقلاب من الفاسدين، فمن أجل ذلك يقول لا بُدَّ أن تغمس السلطة مسؤوليها بالفساد فيقول أن الجنرال يجب أن يقبل هبة مليكة بمئات الهكتارات من الأراضي فيقول بالنص: «**بعد الانقلابين العسكريين اللذان هزا المغرب، كانت رُتب الجنرال تترافق بقلب المزارع الجنتلمان (Gentleman farmer)، إن من يجرؤون على رفض الهبة الملكية سيزاحون مباشرةً وستكون حياتهم مهددة، إذ يرى القصر أن صحوتهم الأخلاقية تهيئهم لأن يصبحوا انقلابي الغد**»، والشخص الفاسد لن يستطيع أن يزاود أو أن يجمع حوله أشخاصًا يؤيدون الانقلاب على الفاسدين بحجة الفساد! بل سوف تكون دعواه أبعد إلى التصديق، فلما تغمس الشخص في الفساد فأنت تمنعه مستقبلًا من استخدام حجة الفساد من أجل الانقلاب وتغير النظام الحكم، فكانت هذه عملية استباقية أو إجراءً وقائيًا.

وذكر رؤوف أيضًا أن من أجل اليقظة، أُسِّست عدة فرق أمنية وغُذِّيَ التنافس فيما بينها، فأصبحت كل فرقة تراقب الأخرى وتترصَّد لها الزلة، وهذا الأسلوب كان الغاية منه أن يوأد أي تمرد قادم من قبل الأجهزة الأمنية لأن الجهاز الآخر يتربص به الدوائر وينتظر اللحظة من أجل إسقاطه، فأحيانًا توضع عدة أجهزة في مكان واحد، وكل جهاز يراقب كل واحد، وهذا إجراء استباقي آخر، فلو كان

هنالك جهاز قرر الانقلاب مثلًا فلا يخلو له الجو، بل يكون هنالك جهاز ممكن أن يردعه ويراقبه ويمنعه من أي تصرف مريب.

وهذا ليس قاصرًا على الأجهزة بل حتى على مستوى الأفراد، أحيانًا يعين للوزير نائب، ويتم إشعار الوزير أن هذا النائب هو منافس له، فإن لم ينفذ ما تطلبه السلطة فقد يفقد منصبه لصالح النائب! فيتم جعل الوزير مطيعًا طاعة مطلقة من أجل الحفاظ على منصبه.

وكذلك استخدم أسلوب «حرق الكارت» وهو بزج بعض الشخصيات في أحداث ما تحرق عليها خط الرجعة، مثلًا لو كان هنالك قائد بربري كبير، ثم اتخذه الملك قائدًا من أجل قمع انتفاضة البربر، فهذا يعني أن البربر لن يتفقوا معه مستقبلًا من أجل أي انقلاب، وكذلك زجّ بعض الشخصيات المرتبطة بدول أو التي نشأت بها مثل فرنسا، فلو زجّ بها في أحداث استخباراتية تخص أمن فرنسا، فهذا يعني أن تحصل هنالك قطيعة ما بين هذه الشخصيات وفرنسا، فلا يمكن أن يحصل بينهما تنسيق مستقبلي من أجل أي إجراء لعملية تغير أو انقلاب.

فالخلاصة أن السلطة غدت تستخدم سياسة: فَرِّق تَسُد. الغريب ليس في كل هذا السُبُل التي من الطبيعي أن تتخذها السلطة من أجل الحفاظ على كيانها، ورغم كل هذه التحرزات استطاع أوفقير أن يؤسس لانقلاب وكاد أن ينجح.

وخلص كذلك رؤوف إلى النتيجة التي من الطبيعي أن يصلها كل شخص يحسن التأمل والمراقبة من بعيد، وهي أن الدول الغربية تنسى مبادئها من أجل مصالحها، أي أن حافة حقوق الإنسان إن شكلت خطرًا على مصالح الدول الإستراتيجية فسحقًا لحقوق الإنسان وسحقًا لهذه المبادئ، وكثيرًا ما ضَرب مثلًا بالانقلابي محمد أمقران الذي فرّ بطائرته بعد إخفاق الانقلاب وحَلَّ بجبل طارق عند بريطانيا وطلب اللجوء السياسي إليها، وطالبت به المغرب وقررت أنها سوف تقطع المؤن عن

البريطانيين إن هي رفضت تسليمه وفعلًا سلمته بريطانيا إلى المغرب رغم أنها تعرف أن مصيره الإعدام مقابل استمرار المؤن والدعم.

وهذه الدول لا تريد أن تدخل في صراع مع حكومة المغرب كونها أعطت حق اللجوء السياسي لانقلابين، فتفقد مصالحها أو تستبدل هذه الدولة التي أعطت حق اللجوء بدولة أخرى في الامتيازات والاستثمار، فمن أجل الحفاظ على ذلك، سحقًا لحقوق الإنسان، وإيش فيها إذا مات صرصور واحد من أجل استمرار هذه المصالح؟

الغريب أن هذه السياسة قد تكون مفهومة على نحو ما تجاه الانقلابيين الذين شاركوا صراحة في إضرار نظام الدولة، ولكن أن تتخذ في حق أبنائه الذين لا علاقة لهم بصنيع والدهم، فهذه من الأمور المستغربة، فقد تجاهلتهم هذه الدول - وبالأخص فرنسا -، ولما استطاعوا الخروج تنصّلت منهم أيضًا، ولما وصلوا إليها بقي هناك نوع من التردد تجاههم إلى أن مات الحسن الثاني.

فلذلك من الغباء المطبق أن يعتقد الشخص أن هذه الدول دولٌ مثالية في حقل حقوق الإنسان وأن مبادئها التي تدعو بقية الدول إليها مقدمة على كل شيء.

وكذا تطرق رؤوف أوفقير إلى حالة أسرته في السجن ولعل أغربها هي حالة عبد اللطيف شقيقه الأصغر والذي يعتبر أصغر سجين سياسي في العالم، إذ دخل السجن وعمره ٣ سنوات وهرب منه وعمره ١٨ سنة، أي لم يعش سوى بين أربعة جدار طوال هذه الأعوام، فكان لا يعرف ما هي الحيوانات ولا يعرف ما هي الطبيعة ولا الجبال ولا الأنهار ولا الغابات، ولا يعرف ماهي آلة التصوير ولا السينما ولا التلفاز، وذكر رؤوف أوفقير أن شقيقه كان يعتقد لما تم إخباره عن البقرة أن الإنسان يمكن أن يمر من تحتها دون أن ينحني، فلذلك لما هرب هذا الشخص مع إخوانه وشاهد العالم كانت الصدمة عليه شديدة جدًا، جدًا، لأنه لأول مرة في حياته يرى العالم الخارجي ويخرج من عالم الأربعة جدران.

وقد تكلم رؤوف مطولًا حول قضية تفاصيل الانقلاب كونه عايشها عن قرب مع والده، وكيف أن «الهزيمة لا أب لها»، فالبعض يسعون ويتحركون من أجل الانقلاب وبمجرد ما يخفق، يتنصل الكل وينقلبون عليك، ويُظهرون خلاف ما كانوا يبيتون.

بل وحتى يثبتون ولائهم يسارعون جميعهم من أجل النهش فيك، وكل شخص يحاول أن يثبت ولائه من خلال الطعن فيك وكلما كثُر طعنه استطاع أن يظهر ولائه بشكل أكبر.

وكما يقول بعض المتورطين: «من الأفضل عدم ذكر الرواية الحقيقية للتاريخ، ودعها تكن محرفة»؛ لأن في ذكرها تكون الإدانة لك، فلو ثبت مشاركة بعض الأحزاب السياسية للانقلاب، هل سوف تتوقع أن يقرون بذلك فيتم حلهم ومحاكمتهم؟ بل الجواب البديهي: لا، بل دع التاريخ يسجل أننا لا علاقة لنا بهذه الأحداث ولا حاجة لأن نذكر التاريخ كما هو، مقابل أن نستمر وأن نعيش حياة عادية! إذن المصلحة الذاتية مقدمة على الرواية الحقيقية للتاريخ.

وقد ذكر أنه لما توفي الحسن الثاني أصيب هو ووالدته ومليكة بكآبة وحزن رغم أنه ضيّع أعمارهم وجعلهم يعيشون في حياة لا إنسانية، وهذا كما ذكرنا في موطن سابق، يذكرك بقصة مذكرات طبيب فرعون سيحون الذي رأى الشخص الذي قطع فرعون يده وأرجله وسلبه ثروته يبكي على وفاته حزنًا.

وتكلم رؤوف أوفقير بشكل مفصلي ومُرَكَّز في كتابه عن قضية «البِطانة» وأن هناك توجه عام يرمي جميع سياسات الحاكم التي قد لا يرتضيها الشعب ويقوم بتدبيسها الوزراء أو النواب، وأما الحاكم فلا يعلم وإن علم فلن يرضى بالتأكيد، وهذه الأسطوانة حقيقةً تكررت في جميع الدول العربية، وأن البلاء في البِطانة وليس في الحاكم، وأن جميع القرارات الخاطئة بسبب البطانة والحاكم ليس لديه خبر؛ وهذا من تزييف الوعي وإشاعة حالة اللاوعي من أجل تبرئة المتسبب الفعلي بإلقاء اللوم على من كانت مهمته فقط تلقي الأوامر من الأعلى لتنفيذها. فحتى لو كانت البِطانة فاسدة، فالحاكم

يتحمل مسؤولية اختيار فاسدين في مناصب قيادية واستشارية، فمن الذي جعل هؤلاء المفسدين وأصحاب القرارات العشوائية في مركز القرار سوى الحاكم نفسه؟!

وهذا التسويغ لا يمكن أن يتخذ في دول شمولية والتي يكون فيها القرار بيد شخص واحد، وهو الذي يأمر وينهى ويقرر ويمنع، ولا يمكن لأي وزير أو مسؤول أن يتخذ قرارًا سياديًا أو كبيرًا دون موافقته.

وتكلم عن تفاصيل الانقلاب وكيف أن دولًا من أمريكا وفرنسا تورطت مع والده في الانقلاب، وبعض الدول قد تنقلب وتحفر لحلفائها، إن رأوا أن حلفاءهم يقومون بسياسات قد تخدم اليسار الثوري الموالي للاتحاد السوفيتي، وأن سياسة الدولة تُسخط الشارع بشكل يمكن احتواؤه وأن هذا السخط في النهاية قد يصب في صالح هؤلاء الثوريين مما يعجل من قيام ثورة تُعزز من تواجد المعسكر الشرقي في شمال أفريقيا وجنوب أوروبا ويكون البحر المتوسط تحت مرمى النيران!

وأما النظام الجمهوري والملكي في العالم العربي أشعر أن ليست هنالك فوارق جوهرية أو أثر كبير، لأن الفرق بين الاثنين يمكن أن يكون «الأسرة الحاكمة» و«الحزب الحاكم»، أي أن في كلا الحالتين هناك طرف واحد متفرد في السلطة، وانتهى ببعض النُّظُم الجمهورية لاحقًا إلى ما يشبه الدول الملكية تحت قناع آخر، فأسرة الرئيس تكون متوغلة في المناصب العليا في السلطة مثل أسرة الأسد، وأن الدولة في خدمة هذه الأسرة، إذن ما الفرق بين هذه النُّظُم والنُّظُم الملكية التي تريد النُّظُم الجمهورية الانقلاب عليها؟

اقتباسات وتعليق:

هذه جملة من الاقتباسات من الكتاب ولكني في بعضها تصرفت في اللفظ إما باستبداله أو بذكر معنى أوضح له، مع ذكر التعليق تحته.

- **«لم يكن الأسوأ بالنسبة لي هو ما عانيته من آلام وعذابات فظيعة، وإنما هو التفكير الدائم بعدم معرفتنا للمدة التي سيستغرقها عذابنا» (صـ١١).**

لما تكون في صحراء وتعرف طريقك وأنك سوف تقطع الصحراء بعد فترة طويلة جدًا يكون أهون من أن تتيه فيها ولا تعرف متى وكيف سوف تخرج، وكذلك السجن.

- **«سيد شانسيل، حينما لا يكون المرء قد سُجن ليوم واحدٍ، كيف يسمح لنفسه أن ينتقد مَنْ قضوا في السجن سنوات عديدة للدفاع عن قناعاتهم؟!» (صـ١٠٦).**

العصمة لا تعطى لمن سُجن، فيحق انتقادهم إن اخطؤوا، والعبارة سوف تكون جميلة لو قال أنه «كيف يسمح لنفسه أن يزاود على من قضوا في السجن»، لا يستطيع شخص أن يزاود على شخص آخر في إيمانه بقضية ما وقد ضحى من أجلها بسنوات عمره بصدر رحب!

- **«يا بني أعلم أن الصداقة هي أغلى شيء في الدنيا، وأن الرجل الذي لا أصدقاء له، لا وجود له» (صـ١٩٠).**

وقد قيل قديمًا:

أَخَاكَ أَخَاكَ إنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ ... كَسَاعٍ إلى الهَيجَا بغَيرِ سِلاَحِ!

- **«من فترة سجن تاماتاغت ظلت فكرة الفرار تسيطر على ذهني، وأعتقد أن ذلك هو المرض الذي يعانيه جميع معتقلي العالم إلى جانب البواسير» (صـ٢١٣)**

يخلع المسجونون ملابسهم وكرامتهم قبل أن يدخلوا السجن، وعزيز النفس لا يرضى المهانة لنفسه، ولا يستطيع أمثاله أن يتعايشوا مع وضع كهذا، فلذلك يكون خيار الفرار من ضمن خياراتهم وحتى وإن كانت محكوميتهم في السجن قليلة كما حصل مع أيمن العتوم مثلًا، والرغبة في الفرار والهروب تجدها في أغلب كتب من كتبوا في أدب السجون!

- «هل تعتقد أن كل هؤلاء الناس المحيطين بك سيدومون؟ افتح عينيك. والدك ليس الرجل الذي يموت في فراشه، وفي اللحظة التي ستنهار فيها كل هذه الواجهة، لن يبقى لك من الأصدقاء سوى الحقيقيين! وكل هؤلاء الذين يتملقونك اليوم، لن يقولوا لك حتى: صباح الخير! وسينقضون عليك بضراوة، حينما ستتبدل الأحوال وأيا كانت مشاريعك في الحياة، لا تعتمد إلا على نفسك». (ص ـ٢٤٥).

وقد قيل: الصديق وقت الضيق، ومواطن المحن والبلاء مقياس حقيقي لصداقة الصديق ووفاؤه، وليس المعيار وقوفهم معك في الرخاء وإنما الشدة!

- «حافظتُ بعناية على ذكرياتي لأنها محراب هويتي؛ ولأنّ هذه الأخيرة هي روح مقاومتي». (ص ـ٢٢٣).

- «عوضتني الحياة في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ بطفلة رائعة، تانيا آليا، أتمنى أن تتمكن ابنتي من قراءة هذه السطور لتستمد منها القوة على البقاء». (ص ـ٢٢١).

غالبًا ما يكون الأبناء فضوليون حول حياة أبائهم عندما كانوا في سن الشباب، والاحتفاظ ببعض الكتابات والمواقف والمشاهد قد تُشفي شغف فضولهم وتفسر شخصيات والديهم، وهذا يكون ذو تأثير أكبر عندما لا يلتقي الابناء بآبائهم إن غيّبه الموت، شخصيًا أتمنىٰ أن يرىٰ أبنائي كتاباتي إن كبروا ..

- «قبل أن تطلق لنفسك العنان وتنهار، فكر في المتعة التي ستحدثها لأعدائك» (ص ـ٢٥٥)، فلا تُشمِت بك الأعداء.

١٦ فبراير ٢٠١٨م - ٣٠ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣٩هـ

الحياة بين يدي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الحياة بين يدي.**
- **اسم المؤلف: سكينة أوفقير.**
- **اسم المترجم: حسين عمر.**
- **عدد الصفحات: ١٩٠.**
- **دار النشر: المركز الثقافي العربي.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب هو لأخت مليكة أوفقير الصغرى التي دخلت السجن مع أسرتها وعمرها كان سبع سنوات فقط، وكان كتاب سكينة مقارنة مع بقية الكتب من أسوءها، حقًا أسوأ كتاب قرأته في عام ٢٠١٨ حتى الآن.

هذا الكتاب فيه عدة إشكالات فنية:

أولًا: أن المترجم عمد وانتهج نهج الترجمة الحرفية للنص، أي يترجم النص حَرفيًا دون أن يضع اعتبارًا بضرورة التصرف بالنص لاستقامة المعنى. أحيانًا لما تضيف حرف أو كلمة أو تحذف حرف أو كلمة يكون المعنى واضحًا ومفهومًا أكثر من أنك لم تفعل هذا الإجراء.

والأمر الثاني: أن بعض نصوص الكتاب ربما كتبت بصيغة بلاغية باللغة الفرنسية، وكثير من الأحيان عندما تترجم هذه النصوص إلى لغة غير لغتها التي كتبت بها، يزول هذا البريق وتذهب هذه البلاغة، فتصبح نصوصًا عادية أو غامضة غير مفهومة، وذلك أن بعض النصوص قوتها في كيفية سبكها لغويًا لا في معناها، كما قال الجاحظ.

والثالث: أن أسلوب المؤلفة كان أسلوبًا غير مباشر في الطرح، يعني تحتاج إلى جهد ذهني إضافي لتفهم ماذا تقصد في الكثير من الأحيان، فتكثر من استخدام الكلام الهلامي المبهم، والبعض يظن أن إضفاء الغموض في الكلام يعطي مزيةً إضافية للنص، وأريدك عزيزي القارئ أن تقرأ فصل (سطوة الغموض) في كتاب (مآلات الخطاب المدني) لإبراهيم السكران، حتى ترى أن هذه الحالة نفسية عامة، أحيانًا يجبر الشخص عجزه وضعفه بالهذيان حتى يشكك الآخرين في مستوى فهمهم، ولا يشترط أن يكون الكلام غير المفهوم قويًا أو متينًا بل قد يكون مجرد كومة خراء كما كان يوحي عبد العزيز حمودة في كتابه (المرايا المحدبة) عندما تناول قضية الشعر الحداثي.

والرابع: أن المؤلف لم يضع تراجم لبعض الشخصيات التي وردت في المذكرات، فحتى تفهم الصورة على نحو أفضل كان يجب عليك أن تتوقف عند ورود أسماء بعض الشخصيات وتبحث عنها في المحركات البحثية حتى تفهم مكانتها وأهميتها. وبذلك سوف يكثر أو تَكثُر وقفاتك خصوصًا في الفصول الأخيرة.

هذه النقاط الأربع جعلت المئتي صفحة ألفا صفحة!

وذكرت في فصل بعنوان (الله) سبب توقفها عن الإيمان وعن كونها مسلمة، بسبب أن الله – كما تزعم – لم يَنصف المرأة، وأن العطف والرحمة تتنافى مع عدم المساواة بين الجنسين، رغم أن أختها مليكة تقول أن العائلة تنصّرت على المذهب الكاثوليكي، وأن عدم المساواة بين الجنسين موجودة أيضًا في النصرانية وارجع إن شئت إلى كتاب (المرأة بين إشراقات الإسلام وافتراءات المنصّرين)، بحيث يقول مؤلفه سامي العامري أن من كان بيته من زجاج فلا يرمي الآخرين بالحجارة، فلذلك لا أظن أن المبدأ الذي جعلها تغير دينها هو عدم المساواة، بل اتباعًا للثقافة السائدة والتماشي معها، فأحيانًا التأثر بثقافة قوم تجرك إلى مثل هذه المنعطفات الخطيرة.

وهذه الأسرة كما بيّنت سابقًا ضَحلة في ما يتعلق بالدين، ثقافتها غير عربية، بل تقول سكينة نفسها أنها لا تعرف العربية الفصحىٰ، فكيف إذن سوف تعرف القرآن ومعانيه؟! وقد نشأت هذه الأسرة علىٰ الثقافة الفرنسية وهويتها، وأن فرنسا موطن حلمها لا المغرب صاحبة المكان الرديء فتراها تقول: «**أمضيت ثلاثةً وعشرين عامًا في المكان الرديء لأطأ أخيرًا أرض عالمي**» (أي فرنسا).

ومن صور هذا الانسلاخ الثقافي، تجد رؤوف يقول أنه عندما كانت مليكة تقص قصصها الخيالية علىٰ عائلتها، كانت سكينة تترجم ما تقوله إلىٰ العربية إلىٰ الخادمتين اللتان معهما! وهذا يدل لك أن لغة التخاطب الأصلية بينهم هي الفرنسية.

وذكرت سكينة في خواتيم الكتاب ما جرىٰ لهم عندما توفي الملك، فتقول: «**اتصلتُ بأمي فأكدت لي الخبر باقتضاب، ذهبنا إليها، فتح أخي الباب لنا، بادي الحزن كانت الشقة الصغيرة في حداد، تقتصر برامج الإذاعة على آياتٍ قرآنية، ضوء شاحب، محارم ورقية ودموعٌ صادقة**».

وهذا يذكرك تمامًا بما ذكره سنحوي طبيب فرعون، وقد كتب مذكراته باللغة الهيروغليفية، وذكر أن فرعون أمفسيس قام وطلب من شخص اسمه إخناتون كل ما يملك، فقال له إخناتون خذ أغلب مالدي واجعل لي بقيّة أعيش بها حياتي، فرفض فرعون وقام وقطع يديه ورجليه وجدع أنفه لأنه رفض أوامر الإله، ثم عانىٰ إخناتون الفقر وتمنىٰ أن يحقق ثأره من فرعون، ولكن توفي فرعون، ورآه الطبيب يبكي كما تبكي الثكلىٰ حزنًا علىٰ فرعون. [١٠٤]

وقد ذكرت سكينة مِرارًا وتكرارًا كيف أن أسرتها كانت تكتب الخطابات إلىٰ الملك من أجل العفو استغلالًا لأي فرصة، وأحيانًا يكون في الشهر الواحد مناسبتين فيرسلون رسالتين، ومع ذلك تم تجاهلهم تمامًا، وربما يكون هذا من الأخذ بالرخصة، ولكن هناك من أخذ بالعزيمة في هذا الباب،

---

[١٠٤] انظر مقدمة كتاب يا شيعة العالم استيقظوا لموسىٰ الموسوي – صـ٨،٩، وهذه قصة من الأدب المصري القديم وقد قام نجيب محفوظ بإعادة صياغة هذه القصة برواية بعنوان: عودة سنوحي.

مثل الشيخ عمر الحدوشي الذي اعتقل في المغرب كذلك، وعُذّب حتىٰ فقد بصره وأصيب بأمراض الكُلىٰ والسكري، ومع ذلك سُرِّب له تسجيل من داخل زنزانته يقول: «**قالوا إن أردت أن تخرج اطلب العفو، فإن طلبتُ العفوَ منهم فلا عَفى الله عني؛ وأنا مستعد أن أحفر قبري في زنزانتي ولا أطلب العفو!**»[١٠٥] وقد خرج من السجن بعد أن تسع سنين.

وربما الشيء الوحيد الذي أضافته حقيقة علىٰ كتب أسرة أوفقير في هذا الكتاب هو ذكرها كيف عاشت بعد السجن، أي أنها وضعت بعض تفاصيل معيشتها، فإن مليكة أوفقير لم تذكر هذه الجزئية إلا بكتاب مستقل عنوانه (الغريبة)، وأما أمها فاطمة فقد مرَّت مرور الكرام علىٰ حياة ما بعد السجن.

١٦ فبراير ٢٠١٨م – ٣٠ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣٩هـ

[١٠٥] راجع تسجيلات الشيخ عمر الحدوشي (كلمة للشباب الأبطال وصرخة الشعب ٢٠ فبراير) و تسجيل (هل خبر اصابتكم بالعمىٰ في احدىٰ عينيكم صحيح؟).

معركة الإسلام والرأسمالية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: معركة الإسلام والرأسمالية.**
- **اسم المؤلف: سيد قطب.**
- **عدد الصفحات: ١٢٠.**
- **دار النشر: دار الشروق للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

في الابتداء من المهم أن نذكر أن هذا الكتاب من أوائل الكتب التي كتبها سيد قطب بعدما تحول إلى التوّجه الإسلامي، وكذلك أن الكتاب أُلّف في مطلع الخمسينيات (أي في ذورة الحرب الباردة وانقسام العالم إلى قسمين).

وهذا الكتاب تستطيع أن تعتبره مجرد مقبلات قبل الوجبة الرئيسية وهو كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، فالكتاب الأول مجرد رؤوس أقلام وفي الكتاب الآخر تأصيلات مطولة.

ومن المهم أيضًا أن نذكر أن أحد الإخوة وهو إبراهيم المصري قد التقى مع كمال سلام، وأخبره الأخير أن سيد قطب في أواخر حياته وفي استراحة المحكمة عندما ذُكر له كتاب (في الإسلام والرأسمالية) قال: «هذا كتابٌ يُعدَمُ»، فقال له كمال سلام: «تُصّلحه؟» فردّ سيد: «يتأبّى على الإصلاحِ».

يقول سيد قطب في هذا الكتاب أن النظام الرأسمالي له عِلل اقتصادية ولا تقتصر على هذا الجانب بل تورث عللًا اجتماعية مترتبة عليها ولازمة لها، سوف نضرب بعض الأمثلة للتوضيح: دولة مصدر دخلها النفط ولكن هذا النفط تتقاسمه الأسر، والفتات منه يكون مصدر دخل للحكومة وطالما أنه

لا يوجد تقاسم عادل للثروة بسبب استئثار هذه الأسر فتكون الرواتب الحكومية قليلة جدًا في مقابل غلاء فاحش في مستوى الحياة فأنت لما يكون مصدر دخلك ضعيف مقابل مستوى حياة غالي فكيف تسد هذا النقص؟ بالرشوة، فتقول مثلًا للمراجع: ادفع بخشيش حتى أمشي معاملتك بسرعة وإلا .... ثم تصبح الأجهزة الحكومية قائمة على الرشوة والمحسوبية وسبب هذا الفساد الخُلقي والاجتماعي أسباب وانعكاسات عدم تقسيم عادل للثروة.

ويقول سيد قطب أن الرأسمالية هي من تكوّن المظالم الاجتماعية وأبرز تلك المشاكل وما يتفرع عنها هي:

- سوء توزيع الملكيات والثروات.
- مشكلة العمل والأجور.
- عدم تكافؤ الفرص.
- فساد العمل وضعف الإنتاج.

وهذه النُّظُم بالأخص في الدول العربية تجعل المواطن لا يكون هنالك لديه شيئًا ليخسره، ومن هنا تبرز الشيوعية بديلًا محببًا، فلما أنت تحذره وتقول له ترى الشيوعية تعني الاستبداد فيقول لك: «الأمر سيان فنحن نعيش في الاستبداد خلا أن الشيوعية توفر فرص عمل أكيدة وتنهي ظلم الإقطاعين». فأنت كلما تقول له ترى الشيوعية فيها كذا وكذا يقول لك: «أصلًا ما يفرق لأن نعيشه الآن».

ولكن يقول سيد قطب لماذا نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فالشيوعية سوف تسد لك جانبًا مهمًا وتلغي منك الجوانب الأخرى فتلغي الحرية السياسة والدينية إلخ مقابل أن توفر لك الخبز، ولكن في الإسلام يحصل التكامل، فتكون هنالك حرية مع الخبز.

وذكر أن من الأمور الجيدة في الإسلام هو التعامل مع قواعد عامة مرنة في تعاطيها مع المستجدات الطارئة والمتبدلة دون أن يكون هنالك أسلوب معين يكون هو الفيصل للتعامل مع كل الحالات، وذكر بعض القواعد الفقهية الكبرىٰ والتي من خلالها يستنبط الحكم الشرعي مع الواقع المتغير، أو كما يقول نصًا: «**مبدأ «المصالح المرسلة»؛ أي مصالح المجتمع التي لم يَرِد فيها نص ومبدأ «سد الذرائع» أي توقي الأخطار المحتملة كفيلان بمنح الدولة كل الحرية في التشريع حسب مقتضيات الأحوال في حدود العدل وكفاية العامل ورضاه**» وضرب مثالًا آخر (مثل قاعدة: المصلحة العامة مقدمة علىٰ المصلحة الخاصة) استنبط منها سيد قطب جواز التأميم عند الاضطرار، فيقول لماذا تبقىٰ أرض كبيرة جدًا لفلان دون أن يستثمرها ولا يريد حتىٰ أن يستثمرها بينما تستطيع الدولة أن تستحوذ عليها وتستثمرها بما ينفع المجتمع كله، وبذلك تكون حققت مصلحة عامة مقابل مصلحة الفرد؛ وذلك لأن «**حق المجتمع مطلق في المال، وحق الملكية الفردية لا يقف في وجه هذا الحق العام، واتقاء الأضرار المتوقعة لهذا المجتمع أولى بالرعاية من حقوق الأفراد**».

وأما في الكلام عن مبدأ تكافؤ الفرص يقول أن الإسلام يتيح للجميع بالتساوي، والشيء الوحيد في التفضيل هو أن يسبق أحد البقية في موهبته. ولكن هذا لا يكون في النُّظُم الرأسمالية وسوف نبسط المسألة، الآن في النظم الملكية وحتىٰ الجمهوريات في الدول العربية، تجد أن الوزراء أغلبهم من العائلة الحاكمة أو من الحزب الحاكم، فلماذا أصبح هؤلاء في هذا المنصب؟ بماذا تقدّموا علىٰ الآخرين؟ ليس بالموهبة بل حصل هذا التفاوت في المناصب بسبب أن هذا الشخص شاءت له الأقدار أن يولد في هذه الأسرة؛ فهذا النظام ألغىٰ التكافؤ في الفرص علىٰ أُسس سليمة وهي «القدرة الذاتية» وعلقها بأسباب قدرية مثل الولادة في بيت أسرة معينة! والإسلام يَكسرُ هذه الامتياز ويساوي بين الجميع ولا يرتقي إلا من يستحق وليس لأنه من ولد فلان.

وكذا تكلم قطب عن نظام الاحتكار وأنه مذموم في الإسلام، والاحتكار أنواع وأصناف، ولعله يقصد قضية الاحتكار المرتب بالنفوذ للاستحواذ على تمثيل وكالة أجنبية ما كما يحصل في بعض بلداننا، عندما تعطي وزارة التجارة حق الوكالة لأسرة - لوجود مصالح مشتركة بين الحكومة وهذه الأسرة - وتكون هذه العائلة هي الوكيل الحصري للمنتج التجاري (أ)، وثم تكمن الإشكالية الكبرى في تضخم ثروة هذا الوكيل الحصري، وعندما تتضخم ثروته إلى حد كبير يكون من الاستحالة منافسته فعندما تدخل أنت كشخص مبتدئ ولديك رأس مال ضعيف وتناطح مليونير، فيقوم هو بتخفيض أسعار البضاعة - ويتحمل الخسائر لشهر أو شهرين أو سنة - فتضطر أنت أن تسايره وتنزل سعر البضاعة وتتكبد الخسائر تلو الخسائر حتى تُفلس، كل هذا حصل بسبب أن الحكومة سهلّت نيل الوكالة لهذه العائلة أو تلك! وهذا الأمر يتنافى مع مبدئ التنافس الشريف.

فالنصف الأول من الكتاب هو بإظهار البدائل التي يوفرها الإسلام والحكم الإسلامي والشق الثاني هو في الكلام عن الحكم الإسلامي، فستفيد من الأول سياسةً اقتصادية وتستفيد من الثاني فقهَ الواقع.

٢٤ فبراير ٢٠١٨م - ٩ جمادى الآخر ١٤٣٩هـ

صفة صلاة النبي ﷺ

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: صفة صلاة النبي ﷺ.**
- **اسم المؤلف: عبد العزيز بن مرزوق الطريفي.**
- **عدد الصفحات: ١٦٠.**
- **دار النشر: دار المنهاج.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (صفة صلاة النبي ﷺ) للشيخ المحدث عبد العزيز الطريفي، ويقع في ١٦٠ صفحة من طبعة دار المنهاج، ورغم أن الكتاب قصير نسبيًا إلا أني أمضيت معه أسبوعين تقريبًا، وذلك لأن كتب الفقه تقرأ ما فيها لتطبقه وتعمل به وليس لمجرد أن تتثقف، والصلاة أمر يتكرر معك يوميًا، فلا بُدَّ من حفظ النصوص والأدلة قبل أن تتنقل إلى الصفحة التي تليها.

والجميل أن بعض المشايخ المختصين في جانب يستصحبون تخصصهم عند كلامهم عن العلم الآخر من علوم الآلة، وعلم الحديث مفصلي مهم جدًا في أبواب الفقه، لأن التعبد لا يشرع إلا بما صح، فكيف نتأكد من صحة هذا الفعل لنتعبّد به إن لم يكن يستند على حديث صحيح؟ وعدم الاعتناء بعلم الحديث في مدارسة الفقه أدى إلى نشوء معتمدات في المذاهب الفقهية قائمة على أحاديث ضعيفة.

وكنت أرجو أن أجد مثل هذا الكتاب لعامة الناس الذين ليست لهم خلفية في مصطلحات الشريعة، وأصل هذا الكتاب محاضرات مفرغة ألقاها الشيخ على طلبة العلم، ولكن عجبي كيف تكون المادة

هكذا مرتبة أيما ترتيب وأصلها مفرغ، فإن لم تكن هنالك تعديلات جوهرية عند الطبع فهذا يَدلُّ على علو كعب الشيخ في الإلقاء.

وتكمن أهمية هذه الكتب للتفصيل ومعرفة الفوارق ما بين أركان الصلاة وواجباتها ومستحباتها وهذا أمرٌ مؤثر، وعدم المعرفة بين هذه الفوارق قد يؤدي في النهاية إلى عدم صحة الصلاة، وأنت تظن أن الشيء الذي فوّته مجرد سنة لا يأثم الشخص بتركها.

وكذا معرفة السُنن في الصلاة إن كنت حريصًا على الاتباع وزيادة الأجر والثواب، وربما خطأي في هذا الكتاب هو عدم التلخيص واستخراج خلاصة الأحكام الشرعية في كناشة مستقلة، حفاظًا على تسلسل الأحكام وسهولة حفظها ويفيدك أيضًا إن قرأت كتابًا فيه رد على ما ذكره الشيخ وبيان بعض الأخطاء فمن السهل الوقوف على الخطأ ومراجعة الدليل.

٢٦ فبراير ٢٠١٨م - ١١ جمادى الآخر ١٤٣٩هـ

رواية: ابنة الضابط

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: ابنة الضابط.**
- **اسم المؤلف: ألسكندر بوشكين.**
- **اسم المترجم: سامي الدروبي.**
- **عدد الصفحات: ١٦٠.**
- **دار النشر: المركز العربي الثقافي.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة رواية (ابنة الضابط) وهي في الحقيقة مذكرات للضابط الروسي (بترو أندرڤتش) قد أرسلها أحفاده إلىٰ بوشكين لينشرها، فأعاد صياغتها لتصبح وكأنها رواية وأضاف بعض الأبيات الشعرية ومع تبديل بعض الأسماء وهو أسلوب جارٍ إلىٰ يومنا هذا في تحويل الشهادة التاريخية إلىٰ رواية علىٰ سبيل المثال هذه الروايات: «اسمه أحمد» و «يسمعون حسيسها» و «حديث الجنود» لأيمن العتوم.

وهذا الضابط هو ابن جنرال قد أُرسل للخدمة العسكرية في إقليم حصلت فيه ثورة القوزاق علىٰ الإمبراطورية الروسية وعلىٰ الإمبراطورة كاترين الثانية، فيذكر جملة من المشاهد التي عاشها في تلك الأقاليم النائية وأحداث الثورة.

وإن كنت أرىٰ أن هذه الرواية تقليدية إلىٰ حد ما، ولكن الشخص الذي اندمج بها سوف يَحبسُ أنفاسه مِرارًا، لأنه كلما ظننت أنها استحكمت فُرجت، وكلما ظننت أنها فُرِجَت ستستمر إلىٰ أن ترىٰ أن الأمور قد استحكمت مجددًا، وهكذا...

محورية الرواية تستطيع أن تُركزه على مقولة «اعمل خير وارميه بحر»، فأحيانًا قد تُحسن إلى أحدهم دون حاجة وتكرمه، وتنسى ذلك وتشاء الأقدار أن يكون إحسانك هذا هو سبب نجاتك.

وكذا تستفيد من هذه الرواية ما قاله عبد الله الحامد:

ما نال قومٌ عزةً والرأي فيهم ذو ارتعاش

فأحيانًا لتحقيق النصر لا بُدَّ من الإقدام - لا الإحجام - بسبب حصار أورنبورغ أن الجنرالات رفضوا نصائح الذين شاركوا سابقًا في قتال المتمردين بمواجهة مباشرة من خلال قطاعات نظامية وفضلوا التحصن لأن هذا أقل مخاطرةً، ثم مع التجربة تبيّن أن التحصن كان هو الأشد مخاطرةً! لأنهم وقعوا في حصار وجوع وأصبح الناس يأكلون بعضهم وأصبحت الخيول جائعة وأصبحت متهالكة (فلم يستطيعوا أن يغيروا الإستراتيجية من دفاع إلى هجوم بل كتب عليهم أن يبقوا هكذا يموتوا ببطء)! فلاحظ ماذا يصنع عندما تقدم الإحجام مكان الإقدام، وكذا تستفيد من الرواية ما قاله القحطاني في النونية:

لا تتركن أحدًا بأهلك خاليا ... فعلى النساء تقاتل الأَخَوَانِ

وكذا قول الشاعر:

كل العداوات قد ترجى مودتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد

هذان البيتان يتناغمان في سياق واحد بالقصة، أحيانًا الشخص الذي يرسب لا يرتاح إلا إذا رأى أن هناك شخص آخر أو مجموعة رسبت معاه، تستطيع إسقاط ذلك على هذه القصة، بحيث أن الشخص إن لم يفلح من الزواج بامرأة ما لأنها رفضته، يَكره أن يرى أن غيره قد تزوجها، فيُكنّ لمن أرادت الزواج منه عداءً مستحكمًا لا نظير له، مهما حاولت أن ترتجي المودة منه وأن تنتهي إلا أنك لا

تفلح، لأن منشأ هذه العداوة هي الحسد، بل وقد يصل به الحال إلى أن يفضل الغرق ويسحبك معه لتغرق حتى لا تنال مرادك!

ربما أراد تولستوي أن يحاكي هذه الرواية بقصة (الحاج مراد) لأن كلا القصتين تحكيان تمرد القوميات على الإمبراطورية الروسية، وكلا القصتين حقيقيتين، الأولى تحدثك عن القوزاق والثانية عن القوقاز.

١ مارس ٢٠١٨م – ١٤ جمادى الآخر ١٤٣٩هـ

رواية: مذكّرات قبو

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: مذكّرات قبو.**
- **اسم المؤلف: فيودور دوستويفسكي.**
- **اسم المترجم: أحمد الوزيري.**
- **عدد الصفحات: ٢٠٧.**
- **دار النشر: المركز العربي الثقافي.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة رواية (مذكرات قبو) لـدوستويفسكي، وهذه الرواية تُمثّل شذوذًا عن المألوف، أنا أقرأ الروايات من حين إلى آخر للترفيه؛ فالرأس قد يتصدع من قراءة مجموعة متتابعة من الكتب، فلا بُدَّ من فسحة يَستجمّ بها الشخص، ولكن هذه الرواية لم تكن بالمستوى البسيط أو السهل أو السلس أو لم تكن خيارًا محبذًا للاستجمام، بل عملت نوعًا من العصف الذهني، لأنها في الأصل سجال فلسفي حول مكنون الطبيعية الإنسانية، وهذا يُفسّر إعجاب بعض الفلاسفة والمفكرين بها كأمثال فريدريك نيتشه.

والرواية تنقسم إلى فصلين، الفصل الأول هو سجال فلسفي مع الذات، وتعتبر تقريبًا ربع الرواية، والشق الآخر هي تفاصيل الرواية: (التقيت وذهبت وقلت وقالوا لي...إلخ)، والمتعب في طرح دوستويفسكي أنه أحيانًا يتناول بعض المواضيع بطرح سفسطائي، أي أنه يأتي بالشيء ونقيضه، ومن الأمور التي ذكرها دوستويفسكي أن الإنسان لا يكون إنسانًا إلا بتوفر الإرادة الحرة لديه وليس بأن يعمل جاهدًا تجاه مصلحته الذاتية أو الخاصة، فالطبيعة البشرية تقتضي من الشخص أحيانًا أن يعمل أمرًا في اتجاه معاكس لمصلحته الشخصية لمسوغات معينة عامدًا لذلك، ولو جُعل العقل هو الحاكم

علىٰ البشر وقيّدت الأهواء تقييدًا مطلقًا به، لأصبحنا نعيش حياة وفق المعادلات الرياضية (كل شيء قد حُدد سلفًا)، وكان هذا الطرح هو مساجلة قد رد فيها علىٰ مبدأ تشيرنيتشسيڤسكي الأنثروبولوجي في الفلسفة. وقد عرف الحب كذلك علىٰ أنه خضوع طوعي لاستبداد الطرف الآخر.

وبطل الرواية هو شخص نسميه في لهجتنا العامية «سِفْلَة» أي دائمًا ما يتم «التسفيل» به، ويضع نفسه في مواطن تحط من قدره وتجعله مثارًا للسخرية أو الاستهزاء أو الازدراء، والجميل أنه متسق مع ذاته متصالح معها وصريح معها إلىٰ أبعد حد، وهذا غالبًا ما يبعث علىٰ الضحك، يعني تخيل لو يطلب منك أحدهم أن تصوره ثم تتسائل ما الغرض من الصورة؟ فيقول لك: «علشان أهايط فيها علىٰ الانستغرام»، قد تضحك من هكذا جواب، فالصراحة المبنية علىٰ التصالح مع الذات غالبًا ما تجعل الأطراف الأخرىٰ تضحك لأنها خلاف المألوف؛ وأنا شخصيًا لا أذكر أني ضحكت إلىٰ حد القهقهة في رواية سوىٰ هذه الرواية.

وأسلوب الرواية وكذلك أسلوب الترجمة أحيانًا تؤثر في القارئ، إعجابًا أو محاكاةً، وهذه الرواية أسلوب الكلام فيها قد يجعل الشخص يُحاكيه خصوصًا إن كان يحب التفكه أو التهكم.

كذا بطل الرواية تحدث بشكل مُستطرد مع أحد العاهرات، - وهنا تتأمل قوة أسلوب دوستويفسكي في السجالات النفسية -، كيف يمكن أن يوظّف شخص ما جملة من حوار ليعرف نقطة ضعف الطرف الآخر، ليشن هجومًا مباغتًا ضده حتىٰ ينهار الطرف الآخر، وهذا يذكرنا بما جاء في كتاب (فن أن تكون دائمًا علىٰ صواب) للفيلسوف الألماني أرثور شوبنهاور الذي يقول فيه أن المحاورة هي أشبه بمبارزة، من خلالها تعرف نقاط ضعف خصمك وتستغلها لصالحك، كما أن حوار البطل مع العاهرة، يحمل دلالات معينة قد يستفيد منها الشخص في الدعوة لأفكاره، وهي أن بعض المذنبين لا يمتثلون أحيانًا للدليل النقلي الذي يثبت خطئهم، بل لا بُدَّ من الدليل العقلي المنبثق

من الواقع ومن التجارب ومن المآلات، فأحيانًا لما تقول للمدخن أن التدخين لا يجوز شرعًا قد لا يتأثر بخلاف إن أتيت له بإحصائيات عن السرطان وكم نسبة المدخنين من مرضى السلطان وكم تكلفة علاج السرطان وما هي الحياة التي سوف تعيشها إن أصبت بالسرطان.

وكذلك عمد إلى عمل المقارنات والتسويق للبديل، فحتى أنت الواقف على الأرض المحايدة، قد تتشوق زيادة عن اللزوم للزواج! لحسن ما سوق له مقابل الدعارة، بعمل مقارنة ما بين السعادة والتعاسة في الأمرين.

واللافت للانتباه في دوستويفسكي، أن نبوغه في علم النفس، أظن نابع من أمرين - يظهر لي من قراءة بعض الروايات الأولى دوستويفسكي أنه لم يكن بذاك في هذا التخصص - ولكن يبدو أن التغيرات التي طرأت عليه جعلته يكتسب قدرة تأملية كبيرة، أي أنه اكتسب هذا بالشق النظري والتطبيقي، وأما التطبيقي مثل مروره بتجربة الاعتقال ثم الإعدام، والشخص قد لا يكتشف قدرات نفسه إلا عندما يقع في مهاوي الانسحاق، ويكون الألم موقظًا لشيء من مخبوئات النفس وقدراتها، وأما الشق النظري وهو أمر لافت للانتباه أن مترجم هذه الرواية أحمد الوزيري اجتهد كثيرًا في محاولة التدليل على مقاصد دوستويفسكي من بعض الكلمات المبهمة في الرواية، وغالبًا ما يرجعها إلى مراجع معينة، ويدل على أن ديستوفسكي قارئٌ نهم مطّلع على الكثير من الأطروحات الفلسفية والأدبية وغيرها، أي أن هذا الشخص لم يصل إلى هذه القامة إلا بعد تجربة حياتية مريرة واطلاع موسّع على جملة من العلوم، فترى هذا وتتأمل حال بعض مؤلفي الروايات المستجدة الذين لا يملكون من الحصيلة الثقافية سوى قراءة روايات سطحية ثم يتوهمون أنهم روائيين كبار.

٦ مارس ٢٠١٨م - ١٩ جمادى الآخر ١٤٣٩هـ

ذاكرة وطن

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: ذاكرة وطن.**
- **اسم المؤلف: إبراهيم السيد علي كمال الدين الغريفي.**
- **عدد الصفحات: ٢٢٠.**
- **دار النشر: طبعة خاصة.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (ذاكرة وطن) لإبراهيم السيد علي كمال الدين الغريفي، ومن المعروف أن السيد علي كمال الدين هو أحد قادة هيئة الاتحاد الوطني البحريني، التي خاضت انتفاضة الخمسينيات ضد الاستعمار، وكانت الهيئة قومية التوجه ناصرية الهوى، وتاريخ البحرين السياسي خلال عقود (الخمسينات والستينات والسبعينات) غالبًا لا تراه إلا من خلال القوميين أو من لفّ لفيفهم كحزب البعث الاشتراكي، أو من خلال اليسار الماركسي بتأويله اللينيني أو الماوي؛ لأن الأحزاب الفاعلة مَثَّلَت في أغلبها هذه التوجهات.

ونصف الكتاب يَروي فيه إبراهيم بعض المواقف التي عاشها مع والده في فترة الخمسينات، وعادةً ما تكون الكويت هي السباقة في الخليج ثم تتبعها دول الخليج بعد ذلك بمعنى تعمل تويت ثم البقية يعملون ريتويت، ولكن البحرين سبقت الكويت هذه المرة في قضية تأسيس أحزاب سياسية، فكانت هيئة الاتحاد الوطني أول حزب سياسي في الخليج. وإبراهيم – المؤلف - هو ابن هذا القيادي، ولكن لم يكن كوالده عالمًا شيعيًا بل كان بعثيًا.

والنصف الآخر من الكتاب يتكلم فقط عن السجن وتفاصيل المعيشة فيه، والكتاب مليء بالثغرات، وأضف إلىٰ ذلك أن مشاكل الكتاب الأخرىٰ أن محتواه مبعثر وأحيانًا مكرر (لأن سلسلة مقالات له وأحيانًا تكون لغيره)، والكتاب مليء بالأخطاء الإملائية - فحتىٰ أنا الضعيف في هذا أقول أن الكتاب لم تتم مراجعته وتدقيقه وتصحيح تطبيعاته - وأما البعثرة فهو غير متسلسل، بل مرة تجد نفسك تقرأ عن انتفاضة آذار/مارس في الستينات ثم فجأة تجد نفسك في فترة سجن سافرة في الثمانينات ثم يرجع بك إلىٰ السبعينات وحل البرلمان، ثم فجأة يذكر سيرة والده التي كتبها عبد الله آل سيف ويرجعك إلىٰ الخمسينات!

لدرجة أننا لم نعرف إلىٰ أين نُفيَ بالضبط ومتىٰ عاد ولماذا تكرر اعتقاله.

وأما حديثه عن فترة السجن، فتكلم عن المبارزات الشعرية التي تحصل في السجن خصوصًا مع وجود شعراء كبار الآن وهم علي الشرقاوي وقاسم حداد وتأثرهم بصائد مظفر النواب وغيره من الشعراء آنذاك، وتكلم عن قضية صيد الطيور في سجن جدة، وتكلم عن قضية تعاطف السجانين معهم وتكلم عن ثبات أُسَر المُعتقلين وتضحيتهم من أجل أبنائهم مثل قصة أحمد مطر الذي جلست أمه علىٰ منشوراته حتىٰ لا تتم مصادرتها أو قصة أمه التي كانت تعتصم أمام السجن من أجل الزيارة فكانت تضرب كل يوم ولا تستسلم!

وكان خاتمة الكتاب رسائل كان يتبادلها مع أهلِهِ، ووضع جزءًا منها نصًا والبعض الآخر صورةً.

ومن نافلة القول أنه تكلم كذلك عن خالي عبد الله المطيويع وذكر قصة نقله وتسريب الطعام له - وهذه القصة لم يذكرها المطيويع نفسه في كتابه -، وروىٰ حادثة أيضًا عن والد جدي وهو راشد الجابر عن قضية أعمال السخرة في البحرين؛ وكأن الإقطاعية تُجسّد نفسها في البحرين وإن كانت ناقصة، فالعامل في مزرعتك لو ضربته أو قتلته أو حتىٰ لم تعطيه حقه، فلا بأس عليك ولا تثريب!! يعني أظن أن الكتاب تستفيد منه أكثر في الاطلاع علىٰ مواقف السيد علي كمال الدين أكثر من

حديث المؤلف عن الأحداث التي عايشها خصوصًا أن من عاش انتفاضة آذار/مارس ١٩٦٥ كُثُر والذين كتبوا عنها أيضًا ليسوا بالقلة، بخلاف فترة الخمسينات، فلم يكتب عنها إلا عبد الرحمن الباكر وكتابه يكاد يكون المصدر الوحيد في سرد الرواية غير الرسمية لتلك الأحداث وأما مذكرات عبد العزيز الشملان فهي مجرد يوميات ما بعد النفي وكذا لا ننسىٰ أن السيد علي وهو الأب كان له دورًا مهمًا جدًا في الريف أثناء انتفاضة الخمسينات ولكن لم تكن هنالك مذكرات له، وأما المخطوطات لخطبه فقد تمت مصادرتها أثناء حملات الاعتقال، وأظن أن الفترة التي نشأت فيها هيئة الاتحاد الوطني كان لها دور في تشكيل شخصية السيد علي كمال الدين فقد نشأت الهيئة بعد أحداث ومصادمات حصلت بين السنة والشيعة، فيذكر ابنه مثلًا أنه كان ضد التفرقة بل وصل به المقام إلىٰ الدفاع عن أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأثنىٰ عليه وأطال عندما قيل له أن أبو بكر مغتصب للخلافة من علي.

١٣ مارس ٢٠١٨م – ٢٦ جمادىٰ الآخر ١٤٣٩هـ

العقلية الليبرالية في رصف العقل ووصف النقل

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: العقلية الليبرالية في رصف العقل ووصف النقل.**
- **اسم المؤلف: عبد العزيز بن مرزوق الطريفي.**
- **عدد الصفحات: ٢٧١.**
- **دار النشر: دار المنهاج.**

التعليق والمناقشة:

الشيخ عبد العزيز الطريفي يتكلم هنا عن الليبرالية بأصلها وتأثيرها ومضادتها للشرع والفطرة، والكتاب احتاج مني وقتًا لا بأس به لقراءته؛ لأني أشعر أن صياغة الكلام فيه ليست بالسهلة، فتحتاج إلى التأمل كثيرًا لتفكيك النص لمعرفة المعنى والمراد، وهذا على خلاف أسلوب الطريفي في بقية كتبه الشرعية الذي يعمد فيه إلى تبسيط المعنى إلى حد يُصبح فيهِ مفهومًا للعامي والعالِم، وهذا التقعّر في الكلام؛ أشعر أنه سوف يُقلل من نسبة الفائدة عند جمهور القراء ويحصرها في النخب الفكرية ويستبعد العوام منها تلقائيًا. والفهرِس - كما سترى - طويل؛ بمعنى أن الكتاب يحتوي على مواضيع كثيرة من الصعب احتوائها جميعًا والتطرق إليها جميعًا، وإنما سوف أعلق على بعض الجزئيات البسيطة:

- لم يتعرض الطريفي لمؤسسي الفكر الليبرالي بأسلوب (عرض ونقد) وإنما أتى على القواعد العامة؛ وذلك لأن اعتناق الليبراليين لدينا متفاوت في تبني الكثير من آراء المنظرين لهذا الفكر، والكلام عن القواعد التي ينطلق منها هؤلاء أضبط وأوجز في بيان مواطن الزلل والتركيز عليها بخلاف التعرض لمسائل قد وردت على لسان المنظرين ولكنها غير مطبقة على أرض الواقع.

- الليبرالية الشرقية (مبتورة أو منقوصة)، فقد ترىٰ الليبرالي لدينا ينادي بالحريات الشخصية وحرية اللبس ولكن في الوقت نفسه تراه يؤيد الحاكم في تكميم الأفواه واعتقال المخالف! أي أنه لم يناد بالحرية الليبرالية كما هي في الأصل، وإنما بترها وقصرها فقط علىٰ حرية الشخصية ولكن ليست حرية التعبير ولا الرأي فلذا هذا التضاد تراه يظهر بمظهر المتناقض الذي يؤيد الحريات في شق ويؤيد القمع والاستبداد وتكميم الأفواه في شق آخر.

- قد تصل أحيانًا إلىٰ نهايات لا تعرف منتهاها ولا أسبابها ولا كيفية نشوءها، خصوصًا كيف وصلنا إلىٰ مرحلة أن يحتاط الفقيه ويحترز ويشعر بنوع من الخوف عندما يقول أن هذا الشيء حرام أو لا يجوز، فالطريفي هنا يذكر لك مقدمات الخطاب الإعلامي في التركيز علىٰ شذوذات المشايخ وسقطاتهم والتركيز علىٰ المحرمات فقط بحيث يَتصف في ذهنية الشخص البسيط أن هؤلاء المشايخ لا يعرفون إلا الحرام، وهذا الأسلوب الإعلامي قد حَرف جملة من المشايخ إلىٰ أن يسايروا رغبات الجماهير لكي يخرجوا من دائرة الضغط.

- الثناء علىٰ موطن متفق فيه ويتناغم مع خطاب الوحي لدىٰ الآخر يجب أن يكون مدحًا وصفًا مستقلًا - لا تأكيدًا علىٰ الأحقية لدىٰ الآخر -، وجاء في ذهني أن هذا الكلام قد تراه الآن واضحًا في الحركة «النسوية»؛ في بعض الدول تتعرض فيها المرأة لشيء من الاضطهاد بمسوغ العرف المتخلف أو التأويل الفاسد للشرع، فنشأت بعض الحركات النسوية التي تطالب برفع الظلم عن المرأة، وفي كلامهم شيء من الحق والباطل والباطل الذي يدعون إليه أعظم من الحق الذي ينادون به، فأنت لا تعطي الشرعية لهم وتؤكد أن بعضًا من مطالبهم صحيح لا غبار عليه وتؤيده، فدعمك لهذه الطلبات «المحقة» لا يعني تلقائيًا أنك سوف تُسوّق للطلبات الأخرىٰ!! والحل: أن الإنكار هنا يجب أن يأخذ شكلًا مستقلًا لا تسويقيًا لزيد أو عبيد، فيجب أن يبرز الخطاب الشرعي المنضبط والمقيد في قضايا رفع الظلم عن المرأة، التمايز هنا مطلوب حفظًا للحق أن يختلط مع الباطل.

- الكتاب فيه بعض الأخطاء فيما أظن؛ وهذا مما جعل أمثال يوسف سمرين يبين جملة مما وقع فيه المؤلف، ولعل أبرزها كلام المؤلف حول العقل وتضاد المعاني حولها أبرز ما فيها. وأظن أيضًا مما أذكره قال وعلق في ذهني في كلامه عن الغرب يكون مسموح للفتاة والفتى بمجرد البلوغ أن يفعلوا ما يريدون، وهذا غير صحيح، بل يحق لهم أن يفعلوا ما يريدون إن وصلوا إلى سن الثامن عشرة، لذلك ترى في أمريكا هناك قضايا فيدرالية مثل: جنس الأطفال (ويقصدون كل شخص لم يبلغ الثمانية عشرة من عمره) فأي معاشرة جنسية لقاصر فهي تُهمة وإن كان كلا الفتى والفتاة بالغان.

اقتباسات:

«وكل عقيدة سابقة يُعمل بها - ولو باطلة - فلها تأثير على العقيدة الجديدة، سواء كانت صحيحة أو باطلة، فيبقي أثرها على العقل ولا يزول بسهولة». (صـ١٠١).

«تجد عند بعض أهل الديانة المنسلخين عن ديانتهم من الجنوح أكثر من غيرهم من الفساق؛ وذلك أن كل منتكس عن فكرة يغلو في التمسك بضدها أكثر من سابقتها في الأغلب». (صـ١٠٢).

«جاء إلي رجل يناظر ويخاصم في حِكَم الله الغيبية، ثم قام ولبس حذائي خطأً وخرج، فقلت: لم تُبْصر موضع قدميك وتخاصم الله في مواضع الغيب؟» (صـ١٢٩).

«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مركز ضبط الحريات حتى لا تنفلت، والليبرالية مركز انفلات الحريات حتى لا تنضبط، ولا يجتمعان على أصل ولا على فرع، بمرض أحدهما وموته يصح الآخر ويحيا». (صـ١٧٨).

١٦ مارس ٢٠١٨م - ٢٩ جمادى الآخر ١٤٣٩هـ

قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام.**
- **اسم المؤلف: محمود محمد شاكر.**
- **عدد الصفحات: ١٣٠.**
- **دار النشر: مطبعة المدني.**

التعليق والمناقشة:

هذا لقائي الأول بشيخ العربية محمود شاكر في كتابه (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام)، وهو لقاء حسن من وجه وسيء من وجه آخر، وكتابه هذا كتاب نقدي بالمقام الأول، وأنت ترى في هذه الأيام كل من هب ودب والمتردية والنطيحة وما أكل السبع أصبحت أسمائهم توسم بـ«الناقد فلان»، ولكن كما قال الشاعر:

إني لأفتحُ عيني حين أفتحها   على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدًا

ولكن قارن نقدهم ونقد محمود شاكر لجزئية بسيطة وردت في مقدمة كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي (ت٢٣٢هـ) حتى تعرف ما هو النقد فعلًا، والكتاب يتكلم عن ٣ نقاط كما افتتح المؤلف كلامه:

١. قضية عمر الشعر الجاهلي الذي وقع إلينا، وهي قضية متفرعة عن أولية الشعر نفسه في لسان العرب.
٢. قضية شعراء الجاهلية المعروفين، وما انتهى إلينا من أشعارهم ومقدار هذا الشعر.

٣. قضية وضع الشعر ونحله شعراء الجاهلية أهي صحيحة أم باطلة؟ فإن صحت فأين المنحول في ما وصلنا عن العلماء الرواة من أشعارهم؟

وأصل الكتاب هو سلسلة محاضرات ألقاها المؤلف في جامعة (الإمام محمد بن سعود) في السعودية.

وابن سلام هو من أوائل الذين ألفوا في النقد والتاريخ الأدبي، وقد ولد في بيئة بلغت فيها البصرة أوجها العلمي وبدأت تؤسس العلوم وتوضع القواعد الأولى لها، فعلم الحديث والجرح والتعديل أُسس والنحو كذلك أُسس، وكان ابن سلام قد بزغ وتخصص في أيام وأخبار العرب وأشعارها وفرسانها، وأراد هو كذلك أن يؤسس علمًا محاكي لعلم الجرح والتعديل في مصطلح الحديث ولكن في باب الشعر، والمشكلة أن هذه الرغبة أصبحت مُلحة بعد أن بلغ من العمر عتيًا (ثمانين عامًا)، فكان يسابق الزمن لإنجاز مشروعه، ولكن هذه السرعة المُفرطة وتفاقم المرض أديا إلى وجود خلل في منهاجية الكتاب - فشذ ابن سلام عن المنهج الذي وضعه وتجاوزه ولم يلتزم به - ونقد محمود شاكر له، رغم أنه حصره في مقدمة الكتاب في الغالب، إلا أنه أطال النفس في سبر حال ابن سلام الجمحي، وتتبع تراجمه وأقوال الناس عنه ومعاصريه ومتى تمت اللقيا بينه وبينهم وماذا جرى ثم بنى على هذه استنتاجات تفسر لنا خطأ ابن سلام في مقدمة الكتاب، وهذا يعطيك دلالة أن العلوم متداخلة مع بعض، فالتراجم مرتبطة ارتباطًا بالنقد الأدبي، فلا يمكن أن تدرس حال شخص بفصله عن محيطة وبيئته، وأن الناقد الذي لا علم له بفترة المنقود ولا سيرته ولا طبقته ولا معاصريه فليس بناقد.

ولكن لماذا كان اللقاء سيئًا في الشق الآخر؟ يَرجع هذا إلى أن من خلال تصفحي لبقية كتب محمود شاكر (وهذا ليس حكمًا قطعيًا بلا شك) أن كُتبه تحتاج إلى مقدمات، فلا يمكن أن تقرأ كتاب (المتنبي) وتستمتع غاية الاستمتاع وأنت لم تقرأ للمتنبي أولًا ولم يكن لديك صورة تمثل الحد الأدنى من السجال الذي حصل حوله وحول شعره، وكذا كتاب (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن

سلام) لا بُدَّ أن تَشرع في قراءة كتاب ابن سلام أولًا (طبقات فحول الشعراء) ثم يكون لديك تصور حول المعركة الأدبية التي أشعل أوارها طه حسين حول الشعر الجاهلي حتى يكون لديك تصور صحيح.

وثانيًا: وهذا تصور شخصي من خلال قراءتي لكتب النقد الأدبي، أن هذه الكتب تستلزم منك أن يكون لديك معرفة أبجدية بقواعد اللغة والشعر، فلن تستمع بنقد محمود شاكر وهو يَستلُّ حَرفًا من حروف ابن سلام ليأوّل كلامه على قواعد اللغة، فهذا المشهد سوف تكون الغائب الحاضر فيه إن لم يكن لديك معرفة بالقواعد، ويمكن أن تسقط هذا على كتابه (نمط صعب ونمط مخيف) الذي يدور كله أو جلّه على الشعر وقواعده.

١ أبريل ٢٠١٨م - ١٦ رجب ١٤٣٩هـ

الحرب القذرة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الحرب القذرة.**
- **اسم المؤلف: حبيب سويدية.**
- **عدد الصفحات: ٢١٢.**
- **دار النشر: دار ورد للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب قدّم له أحد القضاة الإيطاليين الكبار وهو (فرديناندو أمبوزيماتو) وهو أحد القضاة الذين شاركوا في قضايا ما يتعلق بالمافيا أو الإرهاب (ومصطلح الإرهاب في إيطاليا في تلك الحقبة غالبًا ما يُقصد فيهِ الإرهاب الشيوعي كتنظيم الألوية الحمراء)، وفي مقدمة الكتاب يرى أن هنالك تشابهًا ما بين الحالة الإيطالية والجزائرية؛ ليس في وجود سلطة شرعية بل وجود سلطة خفية وهذه السلطة ليست مُضادة للسلطة الشرعية بل عصاة للسلطة الشرعية تضرب بها السلطة الشرعية خصومها بأدوات لا تستطيع أن تستخدمها السلطة الشرعية! ويرى هذا القاضي السابق أن الدول الغربية لا تريد فعلًا من الجزائر أن تعدّل سلوكها في حقوق الإنسان، فلو أراد ذلك لصُنعَ مع الجزائر مثلما صنع مع البيرو، (مساعدات مشروطة) مقابل إدخال لجان للتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان، ولكن من الواضح أن الغرب لا يهمه موضوع حقوق الإنسان كثيرًا، بل هو موضوع ربحي يخضع لمبدأ الربح والخسارة، فلو كان الضغط من أجل حقوق الإنسان يضمن سيطرة أوسع ومصالحَ جديدة، فأهلًا وسهلًا بحقوق الإنسان، وإن لم يكن كذلك فأقصى ما يمكن فعله هو التصريحات والصراخ غير الجاد.

وأما مؤلف الكتاب حبيب سويدية، فهو ضابط سابق في القوات الخاصة الجزائرية، وقد شَهد عمليات الاحتراب التي حصلت بين الإسلاميين والجيش الجزائري، وهذا الشخص يجب أن نفهم أنه شخص غير متعاطف مع الإسلامين البتّة، بل كان يرىٰ أن قتالهم واجب من أجل الحفاظ علىٰ الديمقراطية (ومن الطرائف هنا إقراره في الكتاب (صـ٥٩) أن الديمقراطية نفسها انتهىٰ عهدها بعد إعلان حالة الطوارئ عند انقلاب العسكر؛ فعن أي ديمقراطية كان يدافع؟!).

ولكنه انشق عن الجيش لما رأىٰ أن الجيش أراد أن يعاقب الشعب الذي انتخب الإسلاميين سواء بالقتل أو الإذلال أو الإخفاء القسري والتعذيب والمجازر التي كان الجيش يَرتكبها بشكل سري أو ترتكبها قوات خاصة هيئتها كهيئة الإسلاميين ثم ينسبها الإعلام الرسمي إلىٰ الإسلاميين، فرأىٰ أنه عندما يطلب منه مرافقة هذه القوات وحمايتها من أجل إقامة المجازر في المدنيين، أن هذا يتعارض مع واجب القسم الذي أقسمه عند دخوله الجيش، وأراد الانشقاق ولكنه خائف أن يُصفّىٰ لأن كل منشق آنذاك يصنف أنه متعاطف مع الإسلاميين، فتم اعتقاله بسبب إنكاره المتكرر علىٰ رئيسه ولفقت له تهمة قضىٰ خمس سنوات سجن بسببها ثم قرر بعدها الهروب من البلاد وكتابة شهادته ليبرأ بها الذمّة.

ضاق الناس ذرعًا من حكم الحزب الواحد في الجزائر، وبعد انتفاضة الخبز في الثمانينات وعدت السلطة بإجراء إصلاحات وانتخابات حرّة، فكانت الناس متتوقة إلىٰ البديل الذي يَحُلّ بدلًا من حزب التحرير الوطني وأُعجب الشارع بالخطاب الإسلامي المنسجم مع هويته، فيذكر المؤلف أن حتىٰ مرتادي الحانات صوتوا للجبهة الإسلامية للإنقاذ، والأحداث التي حصلت في الجزائر انطلقت شرارتها بعد الانتخابات التي أُجريت مطلع التسعينات والتي فاز بها الإسلاميون بالأغلبية المريحة، ودخلت حكومة العسكر في تحدٍ كبير في تسليم السلطة للإسلاميين، فاجتمع الجنرالات المذكورة أسمائهم: خالد نزار وعبد الملك غنيزية ومحمد مدين ومحمد العماري ومحمد طوالي وعبد

المجيد تغريرت وخليفة رحيم وطيب دراجي وبن عباس غزيَّل، واستدعَوا جميع رؤساء المناطق والمسؤولين العسكرين وبعض رجالات النظام القدماء، ودخلوا في خلوة يتشارون مع بعضهم البعض، فاتفقوا أن تسليم السلطة للإسلاميين غير وارد.

ولم تكتفِ الدولة بالانقلاب وتعطيل نتائج الانتخابات، بل وصلت إلى التنكيل بالإسلاميين (ويذكر المؤلف أن الدولة من بدأ بالمواجهة وليس العكس)، وكلما قمعت الإسلاميين الذين دخلوا عبر أدوات السلطة عززت شرعية الجماعات المسلحة، فتعزز وجود الجماعات الإسلامية المسلحة وكان لظهورها سبب منطقي معقول عند الناس، وهذا أمر جعل الناس تتفهم رد فعل الإسلاميين تجاه العسكر كما قال الشيخ عطية الله - وهو ممن شارك في هذه الأحداث - إذ يقول في شريط (التجربة الجزائرية): «**الحجة المنطقية والأدبية والعقلية التي اقتنع بها الناس، فكان الناس يرون أن هؤلاء أناس مساكين جاءوا بطريقة سلمية، وهؤلاء أناس مؤدبون، ضربتهم الدولة على رؤوسهم وألغت الانتخابات، ما الذي تريده الدولة أكثر من هذا؟ لا يوجد غير خيار الحرب، فالناس اقتنعت بهذا**».

فبدأ الصِدام ما بين العسكر والإسلاميين، وأصبح قتل القوات النظامية من جيش وشرطة بالعشرات أمرًا اعتياديًا، وأصبح للإسلامين سيطرة وقوة وكادوا أن يُسقطوا الدولة، وترى أن المؤلف في الكتاب دائمًا ما يستدرك على الأعداد الرسمية التي تبثها الدولة للضحايا (فكانت الدولة دائمًا عبر إعلامها الرسمي تقلل من عدد الخسائر).

ويذكر أن الجيش انتهج سياسة سَئِمَ منها العساكر سواء بحرمانهم من مرتباتهم وظلمهم، مما حَدى بالكثيرين إلى الانشقاق والانضمام إلى الإسلاميين أو كما حصل مع الطيار الذي قصف المطار ثم ذهب إلى المغرب معلنًا انشقاقه، والبعض لا يستطيع أن يحتوي أفراد فصيله أو حتى أقل القليل يحيدهم بل يشتري عداوتهم بالمجان، ويذكر المؤلف أن الجيش لم يكتفِ بذلك بل ساهم في زيادة

عدد الإسلامين المقاتلين له، باعتقال كل شخص يظن أنه متعاطف أو مناصر حتى وإن لم يحمل السلاح، فبدلًا من أن يؤدي ذلك إلى خوف الناس وابتعادها عن الإسلاميين، أدى هذا الظلم والاعتقالات العشوائية إلى انضمام العديد من الناس إلى الجماعات الإسلامية المقاتلة انتقامًا لأقاربهم المعتقلين ظلمًا.

وذكر أن بعض الضباط ذوو الميول الإسلامية نُكّل بهم، ثم وصل الأمر إلى الضغط على كل من يمارس شعائر إسلامية مثل الصلاة أو يظهر عليه بعض التديّن بل يقول المؤلف (صـ٧٩): «**منذ ذلك وصاعدًا منعت المساجد التي كان مسموحًا بوجودها في الثكنات، حتى أن أداء الصلاة بات عملًا إجراميًا**»، فحدا بالمؤلف أن يتسائل «**هل الحرب على الإسلام أم على الإسلاميين؟**» تطهير المؤسسات من التيارات الدينية أو اليسارية يَسهل إن كان أصحاب هذا التيار مجاهرين بتوجههم، بخلاف لو كان حالهم كحال مؤمن آل فرعون، فسوف يصعب تصنيفهم وسوف يحافظون على رؤوسهم من أي حملة تطهير قد تجتاح المؤسسة.

وذكر حال المؤسسة العسكرية آنذاك وانتشار الفساد والمحسوبية فيها والمخدرات وشيوعها وحمايتها من قبل كبار المسؤولين، فالإسلاميون مهما استبشعوا أحوالهم وظنوا أن غيرهم أفضل حالًا منهم، إلا أنهم عند التحقيق، أحوالهم السيئة لا تصل إلى عشر معشار ما عند غيرهم ومن يظنون أن أحوالهم أفضل!

ذكر المؤلف أنه لما أعلن نيته نشر شهادته عبر صحيفة لوموند، تم التضييق على عائلته واستجوابهم وقطعوا التواصل ما بينه وبينهم، وتستفيد من هذا أنك إذا كنت صندوقًا أسودًا لتجربة ما، لا تُشعر خصمك بأنك تهديد مُحتمل، فلن يتورع أبدًا عن اتخاذ أي إجراء ولو اضطر لأن يسكت صوتك إلى الأبد، بل تظاهر بأنك حمل وديع، ثم ائتهِ على حين غرّة.

ومن الاقتباسات الجميلة قوله: «**تبين لي لاحقًا أن الجزائر لا تملك جيشًا؛ لأن الجيش هو الذي يتملك الجزائر!**».

والخلاصة: أن الكتاب هذا هو شهادة طرف ثالث في معادلة الصراع، فلا هو محسوب على نظام العسكر ولا هو إسلامي بل هو شخص معارض لكلا الطرفين، فهو لا يريد أن يبرأ فئة على حساب فئة مما يعجل لشهادته شيئًا من المصداقية أفضل ممن لو كان محسوبًا على أحد الطرفين، وهو كتاب قصير ولعلَّ أبرز من أُلِّف من الضباط المنشقين هو نصر الله يوس في كتابه (من قتل في بن طلحة؟) وكذا محمد سمراوي وكتابه (الإسلاميون والعسكر: سنوات الدم في الجزائر) وأما من هو محسوب على التيارات الإسلامية وبالأخص الجهادية التي قاتلت النظام حتى آخر رمق فهو المؤرخ عمر عبد الحكيم المعروف بأبو مصعب السوري في كتابه (مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر) وكذا في اللقاء مع مجلة الرأي العام الكويتية وجزء من كتابه (دعوة المقاومة الإسلامية العالمية)، ولعطية الله الليبي موطنين تكلم عن تجربته في الجزائر الأول في شريط (التجربة الجزائرية) والثاني في (أجوبة الحسبة)، ولقائين مع القائد عاصم أبو حيان وأبو أكرم هاشم.

والكتاب رغم أنه قصير إلا أنه مليءٌ بالنقاط التي تستحق التعليق، وقد دونت العديد من النقاط ولكني اقتصرت على بعضها حتى لا أطيل، والحمد لله رب العالمين.

٤ أبريل ٢٠١٨ م - ١٩ رجب ١٤٣٩هـ

التبرج المسيس

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: التبرج المسيس: التغير الثقافي والاجتماعي في السعودية على ضوء سياسة مكافحة الإرهاب.**
- **اسم المؤلف: عبد الله الوهيبي.**
- **عدد الصفحات: ١٨٣.**
- **دار النشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتاب (التبرج المسيس) لعبد الله الوهيبي وهو كتاب صغير الحجم ولكن من الواضح أن المؤلف اجتهد اجتهادًا كبيرًا في جرد مادة الكتاب، فهو مليء بالمراجع، وهو يتكلم عن قضية محاولة التغير الثقافي في السعودية على ضوء سياسات مكافحة الإرهاب، فلما حصلت عملية الحادي عشر من سبتمبر وكان من بين تسعة عشر شخصًا نفذوا العملية خمسة عشر سعوديًا، فهذا ليس أمر نشاز أو شاذ، بل هناك مشكلة في ثقافة المجتمع التي أفرزت لنا هذا الكم، إذن من العبث مكافحة الإرهاب عسكريًا وأمنيًا مع إبقاء الخزان البشري كما هو، فهذا أشبه بالحرث في الماء.

الحدث عن رغبة الغرب في تغير المجتمعات غالبًا ما يكون قرينًا بالحديث عن نظريات المؤامرة (الغرب يتآمر علينا!) مما يجعل هذا الكلام ضربًا من ضروب السُخف خصوصًا مع تهكم الكثيرين حول هذه المصطلحات ومدلولاتها، ولكن الكتاب لم يتكلم عن شيء خَفي أو سري أو وثائق – لا يستطيع التأكد من صحتها – بل من مواقع رسمية وأمور منشورة وربطها ربطًا جيّدًا لتدل على جُهد المؤلف في التقصي وربط الخيوط ببعضها.

الكتاب أغلبه محاولة «عرض» أي ليست محاولة «رد» أو «استدراك»، لذا تَقِلُّ في الكتابِ التعليقاتُ المعقبة على تلخيص المؤلف للمعلومة، وبذلك يكون الكتاب موَّجه إلى من حُسمت لديه القضايا الشرعية التي تكلم عنها المؤلف في الكتاب؛ لأن هذه الفئة تتفق على المؤلف في المقدمات، وأما من يخالف المؤلف أو كانت هذه القضايا - فيها نوع من الترخص والمخالفة لديه - فسوف يقول بصوت عالي - بالإنجليزية طبعًا -: So what! (شو يعني!)

ورغم هذا التباين في مستوى القرآء إلا أن هذا لا يقدح في نظري في الكتاب، فمن أراد نقاش هذه القضايا وبسط أدلتها فليذهب إلى مظانها، حتى لا يكون الكتاب مجرد تكرار للمكرر. وكذا القضايا المعنية في الكتاب تدل دلالة واضحة أن المقصد منها ليست الهدف هو تحقيق الجانب المشرق منها، واعتمد المؤلف هنا قضية «المقاربة والقياس» للدلالة على ذلك، وهذا من أنجع صور الاستدلال كما سوف ترى في الكتاب.

والخلاصة أن رؤيتي للكتاب تقول لك بشكل واضح: أن بعض القضايا لا ينفع معها التوغل في العلم الشرعي دون الإبصار بفقه الواقع حتى لا تكن بيدقًا تُثني على شيء جزئي - دون النظر إلى أبعاده الكلية - فتهدم وأنت تظن أنك تبني. وهذا قد أطنب الكلام حولها المحدث عبد العزيز الطريفي في كتابه (العقلية الليبرالية).

وفي الختام أقول: لقد كانت الثقافة - وما زالت - حربًا من الحروب التي تشنها الأمم على بعضها البعض، وهناك من يفطن أن الثقافة جزء لا يتجزأ من الهوية، ومشروعيتك لا تتم إلا بهوية مستقلة، فلو كان الشخص يتكلم إنجليزي أكثر من الإنجليز أنفسهم، وثقافته وعاداته من عاداتهم، فلم يبق من عروبته إلا الاسم، الذي لا ينفع أن يناكف به الآخرين والمفرغ من مضمونه، ولذا ترى أن أمثال الباحثة البريطانية فرانسيس ستونر سوندرز أفردوا مصنفات في ذلك مثل كتابها (من الذي دفع

للزمّار؟ الحرب الباردة الثقافية) تعطيك تصورًا كيف أن حروب الثقافة لا تقل شأنًا عن الحروب العسكرية من أجل مسخ الآخر وإلحاقه بالتبعية!

٨ أبريل ٢٠١٨م - ٢٣ رجب ١٤٣٩هـ

على السَّفود

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: على السَّفود.**
- **اسم المؤلف: مصطفى صادق الرافعي.**
- **عدد الصفحات: ١٧٠.**
- **دار النشر: دار المعرفة للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

أثناء تجولي في معرِض الكتاب، لفت انتباهي كتاب (علىٰ السَّفود) لمصطفىٰ الرافعي، وتذكرتُ أن هذا الكتاب هو من جملة كتب «معارك الأدب» الدائرة آنذاك في مطلع القرن العشرين، معارك حملت في حمئتها الكثير من الفوائد التي تثري من حصيلة القارئ وإن كانت لها آثار جانبية غير محبذة للجمهور، أي أنها حرب لم تكن نظيفة تمامًا في أدواتها، ومعارك الأدب لم تكن بالضرورة مقتصرة علىٰ الجانب اللغوي والنقد الأدبي فحسب، بل قد تكون متصلة بشكل أو بآخر بجوانب فكرية معينة، فلما افتتح طه حسين قضية (الشعر الجاهلي) رأىٰ الرافعي أنه يخوض معركة (تحت راية القرآن) في الرد عليه.

وقبل أن نلج في صلب الموضوع، نذكر معلومة جانبية تختص بجانب الطبع ودور النشر، إذ لاحظ الكثير من رواد معرض الكتب كثرة تكرار طبعات كتب الرافعي في أكثر من دور نشر، فهل كانت هناك ثمّة حقوق للمؤلف أم أنها لا توجد حقوق فاستغلت دور النشر ذلك فطبعت ما طبعت دون حسيب ولا رقيب؟ والجواب: أن حقوق النشر تبقىٰ لمدة خمسين سنة من بعد وفاة المؤلف، وبعد انقضاء هذه السنوات، تصبح الحقوق هدرًا، أي أن دور النشر تستطيع أن تطبع دون أن تطرف عينها مجرد طرفة، ولذلك ترىٰ أن الكثير من الشخصيات المتوفاة قديمًا - خصوصًا في الأزمنة

البعيدة - تكثر طبعات كتبها عند أكثر من دور نشر؛ لأنها بلا حقوق، وفوق هذا يكون كامل الكسب في جيب دار النشر، بخلاف المؤلف الذي له حقوق فجزء من مبيعات الكتاب تكون من نصيب المؤلف، فلا تستطيع الدور أن تستأثر بهذه الكعكة كاملةً.

وعَودًا إلى موضوع الرافعي، فهنالك كتب جانبية تُفسّر لنا، سبب تأليف الرافعي هذا الكتاب، وتُفسّر لنا الكثير من مسوغات التأليف لدى الرافعي ليس في كتابه هذا بل في عامة كتبه، وهذه الكتب التفسيرية مثل (حياة الرافعي) لمحمد سعيد العريان، وكذا رسائل الرافعي إلى محمود أبو رية، والكتاب الثالث لأنور الجندي وهو كتاب توثيقي مهم (المعارك الأدبية في مصر منذ سنة ١٩١٤ إلى ١٩٣٩)، وكذا مقدمة حسن سويدان في مقدمتهِ لكتاب (على السَّفود)، وأخيرًا: كتاب (معارك العقاد الأدبية) للعامر العقاد ابن أخ عباس العقاد وإن كان هذا الكتاب من المتعذر الحصول عليه، وقد قرأتُ انتقادات له في اقتضاب الكلام عن معركة العقاد والرافعي في الكتاب نفسه.

لماذا كتب الرافعي هذا الكتاب؟!

لقد ألّف مصطفى الرافعي سلسلة كتب بعنوان (تاريخ آداب العرب) وكان الجزء الثاني منها بعنوان (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، وقد لاقى حفاوةً من الكثيرين ولعل أبرزهم سعد زغلول الذي كتب تقريظًا لهذا الكتاب والذي اشتهرت مقولته في وصف الكتاب «**كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم**»، وليس هذا فقط بل طُبع الكتاب على نفقة فؤاد الأول ملك مصر آنذاك، وجعلوه بثمن بخس وهو خمس قروش - كما ذكر الرافعي في رسائله إلى أبو رية -، أي أن الكتاب يستطيع حتى المُعدم شراءه لقلة تكلفتهِ. ويبدو أن هذا الأمر أثار حسد الأقران، فالعقاد الذي امتدح الرافعي وبالغ في الإطراء عليه في مقالة نشرت بعام ١٩١٧ وقال فيها: «**من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتب العربية في صدر أيامها**» قلب ظهر المجن على صاحبهِ بعد تأليف هذا الكتاب كما يقول العريان.

ويذكر الرافعي في كتابه (على السَّفود) أن العقاد التقى بمؤلف كتاب الإعجاز – ويعني نفسه –، وأخبره بوجههِ صراحةً أنه قد انتحل تقريظ سعد زغلول وهذا اتهام يوازي السرقة والتزوير، ولكن في (حياة الرافعي) للعريان تفسير أكثر لهذا اللقاء المقتضب والحامي في آن واحد الذي حصل بين الرافعي والعقاد في دار المقتطف.

أي أن العقاد لم يكتف بتسخيف قدر الكتاب وأنه ليس بذاك كما ذكر في مقدمة كتابه (ساعات بين الكتب) بل زاد عليها اتهام الآخرين بالسرقة والانتحال، وزاد عليها في لقائهِ مع الرافعي أنه تكلم عن القرآن وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز بكلام لا يسر، مما حدا بالرافعي أن يقول: «**لقد ثارت نفسي حينئذ ثورة عنيفة، فكدت أفعل شيئًا، إن القرآن لأكرم وأعز ولكن آثرتُ الأناة**».

ولكن السؤال إذا كانت الخصومة على كتاب الإعجاز، فلماذا لم يكن رد الرافعي حول هذه النقطة؟ بينما كتابه (على السَّفود) تناول بعدًا آخرًا وهو (ديوان العقاد) وأظن أن السبب الأول أن نقد العقاد للإعجاز نقدًا مُجملًا لم يتعقب الكاتب ويبين ما يعيبه عليه تفصيلًا، وإنما ذم الكتاب دون بيان لما يستحق الذم وأين أخطأ المؤلف فيه، ولذلك ترى أن الرافعي في مقدمة السفود عاب على طه حسين أسلوبه في النقد واكتفائه بالوصف العام دون الخوض في التفصيل وأن هذا من ضروب أساليب العامة، فيقول نصًا: «**فإن النقد الأدبي في هذه الأيام ضربٌ من الثرثرة، وأكثر من يكتبون فيه ينحون منحى العامة، فيجيئون بالصورة على جملتها، ولا يكون لهم قولٌ في تفصيلها، وماذا في أن تقول: هذا كلامٌ نازلٌ، ومعنى مستغلقٌ وهذا استكراهُ وتكلفٌ، وهذا ضعيف رديء... وهي طريقة الدكتور طه حسين**».

والعلّة الثانية هي قياس الأولى، فمن كان يخطئ في أبجديات قواعد اللغة؛ فلا يحق لهُ – عقلًا – أن يُقيّم الإعجاز في القرآن، فيقول الرافعي فيما ينقله عنه العريان: «**هذا أسلوب من الرد قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقة في الأدب عند قرّاء**

العربية، لا تراهم يستمعون لرأيه عندما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن. وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية في فكره ولا يستقيم بيانه على لسانه؟».

وكذلك الرد كان من جنس الاتهام، فما اتهم بهِ الرافعي في السرقة والانتحال، حاول الرافعي أن يُدلل ويذكر شواهد سرقات العقاد الشعرية في ديوانه!

وحاول الرافعي أن يرسل مقالته الأولى إلى صحيفة (البلاغ) وهي ذاتها التي كان يكتب فيها العقاد سابقًا قبل طرده منها، ولكنهم تصرفوا في مقاله وقاموا بحذف بعض الأمور ثم توقفوا عن النشر؛ فقرر هو أن يتوقف عن الكتابة فيها، واستبدلها بـمجلة (العصور) التي وصفها الرافعي بالأنقرية – أي أنها متأثرة بحركة كمال أتاتورك –، وذكر أن صحيفة (البلاغ) لم تجعل العقاد يكتب فيها إلا ليسافهوا به من شاءوا لفرط وقاحته وبذاءة لسانه وموت ضميره!

وقد كتب الرافعي هذه المقالات (على السَّفود) التي تناولت عبد الله عفيفي سابقًا ثم أعقبها بـالعقاد دون أن يذكر اسمه، وقد ذكر أنه حاول أن يعدل على صياغة الأسلوب التي عُرف بها الرافعي حتى لا يشك شاك أو يظن ظان أنه هو من خلفها، ولكن – كما يذكر في رسائله لأبي رية – أنه استغرب من انكشاف أمره وبلوغه للآفاق، وذكر العريان أن عدم الكتابة باسمه كان له منافع متعددة ذكر جملة منها في كتابه عن الرافعي.

وندخل الآن في صلب الكتاب، ومن أبرز ما تم التنازع حوله في الكتاب هو تسمية الرافعي للعقاد بـ«صاحب مرحاضه» أو «المراحيضي» وأطلق هذا الاسم استنادًا إلى بيت العقاد الذي قاله فيه:

مِرحاضُه أفخرُ أثوابنا   ونحن لا نَقْصُرُ عن عُذرِه

ومرجعه في هذا المستمسك ما سمّت بهِ العرب بعض الأشخاص بناء على ما ذكروه في أبيات شعرهم، وذكر في هامش الكتاب في موضع آخر، مثل عبد الله بن مصعب الذي سمته الناس بـ«عائد الكلب» لأنه قال:

مَالي مَرِضْتُ فلم يَعُدْنِي عائِدٌ   منكُمْ ويَمْرِضُ كلبُكُمْ فَأَعُوْدُ

وكذا مسكين الدارمي وكذا الممزق حسب ما أورد ابن رشيق في (العمدة في صناعة الشعر ونقده) أو النابغة الذبياني كما ذكر ابن قتيبة في (الشعر والشعراء)، وإنما هذه ألقاب لشعراء طغت على أسمائهم الحقيقة بسبب ما أوردوه في أشعارهم من أوصاف.

وأما أساليب الرد التي اعتمدها الرافعي على العقاد تكمن غالبًا في:

- محاولة إثبات السرقة الشعرية، والإثبات في مجال الشعر أصعب جدًا في النص النثري؛ لأن ترميم البيت بصياغة جديدة تُشكل على الباحث والمتابع أن يجد شاهد السرقة بمقارنة اتحاد المعنين بشكل ملفت. ويلاحظ أيضًا أن أكثر الشعراء الذين اقتبس منهم العقاد هو: ابن الرومي (ولابن الرومي قصة مع العقاد ذكرها في لقاءِ المتلفز مع أماني ناشد باعتباره أنه نذير شؤم على من يعمل على قصائده ويبدو أن شؤمه امتد حتى وصل إلى العقاد نفسه بإظهاره بمظهر السارق أمام الآلاف من الناس بسبب قصائده!).

- محاولة بيان الأخطاء النحوية واللغوية التي وقع فيها العقاد في أشعاره، وهي تعتبر أبجديات في اللغة. وهذا الجانب سوف يكثر في السفوّد الأول ولكنه سوف يختفي تدريجيًا إلى أن يظهر في السفود الأخير مُجددًا.

- محاولة بيان تهافت المعنىٰ وتناقضه في البيت الشعري، فمهما اتسق البيت الشعري في تراكبه اللغوي إلا أن العلة في معنىٰ البيت! وهذا الجانب بالذات هو الجانب المحبذ للرافعي، وفيه استكثر من التهكم والاستهزاء والسخرية.

- محاولة بيان ضحالة فهم العقاد في شروحه للأبيات وكذا في مناقشته الفلسفية لما أورده الفليسواف الألماني شوبنهاور بتقسيم الدنيا إلىٰ فكرة وإرادة. حيث أبان الرافعي عن مدىٰ تخريب العقاد لفكرة شوبنهاور بفهم مغلوط لما أصلَّ له وانتقد في هذه الجزئية كذلك سوء ترجمة العقاد وعدم صحتها في إيصال المعنىٰ أو اختصارها وتلخيصها بشكل يُفسد المعنىٰ.

وحتىٰ الأبيات التي تشعر أن الرافعي سوف يُنصفُ فيها العقاد إلا ويقلبها عليه، فمثلًا تراه يقول: «**في هذه الصفحة أبيات حسنة يشير بها «المراحيضي» إلى معنى جميل**» ثم يُدلل أن البيت مسروق، وكذا في مطلع الكتاب يقول: «**البيتان لا بأس بهما ثم يتدحرج بعدهما نازلًا**». فكلما كان هناك موضع ثناء أو مدح إلا ويأتيه نقد جارف يمحي هذا الثناء أو يغيبه ويفرغه من قيمته.

وفي النهاية جمع هذا «السَّفود» في كتاب وقدّم له إسماعيل ظهير ونُشر كتابًا مستقلًا، فأسرها العقاد في نفسه، فلما أبان الرافعي عن نفسه وكتب مقالة لاحقًا في نقد ديوان الأربعين - بعد السفود - ونشرها باسمه - أي زيادةً علىٰ النقد الذي كتب في السفود - رد العقاد في مجلة الجهاد وانتقم لنفسه من الرافعي وإسماعيل مظهر - رغم أن إسماعيل مظهر لم يكن له علاقة - ولكن رأىٰ أن هذه فرصة مناسبة للانتقام من مُقدّم كتاب علىٰ السفود والمروج له والناشر له، أي أراد أن يُصفّي حساباته ورأىٰ أن الوقت هو الأمثل لذلك.

البعد الآخر والذي ركز عليه العريان في بيان الخصومة، هو كون العقاد ليس مجرد أديب، وإنما سياسي وليس فقط هذا وإنما كاتب حزب الوفد - الحزب المحبوب عند المصريين آنذاك - فهو يذكر أن من جرحه العقاد فهو مجروح، ومن انتقد العقاد فهو عديم الوطنية ومن أذناب الطغاة، هذه

النقطة تفطّن لها العقاد وأراد استغلالها ضد خصمه الأدبي وفي مقاله في مجلة (الجهاد) اتهم العقاد الرافعي في وطنيته وحاول إيهام القراء بأن الرافعي لم يكن لينتقده إلا لأنه هو العقاد السياسي الوفدي عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار، كما يقول العريان.

فلذلك كما ذكرنا في المقدمة، لم تكن هذه المعارك نظيفة أبدًا، واستخدمت فيها كل أنواع الفجور بالخصومة من أجل إسقاط الخصم. ولكن ذهبت تلك المماحكات وبقي الأثر الأدبي ينهل منه عشاق ومحبي الأدب إلى اليوم، فلم تكن هذه معارك كلها هجاء لا يُستفاد منه – كما صنع صاحب كتاب المسمار مثلًا – وإنما حوت على الكثير من الفوائد في اللغة وقواعد النقد الأدبي ونحو ذلك.

وبقي معنا أن نذكر ما هو معنى «السَّفود» وهو حسب لهجتنا الدارجة: صيخ الشوي، فالرافعي أراد أن يضع العقاد على صيخ الشوي ليشويه، لذلك تراه يقول في مطلع الكتاب:

وللسَّفُّودِ نارٌ لو تلَقَّتْ   بجاحِمِها حَديدًا ظُنَّ شَحْما

ويَشْوي الصَّخرَ يترُكُه رَمادًا   فكيفَ وقد رميتُكَ فيه لَحْما

وفي الختام أقول: لو كان الرافعي وأمثاله موجودون اليوم، وأعملوا أقلامهم – أو قل: سيوفهم – في أنصاف الأدباء والشعراء لكان صنيعهم مثل صنيع عنترة عندما يضرب بقوة أحد الخصوم فيجعله عبرة لمن يعتبر ويخاف البقية فيحجمون! وذلك أن الغثاء الموجود في زماننا أضعاف أضعاف الغثاء الذي تفوَّه به العقاد، وأن تفاقم هذا الغثاء سَببه الرئيس هي ثقافة المجاملة، والتأويل الخاطئ لمفهوم التشجيع، فالمؤلف المبتدئ إن كان صديقي وألّف رواية (لنقل أنها غاية في السوء في الطرح والفكرة والنص واللغة) ترى البعض يستصعب أن ينتقد هذه الرواية لصديقه – حتى لو كان هذا النقد بألطف العبارات –، وإنما يستبدلها بعبارات التشجيع، فيظن المؤلف أن هذا التشجيع يعني أنه أحسن صنعًا وأنه ما عليه إلا أن يستمر على هذا الأسلوب السيء ويتوغل فيه! فتكثر هذه الزوائد عامًا بعد عام. ٨ أبريل ٢٠١٨م – ٢٣ رجب ١٤٣٩هـ

السنة ومكانها في التشريع

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: السنة ومكانها في التشريع.**
- **اسم المؤلف: مصطفى السباعي.**
- **عدد الصفحات: ٤٨٤.**
- **دار النشر: المكتب الإسلامي.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب من أهم الكتب في الدفاع عن المصدر الثاني من مصادر التشريع في الدين الاسلامي أمام الهجمة الاستشرافية التي شنها المستشرقون في التشكيك بهذا المصدر.

ومصطفى السباعي قد أقض مضجعه هذا الأمر، وهو تخريب الاستشراقين لعقائد المنتسبين إلى الإسلام وتحويلهم إلى أداة للطعن بهذا الدين فبدلًا من أن يكون الطاعن هو اليهودي جولد تسيهر يصبح محمد وعبد الله وأحمد. واحتكاكه مع الاستشراق ليس «احتكاكًا ورقيًا» أي اختص في خانة الكتب فقط، بل يذكر في مقدمته الطويلة، أنه سافر إلى أغلب دول أوروبا وجالس وناظر المستشرقين أنفسهم وعلى صلة بالطلاب المسلمين الذين يدرسون تحت أيدي هؤلاء المستشرقين. وكذا ألف كتابه الآخر بعنوان (الاستشراق والمستشرقون). وقد وصل إلى نتيجة صحيحة قد أوردها في ملحق الكتاب.

وكتابهُ هذا يناقش قضايا قد مهّد لها المعتزلة وأتى المستشرقون وأكملوا عليها وبنوا فوق بنيانهم وأعملوا تعديلات ثم أتى بعض المنتسبين للإسلام ولعل أبرزهم الذي رد عليهم مصطفى السباعي في هذا الكتاب هم: محمود أبو رية (وهو ذات الشخص الذي كان يراسله مصطفى صادق الرافعي

وقد طبعت مراسلاته في كتاب مستقل) و أحمد أمين (صاحب المذكرات التي طبعت بـعنوان: حياتي).

المطاعن والشكوك حول السنة غالبًا ما تتمحور على شكل هذه النقاط:

أولًا: "أتانا الحديث عن طريق فلان عن فلان عن فلان عن الرسول ﷺ، إيش يضمن أن أحد هؤلاء الناقلين قد أخطأ أو زاد كلام من عنده أو اخترع حديث من رأسه وأصبح كلامه على أنه دين؟!"

والأمر الثاني: "أن السنة أتتنا بنقل الآحاد (فلان عن فلان) بخلاف القرآن الذي أتانا بنقل متواتر (نقلته جماعة كبيرة عن جماعة كبيرة) فالخطأ فيه مستحيل بخلاف السنة."

ثالثًا: "ألم يقل الله [**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**] إذن يكفينا القرآن لأن الله لم يفرط فيه من شيء فلا داعي ولا حاجة إلى السنة."

رابعًا: أليس من الغريب أن يكون أكثر من نقل الحديث عن الرسول هو أبو هريرة رغم أنه عاش معه قصيرًا بالمقارنة مع بقية الصحابة الذين صحبوه من بداية البعثة.

خامسًا: تأخر تدوين السنة بعد وفاة الرسول بمئتي عام.

إذن الشبهات بشكل أعم تختص بحجية السنة ومصداقية رجالها وناقليها وقواعدها التي غربلت الأحاديث الصحيحة من الأحاديث المنحولة.

جميع النقاط أعلاه تبدو للوهلة الأولى أنها نقاط منطقية، أو تساؤلات قوية، وهذا غالبًا ما ينم عن الجهل بقواعد الحديث التي تشدد فيها العلماء في صدر الإسلام حتى لا ينسب إلى الدين ما ليس فيه، فأنشؤوا علمًا امتازت به أمة الإسلام عن غيرها فيه وهو علم «الإسناد والرواية»، ومن توابع هذا العلم «الجرح والتعديل» وهذا العلم ليس فيه مجاملة فلو كان أحد الأئمة ضعيفًا في الحفظ

فتلقائيًا يسقط ولا يقبل حديثه، ولم تكن قوة الذاكرة هي المعيار الوحيد بل هنالك معايير أخرى تشدد فيها الأئمة لقبول رواية الحديث فليس كل شخص يريد أن يخترع أو يؤلّف حديثًا أو كذاب أو وضاع يستطيع أن يُمرر هذه الأحاديث.

ما حصل مع المستشرقين بشكل أدق هو أنهم قفزوا على هذه القواعد ومارسوا الانتقاء في النقد، والانتقاء يلزم منه عدم نقل الصورة الكاملة وتقييمها بل اجتزاؤها وجعل الجزء مهيمنًا على الكل، فينتج نوع من الاضطراب والتناقض والصورة المشوهة عمدًا أو جهلًا، ومشكلة الأدباء المنتسبين إلى الإسلام هي أسوأ من مشكلة المستشرقين، لأنهم زادوا عليهم عدم فهم الكلمات والمصطلحات في متن الرواية والتي تنقض ما يريدون أن يأصلوا له.

صحيح أن الكتاب قد يعتبر طويلًا جزئيًا ولكن على الأقل يعطيك حدًا فاصلًا تميّز فيه ما بين ادعاء الكلام على قواعد واهية وما بين التحقيق العلمي، وما هو ميزان هذه الشبهة عند التحقيق؟

ولا أعلم في أي سنة قد طبع الطبعة المنقحة من هذا الكتاب، ولكن يظهر لي أنه أخرجها قبل وفاته بفترة بسيطة، وذلك أنه اختصر بعض المباحث وأراد أن يخرجها ويتوسّع فيها في كتب مستقلة ولكن لم يقمّ بذلك وأغلب الظن أنه توفي قبل أن يتم إكمالها، ولكن أظنه قد مهد وعبّد الطريق لمن بعده.

٢٧ أبريل ٢٠١٨م – ١٢ شعبان ١٤٣٩هـ

فن القراءة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: فن القراءة.**
- **اسم المؤلف: عمر بن محمود أبو عمر (أبو قتادة الفلسطيني).**
- **عدد الصفحات: ٢٦١.**
- **دار النشر: دار الكتاب العالمي.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب فن القراءة من تأليف الشيخ عمر محمود، وهو من فلسطينيِّ القدس هُجّر منذ الصغر ضمن من هجروا، وعاش في الأردن فترة ثم تنقل بين البلدان إلى أن استقر في لندن ثم اعتقل لمدة ١١ سنة وألّف هذا الكتاب الذي سنتكلم عنه في سجن بلمارش البريطاني.

وأحيانًا الشخص تظهر له تجليات في أوقات المحن لا تظهر له في أوقات الرخاء، فلو أخرجته من السجن أو من البلاء وقلت له: «اكتب ما كتبت داخل السجن» ستجد أنه لا يستطيع، وهذا يدل أن للكتابة رغبة قد تتوفر في حين ولكنها لا تتوفر في أحيان أخرى ومن الصعب السير على نمط واحد، وفي فلم أمريكي قد شاهدتهُ قديمًا ربما أبرز هذه النقطة وهو The Words.

ويجب أن نفهم أن هذا الكتاب هو أشبه بـ«البوح» أو «الفضفضة مع الذات»، مع شيء من ذكر السيرة الذاتية المنسجمة مع موضوع الكتاب، أي أنه ربما ليست له منهاجية صلبة كمنهاجية حسن مدن مع (الكتابة بحبر أسود). ومن الفروق بين الشخصين هو استصحاب منهجهم الفكري في الكلام عن القضايا العامة مثل «القراءة» فحسن مدن شخص أحمر - غامق - أيديولوجيًا كما يقولون، وعندما يتكلم في الأدب لا ترى أيديولوجيته حاضرة بشكل واضح في هذا الميدان،

بخلاف المؤلف عمر محمود الذي لا يقف عند حد التقييم المجرد بل يتعداه إلى الاستفادة منه في واقع معركته - أي أن الأيديولوجيا لا تنفكّ عنه في التصور والتقييم والإسقاط -، أو كما يقول المؤلف نفسه: «**لا أذكر يومًا ما ولا في قراءة ما أن قراءة خذلتني وردّتني بلا فائدة ومنفعة، بل ما من قراءة مهما بدت بعيدة عن الهم الديني وإحياء الأُمَّة إلا ووجدتها تشكل مَعينًا ورافدًا لهذا الهم وقضايا الإحياء**». وفي الشق الأول من العبارة يذكرك بمقولة العقاد: «**ليس هناك كتابًا أقرأه ولا أستفيد منه شيئًا جديدًا، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أني تعلمت شيئًا جديدًا هو ما هي التفاهة و كيف يكتب الكُتّاب التافهون وفيمَ يفكرون؟**».

ومن الأمور التي لا بُدَّ أن نذكرها أن المؤلف ألّف الكتاب من غير مراجع لعدم توفرها في السجن البريطاني، ومع ذلك تراه يستحضر مواقف ونقولات وشخصيات استحضارًا جيدًا وكأنه يقرأ من كتاب والكتاب قبل نشره لم يراجع من قبل المؤلف حتى يصحح النقولات والاقتباسات والمواقف، بل تم تحقيق المخطوط ونشر مباشرة - كما أُخبرت -، وله كتاب آخر وهو قراءة تفسيرية لمغازي رسول الله ﷺ في القرآن الكريم ويقع في ٧٩٣ صفحة وقد ألفها دون وجود أي مرجع بين يديه سوى كتاب الله.

والشيخ بالمصطلح العامي - شيخ دين - ولكن في هذا الكاتب تبيّن أن مجال قراءته لم تقتصر على الكتب الدينية، بل امتدت إلى كتب الشعر والفكر والمسرحيات والروايات والشعر والفلسفة وغير ذلك من الإنتاج البشري، ولعل كذلك من هو محسوب على رجال الدين مرشد الثورة الإيرانية الحالي خامنئي وله كتاب تبين أن تنوع قراءته قد خرج عن أُطُر القراءة الدينية بل وتعداه إلى مشاهدة الأفلام في كتاب له بعنوان (أنا والكتاب).

في مقدمة الكتاب المطبوع تكلم عن قضية أن للقراءة أو للكتابة طقوس، أي طقوس قد تكون غير مألوفة أو استثنائية خارجية عن نطاق المتعارف عليه، وذكر ما حكاه محمد سعيد العريان في كتابه

(حياة الرافعي) من أن الرافعي إن أراد الكتابة يدخل مع العريان في غرفة كتبه وهي ضيقة ويغلق عليه منافذها وهم في حر القاهرة الخانق، وهناك يلقي علىٰ تلميذه ما يريد كتابته، فإن حاول التلميذ فتح النافذة لضيق الجو عاد الأستاذ لإغلاقها. ويرىٰ أن هذا الجو الكاتم هو الملهم والمُدر لحليب الأفكار. وكذا صنيع أبي نواس في قوله أنه لا يكاد يقول شعرًا حسنًا إلا إذا كان في بستان مؤنق، أو ما حكاه ابن القيم عن شيخه ابن تيمية كيف يصنع إذا أشكلت عليه مسألة فيسجد ويطيل سجوده داعيًا مبتهلًا.

ويجدر بالذكر أن هذه الطقوس تختلف باختلاف النفوس، فلا يشترط إذا كانت طريقة الرافعي قد أثمرت من الرافعي يعني أنها سوف تثمر معك، فهذه الطقوس يجب أن تفتش في نفسك عنها، وأي الطرق والوسائل التي ترىٰ أنها محببة إلىٰ نفسك - وكما أسلفنا لا يشترط أن تكون هذه الطريقة طريقة مؤلف كبير-.

وكذلك البعض - وأنا كنت منهم - يقيس أطباع الناس بناءً علىٰ طَبعِهِ أو كما يقولون: «كلٌّ يرىٰ الناس بعين طبعه»، فمثلًا أنا لا أستطيع البتّة القراءة مع الشرب والأكل، فكنت أُسقط ذاتي علىٰ الآخرين وأقول: هم كذلك لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك، وهذه المقدمة أوصلتني إلىٰ نتيجة مغلوطة مفادها: أن كل الذين يصورون القهوة والطعام والفواكه مع القراءة، إنما هم متطفلون علىٰ القراءة - أي استعراضيون - لا أكثر ولا أقل، دون الأخذ بالاعتبار أن هناك فئام من الناس فعلًا تجد أن الأكل والشراب مع القراءة زاد ودافع وطقس خاص يلهمهم المزيد من الغَرْف من مَعين الكتب. ومع أن هناك فئام فعلًا لا تستطيع أن تقرأ إلا بشرب القهوة، ولكن أظن والله أعلم أن القراءة مع الكتاب أشبه بالموضة أكثر من كونه طقس خاص بالقراءة.

والشيء بالشيء يذكر، بعض الأشخاص قد لا يكون لهم طقس ما في الكتابة أو في القراءة، وإنما حالة نفسية تطرأ عليهم من حين إلىٰ آخر، شيء أشبه بالتجليات أو الحالات القصيرة، التي يجد

الشخص نفسه منطلقًا ومستطردًا في الكتابة بكل رشاقة ودقة، ولكن ما أن ينام مثلًا ويصحىٰ ويحاول أن يعيد الكره لا يجد نفسه تعيد صنيعها بالأمس، فهو لا يكتب في كل حين وإنما يكتب متىٰ ما وجد في نفسة الرغبة الحقيقية أو في حالة معينة مخصوصة. وأغلب هؤلاء لا يصلحون كتاب مستمرين بشكل يومي في الصحف؛ لأنه سوف يؤول بهم المقام في النهاية إلىٰ كتابة مقال بشكل مبدع بتركيز وتدقيق عاليين ويكون فيها المؤلف في أحسن حالاته؛ ويتبعها عشرة بأسلوب بسيط أو ركيك أو عادي قد يهدم ما صنعه في الابتداء.

وكذلك تكلم المؤلف عن قضية استصعاب بعض العلوم أو التوهم أنها صعبة، وضرب لنا مثلًا بالشعر الجاهلي، وكيف أن شرح بعض الأسماء والأماكن فيه يجعله مفهومًا بالكلية، ولكن النفس العاجزة تشعر أنه مهما حاولت فلن تفهم، وأنا سابقًا كنت أرىٰ أن كتابات السلف أعقد وأعصىٰ علىٰ الفهم من كتابات الخلف المعاصرين، وأعزو ذلك إلىٰ أن اللغة المخاطبة واستخدام بعض العبارات والجمل تغيّر عما كان عليه سابقًا، ولكن مع الوقت زال هذا الهاجس بكثرة قراءتي للسلف واعتيادي علىٰ صياغة جملهم، أي أن في كلا الحالتين لا بُدَّ من المبادرة والسعي من أجل تذليل الصعاب؛ حتىٰ تكتشف أن الأمر ليس بالأمر الكبير الذي يستحال معه الفهم.

وكذا تكلم عن قضية الكتب التي قرأها في البداية وهو صغير ويقول: «**وفي لحظة شجاعة نادرة مدّ يده إلى رواية (الشيخ والبحر) لهمنغواي وقلَّبها ثم بصوت خائف مرتجف سأله عن ثمنها ولا يدري ماذا حدث معه بعد ذلك سوى أن قَبِلَ الرجل بعض القروش التي يحملها ثمنًا للرواية التي ذاق معها متعة رائعة يحنُّ إليها إلى اليوم ويحاول قراءة الرواية مرات متعددة ليتذكر تلك المتعة العجيبة**».

الشاهد أو الذي لفت انتباهي هو اشتباه الحال أو اشتراكه في هذه النقطة، وهي عندما كنت صغيرًا كنت أجد متعة ولذة لقراءة بعض المجلات الخاصة للصغار مثل مجلة ماجد أو سنان، أو حتىٰ مشاهد بعض أفلام الكارتون، فتبقىٰ ذكرىٰ عالقة في ذهنك، حول مستوىٰ هذا العمل أو حول

المتعة التي كنت تجدها، ولكن ما أن تعيد مشاهدة أو قراءة ما كنت تقرأه وأنت صغير، إلا وتكتشف أن هذه المتعة تقلصت إلى الحد الأدنى، بل وأحيانًا تشعر بالضجر والسُخفّ؛ فلذلك توجد أشياء يفضل أن تقرأها لمرة واحدة لتبقى مكانتها كما هي، خصوصًا الأمور القديمة هذه.

تكلم كذلك المؤلف عن حرق الكتب وقال: «**وأن العداء للكتاب وقراءته له تاريخ أسود قاتم طويل في الغرب والشرق عند غير المسلمين؛ فالكنيسة الكاثوليكية - وهي التي كانت تسيطر على الغرب - كانت تُحرِّم النظر في أي كتاب طبي أو رياضي، وكم خرجت من مظاهرات شعبية محتفلة بحرق الكتب وإهانتها**».

ولكن هذا غير صحيح، أجاز بعض أئمة الاسلام وفقهاء المذاهب إتلاف وحرق بعض الكتب، وعقد ابن القيم فصلًا كاملًا في كتابه الطرق الحكمية بعنوان (لا ضمان في تحريق الكتب المضلة وإتلافها) أورد فيه الآثار التي تحث على ذلك، وروي كذلك عن الإمام إسماعيل بن اسحاق الفاضي أنه دخل على المعتضد فدفع إليه كتابًا فكان قد جمع فيه رخص وزلات العلماء، فقال أن مؤلف هذا الكتاب زنديق، فأمر المعتضد بحرق الكتاب. ربما يقع الخلاف بين المسلمين والشرق والغرب في سعة المساحة والتوسع في قبول كتب المخالف، ولكن أُثر عند الجميع تأصيلاتهم لإتلاف بعض الكتب وحرقها.

وكذا قال المؤلف: «**وأغلب هؤلاء «النافخين تورمًا» لو طُلب منه إنشاء صفحة من قلمه دون أن يسرق من هنا وهناك ويملأها بالإحالات لوقف حماره في أول العقبة**».

بغض النظر عن من يقصدهم المؤلف، ولكن هو يتكلم فيما أرى عن مشكلة عامة، البعض الذي يعتاد على الإحالة والاقتباس، يصعب عليه تركيب الجمل الإنشائية، لذلك الاكتفاء بالاقتباسات وبالأخص هذه الصفحات الموجودة بكثرة في موقع الانستغرام التي تُعني بوضع صورة شاعرية

واقتباس نص أو شعر، هؤلاء أرىٰ أنهم يقتلون لياقتهم ويمنعون أنفسه من التطور، إذ يكتفون بهذا الطريق الذي هو بمثابة دائرة مفرغة؛ قد تُفيد الآخرين مما تنقل ولكنك لا تفيد نفسك بتطورها.

وكذا تكلم المؤلف عن قضية مهمة جدًا وهي التعامل مع كتب السيرة النبوية مثل التعامل مع كتب الحديث فيقول: «**وأوسع من السيرة في التسمح هو التاريخ؛ فإن إعمال قواعد رواية الحديث على أخبار التاريخ جملةً غير صحيح، وهو خلاف العلم، فإن رجالًا لا يُقبلون في الحديث كالواقدي مثلًا هم العمدة في التاريخ لا يقدح فيهم في هذا الباب أحد، وردّ أخبارهم التاريخية كردّ روايتهم للحديث جهل بأصول العلوم وطرق إثباتها ومقاصد العلوم واختلافها، فالكلبي متهم في الحديث لكنه العمدة الذي اعتمد عليه الجميع في الأنساب، كلهم أخذوا عنه من أبي عبيد القاسم بن سلام إلى ابن حزم لم يتجنّبه أحد في هذا الباب. وحتى أُقرِّب لهؤلاء «الأنصاف» بما يفهمون فيقال لهم: هذا عاصم بن أبي النجود - بن بهدلة - فيه مَقَال في رواية الحديث وضبطه لكنه الذي لا يقال فيه أدنى حرف في كونه أحد القُرَّاء السبعة المشهورين، فهل عقلتم الموضوع وأدركتم الفرق؟**».

التعامل مع السيرة بمنطق الحديث يعني إسقاط السيرة بالكلية، لأنه كما ذكر المؤلف العمدة في باب المغازي أو السير وهو الواقدي لا يقبل حديثه في الحديث؛ ولكنه إمام في المغازي، وهنا إشارة مهمة جدًا وهي أن العلماء تسامحوا أو تساهلوا في باب السيرة فيما لم يتساهلوا به قط في الحديث، ولذلك لا داعي لتزمت البعض وتشددهم عند قراءتهم للسيرة وبحثهم عن الصحيح دومًا؛ لأنه هذا يجعلهم يقفون علىٰ أحاديث قليلة لا تشكل الصورة الكاملة، وقد سألني أحدهم ذات يوم عن كتاب سيرة ابن هشام بتخريج الروايات وتصحيحها، وكذا من المهم التذكير بأن نفس العلماء الذين ردوهم في الحديث تساهلوا مع ما روته هذه الشخصيات وجعلوهم العمدة في الباب في قضايا أخرىٰ مثل الأنساب والمغازي والقراءات.

وكذا تكلم المؤلف عن قضية مهمة وهي «**منع البعض من قراءة بعض الكتب أو الموضوعات تحت حجة عدم جدواها أو تحت حجة فسادها، وهذا عائق يكثر بين المتدينين هذا اليوم**» ونحن نعاني مع المتدين عمومًا في باب الرواية، إذ يصر البعض على أن الروايات هي للمتعة فقط أي أنها معدومة الفائدة لا تسرب جملة من الأفكار من خلالها فتغربل من يقرأها، وفي ذلك يقول المؤلف في كلام متقطع ومبعثر على امتداد الكتاب: «**هناك كتب للمتعة فقط وتختفي وراء ستارها بعض المعالم الفكرية مثل كتب الروايات والقصص، بل ربّما يُخفي الكاتب أهدافه ورُؤاه وراء الحكاية؛ وهو فن قديم حديث من التخفي الذكي، فكل هذا يجعل العلمية غير بعيدة عن أي كتابة مهما بدا للبعض خلوّها منه. [...] وقد حملت قصص الدكتور نجيب الكيلاني رحمه الله الرائعة، فجلس بجانبي أخ في الله فبذلت وسعي لستر القصص مخافة أن يراها الأخ فتكون التهمة أني أقرأ القصص والروايات، وقد احتجت لوقت طويل في رحلة المعرفة والقراءة والتفكير لأكتشف أن القص والحكاية هي فن كتابي علمي يستخدمه المرء لأسباب علمية وفكرية وهو أسلوب ذكي لإثارة الفكر ونشره تحت ستار المتعة. [...] قرأت الكثير من المسرحيات والروايات، قرأْتها في طفولتي باحثًا عن القصة والحكاية، وقرأتها بعد ذلك باحثًا عن «الفكرة»، وماذا يخفي الكاتب وراء حكايته، وإن أول ما أدركت أن وراء الكاتب «عقيدة» و«فكرة» [...] وعلينا ألا نقلل من قيمة القصة والحكاية والرواية؛ فهي فن ذكي يمكن من خلاله تعميق قيم علمية ونشرها، كما فعل الشيخ نديم الجسر في قصته (الإيمان)، وهي قصة ذكية علمية رائعة لا أعلم لها مثيلًا، صاغ فيها الشيخ قصة الفلسفة مع قضية الغيب والإيمان بالله بطريقة ذكية ممتعة تجعلك تسير معها سيرًا هيّنًا لا مشقة فيه، مع صعوبة مباحث الفلسفة كما هو مشهور، ولما قرأت (قصة صوفي) والتي لاقت انتشارًا كبيرًا في العلم الغربي خاصة، ثم ترجمت إلى العربية عجبت كيف تنتشر هذه القصة مع معرفة القليل بكتاب الشيخ الجسر رحمه الله فإن الفرق بينهما كبير جدًا. ومن قرأ روايات الدكتور نجيب الكيلاني عرف أثر الرواية والقصة في نشر التاريخ، ومن قرأ روايات شريف الراس وهي قليلة جدًا عرف أثرها على الطغاة**».

القاسم المشترك بين هذه النصوص أن الرواية ليست متعة بل فكرة تحت ستار المتعة، ولكن البعض يقرأها وهو فاغر الفم، دون أن يستنبط الرسالة التي دسها المؤلف تحت السطور، وقديمًا قال أحد الشباب الذي ضجر من استبداد الجماعات المجاهدة في سورية أنه يتمنىٰ لو قرأ القادة رواية (مزرعة الحيوان) لجورج أورويل، فأثار هذا الكلام اهتمامي، حتىٰ قرأتها وفعلًا كانت من أجمل ما قرأت، والفكرة الرئيسية التي طرحها أورويل هي أنك لا يمكن أن تقول أنك ضد الاستبداد ولما تثور ضد الاستبداد ويحصل لك التمكين تكون نسخة مكررة من الشخص الذي ثرت عليه لاستبداده، ألا يمكن أن يؤثر هذا المعنىٰ فيمن يعاود تشكيل الاستبداد وفرضه علىٰ الناس بعد عيشهم لسنوات طويلة تحت استبداد البعث؟ بلىٰ.

فالشخص يعاني ولازال يعاني من بعض المعتوهين الذين لا يرون هذه الفوائد ولا يرون الروايات إلا أنها قصة تافهة ونحو ذلك قياسًا علىٰ أطنان الروايات التافهة والمنحطة التي مُلئت الأسواق بها، دون التفرق بين هذه وتلك. ودون أن يكون نظرهم أبعد من ظاهر المتعة إلىٰ باطن الفكرة.

وفي الوقت نفسه لا أقول أنه يجب علىٰ الشخص أن ينكب علىٰ الروايات انكبابًا كاملًا، وإنما هي فسحة استجمام، ويجعل القارئ كتاب من خمسة كتب يقرأها في كل دفعة، ويجب علىٰ صاحب القضية والدعوة أن يركز علىٰ الأهم ثم المهم أو كما يقول المؤلف أن: «**العلوم والكتب تختلف مراتبها في الأهمية، فصرف المرء وقته في الأولى مُقدَّم عما هو أقل أهمية، وهذه قضية فطرية لا يخطئها أحد من جهة العلم بها**».

ولخطورة الموضوع وتأثيره علىٰ بعض المفاهيم الاسلامية في ساحة الرواية، مع وجود بعض المعتوهين الذين لا ينظرون إلىٰ الموضوع بشكل أعم وأشملّ حول أثر الرواية، رصد الشيخ عبد الله العجيري بعض المفاهيم التي تسرب للجيل الناشئ والاستفراد به في ساحة الرواية، فأصدر كتيبه

(من عبث الرواية) وله كذلك ندوة في أحد المجالس بعنوان (حقيقة الرواية حمولتها الفكرية وكيفية تأثيرها على المجتمعات) تجدها على الشبكة.

وكذا تكلم الكاتب عن قضية مهمة وهي العيش بين نقيضين، فهنالك من يذوب داخل الكتاب ويقبل كل شيء يقوله المؤلف فيتماهى مع الكتاب تماهيًا تامًا، وفي ذلك يقول: «**بعض الكتب فيها سطوة هائلة تجعل القارئ أسيرًا لها بالكلية، وهنا تأتي أهمية القراءة الناقدة؛ وهو أن تجعل بينك وبين الكتاب حاجزًا، هذا الحاجز الذي لا يجعلك تذوب مقابله أو تلغي نفسك معه، فتذكر دائمًا أنك لست الذي في الكتاب بل أنت القارئ المراقب، تنظر وتتمعن وتصفّي وتختار وتقرّر، فلك شخصية مستقلة يجب أن تمنعك من التحدث على طريقة الممثل الذي يعيش الآخر ماحيًا نفسه ملغيًا لوجوده وشخصيته. القراءة صراع بين الكاتب وقدراته وبين استقلالك، هذا في القراءة الإنسانية، فالكاتب يستخدم كل فنون السحر الكتابي ليمحوك في داخله**».

هذا النص دائمًا يذكرني بكتب علي الوردي والقارئين الجدد له. وهذا التماهي غالبًا ما يمكون منشأه الجهل، ومن أسبابه اتقاد الكاتب واندفاعه في الكتابة بكل قوة، تشعر أن القارئ يتصاغر أمامه تلقائيًا، هذه السطوة والحدة في الكلام من المؤلف، قد تجعل القارئ المبتدئ يستبعد تمامًا أن يكون كلام هذا المؤلف خطئًا أو أنه يدلس أو يبتر النصوص، بل تراه يسلم له ويتقبله ويتكئ عليه في تصوره للتاريخ -مثلًا- وأما كيف يكون الجهل سبب لانسحاق القارئ تحت عجلة الكتاب؟! أحيانًا يسرد المؤلف كلامًا أشبه بالكلام المنطقي ولأن القارئ ليس له خلفية عن كتب التاريخ وأمهات الكتب التاريخية يعيد النص تشكيل نفسه فالجاهل يراه منطقيًا والذي لديه خلفية يرى أن المؤلف والكاتب قد دلّس وبتر النصوص وأن النص في أصله لا يساعد المؤلف للوصول إلى هذه الجملة، انظر كيف يصنع الجهل والعلم في النظر وتقييم النصوص!

فالشاهد أن كتب علي الوردي يأتي إليها المراهقين، ويقرأونها ويعتمدون ما فيها؛ دون تدقيق ولا تمحيص ولا حتى مسائلة إن كان هذا يعقل أو هل ثبت هذا أو هل صح هذا، بل يمسحون ذواتهم في طيّات الكتاب!

إذا كان يجب أن لا أمحو ذاتي أمام كاتب الكاتب فهل يجب أن أقول لكل شيء: لا، وأنه لا قيمة له وأنه تافهة وأظهر بمظهر الذي لا يعجبني العجب ولا الصيام في رجب؟

يقول المؤلف: «**فهذا لا يعني أن تحضّر نفسك للطعن والرد فتكون سيِّد "لا" تقولها بحق وباطل، وبعض الناس - وهم اليوم كثير - يعيشون مرضًا طفوليًا؛ فالطفل عندما يبدأ إدراك ذاته يُكثر من قول: "لا"، فما إن تطلب منه طلبًا حتى يُسارع إلى "لا"، وما ذلك إلا لمحاولته إثبات شخصيته، وبعض الناس تكبر معهم هذه الطفولة، ويصبح شخصًا لا يُطاق**».

والبعض يتعسف في رد أي مادة أو كتاب قوي أو جميل، حتى يظهر بمظهر المخالف ويرى أن ذلك من إبراز الشخصية وتميزها، وهذه صورة أخرى من إلغاء الذات وطمسها، لأنك سوف تقول: لا حتى للكتب التي تعجبك، فأنت في الحقيقة ألغيت ذاتك مجددًا؛ فكلا النقيضين يوصلان إلى نتيجة واحدة.

وتكلم عن المؤلف عن دار نشر لا تلجأ إليها إلا عند الاضطرار كأكل الميته، فيقول: «**بل هذه الأيام لا تخطئ قراءة دار النشر، فمن هو القارئ الجيد للتراث ويقع في حبائل "دار الكتب العلمية" إلا أن يكون مضطرًا**».

هذا القول صحيح؛ لأن أهل الاختصاص كثرت انتقاداتهم لها، ولكن أظن أن هذه القاعدة لا تنطبق على كتب المعاصرين، فيجب التفريق بينهم، وكذلك من هي أسوأ من دار الكتب العالمية هي (المكتبة العصرية) اللبنانية، والحال كما قال الشاعر:

وكذا تكلم المؤلف أن كثرة نقل النقولات والاقتباسات والإحالات لا تدل بالضرورة على قوة علمية المؤلف، فيقول: «**إن ما تراه من بعض الكتّاب من جهالة وضحالة لا تتناسب مع كتبهم، أن كتبهم مجرد التقاط وانتقاء للسطور من كتب لا يعرفونها إلا من خلال الفهرست فقط، فهم لا يحملون أي معرفة وعلوم في عقولهم وقلوبهم، بل يصفّون الحروف ولا يقرؤون، فتبدو كتبهم منسقة بالإحالات وكثرتها مع عدم وجود العلم عندهم، وحينئذ يتمايز الناس في طبقاتهم بحسب القراءة، كثرتها وقلتها، ونوع قراءته، وكيفية قراءته، فالكلمة الواحدة ينطقها الرجلان فتحس أن الفارق بينهما كبير وشديد، فهذا ينطقها ويكسوها بمعارف أخرى، ويعمم صلاتها المعرفية، ويحفر تحتها؛ في أصولها وجذورها وآثارها وتداعياتها، وأما الآخر فيلقيها عليك جامدة ميتة تحس أنه يلقي حجرًا مجردًا لا فن فيه ولا نحب ولا تشكيل، وسبب هذا كله هو افتراقهما في "فن القراءة"**».

ولا أجد أدل من ذلك على مقارنة ما بين شخص اشترى كتابًا لاقتباسات ابن تيمية ويضع اقتباسات من هذا الكتب في حسابه، وآخر يجرد مطولات ابن تيمية ويضع من خلال رحلته الطويلة هذه بعض الاقتباسات التي يراها مناسبة، فلو علق أحدهم وسأل كلا الشخصين عن اقتباس واحد، ربما تجد أن جوابهما يختلف تمامًا، لأن الأول أخذ الاقتباس مجتثًا من سياقه وجذوره، والآخر لم يفعل ذلك، فاستحضار الثاني للشواهد أقوى وأشد من الأول. ولذلك أنصح الأخوة أن يهجروا كتب الاقتباسات هذه ويعتمدوا على جردهم للمطولات وانتقائهم الشخصي للاقتباسات، فلعلها تجعلهم أكثر إحاطةً بالنص من طريقتهم الأولى.

وكذا تكلم المؤلف عن التكثر من تحشية الكتب تحت دعوى التحقيق، فيقول: «**فهذه الهوامش تضيع الناظر وتبعده عن مقصد المؤلف والكاتب، إذ ينشغل بها مرات ظانًا أن تحتها شيئًا، لكنها كالسراب إلا القليل منها، وهذا ينطبق اليوم على من يُقال لهم محققو الكتب ولا فرق؛ إذ تحول التحقيق إلى**

عمل فني يمكن أن يقوم به أجهل الناس، لكنه متقن لفن استخراج النصوص من مواطنها ليستكثر من الهوامش».

أنا لا أجد مشكلة من إحالة القول إلى مصدره الرئيسي وأتمنى أن يقف الأمر على هذا، ولكن بعد انتهائي من كتاب فن القراءة هذا شرعت مباشرة في كتاب (العواصم من القواصم) لابن العربي المالكي، والنسخة التي لدي من تعليق محمود الاستانبولي وزاد تحقيقها والتعليق عليها: مركز السنة للبحث العلمي، وشعرت أني مشتت أو أني لا أستطيع أن أركز على المتن لطول تعليقات الحاشية، واستطرادها استطرادًا طويلًا، فحقيقةً بعض الحواشي تبعثر انتباه القارئ للكتاب الأصل وتفسد من حيث أنه أراد أن تصلح وتكمل الفائدة.

ومن الأمور التي ذكرها الشيخ أن ضعف العملية التعليمية في دولنا العربية نابع من ضعف شخصية المعلم القدوة، بمعنى المعلم تراه قلق في الصف وينظر إلى ساعته أكثر مما ينظر إلى الطلاب ومهتم ومغتم وأول ما يضرب الجرس تراه يركض ويخرج قبل الطلاب أنفسهم لأن راتب المعلم لا يكفي فيضطر أن يعمل عملًا إضافيًا مثل أن يعمل تكسي أو بائعًا لبضاعات بالجملة ويذهب إلى القرى والمدن ويمضي يومه وهو يبيع ويوزع فأنت تضعف تلقائياً نظرة القدوة إلى هذا المعلم، لأنه لا يوليك أي اهتمام وباله مشغول بغيرك.

وأنا لا أعلم لماذا أشعر أن المدرس الذي يدرسك من غير مقابل هو الأخلص في إيصال المعلومة – وإن لم يكن هذا الأمر على إطلاق –، ولكن المعلم الذي لا يقبض مقابل، لا يوجد لديه سبب آخر أن يدرسك ويعلمك إلا إذا كان هو يحب ذلك فعلًا.

ولكن من الأمور التي أظن أنها أضعفت النشأة الثقافية لدى الفرد في دولتنا، هو محاولة وزارة التعليم لدينا استنساخ نماذج دول متقدمة في التعليم، فهم لما يستنسخون هذه النماذج يريدون أن يحققوا نفس النتيجة، ولكن يفوتهم أن تلك الدول لم تصل إلى هذه النتيجة إلا بعد جهد جهيد ولكن

نحن لا نريد أن نسلك نفس هذا الجهد الجهيد ولكن نظن أن بمجرد استنساخ التجربة سوف نحقق نفس النتيجة وإن لم نبذل ذات الأسباب.

فلذلك ترىٰ أن العملية التربوية عندنا سواء في المدارس أو الجماعات يركزون علىٰ الاستكثار من الواجبات والطلبات وتكثيف ذلك ويظنون أن هذا قد يزيد الطالب معرفة ووعيًا، بينما قد تزيد الطالب نفورًا وزهدًا وكرهًا للتعليم، وأنا لدي قناعة: أن كلما قلت التكاليف زادت رغبة الناس في الشيء.

والأمر المهم الآخر أن بعض النخب الثقافية - بالخط العريض - لم تصل إلىٰ ما وصلت إليه من علم وتقدم ونبوغ إلا بعد ما عاشت في بيئة ساعدتها علىٰ التعليم منذ الصغر ومنذ النشأة. وأبرز ما قد يساعدك في هذا هو الأسرة، أو المعلم، ولكن إذا كانت الأسرة غير متعلمة أو لا ترىٰ أن الثقافة شيء مهم فنسبة تعلق الشخص للقراءة والاطلاع منذ الصغر قد تقل.

فلذلك أنت ترىٰ أن الكثير من الشخصيات يقولون في مذكراتهم: «صحيح أن والداي لا يقرآن ولا يكتبان ولكن كان يرسلاني إلىٰ مُحَفِّظي القرآن ولما أنتهي كانا يرسلاني إلىٰ مدرس النحو» ولعل هذا تجدهُ بارزًا في مذكرات الشعراوي التي دوّنها محمد زايد أو حتىٰ في ترجمة الإمام الشافعي ودور أمه التي حرصت في تعليمه ليخرج إمامًا عالمًا من أعلام هذه الأُمَّة.

والمثل يقول: «من شبّ علىٰ شيء شاب عليه»، فلذلك أنت لما تريد أن تزرع الثقافة في ابنك فمجرد ما يبلغ مرحلة الوعي أن ترسله إلىٰ مدرسين هنا وهناك حتىٰ لا تتلوث فطرته ويصعب علاج الأمر في ما بعد. والمثل يقول: القط الكبير لا يتربىٰ.

وآخر نقطة أختم بها، وهي قضية أن بعض المختصين هم من أسباب صد الناس عن القراءة والاطلاع، فهذا المختص يكون بين خيارين، إما أن يعمّق القضية أو العلم الذي يدرسه ويشرحه من أجل أن يقال أن هذا الأستاذ عبقري وطرحه طرح قوي جدًا لأنه معقد ولا يراعي الناس الذين

أمامه، أو أن تكون صاحب قضية ويتمنىٰ أن كل هؤلاء الذين أمامه يصيرون مثله، فيحاول قدر المستطاع أن يرتقي بهم، فيبسط لهم ويستخدم الأساليب التعليمية التي تدخل المعلومة في أذهان الشاب الناشئ مثل ضرب الأمثلة ونحو ذلك.

وقد ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أن أبو زكرياء الفراء الكوفي وهذا كان يسمىٰ «أمير المؤمنين في النحو»، فكان يجلس بعض الطلاب للتعلم ثم رأوا أنه يبسط النحو بشكل كبير جدًا، فاعترضت فئة من الطلاب وقالوا: «**إن استمررت هكذا فسوف يتعلم الصبيان النحو**»، فقال لهم وهو غاضب: «**والله لأمين النحو ما اجتمع اثنان**»، فاستمر في الإملاء ستة عشر عامًا. فلاحظ كيف أن البعض لا يريد أن يكون العلم متاحًا وسهلًا عند الناس ويريد أن يحتكره لمصلحة شخصية ويقدمها علىٰ المصلحة العامة من استفادة الناس.

وفي النهاية بخصوص هذه الجزئية فقد ناقشها المؤلف في جلسة مستقلة حول كتاب (المرايا المحدبة) لعبد العزيز حمودة هو قضية الشعر الحداثي وكذا تطرق له بشيء من الاختصار في كتابه هذا.

ومن الاقتباسات الجميلة التي في الكتاب:

- **«إن من فوائد الفضائيات اليوم أن عرّت لنا الكثير من الأسماء التي كانت تتخفى وراء كتبها المسروقة» (صـ١٦٦).**

- **«سبوا التراث ولعنوه بكل شتيمة، وأشاعوا أنه ما وُضع إلا لأحذية السلاطين، مع أنهم كانوها بكل جدارة!» (صـ٦٦).**

٣ مايو ٢٠١٨م - ١٨ جمادىٰ الآخر ١٤٣٩هـ

رواية: مائة عام من العزلة

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: مائة عام من العزلة.**
- **اسم المؤلف: غابرييل غارسيا ماركيز.**
- **اسم المترجم: محمد الحاج.**
- **عدد الصفحات: ٥٣٨.**
- **دار النشر: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة (مائة عام من العزلة) لغابرييل غارسيا ماركيز وهذه الرواية هي من أشهر روايات الأدب العالمي.

وترى أن الأدب اللاتيني في بعض أطروحاته متأثر جدًا بالأدب العربي القديم، ألمح غابرييل غارسيا ماركيز في مذكراته التي ترجمها صالح علماني أن أحد الكتب التي ألهمته هي ألف ليلة وليلة[١٠٦]، ومن رأى مائة عام من العزلة يكاد يتيقن أن أسلوب الكتاب هو محاولة لمحاكاة هذه الليالي وارتباطها تصاعديًا ببعضها البعض بخيالها الذي يكاد أن يكون حقيقة لدى القارئ.

بل يذكر مترجم الرواية محمد الحاج في ترجمته للمؤلف أنه قد عثر في أحد صناديق أجداده على كتاب قديم ولم يكن إلا الترجمة الإسبانية لـ(ألف ليلة وليلة) والقصص التي فيه كانت مُشابه للقصص التي كانت تحكيها له جدته، وهذه القصص غالبًا ما تشكل الخيال لدى الطفل حتى يكبر ويكون ملتصقًا به كما يقول عمر محمود في كتابه (فن القراءة) عن قصص جدته وأثرها عليه.

---

[١٠٦] انظر: عشت لأروي - صـ٣٠٩.

ربما لم يكن هذا الأمر بهذا الوضوح مع ماركيز بخلاف باولو كويلو - الذي حسب أحد النقاد - أن روايته الخيميائي ليست إلا انعكاس لأحد قصص لبورخيس التي كانت هي الأخرىٰ بدورها إعادة كتابة لإحدىٰ الليالي في ألف ليلة وليلة، بل يذكر بابلو في المقدمة العربية لروايته الخيميائي: (كانت الثقافة العربية إلىٰ جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبين لي أمورًا لم يستطع العالم الذي أعيش فيه أن يفقه معناها). ثم وجدت له لقاءً يقول أن من الذين أثروا فيه من الثقافة العربية هما ألف ليلة وليلة والأديب جبران جليل جبران.

فالخلاصة: لاحظ كيف هؤلاء قد تأثروا بالموروث العربي رغم أن العربية ليست لغتهم الأم، وكيف استطاعوا أن يصيغوا هذا التأثر بأطروحات أدبية عبروا من خلالها الحدود، وأصبحوا أحد الرموز الأدبية العالمية، بخلاف الممسوخين لدينا الذين ينظرون إلىٰ هذا التراث وهذا الكم الهائل من المعرفة بنوع من التقزز؛ ويأثرون عليه الأدب الشرقي والغربي! وكأن أدبنا قد عُقم.

هذا أولًا، وثانيًا، - وهذا أظنه بالإجماع – احرص أن تشتري الأدب اللاتيني بترجمة صالح علماني الذي يترجم من الإسبانية مباشرة، وقد اشتريت الرواية من ترجمة محمد الحاج خليل، وأنا دائمًا ما أتهم فهمي وذائقتي ولكن وجدت مدونة مطولة قد كتبها الدكتور أنور الحازمي كيف أن ترجمة الحاج قد جعلته يقرف من هذه الرواية وكيف أن الوضع تغير بعد أن أعاد قراءتها علىٰ يد صالح علماني وعزىٰ ذلك أن الحاج يترجم من الإنجليزية لا من اللغة الأصلية، وهذا يذكرك بالمناسبة للمقدمة التي كتبها إدريس الملياني في مقدمة رواية (مذكرات في بيت الموتىٰ) في انتقاد ترجمة سامي دروبي الذي كان يترجم روايات ديستوفسكي من الفرنسية لا من اللغة الأصلية الروسية وكيف أنه وقع في زلات حرفت بعض معاني هذه الرواية.

ثالثًا: مضمون هذه الرواية قد ينظر إليه علىٰ أكثر من زاوية، وأما الزاوية التي لفت انتباهي هي (الفجوة الحاصلة بين الأجيال)، ولعلَّ هذا من امتدادات الواقعية العجائبية التي عُرف بها ماركيز،

القصة تتمحور حول تأسيس مدينة ماكوندو على يد الجيل الأول، وكيف كانت الحياة في زمن الجيل الأول، وكيف تغيرت هذه المدينة بتغير الأجيال والاكتشافات وتطور الزمن، وكيف تأثير السياسة والاقتصاد على الناس وحياتهم سلبًا أو إيجابًا.

هذا التناقل بين الأجيال دون اهتمام بمن كان سابقًا وكيف كانت الأوضاع، تدحرجت بالأجيال الأخيرة أن تنشأ مبتورة الصلة بعائلتها وواقعها، فلا يعرف إن كان جده الأول فعلًا اسمه هكذا أو وجد فعلًا أم مجرد أسطورة يتداولها السكان أنه كان هو المؤسس! وكما قال عمر محمود: «**ذاكرة الناس ضعيفة، الصغار ينسون والكبار لهم القبور**»[١٠٧]، فزوال الجيل الأول جعل أكثر الأمور تأكيدًا محل شك.

الواقعية في مثل هذه الإسقاطات أن تراها متكررة، فمثلًا من يعرف فينا من هو جده السابع وماذا كان وما هي مواقفه وماذا صنع ومتى أتى إلى هذه المدينة وماذا كان يعمل ومن كانوا أصحابه؟

وأما جانب الخيال هو إفراط ماركيز في بيان أن العزلة واللامبالاة قد تصل بالشخص أن يجهل حتى أنسابه الأقربون أمثال خالته أو عمته. لأنه لم يكلف نفسه السؤال ولم تكلف عمته نفسها السؤال ومع حصول الفجوة في المنتصف تسقط تلقائيًا حرمة النسب.

ولكن كيف تحصل هذه الفجوات بين الأجيال؟ تحصل بسبب أن الكثيرين لا ينظرون إلى أخبار عائلتهم وأفرادها وشجرتها وأحداثها على أنها أحداث مهمة، بل ينظرون إليها على أنها أمة قد خلت، وعدم الاهتمام والتوثيق يعني أن كل هذه الأحداث والأسماء سوف تضيع بمجرد ما يموت جيل الآباء، ولما يأتي جيل الأحفاد ويسألونك عن أجدادهم سوف تجد أنك بلا إرث واضح المعالم وهذا يمحو الجذور الأولى من العائلة تدريجيًا فيجعل أسرة (آل فلان) هم فقط الجد والابن والحفيد

[١٠٧] بغية الآمل في جمع المقالات والمسائل (٢/ ١٨٦).

وما سوف يأتي بعدهما، وربما هذا أحد أسباب ضياع نسب بعض العوائل التي بترها عدم الاهتمام بتوثيق نسبهم.

ولعل هنالك أشخاص حاولوا الحفاظ على أصولهم واستمسكوا بها لأنها تدل على هويتهم الحقيقة، وهذا تراه واضحًا مثلًا في (الجذور) للأديب الأمريكي الأسود أليكس هيلي الذي استقصى أصله فوجده يرجع إلى جد أجداده كونتا كونتي الذي استعبد من غامبيا عام ١٧٥٠ وأُرسل إلى أمريكا وبقت ذريته إلى أن وصلت إلى المؤلف الأمريكي هذا، فكتب سيرته عائلته من خلال هذه الرواية الرائعة.

وكذا قصة الثورة المسلحة ضد الحكومة المركزية والإضراب العمالي، هي من إفرازات أدب الدكتاتور - كما أخبرني أحد المهتمين بالأدب اللاتيني - وهو أدب اختصوا به، ودول العالم الثالث متشابه تقريبًا في النمط السياسي، ولكن لم يَختصّ عالمنا العربي بمثل هذا الأدب وإنما من إرهاصاته هو أدب المنفى وهو ما عرف لدينا في العالم العربي وهو انعكاس لسياسات الدكتاتور.

والفائدة المستوحاة من هاذين الحدثين معًا، وهي كيف أن التاريخ يصنعه المنتصر، وتكون الحقيقة المطموسة إن خرجت متأخرًا شذوذًا عن المتعارف عليه والمألوف، قد تكون معروفة عند الجيل الأول، ولكن القبضة الحكومية وشدتها تجعلهم يصمتون ويحجبون هذه الحقيقة ومع موتهم تموت الحقيقة معهم، فينشأ جيل على الرواية الحكومية للأحداث ويرى أن سكوت الأولين هو إقرار لها ردًا لكل رواية مخالفة لها.

وكذا تَفنن الكاتب في بيان أن الحكمة الإنسانية تلتقي مع النص الإلهي، فمثلًا ترى أن المؤلف تفنن في قضية المراحل العمرية للشخص من الطفولة حتى الصبا والمراهقة والشباب إلى الشيخوخة إلى الموت، وكيف أنه عند الموت يُجرَّد من كل ما سبق من فتوته فما سبق وكأنه رُدَّ إلى أرذل العمر.

والنمط الذي جعلك المؤلف تعيشه في الانتقال من جيل إلى جيل والتطورات والتغيرات التي طرأت فتؤثر على كل جيل، كان شيئًا جميلًا جدًا، لأن هذه اللحظات عادةً لن تعيشها، لن تستطيع أن تعيش وترى كيف عشت أنت وكيف عاش أحفاد أحفادك وما هي الصفات التي عُرفت بها أنت وتراها ما زالت متوارثة في أحفاد أحفادك، لا تعلم كيف كانت منطقتك في زمانك وما لذي تبدل منها وما الذي أُزيل منها وماهي الأحداث التي غيرت هيكلتها.

فمن خلال هذه الرواية تشعر أن عمرك قد امتد أكثر من قرن وأنت تُقلّب التغيرات والتطورات التي طرأت على الأجيال والجغرافيا.

٧ مايو ٢٠١٨م – ٢٢ شعبان ١٤٣٩هـ

سلطة الثقافة الغالبة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: سلطة الثقافة الغالبة.**
- **اسم المؤلف:إبراهيم السكران.**
- **عدد الصفحات: ٢٠٤.**
- **دار النشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من كتاب (سلطة الثقافة الغالبة) للشيخ إبراهيم السكران، والكلام عن كتب السكران يحتاج إلى مقدمات، أولها: أن هذا الكتاب تستطيع أن تقول أنه يقع في آخر سلم الترتيب من كتبه المتحدثة عن جدلية التراث والحداثة، الأول هو (مآلات الخطاب المدني) ثم تقرأ بعده (التأويل الحداثي للتراث) في الخاتمة تقرأ هذا الكتاب الذي هو أشبه بالملحق، والسبب أن هذا الكتاب يناقش نتائج ربما لن تفهمها بالشكل الصحيح ما لم تقرأ كلامه عن الأسباب والمقدمات في كتبه السابقة.

ثانيًا: زمن «التعاطي الجامد» من قبل المشايخ مع الطرح الطارئ في قضايا الفكر والمنهج وتقاطعها مع الدين – أظنه – ولّى، بتنا نحتاج إلى طالب العلم المثقف الذي يكون علمه الشرعي كالقاعدة التي يوظف الثقافة من خلالها بتوكيد معنى أو نقضه، وأظن أن السكران من هؤلاء الذين يجمعون بين العلم الشرعي والثقافة – بمدلولها العام –، ومن خلال سبر الكتاب سوف تجد أنه يقتبس من الكثير من الكتب التي تحمل توجهات مختلفة وتتكلم في مواضيع متعددة ويجعلها في سياق واحد لخدمة فكرته.

ثالثًا: الكتاب كله تستطيع أن تقول أنه متفرع عن مقولة ابن خلدون في مقدمته «**المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده**». طبعًا كتاب السكران لم يتكلم عن قضية تأثير الغالب على هوية المغلوب اللغوية أو السلوكية، إنما ركز على تأثير الغالب على أدوات المغلوب في النظر والاستنباط والاجتهاد وما يؤدي ذلك بالضرورة إلى العبث في بيان مقاصد الوحي وتزييفها وتحريفها، وكتب السكران تتمحور غالبًا حول محورين: الأول الرد على من يتلعّب بالنصوص ويتأولها تأويلًا حداثيًا، والثاني حفظ الشخص الموجود في الصف الإسلامي من أن ينجرف إلى الصف الآخر دون أن يشعر.

وتكلم الكتاب عن قضايا متعددة في فصول أخرى، كلها تبين أثر الثقافة الغالبة على عقلية المنتسب إلى العلم في النظر والاجتهاد أو كما يقول المؤلف: الكتاب يناقش باختصار: كيف تؤثر الثقافة الغالبة في تأويل الأحكام الشرعية لإخضاعها لهيمنتها، وهو ضرب من ضروب الاختراق الداخلي لإخضاع الأُمَّة ثقافيًا للغالب كما هي خاضعة عسكريًا له.

٦ يونيو ٢٠١٨م – ٢٣ رمضان ١٤٣٩هـ

أيام من حياتي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: أيام من حياتي.**
- **اسم المؤلف: زينب الغزالي.**
- **عدد الصفحات: ٣١٠.**
- **دار النشر: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (أيام من حياتي) لزينب الغزالي ويقع في ٣١٠ صفحة من القطع الصغير، وهذا – فيما أظن – أول لقاء لي مع أدب السجون المصرية، ومن المعلوم أن أدب السجون العربي مصادره الرئيسة ثلاث: سورية والمغرب ومصر، وكل هذه السجون ألعن من أختها وتراها فاغرة الفم تقول: «هل من مزيد؟».

وجاءت قراءتي هذه ضمن خطة لكتابة ورقة بحثية من ضمنها – الكلام عن تنظيم ٦٥' – وقد قرأت فيها لأشخاص من عدة توجهات سواء المؤيد والخصم والمنشق، وكتاب زينب الغزالي هذا ليس بمذكرات بالمعنى الحقيقي، بل تم تجاهل الكثير من تفاصيل حياتها وبالأخص في بداياتها عندما كانت نشطة في الحركة النسوية التي كانت ترأسها هدى شعراوي – ولم تذكر – سبب انتقالها إلى الصف الإسلامي بسبب مناقشتها مع العالم الأزهري محمد النجار.

وإنما أتت هذه المذكرات لتسلط الضوء على جزئية معينة من حياتها وهي قضية تنظيم ٦٥'، فلذلك العنوان متسق جزئيًا مع المضمون فهو يتكلم عن «أيام معدودات».

حكت زينب الغزالي بداية توجهها إلى أحد التيارات الإسلامية ثم عن قضية الاعتقالات التي طالت التيار الإسلامي في مصر عام ٦٥' (ولم تذكر دورها الحقيقي وأسباب اعتقالها وإنما هذه الأمور قد تجدها واردة مثل في كتاب (البوابة السوداء) لأحمد رائف)، وتذكر تفاصيل التعذيب وكيف تم التحقيق ومجرياته.

رغم أن زينب عُذِّبت كما يُعَذَّبُ الرجال أو أقل درجة، ومرت عليها أهوال مثل: رمي وسط الكلاب أو الجلد بالسياط والكرباج والإيقاف لساعات والتعذيب بالنار والماء والإضاءة القوية ومحاولة الاغتصاب وغيرها من الأمور التي ذكرتها بالتفصيل؛ إلا أنها لم تعترف كما اعترف بقية الرجال، وترى في هذا الكتاب كيف أن جنة الحكومات كجنة الدجال التي ظاهرها نعيم وباطنها جحيم.

ضربت زينب الغزالي نموذجًا يحتذى به وكيف أن الألم ينهار أمام اليقين، وكيف أن الثبات عزيز، وكيف يكون الموت أحب إلى النفس المتيقنة مما يدعونها إليه.

٢٤ يونيو ٢٠١٨م - ١١ شوال ١٤٣٩هـ

الحركة الإسلامية: ثغرات في الطريق

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الحركة الإسلامية: ثغرات في الطريق.**
- **اسم المؤلف: عبد الله النفيسي.**
- **عدد الصفحات: ١٩٦.**
- **دار النشر: مكتبة أفاق.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب رغم أنه في الأصل مجموعة مقالات كتبها النفيسي بشكل منتظم في الثمانينات ورغم أن الكتاب طبع ثلاث مرات على امتداد سنتين، إلا أنه لا يزال هناك كوارث مطبعية في الكتاب.

الكتاب تستطيع أن تصنفه على أنه نقد ذاتي، ألفه المؤلف - كما يبدو - على إثر تجربته السياسية التي دخل فيها مجلس الأمة الكويتي ضمن التيار الإسلامي ولكن حُلَّ هذا المجلس فبدأت خلافات تقع بين النفيسي وبين الإسلاميين فالكتاب أُلِّف على هذا الضوء. (ارجع إلى وثائقي "خارج النص" عن الكتاب للوقوف على أسباب التأليف ونحو ذلك).

الانتقاد وُجّه لِطَيِّفٍ من التيار الإسلامي - لا كل التيار الإسلامي - وهم تيار الإسلام السياسي وعلى رأسه الإخوان المسلمين، وانتقد تجربتهم وأُطُرَهم الحزبية كثيرًا، والنفيسي ليست هذه مادته الوحيدة في نقدهم، بل له مساهمة ضمن كتاب جماعي بعنوان (الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية)، وتكلم فيه باستطراد عن النظام الخاص للإخوان المسلمين وأثره على الجماعة والصراع الذي حصل بين التنظيم الخاص وقيادة الجماعة.

الانتقادات التي وجهها النفيسي في هذا الكتاب بعضها موفق، وهذا لا يخص الإخوان المسلمين لوحدهم بل كافة الجماعات الإسلامية التي بدأت تتحول نظرة أفرادها على أن تنظيماتهم أصبحت غاية بدلًا من كونها وسيلة، ولكن بعضها الآخر غير موفق، فهو رأى أن نموذج الغنوشي والترابي هو النموذج المثالي في مقابل أخطاء الإخوان، والحقيقة أن المؤاخذات على هؤلاء الرجلين أكثر وأشد من المؤاخذات على الإخوان، لأنهم تخلوا عن الهدف الغائي من المشروع الإسلامي «تحكيم الشريعة» من أجل التوافق مع بقية المكونات، فأصبحت الغاية هي التوافق لا إقامة المشروع الإسلامي. وهذا جرّ بالضرورة إلى الكثير من التنازلات التي أشد مما تنازل بِهِ الإخوان المسلمون.

هنالك قضية مهمة تكلم عنها النفيسي وهي لم تدرس بالشكل المطلوب وهي قضية البيعات داخل الجماعات الإسلامية، من المعلوم أن بعض الجماعات ترى أن الفرد لا يصح أن يعمل من خلالها إلا ببيعة، وهذه البيعة تجعل أوامر التنظيم مُلزمة؛ وأن الانفكاك من هذه البيعة لا يتم إلا بوقوع الجماعة في الكفر البواح وتلبسها به، ولكن الإشكالية التي طرحها المؤرخ عمر عبد الحكيم أبو مصعب السوري مثلًا: «**هل يجب أن أبقى في جماعة وإن خلت من كفر بواح ولكن لديها فوضى بواح، واضطراب إداري بواح، وضبابية بواح؟**»[١٠٨].

وأنا أرى الخلاصة: أن التنظيمات والعمل التنظيمي لا بُدَّ أن يحمل في طياته آفات الحزبية بمنظورها السلبي طبعًا، لا يمكن أن يكون العمل مثاليًا، ولكن المفارقة تكمن في تقبل النقد والرد على من وجه النقد ببيان وجهة النظر، لا تسفيه النقد مطلقًا وإغلاق أبوابه وتكميم الأفواه، وكذلك من الكتب التي تكلمت عن النقد الذاتي وآفات التنظيمات وبالأخص الإسلامية منها، كتاب (أزمة التنظيمات الإسلامية: الإخوان نموذجًا) للدكتور جاسم سلطان، وما يميزه عن النفيسي أنه كان منظمًا للإخوان، ولكن هذا الأخير أشد انسجامًا مع المنظومة الدولية وإفرازاتها الفكرية وهذا قد

---

[١٠٨] انظر: مقومات التنظيم ودور المنهج – صـ٧٢.

ينعكس بالضرورة على أن انتقاداته للإخوان كونهم متزمتين في عدم تماهيهم الكامل مع هذه المنظومة وأفكارها، فَيُتَنَبَّهْ.

وأما خارج التيار الإسلامي، فأظن أن كتاب سلامة كليلة (نقد الحزب: المشكلات التنظيمية للحزب الشيوعي) داخلًا في هذا.

٢١ يوليو ٢٠١٨م – ٩ ذو القعدة ١٤٣٩هـ

المرأة البحرينية في القرن العشرين

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: المرأة البحرينية في القرن العشرين.**
- **اسم المؤلف: فوزية مطر وسبيكة النجار.**
- **عدد الصفحات: ٧٥١.**
- **دار النشر: دار مسعى للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

طبعًا المؤلفتان قد ذكرتا سيرتهما في الكتاب، ولكن هذه الترجمة أو السيرة كانت مُختصرة، إذ - كما يبدو - لم تريدا الاستطراد في هذا الجانب وتكثير الصفحات في هذا الباب، وإنما الإيجاز يكفي، ويظهر لي أيضًا أن المؤلفتين إلتزمتا بمنهج البحث حتى أثناء ذكر سيرتهما الذاتية، ومن ذلك أن سبيكة النجار معروف أنها كانت سجينة سياسية سابقة كما ذكر ذلك إبراهيم كمال الدين في كتابه (ذاكرة وطن) ولكن لم يرِد أي ذكر عن هذا الاعتقال - ربما - لأن هذا الحدث كان بعد الاستقلال والكتاب يتكلم عن ما قبل الاستقلال، وأما فوزية مطر فهي زوجة أحمد الشملان وأغلب كتاباتها داخلة في مجال التاريخ أو السير الذاتية، فلها كتاب عن طفولتها وكتاب ضخم عن زوجها أحمد الشملان ثم الكتاب المشترك هذا مع سبيكة النجار والقاسم المشترك هو أن هذه الكتب تأرخ لأشخاص ما أو حقب ما.

الكتاب بلا شك مثير للفضول نوعًا ما، أن تقرأ أو تعاين أحداثًا قد حصلت لأشخاص سكنوا في نفس المكان الذي سكنت فيه قبل عقود طويلة، كيف كانت حياتهم وكيف كانت العادات والتقاليد آنذاك وكيف كان نظرتهم للحياة، وما هي الأحداث المهمة التي هزت الرأي العام في المجتمع آنذاك؟ الكتاب هذا يناقش ويجيب على جزء من هذه التساؤلات.

والكتاب لا تستطيع أن تخرج معه بحكم واحد، أنا شخصيًا عشت لحظات تناقض، فهو من جهة مجهود بحثي ممتاز، بل لا يصدق أن فقط امرأتين قرأتا هذا الكم الكبير جدًا من المراجع من مجلدات وكتب ونشرات ومجلات وصحف وكتيبات وغيرها ونقشتا بالمنقاش للبحث عن أي جزء خاص يتكلم عن المرأة لإضافته لكتابهما، فهذا الجهد الكبير الذي ارتكز على عدد محصور في اثنتين، كلفهما العمل على تأليف الكتاب قرابة الأربع سنوات، والجانب السلبي هو النفس الفيمنست المتطرف الموجود لدى المؤلفتين، أي أن قراءتهما للتاريخ لم تكتب قراءة مجردة بذكر المعلومة ثم المرور عليها، بل يردفون شيئًا من التعليق على هذا التاريخ سلبًا أو إيجابًا، وترى أن كلامهما عن بعض الجوانب الشرعية فيه نوع من استفزاز المشاعر مثل اعتبارهما الحجاب نوعًا من القيود والعزل، ومن ذلك قولهما في الكتاب: «**رغم ذلك كانت المرأة تهفو لأي فرصة متاحة ومشروعة لملامسة الحياة والمجتمع خارج أسوار البيت وقيود الحجاب**»، وفي موضع آخر: «**استمر اعتبار الحجاب بأشكاله المتعددة من العباءة والغشوة في المدينة أو الغشوة والإردة (الرداء) للمرأة في الريف سترًا ومثالًا آخر على العزل المفروض على المرأة**» (صـ٤٧٣)

وكلام نحو ذلك في قضايا الميراث وقضايا تعدد الزواج والمحاكم الشرعية، ولو تتبعت النصوص لطال بنا المقام، ويكتفي ببيان مصادمة هذه الأقوال شرعًا كتيبات الدكتور عادل حسن الحمد أمثال (عولمة القوانين: الأحوال الشخصية في البحرين) و(لماذا يطالبون بقانون للأحوال الشخصية).

ربما من معايب هذا الكتاب أنه أُلف متأخرًا، لو أُلف في وقت أبكر لأدركوا من عاش منذ بداية القرن العشرين أي سواء في العقد الأول أو الثاني، ولكن تأخر الكتاب جعل الخيارات محدودة، فانهمرت النقولات أو الشهادات من العقد الرابع وما فوق.

وقد استعملت كلا المؤلفتين أسلوبًا مهما جدًا في التأريخ، وهو أسلوب قد يهمله بعض الباحثين في التاريخ، وهو توثيق الشهادات - أي أنهم يجرون مقابلات شخصية مع بعض المعاصرين لحقب

زمنية معينة ثم يستقون من خلالها المعلومة - وأحيانًا يكون ما يستقونه يسد ثغرة ما وردت في الوثائق أو الكتب التي كتبت عن تلك الحقبة.

هذا الأمر جعل كتابهم مميزًا عن غيره، فالكتب التي تكتفي بالنقل من المراجع الكبيرة لا تعتبر مرجعًا بحد ذاتها، بل هي مجرد تجميع من مراجع متعددة في مصب واحد، ولكن عندما ينفرد الكتاب بذكر معلومات حصرية ويكون هو المصدر الرئيس لها يتحول تلقائيًا إلى مرجع كون هذه المعلومة لا توجد إلا في هذا الكتاب.

ويلاحظ أن الكاتبتين وقفتا على الشاهد من كل مقابلة قامتا بإجرائها، وكنت أتمنى أن يضعا نصوص المقابلات كاملةً في ملحق الكتاب، لأن بعض الجزئيات التي لا تتعلق بالمرأة ربما تتعلق بأمور أخرى تفيد باحثين غيرهم في غير هذا المجال، خصوصًا في المجال السياسي - والتي تكاثفت الشهادات حوله بشكل أبرز من غيره من الموضوعات -، وخصوصًا أن الكثير من المعنيين والذين أجريت معهم اللقاءات أصبحوا كبارًا في السن، وقد لا يدركهم الباحث أثناء عمله على مشروعه.

ويعاب على الكاتبتين حصرهما النشاط في ذواتها فقط، ولو وسعتا نطاق العمل على عدد أكبر وتقاسموا الأدوار، بحيث تكون هنالك عاملات معهن وكل واحدة تقرأ كتابًا معينًا فكلما اتسع العدد كلما سهل الحصول على المعلومات من الكتب، لأنه إذا فقط اثنتين قامتا بجرد هذا الكم الكبير من المعلومات هذا بلا شك أنه مكلف في الجهد ويستغرق وقتًا طويلا جدًا بخلاف لو زاد عدد الباحثين، هذا ناهيك أن بعض النسوة يستطعن السفر وهذا أمر ليس متيسر للمؤلفتين ولقد حرمتا من الكثير من المراجع المهمة لعدم قدرتها على السفر، كان هذا سببه حصر العمل في ذواتها، يعني مثلًا حديثهما في الصفحة ٤٣٣ عن السينما لا أذكر إن كانتا قد تكلمتا عنها أيضًا في موطن آخر من الكتاب - لأن الكتاب ضخم -، لم ترد في هذه الجزئية حديثهما عن المواعيد التي خصصت للنساء والأطفال وقد قرأت هذه الجزئية في كتاب علي الشرقاوي (بحيرة الكلام مركب الجسد) نقلًا عن

محمد عواد – إن لم تخنِ الذاكرة –، ورغم أن كتاب علي الشرقاوي تكلم فيه عن فوزية مطر نفسها، ولكن أحيانًا الشخص ينسى، أو لا يرد على خاطره، فلذلك كلما توسع العدد كلما وجدت أن المعلومة أسهل، وهذا سواء بتذكيرك إن نسيت أو بذكر أمور لم تنتبه لها سابقًا.

تكلم الكتاب في البداية عن تقسيمات سكان البحرين على نحو العرق والمذهب، وهذا تقسيم مهم جدًا في دراسة حالة المجتمع البحريني، حتى لا يقع الدارس أو الباحث في مزلق التعميم، فيقول (وعرف عن أهل البحرين ذلك) بينما هذه العادة قد يُختص بها فئة من فئات المجتمع لا كله، والتقسيمات الموجودة في البحرين – سوف أعيد طرحها لتكون الصورة لمن خارج البحرين أشد وضوحًا – هم:

– السُنّة ويقصد بهم العرب السُنّة، وهؤلاء ينقسمون إلى ٣ فئات، القبليين (الذين ترجع أصولهم إلى قبائل معروفة، مثل عائلة آل خليفة فهي ترجع إلى حلف العتوب ويرجعون نسبًا الى قبيلة تغلب بن وائل) واللا قبليين (وهؤلاء الذين أصبح نسبهم القبلي غير معروف وأصبح الاسم الجامع لهم هو اسم الأسرة) والرقيق المحرر (رغم أن أصول هؤلاء أفريقية إلا أنهم أصبحوا يحسبون على خانة العرب السُنّة بعد مرور عقود على تحريرهم).

– البحارنة (وهم الشيعة العرب) وسابقًا كان يطلق وصف (البحارنة) أو (البحراني) على جميع سكان البحرين، ولكن الآن العُرف أكد انحصارها في وصف الشيعة العرب دون غيرهم.

– العجم (بخلاف مدلول هذا المصطلح ومعناه الصحيح؛ وهو أن الأعجمي يُطلق على كل جنس غير عربي، ولكن في البحرين الدلالة العرفية لهذا المصطلح يَخصُّ بها الفرس الشيعة).

– الهولة (يطلق على فئتين، الأولى: القبائل العربية التي سكنت ساحل فارس ثم وفدت إلى البحرين واستقرت بها، وكذلك الفرس السُنّة الذين وفدوا إلى البحرين، والقاسم المشترك أنهما وفدا من فارس وأنهما سُنّة).

وتعقيبًا على جزئية الرقيق، هذا الموضوع موضوع حساس تقريبًا، وفي إثارته لأحفاد هؤلاء نوع من أنواع الإهانة والتعيير بأمر لم يكن باختيار أجدادهم، وكذا قرأت في الكتاب وصف الأنثى المملوكة بـ«العبدة» وهذا خطأ لغوي، بل الصحيح لغويًا أنه توصف بـ«أَمَـةً» وجمعها إماء، وموضوع الرقيق بالذات لا أظن ستُقام أبحاث حوله، لحساسيته رغم أهميته التاريخية وتكميل المشاهد ببعض.

ومن خلال النظر إلى عادات كل فئة، ترى أن العجم هم أشد الفئات انفتاحًا، والعرب السُنّة القبليين أكثرهم انغلاقًا، مثلًا في عادة لا تزال جارية رغم مرور أكثر من نصف قرن عليها، وهي قضية عدم ذكر اسم الأم أمام الرجال، إذ يعتبر أنَّ هذا الفعل مشينًا، وما زلت أذكر كيف أني في المدرسة الإبتدائية قرأت ورقة أحد الطلاب من المري وفيها بياناته ومذكور فيها اسم أمه، وكيف أنه غضب وشدد عليّ أن لا أخبر أحدًا بذلك.

وتكلمت فوزية مطر في مطلع الكتاب عن المراجع التي كتبت عن البحرين، وقالت عن محمد النبهاني صاحب كتاب التحفة النبهانية: «**لم يأت في تحفته على ذكر الشيخة عائشة ولم يتطرق للمرأة البحرينية أو أي شأن يخصها، ولعلنا نلتمس العذر للنبهاني القادم إلى البحرين من مكة المكرمة، لِما كان سائدًا في البيئتين من عُرفٍ يذهب لاعتبار ذكر المرأة أو الكتابة عن أي شأن يخصها أمرًا معيبًا وغير مألوف**».

كلامها في شقه الأول صحيح، فهو لم يتطرق إلى المرأة البحرينية ولا الشيخة عائشة، ولكن غير صحيح أنه لم يتطرق إلى ذكر المرأة مطلقًا في تحفته، بل تكلم عن نساء آل خليفة ومصيرهن عند وقوع الحرب بينهم وبين آل مذكور - أي في حادثة الحرب التي وقعت بين آل خليفة وآل مذكور قبل دخول آل خليفة إلى البحرين - في صفحة ٨٦، وكنت أظن أن الكاتبة لم تنتبه لذلك كون طبعة المكتبة الوطنية للتحفة النبهانية فيها بتر بخلاف النسخة التي طبعت بالمطبعة المحمودية في مصر (والمتوفرة على الشبكة)، ولكن وجدت أن جزئية حديثه موجودة في كلا الطبعتين.

وتكلم الكتاب في الابتداء عن المهن التي زاولتها المرأة في مطلع القرن العشرين، والملفت للانتباه أن بعض هذه المهن يقوم بها الرجال، ولكن بسبب نمط الحياة آنذاك في البحرين وأن الرجال عادةً يخرجون إلى موسم الغوص ويبقون شهورًا في البحر، يتحتم على المرأة حينئذ القيام بدور الرجال في التربية والسعي الحثيث لإطعام أبنائها الجياع، مما جعلها تضطر أن تعمل في أمور هي في الأساس ليست لها ولا تناسبها.

ولكن قامت المؤلفتان بتقسيم المهن حسب المناطق، فالمدن تختلف في ذاتها، فالمحرق تسكنها القبائل العربية والتي ما زالت متمسكة آنذاك بعاداتها وتقاليدها وهذا انعكس بالضرورة إلى ضيق هامش الحرية المُتاح للمرأة بخلاف مدينة المنامة التي تسكنها الجاليات الأجنبية والخليط العرقي مما جعل هذا ينكس على أسلوب الأسر آنذاك، فكانوا أكثر انفتاحًا، وهذا ما يخص بيئة المدن وأما بيئة القرى فالوضع يختلف تمامًا فهي بيئة أخرى، ولكن القاسم المشترك أن العادات فيما رأيت تكون مفصلة على الوضع الاقتصادي، فالأسر الميسورة يرون أن في خروج بناتهم منكر كبير، والعوائل الفقيرة والمعدمة يرون أن في خروج البنات أمر يسير، بسبب أن خروجهم هو من السعي من أجل كسب لقمة العيش، فالضرورة الحياتية هي التي تحدد ما هو عيب وما هو غير عيب.

ثم تكلم الكتاب عن النظرة تجاه المرأة، وحاول تفكيك هذه النظرة الدونية لها، وما المعاناة التي عانتها المرأة بسبب هذه النظرة، من عنف وعزل واضطهاد وكيف كانت أنها منزوعة الرأي في أمور تخصها ووليها من يقرر عنها.

هناك أعراف قبلية جاهلية تتضاد مع الدين ويظنها البعض أنها من الدين أو أنها أمر مُستساغ ذكرت في الكتاب في ضمن جزئية (الحق في التصرف واتخاذ القرار)، والعُرف في أصله معتبر في الشريعة إلا إذا خالف النصوص الشريعة، ومن القضايا المخالفة هي قضية تزويج المرأة دون موافقتها لمخالفته النصوص الشرعية، بل الشريعة قد تقرر العكس (تأمل!) وهي أن المرأة تستطيع الزواج رغمًا عن

أنف والدها في حالة إعضالها – أي أن يَرُدَّ كل شخص متقدم للزواج منها دون سبب معتبر – فحينها تتحول وكالة الولاية إلى القاضي الشرعي ويزوجها نيابةً عن والدها، هذا ناهيك عن قول الأحناف الذي يجيز للمرأة أن تزوج نفسها دون إذن وليها.

ومن الأمور التي من الجيد أنها انقرضت وكانت تمارس في جيل الأجداد، هي حجز الفتاة منذ ولادتها أنه من نصيب الولد الفلاني، فيتم الإيفاء بهذا الحجز حتى لو لم تكن البنت راضية أو موافقة أو مُعجبة بشكل أو بشخصية الرجل الذي سوف يتزوجها؛ لأن والدته فقط حجزتهُ لها منذ ولادتها، وهذا بلا شك عُرف مخالف للشرع، لأن النظرة الشرعية أُتيحت من أجل أن ترى الفتاة والرجل هل هما يرتاحون لبعضهما أو هل هما مناسبين لبعض، وعلى ضوء ذلك يقررون دون إكراه ولا إجبار ولا التزام مسبق.

وأما العنف ضد المرأة فيقصد به الضرب ونحو ذلك حدًا أدنى والقتل حدًا أقصى، وغالبًا ما يرتبط موضوع القتل بـ«قضايا الشرف»، عندما تزني البنت يقوم أهلها بقتلها حفاظًا على سمعة العائلة، وهذا أمر لا يزال موجودًا في بعض الدول كالأردن مثلًا، ولكن الغريب أن هذه الحالات تكررت وارتبط اسم مدينة الحد بها، وهذه العمليات أيضًا أمر متعارف عليها ولكن تخالف الشرع من وجهين، الأول: أن غير المُحصَنَةٍ لا تقتل عند ممارستها الزنى، وإن كانت مُحْصِنَةً فمن يُقيمُ هذا الحد عليها هو الحاكم، لا أسرتها!

هذا الأمر يجرُّنا تلقائيًا إلى الفصل الذي بعده، والذي تكلم فيه عن (القانون والمرأة) وتكلم فيه عن تفشي ظاهرة البغاء، بسبب قرارات الإنجليز حينئذ، فالإنجليز يحمون كل امرأة تَفد إليهم، فالتي تمارس الزنا تهرب من أسرتها وتحتمي بالإنجليز فيحميها الإنجليز من أسرتها، وبعض الرقيق يأتون إلى الإنجليز من أجل العتق، وبعد العتق مع وجود أي فرصة عمل تمتهن بعض النساء الدعارة من أجل الصرف على نفسها وعلى أسرتها، وأبرز من تصدى لهذه الظاهرة هو القاضي والعالم قاسم

المهزع، والذي وصفه المؤرخ مبارك الخاطر بأنه كان حربًا على هذه الظاهرة والتي كان يراسل الحكام مرارًا وتكرارًا في شأنها، وقاسم المهزع يذكرك بمحمد ابن براهيم آل شيخ مفتي السعودية الأول، صحيح أنه كان محسوبًا على السلطة ولكنه كان لا يداهن.

ثم تكلم الفصل الذي بعده عن المرأة والصحة، وعن النكبات التي حلت بالمجتمع البحريني في العقد الأول والثاني من القرن العشرين، من طاعون وكوليرا وقتل الآلاف فيهما، وكيف أن الجهل كان السبب في زيادة الوفيات لما اعتُبر أن توجس الناس من التطعيم لعدم معرفتهم به، وحقًا كما قيل: «الإنسان عدو ما يجهل»، ربما أبرز شيء كان يمارس وسيلة بدائية للتعامل مع المرأة الحامل هي التقنين الشديد في استخدام الماء (مقدار فنجاني قهوة عربية كل ٢٤ ساعة) مع وضع كرات الملح يوميًا داخل المهبل بحجة أن الملح مادة معقمة ومقلصة للعضلات بعد الولادة، وكانت هذه الأسباب حسب المؤلفتين «**على رأس أسباب زيادة حالات وفيات النساء ما بعد الولادة**».

ثم تكلم في الفصل الذي بعده عن مؤسسة الزواج، وعن نمط البيوت آنذاك إذ كانت البيوت تضم الجد والجدة وأبنائهما وزوجاتهما وأحفادهما، أي أن الولد لا ينفصل ببيت مستقل بعد الزواج وإنما يبقى في بيت أبيه، وهذه البيوت كانت تسمى بالبيت العود (وهو نفس الاسم الذي اشتق منه مسلسل تراثي بحريني)، وتكلم عن قضية الزواج بناء على القبيلة، أي أن أبناء القبيلة لا يتزاوجون إلا من بعضهم البعض، وهذه الحالة تلاشت تقريبًا في المجتمع البحريني الحالي خلا أسرًا معدودة جدًا وتوسع النطاق في الزواج إلى من هم في مستواهم، ولكن النظرة الدونية موجودة، فبعض العرب لا يحب لبناته الزواج من غير العرب (الهولة الفرس والعجم)، وبعض الأسر القبلية لا يتزاوجون من بقية العرب غير القبلين بحجة أن هؤلاء ليسوا من «مواخذينا» كما يقولون، فتخيل هذه النظرة العنصرية تجاه أبناء الولد الواحد، فكيف لو تزوج الولد فتاة من دول عربية فقيرة

أخرىٰ؟ فالعنصرية ستكون أشد وأكبر؛ كما أن هذا لا يمنع من اختلاط الزيجات في البحرين بشكل كبير جدًا، دون أخذ الاعتبار بالمكانة الاجتماعية والمعتقد الديني (أو المذهبي) والقبلي.

وتكلم كذلك أن من الطبيعي أن تزوج الفتاة وهي صغيرة وقبل أن تبلُغَ أيضًا، وأنه تنتزع من بين ألعابها إلىٰ حضن زوجها، وأن يتم الترتيب إلىٰ الزواج وهي آخر من يعلم ولا يتم إخبارها إلا قبل حفل الزفاف بأيام بسيطة. هذا ناهيك عن العادات المتخلفة عند الوافدين من بلاد فارس بإعلان عذرية بنتهم أثناء ليلة الدخلة، برفع المنديل وهو مغطىٰ بلون الدم وأن هذه العادات بقيت دارجة حتىٰ حصول الاستقلال في السبعينيات.

ثم طفقت المؤلفتان بالكلام عن المرأة والتعليم وهنا الحديث انصب عادةً في صعوبة تقبل المجتمع ابتداءً لتعليم الفتاة في المدارس، وكيف أن القائمين علىٰ هذا المشروع ناضلوا نضالًا مريرًا وواجهوا المعارضين والذين كانوا هم أغلبية كبيرة، وسنوات افتتاح المدارس والصعوبات التي واجهتها الفتاة في التعليم من رفض الزوج والتسرب المستمر ورفض شيوخ الدين ونحو ذلك، والإحصائيات في ازدياد عدد مرتادي المدارس وارتفاع نسبة المعلمات البحرينية مع تقادم الزمن ونحو ذلك، والنقلة الحقيقة للمرأة من انخلاعها من العادات والتقاليد القديمة كما أظهر الكتاب كان من خلال المدرسة، أي تغيرها لنظرتها لنفسها ومجتمعها بدأت تتغير عند الدراسة في المدارس وتلقي أمور جديدة غير المعروف والمتداول.

وتلمس من خلال الكتاب أيضًا أن المجتمع انقلب وتَحلل من ثوبه وردائه القديم، مع ظهور الصناعة النفطية، إذ أن وفرة المال وضمان الراتب، بخلاف الوضع السابق الذي يعتمد علىٰ محصول صيد اللؤلؤ، أدىٰ هذا في النهاية إلىٰ ترك مزاولة العديد من المهن ومن بينها المهنة الرئيسية للشعب البحريني آنذاك وهي الغوص الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في الستينيات، وأنت لما ترىٰ كتابًا مثل كتاب جاسم الحربان (مفردات بحرينية في الثقافة الشعبية) ترىٰ أن الكثير من المفردات اندثرت

لأنها مرتبطة بمهنة معينة اندثرت أو قلّت إلى حدها الأقصى بعد النفط، فأصبح لا داعٍ لتداولها فماتت مع الأيام.

ومن الأمور الملفتة للانتباه هي محكمة الغيص (أي محكمة الغواصيين) واستغلال النواخذة (صاحبي السفن) آنذاك لحاجة هؤلاء الغواصين بزيادة الفوائد وتراكم الديون وعدم التحلل منها مطلقًا بل يتم توارثها إلى الابناء، أعطى صورة شديدة الوضوح لهؤلاء البرجوازيين، بل ذُكر في الكتاب أن أحد النواخذة من أجل إيفاء دين أحد الغاصة أجبره أن يطلق زوجته حتى يتزوجها هو! فيبدو أن شخصية النوخذة هي شخصية مستبدة ومستغلة وتتجسد في شخصية الرأسمالي الطماع، ولكن تعاطي المسلسلات التاريخية لا يصورها على هذا النحو دائمًا، فهل يوجد نوخذة أو نواخذة لم يستغلوا حاجة الغواصين حتى يتم هذا الاستثناء في عرض شخصياتهم؟ إن كان الجواب: لا، ألا تساهم تلك المسلسلات بشكل أو بآخر وسواء تدري أو لا تدري بتجميل وجه من لا يستحق التجميل؟

بعد ذلك تكلم الكتاب عن السياسة والوضع السياسي وعن التنظيمات السياسية والتنظيمات السرية ومدى مطالبتها لحقوق المرأة (لنقل أن نصف الكتاب أو نحو ذلك هو للكلام في الشأن السياسي)، وثم مدى انخراط المرأة في التنظيمات، والملفت للانتباه أن حتى التنظيمات التقدمية التي تعيب على الرجعيين إقصاء المرأة كانوا هم كذلك قد أقصوها من المناصب القيادية، أي أن المرأة لم تصل إلى منصب اتخاذ القرار حتى عند التقدميين.

وبعيدًا عن الكتاب ودخولًا من المدخل السياسي، دعني أذكر أني التقيت مع عبد الله المطيويع في مقهى أبو خلف في المحرق ذات يوم، فقلت له أني قرأت كتابك وعجبت جدًا مما ورد حول الأسرة وما جرى لها من أحداثٍ سياسية، فقال لي: «هذا الكتاب سوف تقرأ جزئية كاملةً تتكلم عن خالتك فاطمة الجابر». أو كما سميت في الكتاب فاطمة مطيويع، وطبعًا هذه الخالة عاشت وماتت وطوال

احتكاكي معها لم أعلم قط أنها ساهمت في أحداث سياسية. وكانت أسرتنا أو أسرة والدتي تتحفظ عن الحديث عن هذه الأمور، خلا بعض الإشارات التي ما زالت شاخصة في ذاكرتي، مما جعل جيلًا كاملًا ينشأ وهو جاهل كل الجهل بما جرى.

والتأثر بالأحداث السياسة يوجه الأسرة إلى اتجاهين متناقضين، وقد حكى الشعراوي في مذكراته (صـ٨١) أن أسرة خنفس تأثرت بالسياسة لما جرى لها سابقًا ولكن نحو الاتجاه الإيجابي، وكان أحد أفرادها فيما سبق عميلًا للإنجليز، فوصمت الأسرة كلها بهذا المسمى، فلما جرت الأحداث السياسة تفاعلت بشدة معها محاولة محو الصفة التي وصمت بها سابقًا بإظهار نقيضها والمشاركة بالقوة في الثورة ضد الإنجليز، ولكن على العكس في بعض الأسر عندما يكون ابنها مناضلًا ضد الاحتلال البريطاني ومع ذلك تتنصل من هذه الأمور وتحاول طمسها أو إماتتها، والأشنع هو ما قد ذكر في الكتاب مثلًا عن أن بعض الشخصيات رفضت أن تفصح عن هويتها - رغم أهمية نشاطهم السياسي النسائي آنذاك -، وأن البعض يتمنى لو أنه حذف هذه المرحلة من حياته!!

وبعض الأسر إنما تفعل ذلك بسبب جهلها بالمطالب التي نادى بها أبنائها، فالكثير من المطالب قد تحققت في ما يسمى بـ«الانفراجة السياسية» في مطلع الألفية، والناس تظن أن هذه الخطوات هي خطوات أحادية من قبل الحكومة لا استجابة لمطالب المعارضة، فقارن فقط بين مطالبة الجماعات السياسية والنقابية والحقوق التي يتمتع بها البحريني الآن في القطاع الخاص مثلًا، كانوا سابقًا يريدون للبحريني أن يكون راتبه موازٍ للأجنبي والآن أصبح البحريني راتبه ضعف راتب الأجنبي، وكانوا يريدون سابقًا أن من حق البحريني أن يخرج إجازة سنوية وها هو الآن يفعلها.

من الأمور التي سمعناها في الأسرة أن لطيفة الجابر (أو كما ورد اسمها في الكتاب لطيفة المطيويع) لاحقها شخص من المخابرات وأطال الملاحقة، ثم خلعت نعالها وضربتهُ بها، وأن والدتي كانت ترسل التبغ (الدخان) إلى عبد الله المطيويع وأحمد الشملان واللذان كانا يختبئان في الخرابة (المكان

المهجور)، ولكن المفاجأة الأكبر وهي ما ورد في الكتاب عن خالتي فاطمة الجابر (أو المطيويع كما ورد في الكتاب)، وهي تَحزّمها بالقنابل وإخفائها ولفها حول جسمها ثم محاولة المرور من خلال الجسر مع عبد الله المطيويع ثم استخدامها ضد التُجّار الذين رفضوا الإضراب، وقد أخبرني المطيويع أنهم تجار يهود، ولكن لم يذكر لنا المسوغ - ليس الشرعي بل الأخلاقي - لاستهداف هؤلاء التجار الذين ربما رأوا أن في عدم الإضراب خسارة مادية لهم، فهل كانوا متعاونين مع الإنجليز مثلًا؟! وهل كل تاجر لا يمتثل لأوامر الحركة الوطنية يُضرب؟! هذه إشكالية مهمة.

وأنا أظن أن الكتاب هذا صدر مع كتاب المطيويع الآخر (من المحرق إلى سجن بيت الدولة) والذي فيه أيضًا إضافات مهمة حول شقيقات المطيويع الأخريات مثل نورة.

وتبقى هناك ملاحظة هامشية أختم بهذا الحديث عن أسرة الوالدة وهي: أن لقب «المطيويع» هي تصغير للقب «المطوع» والذي وصف فيه عبد الله عندما كان صغيرًا لملازمته المساجد وأذانه المتكرر فيها، وقد غَلب على الأسرة اسم القصّاب لأن جدي إبراهيم ووالده كانا يملكان محلًا لبيع اللحم ثم تمدد العمل إلى مدينة عيسى وعرفت الأسرة كلها باسم القصّاب نسبةً إلى ذلك (انظر: كتاب مدينة الأحلام وذكريات الأيام لكمال بو كمال)، ثم مع مطلع الألفية حذف لقب القصّاب وتم الاقتصار على الاسم الأخير في الأسرة وهو جابر وحوّل إلى الجابر.

والكتاب في شقه السياسي كتاب مهم بل مثرٍ بل أستطيع أن أقول أنه صِيغَ بشكل يشد القارئ وكأنه يقرأ رواية، يعني تكلم فيه عن دور المرأة في انتفاضة ٦٣، وغالبًا ما قُصد بدور الأخوات والأمهات المتعاطفين مع إخوانهم وأبنائهم في التنظيمات السياسية السرية آنذاك مثل جبهة التحرير الوطني، ولنقل أن هذا السرد فيه الكثير من الصراحة التي قد يأنف البعض عن ذكرها، فذُكر مثلًا أن أحمد الشملان زار والدته وهو مختبئ بلباس النساء (العباءة) وكذلك ذكر نقل الأسلحة والقنابل ونحو ذلك، المفارقة في هذا الباب هو أن الذين خاضوا نشاطًا ضد نظام ما ثم فشلوا واستمر النظام كما

هو، غالبًا لا يذكرون مدى انخراطهم في هذه الأمور ولا يذكرون الأمور التي قد يستغلها خصومهم من أجل لمزهم مثل قضية التخفي بلباس النساء ولكن هذا يدل لك إلى أي مدى كانتا الكاتبتين صريحتين وحتى هذه الأمور لم تغفلاها وقامتا بتأريخها، وحقيقةً أن هذه الأمور مستخدمة حتى في التيارات الإسلامية التي رفعت السلاح وهي التنقّل بلباس النساء، ولكن لا أحد يَستطيع أن يقول أنه فعل ذلك، فهذا أمر قد يقدح في رجولة الشخص في الأخير.

وعندما تكلمت المؤلفتان عن بنات الشملان في الكتاب وضع نوع من الاستشكال لدي، وهو تكرار اسم الشاعر البحريني قاسم الحداد بجاسم الحداد وتكرار هذا الأمر من قبل شخصيتين لديهم معرفة مسبقة بهذا الشخص، جعلني أشك هل هذا خطأ مطبعي أو أن الشاعر اسمه الحقيقي جاسم الحداد ولكن غَلب عليه اسم قاسم؟

وتوجد بعض الأمور التي قد تمر على الشخص ويهملها ولكنها قيمة للمؤرخين وتأريخ الواقع الحالي للأجيال اللاحقة، مرة شاركنا في اعتصام من جملة الاعتصامات التي كنا نقيمها من أجل المطالبة بالمعتقلين كالأخ محمد العبيدلي ومحمد النجاس وعبد الله النعيمي وعبد الرحيم المرباطي، وهي اعتصامات ذكورية بامتياز، ولما نجحنا بالحصول على ترخيص من وزارة الداخلية استغل هذا الأمر من أجل الدعوة إلى اعتصام بشكل علني، وأقمنا اعتصامًا بالقرب من ممشى الغوص في المحرق، وكنت لأول مرة أرى نساءً مشاركاتٍ في اعتصاماتنا، واللائي يظهر عليهن الرداء واللباس الإسلامي من النقاب ونحو ذلك، هذه المعلومة قد أراها أنا تفاهة، ولكن الله يعلم كيف ينظر إليها الباحثون في الأجيال اللاحقة؛ فالمؤرخ لا يغفل عن أتفه التفاصيل لأنها قد تتحول إلى مادة تفسير لكثير من الأمور للباحثين مستقبلًا.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٩ يوليو ٢٠١٨م – ١٧ ذو القعدة ١٤٣٩هـ

التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين: مذكرات آخر قادة التنظيم الخاص.**
- **اسم المؤلف: علي عشماوي.**
- **عدد الصفحات: ٢٨٧.**
- **دار النشر: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية.**

التعليق والمناقشة:

«تنظيم ٦٥'» هو تنظيم أُسس بعد حل جماعة الإخوان المسلمين، ولكنه في الوقت نفسه تابع للإخوان المسلمين، ولكن الذي يقود هذا التنظيم ليس المرشد بل أشخاص من الجماعة.

طبعًا علي عشماوي هو أحد الرؤساء الخمسة لتنظيم ٦٥'، فهو يسرد لك الأحداث بشكل فوقي وهنالك من سردها بشكل تحتي وهو محمد الصروي صاحب كتاب (تنظيم ٦٥' الصحوة والزلزال) ولكن مع ذلك حاول أن يوافق بين رواياته للأحداث وروايات الآخرين وهذا هو المهم في مذكراته.

ومذكرات القائد الآخر من القادة الخمسة وهو أحمد عبد المجيد (الإخوان وعبد الناصر القصة الكاملة لتنظيم ١٩٦٥م) أيضًا مهمة لأنه أيضًا صدرت من شخص قائد في التنظيم ولكن إشكالية هذه المذكرات المنشورة على الأنترنيت أنها مبتورة، ويبدو أن محبي الإخوان لم يريدوا أن يعرضوا الجزء الذي تطاحن فيه المؤلف مع المرشد في السجن.

على العموم، علي العشماوي كانت لديه مشكلة مع جماعة الإخوان المسلمين، تمثلت في أمرين، (اعترافاته التفصيلية عليهم لما قبض عليه) و (ردة فعلهم تجاه هذا داخل السجن)، هذه الأمور أدت

في النهاية إلى وجود فجور بالخصومة من كلا الطرفين، هذا أدى إلى انشقاقه عنهم داخل السجن، ثم الانفصال عنهم خارج السجن، وهذا الإيذاء المستمر جعله يهاجمهم بعنف أشد، ولذلك لما تفتح المذكرات ترى أن أول ٩٠ صفحة تقريبًا كلها طعن وشتم في الإخوان وتسفيه ورميهم بالعمالة ونحو ذلك، ومن ثم بعد ذلك تبدأ المذكرات!

لذلك وقفت عند ما نسبه لهم من آراء واعتراف بنوعٍ من التحفظ ودون التصديق والاستدلال بهم إلا فيما يثبت من طريق آخر، وركزت على النقاط التي لا يحتمل حصول الكذب منه أو لا مصلحة من الكذب فيها، وهذه أمور غالبًا ما تتعلق بالبنية التنظيمية للتنظيمات السرية وطرق العمل، والتنظيمات السرية لديها مشاكل، أبرزها من خلال استقراء وسبر الكتاب: إذا سقط الرأس سقط التنظيم كله، أي سواء عملت بالبنية العنقودية أو الهرمية ما إن يُقطع الرأس يسقط باقي الجسد، والأمر الآخر تمثل في شخص علي عشماوي نفسه، فلا يصلح الشخص لأن يكون قياديًا في تنظيم سري وهو غير ممحص أي لم يجرب المعتقلات ويُشوى تحت لهيب السياط ويثبت، فكان من المجازفة أن يسوّد الأمر لغير أصحاب التجربة، وأضيف إلى ذلك أن لعلي عشماوي – وهذا بالإجماع – من خلال مطابقتي لبعض المذكرات أن لديه ذاكرة حديدية أو كما يقول البعض: «كذاكرة الكمبيوتر»، فما إن ما سقط وأخفق في امتحان التعذيب انتهى التنظيم نهائيًا فأعطى اعترافات تفصيلية جدًا.

وكذا كانت الإشكالية الأبرز كون سيد قطب وضع تكتيكًا خاطئًا وللأسف أن شقيقه محمد قطب قام بتعديلٍ عليه لاحقًا وعرف تحت مسمى «القاعدة الصلبة»، فمن أجل الوصول إلى الحكم لا بُدَّ من إنشاء قاعدة تحتية متينة أو جمهور عريض يكون مهيئًا لاستقبال تغير الحكم من الأعلى، والخطأ الذي وقع فيه قطب هو أن يجعل التنظيم مسلحًا بحجة الدفاع عنه إن تعرض للهجوم وحتى يتوسّع بين الناس وتكون هنالك قاعدة، فأنت بمجرد ما تشتبك مع نظام بوليسي مثل تنظيم جمال عبد الناصر يعني أنه راح يدخل معاك في حرب لا هوادة فيها حتى يستأصلك، فالنظم الحاكمة لن

تتفرج وهي تراك تتوسع تدريجيًا في المجتمع بل من الطبيعي أن تضربك وإن رددت الضربة عليها سيكون هناك مسوغ معنوي أن تبطش بك، فلذلك التغيير من الأسفل في هذا الزمن هو ضرب من العبث فيما أرى.

علي العشماوي هو مسؤول اللجنة العسكرية في التنظيم، يعني هو الذي تولى قضية الأسلحة والتدريب والمعسكرات وتحديد الأهداف، ومع ذلك نجا من الإعدام بسبب التعاون في التحقيق كما جاء في نص الحكم، وقد كان عشماوي يساعد في التحقيق وهو كان الشاهد الرئيس في القضية ضد إخوانه، وكانت أجهزة الأمن تستعين به لمواجهة المعتقلين والاعتراف عليهم (وهذا تراه واضحًا جليًا في مذكرات الغزالي وكذلك كتاب مذابح الإخوان لجابر رزق) مما أعطى انطباعًا أو تصورًا لدى الكثير من الإخوان أنه أصبح عميلًا أو انقلب إلى صف الحكومة، والغريب أن كما يقول العشماوي أنه بعدما أخذوا الاعترافات وأصدروا الأحكام كان رجال الأمن هم نفسهم بدأوا ينشرون شائعات بأنه كان عميلًا لنا منذ البداية، أي أنه رغم تعاونه معهم إلا أنهم حاولوا أن يؤكدوا ويثبتوا قضية أن هذا الشخص ليس إلا عميلًا وتابعًا لنا، وكان هذا من أجل قطع أي صلة تواصل بينه وبين الإخوان مستقبلًا؛ لأنه يستطيع أن يقول لاحقًا أني ضعفت في التحقيقات واعترفت تحت التعذيب ولكن مع تكرار هذه الشائعات وبثها من خلال رجال الأمن أنفسهم يتضح أنهم استخدموا علي العشماوي ممسحة ثم رموها في القمامة.

٢٩ يوليو ٢٠١٨م - ١٧ ذو القعدة ١٤٣٩هـ

رواية: الأجنحة المتكسرة

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: الأجنحة المتكسرة.**
- **اسم المؤلف: جبران خليل جبران.**
- **عدد الصفحات: ١٠٢.**
- **دار النشر: مؤسسة نوفل.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من كتاب (الأجنحة المتكسرة) لجبران خليل جبران، وتقع في ١٠٢ صفحة فقط ضمن مجموع الأعمال الكاملة الذي أصدرته مؤسسة نوفل.

ليس هذا لقائي الأول بجبران خليل جبران، ولكن قرأت أولى أعماله ضمن المجموعة الكاملة، وكانت أعمالًا سطحية نوعًا ما، ولكن هذا اللقاء الأول مع أبرز أعماله، ومن غرائب جبران أن مؤلفاته بالإنجليزية أكثر - كمًا - من مؤلفاته بالعربية، وقد سمعت من أحدهم أن سبب ذلك هو نبوغه في التعبير بتلك اللغة فيما لا يجدها في اللغة العربية!!

ومن فضائل مؤسسة نوفل أنها رتبت أعمال جبران ضمن التسلسل الزمني - من الأقدم حتى الأحدث - وهذا عادةً لا تقوم به دور النشر بل ترتب الأعمال الكاملة حسب الموضوعات (كتب، كتيبات، مقالات، رسائل) دون الالتفات إلى التسلسل الزمني، فيفوتك النظر والتأمل إلى تطور المؤلف تدريجيًا عبر الأعمال.

ومن الأدباء المعاصرين الذين يذكروني بجبران هو أيمن العتوم، كلاهما يجيد التشبيه البلاغي، وإن كان جبران أعلى كعبًا وكان العتوم أكثر تحفظًا في الاسترسال، وذلك أن أيمن العتوم في الأصل

خرج من منبتٍ إسلامي، فلا يطلق العنان ليديه ويستسهل في مواضيع المحظورة، بخلاف جبران الذي أصلًا يعيب في أعماله على الشرق الإصرار على التمسك بنواميس الشرائع والعادات والتقاليد، فهو يرى أنها قيود تقيد الإنسان وتحجّم عاطفته، لذلك فهو أصالةً لا يقيم لها شأنًا ولا رأسًا. وهذه من الإفرازات الجانبية لأدب المهجر، فلما هاجر هؤلاء الأدباء إلى الغرب هالهم حجم التباين في الحريات الشخصية ما بين الشرق والغرب؛ وأن الكثير من القاطنين في الشرق ينحرون مشاعرهم على مذابح العادات والتقاليد، هذه المفارقة هي الأصل الذي انبنت عليه (الأجنحة المتكسرة) الذي أراد أن يركز فيها جبران على مظالم المرأة الشرقية تجاه عاطفتها عندما تتقاطع مع المصالح والعرف.

وعادةً كلما توسعت القصة وانبسطت وصيغت بشكل محبوك كلما ارتفعت أسهمها لدى النقاد؛ ولكن الأجنحة المتكسرة لم يقدح من تقييم صياغتها بشكل مبسط ومبسط للغاية. أي ليست مغرقة في التفاصيل، وليس فيها إسهاب مطول في بيان القصة، وإنما الجمال كمن في نقطة الضعف وهي (قلة التفاصيل) وعوض جبران ذلك في التشبيهات البلاغية الجميلة والتي –للأمانة – أبدع فيها أيما إبداع – خلا ما تحفظ عليه – والاستطراد في التأمل والتشبيه بعيدًا عن التفاصيل قد يعدها البعض حشوًا، ولكن الأمر يختلف مع جبران والعتوم عادةً، أترى ماذا صنع العتوم لما تكلم في رواية (يسمعون حسيسها) في فصل (بدأت بالانفصال عني)؟! أين تفاصيل السجن في هذا الفصل؟! فلقد كان أغلبه مجرد تأملات وقياسات وإسقاطات بلاغية، فلم يقدح هذا في رونق الرواية بل زاد من بريقها.

هذه الكتب أو القصاصات قصيرة ولا يصح بحال أن تقرأ مجزأةً – أي يَجب أن تُقرأ جملة واحدة – حتى تغوص في ثنايا الكتاب كليًا، ولكن تقطيعها في نظري ليس بأسلوب محمود؛ لأنك كلما فتحت من جديد ستحتاج وقتًا حتى تشعر بحرارتها مُجددًا.

هناك نقطة أود الإشارة إليها؛ وهي أن لماذا النهاية لم تكن حسب ما يريد القارئ وما يشتهي؟! قلت: لو كانت كذلك لذهبت رسالة الكاتب التي أراد إرسالها، فانتهاؤها بهذا الشكل يجعل الكثيرين لا ينتبهون إلى آلاف المآسي التي تحصل لأمثال سلمى يوميًا، ولكن انتهاؤها بهذا الشكل ينبه الكثيرين على أن إلغاء اختيارية الفتاة عند الزواج قد ينتهي بمآسي أمثال تلك.

والأجنحة المتكسرة تقوم على بيان قصة سلمى وتقاطع الدين (الكنيسة) والمصلحة (المال) في تقرير حياة البشر ربطًا وحلًا، فالأب غني وعلى شفير الموت وبنته جميلة ولم تحكها الحياة والكاهن فاسد يريد أن يزوج هذه البنت لابن أخيه الفاسق المنحل، حتى يرث مال الأب الغني، نستطيع أن نلخص هذه القصة في هذا القالب الجاهز.

ورغم أن القصة تتكلم عن الكنيسة السورية أو (الكنيسة السريانية الأرثوذكسية) إلا أن الحال لدى الكاثوليك أسوأ بكثير، إذ أن الكنيسة السريانية تبيح الطلاق كما هو موجود في قانون الأحوال الشخصية لديهم بخلاف الكاثوليك فالزواج لديهم مدى الحياة ولا يصح ولا يَحل فيه الطلاق ولا انفساخ.

ولكن ما الشاهد من ذكر هذه النقطة؟! الشاهد أن لدى سلمى حلول يمكن استنفاذها، إن كان رأس الكنيسة الأسقف مطران فاسد، وزوجها لا يحبها وإنما تزوجها لثورتها تستطيع أن تشتري حريتها بالتخلي عن ثروتها مقابل الطلاق، وبذلك كل الأطراف ترضى، زوجها الذي لا يحبها وربما يحب غيرها والأسقف الفاسد الذي يريد مالها وهي التي تتوق إلى الحرية بدلًا أن تعيش عيشة مخالفة لكل هواها؛ إذن كيف افترضت أن لا حل سوى الرضى والقبول بالواقع؟!

وكذا لمعرفة واقعية القصة، نتحاج أن نستصحب حال نصارى سوريا مع كنيستهم، فهل ما يقره الأسقف لا يسع أحد أن يَردّه والمخالف لقرار الأسقف في شؤون الحياة الخاصة مثل الزواج يعتبر منبوذًا؟! هذه نقطة يجب أن تبحث للنظر إلى مدى واقعية القصة.

في الختام أقول: إن هذه القصة كالبحر العميق الذي ما إن تطأه حتى تغوص إلى القاع بلا انقطاع، وأحيانًا لا يعرف الشخص منّا مدى جفاف مشاعر الحب لديه حتى يشرب من كأس الحب ليعرف كم كان ظمآنًا، فهي أشبه بترمومتر قياس في هذا الباب.

ومن الاقتباسات الجميلة قوله: «**إن كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن؛ لأن هذا يكسب العائلة عضوًا جديدًا أمّا ذاك فيسلبهما عضوًا قديمًا عزيزًا**».

٥ أغسطس ٢٠١٨م - ٢٤ ذو القعدة ١٤٣٩هـ

رواية: معسكر الأرامل

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: معسكر الأرامل.**
- **اسم المؤلف: مرال معروف.**
- **عدد الصفحات: ١٢١.**
- **دار النشر: دار الشروق للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة رواية (معسكر الأرامل) لمرال معروف، والمؤلفة أفغانية الأصل ولدت في مدينة لغمان، وعاشت تجربة الغزو السوڤيتي لأفغانستان، وبعد نزوحها وأهلها خارج أفغانستان، كتبت كتابها الأول (الهجرة من أفغانستان) والذي كان يُجسّد تجربتها الشخصية في الهجرة ومأساتها الخاصة.

ولكن كتابها الآخر والذي نحن بصدد الحديث عنه وهو (معسكر الأرامل) هو توثيق لمآسي الآخرين وسردها، والروائي يختلف عن الصحفي في نقله للمعاناة، مثلًا الصحفية النرويجية آسني سييرستاد ذهبت إلى الشيشان ونقلت معاناة البعض في كتابها (ملاك غروزني) قامت ولخصت هذه الحوادث في صفحتين أو ثلاث حتى لا يطغى هذا النقل على بقية موضوعات الكتاب، ولكن الروائي أصل موضوع كتابه هو التوسع في ذكر تفاصيل المأساة، وإضافة التفاصيل الأدبية التي تجعل من الحكاية البسيطة، قصة طويلة.

وأسلوب الأديب ورشاقة قلمه أحيانًا قد تجذب الشخص للإيمان بقضيته التي يطرحها، لما تكلم تلستوي مثلًا عن (الحاج مراد) قد يسحب منك أسلوبه تعاطفًا مع هذا الخائن ضد المجاهد الإمام

شامل! وهذا باب مُهمل من أصحاب القضايا العادلة أن الكثير منهم لم يستثمر باب الرواية من أجل التسويق لقضيته وجذب الناس إليها.

والمؤلفة للأسف كتبت هذه المؤلفات ثم انطفأ ذكرها وذابت كما يذوب الملح، وهذه الرواية تصنف من الروايات الإسلامية وقد نشرت ضمن إصدارات (رابطة الأدب الإسلامي العالمية)، والروائية بثت الكثير من المفاهيم الإسلامية بشكل واضح وجميل من خلال هذه الرواية مثل الولاء والبراء والجهاد ونحو ذلك حسب ما يتناسب مع السياق الزمني التي تمر فيه أفغانستان آنذاك - والآن كذلك - من احتلال قوات أجنبية لأرضها.

وربما في تعاطينا مع القضية الأفغانية الأولى، قد نبرز المواقف النسائية المشرفة في خدمة القضية دون التطرق فعليًا إلى المآسي التي قد تمر بها المرأة أثناء الأزمات والحروب، أي أننا نذكر أن الأم صبرت وتجلدت وربما بادرت بنفسها لخدمة القضية ولكننا نهمل أنها بكت حتى ابيضت عيناها ونحبت وطال نحيبها، وأصابها الهم والغم والسقم لفقد أحبابها. وأظن أن الميزان المعوج - ربما - يعتدل مع طرح هذه الرواية لأنها طرحت الأمرين معًا. أي أنها كانت أكثر واقعية.

وأصل مادة الكتاب كان من زيارة المؤلفة لمعسكر الأرامل في باكستان والذي خصص للنساء اللاتي فقدن عوائلهن أو النازحات دون الرجال من عوائلهن، فذهبت هي ووالدتها هناك ثم حكت ما قصته النساء عليها، والقصص متداخلة أو تتفرع عن بعضها البعض (مثل قصة العجوز تفرعت إلى قصة الروسي ثم الشخص المنشق كل هذا تحت لسان قصة العجوز).

فالفترة الزمنية للكتاب بذكر أحداثها كان بداية الغزو السوڤيتي، أي أنه يتكلم عن أحداث مبكرة، يذكر لك كيف كان أثر الشيوعين ورؤيتهم للمجتمع وتداخل العلاقات الأسرية وتقاطعها إيديولوجيًا وكان أثر هذا على حياة الأسرة الواحدة المتفرعة الولاءات، وطرق المقاومة البدائية آنذاك وأساليب الروس والعملاء والحيل المتبادلة بين الطرفين أحيانًا، وأهم شيء ذكر قصة الشيخ

مريد وأبنائه، فكانت هي ملحمة هذا الكتاب، وركزت المؤلفة على سرد هذه القصة على لسان الإناث حتى تبين لك كيف تتعاطى المرأة أحيانًا مع نوائب الدهر وكيف أن تضحيتها قد تكون كثيرًا بارزة أكثر من تضحيات الرجال، وكيف أن ما يصيبها في مقتل هو إيذاء من تحب وحرمانها منه إلى الأبد.

أسلوب الكاتبة المشوق وقصر الرواية أو الكاتب يجعلانك تُنهيها في جلسة واحدة.

١٣ أغسطس ٢٠١٨م – ٢ ذو الحجة ١٤٣٩هـ

العقلية الأمنية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: العقلية الأمنية في التعامل مع التيارات الإسلامية: دراسة تحليلية.**
- **اسم المؤلف: أحمد مولانا.**
- **عدد الصفحات: ١٤٤.**
- **دار النشر: الجبهة السلفية.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (العقلية الأمنية في التعامل مع التيارات الإسلامية) لأحمد مولانا، وسوف أدون النقاط بشكل متسلسل:

أغلب المتكلمين في الأجهزة الأمنية، يبنون استنتجاتهم عادةً على النقولات المتداولة هنا وهناك أو مصادر مجهولة يصعب للقارئ العادي تقيمها، ولكن الشيء الجيد في هذا الكتيب أن النقولات مُقتبسة من وثائق لأمن الدولة، وهذه الوثائق قد تُحصَّل عليها إما بإخراج السجناء لها معهم (أظن قرأت هذا للقمري لما قال أخذت ملفي الشخصي معي أثناء الهروب) أو بسبب اقتحام الناس لهذه السجون واستخراج هذه الوثائق، ثم قام كلاهما ببيع هذه الوثائق على الصحفيين أو المهتمين؛ فالبعض قد يشكك أو يتسائل ما هو مصدر هذه الوثائق، فكان لزامًا توضيح ذلك إضافةً إلى ذكر أحمد مولانا – وهو سجين سابق – تأكيد مضامين هذه الوثائق نسبةً إلى عيشه في السجن واحتكاكه مع المعتقلين الذين أكثرهم قد مروا بما حَصلَ وما هو مذكور في الوثائق، وتكون هذه الزيادة من باب «ليطمئن قلبي».

هذا من وجهة، والوجه الآخر والتي تعد من مثالب الكتاب، هو استدلال المؤلف بالويكيبيديا (الموسوعة الحرة) لتأكيد معلومة واحدة قد مرَّت في الكتاب، بينما الكثير من الأمور قد ذُكرت في الكتاب دون مرجع وكان حَرِيًا به أن يذكرها هكذا لأنها معروفة بالضرورة، وكذلك كان حريًا بتجاهل هذه المعلومة اليتيمة التي عضدها بمرجع من الويكيبيديا؛ لأمرين: أنها معروفة والأمر الآخر: لأن الويكيبيديا لا تعتبر مصدرًا موثقًا للاستدلال كما هو معمول أكاديميًا (خلا المراجع الموجودة في أسفل الصفحة). فالبعض يترصد لنقاط الخلل في الكتاب ويشغب عليها ويضرب الكتاب من خلالها، ويسقط ما هو حسن بخطأ واحد، ويضرب بمصداقية الكتاب؛ لأن الكتاب قد استدل بما لا يصح معه الاستشهاد**!** فتأمل.

وكنت أتمنى أيضًا أن يقوم المؤلف بتوضيح بعض العبارات التي قد تكون خاصة في قطر إقليمي معين، كقول المؤلف: «**تولى إدارته لأول مرة اللواء سليمان زكي "حكمدار" القاهرة**»، فبعض المراتب العسكرية أو الأمنية قد تَختص في دول دون أخرى فلا بُدَّ من ذكر معناها أو ما يقابلها، مثل الرتبة العسكرية في الدول المغاربية «ميجور» عندما يذكرها شخص أمام المشارقة لا بُدَّ أن يقربها لهم ويقول أنها رتبة «رائد»، وهذه العبارات لا بُدَّ من وضع عين الاعتبار أن يتم تحويلها إلى ما هو مفهوم عند غير العارفين بها.

وكذلك كلامه حول المحققين المصريين، صحيح أن هؤلاء لديهم أصحاب خبرة لأن الكثير منهم شهد معارك وشد وجذب مع كافة التيارات الإسلامية في بلاده مصر، ولكن يجب التنبيه أن ليس كل مصري يعمل في جهاز أمن لدولة ما فهو بالضرورة صاحب خبرة، ولذلك لأن بعض هؤلاء ولد في بلدان أخرى ووظف هويته ومعرفته اللغوية من أجل خدمة تلك البلاد رأسًا (مثل المصريين الذين ولد بعضهم في أمريكا). فبعض المصريين كما يقول وليد محمد الحاج أنه لابس اللبس

العسكري الأمريكي [109] وهذا يدل أنه في الجيش، وأظن أن أمثال هؤلاء نشؤوا في أمريكا لا مصر والله أعلم؛ أي أنهم ليسوا استعارة.

وكما أن مستوىٰ استعانة أمريكا تعدىٰ الأفراد (محققين وضباط) إلىٰ الاستعانة بالسجون، فكل من يستعصي علىٰ المحققين الأمريكان استخراج المعلومة منه يُرسل إلىٰ الدول العربية ومن بينها مصر. كما فُعِلَ مع ابن الشيخ الليبي، فتجد أبو يحيىٰ الليبي مثلًا يقول عن ابن الشيخ: «**فبقي مدة في سجن كوهات ثم تم تسليمه لحامية الصليب فنقل إلى قندهار وبعدها إلى كابل التي بقي فيها مدة قصيرة مع التعذيب والتنكيل، فلما لم يفلحوا في أخذ شيء من المعلومات منه هددوه بالتسليم إلى إسرائيل أو الأردن أو مصر، وبالفعل تم نقله في تابوت تمامًا كما ينقل الموتى في رحلة طويلة بين كابل والقاهرة، فبقي في سجون فرعون مصر، وما أدراك ما سجون مصر!**». [110]

وتكلم أيضًا مولانا عن الخبرة، والحقيقة أن هؤلاء الضباط ليسوا كأي أحد، أو بالأحرىٰ يصعب تعويضهم، فهم ليسوا جنودًا مكلفين ببعض الأمور التي إن مات أحدهم فيها سهل تعويضه بآخر يقوم عنها، ولكن ضباط الأمن لديهم ميزة الخبرة التراكمية، وهذه لا تتحصل إلا مع الممارسة الطويلة، ففقدان أحدهم تعد خسارة جسيمة، فضخامة عملية همام البلوي قد قُرنت أولًا بقدرة علىٰ الاختراق المزدوج، وثانيًا وهو الأهم: للمجزرة التي قام بها لضباط الاستخبارات، ففقدت أمريكا عقول وخبرات تراكمية كثيرة، والبدائل قد تحتاج إلىٰ وقت طويل حتىٰ تصل إلىٰ ما وصل إليه الذين تم فقدهم. [111]

كما ذكر أن من الأساليب المنهجية التي تتبعها أجهزة الأمن مع الإسلاميين هي «**العمل على بث بذور الفرقة والشقاق بين الإسلاميين سواء بين عناصر الفئة الواحدة أو بين الفئات المتعددة؛ وذلك**

[109] ضمن سلسلة حلقات «شاهد علىٰ العصر» علىٰ قناة الجزيرة، الحلقة التاسعة.

[110] كلمة: ابن الشيخ .. القبرُ ولا الحَور، مؤسسة السحاب.

[111] بالمناسبة: اقرأ الرواية الرسمية لهذه العملية: (القصة الكاملة لعملية خوست) لأبي حسن الوائلي، نشر: مركز الفجر.

لاستهلاك طاقات الأفراد في معارك داخلية، محصلتها النهائية ضعف الصف الإسلامي وتشتيت قواه وصد الناس عن الانتماء له بسبب ما يرونه من معارك تكسير عظام بين أفراده».

وهذا أمر ثابت أو عقيدة ثابتة لدى أجهزة الأمن في كافة الدول، وهي لا تعدو كونها تطبيق تعريف السياسة، فما تعريفها؟ هي تحصيل أكبر قدر ممكن المكاسب بأقل قدر ممكن من الخسائر، فأنت قد تستطيع أن تضعف الجماعة الإسلامية بدخولك حربًا مباشرة معها قد تكلفك الكثير، ولكن تستطيع أيضًا بطريق آخر أن تضعف الجماعة الإسلامية بضربها ببعض دون أن تدخل وأن تخسر ولو أمرًا واحدًا. لذلك على سبيل المثال لما قامت مبادرة (والصلح خير) للصلح بين الجماعات السورية المتناحرة، أول شيء قامت به مخابرات بعض الدول استدعاء المشايخ الذين في دولها وإجبارهم على سحب أنفسهم لمحاولة إجهاض هذه المصالحة؛ لأن من عقيدتهم الثابتة هي ديمومة النزاع والشقاق بين الإسلاميين، وتستطيع أن تجعل هذا مقياسًا لبعض الأفراد أو الجماعات اللاتي تصر إصرارًا شديدًا في الدخول في نزاعات متتابعة غير منتهية مع الجماعات الإسلامية في أحلك وأضعف الظروف كيف يمكن أن بصنيعهم هذا يسيرون في خدمة أجهزة الأمن وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

كما أن ثمرة هذا النزاع معلومة جدًا، تناقص الاهتمام بالثورة السورية في محيطها العربي بدأ يدب عند حصول النزاع الأول في مطلع عام ٢٠١٤ وكلما زاد النزاع كلما زاد ابتعاد الناس! كأنها معادلة طردية.

وأما قضية الاستدعاء، فالبعض قد يتسائل فعلًا من قضية الاستدعاء؛ لإن جلس وكان الحوار معه بسيطًا وودودًا وخرج كما دخل، ويظن هذا الشخص أن هذا الجلسة تافهة ولا فائدة منها، ولو كانت كذلك لما ضيع هؤلاء أوقاتهم معك، وتركيز هؤلاء المحققين أكثر شيء على دراستهم نفسية المستدعى ومحاولة معرفة أي أدواتهم التي سوف تستخدم معه لاحقًا والأنسب لحالته!

وكذلك قضية التجنيد، وأنا لفت انتباهي كلام الأخ مولانا وقوله عن أساليب الابتزاز من أجل التجنيد: «التهديد بكشف فضائح أخلاقية»، وهذا ذكرني بأحد الأشخاص، الذي قيل لهم أخضع وإلا لفقنا لك محادثة صوتية إباحية، فقال لهم: «لو وضعتم صورتي على شخص يمارس الزنى مع عشر عاهرات لما قبلت أن أضع يدي بيدكم».

وهذا هو التصريح الصحيح أن يضحي الشخص بسمعته ولا يضحي بدينه، ولكن هذا الأمر يبدو سهلًا نظريًا ولكن الصعوبة غالبًا ما تكمن في التطبيق، فيجد الشخص صعوبة جدًا وإشكالية كبرى من اهتزاز سمعته والتضحية بها.

وكم من القادة قتلوا واعتقلوا وكم من المشاريع دمرت بسبب وقوع بعض الأفراد في زلات أخلاقية؛ فمحاولة إحصانهم مبكرًا قد تقلل من النوافذ التي يمكن أن يلج منها العدو إليك.

وأيضًا كلما كان الشخص جريئًا كان أفضل، فصاحبنا الذي قال ما عندي مشكلة من وضع صورتي على شخص يمارس الجنس لم ينفذوا معه لا تهديدهم الأول ولا طلبه هو أيضًا، فكلما كان الشخص جريئًا كلما قلّت احتمالية استخدام هذا الأسلوب في الضغط من أجل التجنيد.

وكذلك قول مولانا «**وربما تصل بعض هذه العناصر** [المندسة] **إلى تبوأ مناصب قيادية في صفوف الجماعات الإسلامية**».

ولعل الحال بين الجماعات الإسلامية يتفاوت ويختلف في هذا، فبعض الجماعات قد تخترق على مستوى الأفراد لا على مستوى القيادة[١١٢]؛ وذلك لأن الشخص لا يرتقي إلى منصب القيادة إلا بعد

[١١٢] مثلًا يقول مايكل شوّير رئيس وحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية: «**سبب عدم منعنا هجمات ١١ سبتمبر بسيط: لم يكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية ولا أجهزة استخبارات حلفائها الغربيين أو المسلمين جاسوس أو مخبر داخل هيكلية قيادة تنظيم القاعدة**». (انظر: أسياد الجاسوسة الجدد لستيف غراي – صـ١٧٣، ط: الدار العربية للعلوم ناشرون)، رغم أن القاعدة مخترقة من ناحية الأفراد باعتراف أميرها، يقول بن لادن مثلًا: « **نحن لنا نتكلم هنا نعلم أنه يصل بالضرورة إلى الأمريكان**». ولكن إن صح كلام مايك شوير فهذا يبين لك الفرق بين اختراق الصفوف واختراق القيادة وأثر ذلك على خطة العمل.

التمحيص والوقوف والثبات أمام الأهوال[١١٣]، وهذا لا يتسنىٰ لأي جماعة خصوصًا الجماعات الدعوية التي تتجنب مواطن الصدام وتحرص علىٰ السلامة.

ومما يجب التنبه إليه، أن بعض الجماعات الإسلامية قد تكون مواليه للدولة، ولها شيء من الاستقلالية، أو لا تتحكم الدولة بها تحكمًا كلّيًا، ورغم تضحياتها من أجل الدولة والدفاع عنها؛ ومع ذلك ترىٰ الدولة تتجسس عليها، فالعقلية الأمنية عقلية استباقية وهي تحاول أن ترصد الخطر قبل تشكله أو حدوثه، وعلىٰ ضوء ذلك لا توجد ثقة حتىٰ بأقرب الحلفاء لك، فمثلًا أمريكا كانت تتجسس علىٰ هاتف أنجيلا ميركل، وهذا الأمر كأنه أمر روتيني عادي، فهنالك دول علاقتها الدبلوماسية الخارجية سمن علىٰ عسل ومع ذلك تنشب بينهم حروب استخباراتية، فمن أجل معرفة ماذا ينوي الطرف الآخر أن يفعل، وكذلك يُفعل في الإسلاميين الموالين للدولة، فهنالك استباق لحدوث أي شيء وحتىٰ لا يحصل كل شيء للصدفة ويتشكل هنالك انقلاب فجائي من قبل هؤلاء علىٰ الدولة فيجب التجسس ابتداءً ووأد الخطر قبل تشكله وإن كانوا حلفاء وأحباب.

وكذلك تكلم أيضًا مولانا عن زراعة الأفراد ضمن السجناء داخل السجن، وهذا ينبئك أهمية أن يكون الشخص حذرًا حتىٰ في السجن، فزرع العملاء أو تجنيد السجناء أمر روتيني وعادي جدًا، وتسمىٰ هذه الظهرة بـ« ظاهرة العصفور» وفي رواية: «الصرصور»، وقد جاء في كتاب أبو جهاد طلعت (أساليب التحقيق في سجون العدو الصهيوني وطرق مواجهته) ما نصه: «**عصافير أو الصراصير: بعض الأفراد الذين يتعرضون إلى الاعتقال بسبب ارتباط أو نشاط تنظيمي ونضالي وجهادي يضعفون أمام جهاز التحقيق فيتحولون إلى أدوات طيعة لخدمة المخابرات بعد أن كانوا**

---

[١١٣] كقول الشيخ أسامة بن لادن أيضًا: «**وكذلك المعطيات التي اعتمد عليها في تزكيته مع إفادته بأن تزكيته معتبرة ولكن نريد أن نطمئن أكثر، فعلى سبيل المثال نحن هنا نطمئن إلى الناس بذهابهم إلى الخط وتمحيصهم هناك، وينبغي أن تكون قيادات الصف الأول من العناصر الممحصة تمحيصًا جيدًا**». (انظر: وثيقة SOCOM-2012-0000003، ووثيقة: SOCOM-2012-0000016].

يناضلون ضد الدولة ومخابراتها، فبعضهم يحاول أن يهرب من الأحكام العالية بالسجن إلى التعاون مع المخابرات، وبعضهم يحمل في داخله بذور الانحراف والضعف فلا يتحمل ضغط الاعتقال، وهناك عملاء أساسًا كانوا مدسوسين في صفوف التنظيمات أو كانوا ينشطون بين الناس بشكل سري، وعندما افتضح أمرهم وانكشفوا قامت أجهزة الأمن بإبداعهم في السجون حفاظًا على حياتهم وليكملوا المسيرة التي بدأوها في المجتمع والشارع ولكن داخل السجون والزنازين».

ودور هؤلاء حسب أبو جهاد باختصار يتمحور حول تمثيل دور المناضلين داخل السجن وجر بعض الأشخاص إلى الاعتراف بعد أن يرتاح الطرف الآخر إليه ويظنه فعلًا مقاومًا فيقول ما يدين بهِ نفسه دون أن يشعر! [١١٤]

وهذا الأسلوب تمت ممارسته حتى مع مؤسس كتائب عز الدين القسام المهندس عبد الله البرغوثي كما ذكر ذلك في مذكراته. [١١٥]

واستخدم كذلك ضد محمود الفحام الذي كان الشخص الاستثنائي الذي صمد أمام آلة التعذيب النصيرية، ولكن سلم ما لديه من معلومات لثقته بصديق كان معهم في التنظيم وقد انقلب إلى عميل داخل السجن كما ذكر ذلك أيمن العتوم في كتاب (يسمعون حسيسها).

وهذا الأمر يجرنا للحديث إلى أساليب استخراج المعلومة ما بين المحقق «الحار» والمحقق «البارد»، فتبقى تتأرجح بينهما حتى تفضل البرودة على الحرارة! فيقول الشخص ما يثبت التهمة على نفسه بالكلام المعسول فيما عجزت عنه سياط الجلاد!

وفي ذلك يقول أبو محمد المقدسي: «**وأعرف أحد حفظة كتاب الله من ذوي الصبر والجلد أُوذي وضُرِبَ وعُذّب عذابًا شديدًا كي يعترف اعترافات سيحكم بها حكمًا طويلًا بالسجن، فثبت وأبى أن**

---

[١١٤] أساليب التحقيق في سجون العدو الصهيوني وطرق مواجهته - صـ٤٩-٥٦.

[١١٥] مهندس على الطريق: أمير الظل (١/ ١٥٤)، ط: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع.

يعترف رغم الأذى والتعذيب الشديد الذي سُلّط عليه ثم إنهم لجؤوا معه إلى الحيلة والغدر... فقد كان الأخُ قبل اعتقاله إِمامًا لأَحد المساجد فحوّلوه إلى محقق كان يصلي خلفه في مسجده فعرّفه بنفسه وذكّره بصلاته معه في المسجد وأقسم له الأيمان المغلّظة لَيُساعدنّه إن اعترف وأن لا يحيله إلى المحكمة فاعترف الأخ لذلك المحقق بناءً على وعوده له دون أن يمسّه بضربة واحدة بعد أن كان ثبت ولم يعترف تحت عذابٍ قلّ من يتحمّله، فنالوا منه بالحيلة والمكر والوعود والأَيْمان الكاذبة مالم ينالوه منه بالأَذى والتعذيب»[116].

فالفرق بين هؤلاء المحققين كالفرق بين الغائط والبول، أي أن كلاهما نجس، ولا يوجد أحد أفضل من أحد! ولو كان المحقق الآخر يريد يساعدك فعلًا كما يزعم، فليغلق الملف لا أن يلبسك تهمة!

وكذلك تكلم مولانا عن تقييم المعلومة، وهنا لا بُدَّ من وقفة، فبعض المعلومات ترد من مصدر واحد وتوضع عند الأجهزة الأمنية في عين الاعتبار ولكن دون تأكيدها، وبعض أصحابنا للأسف يقول: هذه المعلومة أصلًا لدىٰ المخابرات فلا توجد أي مشكلة من ذكرها، فيقوم بذكرها ثم ترىٰ المخابرات هذه المعلومة قد ذكرت من مصدر آخر وأكد عليها (أي شخص إسلامي محسوب علىٰ الإسلاميين) وتطابق المعلومتين يدل علىٰ ماذا؟ علىٰ صحتها! وهو لا يعلم أن بمجرد ذكره هذه المعلومة قد أكدها لدىٰ الأجهزة الأمنية. بينما كان يحسب أنه ذكرها مجرد تحصيل حاصل ولا أهمية له، فكلما تواترت المعلومات من مصادر متعددة كلما ارتقت المعلومة من معلومة موضوعة بعين الاعتبار إلىٰ معلومة صحيحة! فالبعض يساهم في إيصال المعلومة إلىٰ معلومة صحيحة ويرفع من مستوىٰ مصداقيتها لدىٰ الأجهزة الأمنية وهو لا يشعر.

١٣ أغسطس ٢٠١٨م - ٢ ذو الحجة ١٤٣٩هـ

[116] وقفات مع ثمرات الجهاد - ص١٤.

لأنك الله

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: لأنك الله.
- اسم المؤلف: علي بن جابر العفيفي.
- عدد الصفحات: ١٩٢.
- دار النشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع.

التعليق والمناقشة:

أحيانًا يلمس الشخص في نفسه تقصيرًا، فيريد الإنابة والتوبة، ويريد ما يرقق قلبه، فيقبل على الكتب الدينية وهذا خيار مبدئي أولي صحيح، ولكن الإشكال يكمن في ما بعده، هو أن الشخص العامي البسيط لا يعرف تفرعات التخصص الدينية، فبدلًا من أن يقبل على كتب الرقائق التي ترقق القلب وتزيده خشوعًا يُقبل مثلًا على كتب الفقه التي تفيده من حيث تعلم الأحكام ولكن لا تؤثر تأثير كتب الرقائق على إيمانيات الشخص، والأمر الآخر، أن كتب الرقائق القديمة مثل كتاب الزهد لابن المبارك (ت ١٨١هـ) أو الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) أو ابن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ) أو البيهقي (ت ٤٥٨هـ) فكل هؤلاء لهم كتاب بنفس العنوان في باب الرقائق، وقد يجد القارئ البسيط الذي لايزال يُحبو على قدميه إشكالية فهم بعض المصطلحات الواردة في تلك الكتب القديمة، فإذن كتب الرقائق المعاصرة تحل إشكالات مهمة من حيث روعة بلاغتها المفهومة لدى القارئ البسيط والحذق في آن واحد، وهذا السبب الذي جعل كتاب (لأنك الله) يَنتشرُ انتشار الهشيم في النار لدى كل الشرائح القارئة بتنوعها واختلافها بل حتى لدى القراء الذين عقيدتهم ومنهجهم مُخالف لمعتقد الكاتب، وهذا الذي جعله يطبع مرة بعد مرة إلى أن وصل إلى الطبعة الخامسة عشر في وقت وجيز ويصنف على أنه من الكتب الأكثر مبيعًا.

وهذا يبين لـك أهمية تعلم الداعية والإكثار من قراءة كتب الأدب واللغة، حتى يوظفها هذا التوظيف الحسن، فشرائح الناس تحتاج إلى من ينزل إليها ويخاطبها باللغة التي تفهمها ويربطها ببعض المعاني الإيمانية والشرعية الصحيحة بلغة تفهمها هي وتستسيغها وتستلذ بها.

الكتاب حاول أن يشرح معاني أسماء الله الحسنى في واقعنا وحياتنا المعاصرة، وكيف أن الشخص ممكن أن يغفل أو يهمل مدى تأثير هذه الأسماء في حياتنا سلبًا أو إيجابًا، واعتمد على ذلك في أمور: محاولة التأمل في بعض الآيات القرآنية ومحاولة التدبر فيها، وغالبًا ما يقوم الكاتب ها هنا بقياس الأولى، والثاني: محاولة التأمل والتدبر وقياس الأمور بشكل منطقي، والثالث: الاستناد على القصص والحكايات.

طبعًا الباب الثالث، هو أخطر باب في موضوع الرقائق، لأن إيراد ما هب ودب يُذهب من مصداقية الشخص أو الدعاة عمومًا، وللأسف أن الناس تقيس الواحد على الكل، فإن أتى داعية وذكر قصة مكذوبة أو غير منطقية فإن أتى دعاية آخر وقال قصة أخرى ربما واقعية تراهم يُسقطون واقع الشيخ الأول على الثاني وينفرون من القصة على اعتبار أن هؤلاء الدعاة لا يقولون إلا القصص المكذوبة.

وبعض القصص رغم غرابتها إلا أنه لا يصدقها إلا من مر بها، فذكر مثلًا في الكتاب قصة الشخص الذي ضاع وسط الوادي وشارف على الهلاك فجلس يبتهل ويدعو الله ثم وجد من حيث لم يحتسب ماءً في زجاجة فشرب منها وشرب الذين معه، وربما لو لم أجد هذا الأمر قد تكرر في أكثر من قصة لما صدقت ذلك، فالذي شارك في معركة قلعة جانجي وهو وليد الحاج يقول أنهم ساروا مسيرة طويلة وبلغ بهم التعب والجوع مبلغًا كبيرًا ثم وجدوا طعامًا على ظهر حمار ظهر أمامهم فجأة كما في كتابه (مذبحة القلعة – صـ٣١)، وهذه القصة أكدها طاهر أحمد الزهراني في روايته (جانجي – صـ٥٩) نقلًا عن أحد المشاركين أيضًا في ذات المعركة وقد كناه بخالد القرشي وهو اسم مستعار.

وفي أوقات الأزمات قد تحصل أمور لا يصدقها ولا يستوعبها الشخص، لأنها خارجة عن المألوف، فمثلًا الصحفي أحمد منصور لما غطىٰ معركة الفلوجة بقي سبعة أيام دون نوم كما قال في سلسلة شاهد علىٰ العصر مع وليد الحاج.

فالشاهد أن بعض الأمور قد لا يصدقها الشخص ولا يستوعبها الشخص إلا إذا تواترت من طريق آخر أو مر بها هو أو يعرف من مر بها شخصيًا ووقف علىٰ حالته، وإلا فذهنه لا يستوعبها استيعابًا صحيحًا فيجنح إلىٰ تكذيب راويها، والبعض لديه نوع من الانفصام في قبول ما يروىٰ، فإن كان الراوي شخص من مجتمعه يكذبه علىٰ طول، ولكن لو كان الخبر راويه مؤلف غربي بارز أو مشهور فإنه يُسلّم له، فمثلًا استدل المؤلف في الصفحة ٧١ بقصة الشخص الذي أُخبر من الأطباء أن لا أمل في شفائه وأنه لم يبق إلا أيام معدودات ويموت، فذهب إلىٰ الريف ولم يأكل إلا الطعام الطبيعي ثم برئ بأعجوبة، ولم يكن هذا الشخص إلا العالم جايلورد هاوزر صاحب كتاب (الغذاء يصنع المعجزات).

لو كان صاحب هذه القصة هو محمد أو سلمان أو شخص مغمور في مجتمع القارئ، ربما لم تصدق هذه القصة أو قلت أنها مبالغة، ولكن انظر كيف قد تختلف نظرة الشخص للقصة إن كان راويها شخص نشأ في مجتمع مادي لا يؤمن بهذه الخرافات.

ولكن كما قلت أن الاتكاء علىٰ القصص هو أمر محفوف بالمخاطر، ولا بأس من النظر في قرائن الحال لتقييم بعض القصص، فمثلًا من القصص التي أوردها المؤلف وهي - مع الاحترام للمؤلف - أجد أنها عصية علىٰ التصديق، الطالب الذي غاب عن آخر مادة في امتحان النقد وقد أعطىٰ أحد المعتمرين الضائعين ٨٣ ريال ثم لصعوبة المادة لم يكتب شيئًا في الامتحان ثم فجأة حصل علىٰ درجة ٨٣/ ١٠٠ أي علىٰ عدد الريالات التي تَصَدَّقَ بها.

لنفترض أن الامتحان النهائي عدد درجاته ٢٠ من مجموع العلامات ١٠٠، وأن الشخص ربما حصل على ٣/ ٢٠، إذن علامات المنتصف والمشاركات الصفية ٨٠ درجة ويعني أنه حصل على ٨٠/ ٨٠ والشخص الذي يأتي بهذه العلامة يعني أنه نابغة في هذه المادة، وأنه حتى لو غاب عن آخر حصة فهذا لا يؤثر فالمؤكد أن حصيلته ونبوغه السابق سوف يجعله يُجيب على بقية الأسئلة التي وردت في الامتحان من دون الأسئلة التي قيلت في الحصة الأخيرة (رغم أن الحصة الأخيرة التي قبل الامتحان غالبًا ما تكون مراجعة وليست شيئًا جديدًا من المنهج).

ومع ذلك لم يفعل ولم يحل شيئًا، إذن هنالك شيء غير مفهوم وغير منطقي البتّة، خصوصًا أن التعامل هنا مع علامات وقواعد معيارية صارمة.

أما بالنسبة لي شخصيًا أحب الإيرادات المرتبطة بآي القرآن، فهذه تكشف قصور القراءة التأملية لدى الشخص أثناء قراءته للقرآن، فانظر كيف يستنبط البعض من الآية أمورًا قد لا تطرأ على ذهنك أثناء مرورك عليها، وإن كان هذا الفن قد برز فيه الشيخ إبراهيم السكران في كتابه عن القرآن، فكتب التفسير والكتب هذه التي تتوقف طويلًا أمام الآية وتوظفها توظيفًا يعالج نفسية الشخص ترتقيان بالشخص وتجعله يكتشف أمورًا جديدة وعلاجات جديدة لم يكن منتبهًا لها.

فالخلاصة: أن هذا الكتاب ينصح به كل أحد وكل فئة وكل شخص، وأنصح به إن لمس في نفسك قصورًا وتريد القرب من الله وتنظيف ذاتك مما علق بها من درن المعاصي.

٢٠ أغسطس ٢٠١٨م - ٩ ذو الحجة ١٤٣٩هـ

الوزير المرافق

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الوزير المرافق.**
- **اسم المؤلف: غازي القصيبي.**
- **عدد الصفحات: ٢٢١.**
- **دار النشر: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.**

التعليق والمناقشة:

من المعلوم أن الدكتور غازي القصيبي أديب وأغلب إنتاجه في مجال الأدب، ولكن كتابه هذا من نوع مختلف نوعًا ما فهو يتكلم هنا عن حياته لما كان وزيرًا لوزارة الصناعة والكهرباء وثم لوزارة الصحة ولكن الكلام لا يتمحور حول هذه الوزارات وإنما عن الدور الذي جعلته هذه الوزارات يلعبه بكونه وزيرًا مرافقًا (وهي مهمة تكليفية تُعطى أحد الوزراء بمرافقة الوفد الرئاسي في الزيارات الرسمية بين الدول)، فهو يتكلم عن نشاطه الدبلوماسي وعن لقائه برؤساء الدول وعن التفاوض في القضايا السياسة بين الدول وعن انطباعاته عن بعض الشخصيات الكبيرة التي التقى بها، ولكن كل هذا بطريقة قصصية بسيطة تجعلك تُنهي الكتاب في جلسة واحدة.

كل فصل من الكتاب يتكلم عن رئيس التقى به، وحصلت بينه وبين هذا الرئيس حوارات معينة، فالكتاب يصلح أن يكون مرجعًا لنسبة بعض الأقوال إلى أصحابها من هذه الشخصيات؛ لأن المؤلف هنا ينقل ما دار بينه وبينهم مباشرةً ولا ينقل عن كتاب أو مرجع مماثل، والرؤساء الذين التقى بهم هم الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ثم جيمي كارتر ورئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي ثم الرئيس التونسي حبيب بو رقيبة ومستشار ألمانيا الغربية هيلموث شميدث ثم هيلموث

كول والرئيس الليبي معمر القذافي وملكة بريطانيا، والرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران ثم رئيس أوغندا عيدي أمين ثم اختتم الكتاب بالكلام عن القمة العربية في فاس بالمغرب.

ويستفاد من الكتاب معرفة الأعراف الدبلوماسية مثل بروتوكول الزيارة ومقابلة المسؤولين وما هي المشاكل التي تحصل فيه. يعني مثلًا يسافر ملك إلىٰ دولة أوروبية فلا بُدَّ أن يستقبله الرئيس أو رئيس الوزراء وإذا قرر أن يكون من يستقبله هو النائب أو نائب رئيس الوزراء قد تحصل مشكلة مما يؤدي إلىٰ إلغاء الزيارة، وكذا ألقاب التخاطب بين المسؤولين، والإنفاق علىٰ الزيارات ونحو ذلك.

وفي الفصل الأول تكلم عن البيت الأبيض، ومدىٰ اختلاف الرئيسين الأمريكيين، نيكسون الذي كان يبالغ في المظاهر وكارتر المتواضع إلىٰ حد الإسفاف، وكيف انتقد جيمي كارتر علىٰ أسلوبه هذا المفرط في التواضع وأن التواضع المبالغ فيه يذهب من هيبة الرئيس، وأن بقاء الهيبة أمرٌ لا بُدَّ منه.

وذكر نتيجة يصل إليها كل من حاول أن يقف علىٰ مسافة واحدة من الأطراف المختلفة محاولًا إرضائهم أن هذا الفعل في النهاية لن يجعل أحدهم يرضى عنه! «**فجيمي كارتر حاول إرضاء الجميع ولكن انتهى به المطاف إلى إغضاب الجميع!**» (صـ٢٠).

وكذا تكلم عن قضية مهمة، وهو عن الجهل المركب الذي ينتاب بعض المسؤولين الأمريكيين الكبار في السياسة الدولية، مثل الحوار الذي دار بينه وبين عضو مجلس الشيوخ عن شاه العراق أو عن خلط نيكسون ما بين الملك السعودي فيصل والملك العراقي فيصل الأول! وإن كان يحاول أن يوجد مبررات هذا الخلط أو هذا الجهل، إلا أنه قال بتهكم: «**إن جهل عدد من أعضاء الشيوخ بالشؤون الدولية كان سرًا يعرفه الجميع**».

وهذا أمر سوف يتكرر في الكتاب، إذ أن في أذهاننا أن الشخص لا يصبح رئيسًا أو مسؤولًا في الدول الكبرىٰ إلا وله إلمام جيّد وثقافة عامة واسعة عن الغير، وهذا الانطباع سوف يتهدم في

الكتاب؛ إذ أن الرئيس قد يكون ذو ثقافة متواضعة والدور الأكبر في تبصيره يكون على يد مستشاريه في المقام الأول.

يحكي القصيبي أنه التقى مع الرئيس التونسي الحبيب بو رقيبة، وحكى له هذا الأخير أن قراره المثير للجدل في منع تعدد الزوجات قد استند عليه من القرآن نفسه إذ يقول: [**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**]، وأنه ساوى بين الجنسين في الحقوق والواجبات وأن هذا هو الإسلام الحقيقي، طبعًا لا يحتاج أن نثبت كمية «التحشيش» في الاستدلال والاستنباط والتصور في هذا الإسقاط؛ إذ شذوذه الظاهر يكفينا.

والحديث عن التحشيش يجرنا للحديث عن القذافي؛ إذ الشيء بالشيء يُذكر، إذ التقى الوفد السعودي مع الرئيس الليبي في زيارة لليبيا، وذهبوا في حافلة نقل، ودار بينهم حوار، كان القذافي ينكر السنة القولية وحجيتها ويستمسك بالسنة الفعلية، ويقول أن التقويم الإسلامي خاطئ إذ يجب أن يبدأ منذ وفاة الرسول ﷺ لا هجرته، ويقول أن الإسلام هو دين العرب فقط، وأن لا تعدد للزوجات في الإسلام، فانبرى له الشيخ ناصر الشثري (والد الشيخ سعد الشثري) الموجود ضمن الوفد وألقمه حجرًا، ولكن لم يتزحزح القذافي عن موقفه قيد أنملة، وبدلًا من ذلك ثار على الشيخ ناصر قائلًا: «**كيف أتناقش معك؟! أنت رجل رجعي دماغك متكلس تبحث عن تبرير لزوجاتك الأربع، وأنا رجل ثوري متحرر أنظر إلى الإسلام نظرة ثورية متحرّرة**».

فالقذافي أظنه يحب المخالفة من أجل المخالفة ويسبح عكس التيار، أظن هذا هو السبب في اختياراته الغريبة.

ومن الطرائف أن زوجة القذافي زارت أسواق الرياض دون حراسة، وبسبب لبسهم القصير كاد أحد مطاوعة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يمحط ظهورهم بالعقال وكادت أن تحصل أزمة بين الدولتين على هذا الأمر، وتكلم القصيبي عنها في الكتاب.

وفصلا تونس وليبيا لم يخلوا من طرافة، ذلك أن غازي القصيبي الأديب يُحسن التهكم الخفي وينثره بين ثنايا الكلام، وهذا يجرنا إلى تهكم مماثل أثناء لقائه مع ملكة بريطانيا، والتي زارها مع الوفد السعودي كونه وزير للصحة آنذاك، فجرى حديث عن أطباء العالم الثالث العاملين في بريطانيا، فقالت: «**إنني أشعر على هؤلاء الأطباء أن يعودوا إلى بلادهم، إن حاجة بلادهم إليهم أشد بكثير من حاجة الغرب**»، فقال القصيبي متهكمًا في نفسه: «**تعاطفت كثيرًا مع رأي الملكة، ولم أضف أنه لو عاد الأطباء الأجانب العاملون في بريطانيا إلى بلدانهم لبقي معظم رعايا الملكة بدون رعاية صحية، لا بُدَّ أن الملكة ملمّة بهذه الحقيقة فلا داعي إذن لذكرها**».

وفي خاتمة الكتاب تكلم عن القمة العربية في فاس بالمغرب، وعن كواليس هذا اللقاء، وما جرى بين رؤساء الدول في قضايا خلافية بينهم، وكيف أن الكثير من الفرص ضاعت أو لم تستثمر بسبب خصومة أو خلاف بين رئيسي دولتين، وأنت تقرأ هذا الفصل تقطع يقينًا أنه لن تفلح أمة كان هؤلاء حكامها، تشعر بمشاغبات صبيانية وطفولية في التعاطي وأن هؤلاء يقينًا ليسوا أهلًا للمسؤولية.

وفي الختام لا ننسَ أن نقول أن غازي القصيبي مثّل وجهة النظر السعودية طوال الكتاب، إذ لم يتناول موقف بلاده تناولًا موضوعيًا وهذا مفهوم، بل اقتصر على الجانب الإيجابي، وكذا أحيانًا في سرده لبعض المواقف قد تشعر أنه يرى أنها صحيحة ويسوق لها وقد تشعر بتماهي معها أثناء كلامه عنها، مثل قضية مبادرة الملك فهد للسلام، والتي تضمنت الاعتراف بإسرائيل والذي هو ثمن لا بُدَّ من دفعه كما يقول القصيبي، فأسلوبه الأدبي قد يجذبك نحوه دون أن تشعر وترى فعلًا أن الخطأ ليس من هذه النظرة ابتداءً والتي تقتضي بالاعتراف بكيان محتل قائم على الأراضي العربية، وإنما الخطأ من الخط الراديكالي الفلسطيني الرافض لهذه التسوية! وهذا مما يجب التنبه له.

٢ سبتمبر ٢٠١٨م – ٢٢ ذو الحجة ١٤٣٩هـ

لماذا تراجع المسلمون وتقدم غيرهم؟

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: لماذا تراجع المسلمون وتقدم غيرهم؟**
- **اسم المؤلف: شكيب أرسلان.**
- **عدد الصفحات: ١٦٧.**
- **دار النشر: دار البشير.**

التعليق والمناقشة:

شكيب أرسلان من المعروف أنه درزي الأصل، ولكنه من الواضح أنه فارق ملة قومه، والدلائل على ذلك كثيرة، منها زيارته إلى الحج التي دونها وطبعت لاحقًا بعنوان: (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف)، وكذا استدلاله الكثير بالأحاديث في هذه الرسالة المُراد الكلام عنها.

وكان شكيب أرسلان يحمل هَمَّ أمة فعلًا، ولكنه لم يكن كالمثقفين المتخمين، الذين يتلقون مصائب الأمة ويترجمونها ببيانات باردة، بل كان يتنقل بين البلدان ويسعى ويقف بنفسه ويجمع التبرعات ويدعم المناضلين ويذهب إلى دول الغرب مرافعًا عن الأمة العربية، فلذلك حق أن يقال أنه صاحب هم فعلًا.

أصل هذا الكتاب هو جواب على رسالة وردته من شخص أظنه من أحد جنوب آسيا مستفسرًا عن قوله تعالى: [**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**] فإن كانت العزة للمؤمنين فلماذا المسلمون الآن يعيشون في انحطاط فلا عزة لهم ولا هم يحزنون، فأين العزة الموعودة على أرض الواقع؟! وكذا هل يمكن أن يتقدم المسلمون كما تقدم غيرهم مع الاستمساك بدينهم؟! فانبرى له شكيب أرسلان

يسوّد جوابًا جاوز المائة صفحة، والجميل في شكيب أرسلان أمرين، الأول: أنه شخص متحرك مع الأحداث ساهم في بعضها، فبعض الإيرادات تصلح أن تكون شهادة تاريخية، والأمر الآخر أنه شخص مثقف ومطلع اطّلاعًا واسعًا، فعندما يورد الشيء يحاول غالبًا أن يثبت مصدره، وهذه قضية مهمة، فالغرب لا ينتطح كبشان أنه معادٍ لنا ولنهضتنا، فأنت يجب عليك أن تكشف حقيقة هذا العداء المبطن من قبل هؤلاء للأمة، وبمراجعه ومصادره الأصلية، وذلك لأننا ابتلينا ببعض الدعاة وبعض الشخصيات، وهي تنسب مصادر وأقوال لهؤلاء الغربيين وهي غير صحيحة حتىٰ يظهروهم علىٰ حقيقتهم للناس، وعندما يكتشف الناس أنها كذب وأنها تلفيق تضعف مصداقيتهم في أعين الناس، وتزيد فتنة العدو المزخرف لعدائه.

فالكتاب كما قيل يساهم في معرفة ما هو رائج آنذاك في الثلاثينات من القرن العشرين، يعني من الأمور التي ذكرها ووقف عليها بنفسه هو الدعم المصري للحجاز، فكانت تلك الحقبة هذه الدول تدعم تلك الدول التي أصبحت غنية جدًا في وقت لاحق.

كذا عصا فرنسا الغليظة كانت تصنيف الناس أنهم معادين لفرنسا إن انتقدها وانتقد احتلالها للدول العربية وسياستها في تنصير البربر (وهذه قضية بالذات أطنب أرسلان في الكلام عنها) فهذا المصطلح أشبه بمصطلح الإرهاب في زماننا هذا، كل شخص يعادي سلوك هذه الدول في احتلال الدول الإسلامية وسياستها يصنف علىٰ أنه إرهابي.

الشاهد: أن شكيب أرسلان يرىٰ أن سبب عدم تقدم المسلمين وتأخرهم هو هزيمتهم النفسية آنذاك أمام كل ما هو غربي، وأنهم اعتقدوا أن المسلم لا يصلح لشيء، وأنه مهما حاول المسلمين فالنهاية الغربي هو من سوف يربح، فتكلم أن لا نهضة حقيقة وهذه النفسية موجودة، فهي الأصل المانع من كل تقدم وتطور في حقل من حقول العلم، وضرب أمثلة لتضحية الغربيين وبذلهم الغالي والنفيس من أجل التقدم والاستمرار حتىٰ بعد الفشل مرات ومرات إلىٰ أن وصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه

وإحجام المسلمين وركونهم وتقاعسهم ثم يتسائل البعض ببلاهة بعد هذا كله: لماذا نحن متأخرين؟! فكأنه يريد أن يتقدم دون تضحية ويخالف بسبب السنن والنواميس الكونية لمجرد أنه مسلم.

وتكلم عن قضية كانت شائعة آنذاك وبالأخص في معقل الخلافة تركيا، وهي أن الإسلام هو سبب تخلفنا، فلو تحررنا منه نتقدم كما تقدم الأوربيون، فربطوا التقدم والتأخر بالدين، فهنا شكيب أرسلان ضرب أمثلة واقعية جدًا تثبت خطأ هذا الاستنتاج، ورغم أنها واقعية ومعاشة وحصلت وتحصل في زمن كتابة المؤلف كتابه هذا إلا أن كما قال الشافعي: «**وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلة**» فالأوروبيون وكذا اليابانيون لم يتخلوا عن الدين بالكلية وهذه الجزئية فيما أظن سوف تصحح الإطلاق الخاطئ عندما يقال أن أوروبا تحللت من النصرانية، وكأنه تحللت بالكلية، وإنما استمرت تدعم هذا الدين وتحاول نشره في مستعمراتها حتى بعد عصور النهضة، ثم تكلم شكيب أرسلان عن صنفين هم من عوامل التأخر، الجاحد والجامد، الأول هو الذي يريد يحذف كل ما سبق من حضارتنا الإسلامية؛ والجامد هو الذي لا يريد التغير والحفاظ على القديم مهما كان الجديد نافعًا لعموم الأمة، وهو الذي يحصر العلم على العلوم الدينية ويرفض وربما يحرم بقية العلوم مثل الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الطبيعية الأخرى.

وأنا أظن أن مشكلة المسلمين الآن ليست مشكلة المسلمين في بداية القرن العشرين، هذه العقدة تجاوزها المسلمون وهي أنهم لا يصلحون لشيء، ولكن القضية في نظري قضية إمكانات وقضية أن الآخر لن يسمح لك أن تنافسه وكلما حاولت أن تقف على قدميك كسرها لك، فبعض الدول تم غزوها لأن لديها أسلحة متطورة، وبعض الدول حوصرت لأنها صنعت قنبلة نووية وبعض الدول تم فرض العقوبات عليها لأنها تسعى لمشروع نووي، ناهيك عن التدخل غير المباشر في دعم خصومك في الداخل وعمل الانقلابات ونحو ذلك، فالغرب يريد رؤساء لا يفكرون بأي نهضة

تنافس فيها الدول العربية أوروبا، ويريدون حكام جل ميزانية الدولة على نزواتهم ومصاريفهم الخاصة لا على البحث العلمي والتطوير ودعم الباحثين، فالأزمة في نظري تطورت شيئًا ما.

فالكتاب يصلح للمنسحقين نفسيًا، أو الذين يريدون نصرًا بلا خدش.

فالكتاب استمتعت بقراءته وأنصح به.

١٥ سبتمبر ٢٠١٨م – ٥ محرم ١٤٤٠هـ

تاريخ القوقاز

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: تاريخ القوقاز.. نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي.**
- **اسم المؤلف: محمود عبد الرحمن.**
- **عدد الصفحات: ٢٦٤.**
- **دار النشر: دار النفائس للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

ابتداءً الاطلاع على إرث الشعوب مقصد شرعي لحصول التعارف لقوله تعالى: [**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**] أي ليحصل التعارف بينهم كما قال ابن كثير في التفسير. وأحيانًا تكون معرفة الشعوب وعلاقتها مع بعض ومدى عدائها وترابطها سبب من أسباب النجاة، فقد شاهدت ذات مرة وثائقيًا من قناة ناشيونال جيوغرافيك ضمن سلسلة وثائقية (مسجون في الغربة) بعنوان: (The Real Midnight Express)، فقد سجن طالب أمريكي في تركيا ولما هرب من السجن كانت وجهته اليونان لما يعرف عن عداء مستحكم بين الدولتين وأن من الاستحالة أن يعاد تسليمه؛ وفعلًا ذهب إلى اليونان ثم رجع بلاده أمريكا، فالذي أنقذه هو المعرفة المسبقة للعداء ما بين اليونانيين والأتراك. فالتعارف على الشعوب فيه مصالح الدنيا والدين إن شاء الله.

وهناك ضعف في الكتابة عن بلاد القوقاز عمومًا في اللغة العربية، وقد ورد الكلام عنهم في كتب الجغرافيا مثل (معاجم البلدان) لابن ياقوت الحموي وكتب التاريخ في كلامهم عن الفتح الإسلامي لمدينة دربند أو باب الأبواب في زمن الخلفاء الراشدين، وكذا ابن فضلان سفير الخلافة العباسية في رحلته إلى القوقاز وروسيا في رحلته الشهيرة، وهناك حاول أن يسد الفجوة أمثال

الشراكسة العرب، الذين أصولهم من الشركس وقد هجروا أثناء الحكم الستاليني وسكنوا البلاد العربية وتكلموا العربية، فهؤلاء لهم إسهامات مهمة جدًا في الكلام عن الشعب القوقازي وأصله ولغته وعاداته وتقاليده أمثال خوسنونة عبد الحميد غالب بك وشوكت المفتي والمهندس سعيد بينو وغيرهم من بني جنسهم. وهناك من العرب من استغل إلمامه ببعض اللغات وترجم بعض الكتب المتحدثة عن قضايا القوقاز الحديثة مثل كتاب (ملاك غروزني) و(جبال الله). وهناك من العرب من عاش القضية القوقازية المعاصرة بنفسه، ولكن لم يكن كلامهم عن الشعب وأصله وخصائصه ولغاته بل عن قضيته الحيّة التي كانوا يعيشونها، فكانوا بشكل أو بآخر رافدًا مهمًا من روافد الأرشفة للتاريخ القوقازي الحديث.

أو من خلال الأدباء الروس الذين ساهموا في الغزو الروسي لبلاد القوقاز وإخضاعها للإمبراطورية الروسية، فقد كتبوا روايات وترجمت هذه الروايات إلى العربية، ولعل أبرزها (الحاج مراد) لتلستوي وهذه ليست قصة خيالية فمن قرأ هوامش الرواية لرأى أن تلستوي حاول التثبت وتتبع الكثير من الوقائع من خلال الالتقاء بمن عاشها أو ما كتبوه من خلال مذكراتهم، وقد كتبت تعليقًا مطولًا عليها.

هذا الكتاب توقف أو انتهى ونشر بعد توقيع اتفاقية معاهدة السلام ومبادئ العلاقة بين الاتحاد الروسي وجمهورية إيتشكيريا الشيشان الاسلامي المبرمة بتاريخ: ١٢ مايو/ أيار ١٩٩٧؛ أي أن المؤلف عاش أجواء الاستقلال عن روسيا وكتب كتابه بناء على هذا الجو، أي قبل الحرب الشيشانية الثانية وإخضاع الشيشان لروسيا مجددًا.

لو أردنا أن نختصر مضامين الكتاب: سوف نقول أنه تكلم عن أصل تسمية القوقاز وموقع وأهميته والتضاريس والمناخ، ثم أصل شكان القوقاز وبالأخص الشركس فقط ركز عليهم، ثم تاريخ هذا الشعب إلى أن دخل الإسلام إلى أن أخضع للاستعمار الروسي إلى حرب الاستقلال الشيشانية

وتبعاتها. وقِصَرُ الكتاب يصلح أن يكون مدخلًا للتوسع لاحقًا في القضية القوقازية؛ فهو أعطاك الخلاصة في كل باب تقريبًا.

ومن الأمور المضحكة التي صادفتني أثناء قراءتي للكتاب هو قولهم أن أكبر الجبال في القوقاز هي قوش تان تاو وشخارا اللذان يبلغان ٥٢٠٠ متر وجبل قازبك ويبلغ ٥٠٤٤ متر وجبل آرارات في القوقاز الجنوبي والذي يبلغ ٥١٦٠ متر، وفي بلادنا نحن فرحانين على جبل الدخان الذي هو أكبر جبل لدينا ويبلغ ١٣٤ متر، أظن لو أرسلناه لهم لجعلوه مطبًا للسيارات.

كما تكلم المؤلف عن أصل الشعب القوقازي وأن الجنس القوقازي هو الأصل للكثير من الشعوب الغربية، ولعل أبرزها العرق الآري فهو من مشتقات الجنس القوقازي، وأن لا يوجد هناك ثمة ارتباط لا ديني أو سُلالي أو مذهبي أو لغوي أو ثقافي تربط شعوب القوقاز والروس، وهذا الكلام صحيح، ولكن التمايز داخل الأجناس والعروق لا يعني الالتقاء والانصهار ببوتقة واحدة (مثل حال القبيلة العربية التي قد تتفرع إلى عدة أفخذ وبطون ولكنها ترجع في النهاية إلى شخص واحد وهو الذي يجمع هؤلاء تحت مسمى واحد)، فالروس الصقالبة هم من العرق السلافي وترتبط معهم العديد من الشعوب في ذلك مثل بعض دول البلطيق والبلقان، ومع ذلك ترى أن لكل هؤلاء وحدة مستقلة عن الروس يفضلوا عدم الانصهار معهم في بوتقة واحدة رغم وجود القاسم المشترك في العرق فكيف إذن يُطالب غيرهم أن ينصهروا معهم دون وجود أي قواسم مشتركة؟

تكلم كذلك عن الفتوحات الإسلامية لمنطقة القوقاز، ورغم الفتوحات العربية المبكرة في زمن الخلافة الراشدة والخلافتين إلا أن سكان القوقاز كان خضوعهم (اسميًا إذ عندما ضعف الحكم الإسلامي ارتد هؤلاء الحكام إلى دياناتهم السابقة). إذن إسلام سكان القوقاز بصورة واسعة لم يكن في زمن الفتوحات العربية وإنما كان بشكل في زمن الحكم المغولي للقوقاز وبالأخص على يد بركة خان الذي حكم موسكو نفسها، وأما العصر الذهبي للإسلام في القوقاز كان في عهد تيمور لنك في

القرن الرابع عشر ميلادية. وترسخت أقدام الإسلام في القوقاز ما بين ١٣٨٥-١٣٩٥، فأصبح الإسلام هو الدين الوحيد لسكان وسط داغستان وهم شعب اللاك الذين اتخذوا من مدينة غازي قمق مقرًا ومركزًا للدعوة الإسلامية ونشروا الإسلام في مناطق أخرىٰ مثل الشيشان.

وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت هنالك قوتان إسلاميتان في القوقاز الشمالي بسبب هذه الجهود وكانتا السبب في تحول الأبخاز من المسيحية إلىٰ الإسلام وكذلك شراكسة الغرب والشرق والأباظة، وأما في القوقاز الجنوبي فإن الدولة الصفوية رسخت أقدامها فيها فأصبح الكثير من سكانها شيعة (وأنت ترىٰ مثلًا أن المذهب السائد في أذربيجان حتىٰ الآن هو المذهب الشيعي). وخلال القرن السابع عشر والثامن عشر ميلادي كثف خانات القرم والعثمانيون جهودهم لنشر الدين الإسلامي في الأجزاء الشمالية الغربية والوسطىٰ في شمال القوقاز.

فالخلاصة من هذا كله؛ أن الدعوة المدعومة من الدولة لها تأثير كبير جدًا في نشر دين ما أو عقيدة ما. فالذين تحولوا إلىٰ الإسلام أو إلىٰ المذهب الشيعي كلاهما كانا نتاج جهود دولة في دعم الدعوة.

وكذا تكلم المؤلف عن احتلال الإمبراطورية الروسية القيصرية لإقليم القوقاز، وحركات التحرر التي ظهرت والتي قادها المريدين (والمريد بمعنىٰ المجتهد) لديهم، فبدأت حركة الإمام منصور الشيشاني الذي وحد الشعب في مواجهة الغزاة الروس عام ١٧٨٥، ودَوَّخ الروس وأثار انتباه إمبراطوريتهم كاترين الثانية وقد كان هذا الإمام ضحية تخاذل الخلافة العثمانية فدخلوا في حلف ثم اتفقوا مع الروس علىٰ التسليم ثم تفرجوا عليه وهو يهزم هو وجنوده إلىٰ أن أُسر، وتخاذل أو تقاعس العثمانيين أمر أشار إليه المؤرخ السوري محمود شاكر في كتابه (المسلمون في الإمبراطورية الروسية) في معرض حديثه عن احتلال القوقاز.

وكذا تكلم بإيجاز عن بقية القادة مثل الإمام الغازي مولاي محمد الذي قضىٰ في حصار ونجا منه القائد الذي بزغ بعده وهو أشهرهم الإمام شامل، والمؤلف اعتمد اعتمادًا شبه كامل في الكلام عن

الإمام شامل على مقتطفات من كتاب (داغستان بلادي) لرسول حمزاتوف، وهذا يدل لك على قصور في ترجمة المواد التي تؤرخ لسيرة هذا البطل إلى العربية، ولقد كان ولا يزال الإمام شامل بطلًا قوميًا لدى القوقازيين حتى يومنا هذا، وصورته موضوعة في الكثير في الحسابات القوقازية.

وفي هذه الأثناء تكلم أيضًا عن دور الأدباء الروس المشهورين وتعاطيهم مع الغزو الروسي لإقليم القوقاز، وذلك أن بعضهم قد شارك في هذه الحرب، مثل ليو تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وغيرهم.

ومن خلال اطلاعي على الأدب الروسي، أقول أن بعض أطروحات هؤلاء كانت فعلًا وسط تواجدهم في البلدان التي غزتها بلادهم روسيا، مثل تلستوي له رواية (الحاج مراد) وهي رواية لم تطبع في حياته؛ وإنما طبعت بعد مماته، ربما لأنها لم تكن مناسبة أو قد تحمل مشكلة مع الرقابة، وكذا له رواية أخرى طبعت بعناوين متعددة (القوقاز أو نهاية الحب) وهي عن سلوك الجيش الروسي الهمجي بعد احتلاله مناطق القوقاز، وبعيدًا عن القوقاز فله أيضًا كتاب عن سيباستوبول والقوزاق، وأما من يسمى بأمير الشعراء في روسيا وهو بوشكين فله رواية (ابن الضابط) وهي قضية حصلت أيضًا في القوزاق.

ولكن المؤلف هنا ذكر أن بوشكين كان مؤيدًا لأفعال الجنرال يومولوف الوحشية والهمجية في والذي كان حاكمًا على القوقاز آنذاك، وألف فيه قصيدة وحث القوقازي على الاستسلام. وتولستوي أتى بمواقف متضاربة، فهو اعتبر أن حرب روسيا في القوقاز دفاعية عادلة! إلا أنه انتقد الضباط الاستقراطيين والهمجية الروسية، ولكنه استقال من الجيش في آخر الأمر، وقد قرأت روايته (الحاج مراد) وكتبت تعليقًا مطولًا عليها، وهي من الروايات التي يستفاد من قراءتها. ولقد كان أحسنهم حالًا هو الشاعر ليرمنتوف الذي كتب قصيدة في مدح الشعب القوقازي.

فالخلاصة والشاهد: أن بعض الأدباء يجب التعامل مع نتاجهم بشكل منفصل عن أفعالهم أو معتقداتهم، فقد أقول أن هذه القصيدة جميلة أو رائعة ولكن لا يعني هذا أن صاحبها رائع؛ والعلماء يفرقون في هذا، فالجاحظ شخص مبتدع معتزلي بل من رؤوس المعتزلة كما يقول الشيخ ناصر الفهد، ولكن الشيخ سليمان العلوان قرأ كل كتبه، والشيخ أبو قَتادة يقول يجب فصل النص عن صاحبه في مجال الأدب.

ثم طفق المؤلف يتكلم عن الاتحاد السوفيتي وهو الوريث لروسيا القيصرية وتعاطيه مع القضية القوقازية، وكيف أنه وعدهم بالاستقلال إن ساعدوهم في ثورتهم البلشفية، وما أن تمكنوا نكثوا! والأمر ليس واقف على القوقاز بل كما قاله عمر بن محمود: «**هل عند أحد خبر عن تحالف تم بين مسلمين وغيرهم منذ تحالف لينين مع المسلمين القوقاز إلى يومنا ولم يُتخذ فيه المسلمون مطية؟**».

ولقد كان للآباء والأجداد دور لحفظ الإسلام من الاندثار في تلك البقعة التي حكمها الشيوعيون بالحديد والنار، وألزموا أهلها بتعاليم أيديولوجيتهم وحاربوا الدين لأنه أفيون الشعوب كما يقولون! وقد شاهدت وثائقيًا بثته قناة الجزيرة بعنوان (سراديب تحفيظ القران) يُذكر فيه أن كبار السن في القوقاز كانوا يحفظون الأطفال القرآن في سراديب تحت الأرض خوفًا من انكشاف أمرهم من قبل السلطات الشيوعية، ولكن السؤال: هل الإقبال على القرآن الآن – وهو متاح لكل أحد في القوقاز – أكثر من إقبالهم عليه لما كان اقتناءه أو قراءته أو تدريسه جريمة كما هو في السابق؟ هذا سؤال مهم لرؤية الالتزام الديني وقياسه لدى الشعوب.

كما لا ننسى أن أكبر مآسي الشعب الشيشاني في فترة الحكم الشيوعي هو نفيهم من بلادهم إلى كازاخستان، وقد أوردت آسني سيرستاد أقصوصة تاريخية من جانب هذه المأساة في كتابها (ملاك غروزني).

ثم تكلم المؤلف عن قضية سقوط الاتحاد السوفيتي واستقلال الجمهوريات التي من بينها الشيشان فقد قبل استقلال الجميع خلا الشيشان (وربما لأن تلك البلاد غنية بالموارد النفطية التي يتكئ عليها الاتحاد الروسي الذي كان يمر بضائقة مالية جراء سقوط الاتحاد السوفيتي)، وأما تترستان فقد اتفقوا على وضعية قانونية تضمن بقائهم ضمن الاتحاد الروسي مع وجود هامش كبير، وأما الشيشان فلم يرضوا إلا بالاستقلال الكامل. والمؤلف تكلم عن أحداث الحرب الشيشانية وما قبلها استنادًا إلى المراجع العربية فقط، وكل خبر أو مقال أصله في الصحف الأجنبية إلا وتراه يستدل بالترجمة الحرفية له في أحد الصحف العربية، فالباحث والمحلل السياسي يُفَضَّل بل ربما يجب عليه أن يُعدد في اللغات؛ فَرُبَّ معلومة توجد في هذه اللغة ولا توجد في غيرها. والاتكاء على الترجمات يعني أن تكون أسيرًا للمترجم، وأن مدى اطلاعك هو ما يسمح لك المترجم بالاطلاع عليه، في القضايا العربية مثلًا التي أصل الكلام فيها والأخبار فيها والتصريحات فيها بالعربية، إلا أنك تحتاج كذلك إلى اللغة الإنجليزية لرؤية وقراءة تصريحات الساسة الغرب أو المحللين الغربيين الذي قد يكون ما في تصريحاتهم انعكاس لسياسة دولهم تجاه هذه القضية! فالاعتماد على لغة واحدة هو ما يجعلك تنظر إلى القضية بمنظور قاصر بل وربما بعين واحدة.

وتكلم عن بعض قادة الاستقلال ولعل أبرزهم ومشعل شرارة الاستقلال في الشيشان هو الجنرال جوهر دوداييف، وتكلم أن هذا الرجل عندما أعلن الاستقلال وأعلن عن دستور البلاد نص على أن الأديان منفصلة عن أعمال الدولة، فهي علمانية صريحة، وهذا الوضع لم يتغير بالشكل المناسب إلا في زمن خلفه «سليم خان يندرباييف» الذي أصدر مرسومًا بتحويل المحاكم إلى محاكم شرعية تطبق الشريعة وأحكامها من أجل أسلمة البلد، ومن نافلة القول أن يندرباييف له كتاب بالعربية بعنوان (الشيشان: السياسة والواقع).

وفي عهد خلفه مسخادوف أعلن عن قيام الدولة الاسلامية وأعلن عن دستور شيشاني جديد ينص على أن الإسلام هو دين الدولة. وأعلن عن إغلاق المحاكم العلمانية، وأصدر عدة قرارات كلها تصب في أسلمة الشيشان.

ويذكر أيضًا الدمى التي استخدمها الروس قبل الهجوم على الشيشان وهم المعارضة الوهمية! فالروس ودول الغرب يحاولون قدر المستطاع تقليل خسائرهم، بقذف الخونة من أبناء المسلمين في مواجهة أبناء جلدتهم، أو كما يقول شكيب أرسلان: «**فإنه ما غزى بلاد المسلمين من قبل الأجانب إلا كان نصفه على أيدي أناس يزعمون أنهم** (مسلمين) **منهم من تجسس ومنهم من بث لهم الدعاية ومنهم من سل لهم السيف في وجه قومه وأسال في خدمتهم دم قومه**».

فالخلاصة أن الجدال البيزنطي السابق حول العدو القريب والعدو البعيد؛ أصبح نوعًا ما لا قيمة له لتداخل العدوين في آن واحد، ولكن الشاهد أن ما أن تقطع دابر العدو القريب إلا وترى أن العدو البعيد قد دخل عليك، وهذا ما حصل بعد القضاء على الخونة عملاء الروس فتدخلت روسيا بعدها بكامل قواها، فما أن تقطع الذيول إلا ويهجم الرأس. وقد يُقال أن قطع الرأس يكيفك عن مناكفة الذيول. ولكن أنى هذا؟!

وكذلك تكلم عن الجرائم الروسية في الحرب الشيشانية من بينها قصف المستشفيات بمن فيها من الجرحى، ولم يشفع لهم وضع علامات الصليب الأحمر فوقها! لذلك من يقول أن ما تفعله روسيا الآن في سورية هو مشابهة لما فعلته في الشيشان سابقًا لم يكذب.

ومن خلال استقرائي لأحداث حرب التسعينيات المتسلسلة في الكتاب والنظر إلى الموقف الرسمي الضعيف والمهلهل المبني على مستجدات الميدان، تذكرت قوله تعالى: [**إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ**]، فلسنا نحن الذين كنا نألم ولسنا نحن الذين جرحنا وقتل منا ودمرت أراضينا، ولقد

أعطتنا هذه الحرب درسًا مفاده أن هزيمة الروس ليست مستحيلة، وأن الظلام لا بُدَّ أن يعقبه فجرٌ **(وإنما النصر صبر ساعة)**.

٢٠ سبتمبر ٢٠١٨م - ١٠ محرم ١٤٤٠هـ

مذكرات عبد أمريكي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مذكرات عبد أمريكي.**
- **اسم المؤلف: فريدريك دوجلاس.**
- **اسم المترجم: إبراهيم عبد المجيد.**
- **عدد الصفحات: ١٢٠.**
- **دار النشر: بيت الياسمين للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

هذه المادة فيها أظن من أبرز وأقدم النصوص التي وصلتنا عن العبودية ومن داخلها، فقد كتبها وانتهى منها في أبريل/ نيسان من عام ١٨٤٥ أي بعد سبع سنوات تقريبًا من هروبه من العبودية في سبتمبر/ أيلول من عام ١٨٣٨؛ أي حتى قبل نشوب الحرب الأهلية الأمريكية والقضاء على الولايات الكونفدرالية في الجنوب وإلغاء العبودية.

وفائدة هذه السرعة في كتابتها أن الذاكرة ما زالت طرية وتتذكر، ولكن لو كتبها في آخر عمره، لا شك سينسى الكثير من التفاصيل.

ولكن الجانب السيء في سرعة الكتابة أنه كتبها قبل سقوط نظام العبودية؛ أي أن أي معلومة قد يقولها قد تضر العبيد أو من تعاونوا معه في الجنوب، فمثلًا بعض التفاصيل المهمة والمحورية في هذه المذكرات لم يذكرها حتى لا يلفت انتباه سادة العبيد إليها ويستغلوها لصالحهم (مثل طريقة الهروب وأسماء الأطفال البيض الذين ساعدوه في تعلم القراءة)، كنت أتمنى أن يعيد تنقيح هذه المذكرات بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية.

وبالنسبة لي ما يميز هذه المذكرات عن غيرها، هو أن كاتبها نشأ في ظل العبودية وترعرع فيها، بخلاف مثلًا سليمان نورثوب الذي كان حرًا ثم اختطف من واشنطن وبيع إلى تجار العبيد في الجنوب مستغلين لون بشرته، وقد دوّن مذكراته بعنوان (١٢ سنة من العبودية)، وقد حول إلى فلم وحصد جائزة الأوسكار لأفضل فلم عام ٢٠١٢. ويختلف كذلك عن سلسلة (الجذور) التي أصلها رواية للكاتب الأمريكي الأسود أليكس هيلي، فكان اعتماد أليكس هيلي على الوثائق والشهادات واللقاءات ولكنه لم يعش حياة العبودية بنفسه وإن عاش حياة التمييز العنصري وصراع السود في ظل حركة الحقوق المدنية آنذاك.

حكى في هذه المذكرات أن العبيد لا يعرفون أعمارهم ويقيسون أعمارهم بناءً على عمر الحقل، وذكر أنه عُزل عن أمه بعد ولادته بفترة وجيزة وكانت العادة آنذاك بنقل المولودين الجدد إلى عجوز في أطراف المزرعة لم تعد قادرة على أعمال الحقل، وأحيانًا تباع أم الطفل وتنقل إلى مزرعة بعيدة، (لماذا يتم هذا الفصل بين الطفل وأمه؟ لا أعرف سوى أنه يهدف إلى قمع نمو عواطف الطفل تجاه أمه، ومسح وتدمير العاطفة الطبيعية لأم نحو الطفل كنتيجة حتمية لذلك لم أرَ أمي قط ولم أعرفها أكثر من أربع أو خمس مرات في حياتي!) هكذا قال.

وتكلم كذلك عن اضطراب التأصيل التي كانت تسوغ به الكنيسة استعباد السود لأنهم من سلالة حام (وهو أحد أبناء نوح ومن نسله خرج السود) وحام هذا قد ذُكر في التوراة أنه رأى عورة أبيه نوح وقد لُعنت سلالته بأن يكونوا عبيدًا لأحفاد إخوانه من بقية الأمم، ولكن أين الإشكال الذي حصل؟ هو أن السيد الأبيض أصبح يجامع النساء السود اللاتي هن عبيد عنده، وينجب منهن أبناء هجين، وبعدما يكبر هذا الابن الذي تكون بشرته أقل سوادًا من بقية السود يصبح عبدًا لأبيه؛ فإن كان هذا الابن من سلالة الرجل الأبيض وليس من سلالة حام فكيف تفسر الكنيسة سبب عبوديته؟ وهذا الابن الهجين يكون أكثر الناس شقاءً؛ لأن زوجة الرجل الأبيض تشك في زوجها

كلما رأت هؤلاء، وتسخط عليهم على الدوام، وكثيرًا ما ترغم زوجها على بيعهم، ويكون بيعهم أهون الخيارين، فإما أن يجلد أبناءه بنفسه أو يرى أبناءه البيض يجلدون إخوانهم الأشد سمرةً منهم أو يبيعهم فيكون الخيار الثاني أهون لديه، فرؤيته يعذب أمام عينه أصعب من أن يعذب دون أن يعلم أو يعرف في مكان بعيد، وهذا الاضطراب يحصل بسبب أن بعض هؤلاء السادة قد تنشأ لديه شخصية مزدوجة، ما بين السيد والأب.

وتكلم مقدم هذا الكتاب وهو (ويليام اللويد جارسيون) عن نقطة سوف يُتطرق إليها لاحقًا أي في الأعوام اللاحقة وقد تصبح أشبه بالنظرية، وهي أن سمو العرق الأبيض والدليل العملي على ذلك كون البقية في الحضيض ولم يصلوا إلى رقي الرجل الأبيض، وأما كون البقية في الحضيض فهذا لأنك أنت تمنع خروجهم منه ولو بالقوة، وكلما حاولوا النهوض كسرت أقدامهم ليبقوا في الحضيض، ومنعت عليهم كل شيء يَرتقون به عن هذا الحضيض مثل التعلم والقراءة، فهم باقين في الحضيض ليس لأن هذا هو قدرهم الحتمي؛ بل لأنك أنت تستخدم كافة السبل والطرق والوسائل حتى لا يخرجوا منه.

وقد أشار مقدم الكتاب إلى قصة وهي أن رجلًا أبيضًا نسوه أصحابه على شواطئ أفريقيا وغادروا عنه، وانقلبت الآية وعاش عبدًا لدى السود ثلاث سنوات، رجعوا إليه وهو في حالة أشبه بالبهيمية، فقد انحط من كونه رجلًا متحضرًا إلى رجل بهيمي، فالعبودية إذن تمنع غالبًا من ارتقاء الشخص وتحضره، فهل يقال أن انحطاط هذا الرجل الأبيض - بسبب العبودية - دلالة على انحطاط عرق بأكمله؟!

وكاتب المذكرات - دوجلاس - كان عصاميًا بحق، وربما تستطيع أن تقول أن أول من فك أغلال الأصفاد من يديه هو القلم والكتاب، ومن الممنوع على السود تعلم القراءة والكتابة، لأن السادة

يرون أن في ذلك إفساد للسود وجعلهم ينظرون إلىٰ ما هو أبعد، فإبقائهم بهذه الحالة ضمان للسادة أن لا يرىٰ السود أبعد من الحقل.

ويذكر أن قصة تعلمه القراءة بل ورغبته الشديدة في الحرية بدأت بعدما انتقل إلىٰ بيت السيد الجديد، الذي كانت زوجته امرأة طيبة جدًا (أو في تلك الفترة علىٰ الأقل) وعاشت حياة كادحة فلم تكن من أسرة بيروقراطية، فلم تعنها المظاهر والبروتوكولات، فقامت بتعليم هذا العبد الأبجدية ثم هجاء الكلمات ذات الثلاثة أو أربعة أحرف.

فتنبّه زوجها وهو السيد لذلك، فزجرها ونهاها عن هذا لأن هذا سوف يؤدي إلىٰ تفكيره بالحرية والتحرر، فيقول دوجلاس أن هذا جعلني أعلم يقينًا سر قوة الرجل الأبيض في استعباد الرجل الأسود، وهو حرمانه من العلم، فأصبحت لديه رغبة مثل رغبة سيده ولكن في الاتجاه الآخر بتعلم القراءة والكتابة، وحاول بشكل مُنفرد وسري حينًا وبشكل جماعي علىٰ يد الأطفال البيض الذين ربما لا يعون خطورة هذه الخطوة فيقول كنت أشتري الخبز لسيدي وأزيد عليهم خبزًا زائدًا وأُعطيه الأطفال البيض الفقراء مقابل خبز من المعرفة! وبهذه الرغبة استطاع أن يتعلم إلىٰ أن أصبح يقرأ كتب الأدب لوحده مثل (مذكرات الرجل الكولمبي).

فأحيانًا عندما ترىٰ عدوك حريص أشد الحرص علىٰ عدم تعلمك أو حيازتك شيئًا ما، هو لا يعلم أنه يحثك أو يدفعك بشكل أو بآخر لتعلمه أو حيازته.

عودة للنقاط السابقة: هو يَحكي بإيجاز أن نظام العبودية يُفسد طبيعة الشخص الطيبة، فالشخص إن مارس هذه الصفة علىٰ العبيد السود، قد يظن أن هذا سوف يفسدهم ويجعلهم يفكرون في الهرب، وإن هربوا قل حصاده وخسر وزالت عنه حياة الترف، فمن أجل الحفاظ علىٰ هذه الحياة ومن أجل الحفاظ علىٰ هذه الأموال الوفيرة ومن أجل نفسه في المقام الأول، يجب أن يتنكر لمثل هذه الصفات ويجب أن يخالف طبيعته. وضرب مثلًا بزوجة توماس هاملتون.

وهناك قضية ركّز عليها بل أفرد لها ملحقًا في الكتاب وهي قضية نقمه الشديد على الرجال المتدينين، فهو يقول وصلت إلى قناعة أنه كلما كان الشخص أكثر تدينًا كان أكثر إجرامًا ووحشية في التعامل، أو كما يقول: «**كنت أعتبر أن أعظم رزية تلحق بي هي أن أكون عبدًا لسيد متدين؛ لأنه من بين كل ملاك العبيد الذين قابلتهم، كان ملاك العبيد المتدينون أسوأهم، ووجدتهم دائمًا الأخبث والأحقر والأجبن والأخس من كل الآخرين**». وفي الكتاب ذكر شيئًا من إجرامهم، وربما هذا الإجرام نابع من نظرة دينية كما أسلفنا حول أحفاد حام، وأن ظلمهم وعبوديتهم مبررة كونهم ملعونين باسم الرب.

وفي ملحق الكتاب تكلم عن شيء من نفاقهم، وفي الملحق حاول أن يفصل المسيحية الحق عن المسيحية الأمريكية، وذكر قصيدة تبين الازدواجية لديهم، والقصيدة قد تكون بليغة بلغتها الأصلية ولكن ترجمتها إلى لغة أخرى دائمًا ما تُفقد من بلاغتها ولكن الحجج المنطقية بقت فيها.

الخلاصة أن الظلم باسم الكنيسة الأمريكية جعله يكفر بها، وأظن أنه حتى جلس يشكك في الرب إن كان موجودًا فلماذا هذا الظلم موجود ولماذا لا ينقذ كل هؤلاء؟! (وهذه قضية قد ركزت عليها الملاحدة، فلماذا الرب يقبل أن تحل النكبات والأزمات والمصائب على الناس؟! وارجع إلى كتاب: (مشكلة الشر ووجود الله) للدكتور سامي عامري لتفكيك هذا التصور بشكل شرعي. بعدما هرب دوجلاس من العبودية واستقر في الشمال انضم لاحقًا إلى جمعية ماساشوسيتش لمناهضة العبودية، وهذا يذكرني بما قاله الكوري الشمالي المنشق جانغ جين - سونغ في خاتمة كتابه (القائد العزيز) لما قال: «**لهذا السبب، يكمن سلامي في شنّ حرب ضد الطغيان حتى يتحرر شعبنا. بدون ذلك، لا يكون حصولي على امتياز الحرّيّة سوى ضرب من ضروب الأنانيّة**».

وأحيانًا يكون من الجيد أن يكون من المنافحين أو المتصدرين للدفاع عن المظلومين من قد تجرع الظلم سابقًا، فهذا قد يجعله أكثر حماسًا وإيمانًا بالقضية؛ لأنه يرى نفسه في كل هؤلاء المظلومين.

وكذا يجب الإشارة إلى أن استخدامه مصطلحات مثل (أختي - خالتي) أو نحو ذلك في المذكرات فهي مصطلحات مجازية ليست حقيقية، مثل قول البعض في مناداة الآخر: أخي أو أخوي، أو الأخوة أو الأخوات، فهذه العبارات لا يعني بها ولا يُقصد الأخوة الحقيقية التي تكون برابطة الدم وإنما الأخوة تحت شعار عام مثل الإسلام أو حتى من باب الاحترام مثل ما تقول للشخص الكبير: «يا عم» أقول هذا حتى لا يختلط الحابل بالنابل، وأنت تراه أنه كلما ذهب إلى مزرعة جديدة ويقول أختي أو خالتي، فتقول في نفسك: «كم أخت وكم خالة لديه هذا، وهل هم مبعثرين في كل البلاد؟!» ملحق لا بُدَّ منه.

بقيت الإشارة إلى كلمة قالها مترجم الكتاب إلى العربية في بداية الكتاب: «**شيئان في تاريخ أمريكا لا مثيل لهما في تاريخ أمة من الأمم، الأول: هو إبادة الهنود الحمر، والثاني: هو استعباد الزنوج**».

وهذا الكلام غير صحيح على الأقل في الشق الثاني؛ لأن استعباد الزنوج كان موجودًا لدى العرب قبل الإسلام وقبل أن تُكتشف أمريكا نفسها.

وكانت لديهم بعض الأمور التي تشابه تصرفات الرجل الأبيض، مثل الإنجاب من الأمة التي لديه؛ فيخرج الابن الهجين وكانت العرب تُطلق على الهجين من أب عربي وامرأة سوداء مملوكة أو من ذرية العبيد أحيانًا اسم الأغربة وهي جمع غراب، فأبرز أغربة العرب في الجاهلية: عنترة بن شداد وهو ابن عنترة من قبيلة عبس وابن زبيبة المملوكة ذات الأصول الأفريقية، وكذا خفاف بن ندبة وأبو عمير بن الحباب كما روت كتب تاريخ الأدب القديم مثل الكامل للمبرد وبلوغ الأرب للألوسي وكما أن هذا المصطلح وارد في كتب التراجم وأحيانًا كتب الفقه كالاستذكار لابن عبد البر. فالشاهد: أن أبناء هؤلاء الأَمات يكونوا عبيدًا لآبائهم، وقد لا يلحقوا بأنساب آبائهم إلا إذا فعلوا ما يجعل الأب يشعر بالفخر من هذا الابن، فعنترة عندما حَمَا مؤخرة جيش قبيلة عبس بعد أن

قيل له: «كر وأنت حر». فبعدما افتخر بصنيعه رئيس القبيلة ألحقه والده بنسبه، على رواية كتاب الأغاني للأصفهاني.

صحيح أن هؤلاء العبيد السود الموجودين في القبائل العربية خصصوا لأغراض معينة مثل الخدمة، ولكن المفارقة ربما إن برزوا في جانب فلم تكن القبائل لتكافح من أجل أن لا يبرزوا فيه أو تمنعهم من ذلك رأسًا، فمن برز في القتال والشعر افتخرت قبيلته به! وأنت ترى مثلًا أن من طبقة الشعراء الجاهليين عنترة بن شداد، وهو من أبرز شعراء الجاهلية قاطبة، وأُدخلت معلقته ضمن المعلقات السبع أو العشر وهي من نخب قصائد الجاهلية، فكان يستطيع أن يطلق هذه القصائد ويقولها بكل فخر، وأحيانًا تحمل معاني العتاب والهجوم المبطن لأحد أفراد قبيلته، وهذه أمور لا يستطيع أن يفعلها العبد الأسود في أمريكا الذي لا يستطيع أن ينظر إلى عين سيده وأن لا يتكلم إلا بما يسأله سيده وحتى وإن كان قد سحقه سيده فلا يستطيع أن يقول إلا أن السيد يحسن معاملته، ويمنعه من الدراسة والتعلم والنبوغ بل وحتى في حضور الكنائس.

وفي الختام: الكتاب رحلة يدخلك بها أحد العبيد إلى عالم العبودية نفسه ويحدد فيها معالم الحياة من ملبس ومأكل ومظالم وجلد وتعذيب واضطهاد وقتل وتقسم العائلة من العبيد في التركة كما تقسم الحيوانات تمامًا، فالابن من نصيبه الزوجة والبنت والابن الثاني من نصيبه الزوج والولد، وهكذا ينفصلون إلى الأبد... كتاب قد تنهيه في جلسة واحدة حتى وإن كنت من الذين يملون من القراءة، لأنه صيغ بشكل سلس وبسيط ويشدك دائمًا وكلما قلت سأتوقف في نهاية الفصل إلا وترى في نفسك الإقبال عليه.

٨ أكتوبر ٢٠١٨م - ٢٨ محرم ١٤٤٠هـ

العبودية المختارة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: العبودية المختارة.**
- **اسم المؤلف: إتيان دو لابوسي.**
- **اسم المترجم: صالح الأسمر.**
- **عدد الصفحات: ٩٨.**
- **دار النشر: دار الساقي.**

التعليق والمناقشة:

مؤلف هذا الكتاب لم يعمر طويلًا ومات وهو شاب وألّف هذه القطعة الملتهبة وهو في السادسة عشرة من عمره، وكان تأليف هذا الكتاب وسط حرب طائفية طاحنة ما بين الكاثوليك والبروتستانت في القرن السادس عشر، وقد نشرت هذه القطعة بعد وفاته من قبل الكتاب البروتستانت المعارضين للملكية المطلقة.

على العموم نشر هذا الكتاب بعد وفاة المؤلف جعل الناس تتجه اتجاهات بمن يقصد؟! هل يقصد الملكية في فرنسا أَم أنه يتكلم عن الاستبداد بشكل عام؟ وهنا يجب التنويه أن محاولة إسقاط الكتاب العام على حدث بعينه قد يؤثر في محتواه، فلو قرأت مثلًا (مزرعة الحيوان) لجورج أورويل وفهمت أن المقصود بالشخصية (أ) هو ستالين والشخصية (ب) هو هتلر...إلخ، فربما لن تستطيع أن تتصور أن محتوى الكتاب قد يَسقط على واقعك الذي تعيشه. أو ربما لن ترى التطابق الكبير بين واقعك وبين الكتاب إن جاء في ذهنك أنه يقصد فلان فقط من كلامه.

علىٰ العموم يُلاحظ من لابوسي أن له اطّلاع جيّد في التأريخ القديم، تأريخ الإغريق والرومان، ودائمًا ما يحاول تشبيه كلامه النظري بأمثلة من التأريخ القديم، وفي ذات الوقت حاول مترجم المادة صالح الأسمر أن يفسر في هوامش الكتاب من هي هذه الشخصية وما هو هذا الحدث الذي أشار إليه المؤلف.

وهذا الإسقاط والتمثيل يوضح الصورة بشكل كبير جدًا، إذ يقال: «بالمثال يتضح المقال» بقت نقطة فقط وردت في المقدمة وهي كلام المقدم: «**من لا يقول إن التفاسير تضاعف الشكوك والجهل، فأي كتاب إنساني أو إلهي يهتم به عالم ذلل التفسير من صعوبته؟**».

هذا ليس بإطلاق، فالتفسير يجلي الغموض إن كان الكلام في أصله محتملًا أو متشابهًا، فيكون التفسير حاملًا النص علىٰ معنىٰ معين بقرائن متعددة، وحالة التغبيش غالبًا تحصل إن عكست العملية، فيكون النص في أصله واضحًا ولكن التفسير يُبدد هذا الوضوح ويحوله إلىٰ نص غامض بشكل متعمد أو كما يقول أبو الحسن الندوي: «**غصّت الكتب بالحواشي والتقريرات والتلخيصات والمتون التي ظن فيها مؤلفوها على القرطاس، وتعمدوا التعقيد والغموض**». فالحاشية هي ما عقدت وزادت النص الأصلي غموضًا!

وتكلم لابوسي أن الطغاة مثل النيران، فلا تحتاج أن تواجهها بصب الماء، وإنما توقف عن الخضوع لها وتوقف عن إمدادها بالحطب الذي يُبقيها وسوف تموت وتنطفئ لوحدها، وربما هذه الفكرة هي تقعيد أو تأصيل للإضراب العام، فاستمرار الإضراب العام يعني موت الحكومة ببطء.

وكذا تكلم عن تجذر العبودية لدىٰ الشعب حتىٰ بات يُعظّم من يستعبده، وعبر عن ذلك في قوله: «**أي بؤس؟! وأية رذيلة - أو بالأحرى أية رذيلة بائسة - أن ترى عددًا لا يحصى من الناس لا يطيعون فحسب بل يخدمون، ولا يملكون شيئًا بل إن حياتهم نفسها ليست لهم وهم عرضة لأعمال السلب والنهب والفجور والقسوة، لا من قبل معسكر أجنبي غاشم يجب عليهم أن يبذلوا دماءهم**

وحياتهم في مقاومته، بل إنهم يقاسون كل ذلك من واحد لا هو هرقل ولا شمشون، وإنما هو غالبًا ما يكون أجبن وأخنث هذه الأمة، لا عهد له بغبار المعارك!» (بشيء من التصرف).

مع العلم أن الكثير من الرؤساء المستبدين لم يخوضوا حروبًا، ولم يقفوا على رأس جيوشهم ولم يدخلوا المعارك، وهذا بخلاف الطغاة المستبدين في الأزمان السابقة إلى مطلع القرن العشرين، الكثير منهم تراه لا يترأس البلاد إلا بعد أن يقود المعارك بنفسه ويسحق بها خصومه.

وكذا تكلم عن أن الشعب الذي يتخلى عن الحرية ويستمسك بالعبودية فإنه انحط إلى مرحلة ما دون الحيوان، «**فالحيوانات إذا ما تم اقتناصها فإنها تبدي مقاومةً شرسةً تستخدم فيها المخالب والقرون والمناقير والأقدام مُعربةً بذلك عن عظيم تقديرها للحرية التي فقدتها، ما الذي يريد أن يقوله الفيل حين يوشك أن يقع في الأسر فيدافع عن نفسه حتى آخر رمق، ثم يغرس فكيه في جذوع الأشجار ويكسر نابيه، سوى أن رغبته العارمة في البقاء حرًا توحي إليه أن يساوم صياديه على أن يتركوا له حريته مقابل حصولهم على نابيه العاجين متحملًا دفع هذه الفدية في سبيل حريته!**» كما يقول لابوسي.

تكلم عن أن أثر المجتمع وما ترسخ فيه أحيانًا يفسد فطرة أفراد الشعب للحرية، وأحيانًا الذي لم يعش الحرية لا يعرف قيمتها، فيستغرب ممن يرفض العبودية ويرى أنه أضاع فرص ثمينة على نفسه، وضرب مثلًا بقصة حصلت بين بلاد فارس وأسبرطة، أرسل الفرس إلى أسبرطة رسولان فقام أهل سبراطة بقتلهم، ثم اتفق أهل أسبرطة أن يبعثا برجلين منهما للفرس ليفعلوا بهما ما يشاءون انتقامًا للرسولين اللذين قُتلا وتطوع لهذه المهمة اثنين من الأشخاص، وفي طريق ذهابهم إلى ملك الفرس وصلا إلى قصر قائد الجيوش الفارسية على جميع مدن آسيا الواقعة على ساحل البحر، فاستقبلهما وقال لهما: «**تعرفان كيف يُكرم الملك أولئك الذين يخدمونه، واعلما أنكما إذا ما أصبحتما من أتباعه فسوف يفعل لكما من المكرمة ما فعله لي، فإذا دخلتما في طاعته وعرفكما فلن يعود أيٌّ منكما إلا وقد**

أصبح أميرًا على مدينة من مدن اليونان» فأجابه الإسبراطيان: «**أنت يا إندارن لم تُحسن نصحنا في هذا الأمر؛ لأن النعمة التي تعدنا بها خبرتها أنت، لكنك لا تعرف النعمة التي نتمتع نحن بها، لقد حظيت بإنعام الملك عليك غير أنك لا تعرف شيئًا عن الحرية ولم تذق طعمها، ولو أنك ذقتها لنصحتنا بالدفاع عنها لا بالرمح والدرع فحسب بل بالأسنان والأظافر أيضًا**».

وهذا تراه في واقعك الآن، فلما يحدث أحدهم عن الظلم والاستبداد الحاصل تجده الآخر يقول: هل تريد أن يحصل لنا ما حصل في سوريا؟! فهو يقبل بالعبودية ويستغرب من محاولة البعض النيل من الحرية، ويستنكف وقوع ضريبة ذلك على هذه الشعوب، ورحم الله سيّد لما قال: «**إن ضريبة الذل أفدح من ضريبة الكرامة، وأن تكاليف الحرية أقل من تكاليف العبودية**»[١١٧].

وتكلم عن الدولة العثمانية وقال: «**هذا ما أدركه سلطان الترك كل الإدراك: أدرك أن الكتب والعقيدة هما أكثر ما يعطي الناس الإحساس والفهم ليتعارفوا ويكرهوا الطغيان. أعني بذلك أن أراضيه خالية من أهل العلم والمعرفة وأنه لا يطلبهم؟**» فأحيانًا من مصلحة الطغاة إشاعة الجهل بين الناس وعدم توعيتهم، وبنفس المنطق تعامل البيض الأمريكان الذين استعبدوا السود فحرموهم من العلم والقراءة والكتابة؛ لأن ذلك في ظنهم يفسد العبد فيتتوق للحرية ويهرب من الحقل، وارجع إن شئت إلى كلام العبد الأسود السابق فريدريك دوجلاس عن أثر العلم والقراءة عليه وبالأخص بعدما قرأ (مذكرات الرجل الكولمبي) فجعله يزيد بصيرة في واقعه ويكره العبودية زيادة مما قد كرهها سابقًا.

ونص المؤلف يذكرني بنص قديم قد قرأته للأستاذ عمر محمود يقول فيه: «**الدولة العثمانية هي من صنعت المدفع، وكان عندها أقوى قوة عسكرية ضاربة، لكن كان خطؤها خلوها من حركة الوعي والعلم في داخلها**».

---

[١١٧] دراسات إسلامية – صـ١٢٧.

وكذا تكلم عن قضية إلهاء الشعوب عن قضاياها السياسية بفتح مراكز اللهو والخنا والدعارة والحانات، وهذا أسلوب ناجع، وضرب مثلًا بسيطرة كسرىٰ الفرس علىٰ مدينة سرديس فثار أهلها، ولكن لم يشأ أن يدمر مدينة فائقة الجمال ولا أن يحتمل عبء إبقاء حامية كبيرة فيها لحراستها، فأمر بفتح مواخير وحانات الدعارة وشرب الخمور وملاهٍ للألعاب الشعبية، وما أن فتحها حتىٰ انجذب الناس إليها وانغمسوا فيها ونسوا قضيتهم السياسية.

وقال بعدها لابوسي كلمة في غاية الدقة: «**إن الطغاة لم يصرحوا جميعًا بأنهم يريدون تخنيث رعاياهم غير أن ما أمر به الملك الفارسي بشكل صريح وحازم قد سعى غالبيتهم إلى تحقيقه خفية**».

تستطيع الحكومات أن تكون حازمة وصارمة وتتبع الحسابات التي تروج للفجور، وتظهر شراستها أمام من يحث ويمارس الفجور، ولكن تراها تتحرك ببطء ولا تتحرك غالبًا أو في الكثير من الأحيان إلا عندما تكون القضية رأي عام أو من مارس الفجور مارسه بشكل علني وبالاسم والرسم، فانظر مثلًا إلىٰ همتها في تتبع الناشطين السياسيين أصحاب الأسماء المستعارة واختراقهم والإيقاع بهم، ثم تأمل تحركها أمام أصحاب القضايا الجنائية التي تفسد المجتمع حتىٰ تعلم مدىٰ جديتها!

وأنت ترىٰ نتاج ذلك علىٰ نفسية الكثير من الشباب الناشئ، إذ يصبح غاية مراده وأمله هو ممارسة الجنس والزنا والمتعة واللهو، وبذلك استطاعت الحكومات أن تحيد خلقًا كثيرًا من الشباب.

وكذا تكلم عن الولائم الكبيرة التي كان يقيمها الإمبراطور الروماني نيرون للدهماء وعامة الناس - التي تتاهفت إلىٰ لذة الفم قبل أي شيء - وكل هؤلاء كانوا يقولون في هذه الولائم: «عاش الملك!» فيعلق هنا لابوسي بتعليق رائع: «**وما كان الأغبياء يَفطنون إلى أنهم يستعيدون جزءًا مما هو في الأصل لهم، وأن الطاغية ما كان ليجود به عليهم لو أنه لم يسلبهم إياه في السابق!**» فالكثير من النِعم والخيرات التي يتنعم بها الطاغية هي في الأصل منهوبة من المال العام للشعب، فعندما يعطيك

مكرمة فهو الأصل يرجع ما هو لك، لا أن يتفضل بما هو ليس لك. ثم هذا اللهو والولائم هي التي جعلت الشعب الروماني ينسىٰ كل ما صنعه المستبد الطاغية نيرون ويأسف علىٰ موته كل الأسف.

قلت: وهذه حال مُشابهة لحال المصريين، فمثلًا يذكر سنوحي طبيب فرعون في مذكراته التي وجدت باللغة الهيروغليفية أنه لما مات فرعون - رأيت الجماهير المحتشدة والتي لقي كل فرد منهم علىٰ حِدة من بطش فرعون وسياطه أذىٰ وعذابًا تجهش بالكباء - والأمر لم يقف عند ذلك ولم يقتصر عليه بل ذكر قصة الوجيه الثري أخناتون الذي رفض أن يعطي كل ما يملك لفرعون فعقابه فرعون أن استولىٰ علىٰ كل ما يملك بالقوة وقطع يديه ورجليه وألقاه في الشارع عاريًا ليكون عبرة لغيره، ولما نجا من الموت، وكان حلم حياته أن يقتص من فرعون، فيقول الطبيب أن حتىٰ هذا رأيته يبكي وسط الحشود حزنًا علىٰ فرعون، هذا أولاً، ثانيًا: الشخص منا أحيانًا يشكر الحكومة ولا يشكر الله رغم أن المنة والتفضل هو لله، يعني مثلًا حياة الترف الموجودة في الخليج لم تكن لولا أن الله أنعم عليهم بالنفط، فالخدمات التي تقدمها الحكومة والرواتب المرتفعة نسبيًا بالمقارنة مع بقية الدول العربية، كل هذا لم يكن لو أن الله لم ينعم علينا بالنفط، فالشكر يجب أن يوّجه إليه هو أولًا لا أن يُحذف من قائمة الشكر وتخص بها الحكومة، وإلا من قرأ تأريخ المنطقة وبالأخص قبل النفط لعلم أن الحكومة من غير هذا الدعم وهذا المال لما ضربت لك اعتبارًا، ولمت كما مات أجدادك بالطاعون وغيره من الأمراض والحكومة تتفرج أو في أحسن الأحوال لا يسعها فعل شيء.

وفي الختام تكلم عن المتملقين بكلام جميل، وثم أعقبه بالكلام أن حتىٰ هؤلاء المتملقين قد ينهشهم الطاغية بعد أن حرضوه لينهش خصومهم أو خصومه، فالطاغية لا يقف عند حد، وثم تكلم أن الطاغية لا ينهش في من عاونوه يومًا وكانوا في صفه فحسب، بل حتىٰ في من صنعه، مثل قصة غريبيا زوجة الإمبراطور الروماني التي قتلت زوجها لأجل أن تضع ابنها علىٰ رأس الإمبراطورية، ولم تتردد بارتكاب أي فعل من أجل تحقيق هذه الغاية، وبعد أن نشأ ابنها في كنف أم هكذا كان

طبعها، تعلم طبعها ثم عاملها به، فأولًا أصبح يهينها بشكل متكرر أمام الناس ومرّغ بكرامتها التراب، ثم قتلها! والأمر كما قال الشاعر العربي:

البَغْيُ يصرعُ أهلهُ   والظلمُ مَرْتَعُهُ وِخيمٌ

وهذه بعض الاقتباسات التي مررت بها أثناء قراءتي الكتاب:

- «**صحيح أن الناس في البداية يخدمون مكرهين ومقهورين بالقوة، غير أن الذين يأتون بعدهم ولم يسبق لهم أن ذاقوا طعم الحرية ولا يعرفون ما هي، فيخدمون غير آسين ويقومون طوعًا بما قام بهِ أسلافهم قسرًا**». (صـ٤٥).

- «**من المؤكد أن الطاغية لا يطمئن أبدًا إلى استتباب سلطانه ما لم يصل به الأمر إلى القضاء على آخر رجل ذي مكانة ونباهة في رعيته**». (صـ٦٢-٦٣).

- «**فهؤلاء الطغاة لا يقترفون شرًا - خصوصًا في نتائجه - إلا مهّدوا له ببعض العبارات الجميلة عن المصلحة العامة ورفاهية الجماعة**». (صـ٦٩).

- «**أنظر إلى قِسيِّ الطاغية، أنظر إلى حراسه، أنظر إلى رماحيه، تجد أن هؤلاء الخاسرين والمنسيين من الله والناس، لا يعانون منه أحيانًا فحسب، بل إنهم سعداء بأن يتحملوا الأذى لا ليذوقوه من أذاهم بل لينزلوه بأولئك الذين يتحملون الأذى مثلهم ولا يسعهم إلا الصبر عليه**». (ص٨٢).

١٩ أكتوبر ٢٠١٨م - ٩ صفر ١٤٤٠هـ

رواية: صالح

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: صالح.**
- **اسم المؤلف: يوسف حسن.**
- **عدد الصفحات: ٦٧.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

رواية (صالح) ليوسف حسن من الروايات القصيرة جدًا فهي أشبه بقصة قصيرة تُنهيها في جلسة واحدة فقط، أظن تخميني وحتى تخمين من طرحت عليهم مادة الرواية أنها قصة حقيقة. أنا وصلت إلى القناعة هذه من خلال أمرين أولها واقعية القصة وهذه الواقعية لا توجد عادةً في الروايات التي تُبني على الخيال والإثارة وإظهار غير المألوف. والأمر الثاني ورود بعض الشخصيات الحقيقة ولكن الكاتب هنا لم يذكر أسمائها الحقيقة وإنما كناها؛ فأبو سعود الذي كان مُستقرًا في سورية بعد نفيه وحل الهيئة الوطنية هو عبد العزيز الشملان الذي كانت هذه كنيته وكان فعلًا كما ذُكر في الرواية مساعدًا لبعض الطلاب البحرينيين الوافدين للدراسة هناك.

الواقعية في هذه الرواية أو القصة في نظري جعلت من القصة أمرًا مُملًا أو عاديًا أو لا ثمرة حقيقة أو غاية واضحة، أحيانًا بعض الشخصيات يكون هنالك حادثة من حياتهم هي المثيرة والملهمة ولكن البقية تفاصيل روتينية وعادية. فأنت عندما تطرح الكل تُثير القارئ مرة وتمله ألف مرة.

القصة باختصار عن أحد أفراد حزب البعث – فرع البحرين – صالح؛ في تلك الفترة ارتفع صوت إيران بمحاولة ضم البحرين إليها مع بوادر خروج بريطانيا من المنطقة، فهؤلاء البعثيين وصلوا إلى

قناعة تقول أن البحرين سوف تكون كفلسطين، وسوف يسلمون البحرين كما سلموا فلسطين عند خروجهم - أي البريطانيين -، الخلاصة أنهم اتفقوا على البدء بالعمل المسلح، ولكن كشفوا وطردوا من قبل الإنجليز وأذنابهم.

يعني من الأمور التي قد تلفت الانتباه هي قضية اختباء صالح في أحد البيوت وكيف لُفت الانتباه إليه رغم أنه لم يصدر أي صوت ولم يَلمحهُ أحد. أحيانًا بعض الأمور تثير الشك في الناس، وتجعلك في موقع التهمة، مثلًا لما يكون شخص واحد ساكن في المنزل ولكن يشتري عشاء كثير يوميًا، ويأخذ أكثر من حاجته، إذن لا بُدَّ أن يكون معه أحد، لماذا يشتري هذه الكمية الكبيرة يوميًا وهو لم يكن يفعل ذلك سابقًا. إذا كان لديه ضيوف في أحد الأيام فما لذي يجعله يكررها كل يوم. هذا أولاً.

ثانيًا: من الأمور السيئة في الرواية هي تعدد اللهجات فيها، والجانب الأكبر صيغ باللهجة البحرينية وكذا الشامية والعراقية، (لأن البطل صالح انتقل إلى العراق ثم الأردن ثم سورية وأخيرًا لبنان)، مشاركًا مع الأحزاب اليسارية حروبها الداخلية. وكثرة اللهجات أو حتى ضبط الرواية كليةً على هذا النحو تجعل عدد القارئين المؤهلين لها قلة، لذا استخدام العامية في الرواية غالبًا ما تكون لمؤلف أو كاتب يهدف إلى الجمهور المحلي فحسب.

الشاهد: أنها خيبة أمل مع اعتذاري للمؤلف، ويستحق أن يُعيد ضبط النهايات وإظهار الرسائل والأهداف والغايات من الرواية حتى تكون أكثر عبرةً وفائدةً للقارئ، لا أن يخرج القارئ كما دخل.

١٩ أكتوبر ٢٠١٨م - ٩ صفر ١٤٤٠هـ

رواية: ثلاثة من الشمال

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: ثلاثة من الشمال.**
- **اسم المؤلف: خالد تركي.**
- **عدد الصفحات: ١٧٤.**
- **دار النشر: دار كلمات.**

التعليق والمناقشة:

رواية (ثلاثة من الشمال) للزميل والصديق خالد تركي، هي ضمن ما يُعرف بأدب البدون الذي بدأ ينشأ مؤخرًا، وأفرزت جملة من الروايات التي تناقش هذه القضية كـ(الصهد وكاليسكا) لناصر الظفيري، و (طعم الذئب وذكريات ضالة) لعبد الله البصيص، و(ارتطام لم يسمع له دوي) لبثينة العيسى، كما أخبرني أحد المهتمين والمتابعين. وبعض القضايا أحيانًا لا بُدَّ من رفع عقيرة التأثير فيها من خلال بثها في الأدب، ولا يُكتفى بعرضها مادةً سياسية مجردة.

البدون هم فئة في دول الخليج لا يملكون الجنسية، وعدم امتلاكهم الجنسية يحرمهم من الكثير من الامتيازات، ويجعلهم طبقة ثانية في المجتمع، وهذا الحرمان الذي تتعرض له هذه الفئة يُدمّر أحلام وسُبل الحياة الكريمة التي يطمح إليها كل أحد، ويمزق أوصال الأسرة والقبائل.

وفي ظني أبرز سبب لعدم نيل هذه الفئة الجنسيات هي بسبب خطأ تأريخي وقع فيه أجداد هؤلاء، والذين كانوا البدو الرحل، الذين ينتقلون في الصحراء من منطقة إلى منطقة ومن دولة إلى دولة ولا يستقرون، فلما فتحت الدولة باب الجنسية لم يتجنس هؤلاء ولم يضربوا لها اعتبارًا، فحاسبت الدولة

الأحفاد بجريرة الأجداد، كما يجدر بالذكر أن هناك ثمة أسباب أخرىٰ غير هذه، وأحيانًا أسباب غير معروفة مثل ما ذُكر.

الأمر الذي لفت انتباهي هي خلخلة البنية القبلية بسبب الوضع الاجتماعي (كنت أظن سابقًا كما كان يظن أبو الحسن الندوي مثلًا في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) من أن الفارق المادي والاجتماعي غير مؤثر في القبلية) ولكن اتضح أنه مؤثر خصوصًا في ظل المجتمع المدني.

وقد ضربها في الرواية علىٰ هذا النحو: أحدهم أراد الزواج من ابنة عمه، ولكن للأسف أن كل أعمامه لديهم جنسية باستثناء أبيه، فرفض عمه تزويجه حتىٰ لا يكون أحفاده وأبناء ابنته بلا جنسية كأبيهم ويعانون كما يعني هو.

المؤلف أراد من خلال روايته أن يبرز أن سلوك بعض البدون الطريق الخطأ وارتكابهم الجرائم نابع أن جميع الأبواب صُكّت في وجوههم، وجردوا من كافة الوسائل التي تجعلهم يعيشوا كما يعيش غيرهم في كفاف، فمرتكبي الجرائم ليس لديهم شيء يخسروه ويظنوا أنهم بهذا الفعل يحققوا شيء من العدالة والإنصاف لذواتهم.

وهذه النقطة الواردة في الرواية قد تفسر تفسيرًا خاطئًا، وهي أن المؤلف جالس يبرر ويسوغ لمثل هذه الجرائم بحجة غياب العدالة في تصحيح وضع البدون، وقد يعضد هذا التصور هو أن الجريمة الكبرىٰ قد تمّت بنفاذ مرتكبيها بجلدهم بعد أن نهبوا وفعلوا.

طبعًا المؤلف تكلم عن فئة هي تُشارك البدون في عدم امتلاكهم الجنسية وتمثلت في (فراس) ولكن الفرق بينهم وبين البدون أن هؤلاء كانوا يملكون الجنسية يوما ما والبدون لم يملكونها مطلقًا، وأحيانا الدولة عندما تستشعر أن أحدهم يخالفها بقوة وأضر بها سياسيًا أو أمنيًا، تأخذ عائلته بجريرته هو، وتسحق عائلته بعد أن تسحقهُ هو! فبعض العوائل بسبب أن رب الأسرة كان معارضًا أو حاول أن يضر بالبلاد تقوم الدولة وتعاقب أهله عقابًا جماعيًا وتسقط الجنسيات عنهم، ولعل

أبرز صورة لهذا المشهد هو أسرة أوفقير وارجع لكتاب ابنتهم الكبرىٰ (السجينة)، لترىٰ كيف سحقت الأسرة وحتىٰ الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بسبب محاولة انقلابية لأبيهم.

والرواية انتهت نهاية مفتوحة، ولم يعجبني هذا، وقد ترك الكثير من الأسئلة بلا جواب (مثلًا من كان يدفع أجار بهو أو مكتبة أخو فراس المتوفىٰ بعد وفاته!)، وأحيانًا أخطر ما يكون في الرواية هي النهايات، أنا لا أقول أن كل نهاية مفتوحة سيئة بل مثل رواية (مزرعة الحيوان) لجورج أورويل انتهت نهاية مفتوحة، ولكن حتىٰ في النهاية استطاع أن يوصل المؤلف رسالة قوية، ولكن أتساءل ما الرسالة التي أوصلها الزميل خالد التركي من النهاية؟ بقت الإشارة إلىٰ نقطة هامشية، وهي أن هذه الرواية جمهورها المستهدف هم المراهقين - طالما نشرت من خلال دار كلمات - فأحيانًا بعض المصطلحات العلمية من الجيد أن تُشرح ولكن ضمن سياق الرواية؛ لأنها غير معروفة للقارئ، مثلًا فيصل المطوّع عندما نافح عن قول ابن حزم في الموسيقىٰ احتج بأن ابن حزم توهم أن هذا الحديث قد علقه البخاري، وما هي دلالة كلمة «علق البخاري الحديث» يعني أن في سنده فجوة، مثلًا حذف جملة من رواة الحديث في السند. فالحديث يروىٰ من فلان عن فلان عن فلان عن التابعي عن الصحابي عن الرسول ﷺ، فالمعلق حول إذا مثلًا حذفت فلان عن فلان عن فلان، وجعلته مباشرة عن التابعي عن الصحابي عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابي مباشرة أو عن الرسول مباشرة. وهذه التوضيحات يُستحسن أن توضع بشكل محاورة، كأن يعترض أحدهم ويقول: «ماذا يعني مُعَلَّق؟» فتكون الرواية مادة تثقيفية يستفيد القارئ منها بالإضافة إلىٰ تبصرة بأصل المادة وهي أزمة البدون.

- وفي الختام أقول: نسأل الله عز وجل أن لا يقبضنا إليه قبل أن نرىٰ فرحة إخواننا البدون بنيل الجنسيات وانتهاء معاناتهم، فالمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويفرح لفرحه ويحزن لحزنه.

١٩ أكتوبر ٢٠١٨م - ٩ صفر ١٤٤٠هـ

تحت وابل النيران في سراييفو

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: تحت وابل النيران في سراييفو.**
- **اسم المؤلف: أحمد منصور.**
- **عدد الصفحات: ٢٦٠.**
- **دار النشر: دار ابن حزم.**

التعليق والمناقشة:

أحمد منصور يقول أنه من أحب الأعمال إلى نفسه العمل الميداني، وهذا أمر إذا نظرت إلى إنتاج هذا الصحفي سوف تجده حقيقة ماثلة على الأرض، فقد شارك في تغطية حرب أفغانستان في الثمانينيات واستمر ثلاث سنوات وهو يغطي ثم أخرج كتاب (تحت وابل النيران في أفغانستان)، ولما بدأت مأساة البلقان ذهب هنالك كصحفي تابع لصحيفة المجتمع الكويتية وبقي - حوالي أربع أو خمس شهور - وخرج بكتاب (تحت وابل النيران في سراييفو)، ثم بدأت حرب العراق وغطاها وبالأخص معركة الفلوجة وخرج بكتابين (قصة سقوط بغداد) و (معركة فلوجة وهزيمة أمريكا في العراق) ثم لما بدأت الثورة السورية دخل أيضًا ولكن يبدو أنه كَبُرَ على التغطيات المتواصلة فقام بعمل مقابلة مع أحد قادة أكبر الفصائل هناك وهو أمير جبهة النصرة أبو محمد الجولاني.

إذن تجد أن في هذا الشخص ولع التغطية وليست التغطية الباردة، بل داخل معامع القتال ووسط القصف والحصار، ثانيًا الميزة التي تراها حاضرة في كتابات هذا الشخص هي حب التوثيق، والشغف به، وهذا الأمر جعله لاحقًا يُقيم برنامجًا في الجزيرة اشتُهر به وهو (شاهد على العصر)، وقد أقام لقاءات تأريخية وثقت الكثير من الحوادث سواء على المستوى الشخصي (أي مستوى الضيف) أو المستوى العام وتأريخ المنطقة، وبعض هذه اللقاءات طُبعت لاحقًا على شكل كتاب

مثل اللقاء مع الشيخ أحمد ياسين، وجهيمان، والسادات، وحسين الشافعي، والأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود. والمزية أو الخاصية الثالثة التي ربما تكون متواجدة في كتاباته سابقًا هو وجود الهم الإسلامي، وهم العمل الإسلامي، ولكن ربما أن نمط الكتابة هذا لا يصلح في البيئة الحالية التي يتواجد هو بها فربما يرىٰ المتابع أنها قلت في خطاباته.

اعتمد أحمد منصور علىٰ ثلاث أمور – غالبًا – في إيراده المعلومات في كتابه هذا:

– اللقاءات الشخصية مع بعض الشخصيات القيادية مثل (الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش – ونائب الرئيس أيوب جانيتش – العميد عصمت حجيتش – وزير شؤون الأمم المتحدة في حكومة البوسنة والهرسك حسن مراتوفيتش).

– المشاهدات الشخصية.

– التقارير الموثقة من بعض الصحف والقنوات الإعلامية بتواريخها.

يتحدث الكتاب عن القضية البوسنية التي بدأت في مطلع التسعينيات مع تفكك الاتحاد اليوغسلافي وإعلان بعض الجمهوريات – التي كانت ضمن الاتحاد السابق – استقلالها، ومع التنوع العرقي والديني حصلت مواجهات ثلاثية (الصرب الأرثوذكس، البوشناق البوسنيين المسلمين، الكروات الكاثوليك).

طبعًا من المفارقات العجيبة حتىٰ ترىٰ مدىٰ هشاشة خصومك هي أن الاتحاد اليوغسلافي من أقوىٰ الجيوش الشرقية تسليحًا، وبعد تفككه كان الوريث الشرعي له هم الصرب فكانوا يملكون ترسانة ضخمة من الأسلحة (الثقيل والمتوسط والخفيف) وبدأوا قتالهم للبوسنيين بعد إعلان البوسنة استقلالها رغم أن جيش البوسنة لا يملك أي عتاد عسكري يعتد به، ومع وجود الفارق الضخم والهائل – لم يستطع الصرب القضاء علىٰ البوسنيين، ولم يستسلم البوسنيون رغم أن حصار

عاصمتهم سراييڤو امتد لأكثر من ألف يوم مما جعل أحمد منصور يقول أن هذه المدينة دخلت موسوعة جينيس كونها أكثر عاصمة قد تم حصارها في الوقت الحاضر - ولكن في الوقت نفسه سقطت العديد من المناطق وأصبحت هنالك حروب غير متكافئة فخرج الرئيس علي عزت بيجوفيتش وأعلن عن بدء حرب عصابات؛ لأن كما أسلفنا لا تسليح جيد للجيش البوسني لدولة مستقلة للتو لا تملك ما يجعلها قوية، وغير مدعومة من محيطها الأوروبي (بخلاف كرواتيا لما استقلت تم دعمها من قبل الدول الأوروبية في مواجهة الصرب حتى رضخوا للأمر الواقع).

طبعًا هنا أحمد منصور يتكلم ويرى أن ما حصل للبوسنة من خذلان بل وتواطؤ أوروبي هو ضرب من ضروب معاقبة لهذا الشعب الذي كان قبل قرون محاصر لفيينا ورأس حربة للجيش العثماني في اكتساح أوروبا، ولا يمكن هنا إنكار حصول التواطؤ على أساس الدين، وكذا النصرة والدعم تكون على أساس الدين مثل دعم الدول الأوروبية لكرواتيا الكاثوليكية ودعم الروس الأرثوذكس لإخوانهم في الدين والعرق وهم الصرب، فهذه الدول - وهذه النقطة سوف تراها واضحة وبشكل أعمق في كتاب شكيب أرسلان (لماذا تراجع المسلمون وتقدم غيرهم) - يجب أن لا تغتر بالشعار العلماني التي ترفعه، والصورة النمطية الخادعة في أذهان البعض وهي أن هذه الدول قد تخلت أو تحللت عن دينها وأصبحت علمانية تناوئ الدين، بل هي كما ترى تقيم التحالفات والدعم أحيانًا على أساس الدين، هذا ناهيك عن صنيعهم أثناء فترة الاستعمار في تنصير الشعوب وتبديل أديانها. مثل ما حصل لأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا ومحاولة تنصير البربر المغاربة. ولا يطالب أحد بالتحلل من الدين - التحلل المطلق - إلا الحمقى والمغفلين من بني جلدتنا الذين يظنون أن الدول الغربية قد انسلخت من دينها بالكلية بإقامة نظام علماني دون النظر إلى الصورة بكليتها.

عمومًا في اللقاء مع أحد القادة الميدانيين أو المسؤولين يذكر أن المقاومة بدأت بالأسلحة الخفيفة وبنادق الصيد ثم على ما تم اغتنامه من الصرب، وهذه سجية شعب عزم على المقاومة حتى آخر

رمق، وإلا ما أسهل أن ينسحق نفسيًا ويستسلم ويقول لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فالفرق بين القوتين هائل، ومع ذلك حاول أن يبدأ بما يملك وحاول لاحقًا أن يوازن الكفّة بينهم وبين الصرب.

طبعًا هناك فصول في الكتاب تتكلم بإسهاب عن دور الأمم المتحدة وتواطئها في هذه الحرب إلى جانب الصرب أو تخاذلها عن نصرة المظلومين كعادتها إن كانوا الضحايا مسلمين، وهذه الصورة النمطية واضحة وضوح الشمس في كبد السماء لدى القادة البوسنيين وهذا ما حدى بأمثال علي عزت بيجوفيتش أن يقاطعوا ممثلي الأمم المتحدة في القضية البوسنية، وضوح موقف الأمم المتحدة أو الدول الكبرى لدى قادة وشخصيات بارزة في القضية الشيشانية والبوسنية كان مبكرًا وتُرجم إلى تصريحات وأفعال على الأرض، ربما هذا بخلاف ممثلي الثورة السورية في الجانب السياسي ممن لا يزالوا يحسنون الظن ويأملون وربما يعتقدون أن الحل بيد الأمم المتحدة.

والأمم المتحدة والمؤسسات التابعة لها تُشدد على دخول الصحفيين العرب والمسلمين، بما أن سراييفو كانت محاصرة فلا سبيل لدخولها إلا عن طريق الأمم المتحدة وتكون عبر موافقتهم أو عن طريق التهريب، وقد حكى أحمد منصور هنا ما حصل للصحفي يحيى غانم التابع لصحيفة الأهرام المصرية من مماطلة حتى يتم إخراج بطاقة الدخول إليه، وهذا الأمر الذي جعل أحمد منصور لا يدخل بطريق رسمي وإنما عن طريق التهريب من خلال النفق، (والنفق هو ما أنقذ سراييفو وجعل الحياة فيها سارية وهي من فكرة جنرال مصري تابع للأمم المتحدة كما قال ماجد المدني في كتابه عن البوسنة).

وبعدما دخل رأى أن دور الأمم المتحدة ليس هو الدور المنوط بها والواجب عليها القيام به، وفيه من التواطؤ والتخاذل وموقف المتفرج على رؤية المذابح دون تحرك، وإنما لا يتحرك إلا بعد انقشاع الغبار لأخذ القتلى من المسلمين ودفنهم، وبعض هذه الصور كالتالي:

- مخالفتهم للمادة ٥١ من الفصل السابع من ميثاقهم، ومنع الدولة البوسنة من الحق الشرعي أو الطبيعي من الدفاع عن نفسها وذلك بمنع تصدير الأسلحة إليها حتى لا تزيد النار اشتعالًا كما يقولون بينما كان الصرب يصلهم الدعم دون انقطاع ودون اتخاذ أي تدابير جدية تُجفف هذا الدعم.

- تفرج القوات العسكرية الموجودة التابعة للأمم المتحدة على المذابح التي كان يقيمها الصرب، دون تحرك أو محاولة منع، إلا في حالة واحدة وهي كتيبة بنغالية تابعة للأمم المتحدة لما انهزم المسلمون في أحد محاور مدينة بهاتش قام بأقل الواجب وما هو مطلوب منه وهو الحيلولة دون المسلمين والصرب، فما كانت مكافئته من قِبل الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي إلا باستبعاد الكتيبة البنغالية وإحلال مكانها أصدقاء الصرب وأحبائهم وهم الروس والذين دعموا الصرب بكافة الأشكال من دعم عسكري واقتصادي وبشري وعلى العلن وفي وسط الحرب. ثم ترتب على هذا رفضهم إدخال أي قوات أممية تابعة لدولة من العالم الإسلامي. وكذا إعلانهم أن سراييفو مدينة آمنة رغم عمليات القنص والاستهداف العشوائي من مناطق الصرب داخل وخارج المدينة لم تنقطع، وإعلان المدينة آمنة يعني عدم قدرة الجيش البوسني على الهجوم على هذه المناطق كون المدينة آمنة، فلم تكترث الأمم المتحدة بحال المدينة الفعلي وبإعلانهم هذا أرادوا الإبقاء على الوضع كما هو عليه ومنع البوسنيين من الدفاع عن أنفسهم.

- حوصرت سراييفو من كل المناطق إلا من جهة المطار وكانت هنالك هجمة شرسة تصدى لها الجيش البوسني من أجل السيطرة على المطار؛ لأن من سيسيطر عليه سوف يحقق مكسبًا مهمًا وقويًا في الحرب، فما إن انكسر واندحر الصرب سارع الفرنسيون التابعون للأمم المتحدة للسيطرة على المطار وإخضاعه لهم! وبعد سيطرة الفرنسيين لم يستخدم المطار إلا قليلًا ولم يستخدم الاستخدام الحسن في تحسين ظروف المدينة المحاصرة، والتأخر أحيانًا في نقل كميات الطعام مما يؤدي إلى فساده وعدم صلاحيته للأكل.

- الازدواجية في التصريحات، والاتهامات، وغيرها من الوقائع المذكورة في الكتاب.

مع التنويه أن زيارة المؤلف وإصداره للكتاب كله قبل حصول مذبحة سربرنيتشا التي توجت الأمم المتحدة دورها المتواطئ في البوسنة من خلالها! ولكن إرهاصاتها كانت بادية في الكتاب، وتكلم عن اتفاقية سربرنيتشا التي بدورها جُرد المسلمون من سلاحهم مقابل حماية الأمم المتحدة لهم.

ولكن حقًا كما قال أحدهم: «**وهل مآسينا إلا من الأمم المتحدة؟**».

عاش المؤلف تجربة الحصار، وسرد شيئًا من حقيقتها وواقعها، فالناس في ظل الحصار وشح المؤن وارتفاع الأسعار قررت التخلي عن كل ما تملك في المنزل من أثاث، ومستلزمات، وهدايا ثمينة وغيرها، وأحد هؤلاء السكان يقول: ما فائدة الهدية التي وإن ارتبطت بذكريات جميلة مع أشخاص غالين عليَّ وأنا وأبنائي لا نجد ما نأكل؟

وتضاءلت الرواتب وقَلّت (وكان سكان البوسنة يتعاملون بالعملة الألمانية ونادرًا جدًا ما يتعاملون بالعملة البوسنية)، فمثلًا راتب المسؤولة في قسم العلاقات الدولية في التلفزيون البوسني كان (٦ ماركات ألمانية) وكانت تقول لأحمد منصور: «**براتبي هذا يحتاج أن أعمل نصف سنة حتى أستطيع أن اشتري كيلو لحم!**».

وأما الحديث عن التفاوض مع الصرب وإنهاء الحرب فالقادة البوسنيون يقولون أن الصرب متغطرسين ويريدون إنهاء الأمور عسكريًا لأنهم يرون أن الكفة في صالحهم، وأنهم لن يدخلوا في تفاوض جاد إلا إذا حصلت الموازنة بين القوىٰ، أو كما يقول علي عزت بيجوڤيتش في المقابلة مع أحمد منصور: «**هذا العالم لا يزال غابة حيث يسود فيه قانون الأقوى، وبالتالي يجب أن تكون قويًا حتى يتركوك تعيش آمنًا بسلام**».

وفعلًا ما إن تحققت معارك بدر البوسنة، ومعركة الكرامة وكذا الفتح المبين، وتغيرت دفة المعركة وبدأ الصرب بالاندحار إلا وبدأ قادة الغرب بالضغط الجدي والفوري على الصرب من أجل القبول باتفاقية دايتون التي أنهت الحرب في البوسنة.

فحقًا كما قيل: «إن العالم لا يحترم إلا أصحاب الأقدام الثقيلة!».

وتكلم أحمد منصور كذلك عن المؤسسات الغربية ودورها المشبوه والخفي في البوسنة، والتي أحاطت نفسها بشيء من السرية، وعن تركيزها على النشاطات الثقافية والتعليمية حصرًا من أجل تغيير ثقافة الجيل الناشئ من البوسنيين. وتكلم عن المؤسسات الإعلامية البوسنية في التلفاز والإذاعة والصحف وعن تنوعها وتوجهاتها وأبرز مشاكلها. وتكلم عن صحو الصحوة الإسلامية التي دبت في الشعب البوسني، فالهجمة الصربية والكرواتية لم تحصل إلا لأن هؤلاء مسلمون فتم قتلهم واضطهادهم من أجل دينهم، وهذه الهجمة لم تجعل هؤلاء يتحللون من دينهم خوفًا على أنفسهم بل على العكس رجعوا إلى دينهم بعد أن كانوا مسلمين بالاسم، فزاد رواد المساجد من الشباب بعد أن كانت حكرًا على كبار السن، وامتلأت مراكز تحفيظ القرآن عن بكرة أبيها من الجنسين، وارتدت النساء والفتيات الحجاب بعد أن كان مهجورًا.

فالكتاب يعطيك شيئًا أشبه باللمحة عن الوضع البوسني ويمكن أن تتوسع لاحقًا بقراءة مراجع متعددة، والكتاب رغم عدد صفحاته إلا أنه من القطع الصغيرة ويمكنك إنهاءه في جلستين لسهولة لغته وبساطته.

١٩ أكتوبر ٢٠١٨م - ٩ صفر ١٤٤٠هـ

صفحات من تاريخ الحركة العمالية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: صفحات من تاريخ الحركة العمالية.**
- **اسم المؤلف: عبد الله مطيويع.**
- **عدد الصفحات: ١٧٦.**
- **دار النشر: دار الكنوز الأدبية.**

التعليق والمناقشة:

لا شك أن الأحداث المرتبطة بالحركة العمالية لعبت دورًا سياسيًا مهمًا في كبريات الأحداث في تأريخ البحرين السياسي في القرن العشرين، فمثلًا انتفاضة الغواصين في العشرينيات هي إفراز الحركة العمالية ضد أرباب الأعمال، وأحداث الخمسينيات (هيئة الاتحاد الوطني) ضمنت المطالب العمالية ضمن تحركاتها، وانتفاضة مارس ١٩٦٣ حصلت بسبب الحركة العمالية والطرد الجماعي للبحرينيين من شركة بابكو.

والأحداث التي يتكلم عنها المطيويع في كتابه هذا حصلت في مطلع السبعينيات وقد كانت الخبرة التي تحصلت لدى البعض في الأحداث الأخيرة ساهمت بشكل ما في تحريك إضراب السبعينيات، فمثلًا حرص العمال على سلمية تحركاتهم وعدم إقحام الحركة الطلابية ضمن مسيراتهم والاتكاء على مواد القانون وجعل تحركهم علنيًا غير سري، أي اتخذوا كافة الأسباب التي تمنع قمعهم كما حصل سابقًا.

وهنا يجب الإشارة إلى أن قانون العمل والعمال (رغم ما فيه) إلا أنه كان نتاج مجهود هيئة الاتحاد الوطني في الخمسينيات، وقد وضع ضمن قانون الدولة واعترفت به، ولكنها لم تعمل به، أعني

الجزئية المتعلقة بحرية إنشاء النقابات (الباب الثالث، مواد: ٤٦/ ٦٧)، فهنا أصبح لتحرك هؤلاء العمال حُجّة قوية وأمر محرج للحكومة، فهم لا يطالبون بإنشاء قانون جديد أو تشكيل وضع جديد وإنما يطالبون الدولة أن تعمل بقوانينها! فكانوا في موقف قوة وكانت لديهم الحجة.

تغير الأوضاع حصل في يوم الاثنين (١٣ مارس/ آذار ١٩٧٢) عندما تم اقتحام مسيرتهم من بعض المدسوسين، فقد تم قمعهم من قبل قوات مكافحة الشغب ثم قام هؤلاء المدسوسين بالمواجهة فاختلط الحابل بالنابل وأصبحت هنالك مواجهات من كلا الطرفين، فكان هناك سبب منطقي للدولة لإنهاء هذا التحرك ووأده في مهده، ثم حاولت الدولة أن تتفاوض مع هؤلاء ولكنها تعلم أن هؤلاء لا يثقون في أي أحد فجعلوا من يفاوضهم هو علي فخرو وهو وزير كان له توجه ثوري ولكن تغيرت أفكاره وآثر الإصلاح من الداخل.

وفي اللقاء أُخذت أسمائهم كونهم هم اللجنة التأسيسية للاتحاد العام للعمال حتى لا يتم التعرض لهم أو ملاحقتهم، ولكن البعض كون له خبرة وتجربة سابقة مثل المطيويع قال إن أخذ الأسماء ليس من أجل عدم التعرض لنا بل للتعرض لنا، فلا ينام أحدكم في بيته الليلة، وقاموا بتنفيذ النصيحة خلا شخص واحد وقد داهمت الشركة منازلهم جميعًا في الفجر. وهنا تكمن أهمية عدم الإفصاح عن هويتك الشخصية التي تدل عليك فتكون معرضًا للخطر. وهنا تكمن أن يكون لك منزل أو مكان تبيت فيه لا يفكر فيه من يطاردك؛ لأن من يطاردك سوف يراقب كل المنازل التي قد يتوقع أن تبيت فيها وهذا ما حصل فعلًا فمثلًا بيت جدي إبراهيم تمت محاصرته من قبل القوات الأمنية وكذا بيوت أقارب المطيويع.

وكما يجب أن لا تثق بشخص له تأريخ ثوري أو نضالي فتأريخه شيء وواقعه شيء آخر، ولا تحفل ولا تضرب اعتبارًا لوعوده، كما عندما يطلب الطرف الآخر أن تفك إضرابك فورًا حتى يتم التفاوض فاعلم أن الإضراب يألمه وأن هذا هو ورقتك الرابحة، فلا تساوم عليها البتّة.

بعد أن تم إلقاء القبض على أعضاء اللجنة التأسيسية رأى المطيويع أن يخرج من البلاد فخرج في ٢١ أبريل/ نيسان ١٩٧٢ وبعدها استمرت حقبة طويلة امتدت عقدين من المعارضة في الخارج من أجل حقوق العمال وتفعيل النقابات ونحو ذلك، وهنا تكمن أهمية وجود صوت مستمر في الخارج يبث قضايا الداخل في حمئة القمع فإن ماتت الأصوات فإن القضية تموت، وإن بقت الأصوات تغرد فتبقى القضية، وذكر شيئًا من المفاوضات التي كانت تحصل ونقاط الاختلاف عبر ملحق كتابه، ولم يتم الإصلاح نوعًا ما إلا عندما أتى الملك الحالي للبحرين، فسمح بإنشاء النقابات وتحسنت أحوال البحرينيين في القطاع الخاص نوعًا ما.

الكتاب هذا أشبه بالوثيقة التأريخية، ولكن كنت أتمنى أن بعض الملاحق يتم دمجها مع الفصل الأول مع الكتاب (لأن الكتاب ٤٥ صفحة هو السرد والبقية هي مجرد ملاحق) وبعض الملاحق هي تكرار للسرد ولو قام المؤلف بدمج هذه الملاحق مع السرد وجعلها كأنها يوميات لقل التكرار.

وأحيانًا الشخص يحتاج إلى مساعدة في طريقة التوثيق والترتيب، فأحمد الشملان مثلًا كانت زوجته فوزية مطر هي من أعد شهادته وتأريخه فخرجت بمجلد ضخم جاوز الألف صفحة مرتب بترتيب جميل ومنسق بتنسيق رائع، يدل على علو كعب فوزية مطر في التوثيق، وياليت أن يكون لكل هؤلاء الرموز العمالية أو النضالية أشخاص كفوزية مطر حتى تكون شهادتهم بأفضل حلة.

١٩ أكتوبر ٢٠١٨م - ٩ صفر ١٤٤٠ هـ

الأوردي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الأوردي: مذكرات سجين.**
- **اسم المؤلف: سعد زهران.**
- **عدد الصفحات: ١٧٤.**
- **دار النشر: المركز الثقافي العربي.**

التعليق والمناقشة:

هو كتاب يصنف على أنه ضمن أدب السجون، والأوردي معناها: المعسكر، باللغة التركية، وهذا المعسكر خُصص للشيوعيين المصريين وافتتح لهم مرتين، مرة عام ١٩٥٤ حتى ١٩٥٦ والمرة الثانية ١٩٥٩ حتى ١٩٦١. وقد أُغلق في المرة الأولى على ضوء صفقة سلاح ما بين مصر والاتحاد السوڤيتي (ويبدو أن هذا هو اشتراط السوڤييت أو حسن مبادرة من قبل النظام الناصري). ونظام المعسكر كما يبدو أنه نظام تركي أو متأثر بالإدارة التركية، وذلك أن المصطلحات التي فيه مثل (يَمَكْ - جراية - شفخانة) كلها مصطلحات تركية ولها معانٍ أخرى مقابلة لها في العربية ولكن ظل الاستعمال لها جارٍ. والشيوعون عمومًا وغالبًا ما يُنقل عنهم أنهم مدللون منعّمون في السجون بالمقارنة مع الإسلاميين كما يقول محمد سليم حماد في كتابة (تدمر شاهد ومشهود)، أو من خلال ما اطّلعت عليه أنا على كتاب الدكتور طالب بغدادي في كتابه (حكايتي مع صدام). ولكن في هذا الكتاب ربما الصورة تختلف جزئيًا عن هذا النمط المعروف.

وهو أن التعذيب قد استمر بشكل دائم لا ينقطع حتى بعد الاعترافات وصدور الأحكام، وهذا ما دعا أحد السجناء ليتسائل ما الداعي لاستمراره وقد اعترفنا وتم الحكمُ علينا، والتعذيب أخذ أشكالًا متعددة، ولكن القاسم المشترك بها أنها كلها ضرب بالكرباج بشكل يومي، في كل برنامج

من برامج السجن سواء كان في التمارين الرياضية الصباح أو العمل في الجبال أو الانتظار لتناول الطعام، فظل الضرب والإهانة والشتم بكل قواميس الكلمات النابية لا ينقطع.

ففي ظل عنفوان الضرب والمبالغة فيه ثم التلكّؤ في العلاج والتباطئ بشكل متعمد أدى هذا إلى حالات وفاة داخل السجن، ولكن تأثيرها يكون محدودًا، بمعنى لو مات واحد اليوم فإنهم يخافون من أن يموت الآخر، فيعالجون الثاني فيشفى الرجل الثاني ويعود نشاطه ويزول مرضه ويعود إلى الحياة كل هذا بعد أن دفع الرجل الأول حياته ثمنًا! ولكن بعد فترجع ترجع حليمة إلى عادتها القديمة وكأنك يا أبو زيد ما غزيت كما تقول الأمثال.

والمؤلف سعد زهران اشتُهر كونه مترجمًا لبعض الأعمال الأدبية والسياسة والفكرية، وأيضًا معارض سياسي شيوعي، أُعتقل أكثر من مرة لنشاطه السياسي، ولكن لم يبدأ كتابه هذا بعرض كيف اعتقاله وما هي قضيته، بل بدأ من المنتصف إن صح التعبير، بدأ من وسط كلام السجناء وحوارهم مع بعضهم البعض، وأنا أنصح بقراءة الفصل الأخير (السجن) قبل الشروع في قراءة الكتاب؛ لأنه يشرح بعض المصطلحات الدارجة في الكتاب ويذكر أسماء الجلاوزة وأدوارهم، وهذا سوف يساعدك بدوره بفهم الكتاب جيدًا بدلًا من التكهن.

والعيش في ظل نظام السجن يغير من معايير الشخص للنظر إلى الأشياء، فيتخلى عن الرتابة والمثالية ويعيش بالحد الأدنى الذي يسمح له العيش ويتجاوز عن كثير بخلاف من هو خارج السجن، ويتجلى هذا مثلًا في حادثة بسيطة، وهي أن والدة سعد زهران أتت إليه بكوب شاي (وهو لأنه شيء نادر في السجن يعتبر شيئًا ثمينًا) ولكن قامت بكبه بعد أن رأت فيه ذبابة! وهنا ثارت ثائرة سعد زهران، فهو يقول رميتيه لأن فيه ذبابة؟ ونحن نأكل من «يَمَكِ» يوميًا وهو حساء أخضر من الخضروات الذابلة وعند صناعته يهجم عليه الذباب بكثافه فينغمس فيه، ولأن لونه أخضر داكن

فلا تستطيع أن تميز وجود الذباب، ورغم هذا فالناس تجاوزت هذا التحسس ويأكلون من هذا الحساء يوميًا رغم علمهم أنه يحتوي على الذباب.

والسجون عادةً وبالأخص في النظم القمعية تهيئ عادةً لسحق شخصية المعارضين نفسيًا بحيث تمنع أي معارضة سياسة مستقبلية لهم ولا يفكرون في ذلك حتى! وهذا لا يكون إلا بالإذلال والامتهانة والتحقير منهم أمام الناس، فالشيوعيين من منظرين واقتصاديين وأساتذة الجامعات كان بعضهم في حفلات التعذيب يُطلب منه أن يقول أمام زملائه السجناء أن اسمه ليس محمد بل خديجة. وإن رفض ضُرب بهمجية أمام من يعتبرونه رمزًا فيكسر هذا نفسيته مع استمرار دائم وإهانة دائمة، ونظام هُيأ لأن يكون السجين منهوكًا بشكل يومي، فأي معارضة قد يفكر فيها هذا الشخص إن خرج؟! هذا إن لم يكفر بالفكر كله ويعيش ضمن القطيع.

ومن صور الإهانة أن الأديب المعروف لويس عوض لما أتى السجن وكان يتكلم عن التأملات العريضة في الأصول القومية للحضارة المصرية والثقافة الهيلينية ومحاولًا أن يستشف من الفولكور المصري السرمدي منابعة الحضارية القديمة...إلخ، فتنبه له الشاويش عبد الحليم، فقال: «**طالما أنت مثقف وبتفهم تعال نريد مشورتك في كيفية فتح المجاري بعد أن سدت بالقاذورات**»!!

والتعذيب وسحق الأشخاص قد يُنَمّي النزعة الفردانية لدى الشخص، فتراه لا يفكر إلا في نفسه وخلاص نفسه وينعدم التعاون والوقوف يدًا واحدة، وهذا ظاهر في قصة عادل الذي طلب من زملائه أن يبادلوا أدوارهم بدوره في العمل على الجبل، إذ كان يحمل التراب الثقيل ويسير ذهابًا وإيابًا وهو يُجلد ويُضرب بكافة أنواع الضرب حتى تغير لون جلده، ومع ذلك لم يرد أحدهم أن يبدله - ولو لدورة واحدة فقط -، والكل يقول «نفسي نفسي!» وقد استمر على ذلك ذهابًا وإيابًا وسط سياط الضرب التي لا ترحم خمسين مرة!

ولغة الشتائم المعهودة والمقذعة والتي تصل إلى أقصى أنواع القذارة، تجعل من الشتائم العادية لغة مهذبة لدى السجناء، فيعجبون منها، مثلًا يقول سعد أن الشاويش أيمن قال لأحد السجناء - برقة غير مألوفة-: «**قوم يا واد يا بن الكلب، قوم الدكتور جِه، قوم يا خَوَلْ، الدكتور حا يكتب لك دوا**». فهذه الألفاظ أصبحت ألفاظًا رقيقة إن قيست بالشتائم المستخدمة؛ ومع التنبيه أن المؤلف سعد زهران لم يحجب الكلمات القذرة بل ذكرها كما صنع مصطفى خليفة صاحب كتاب (القوقعة).

وأيضًا يتسائل بعض السجناء إن كما نعامل هكذا بلا أي رحمة وإهانات وتعذيب وضرب دائم لا ينقطع لماذا لا نثور ونموت أو نُضرب عن الطعام أو أي مقاومة؟ وأظن أن هذا أمر من الصعب حصوله؛ لأنه يحتاج إلى إرادة جماعية، واتفاق جماعي، ولكن عدم حصول هذا الاتفاق وأخذ البعض بالرخصة يفشل أي عمل جماعي، فالذين سوف يأخذون بالعزيمة ويثورون قد لا يكون لهم أثر إن استمرت الغالبية من المتبقين في التفرج وكأن الأمر لا يعنيها، فإذن أمر لا يستحق العناء. وأحيانًا يكون الجواب هو أن العواقب سوف تكون جماعية فالذين أخذوا بالعزيمة لا يريدون أن يفرضوا رأيهم على من أراد الأخذ بالرخصة، وهذه سمعتها في برنامج دائمة عندما أُستضيف أحد سجناء سجن تدمر السوري وسؤالهم عن عدم ثورتهم في السجن رغم أنهم لاقوا ما لاقوه.

من الاقتباسات الجميلة:

- «**قد تعلمت أن كثيرًا من الأحكام العامة التي يطلقها الناس في انفعال إنما تكون وليدة حدث عارض قريب هز وجدانهم**». (صـ٨٨).

- «**آه الموت... كنا نعيشه ونتوقعه، ونخافه ونتمناه، ونتنفسه ونألفه، كان هو الخطر وهو الخلاص!**» (صـ١٠٩).

- «السجين السياسي عادةً شخص ذو صفة إنسانية واجتماعية مهذبة. بل إن فرط إحساسه بإنسانيته، وإنسانية الآخرين، هي التي دفعته إلى المخاطرة بحريته من أجل حرية الآخرين». (صـ١٥٤).

٢ نوفمبر ٢٠١٨م - ٢٣ صفر ١٤٤٠هـ

حصوننا مهددة من داخلها

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الأوردي: حصوننا مهددة من داخلها.**
- **اسم المؤلف: محمد محمد حسين.**
- **عدد الصفحات: ٣١٩.**
- **دار النشر: مكتبة ابن تيمية.**

التعليق والمناقشة:

أصل كتاب (حصوننا مهددة من داخلها) سلسلة مقالات كتبها في مجلة الأزهر جمعت في كتاب وتستطيع أن تعتبر كتابه الآخر (الإسلام والحضارة الغربية) مكمل لهذا الكتاب.

قضايا الأدب مرتبطة أحيانًا بشكل كبير بقضايا الفكر خصوصًا ما يتعلق بالهوية الثقافية، وأي محاولة اهتزاز لهذه الهوية وتصغيرها أو مسخها ينتدب هنا الأدباء الذين لهم انتماء قوي لثقافتهم للذود عنها.

كتاب (حصوننا مهددة من داخلها) تناول عدة قضايا في هذا الشأن ولكن نصف الكتاب تقريبًا تكلم عن دعوى رفاعة الطهطاوي وغيره للعامية، أي: الكلام بالعامية بشكل رسمي وأثر ذلك على الأمة - بشكل بطيء في تفتيت كيانها - فاللغة الإنجليزية كانت لهجة ألمانية ولكن تطورت حتى أصبحت مستقلة بذاتها، فالآن لا بُدَّ أن يكون هناك مترجم للإنجليزية من الألمانية والعكس رغم أن أصلهما كان واحدًا.

فهو يقول أن ترسيخ اللهجة المحلية أو العامية وجعلها لغة رسمية في البلاد (بحيث تكون لغة الخطابات الرسمية وفي البيانات والإعلانات الحكومية بدلًا من الفصحى) سوف يؤدي ببطئ إلى

تحول هذه اللهجة إلى لغة، ثم إذا كل دولة عربية نحت هذا المنحى (مع تعدد واختلاف اللهجات بينها)، فسوف تنقطع لغة التواصل بين شعوب الدول العربية في نهاية الأمر، وبالتالي (الهوية أو القومية العربية) سوف تتفتت إلى قوميات صغيرة ولن ينظروا إلى بعض على أنهم شيء واحد تجمعهم لغة واحدة وقضايا مشتركة ووطن واحد، وسوف يؤدي هذا أيضًا إلى الانقطاع عن تراث الأمة المتمثل في دينها وأدبها، وقد نحتاج إلى مترجمين لنفهم ماذا يقول القرآن وماذا يقول الحديث النبوي وكذا النظر في كتب الأدب ونحوه وسوف يصبح كل هذا أجنبي عنا بسبب الدعوى الممسوخة التي عزلتنا عن أمتنا وثقافتنا وهويتنا وأوجدت لنا هوية لقيطة وجدت للتو. وقد اهتم الدكتور محمد محمد حسين إلى هذه القضية وقد سمعت أنه أشرف على بحث (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) للطالبة نفوسة زكريا سعيد، وقد قرظ الكتاب شيخ العربية الأديب محمود شاكر.

وتكلم عن الاختراق الثقافي المتمثل في المؤتمرات وتوصياتها في التغلغل إلى المجتمعات وعصبها (الريف) وتغير أطباعه تدريجيًا، واللافت هنا أن الكثير منا لا ينظر بعين متفحصة ومحصصة لغايات هذه المؤتمرات وقد يأسره أو تأسره الشعارات البارقة التي قد تُخبئ في باطنها الشر وتضمره، فلا بُدَّ من الوقوف على الداعمين وما الغاية من دعمهم لمثل هذه المشاريع، وهل توصيات المؤتمر تتطابق ولو جزئيًا بالغايات التي قد توجست منها خيفةً من الداعمين؟

إذا كانت أمريكا والدول الغربية مستفيدة من تخلفنا وإبقائنا في المؤخرة، فهل مساهمتهم في المشاريع التي تدعو إلى الارتقاء بمجتمعاتنا من الناحية التعليمية دعوة صادقة أم أن الارتقاء المقصود هو أمر آخر ولم يُستخدم هذا المصطلح إلا للتعمية؟ يعني لا يعقل أن تساهم هذه الدول الارتقاء بالدول المتأخرة وجعله في مستوى الند معها، فهل يعقل مثلًا أن تقم هذه الدول بتعليم الدول المتأخرة كيفية استخدام السلاح النووي وامتلاكه؟! من باب الارتقاء بالقدرات العسكرية أم أنها لم تعطينا إلا

الخردة من السلاح رغم أنها تستخدم عبارات (التعاون المشترك ورفع الجاهزية العسكرية ونحو ذلك) التي لا تغير من الواقع شيئًا.

ويرىٰ الأستاذ محمد محمد حسين أن وزارة التربية والتعليم والمؤسسات التعليمية هي أهم وأخطر المراكز في آن واحد، لأن أهم ثروة تمتلكها الشعوب هي الثورة البشرية وهي مقدمة علىٰ غيرها من الثروات؛ لأن العقل البشري هو الذي يستخرج الثورات التي في الأرض ويحولها أو يستخدم الاستخدام الحسن، فإن لم يكن العقل البشري يعرف هذا فلن تكن هنالك أي أهمية لهذه الثروات الموجودة في الأرض، فإذن إفساد مراكز التعليم هي مراكز مهمة فلا بُدَّ أن ترتقي أو تستثمر الثروة البشرية وتجعلها ثروة منتجة في خدمة المجتمع.

ويرىٰ كذلك أن خطر الأفكار المنحرفة قد يكون ضئيلًا إن كان صاحبها لا يملك المنصب التعليمي ولكن يصبح خطرها أشد وأكبر إن كانت المؤسسات التعليمية في يد أصحاب هذه الأفكار، وعمدوا إلىٰ استخدام هذه المنصات لبث أفكارهم وتلقينها للجيل الناشئ، وضرب مثلًا بـطه حسين مثلًا وفترة كونه عميدًا لكلية الأدب.

وتكلم في خاتمة الكتاب عن الإرهاب الفكري الذي قد يستخدمه هؤلاء ضدك إن استخدمت منصبك لإبطال الباطل وإحقاق الحق في قضايا لا تحتمل الخلاف ولا الجدال مثل إبطال شهادة الماجستير الطالبة تغريد لبحثها (دراسات في أصوات المد في التجويد القرآني) لنفيها التواتر اللفظي في آيات القرآن وأن احتمال الرسول قد بَدَّلَ بعض الكلمات وكذا فعل الصحابة من بعده، فالقرآن ليس منزلًا من عند الله بلفظه وإنما بالمعنىٰ والمعنىٰ يتغير من حين إلىٰ حين ليصل إلىٰ المعنىٰ المطلوب، فما هو مناسب في جيل قد لا يكون مناسبًا لجيلٌ آخر، وهذه بلا شك قمة في الزندقة، فأوقف الدكتور محمد محمد حسين نيلها لشهادة الماجستير فشنت عليه حملة عاتية أنه ضد البحث العلمي وأنه كذا وأنه كذا... والغريب أن هذه الحملة لم يشترك فيها العلمانيون وحدهم، وإنما أُضيف لهم

بعض المشايخ والمفتين وقد ضمّن أسمائهم وألحق الكتاب بشيء من المراسلات حول تعقب هذا الكتاب وبيان أخطائه العقدية وما يترتب عليه، ليثبت أن البعض يوما ما قد دافع عن بحث يهدم الدين وهو يزعم المشيخة أو أنه دافع عن بحث لا يعرف مضمونه، وكل هذا ينبئك بضرورة أن يُزاحم أصحاب الهم والتوجه الإسلامي للمناصب العليا في الدراسات الجامعية وغيرها، حتى لا يستفرد غيرهم بها ويبث بها أفكاره، وأظن لولا وجود الدكتور محمد محمد حسين لأعطيت شهادة الماجستير لهذه الطالبة ولمضى الأمر.

وهذا الكتاب رغم قلة صفحاته إلا أنه دسم وتناول مواضيع متعددة مثل النسوية والدعوة إلى الجنس والجامعة العربية ولجنتها الثقافية وغيرها من الموضوعات، والكتاب يستحق أن يُقرأ مرة ومرتين، ويلخص كل فصل لحدة أو على الأقل يلخصه كل شخص لنفسه، فإنه في كثير فائدة. وأنا قد قرأته قبل فترة ولكن لم أكتب ملخصًا عنه وتباطئت حتى أني أكتب الآن موجزًا – مخلًا – للأسف، وربما يعيب على المؤلف إيمانه بقضايا برتوكولات بني صهيون، ولكن هذا الإيمان لا يؤثر على نقده لمجمل القضايا المطروحة في الكتاب؛ لأنه ينقدها من مصدرها الأصلي (أي من كتب الذين ينتقدهم أو من كتيباتهم أو تصريحاتهم وأقوالهم) دون الحاجة إلى الاعتماد على مصدر وسيط غير موثوق وفيه خلاف مثل برتوكولات بني صهيون.

١٦ نوفمبر ٢٠١٨م – ٨ ربيع الأول ١٤٤٠هـ

رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الأوردي: رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان.**
- **اسم المؤلف: غسان كنفاني.**
- **عدد الصفحات: ١٧٦.**
- **دار النشر: دار الطليعة للطباعة والنشر.**

التعليق والمناقشة:

كتاب (رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان) من الكتب التي أثارت ضجة، لأمرين: توقيت النشر (أثناء مفاوضات أوسلو) والشخصية المرسلة ورمزيتها - أي غسان - ثم تعقيب جمهرة كبيرة من الأدباء والنقاد عليها. جميع هذه الأمور رفعت من أسهم الكتاب.

فالكتاب وجهت له انتقادات من قبيل أن إبراز جانب العاطفة لدى غسان كنفاني يهدم أو يسيء إلى الجانب الثوري من شخصيته والذي عُرف بها حتى اغتيل على يد اليهود أو الموساد؛ والحقيقة أن إظهار الجانب العاطفي لا يقدح في شخصية المناضل والمجاهد، فالذي خاض ٢٩ غزوة وقاتل وأصيب حتى نزف وجرح لما سُئل من أحب الناس إليك أمام جمعٍ من العرب الأقحاح ذكر اسم زوجته، ولا أظن أن قضية إبراز الجانب العاطفي هي المشكلة لدى النقاد - أعني في أصلها - وإنما كان في مضمون خطابها وما حوته وانطوت عليه هذه المراسلات من تقبيل أو لعق للأقدام - إن جاز التعبير-، فأظهرت غسان بمظهر المستجدي الراجي الساجد عند عتبة غادة، يطلب ودها ويرجو رضاها، وهي تقابله بالصد والتجاهل والبرود وربما اللامبالاة.

فخلال سنتين (وهو عمر الرسائل) - رغم أنها لم ترد متسلسلة حسب التسلسل التاريخي فرسالته إلى أخته كانت في خاتمة الكتاب رغم أنها يفترض أن تكون في مقدمة الكتب كونها أقدم الرسائل -، ولكن خلال هاتين السنتين كان غسان يطارد ظلها ويرجو وصالها، دون أن يلاقي أي رد يتوافق أو يكافئ المشاعر المتوقدة لديه، وخلال هاتين السنتين تغيرت لهجة الخطاب فيما أرى، من إظهار للمشاعر إلى لغة عتاب ولوم.

الأمر الآخر الذي رأى البعض أنه مسيء لغسان بعد لغة التذلل عند قدم غادة هو وضعه الاجتماعي، فغسان رجل متزوج وبَقي سنتين يطارد فتاة ويبادلها الحب ويتغزل بها، وهو شيء أشبه بالخيانة الزوجية، ومن الأمور المستقبحة في هذه الرسائل هي رسالته إلى أخته وذكرِهِ لها أنه يحب غادة بينما لا يحب زوجته - أي أنه بالضرورة قدم غادة على زوجته -.

والجانب السلبي الآخر هو بعيد المدى، فهذا يقدح في شخصية الأب أمام أبنائه، فإن قال قائل لهم بعد حين أن «والدكم لم يكن سوى خروف، وأنه لم يتزوج والدتكم إلا هروبًا من واقعه ومن أجل أن ينجب منها الأبناء لا عن حب ولا عن علاقة حقيقة، وأنه قدم عليها من لعق حذائها وتجاهلته!» أفلا يكون لكلامه ثمة مسوغ ومنطق بل ومرجع مثبت يستطيع أن يؤكد كل ما سبق.

جميع هذه الأمور تقدح في شخصية غسان، وتظهر أن الرسائل وإن أظهرت جانبًا مخفيًا منه إلا أنه جانب في نظري مسيء. أضف عليها أنه في فورة الحب تجاوز الخطوط الحمراء، ولم يضع اعتبارًا أو حدودًا لما يكتب، فقال مثلًا: «**إن الله إنما وضعني بالمصادفة في المكان الخطأ لأنه فشل في أن يجعل عذابه الطويل الممض وغير العادل لهذا الجسد ينحني ويموت**». (صـ١٦)، فهو يقول أن الله قد فشل، ونسب الفشل إليه بينما هو الذي [**إِنَّما أَمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أن يقولَ لَهُ كُنْ فَيَكون**].

وكذا قوله: «**عزيزتي غادة.. يلعن دينك!**» (صـ٤٧)، رغم أنها في مقدمة الرسالة ذكرت انتسابها للإسلام. هذه من القوادح والموبقات المهلكة التي وجدت في الرسالة ولم أقرأ في الملحق النقدي

الذي كتبه ٢٢٠ كاتب وكاتبة أي لفت انتباه لهذه القضية رغم خطورتها، فالأديب غير مرفوع عنه القلم وهو محاسب بالضرورة لما يكتب.

كذا من المهم القول أن لغادة مكانتها في الأدب، وصنعت لنفسها مكانة، ولكن ليست لديها رمزية مثل رمزية غسان كنفاني، إذ معلوم أن الشخص الذي يقتل في سبيل قضية، إلا ويرتفع عن مقامه الحقيقي ويخلد كرمز، وقس على ذلك سيد قطب وآخرين غيره، إذن هنالك فوارق مقامية بين الشخصيتين، وأظن أن نشر هذه الرسائل لم يكن إلا تسلقًا على ظهر صاحب الرمزية من أجل زيادة الارتقاء بعد أن قوبل بالصد والتجاهل واللامبالاة في حياته. وإني لأفهم لو كان هذا النشر بعد أن كانت هنالك ثمة علاقة حب من طرفين - لا من طرف واحد - فيكون نشر هذه الرسائل تخليدًا لذكراه، ولكن لا أفهمه إن كان النشر من الطرف المتجاهل دهرًا والذي لم يراعِ مشاعر هذا الحبيب وغدا يتلذذ بإنزافها ورش الملح عليها، سوى أنها تسلق واستغلال لشهرته؛ وأظن أن هذا ما حصل، فأصبح اسم غسان إلا ويرتبط باسم غادة بسبب هذه الرسائل.

وإن كان كذلك فبقيت مشكلة تغليف الحُجَّة لتبرير هذا النشر، فلم يكن أفضل من القول أنه محاولة لتوثيق الأدب بعد أن خرجت هذه الرسائل من كونها رسائل شخصية إلى كونها تاريخ يجب أن يأرخ ويأرشف! ومن سوف يحتج على هذا؟

وفي الختام أعتقد أن أدب المراسلات قد ولّى وانتهى في ظل الطفرة التقنية ووسائل التواصل الاجتماعي، فالتواصل الفوري يَعدم أي إبداع أدبي في المراسلة، فتكون المراسلة عبارة عن محادثات قصيرة وأشبه بالكلام العامي، ولكن تظل الرسائل الشخصية بمجملها تكشف الكثير في طياتها عن شخصية صاحبها، وتجعل الكثير من المواقف وتزيد من شرحها وتوضيحها، ومثل ذلك رسائل الرافعي لمحمود أبو رية، أظنها وضحت بعض مواقفه في قضايا معينة وبالأخص في المعارك الأدبية، وهي أمور تصح أن تكون حاشية أو هامش على المتن الأصلي.

وفي الختام أذكر معلومة هامشية: وهي أن غسان كنفاني مقاوم في أصله، ولا أعلم إن كان تحت المتابعة أو المراقبة قبل أن يكون مسؤولًا عن العمل الخارجي، ولكن على الأرجح أنه كان مراقبًا؛ لأنه حينئذ كان متحدثًا رسميًا باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكان من المهم أو من الضروري لمن كانوا في مكانه أن يتجنبوا ذكر تواريخ سفرهم وإلى أين وأين سوف يستقرون في رسائلهم الشخصية التي يسهل اعتراضها وسحب ما فيها من معلومات تفيد العدو المتربص بهم؛ ولكنه تحت حمئة الحب وعنفوانه كان يذكر مثل هذه التفاصيل التي قد تضره! وهذا من سلبيات الصبابة والعشق أنها تضر في الجانب الأمني للمقاوم بشكل أو بآخر.

٨ نوفمبر ٢٠١٨م - ٣٠ صفر ١٤٤٠هـ

حروبٌ قذرة: ميدان المعركة العالم

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: حروبٌ قذرة: ميدان المعركة العالم.**
- **اسم المؤلف: جيريمي سكاهيل.**
- **اسم المترجم: سعيد محمد الحسنية.**
- **عدد الصفحات: ٨١٨.**
- **دار النشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (حروبٌ قذرة) ويقع في ٨١٨ صفحة من ترجمة ونشر: شركة المطبوعات ومن تأليف: جيريمي سكاهيل وهو مراسل لمجلس الأمن القومي في مجلة The Nation وقد تصدر الكتاب قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا، وقد حوّل إلى فلم وثائقي ورشح هذا الفلم لجائزة الأوسكار وعدة جوائز أخرى.

وقد استغرق العمل على هذا الكتاب ٤ سنوات ما بين ٢٠٠٩-٢٠١٣، وقد تنقل المؤلف إلى عدة دول للقاء المسؤولين السياسيين والدبلوماسيين ورجال استخبارات وأمراء حرب ومعتقلين سابقين وشهود عيان وأهالي وأقارب ضحايا طائرات بلا طيار أو العمليات الخاصة الأمريكية في باكستان وأفغانستان واليمن والصومال.

واستند المؤلف إلى العديد من المراجع من: الوثائق والمقابلات والكتب والمقالات والمجلات والأبحاث والتقارير مما جعل نعوم تشومسكي يصف كتابه بأنه «تحقيقات صحافية مذهلة» أو كما

قال أيضًا الصحفي الأمريكي كريس هايس: «**لم ينجح صحافي مثله في العالم بإظهار حقيقة الحرب ضد الإرهاب بعهد أوباما. هذا الكتاب إنجاز باهر لا بُدَّ من قراءته مهما تكن توجهاتك السياسية**».

والمؤلف قد أصدر كتابًا مستقلًا عن شركة بلاك ووتر الأمنية الخاصة بعنوان: (بلاك ووتر أخطر منظمة سرية في العالم) وأيضًا هو من ترجمة ونشر: شركة المطبوعات، تستطيع أن تعتبره أنه جهد مكمل لهذا الكتاب أو توطئة له.

تكلم المؤلف في الابتداء بشكل مستطرد عن قضية (البيروقراطية الأمريكية) في اتخاذ القرار، وأنه بسبب التجارب السابقة مثل اتخاذ الرئيس - رأس السلطة التنفيذية - قرارات بشكل أحادي تمثلت في الغارات على لاوس وكمبوديا، والتنصت على مقر اللجنة الوطنية للحزب الديمقراطي في فندق وترغيت، ودعم الإطاحة بالرئيس الاشتراكي سلفادور أليندي المنتخب ديمقراطيًا والتسبب بموته، والتجسس الداخلي ضد مواطني الولايات المتحدة.

هذه تجارب جعلت المشرعين الأمريكان في الكونغرس يشنون حملة لتقيد السلطة التنفيذية، فألزموا الرئيس أن يقوم بالتشاور مع الكونغرس قبل إقحام القوات المسلحة الأمريكية في أعمال عدائية ويلزم الرئيس أن يبلغ الكونغرس خطيًا قبل ٤٨ ساعة من القيام بعمل عسكري استخباراتي، وشكلوا لجنة سميت باسم رئيسها وهي لجنة تشريش للتحقيق في انتهاكات السلطة التنفيذية وتمخضت هذه اللجنة عن تكليف لجان من الكونغرس للإشراف قانونيًا على عمليات الاستخبارات الأمريكية بما في ذلك الأعمال السرية، وقد أقر الكونغرس في وقت لاحق قانونًا يطلب فيه من البيت الأبيض تقديم تقارير عن جميع برامج التجسس إلى لجان الاستخبارات داخل الكونغرس.

وثم في زمن الرئيس كلنتون فرض آليات رقابية إضافية كما أنشأ نظامًا قضائيًا صارمًا للمصادقة على العمليات السرية المهمة، فاقتراح الرئيس لعمل سري ما يجب أن يذهب إلى وكالة الاستخبارات

المركزية ويراجع قانونيًا من قبل المستشار العام داخلها ثم عدة لجان داخلها لمراجعته قانونيًا أيضًا ثم يرجع إلى المستشار العام ليصدقه ثم يرجع إلى البيت الأبيض ثم يوضع الاقتراح أما فريق العامل المشترك بين الوكالات داخل السلطة التنفيذية، ثم بعد ذلك يدفع إلى الرئيس ليصدقه ويدخل حيز التنفيذ.

تجريد السلطات التنفيذية من العمل بشكل أحادي وإخضاعها لرقابة السلطة التشريعية، أثار سخط من يُسمون بـ«المحافظين الجدد»، فرأوا أن هذه البيروقراطية واللفة الطويلة لاتخاذ القرار هي خطر أشد من خطر الإرهاب نفسه، وقد صعد هؤلاء وتبوؤا مراكز في السلطة مع فوز جورج بوش في انتخابات عام ٢٠٠٠، وكان من أبرز وجوه هذا الفريق هم نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وضعوا خطة أو في أذهانهم خطة لتغير هذا الوضع، وجاءتهم الفرصة الذهبية مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فلما الكونغرس فوض الرئيس وأعطاه سلطات كبيرة في محاربة الارهاب ردًا على أحداث سبتمبر، فالكثير من هذه القيود قد زالت وأطلقت أياديهم.

فرمموا ما يسمى بـ«القيادة المشتركة للقوات الخاصة» وأصبحت قوة عسكرية واستخباراتية في آن واحد لا تخضع لرقابة الكونغرس، ولا تحتاج الإذن لعملياتها إلى هذه اللفة الطويلة، فكانت هذه القوة لا تخضع للإشراف ولا الرقابة ولا المسائلة وحتى لو اضطروا للذهاب إلى القضاء فإن إدارة البيت الأبيض سوف تستخدم حق امتياز «أسرار الدولة» لوأد الدعوة القضائية.

فالمؤلف ركز على هذا الذراع «القيادة المشتركة للقوات الخاصة» أكثر من تركيزه على «وكالة الاستخبارات المركزية»، لأن دورها خفي أكثر وسري أكثر، ربما بخلاف كتاب (حروب الظل) لمارك مازيتي، وأظهر تقاطع عمل هاتين الجهتين مع بعض والذي أدى إلى شيء من النزاع الداخلي لمحاولة طرف أن يهمين على الساحة ويحتكرها له، وأدى هذا إلى نجاة بعض المطلوبين مثل الدكتور

أيمن الظواهري فرصدته الأجهزة الاستخباراتية عام ٢٠٠٥ ولكن النزاع بين الطرفين -أيهما يقوم بعملية الاغتيال - أدىٰ إلىٰ إلغاء العملية واختفاء الظواهري عن أجهزة المراقبة إلىٰ يومنا هذا.

ولكن القيادة المشتركة للقوات الخاصة أبرز إشكاليتها أنها تعمل بشكل مستقل دون التنسيق مع الوكالة المركزية أو القوات النظامية التقليدية، وهذا يؤدي إلىٰ إفشال خطط وبرنامج هاتين الجهتين أحيانًا، فلما يكون الجيش يريد أن يحسن علاقته مع السكان المحليين كجزء من استراتيجيته، ثم تقوم القيادة المشتركة بعمل من طرف واحد استنادًا علىٰ مصدر استخباراتي مغلوط ويؤدي هذا إلىٰ قتل أبرياء أو قتل أحد أكبر المتعاونين معهم وأهله (كما ذكر في فصل: ليلة في غارديز) فهذا يؤدي إلىٰ تذمر الناس وغضبهم وهذا يؤدي بالضرورة إلىٰ إفشال خطط واستراتيجية الجيش نفسه.

وفي صفحات متأخرة من الكتاب أثبت المؤلف أن هذا التغير تم إقراره وأصبح محل إجماع بين الحزبين وأن كلاهما لا يريد أن يرجع الوضع كما هو سابقًا! وكيف أن الرئيس الديمقراطي أوباما الذي انتقد سلفه بوش كيف أنه لم يسر علىٰ طريقة فحسب بل زاد من آلية هذا العمل.

فأنت في ظني راح تستفيد بمعرفة دور الوكالات الأمنية الأمريكية وكيفية اتخاذ القرار وكيف تتداخل السلطات مع بعضها البعض وكيف يمكن أن تتملص سلطة من سلطة ما وتتحايل عليها، وكيف أن تجيش الرأي العام حول قضية ما مثل حصول تسريبات من السلطات العليا ولكن دون طرح أدلة باتهام أطراف ما باتهامات معينة دون أدلة حتىٰ لترسخ في أذهان النخبة والعامة «فلان إرهابي» وأنه «متورط في كذا وكذا» وتأتي الصحف وتنقل هذا الخبر من المسؤول الأمني في صفحتها فيتشكل الرأي العام علىٰ أن هذا الشخص لا بُدَّ أن يفتك به، دون أن تطرح هذه السلطة أدلتها أو تدينه وإذا جُرّت للقضاء استخدمت امتياز «أسرار الدولة» و«الأمن القومي».

فالمؤلف علىٰ ضوء هذه التصرفات يقول أن السياسة الأمريكية - من خلال سرده لأحداث الصومال واليمن وأنور العولقي - كلاهما أدت إلىٰ نتائج عكسية، فبدلًا من أن تقضي علىٰ الإرهاب

زادت من نشاطه، فالسياسة الأمريكية أعطت مفعولًا عكسيًا فضلًا أنها انتهكت القانون الأمريكي وتحايلت عليه.

فمثلًا – في الصومال – كانت حركة الشباب ذو التوجه الجهادي جزءًا بسيطًا من كيان اتحاد المحاكم وهو الكيان الحاكم للصومال بعد مرحلة أمراء الحرب، فمن أجل القضاء على الجهاديين الدوليين، أعطت أمريكا الضوء الأخضر لأثيوبيا لغزو الصومال وأمدتها وساعدتها، وسقطت حكومة المحاكم والوجوه المعتدلة فيها، وبرزت حركة الشباب قوةً كبرى ورأس حربة للدفاع عن الصومال أمام الغزو الأثيوبي وزاد نفوذها بشكل كبير جدًا، فبدلًا من أن تكحلها عمتها!

وأما – أنور العولقي – فكان شيخًا معتدلًا مناوئًا للتوجهات الجهادية، وكان يسكن في أمريكا وحثَّ المسلمين لانتخاب بوش، واستضيف بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في عدة قنوات وصحف من أجل تبييض صفحة المسلمين من هذه العمليات، واستدعي لحفل غداء في وزارة الدفاع البنتاغون، وحث المسلمين للتبرع ودعم ضحايا الحادي عشر من سبتمبر...إلخ ولكن تصرفات الحكومة الأمريكية ضد المسلمين في أمريكا واستخدامها غير المسوَّغ للقوة غير المبرر وإعطائها إيحاء أنها تعاديهم لأجل أنهم مسلمين ثم حصل بعدها غزو العراق، فتشكّلت قناعات لدى العولقي أن أمريكا ضد الإسلام نفسه وليست ضد الإرهابيين، ثم تصرفات مكتب التحقيق الفيدرالي مع أنور والتضييق عليه ثم حتى لما خرج من أمريكا لم يتركوه وشأنه وضغطوا على الحكومة اليمنية لتعتقله، كل هذا جعلهم يحولون هذا الشخص إلى أكبر محرض وداعٍ إلى الجهاد في العالم الغربي، وأغلب العمليات الجهادية أو العمليات التي أحبطت في الدول الغربية ترى أفرداها متأثرين بخطابات أنور العولقي وعلى سبيل المثال: عملية فاروق عبد المطلب ومحاولته إسقاط الطائرة في ليلة عيد الميلاد، وعملية الضابط الأمريكي نضال حسن الذي أقام مجزرة في الجنود الأمريكيين المتوجهين إلى أفغانستان؛ فَصَوَّرَ السياسة الأمريكية لمكافحة الإرهاب على أنها تزيد

الإرهاب ولا تضعفه. أي أنها سياسة فاشلة، ولكن لماذا صور الموضوع على أنه انتهاك للقانون الأمريكي؟ في حادثة أنور العولقي كان أنور مواطنًا أمريكيًا، يحق له المثول أمام القضاء وأن لا يحكم عليه بالإعدام وهو مواطن أمريكي إلا بعد حكم قضائي، ولكن الذي حصل أنه وضع على قائمة الاستهداف دون أي محاكمة، فهم يقولون لو تساهلنا في هذا الموضوع ومع هذه الصلاحيات في الابتداء، فقد تتوسع مع الزمن على أيدي الرؤساء اللاحقين، وقد يقتلوا الأمريكان تحت بند السرية ودون محاكمة، وطالما وضع على قائمة الاستهداف وقتل دون محاكمة فهو قتل غير أخلاقي وغير قانوني وزادت قناعتهم مع اغتيال عبد الرحمن العولقي (وهو مواطن أمريكي وابن أنور) وهو ليس له أي علاقة بالإرهاب أو الجهاد وقد قتل هو وأبناء عمومته بعد أن لعبوا مع بعض وكان في سن السادسة عشرة.

وأما موضوعات تداخل الدبلوماسية مع العمل السري الاستخباراتي، فتراه بارزًا في حديث المؤلف عن اليمن وباكستان، وأما اليمن، فهي سياسات علي عبد الله صالح التي تعطي الضوء الأخضر للتدخل الأمريكي المباشر في اليمن، مقابل مساعدات مالية، تقتضي هذه السياسة في البداية أن كلما يحصل قصف صاروخي أمريكي تدعي الحكومة اليمنية أنه منها لا من الأمريكان، فأعطت الضوء الأخضر للأمريكان لتسرح وتنتهك سيادة أراضيها وجوها وبحارها وثم تتحمل الحكومة اليمنية عقبات اللوم والعتاب لقتل المدنيين مقابل ملايين من الدولارات!! وركّز الكتاب على اللقاءات التي حصلت وما كشفته وثائق الويكليكس والتسريبات الإعلامية ليكمل واقع الصورة في اليمن.

وأما في باكستان فالموضوع مختلف، تقريبًا المؤلف تكلم في ثلاثة فصول بشكل مطول عن تضارب الأجهزة الاستخباراتية في باكستان ما بين جهاز الاستخبارات الداخلي الباكستاني ISI ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA وكلاهما جلس يضرب في الآخر من تحت الحزام، وذلك لظن الباكستانيين، أن دخول العملاء الأمريكان بأعداد كبيرة في باكستان هدفه ليس محصور في

محاربة الإرهاب، بل لمحاولة التجسس والإحاطة بالسلاح النووي الباكستاني، فهم ينظرون إليهم على أنهم تهديد محتمل، فيتعاملون معهم في مكافحة الإرهاب، ولكن علاقتهم متوترة وهذا التوتر أدى إلى كشف الطرفين للأسماء الحقيقية لرؤساء الاستخبارات من خلال التسريبات الصحفية.

والذي حصل أن الأمريكان تجسدت لهم قناعة أن العمل المنسق داخل باكستان مع الاستخبارات الباكستانية لا فائدة منه بل قد يضر ولا ينفع ولا بُدَّ من العمل من طرف واحد (وهذا حصل: مثل عملية أبوت آباد لاغتيال زعيم القاعدة)، وفي فصل (حصن أبوت آباد) تكلم المؤلف بشكل موجز ومختصر عن العملية التي نفذتها القيادة المشتركة للقوات الخاصة باغتيال زعيم القاعدة بن لادن، وكيف أن القوات العسكرية أعطت ترخيص لتدمير أي قوة باكستانية تعترض طريقها، وفي هذا الفصل وفي هامش صفحة ٦٦٧ نصح المؤلف بكتاب (No Easy Day) لـمارك أون، وهو أحد أفراد القوات الخاصة الذي شارك في عملية أبوت آباد، ووصفه بأنه «أفضل كتاب في هذا المجال لغاية الآن».

وفي فصلين عن (قضية رايموند دافيس) تكلم عن الأزمة الدبلوماسية التي حصلت بين البلدين بسبب صدام أجهزة الاستخبارات، قام عميل أمريكي بقتل اثنان من عملاء الاستخبارات الباكستانية، فحصلت أزمة سياسية بين البلدين، وبسببها علق عمل طائرات بلا طيار لفترة، وضغطت أمريكا ورمت بكل ثقلها من أجل استعادة جاسوسها، وأنت تقرأ هذا الفصل تذكر قصة القس الأمريكي أندرو برونسون والذي كان معتقلًا في تركيا، وكيف أمريكا فرضت عقوبات على تركيا من أجله رغم أن هنالك الكثير من المعتقلين الأمريكان في أنحاء العالم ولم تتخذ أمريكا معهم نفس الإجراء، وتستفيد أيضًا أن السفارات ما هي إلا منبع التجسس وغطاء له.

ربما ما يؤخذ على المؤلف أنه غير مجيد للعربية كما يبدو، فهو عندما يقف عند البيانات الجهادية يستشهد بمصادر وسيطة ترجمت هذه المواد وأحيانًا أخطأت فيها، أو أحيانًا قد أعطت صورة

ناقصة، فلما استطرد المؤلف مثلًا في ذكر سيرة فازول لكان من الأريح والأجدىٰ أن يذهب إلىٰ مذكراته التي نشرت بالعربية بعنوان: (الحرب علىٰ الاسلام) بدلًا من المصادر المترجمة أو الوسيطة ولا يذهب إلىٰ تلك المصادر إلا عندما يذكروا شيئًا غير موجود في المذكرات.

ترجمات شركة المطبوعات لم تكن جيدة لهذا الكتاب، ووقعت في أخطاء لا يقع فيها المبتدئ وأبسطها الخطأ في ترجمة أحد آيات القرآن كقولهم في الكتاب «**قال الله: ويلهم المؤمنين القتال**» والصحيح: [**حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ**]. و«**الذئب المنعزل**» والصحيح: «الذئب المنفرد». و«أبو شدا» والصحيح: «أبو شدة». والكثير من هذه الملاحظات. التي يبدو أن المترجم قصر نَفسهُ عن ترجمة كتاب ضخم كهذا فقام يترجم أي كلام، والمشكلة أن الكتاب أُخضع للمراجعة والتدقيق من قبل وفيق زيتون وخرج الكتاب بهذا الشكل، فكيف لو لم يكن مراجعًا؟ فذلك من كان يجيد الإنجليزية فمن الأفضل أن يقرأه بلغته الأصلية هروبًا من أخطاء الترجمة وتحريف المعاني.

الكتاب يعطيك انطباعًا أن لمعرفة ما يحصل في دهاليز الأمن في بعض الأمور لا يحتاج إلىٰ انتظار خمسين سنة لرفع السرية عن الوثائق؛ بل فقط تحتاج إلىٰ متابعة حثيثة لكبريات الصحف الأمريكية للوقوف علىٰ التسريبات، وعدم النظر إلىٰ الصحف وتسريباتها يعني أن الكثير قد فاتك وسوف يفوتك، فالنظر إلىٰ الصحف والوقوف علىٰ تقاطع التوجهات داخل أمريكا في هذه القضايا مما يجعل الطرف الآخر علىٰ علم كيف وأين يتحرك.

٨ ديسمبر ٢٠١٨م – ٣٠ ربيع الأول ١٤٤٠هـ

الرحيق المختوم

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الرحيق المختوم.**
- **اسم المؤلف: صفي الرحمن المباركفوري.**
- **عدد الصفحات: ٥١٢.**
- **دار النشر: دار المؤيد.**

التعليق والمناقشة:

(الرحيق المختوم) للمباركفوري من أبرز كتب السيرة النبوية المعاصرة، وتقع في ٥١٢ صفحة، والكلام في السيرة ذو شجون، ولكن لا شك أن قراءة السيرة مرة واحدة لا تكفي، بل هي من المواد التي تُقرأ مرارًا وتكرارًا، فالله يرشدنا ويقول: [**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**]، كيف نعرف هذه الأسوة حتىٰ نهتدي بها ونسير علىٰ أثرها؟ ذلك لا يكون إلا بمطالعة سيرته.

والتعليق علىٰ سيرة النبي ﷺ واستخراج الفوائد يطول، ويحتاج إلىٰ كتيب مستقل، فإن كان صفي الرحمن قد ضغط السيرة وذكر الشواهد وخرج بـ٥٠٠ صفحة (علىٰ خلافٍ بين النسخ) فأنت ربما تحتاج إلىٰ ٨٠ صفحة للوقوف علىٰ الفوائد من الأحداث. وهذا أمر قد دأب عليه كثيرون قبلي وأصبح من الأمور الطافحة التي ربما الكتابة فيها لن تضيف أي جديد.

ولكن جاء في ذهني التعليق علىٰ مقدمة السيرة أو أحداث ما قبل السيرة ومنهاجية الكاتب. وكتاب الرحيق المختوم يصلح أن يكون مدخلًا للسيرة النبوية. ولعلَّ الكتاب من أوائل الكتب التي قرنت بين التواريخ الميلادية والهجرية، ففي تعيينه لبعض الغزوات والسرايا تراه يقول مثلًا: «**سرية نخلة في رجب سنة ٢هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤م**».

ومطابقته بين التواريخ الميلادية والهجرية هي من قادته لتعيين يوم ٢١ من رمضان على أنه هو اليوم الذي أُنزل فيه الوحي، رغم أنه كما يقول هو نفسه: «**لم نر من قال به**»، واستند على هذا الاختيار لقرائن:

- ذكر خلاف العلماء في الأشهر التي نزل بها القرآن، ثم رجح أنه رمضان بدليل واضح وهو قوله تعالى: [**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**].

- ثم حدد أنه نزل في العشر الأواخر التي تكون فيها ليلة القدر، لقوله تعالى: [**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**].

- ثم حدد أن هذه الليلة لا بُدَّ أن تكون يوم الاثنين، واستدل بما جاء في صحيح مسلم لما سئل ﷺ عن صيام يوم الاثنين، فقال: (**فيه ولدت وفيه أنزل عَلَيّ**) وفي رواية: (**ذلك يومٌ ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه**).

إذن اجتمعت معه ٣ عوامل: يوم الاثنين في أحد أيام العشر من الأواخر وفي ليلة وترية في رمضان. هذه المعطيات والمقارنات قادته في النهاية أن يقول: «**ويوم الاثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا ٧-١٤-٢١-٢٨، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالي، فإذا قارنا بين قوله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وبين رواية أبي قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، وبين حساب التقويم العلمي في وقوع يوم الاثنين في رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان في اليوم الحادي والعشرين من رمضان ليلًا**».

وكذا استخدم المؤلف بعض المصطلحات المعاصرة لتبسط بعض الأمور الواردة في السيرة، مثل وصفه لدار الندوة بـ«برلمان قريش» فهي قد تعطي دلالة أوضح للمتلقي في عصرنا هذا.

واختلف تعاطي العلماء مع كتب السير، فهناك من أدخل علم الحديث فيه وحرص على ما يسمى بـ«صحيح السيرة» ولعلي اطّلعت على كتابين في ذلك أولهما للألباني وقد قرأت جزءًا منه، ولم يكن تأليف وإنما استدراك وتعقب لابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) وقد توفي قبل أن يتمه وتوقف عند الإسراء والمعراج ولكن قد يستفاد من تخريجه لكتاب (فقه السيرة) للغزالي أيضًا رغم أن الشيخ الغزالي عقب على استدراكات وتخريج الألباني في مقدمة طبعاته اللاحقة، وأما الكتاب الآخر فهو للشيخ إبراهيم العلي بعنوان (صحيح السيرة النبوية) - وله كتاب آخر قد قرأته له وهو صحيح أسباب النزول -، وقد عاب بعض المشايخ الآخرين التعامل مع السيرة كمثل التعامل مع الحديث، وقد قرأت هذا للشيخ عمر محمود في كتابه (فن القراءة) والمحقق بشار عواد في ندوة له إذ كان يذكر شيئًا من الأمور التي تبين أنه أخطأ فيها وكان هو حرصه على صحيح السيرة.

وأما الرحيق المختوم فهو لم يكن اختصارًا فقط ولم يقف على الصحيح فقط، ولكنه اجتهد في ترجيح الوقائع بناءً على القرائن، فمثلًا يقول لك أن سرية عيينة بن حصن الفزازي في قول أهل المغازي أنها حصلت بسنة ٩هـ نظراً «**لأن سياقها يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استرد رسول الله ﷺ سبايا بني هوزان: "أما أنا وبنو تميم فلا." وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية**»، فهذه قرينة ترجح الأقوال.

وكذا تعليقة على غزوة ذات الرقاع وقوله: «**وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة، ولكن مساهمة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما في هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول ٧ هـ**». فكانت مشاركة أبا هريرة وأبو موسى الأشعري هي القرينة التي رجح بها حصولها بعد السنة التي حددها أهل المغازي.

وكذا إذا تعارضت روايات أهل المغازي وما جاء في الصحيح - وهنا تقاطع بين السيرة والحديث - فإنه يُقدم ما جاء في الصحيح لأنه أثبت وأصح، وهذا المعنى أشار له المؤلف في كلامه عن غزوة

الغابة بقوله: «**وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي**» فمن أجل ذلك صنف أن هذه الغزوة كانت أول نشاط عسكري للمسلمين بعد صلح الحديبية على خلاف ما ذهب له جمهور أصحاب المغازي.

ولم أحبذ أن يعتمد الشيخ صفي الرحمن على كتب المعاصرين في التلخيص أو السرد فتراه يكثر النقل عن مصادر وسيطة مثل (محاضرات تاريخ الأمم) للخضري و(من قلب جزيرة العرب) لحمزة فؤاد وغيرها الكثير، وإنما يفضل أن يقف عليهم فقط مثل ما يصنع أحيانًا في قضايا «الترجيح والاستنباط» مثلًا يتحرى الحكمة من كون أوائل الآيات التي نزلت هي [**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**] من كلام سيد قطب في الظلال أو يستدل بترجيحات بعض المشايخ في تعينهم للحوادث ونحو ذلك.

وكان الأفضل الوقوف على المصادر الرئيسية مباشرة مثل سيرة ابن هشام وكتب التراجم وكتب التأريخ الأولى؛ لأن كل الكتب المعاصرة مجرد تلخيص أو استدلال بالمراجع الرئيسية فالاعتناء بها أهم، بالأخص أن بعض المراجع مثل كتاب (في قلب جزيرة العرب) لحمزة فؤاد وقبل الشروع في الفصل التاريخي قد ذكر كل مصادره وأول تسع مصادر هي مصادر رئيسة كان أولى الاقتباس منها.

فمثلًا قد أشار المباركفوري إلى أن ما بين عدنان وإبراهيم عليه السلام «**أربعون أبًا بالتحقيق الدقيق**» وقد أوعز هذه المعلومة إلى كتاب (رحمة للعالمين) للمنصورفوري، ولما رجعت إلى هذا الكتاب لم أجد تحقيقًا ولا حتى المرجع الذي استند فيه على هذا التحديد، بل هو مجرد إيراد وسرد، وأحيانًا يرجّح المباركفوري بعض الأمور بناءً على ترجيحات غيره دون أن تقف على علة هذه الترجيحات في المصادر الأصلية.

بخلاف لو وضع كلام ابن حجر وهو يذكر المصدر الأصلي لهذا التحديد في قوله: «**وقالت طائفة: بين عدنان وإسماعيل أربعون أبًا، قال: واستخرجوا ذلك من كتاب رخيا كاتب أرميا النبي، وكان رخيا قد حمل معد بن عدنان من جزيرة العرب ليالي بختنصر خوفا عليه من معرة الجيش." فأثبت**

نسب معد بن عدنان في كتبه، فهو معروف عند علماء أهل الكتاب، قال: "ووجدت طائفة من علماء العرب قد حفظت لمعد أربعين أبًا بالعربية إلى إسماعيل واحتجت في أسمائهم بأشعار من كان عالما بأمر الجاهلية كأمية بن أبي الصلت، قال: فقابلته بقول أهل الكتاب فوجدت العدد متفقًا واللفظ مختلفًا»[١١٨].

وكذا كان المؤلف ابن بيئته، فلا بُدَّ أن يستدل بالعلماء الهنود ويبصّر عينيك بهم وبآرائهم وترجيحاتهم، ولعلَّ تستفيد من هذه الإيرادات أكثر من إيرادات الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وذلك لأن الندوي كان ينقل عن العلماء الهنود والذي كان كثيرٌ منهم لم تُتَرْجَم كتبهم إلى العربية بل لم تُطبع بعد، بل كان ينقل أحيانًا من المخطوطات الهندية والفارسية، أما المباركفوري فعلى الأقل كان ينقل من بعض الكتب التي تستطيع أن ترجع إليها كون بعضها قد ترجم أو نشر بالعربية مثل كتاب صفي الرحمن المنصورفوري (رحمن للعالمين) وهو كتاب مترجم بالعربية وقد نشر بطبعة دار السلام وترجمة الدكتور سمير عبد الحميد وكذا كتاب (تاريخ أرض القرآن) للسيد سلمان الندوي من ترجمة محمد أكرم الندوي وطباعة ونشر دار القلم، وغيرهما من الكتب الموجودة في قائمة المراجع. ولكنه كذلك قد نقل من بعض الكتب الهندية غير المترجمة عربيًا مثل كتاب (رسول أكرم كي سياسي زنكدي) للدكتور حميد الله واعتمد على هذا الأخير في قضية رسائل الرسول إلى الملوك.

وكذا هنالك تعليق في الختام على أحداث ما قبل السيرة:

- قوله: «**ولما ولى اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على المسيحيين من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود، وأحرقهم بالنار، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال**

[١١٨] فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦/ ٦٥٨، ط: دار السلام.

الصغار والشيوخ الكبار، ويقال إن عدد المقتولين ما بين ٢٠ ألف إلى ٤٠ ألف، ووقع ذلك في أكتوبر سنة ٥٢٣م. وقد أورد القرآن جزءًا من هذه القصة في سورة البروج».

وهذا الكلام إن صح، فهذا يعني أنه ظل هنالك بقايا على ما كان عليه عيسى بن مريم عليه السلام حتى بعد مجمع نيقية الأول سنة ٢٠ مايو ٣٢٥م، وهو المجمع الذي ساهم في إيجاد المسيحية على الصورة التي هي موجودة اليوم، ولعل بقاء هؤلاء على الدين الصحيح لبعدهم جغرافيًا عن الأراضي المركزية للإمبراطورية الرومانية.

أما الحديث عن عرب قحطان وعدنان فهذا سوف نؤجله في حديثنا على رسالة الدكتور حاكم المطيري (أحكام النسب لقبائل العرب بين رواية التاريخ والعلم الحديث).

١ يناير ٢٠١٩م – ٢٥ ربيع الآخر ١٤٤٠هـ

عبيد بلا أغلال

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: عبيد بلا أغلال: مختصر الحرية وأزمة الهوية في الخليج والجزيرة العربية.**
- **اسم المؤلف: حاكم المطيري.**
- **عدد الصفحات: ٣٨٥.**
- **دار النشر: نسخة رقمية.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (عبيد بلا أغلال) للدكتور حاكم المطيري والواقع في ٣٨٥ صفحة. وأصلُ هذا الكتاب هو اختصار لكتاب آخر لم ينشر بعد باسم (الحرية وأزمة الهوية في الخليج والجزيرة العربية) والذي هو أيضًا ضمن موسوعة لم تنشر بعد عنوانها (دويلات الحملة الصليبية في الخليج والجزيرة العربية).

ومن طالع الكتب طبعًا سوف يَعْجَبُ لجرأة المؤلف، بانتهاكه جميع الخطوط الحمراء الموجودة في الخليج، في كلامه الحاد والصريح حول الحكّام والحكومات، ولم أستغرب عندما عَلمت أنه أُحيل إلى النيابة ولكن حكمت المحكمة لصالحه استنادًا لحق البحث العلمي، ولو كان في دول غير الكويت لكان إلى كتابة هذه السطور محبوسًا.

كتاب (عبيد بلا أغلال) يتمحور ببساطة حول التدخل الغربي في منطقة الخليج منذ القرن الثامن عشر، والذي تمخض في النهاية عن إنشاء ست دول خليجية بقرار بريطاني بعد أن أثبت الشيوخ ولائهم هذه عبر الوقوف مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وكيف أن تأسيس الدول الحديثة قسّم الإقليم الواحد الذي يضم قبائل واحدة ولغة وديانة وعادات وتقاليد

واحدة إلى ست دول وكيف أثّر هذا على القبائل المتناثرة بين الدول وكيف أن الدولة الحديثة مسخت وألغت النظام القبلي القديم. فهو بحث تاريخي في المقام الأول، ثم يذكر لك ما يترتب على هذا السرد من أثر على هوية الفرد في دول الخليج الذي أصبح بلا هوية واضحة.

ولكن هل يصلح أن يكون الكتاب مدخلًا لتاريخ المنطقة في مطلع القرن العشرين - خصوصًا أن المؤلف ركز على هذه الفترة أكثر من غيرها -؟ فحقيقةً لا أعلم، وإشكالية المؤلف في هذا الباب أنه صنف الكتاب حسب التصنيف الموضوعي في المقام الأول لا حسب التسلسل الزمني، فالأحداث ليست متسلسلة دائمًا، بل يتكلم حول موضوع معين ويستدل لك بشاهد قديم وجديد، وأحيانًا هذا الشاهد يتكرر أكثر من مرة تحت أكثر من تصنيف. وأحيانًا تكون فصول متأخرة وكان الأولى تقديمها، فمثلًا كلام الدكتور حاكم عن تقسيم الولايات والنظم الإدارية العثمانية، وتعريف الأقسام والتفريعات والمسميات، كان بعد فصل (الحملات الصليبية على الخليج والجزيرة العربية).

أي بعدما مرت معك هذه المصطلحات وأنت لا تفهم دلالتها أتى الفصل اللاحق ليشرحها لك، وهذا قد يكون له وجه ولكن الأولى أن تطرح منذ البداية حتى يكون كل شيء مفهوم من البداية.

وكما أن نسب الفهم قد تتفاوت نوعًا ما للشخص الذي يعيش في هذه المنطقة أكثر من غيرها، فمن كان لديه معرفة حول القبائل في الخليج سوف يكون ذهنه أكثر حضورًا من الشخص الذي قد لا يستوعب هذه التفاوتات والتداخلات بين القبائل وبين أفراد القبيلة الواحدة؛ فعلم الأنساب أحيانًا يُجلي لك التاريخ ويجعل مقدار فهمك للأمور أكبر.

وكما يقول الأستاذ عمر محمود أن القراءة تَجُرُّ القراءة، فمثلًا أثناء قراءتك لهذا الكتاب سوف تنفتح شهيتك لبعض الكتب التي يكثر الاستدلال بها والتي كنت لا تعرف قيمتها قبل ذلك، وأكثر كتاب استدل به المؤلف هو (سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط الجديد) للمؤرخ الأمريكي ديفيد فرومكين (وهذا الكتاب ترجم ترجمتين، الأولى: (سلام ما بعده سلام) وقد صدر من دار رياض

الريس، والثانية: (نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط) وصدرت عن دار صفحات للنشر والطباعة، والترجمة الأولى أضبط وأجود وكاملة حسب قول البعض إذ أنها تفرق عن النسخة الثانية بـ٣٠٠ صفحة تقريبًا).

وبعض المراجع الموجودة في الكتاب قد تستغرب منها، فمثلًا صاحب الكتاب يتكلم لك عن أحداث حصلت في مناطق مثل السعودية أو العراق ومع ذلك يستدل لك بكتاب يتكلم عن تاريخ الكويت والعكس بالعكس، إذ كان تاريخ المنطقة متداخلًا مع بعضها، خصوصًا قبل رسم الحدود، فالقبيلة قد تستقر في الصيف في مكان وفي الشتاء في مكان آخر، وتتنقل بين البلدان أثناء المواسم، وخلال تنقلها يحصل نوع من الإغارة والاشتباك هنا وهناك، فتجد أن في كتب التاريخ مذكورة في تاريخ أكثر من دولة. كما لهذا التداخل أسبابه الطبيعية من تفاعل الدول مع محيطها الإقليمي، ومحاولة تأثيرها به.

بعض أحداث الكتاب وبالأخص الأحداث التاريخية تستفيد منها في أمور، وهي أن الشيخ مهما بلغ من الإمامة في العلم الشرعي يجب أن يحيط بواقعه السياسي حتى لا يظهر بمظهر سيء أو قد يُـفتي فتوى خاطئة لها تبعات خطيرة، مثلًا أثناء الدولة السعودية الثانية حصل اقتتال بين الأخوين على السلطة وهما عبد الله بن فيصل وسعود بن فيصل.

فالأول وهو عبد الله تابع للدولة العثمانية وقد أعطى لها الولاء، وقد اعترفت به الدولة العثمانية قائمقام على نجد! وكان قد طلب من العثمانيين أن يصبح قائمقام بعد وفاة والده وتوليه السلطة بدلًا عنه.

وفي المقابل فقد تدخلت بريطانيا عن طريق شيخ البحرين لتقديم الدعم لسعود بن فيصل ليصل إلى السلطة – حسب الوثائق العثمانية – وأما في مذكرات مدحت باشا فقد نص أن سعود توجه إلى الهند للاستعانة بالإنجليز وأن الإنجليز يعاونونه بالمال والعدة.

إذن ماذا كان موقف مشايخ نجد حينئذ؟! ذكروا أنهم تبرأوا من عبد الله لما استعان بالعثمانيين وذلك لموالاته والتحاقه بالمشركين وإسناد أمر الرئاسة لهم، وأن سعود بعدما تغلب أصبح هو الإمام، وأن الجهاد معه ضد عبد الله أمر مجمع عليه! حسب ما ذُكر في مجموعة الرسائل النجدية. وهنا لنفترض أنَّ سعود بن فيصل ليس مدعومًا من الإنجليز، ولكن المشايخ هنا ظهروا بمظهر من لا يعرف أن إمامهم السابق عبد الله بن فيصل تابع للعثمانيين أو حتىٰ طلب أن يكون تابعًا لهم منذ البداية! ولكن لو ثبت أن سعود بن فيصل مدعوم من الإنجليز حتىٰ تحقق إنجلترا نفوذها وأهدافها من خلاله، فكانت أيضًا فتواهم تدعم في النهاية الإنجليز.

أحيانًا إن لم نبصر موضع أقدامنا في السياسة، فقد نخدم العدو من حيث لا نشعر.

وأيضًا مما يُستفاد من السرد التاريخي، بعض المواقف اللحظية قد تكون خسارة جسيمة في وقتها، ولكنها في الأجيال اللاحقة تكون وسام عز ليس للفئة التي ينتمون إليها، بل للمنطقة كلها، فمثلًا قبيلة القواسم – الإماراتية – وقبيلة آل بو علي – العمانية - كانتا أول من تصدىٰ للتدخل البريطاني في المنطقة، وقد خاضوا حرب تكسير عظام مع البريطانيين قاتلوا ببسالة، وقد انتصرت بريطانيا في النهاية لتفوقها العسكري ولتحالفها مع بعض شيوخ العشائر في المنطقة والذين كانوا لها جند محضرين مثل السلطان سعيد (سلطان مسقط)، وصحيح أن الخسائر جسيمة مثل تدمير الأسطول البحري للقواسم وهو كان أقوىٰ أسطول بحري في الخليج وجلاء قبيلة آل بو علي، وقد يقول البعض آنذاك أنهم ضيعوا أنفسهم، ولكن القارئ الحالي قد يقول لولا هؤلاء لقيل أن المنطقة سلمت دون مقاومة، وأن الناس كانت خاضعة خانعة لم تجرأ أن تطلق طلقة واحدة علىٰ من أراد أن يستعبدها، وأن شعوب العالم قاومت مُحتلها إلا نحن، وأن احتلالنا كأكل اللقمة السائغة.

فالمقاومون وإن لم ينجحوا في عصرهم، فإنه ينظر إلىٰ الكثير منهم علىٰ أنهم أبطال في وقت لاحق، وأنهم قاموا بما يجب عليهم القيام به والذي تخلف عنه أغلب الناس. بل وقد يحترم المحتل خصومه

هؤلاء أكثر من الذين أظهروا لهم الطاعة وانبطحوا لهم، «**وإذا كان ثمة طرف له الحق في الفخر – برأي كيلي – بنتيجة الحملة فهو قبائل بو علي أنفسهم لدفاعهم الباسل عن أراضيهم ومواطنهم، وهذا هو ما اعترف به أعضاء مجلس شركة الهند الشرقية عندما اجتمعوا لتقييم نتائج الحملة**».

ومما يلاحظ أن التاريخ يتكرر، فقط الأسماء تختلف، ولما قامت الحرب العالمية الأولى وأعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية، قام حاكم الكويت آنذاك المتحالف مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية بإغلاق الجمعية الخيرية التي كانت في صف الدولة العثمانية وطُرِدَ العلامة المفسر محمد أمين الشنقيطي لأنه كان يعظ الناس في المساجد، محذرًا من خطورة الوقوف مع بريطانيا.

ثم نفر الشيخ الشنقيطي للجهاد في العراق ضد البريطانيين، وقاتل ضمن حلف المنتفق، فلما انهزم المجاهدون آنذاك، استقر في القصيم واستمر في التحريض ضد بريطانيا، فلما علم ابن سعود بأمره طلب منه في رسالة أن «**لا يفرط في إثارة الحماس الديني ضد الإنجليز، كما فعل في الكويت والعراق**»، فقد أراد بذلك «**عدم إثارة المواضيع السياسية، ولو باسم الدين، وأن لا يتعرض خصوصًا للإنجليز**».

فضاق ذرعًا من هذا الحصار، ورجع إلى الكويت فاستقبله سالم الصباح شر استقبال ولم يكتفِ بذلك بل أخبر البريطانيين بوجوده في الكويت، فخرج منها إلى الزبير خائفًا يترقب. ونفس الدول في وقت لاحق خذت إجراءات أشد ضد كل من حاول الوقوف فعليًا أمام احتلال الأمريكي للعراق.

وقد أورد الدكتور حاكم المطيري في جون كيلي في كتابه (بريطانيا والخليج): «**فالإباضيون – كما يقول المؤرخ كاريستين ينبهور في زيارته لمسقط سنة ١٧٦٥م – لا يقرون نظرية الحاكم الدائم، وفي رأيهم أن الإمام المنتخب لا بُدَّ أن يتولى الإمامة عن طريق الانتخاب في كل مرة، ولا يحق لأي أسرة أو طبقة أن تحتكر الحكم لنفسها بالوراثة، ومن حق أي فرد، مهما كانت طبقته أو وضعه الاجتماعي أن**

يتولى مسؤولية الحكم، إذا توافرت فيها الاستقامة الدينية والأخلاقية، ومن واجب المسلمين الصادقين أن يقوموا بإقالة أو إعلان بطلان شرعية أي حاكم لا تتوفر فيه خصائص الإمامة الصحيحة، ومن حق المسلمين خلع إمامهم عن السلطة إذا لمسوا فيه انحرافًا أو خروجًا على تلك المبادئ، أما عملية الانتخاب فتتم عن طريق مجلس مشترك من زعماء القبائل ورجال الدين».

فعلق المطيري وقال: «**وهذا أوضح دليل على معرفة شعوب المنطقة وممارستها للحكم الشوري الانتخابي، وحق الأمة في انتخاب السلطة، قبل الثورة الفرنسية ومبادئها، وقبل الاستعمار الصليبي البريطاني الذي فرض على المنطقة الحكم الوراثي ورسخه بحمايته له**». بل حتى النظام القبلي والعشائري لم يكن نظامًا وراثيًا بقدر ما كان يقوم على الكفاءة وقبول العشيرة أو القبيلة بالمترشح الجديد، ويقول حاكم: «**كما لا تعرف القبيلة نظام التوارث في المشيخة، بل لا يشيخ فيهم إلا من اختاروه شيخا لهم لكفاءته، حتى إذا ضعف وعجز عن القيام بمسئولياته، وتصدى لها من هو أكفأ منه انتقلت المشيخة إليه، فتنتقل من بيت إلى بيت، ولهذا يتقدم لقيادة القبيلة العربية الأكفأ والأقدر حين ترضاه القبيلة**».

فالشاهد من هذا كله، أن نظم الحكم والسيادة في بعض دولنا وفي عشائرنا في الخليج قبل قدوم الاستعمار أفضل حالًا من فترة تواجده وما بعد خروجه، فالاستعمار احتج بأننا شعوب متخلفة لا نعرف كيف ندير أنفسنا، ولكن بدلًا من أن يتقدم بنا إلى الأمام أرجعنا إلى الخلف من خلال النظم الوراثية التي لا تقوم على الشورى ولا على الرضى ولا على الكفاءة بل على الجينات الوراثية فحسب.

فالشاهد أن الدكتور يرى النظام المستجد له مساوئ تتعلق بأزمة الهوية عددها في خاتمة كتابه، سوف أضغطها في جملة: إيجاد هوية وطنية جديدة لا تقوم على أساس الأرض ولا الوطنية بل تقوم على الولاء للأسرة الحاكمة التي أعطاها الاستعمار أراضي لم تكن تابعة لها مطلقًا، فأصبحت تتحكم في

تلك الأراضي وأهلها كما تشاء حسب ولائهم لها، فتحسب الجنسية ممن تشاء وتعطيها لمن تشاء أو كما يقول الدكتور: «**ولم يحتج الموضوع أكثر من جرة قلم لتتحول قبيلة كاملة من أعرق قبائل الجزيرة العربية إلى لاجئين على أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم، لتتجلى أزمة الهوية في الخليج العربي في أوضح صورها، وليتحول سكانها الأصليون إلى «هنود سمر» تحت رحمة الأسر التي دعمها الرجل الأبيض**».، فلم تكن العلاقة ما بين تلك الأسر وشعوبها قائمة على مبدأ المواطنة والمساواة في الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم بل قامت على أساس الرعوية والتبعية.

وتكلم عن أثار ذلك الاقتصادية والاجتماعية وغيرها مما تجده في الكتاب.

على الهامش: من الواضح أن هناك لَبسٌ شديد في بعض المفاهيم في الخليج، فلا الحكام ولا الحكومة هم الوطن، فانتقاد الحاكم إن أخطأ والحكومة إن أخطأت لا يعني أني أنتقد الوطن ولا يعني بالضرورة أني أكره الوطن، فشخصية الوطن اختزلت في من يحكم، وهذا غير صحيح، بدليل أن النبي ﷺ عارض السلطة الحاكمة في مكة وهي قريش ولما خرج من مكة قال: (**والله أنك أحب البقاع إلي**) أو كما قال ﷺ.

فمخالفته للحكومة شيء ووطنه شيء آخر. ولا يلزم بالضرورة إن خالفت الأولى فإني أكره الثاني! فأنت في دول الخليج بمجرد ما تنتقد الحكومات توسم بأنك خائن للوطن وكاره للوطن، فترسخت في الأذهان العامة أن الوطن هو الحكومة أو من يحكمها. بل قد يكون العكس، حبك لوطنك هو ما يدفعك لتنتقد الأخطاء لأنك لا تحتمل أن ترى وطنك في هذا الوضع البائس بسبب السرقات والنهب والمحسوبية التي تمارسها الحكومات.

١٢ يناير ٢٠١٩م – ٦ جمادى الأولى ١٤٤٠هـ

كنت في أفغانستان

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: كنت في أفغانستان.**
- **اسم المؤلف: تركي الدخيل.**
- **عدد الصفحات: ٢١٨.**
- **دار النشر: مكتبة العبيكان.**

التعليق والمناقشة:

بقي هذا الكتاب مُسَوَّدة قرابة عشرة أعوام ثم قام المؤلف بترتيبه وإخراجه على هيئة كتاب عام ٢٠٠٨، وهو يحتوي على سرد لوقائع السفر وسرد للقاءات على هيئة سؤال وجواب أو من خلال تقرير.

وثق تركي الدخيل رحلته إلى أفغانستان صحفيًا والتي امتدت من ١٨ أكتوبر ١٩٩٨ إلى ٢١ أكتوبر ١٩٩٨ (أي: ثلاثة أيام فقط).

وتركي الدخيل كما هو معروف مدير قناة العربية حاليًا، وكان صحفيًا سياسيًا في صحيفة الحياة، وكانت سنة ١٩٩٨ قد سحبت السعودية اعترافها بحكومة الطالبان وطلبت من القائم بحكومة طالبان مغادرة الرياض، وصادف في نفس العام أن استطاعت الطالبان أن تسيطر على منطقة مزار شريف وهي أحد معاقل الجماعات التي تقاتل الطالبان آنذاك وتقتل دبلوماسيين إيرانيين فتوترت العلاقات ما بين أفغانستان وإيران وحشدت إيران قواتها على الحدود الأفغانية. وكان هنالك وسيط وهو رجل أعمال أفغاني وهو سيد جلال كريم كان من المقرر أن يكون وسيطًا بين الطرفين لإنهاء حالة الاحتقان وكان مقيم في السعودية، فقرر تركي الدخيل الذهاب معه إلى أفغانستان، ولكن من

حيث سياق الأحداث يدل على أنهما افترقنا داخل أفغانستان في وقت لاحق. إذ كلٌ توّجه إلى وجهته.

وانقسم الكتاب أيضًا مناصفةً ما بين مناطق نفوذ الطالبان وخصمهم أحمد شاه مسعود، فكان المؤلف أولًا في مناطق الطالبان ثم انتقل إلى مناطق أحمد شاه مسعود وأجرى حوارات مع كلا الطرفين.

الكتاب ربما أكد على صورة الطالبان النمطية في التعاطي مع الشأن السياسي الخارجي، فبعض الموالين العرب لها الذين حسموا أمورهم في رؤيتهم للحكام والدول العربية، قد يستنكرون ما قد يصدر منها في الآونة الأخيرة من بيانات وخطابات لا تتناسب مع منهجهم ولا رؤيتهم، ولكن هذا الأمر ليس وليد اليوم، بل هو امتداد قديم لرؤيتهم السياسية.

وانظر في الكتاب مثلًا إلى كلام مدير إدارة التدقيق والمتابعة في وزارة الخارجية الأفغانية حول وزير خارجية مصر عمرو موسى وحسني مبارك (كما في صـ٨٣)! ومثل رفض الطالبان دعم المعارضة السنية التي استنجدت بهم في إيران (صـ٨٤) ونظرتهم للسعودية (صـ٨٧) تجد أن بيانات اليوم هي امتداد طبيعي لهم.

الكتاب أكد على نقطة هي أشبه بالنكتة، وهي أن بعض الأفغان عندما يتقاتلون مع بعضهم يبدأون الكلام باللاسلكي العبارات الأخوية ثم يختمونها بالاشتباكات والقصف المتبادل وهذا يذكرك بكلام الدكتور أيمن في سلسلة (أيام مع الإمام) لما أتت مجموعة وعسكرت على التلة فاستعدوا لقتالها ولكن أحد الأفغان قال لا يحتاج سوف أكلم قائدهم وكلمه وطلب منهم النزول ورد عليه القائد بأنه سوف ننزل غدًا.

الشاهد: أن الأفغان كما يبدو قتالهم مع بعض لا يلزم منه المفاصلة التامة بينهم وبين بعض، بل هناك هامش للمحادثات الغريبة والتي تُظهر أن الطرفين يقدّرون بعضهم ولكنهم مستعدون لقتل بعضهم!

أحد قادة مسعود اسمه بسم الله، وقد درس العربية في مدرسة أبي حنيفة النعمان في كابُل، وكان يُدرّس فيها الأساتذة العرب اللغة العربية قبل قدوم حكومة تراقي الشيوعية وما تلاها من أحداث الغزو والجهاد. فجاء أحد الأساتذة المصريين وقال له: «**إيش المغزى من اسمك؟**» فقال له: «**فقط والدي أسماني به**». فرد عليه الأستاذ المصري: «**إذا رزقت ولدًا في المستقبل فسمه الرحمن الرحيم حتى تكتمل البسملة**».

أما الحلال والحرام عند الطالبان، فمثلًا الجلد والسجن أسبوع لمن حلق لحيته (صـ٦٣)، ومع ذلك خلافًا للعادة فالتدخين حلال (صـ٦٩)، ويمنع التقاط الصور عمومًا وذات الأرواح خصوصًا (صـ٩٨)، وإلزام النساء بتغطية الوجه فقط في كابُل لكثرة الفتن هناك ولكن دون إلزام باقي المناطق بذلك (صـ١٨٧) ومنع التلفاز (صـ١٨٩)، ومنع الحشيش ولكن ليس الأفيون لوجود استعمالات طبية ممكن تستفيد منها الحكومة لاحقًا كما تصنع الهند وتربح من ورائه ٥٠٠ مليون دولار (صـ١٩٠).

يلاحظ أن في مقابلة المؤلف مع أحمد شاه مسعود وكذا أحد القادة العسكرين لديه، يعترفون بأخذهم الدعم من بعض الدول مثل الهند وإيران وطاجيكستان، ولكن نفس الحُجج تتكرر، وهي أننا نأخذ الدعم مع وجود الاستقلالية، وأن هذا الدعم لا يؤثر علينا ولا أحد يأمرنا أو يوجهنا، ولكن القصة غير المكتملة رأينا كيف أن هؤلاء عندما أخذوا الدعم الأمريكي أصبحوا في النهاية تابعين لها ولا يشذون عن أمرها وانتهت استقلاليتهم تمامًا، نفس الحجج ونفس النهايات إلا ما رحم ربك.

إلا أن أحمد شاه مسعود صريح أكثر من غيره، لما قال عن الدول التي تدعمه: «**هم يدعمونني لأجل مصالحهم وليس لأجلي أنا**».

فالبعض عندما يتلقىٰ الدعم من بعض الدول يظن أن هذا الدعم لأجله، أي عمل خيري تقوم به جهة خيرية أشفقت علىٰ مصائب شعب ما دون أن تأخذ مقابل وإنما ترتجي الجزاء الأخروي، وهذا قمّة الدروشة، فيتفاجئ في النهاية أن ذات الجهة قد باعته في سوق النخاسة أمام عدوه، بعد أن انتهت حاجتها منه.

فأحيانًا الدول تدعمك حتىٰ تملك ورقة مساومة مع الدولة الأخرىٰ، اعملي لنا كذا أو أعطينا كذا مقابل رفع الدعم عن المعارضة، أو «استنزاف» بحيث أن الدولة «أ» تريد أن تستنزف الدولة «ب» حتىٰ لا تكون قوية مقابلها، فتستنزفها ولكن لا تسقطها في النهاية. فتدعم المعارضة إلىٰ أمد ما ثم ترفع يدها بعد أن ضمنت أن الدولة الأخرىٰ استنزفت كثيرًا وتحتاج سنوات كثيرة لترجع إلىٰ ما كانت عليه.

فليس كل دعم من الدول هو إيمانها بقضيتك وحبها لك وإشفاقها علىٰ شعبك، ولا يقع في مثل هذه الفخاخ إلا درويش لم يعرف أساليب السياسة وبرجماتيتها ولم يعرف سبيل المجرمين.

ويلاحظ في أن أحمد شاه مسعود طلب مرارًا النزول إلىٰ المحكمة شرعية لحل مشكلته مع الطالبان، وأن الطالبان قررت استئصال هؤلاء لأنهم حسب أحد وزرائهم «**كان في أفغانستان قوات وجماعات متعددة، كانوا يختلفون ثم تجمعهم المفاوضات فيخرجون منها باتفاقيات صورية للصلح، لا تلبث أن تنتقض فورًا، فوجدنا القوم منذ ١٨ سنة يتحاربون مع بعضهم ثم يتفاوضون ويحلفون بالله إنهم سيوقفون الحرب ثم ينكثون بإيمانهم**».

فكانت التجارب السابقة تدل على عدم صدق هؤلاء ولا على التزامهم وعلى نقض المواثيق بشكل متكرر بعد كل اتفاق، فكان من العبث تكرار كل هذا فعزموا العزم على إنهائهم وتوحيد البلاد تحت راية واحدة.

ومما يستفاد أيضًا من قصة مسعود بغض النظر عن موقفنا تجاهه، هو أن المواقف الواحدة تفسر تفسيرين متناقضين حسب موقف الأشخاص تجاه أصحاب الموقف، فلما أعلن مسعود الهدنة مع الروس وهي هدنة مؤقته فسرها مؤيدوه على أنها دليل قوة إذ أرغم الروس على قبول الهدنة، وأما أعداؤه فقالوا أنها سمحت للروس أن يلتقطوا أنفساهم ويرتبوا صفوفهم وهذا مما حدى بالبعض أن يصفه بأنه عميل الروس.

وهذا يستفاد منه: أن خصومك لن يعدموا أن يختلقوا الأمور لرميك بالعمالة وغيرها، فالبحث عن إنصافهم ناهيك عن رضاهم أمر متعذر إن تعارض مع مصلحة الجهاد، فلذلك تقدم مصلحة الجهاد على رضاهم وثنائهم وإن سخطوا وناحوا، فما ينفع ثناءهم إن أغرقت السفينة بمن فيها؟!

أما بخصوص المرتبات، فالعاملين مع عبد الرسول سياف (الاتحاد الاسلامي) فإنه يدفع شهريًا لمقاتليه ٢٠٠ دولار وهو مبلغ مرتفع جدًا وهذا حسب وصف أحد التابعين له، وأما مسعود ٥ دولارات حسب وصف مسعود نفسه، وأنا الطالبان ١٠ دولارات وأما الوزير في حكومة الطالبان ٧ دولارات فقط، أي أن راتب المقاتل يفوق راتب الوزير، مع أخذ العين بالاعتبار الامتيازات التي تقدم للوزير، وهذا حسب وصف الوزير مولوي أحمد جان وزير المعادن والصناعة.

وقد قال هذا الوزير أن دخل الدولة شهريًا من المصانع التابعة لها ٦٠٠ ألف دولار، وأما مجمل دخل من عموم المصانع فإنه ما بين مليون ونصف ومليوني دولار. وعدد المصانع الكبيرة ٥٠ مصنعًا تنتج القماش والزيوت والسماد والرخام والأحجار والإسمنت والقطن والأواني المنزلية ويعمل فيها ٢٥٠٠-٥٠٠٠ عامل.

وأما المصانع الصغيرة فعددها ١٥٠ مصنعًا ويعمل فيها ما بين ٣٠-١٠٠ عامل. وأما المعادن التي تستخرج فهي النحاس والذهب والياقوت واللازوردي والأحجار الكريمة والرخام والكروم. وتصدر صناعات السماد في هيرات إلى تركمنستان وأوزبكستان والأقمشة تصدر إلى تركمنستان.

واللقاء مع هذا الوزير كان ثريًا، من حيث المعلومات؛ فقد رسم هيكل الحكومة وأسماء الوزراء ومناطقهم (للرد على تهمة أن الحكومة تتشكل غالبًا من القندهاريين معقل الطالبان الرئيس) واستعرض أسماء المسؤولين الذين أصيبوا وأماكن اصابتهم (ردًا على تهمة أن هؤلاء لم يشاركوا في الجهاد السوفيتي وإنما خرجوا فجأة بعده).

وتبقى آخر نقطة وهي أن الكتاب مضمونه لا يتطابق مع عدد صفحاته، فمن الواضح أن هناك محاولة لتطويل الكتاب وتكثير صفحاته، ويُنتهى منه في جلسة واحدة.

١٣ يناير ٢٠١٩م - ٧ جمادى الأولى ١٤٤٠هـ

مسلكيات

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مسلكيات.**
- **اسم المؤلف: إبراهيم السكران.**
- **عدد الصفحات: ١٨٧.**
- **دار النشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

الشيخ إبراهيم السكران في نظري من أبرز الأشخاص الذين تكلموا في الرقائق، بشكل علمي قوي وبأسلوب مبسط في آن واحد، ويتفنن في تشريح النفس بشكل يجعلك تتأمل في خلجات نفسك تأمل شديد وتقول: «ويكأنه يتكلم عني أنا!».

في مطلع الكتاب تكلم عن وجود أهداف عالية لدى الشخص ولكن تحقيقها على الأرض صفر، وذلك أن تحقيق معالي الأمور لا يكون إلا كما يقول يحيى بن أبي كثير: «**لا يستطاع العلم براحة الجسم**».

وأقول إنه لتحقيق تقدم ملموس فإن هذا لا يكون عندما نَعطي هذه الأمور فتات أوقاتنا، بل الأمر كما قال أحد القادة العسكريين: «**بقدر ما تعطي أيّ قضيّة من وقتك؛ بقدر ما تكون هناك نتائج**».

فالبعض يحلم أن يرتقي في سلم العلم، وهو يقدم اللهو واللعب وتضييع الوقت على طلبه طلب جاد، أو يظن أنه سوف يرتقي به إن أعطاه فتات وقته، أو يظن أنه إذا قرأ منشورًا أو منشورين في مواقع التواصل الاجتماعي فسوف يُغنيه هذا عن جرد الكتب والتعب في تلخيصها ومحاولة فهمها.

فهناك مشكلة حقيقة، تكمن أولًا في عدم وجود صبر وهمة لتحمل المشاق، وثانيًا في مستوى إدارة الوقت، وأنت تعلم أنه إن لم يُحسن الشخص إدارة كِلا الملفين، فإنه لن يراوح محله، وهذا سبب أن المشاريع الكبرى لدى الشخص تظل كما هي من سنوات وهو لا يتقدم تقدمًا ملموسًا فيها.

وأما الفصل الذي يليه وهو بعنوان (المترقب) هو مشابه لكلام ناهد درويش صاحب كتاب (الحيل النفسية) وما أسماه بـ«العائق الوحيد».

إشكالية ترحيل المهام أو تسويفها أو تأجيلها تجعل الشخص يعيش حالة من التجمّد في مكانه، يسمع كلام بعض من قرأوا وجردوا أحد الكتب فيستعر الحماس لديه، ويعزم على قراءة هذا الكتاب «**ثم ما إن يتجاوز لهيب حماسة حتى يتبدد كل شيء ويعود لذات برنامجه اليومي في التفرج على المنتجين**».

وأما الصورة الثانية فهي العيش في دائرة مغلقة بالتأجيل المستمر فيقول: إذا انتهيت من الدراسة سوف أشرع، ولما ينتهي يقول: إذا توظفت سوف أبدأ، وإذا عمل يقول إذا تزوجت وهكذا .. ويستمر دون أن ينجز شيئًا.

والسكران يقول أن أهم مرحلة عمرية للبدء هي مرحلة الذروة في قوة المَلَكَات، ومن الغُبن أن تدخل المضمار بعد أن تخور قواك؛ فالخلاصة أن هذا الفصل يعالج إشكالية من لا يقَر له قرار أو من يتحمس ثم يخبو الحماس لديه ويترك العمل.

ثم تكلم في فصل (التصنيف التحصيلي) عن محاولة كشف سر الإمام النووي فهو لم يطلب العلم إلا متأخرًا ومات مبكرًا بينما مؤلفاته كثيرة جدًا بل وبعضها عمدة في المذهب الشافعي، فكيف استطاع أن يفعل ذلك في فترة وجيزة؟! وهنا أماط اللثام عن أهمية بل وضرورة أن يألف الشخص مؤلفات أثناء تحصيله العلمي، لا ليفيد الناس فحسب بل ليفيد نفسه هو في المقام الأول؛ فالشخص الناسخ

(الذي يكتفي بالنسخ أو الذي في زماننا يكتفي بنقل الاقتباسات) يختلف عن الشخص الذي يُحرر ويَبسط ويقارن الأقوال عند تأليفه، فالثاني فائدته أكبر على نفس الشخص من مجرد النسخ.

وفي أثناء ذلك تأمَّل بعض مقولات أئمة السلف في هذا، وتتبعهم في ذلك تتبع جميل، يدل على حذاقة السكران في تأمُّل العبارات والوقوف عند النصوص، وهذا الأسلوب في التأمُّل والتدبر سوف يكون له أثر أكبر في الفصول الأخيرة بالأخص في كلامه عن الصلاة.

وثم ذكر أن هذا الأمر لا يقف عند التأليف بل وحتى التدريس والإلقاء، وذكر هذا نقلًا عن إدوارد سعيد؛ فهذا أصبح يستفيد من تدريسه وإلقاءه ومحاورته للناس، في فتح أبواب لم يكن ليستطيع أن يلجها في قراءته الفردية، وأن هذه المحاورات أو الفتوحات التي استلهمها أثناء التدريس قد دوَّن بعضها في كُتبه.

فالشاهد أن البعض يترسخ في ذهنه أن ينحو نحو الأديب محمود شاكر، وهو الانقطاع لمدة عشرة أعوام لالتهام الكتب ثم بعد ذلك يستطيع أن يؤلف أو يلقي على الناس دروسًا ومحاضرات، بينما الأمر لا يلزم منه ذلك، بل تستطيع أن تفعلها أثناء تحصيلك وقد تستفيد منها أضعاف ما تستفيد من تحصيلك الفردي!

وأنا أقرأ جاء في ذهني اعتراض أورده السكران في خاتمة الفصل وأجاب عليه جوابًا جميلًا وهو: «**قد يقول البعض إن دعوة طلاب العلم للتصنيف والتأليف والبحث والنشر قد يدعو غير المؤهلين لتوريط أنفسهم، إضافة إلى أن المكتبات تغص بدراسات غير مؤصلة!**».

تكلم أيضًا حول الخشوع في الصلاة في فصل (صفاء الأنبجانية)، أحيانًا تكون إرشادات بعض المشايخ تجاه هذه النقطة - أي الخشوع في الصلاة - جامدة أو سطحية، ولكن السكران أحسب أنه حاول أن يعالج إشكالية الخشوع في الصلاة بشكل جميل وفريد واستثنائي.

أحيانًا تحتاج أن تتأمّل النص الشرعي ومخرجاته ومدلولاته وأن لا تكتفي باستخراج الحكم الفقهي منه؛ فالسكران تتبع بعض أحاديث الصلاة، وتأمل أن كلها تدل إلىٰ معنىٰ واحد. قد لا ينتبه إليه البعض.

وكذا ذكر قضية السلسلة الإسنادية في الصلاة، ولعله هو أول من تنبه لها، وهي أثر الشيخ علىٰ تلميذه وأثر التلميذ علىٰ من بعده في باب العبادات العملية وليس فقط الرواية ونقل العلم.

فصفة الصلاة بدأت من محمد ﷺ ثم أبو بكر ثم ابن الزبير ثم عطاء ثم ابن جريج، كلهم يصلون بصفة واحدة وخشوع واحد وسكون واحد، تناقلوا الأداء العملي كما نقلوا عن بعضهم الحديث العلمي. ومن هنا يتبين لك أن دور الشيخ أو العالم علىٰ تلاميذه لا يقتصر فقط علىٰ شرح المتون، بل يجب أن يتعداه إلىٰ أبواب أخرىٰ خصوصًا في الاقتداء في الجانب العملي، وأن يكون القدوة الحسنة لهم في هذا الباب، ولكن إن لم يكن كذلك فـ«كيف يستقيم العود والظل أعوج»؟

وأما في فصل (إلباس العجز جبّة الحكمة)، فهنا تكلم السكران في جانب نفسي مهم جدًا، وهو أن قدرات الأشخاص الذاتية تتفاوت، وأن مستواهم يختلف، فالذي لا يملك حافظة جيدة قد تراه لا يقر بعجزه بل يسفه طريقة الحفظ رأسًا ويرىٰ أنه عديمة الفائدة، والذي يشتري الكتب ويكدسها ولا يقرأها لا يقر بعجزه بل تراه يزهد من شراء الكتب مطلقًا.

وكذا من عجز من طلبة العلم أن يجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة فلا يزهد غيره من طلب العلم بذلك، ثم طفق يشرح أهمية الشخص أن يجمع بين الأمرين، فيقول: «**ومن أعظم وسائل الدعوة اليوم التسلح بقدر أساسي من الثقافة المعاصرة؛ فإن العلم الشرعي غذاء، والثقافة المعاصرة وعاء، والوعاء الجميل يفتح شهية المتلقي للغذاء النافع، وأكثر العلماء بعد السلف تأثيرًا في قضايا المنهج هم العلماء المثقفون، كابن حزم والغزالي وابن تيمية، بل إن المثقفين الإسلاميين كالمودودي وسيد قطب والندوي ونحوهم كانوا أكثر تأثيرًا من بعض فحول العلماء في عصرنا،**

برغم ما يعتري خطاب هؤلاء المثقفين الإسلاميين من بعض القصور الناشئ عن قلة الخبرة بعلوم الشرعية، فكيف لو جمع بينهما في نموذج العالم المثقف؟!» و«**قد تجد بعض المنشغلين بالعلم الشرعي لاحظ أنه لا يمكنه الجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة، فصار يزهّد غيره من أهل العلم في ذلك، وهذا اجتهاد غير موفق، بل يجب أن يوجه العالم طلابه إلى أن يؤصلوا أنفسهم في العلوم الشرعية ثم يكونوا أنفسهم تكوينًا ثقافيًا ممتازًا بحسب الطاقة والإمكان، ولا يلبس عجزه جبّة الحكمة**».

وقال: «**ولا أذيع سرًا إن قلت للقارئ الكريم أني كلما رأيت طالب علم يزهّد في سعة الاطلاع؛ إلا انقبض قلبي، وخشيت أن ينشأ جيل إسلامي ينكسر معرفيًا أمام التيارات المنحرفة**». «**والمراد هاهنا أن الجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة عملة نادرة، وأهل هذا الجمع هم المؤهلون للتأثير العميق في هذا العصر بعد توفيق الله**».

فالخلاصة أن هذا الكتاب كتاب تربوي جميل، يعالج بعض القضايا معالجة جذرية خصوصًا فيما يمسّ الجانب النفسي منها، وهو من الكتب التأسيسية التي قد تفيدك قبل أن تشرع وتبدأ في برامجك بمعرفة العقبات وطرق تجاوزها. وأنا أعتبر أن هذا الكتاب من أفضل ما قرأت في العام الفائت.

١٣ يناير ٢٠١٩م - ٧ جمادى الأولى ١٤٤٠هـ

الرواية السريانية للفتوحات الاسلامية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الرواية السريانية للفتوحات الاسلامية.**
- **اسم المؤلف: تيسير خلف.**
- **عدد الصفحات: ٩٩.**
- **دار النشر: دار التكوين للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية) لتيسير خلف ويقع في ٩٩ صفحة من طبعة دار التكوين. هذا الكتاب قائم على ترجمة بعض النصوص السريانية لمؤرخين سريانيين تكلموا عن الفتوحات الإسلامية أثناء معاصرتهم لها، فالمؤلف حاول أن يظهر الرواية الأخرى التي تكون في مقابل رواية المسلمين أو البيزنطيين، وساعده في موضوع الترجمة جوزيف أسمر الذي ترجم النصوص وأحضر بعض المراجع النادرة للمؤلف، ويرى المؤلف هنا أن الرواية السريانية مهمة لأنها دونت في لحظتها بخلاف التاريخ الإسلامي الذي تناقل شفهيًا ولم يدون إلا بعد قرنين لهذا يحصل نوع من الاضطراب والتناقض في ترتيب الأحداث**!!**

وقد استند المؤلف على بعض المؤرخين الذين عاصروا الفتوحات ولكن جلهم لم يكن في مركز صنع القرار بل كانوا على الهامش باستثناء القائد الروماني من أصل سرياني وهو إيوانيس رصيفا وهو قائد الروم في قنسرين وقد ألتقى مع الجيوش الاسلامية في قنسرين وفاوضهم واتفق معهم على دفع الجزية مئة ألف درهم سنويًا شريطة أن لا يعبروا نحو الفرات ولا يدخلوا بين النهرين ولكن سرعان ما نقضه قيصر الروم.

وجرت العادة لدىٰ السريان أن الغالبية الساحقة ممن تصدىٰ لموضوع التدوين هم بطاركة الكنيسة وآبائها، لذلك التصور الديني حاضرًا في تدوينهم بتعليل بعض الحوادث علىٰ أنها عقاب إلهي أو نحو ذلك.

وكان مصدر التدوين شهادات عيان لجنود سريان يعملون ضمن القوات البيزنطية أو من خلال التقارير الكنيسة التي كتبت آنذاك حول هذه الدعوة الجديدة - أي الإسلام - وتشخيصهم وتصورهم لها.

والمؤلف وضع نصًا كنسيًا أعده رجال دين سريان عندما ظهرت الدعوة الإسلامية فلخصوها في نقاط وذكروا تصورهم عنها، ولكن لم يضعه كاملًا بحجة أن بعد النص الذي وضعه توجد الكثير من المغالطات مما لا فائدة من ذكرها.

ذكر المؤلف بعض المراجع التاريخية السريانية وذكر أن بعض المصادر مثل (تاريخ الرهاوي المجهول وتاريخ ابن العبري وتاريخ الزوقنيني) قد تسربت إليها الرواية الإسلامية وأثرت في سردها للأحداث؛ فاعتمد غالبًا علىٰ (تاريخ ميخائيل الكبير) لأنه «**الأكثر أمانًا واطمئنانًا بالنسبة فيما يتعلق بالرواية المتعلقة بالفتوح الإسلامية، نظرًا لعدم وجود أي تأثير من تأثيرات المراجع العربية والإسلامية وغيرها عليه**» حسب كلام المؤلف.

والمؤرخون السريان لديهم عادة وهي استيعاب ما كتبه مَن قبلَهم من المؤرخين والتذييل عليه، فتاريخ (ميخائيل الكبير) قد ابتلع بعض الكتب التاريخية التي قد ضاع جزء منها وهي تاريخ زكريا الفصيح وتاريخ قورا البطناني وتاريخ يوحنا الآمدي وتاريخ التلمحري، وكل هؤلاء عاشوا فترة ما قبل الإسلام باستثناء التملحري الذي عاش في الدولة العباسية ولكنه أورد شهادة القائد المعاصر للفتوحات الإسلامية وهو القائد إيوانيس رصيفا كما هي. إذن (تاريخ ميخائيل الكبير) هو ابتلاع لكتب هي مبتلعة لكتب.

وكتاب (الرواية السريانية) ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ناقش حول السريان والتاريخ وخصوصية التواريخ السريانية واختلافها عن الكتب التاريخ الأخرى.

القسم الثاني: سرد للنصوص التاريخية التي تناولت فترة الفتوحات وما قبلها من أحداث.

القسم الثالث: الجزء المتعلق بتحليل الرواية السريانية بشيء من النقد والتصويب.

القسم الثاني من الكتاب عبارة عن جزئية السرد وتقع في ٥١ صفحة، عشرون منها لا علاقة لها بالفتوحات الإسلامية، بل هي مجرد سرد لصراعات الفرس الروم.

أما المعارك والأحداث التي تكلم عنها المؤلف في كتابه هذا فهي معركة داثن ومعركة أجنادين وفتح بلاد فارس ومعركة اليرموك وفتح المدائن وفتح مصر - فتح القدس وفتح الجزيرة وفتح قيصرية فلسطين وفتح إفريقيا - أو تونس - وقبرص وفتح جزيرة رودس. ولعل المؤلف لم يترجم النصوص التاريخية كلها وإنما مقتطفات منها؛ لأنه يصعب تصور أن هذه الأحداث الكثيرة يمكن اختزالها في ٣٠ صفحة فقط والله أعلم.

كما عاب المؤلف على المؤرخين السريان عدم الإلمام في طبيعة المنطقة وتضاريسها، ففي المناطق القريبة منهم - أي شمال سورية اليوم - يكون تصورهم للأماكن دقيقًا ولكن في المناطق البعيدة قد يخلطون بين المناطق، فمثلًا معركة داثن جعلوها بقرب قيصرية والصحيح أنها جنوب فلسطين قرب غزة.

كان السريانيون يتعرضون للاضطهاد من قبل الكنيسة البيزنطيّة التي كانت تتبعها القيادة السياسة في الإمبراطورية البيزنطيّة، وذلك بسبب مجمع خلقيدونية الذي نص على إلغاء قرارات مجمع أفسس

الثاني واعتماد قانون إيمان جديد يقول بأن السيد المسيح بعد تجسده كانت له طبيعتان: لاهوتية وناسوتية.

وحصل انشقاق على إثر ذلك، فكنيسة روما وكنيسة القسطنطينية في جانب، وفي الجانب الآخر الكنيسة الإسكندرية ومن اتبعها مثل الأقباط والسريان والأرمان والعرب الذين بقوا متمسكين بقرارات مجمع أفسس الثاني وهو أن طبيعية المسيح طبيعة واحدة. فبدأ الفريق الأول يضطهد الفريق الثاني بالاستيلاء على كنائسه.

فالشاهد أن السريان عانوا جدًا من تسلط الإمبراطورية البيزنطيّة، فرأوا أن العرب المسلمين مخلصين لهم، وهذا واضح في النص الذي ورد في (تاريخ ميخائيل الكبير) [٣/ ٣٠١] الذي جاء فيه: «...**إذ رأوا خيانة الروم الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا كلما أشتد ساعدهم في الحكم، ويقاضوننا بلا رحمة، جاء من الجنوب بأبناء إسماعيل، لكي يكون لنا الخلاص من أيدي الروم بواسطتهم... حيث تحررنا من خبث الروم ومن شرهم وبطشهم وحقدهم المرير علينا، وتمتعنا بالطمأنينة**». وكذا كلامهم عن زهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما جاء في (تاريخ ميخائيل الكبير) [٣/ ٣٢٠] قولهم: «**إنه كان عادلًا وغير جشع، بحيث أنه لم يأخذ شيئًا لنفسه مما غنم من أموال وكنوز الروم والفرس بعد السيطرة عليهم، حتى ولم يغير به بساطة ثيابه. وكان يضع عباءته تحته لدى ركوبه الجمل، وإذا ما جلس أو نام كانت الأرض مقعده وسريره**».

ومما يجب التنبيه إليه أن كلام المؤلف في بيان مجمع خلقيدونية وأثره على الطوائف الكنسية كان في خاتمة الكتاب، وكان الأولى أن يذكره في مقدمة الكتاب حتى تفهم الفوارق بين الطوائف وتقف على تفسير هذه التصرفات أثناء السرد.

وأما كلام المؤلف في مقدمة الكتاب أن كتب التاريخ العربي فيها تضارب وتناقض ونحو ذلك.

فأولًا أن الكثير من الكتب التاريخية لم تُعن بجمع الصحيح وإنما هي كتب جمعية، أو كما يقول الدكتور بشار عواد عن تاريخ الطبري أنه مثل الحوت الذي أبتلع المرويات في زمانه وأدخلها في جوفه، فلذلك إن وجدت روايات غير صحيحة أو متناقضة فهذا من الطبيعي.

وثانيًا: التدوين اللحظي للأحداث لا يلزم منه أن يكون الخبر دقيقًا، بل رأينا مثلًا تداخل أسماء المناطق لدى المؤرخين السريان، بل رأينا وكأن المؤلف نفسه يصوب الروايات السريانية بناءً على المرويات الإسلامية مثلًا عدد الجيوش التي أرسلها أبو بكر ومواضعها (صـ٤٣) أو سنة معركة اليرموك (صـ٤٧) ورأينا قول المؤلف أن توصيف السريان للدعوة الإسلامية فيه بعض المغالطات (صـ٣٥).

وهذا الكتاب هو أشبه بكتاب حسام عيتاني (الفتوحات العربية في روايات المغلوبين) ولكنه ركّز على طائفة واحدة هي السريانية وكتاب حسام كان يتكلم عن الأقوام المغلوبة عمومًا وهو بحث نصحني به بعض من أثق بهم.

وكذا هو مقارب لكتاب (الفتوحات الإسلامية لأرمينية) للدكتور فايز نجيب؛ فالأخير يستند على رواية المؤرخ الأرميني جيفوند الذي لم يعاصر الفتوح الإسلامية ولكن نقل عن سبيوس الكثير في كتابه وكذا بعض المصادر الأرمينية المفقودة كما يقول الدكتور فايز نجيب.

وفي الختام: هذا الكتاب أو حتى المرويات السريانية عمومًا تصلح للاستئناس فقط.

١٤ يناير ٢٠١٩م – ٨ جمادى الأولى ١٤٤٠هـ

نار وغضب: البيت الأبيض في عهد ترامب

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: نار وغضب: البيت الأبيض في عهد ترامب.**
- **اسم المؤلف: مايكل وولف.**
- **عدد الصفحات: ٣٨٤.**
- **دار النشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.**

التعليق والمناقشة:

ترجم هذا الكتاب بسرعة فائقة من قبل دار النشر، والترجمة لا بأس بها، ويظهر لي أنهم وظفوا عشرات المترجمين لإنهاء النص بأسرع ما يمكن. وهذا الكتاب ممنوع في بعض الدول الخليجية، ولعل السبب هو فصل (في الخارج وفي الوطن) وذكر فيه بعض تفاصيل زيارة ترامب إلى السعودية وما حصل فيها.

صيغ الكتاب بشكل صحفي وهجومي، استخدم فيه التهكم (أو الكوميديا السوداء) والنقد اللاذع وغيره، فأنت لست أمام كتاب صيغ بطريقة أكاديمية في التوثيق وصف المعلومات، أو حتى بشكل موضوعي يذكر ما لترامب وما عليه؛ بل حتى النقاط التي تُحسب لترامب سرعان ما تنقلب ضده في الكتاب.

فعندما أقول أنه صيغ بشكل تهكمي لاذع، فهذا يعني أنك سوف تضحك كثيرًا في الكتاب. وهو كتاب قائم على التسريب، فقد ذكر المؤلف في مقدمة كتابه، مصادره وهي «**معظم الذين تواصلت معهم إن لم أقل كلهم من كبار موظفي البيت الأبيض إلى المراقبين الملتزمين**». وقام بترجيح الروايات أيضًا فيقول: «**تركت كلًّا من اللاعبين يقدم روايته، تاركًا للقارئ حرية الحكم عليها. وفي أحيان**

أخرى، اخترت نسخة للأحداث رأيت أنها صحيحة بفضل تقاطع الروايات والمصادر التي وثقت بها».

فالمصادر مسربة، ومعلوماتها متداخلة ومتقاطعة، فلذلك لم يجد المؤلف حرجًا من عدم توثيق المقابلات في هامش الكتاب - كما يفعل الكتاب في الغرب عادةً - فصاغ الكتاب جملة واحدة كأنه رواية متسلسلة الأحداث دون أن يذكر مصادر لهذه المعلومة أو تلك، باستثناء أحيانًا عندما يسمّي المصدر وينسب إليها القول أو التعقيب على بعض الأحداث مثل نائبة رئيس الموظفين كايتي والش.

فالكتاب يتكلم باختصار عن صراع الأجنحة داخل البيت الأبيض، بدءًا من الشخصية الرئيسية للكتاب ستيف بانون كبير مستشاري الرئيس للشؤون الاستراتيجية ورينس بريبوس رئيس الموظفين في البيت الأبيض والجناح الثالث وهما جاريد كوشنر وإيڤانكا ترامب وقد أشار لهما المؤلف باسم «جاڤرانكا»، ومع تصاعد الأحداث تحالف أول جناحين ضد الجناح الأخير ولكنهما خسرا.

ويذكر أسماء المستقيلين في البيت الأبيض ودوافع استقالتهم، فترامب - كما وصفه المؤلف - هو أشبه بـالملك ثيودور وهو طاغية أثيوبي كان يفتك بكل من حوله، فحتى الذين لم يعارضوا الرئيس وألغوا ذواتهم أمامه لما بحثت عن بعض أسمائهم لاحقًا في محرك البحث وجدت أنهم أعلنوا استقالتهم، مثل مديرة الاتصالات في البيت الأبيض هوب هيكس. وكذا ذكر أسماء المطرودين وأسباب طردهم مثل رئيس الموظفين في البيت الأبيض رينس بربوس أو الذين أجبروا على الاستقالة مثل مستشار الأمن القومي الأمريكي «مايكل فلين».

وكذا يركز الكتاب على عدم كفاءة إدارة ترامب وتخبطها وفوضويتها؛ وعلل ذلك أن الموظفين الكبار وضعوا بيضهم في سلة للأوفر حظًا وهي هيلاري كلنتون، فاضطر ترامب أن يردف حملته الرئاسة ببعض الشخصيات الهاوية، ثم فجأة فاز ترامب ثم أصبح هؤلاء الهواة في مناصب سيادية في البيت الأبيض، وعلى إثر ذلك دفعوا ترامب من هاوية إلى أخرى «**مثل تصرف ابنته ايڤانكا**

وكوشنر في دفع ترامب وبقوة – رغم معارضة الجميع – في إقالة رئيس الشرطة الفيدرالية جيمس كومي» ثم انعكاس ذلك على التحقيقات ضد ترامب في الشأن الروسي وتعيين المحقق الخاص روبرت مولر. والمشكلة ليست محصورة في المقام الأول في مستشارين أو كبار موظفين هواة بقدر ما سلط المؤلف الضوء على شخصية ترامب غير المؤهلة أصلًا لأن تحكم أقوى دولة في العالم، شخصية لا تضبطها معايير منطقية بل هي عشوائية ومزاجية باختصار أنها نفسية معتلة وعلى إثر ذلك تصدر استراتيجياته أو أحكامه أو قرارته! فالرسالة التي وّجهها المؤلف لترامب من خلال هذا الكتاب بنقده اللاذع تستطيع أن تلخصها بأنك لا تصلح أن تكون رئيسًا.

والكتاب موّجه في المقام الأول للشخص الأمريكي، هناك العديد من أسماء الشخصيات التي يعرفها الأمريكي أو يعرفها من يتابع الإعلام الأمريكي سوف تذكر بكثرة وأحيانًا دون حتى تعريفها، وهناك الكثير من الأحزاب والجماعات والتجمعات دلالتها مفهومة للمتابع أو القارئ في الشأن الأمريكي أكثر من الشخص العادي مثل الحزب الجمهوري وحركة الشاي واليمين البديل أو المتطرف والمحافظين والليبراليين وتصورات هؤلاء للوضع.

والكتاب اشتهر وحقق مبيعات مهولة ربما ليس بسبب أنه كشف حالة التصدع في بيت ترامب الداخلي في المقام الاول، بل لأن ترامب هاجم الكتاب قبل أن يصدر بعد أن نشرت بعض المتقطفات منه في الصحافة، وهجوم ترامب على الكتاب أعطاه نوعًا من المصداقية، وجعل الكتاب مُترقبًا وتلهفت الناس لصدوره! فأحيانًا الهجوم يعمل عملية عكسية ولو سكت ترامب لربما لم ينل الكتاب هذه الضجة والزوبعة الإعلامية حوله.

فالخلاصة أنا لم أستفد كثيرًا من هذا الكتاب حول ترامب نفسه، ولكن استفدت كثيرًا في معرفة التداخلات في السياسة الأمريكية الداخلية، فالإعلام والإعلاميين والشخصيات العامة وكبار رجال الأعمال والساسة والأحزاب والداعمين...إلخ فالعملية السياسة الأمريكية عملية بالغة

التعقيد وتدخل فيها عوامل كثيرة، بما أن الكتاب صيغ بشكل صحفي وليس بشكل أكاديمي فكان يطرح المعلومة بشكل مباشر وسلس دون تعقيدات اللغة الأكاديمية بل المؤلف نفسه يقول في مطلع الكتاب بأنه سوف يروي الكتاب (بأسلوب معاصر قدر الإمكان)، فكان فرصة مناسبة؛ فلذلك قد دونت الكثير من النقاط بقلم الحبر أثناء جردي للكتاب للاحتفاظ الشخصي.

وبعد انتهائي من هذا الكتاب علمتُ بأن دار المطبوعات انتهت أيضًا من ترجمة كتاب (الخوف) للصحفي الشهير بوب وودورد والذي قصم ظهر الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون عندما فجر بتقريرٍ له أعده مع كارل برنستين فضيحة ووترغيت، والتي ساهمت في إنهاء رئاسة نيكسون. ولعل كتاب بوب يكون أفضل وأجود من هذا الكتاب بالنظر إلى سيرتهم.

٢١ يناير ٢٠١٩م – ١٥ جمادى الأولى ١٤٤٠هـ

الدّامابادا: كتاب بوذا المقدس

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الدّامابادا: كتاب بوذا المقدس.**
- **اسم المترجم: سعدي يوسف.**
- **عدد الصفحات: ١٤٠.**
- **دار النشر: دار التكوين للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

كتاب (الدّامابادا) هو كتاب البوذيين المقدس، وهو جمع لأقوال بوذا، وقد جمعت بعد القرن الثالث بعد الميلاد – يعني بعد وفاته بقرنين – ودونت في القرن الأول قبل الميلاد يعني بعد أربع قرون من وفاة بوذا نفسه. وكلمة «الدّامابادا» مركبة، الجزء الأول منها «الداما» لها عدة معانٍ: الشرع والعدل والعدالة والطاعة والحقيقة. وأما الجزء الثاني «بادا» تعني: السبيل والخطوة والقَدَم والأساس.

وترجم الكتاب سعدي يوسف ولكنه لم يترجم الكتاب كاملًا وقال: «**كنتُ أنتقي، معتبرًا حساسية لغتي وقومي العرب وما يعتقدون، وعلي القول إنني نقلت إلى لغتي العربية معظم كتاب بوذا**». فالنصوص التي ربما فيها كفرٌ بواح وشرك صُراح، لعله لم يترجمها مراعاةً للعرب ومعتقداتهم، وهذا قد يكون مناسب للقارئ العامي ولكن قطعًا لن يكون مناسبًا للباحث أو الدارس المتخصص الذي يريد أن يقف على النص كاملًا حتى يعالجه معالجة صحيحة. إلا أن الكاتب لم يراعِ مشاعر العرب في صياغة للكتاب على نحو القرآن، على شكل سور وآيات؛ مثلًا يقول: «**سورة الوعي وفيها تسع آيات**».

الكتاب أشبه بتغريدات - لقصرها - تتضمن بعض الحكم والتي يلاحظ أن بوذا كان يُكثر من ضرب الأمثال والتشبيهات وذكر الحياة ما بعد الموت وحصول الجزاء والعقاب على إثر أفعالنا الدنيوية ودخولنا الجنة والنار، وكذا كان «الزهد» هو الجانب الأكبر من وصايا وحكم بوذا والتحرر من كل رغبة.

هناك بعض نصوص بوذا لها معنى مطابق للقرآن وقد سبقني إلى ذكرها فادي أبو أحمد وهي:

- «**ما نفع تلاوتك الآيات إن لم تأخذ أنتَ بها**». يشبه قوله تعالى: [**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**] (البقرة : ٤٤).

- «**لا في السماء ولا في البحر المحيط ولا في كهوف الجبال ليس في الأرض كلها مأمن من الموت**». يشبه قوله تعالى: [**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**] (النساء : ٧٨).

- «**كل مخلوق فان**». مثل قوله تعالى: [**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**] (الرحمن : ٢٦).

ولكن أقول:

لعل النص الأول يطابق قوله تعالى: [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**] أكثر. والنص الثاني كذلك: [**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ**].

ويلاحظ كذلك تكرار زهد بوذا في المنازل والنساء وعلى سبيل المثال قوله: «**لمغادرة سبيل الظلام ومباشرة سبيل النور، على الحكيم أن يهجر البيت إلى حيث لا بيت**». و«**ما دامت هنالك رغبةٌ لم تقتلع ولو ضئيلة لرجلٍ في امرأةٍ فسيظل ذهنه عالقًا مثل عِجلٍ رضيعٍ بأمِّهِ**».

وهذا الزهد يشترك معه ما يُنسب إلى السيد المسيح، فقد نسب إليه أنه قال: «**إني أكببت الدنيا على وجهها، وقعدت على ظهرها، وليس لي ولد يموت ولا بيت فيخرب، فقالوا له: "أفلا تتخذ لك**

بيتًا؟" قال: "ابنوا لي على طريق السيل بيتًا!" قالوا: "لا يثبت... وأفلا تتخذ لك زوجة؟" قال: "وما أصنع بزوجة تموت؟"»[119].

ويلاحظ أيضًا تكرار كلام بوذا عن السلام وعدم العنف وعدم مقابلة من اعتدىٰ عليك باعتداء، في قوله:

- «**لا يُردَّ طاهرٌ الضربة. الويلُ لِمَن آذى طاهرًا. الوَيلُ مضاعفًا لمن رد ضربة**».

- «**ليس ناسكًا من يضربُ الآخرين. ليس متقشفًا من يهينُ الآخرين**».

- «**ليس عادلًا من سوى أمرًا بالعنف**».

ومع ذلك ترىٰ البوذيين يضطهدون المسلمين في بورما. فضلًا عن النزعة المتطرفة التي طرأت علىٰ بعض رهبانهم في سريلانكا تجاه الأقليات ودخول تلك البلاد حربًا أهلية دموية استمرت عقدين ونصف (وقد قرأت بحثًا لكاتبة سورية في مجلة البحرين الثقافية حول هذا وليس بين يدي الآن).

وتبقىٰ نقطة في الختام: هل بوذا نبي؟ هذه مسألة لا يوجد فيصل يحسمها. نعم هناك بعض الأديان يُشتبه أن أصلها سماوي، مثل المجوسية، فقد أُثِر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله أنهم كانوا أهل الكتاب فيما رواه الثعلبي في تفسيره وغيره من الأئمة.

والأنبياء كثر والنسبة الساحقة منهم مجهولين، وقد قال أبو ذر: قلت: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: (**ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيراً** وقال مرة: **خمسة عشر**)[120]. وفي القرآن ورد ذكر ٢٥ نبي ورسول وفي السنّة ذكر اسم نبي واحد من غيرهم وهو يوشع بن نون.

[119] الزهد للإمام أحمد بن حنبل، صـ١٤٣.

[120] صححهُ الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٦٦٩).

وأغلبهم هم الأنبياء الأوائل (آدم، نوح، إدريس) ثم يأتي الأنبياء من ذرية سام بن نوح ومنهم العرب البائدة (هود وصالح) وأغلبهم ينحدر من ذرية إبراهيم من ابنيه إسحاق وإسماعيل (كأنبياء بني إسرائيل وعيسىٰ بن مريم ونبينا محمد عليهما السلام). فالشاهد أن هناك مساحة كبيرة جدًا من الأنبياء قد يكونون من غير ذرية سام بن نوح. (أي في غير المنطقة الجغرافية لما يعرف بالشرق الأوسط الآن).

وقد شاهدت فلمًا من إنتاج BBC قديمًا وهو (The Life Of The Buddha) يناقش هذه القضية. ولكن كما أسلفت أن هذا لا يترتب عليه شيء.

٢٥ يناير ٢٠١٩م – ١٩ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٤٠هـ

شرح عمدة المرأة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: شرح عمدة المرأة: مائة حديث منتقاة من أحاديث المرأة.**
- **اسم المؤلف: عادل حسن الحمد.**
- **عدد الصفحات: ١٤٤.**
- **دار النشر: دار اليقين.**

التعليق والمناقشة:

اختيرت أحاديث هذا الكتاب من كتاب المؤلف الموسوعي (موسوعة أحاديث المرأة في الكتب الستة) وهو بحث دكتوراه ومطبوع في جزئين من قبل (مركز باحثات لدراسات المرأة).

وسوف أتكلم عن منهجية المؤلف – حفظه الله –:

مما يُحسب للكتيب سهولة اللفظ في إيصال المعنى وبيان الحكم الشرعي، فهو يضع الحديث ثم يضع الفوائد المستنبطة منه على شكل نقاط بشكل مبسط مراعيًا قدر المستطاع أفهام عامة الناس، وأحيانًا بعض المشايخ والعلماء قد يكثرون من استخدام المصطلحات العلمية فتكون موادهم العلمية حصرًا على النخبة من الناس ويقل نطاق انتشارها، فمحاولة تقريب العلم الشرعي إلى الناس أمر لا بُدَّ أن ينتبه إليه الشيخ أو الداعية.

فمهما كان الحديث عسير الفهم أو لم تفهم دلالته بشكل واضح فسوف تجد في النقاط ما يجلي غموضه، كما عمد المؤلف أحيانًا إلى توضيح غريب ألفاظ الحديث.

بعض الأحاديث لا يقتصر المؤلف على بيان ما يهم المرأة بشكل خاص مثل حديث (**أربعة في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**)[121]، بل تعداه إلى شرح عام للحديث، وهو أمر حسن، والمثل يقول: زيادة الخير خيرين.

أظن النقطة الوحيدة التي عضدها المؤلف بذكر النقولات هي قضية لباس المرأة في الحج وجعلها تحت عنوان «**قيل لكِ عند الإحرام: لا تتنقبي، ولم يقل لكِ: اكشفي عن وجهك للرجال الأجانب**»، وأورد فيها نقولات ابن القيم في استبدال النقاب واللباس المفصل على الوجه والكفين بغيره في الحج دون الكشف، واختار المؤلف هذا القول ورجحه.

هناك نقطة أظن أن المؤلف تجاوزها، وهو حديث أبو هريرة المتفق عليه (**خير نساء ركبن الإبل**)، وفيه دلالة على جواز قيادة المرأة.

هناك بعض الأحاديث لها دلالات واحدة وإن وردت بألفاظ مختلفة، والمؤلف أعاد تكرار هذه الفوائد - ربما - لأهميتها، وهي قضية أن تستفتي المرأة في شؤونها الخاصة من تثق بدينه، مثل قضايا الطهارة ونحو ذلك مما هو خاص بالمرأة، ولعل تأكيد المؤلف لهذه القضية ضمن خانة الفوائد لها اعتبارات منها:

- أن نساء الصحابة وهن قدوات نساء المسلمين كن يسألن الرسول عن شؤون دينهم وما يعرض عليهم في أمورهن الخاصة من طهارة والأمور الزوجية الخاصة، فإن كن هؤلاء قد فعلن فما يمنعك من فعل ذلك؟!

- أن طبع المرأة الحياء، فهو أراد أن يبين أن الحياء يجب أن لا يكون متعارضًا مع الاستفتاء والسؤال، فإن كان الحياء مانعًا فيعني جهل المرأة بالحكم الشرعي ووقوعها في المحظور.

---

[121] صحيح مسلم (٩٣٤).

في الختام: الكتاب قصير وتنتهي منه في جلسة واحدة، وتخرج منه بكم لا بأس به من الفوائد.

١٠ فبراير ٢٠١٩م – ٥ جمادىٰ الآخر ١٤٤٠هـ

رواية: ثلاثية غرناطة

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: ثلاثية غرناطة.**
- **اسم المؤلف: رضوى عاشور.**
- **عدد الصفحات: ٥١٥.**
- **دار النشر: دار الشروق للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

رواية (ثلاثية غرناطة) ربما أبرز ما قدمته الأديبة رضوىٰ عاشور، هذه المادة تتكلم عن فترة ما بعد سقوط مملكة غرناطة علىٰ أيدي مملكتي قشتالة وأراجون، وبدأت نهاية للوجود الإسلامي العربي في الأندلس عمومًا.

وأنا لجهلي بالتاريخ الأندلسي كنت أظن أن التواجد العربي انتهىٰ بمجرد سقوط دول الطوائف (المسلمة!)، لم أعلم أن الأمر استغرق قرنًا تقريبًا حتىٰ يُمحىٰ وجود العرب بشكل كلي، تقلب العرب ما بين التقية والمراوغة والحيل والاستضعاف ومحاكم التفتيش والاعدامات ولَم يُجد كل هذا، إلىٰ أن قُضي عليهم تمامًا في الأندلس سنة ١٦٠٩ أي بعد قرن من سقوط غرناطة ١٤٩١، وأستثني من هذا الفناء من تنصر بصدق وأصبح ذو جلد في ديانته الجديدة أكثر حتىٰ من أصحابها الأصليين.

هذه الرواية تَحكي قصة أسرة أبو جعفر الوراق جيلًا بعد جيل، منذ سقوط غرناطة حتىٰ انتهاء الوجود العربي في الأندلس، وكم كان كفاح هذه الأسرة بشكل أو بآخر عسيرًا علىٰ امتداد الزمن أمام قوانين النصارىٰ الجديدة في محاولة ترسيخ النصرانية في نفوس العرب، وعن ازدواجية الجيل

الناشئ ما بين «بقايا الإسلام» والنصرانية واللغة العربية واللغة القشتالية وازدواجية الاسم العربي والقشتالي، وما بين الحياة داخل البيت وخارج البيت.

تحكي عن أحياء الأندلس، حي البيازين في مملكة غرناطة تحديدًا، والتفرعات الجغرافية وكأن المؤلفة قد عاشت هنالك دهرًا من الزمن.

وعن تقلب الأحوال السياسة، انتفاضة تلو أخرىٰ، وهزيمة وانتصار، وتفاوض ورضوخ وخداع، كيف يؤثر هذا علىٰ البنية الاجتماعية في الحواضن العربية، (قارن ما بين الحياة في حي البيازين وما بين قرية الجعفرية علىٰ سبيل المثال أو حتىٰ ما بين القوانين في غرناطة وغيرها من المدن ابتداءً).

تحكي عن ثنائية الإحجام والإقدام في الأحداث الكبرىٰ الفارقة، ما بين شخص خائف عن أهله وعياله وما بين شخص رأىٰ إن تلكئنا لهذه الحجة ولن نقدم فسوف نخسرهم عاجلًا أم آجلًا، كيف هذا يجادل ذاك وكيف الثاني يرد عليه.

تحكي كيف أن البعض يستنشق فلسفة الموت ليجاريها ويضادها إذ بِهِ يدخل في أوسع أبوابها.

تحكي عن تخاذل المسلمين في المغرب والمشرق عن نصرتهم حتىٰ كلوا واستيئسوا وأصبحوا يطلبون الخلاص لا من المسلمين بل من الفرنسيين والإنجليز! وأصبحوا يفرحون لانتصارات هؤلاء كما ولو أنهم من المسلمين فعلًا.

وتحكي وتحكي ...

من الواضح أن المؤلفة قد استفرغت وسعها في كتابة روايتها هذه من خلال رحلاتها الاستقصائية وجردها لكتب التاريخ وإنشاء من الحديث التاريخي العابر فصلًا كاملًا في روايتها، كما تَحكي ذلك في ملحق الكتاب (وملحق الكتاب فيه محاضرة للمؤلفة عن روايتها وهو موجود في الطبعات

المتقدمة فقط، وهو هام لترىٰ كيف أن الروائي بحق يتعب سنوات حتىٰ ينجز روايته وقارن هذا مع مجهود كل من هب ودب وكتب وأصبح روائيًا في زماننا هذا!).

وهذا يؤكد نظرتي أن الروائي الجيد لا بُدَّ أن يجمع فوق الإحاطة الجيدة باللغة، أن يلم بتلابيب الموضوع المراد الكلام عنه، فرضوىٰ عاشور لم تكن لتتكلم مثلًا عن تفاصيل المدن والحمامات العامة بهذا التفصيل مالم تقرأ كثيرًا في جغرافيا الأندلس وعادات أهلها.

إن كان هنالك ثمة استدراك أو تعقيب في شطحة تكررت بهذه الرواية، فهي تعليق اليقين بالنصر الفوري فإن لم يحدث فإن اليقين ينهار، فعندما يحتدم القتال الكل يتعلق بالله وعندما ننهزم قد يكفر البعض بالله، فيقول لو كان موجودًا أو كنا علىٰ حق لانتصرنا، هذه الثنائية الساذجة أوردتها المؤلفة علىٰ لسان الوراق عندما حرق الورق، وهي تستحق منشورًا مستقلًا للكلام عنها.

فالخلاصة هذه الرواية صحيح أن أحداثها بطيئة وقد تكون مملة، ونهايتها متوقعة نوعًا ما، إلا أنها قد تشجعك بشكل أو بآخر للقراءة في التاريخ الأندلسي وقد تكون هذه الرواية هي البوابة لهذا.

٥ مارس ٢٠١٩م – ٢٨ جمادىٰ الآخر ١٤٤٠هـ

رواية: كوخ العم توم

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية:** كوخ العم توم.
- **اسم المؤلف:** هيريت ستو.
- **اسم المترجم:** منير البعلبكي.
- **عدد الصفحات:** ٢٩٣.
- **دار النشر:** دار العلم للملايين.

التعليق والمناقشة:

كانت الرواية ضمن دعاية خدمت الحكومة الفدرالية الأمريكية ضد الكونفدرالية الأمريكية فيما يعرف بالحرب الأهلية الأمريكية، رغم أن العمل كُتب قبل تسع سنوات من الحرب.

ويذكر المترجم في المقدمة: «**ولم تجتمع السيدة ستاو إلا مرة واحدة بالرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن. وكان ذلك سنة ١٨٦٢ والحرب الأهلية بين ولايات الشمال المناوئة للإسترقاق وبين ولايات الجنوب المؤيدة له، محتدمة أشد الإحتدام، ولم تكد تدخل على الرئيس حتى هرع لاستقبالها وقال: "حسنًا، مسز ستاو، إني سعيد بأن أرحب بكِ بوصفك مؤلفة تلك القصة التي أحدثت هذه الحرب العظيمة!"**» ثم يأتيك «طرطور» ويقول لك أن الرواية لا فائدة ولا قيمة لها على أرض الواقع.

والرئيس هنا لا يقصد أن الحرب قامت بسبب روايتها، ولكن كانت رافدًا مهمًا في الحملة الشعبية المناوئة للرق والتي تبناها لنكولن في برنامجه الانتخابي والتي بسببه تمرد الجنوب وحصلت الحرب الأمريكية.

والعمل شبّ من الطوق المحلي حتىٰ أصبح عالميًا، وأصبحت هذه الرواية تُعرف بها اصطلح عليه بـ«الأدب العالمي» وترجمت إلىٰ لغات متعددة وحولت إلىٰ أفلام ومثلت كمسرحيات وقد عددها المترجم في المقدمة.

والنفس المسيحي بيّن من أول الرواية إلىٰ نهايتها، ولعله يحاول أن يعالج مشكلة الكفر بالمسيحية التي قد وجدت لدىٰ العبيد السود أو بعضهم، وهذا قد تلتمسه لدىٰ فريدريك دوجلاس العبد الذي كتب مذكراته ونشرت بـ(مذكرات عبد أمريكي)، فقد أفرد ملحقًا يهاجم فيه تلك المسيحية التي تؤيد الرق.

إلا أن أحيانًا لا تقدم الرواية ردًا مباشرًا علىٰ أطروحات المخالف، وذلك أن رجال الكنيسة في الولايات الجنوبية – المؤيدة للرق – كانوا يستدلّون بمشروعية الإسترقاق بناءً علىٰ أن أبناء كنعان بن حام (وهو جد السود) قد لعنوا في الكتاب المقدس ووجه اللعنة أنهم سوف يكونون أرقاء لأبناء عمومتهم من بقية الأمم. فهذه نقطة الارتكاز، ولم تعالجها الرواية، إلا أنها سرت بالعموميات في ذكر الرحمة والعطف والخلاص ونحو ذلك.

ولفت انتباهي إلىٰ تشابه نص مسيحي وجد في الرواية وهو نص من إنجيل متىٰ، الإصحاح ٢٥ مع نص إسلامي وهو حديث قدسي في صحيح مسلم؛ جاء في الإنجيل: «**ثم يقول – أي الرب – أيضًا للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته * لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريبًا فلم تؤوني، عريانًا فلم تكسوني، مريضًا ومحبوسًا فلو تزوروني، حيئنذ يجيبونه هم أيضًا قائلين: يا رب متى رأيناك جائعًا أو عطشانًا أو غريبًا أو عُريانًا أو مريضًا أو محبوسًا ولم نخدمك؟ فيجيبهم قائلًا: الحقَّ أقول لكم: بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر، فبي لم تفعلوا**». بينما جاء في صحيح مسلم: قال الرسول ﷺ: (**إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا**

عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي).

وأنت ترىٰ أن بعض الجزئيات فيها شبهة وهي أنك سوف تسأل «من الله»، «لماذا لم تفعل لي كذا» و«لما تقول كيف أفعل وأنت رب العالمين يقول لو فعلته للناس لوجدت ذلك عندي».

وقد ذكر المترجم أيضًا في المقدمة أن العمل هذا واقعي ١٠٠٪ ولما قالت المؤلفة أني لم أؤلف كوخ العم توم، تعجب الناس فأجابت قائلة: «**أجل أنا لم أؤلف هذه القصة، كل ما فعلته أني دونت ما شاهدته بعيني في بعض ولايات الجنوب!**» ولعل هذا صحيح، فبعض تفاصيل القصة لا ترىٰ فيها إثارة ولا التغير الفجائي الذي يصطنعه أصحاب الروايات التي هي من وحي خيال الروائي، بل تغيرات رتيبة وعادية كأنها تَشي بأن تلك القصة هي قصة شخص بعينه فعلًا.

المآسي التي عرضت في هذا العمل هي ذاتها في أي عمل يذكر مشكلة الرق والزنوج الأفارقة في أمريكا:

– تشتت الأسرة وتمزيق العلاقات، وهذا يحصل عندما يقوم أحد الأسياد ببيع أحد الرقيق لديه ويكون هذا العبد متزوجًا ولديه أولاد ويفرق بينه وبين أولاده وقد لا يراهم أبد الدهر، أو العكس عندما ينتزع الطفل الرضيع من الأم ويباع أو عندما تعرض الأسرة كلها في المزاد فكل فرد فيها يباع لشخص فيتمزق شمل الأسرة، وأنه مهما كان السيد طيبًا أو شريرًا فتشتيت الأسرة أمر لا بُدَّ أن يقع فيه إن تعثرت تجارته أو أصبحت تحت طائلة الديون. وهنا تفننت المؤلفة في استعراض وإظهار

عاطفة الأم عندما تفقد ابنها الرضيع ولن تراه بعد ذلك، وكيف هي مشاعر الأب وهو يودع أسرته الوداع الأخير وغيرها الكثير.

- التعذيب والقتل وعدم إنصاف العبيد دائمًا؛ وفي رواية (١٩٤٨) لجورج أورويل ذكر في (صـ٧٨) عن محاولة وأد الغريزة الجنسية لدى الزوجين في الحزب الشيوعي حسب تصورِّه وأفضى هذا إلى عدم الشعور بالحميمة مطلقًا بين الزوجين وإفراغ العملية الجنسية من أي شهوة قد تحصل؛ فإن على النقيض من ذلك، أفضت العبودية في النظام الإقطاعي إلى تجريد الأم من مشاعرها تجاه ابنها، جراء ما حصل لها مسبقًا من انتزاعهم منها كما ذكرت كاسي (صـ٢٢٣)؛ فالجهات الحاكمة المؤدلجة عندما تطبق أيديولجيتها المادية والمريضة على الناس قد يُفضي ذلك إلى تُحلل الناس من إنسانيتهم أحيانًا.

- تكلم سانت كلار من الصفحة ١٠٦ إلى الصفحة ١١٩ في حوار فلسفي رائع مع ابنة أخيه ماري عن العبودية. تعرف من هذا الحوار أن التغيرات المجتمعية الكبرى لا تكون فردية، بل لا بُدَّ من تغير مفهوم ثقافة المجتمع حتى يحصل هذا التغير، وهذا يكون عبر تكتلات ضغط، تكسر التابو فتجعلهُ أمرًا عاديًا مع الوقت وتنافح منافحة شرسة تجاه أصحاب المصالح الذين لن يتخلوا عن مصالحهم بسهولة وهذا ما كان في الحرب الأهلية الأمريكية التي راح ضحيتها مليون والتي انتهت العبودية بسببها.

١٢ يوليو ٢٠١٩م - ١٠ ذو القعدة ١٤٤٠هـ

سيرة الإمام أحمد بن حنبل

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: سيرة الإمام أحمد بن حنبل.
- اسم المؤلف: صالح أحمد بن حنبل.
- اسم المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد.
- عدد الصفحات: ١٦٢.
- دار النشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع.

التعليق والمناقشة:

الكتاب من رواية أبو بكر عبد الله الأسفرايني وعنه أبو محمد الشيبني المخلدي وعنه أبو عثمان إسماعيل الصابوني. وهي مخطوطة بلا عنوان وإنما اجتهد صاحب المخطوط أن يضعه على هذا النحو وسار عليه المحقق، وهذه المخطوطة وجدت في مكتبة المحقق الكبير حسن حسني عبد الوهاب رحمه الله ثم أعطاها ابنه عطية إلى دار الكتب الوطنية بتونس ثم صورها المحقق وعمل على تحقيقها.

والجيد في هذه السيرة أنها لابن الإمام أحمد الأكبر صالح - والإمام أحمد يُكَنّى بأبي عبد الله رغم أن عبد الله ابنه الأصغر ولكنها كُنية عُرِفَ بها منذ صغره - والبعض أحيانًا ينتقد التراجم وما فيها من مبالغة في إظهار زهد الإمام والعالم، وربما الرواة قد نقلوا لنا ما رأوه فقط من معايشتهم الشخصية للإمام في مواضع معينة، وهذا يختلف عندما يكون الراوي هو الابن الذي يكون احتكاكه مع الأب غالبًا أكثر من احتكاك التلميذ أو الصديق مع صديقه. فهو يعيش معه وتربى في كنفه، فلا ينقل لك المشاهد الجزئية ويحصر المشهد عليها، بل تراه أكثر شمولية في العرض.

والمذكرات هذه أو السيرة الذاتية ذُكر فيها نسب الإمام أحمد وصولًا إلى إسماعيل عليه السلام وسنة مولده وكيف طلب العلم وكم سنة وخلال هذه الأمور ينقل لك الابن صالح بعض الجزئيات مثل حب الإمام أحمد لنوع معين من الطعام كقوله: «**وكان كثيرًا ما يتأدم بالخل، وربما رأيته يأكل الكسر، فينقض الغبار عنها، ثم يصيرها في قصعة ثم يصب عليها الماء حتى تلين، ثم يأكله بالبلح، وما رأيته قط اشترى رمانًا ولا سفرجلًا ولا شيئًا من الفاكهة، إلا أن يشتري بطيخة فيأكلها بالخبز أو عنبًا أو تمرًا**» وكيف يصنع عندما يريد أن يتضوء أو كيف يسير في الجنازة، ونحو ذلك من الحوادث.

والجانب الأكبر من السرد هي طبعًا «محنة خلق القرآن»، ولكن الجانب المهم في هذا السرد هو كون أبناء الإمام أحمد يكادون أن يكوا الرواة الحصريين لما حصل بعد انتهاء المحنة وإلزام الإمام أحمد في العيش بمنطقة معينة توقف فيها عن مخالطة الناس والتحديث لهم، فلم يخالط إلا أبنائه.

ويذكر صالح كذلك خلال الكتاب أو في أثناء العرض التاريخي لبعض الأحداث.. بعض المسائل الشرعية التي تباحثها مع والده والتي لها علاقة بالأحداث، مثل صلاة الفرد وهو مقيد اليدين (وذلك بعد صلاة الإمام أحمد على صاحبه محمد بن نوح وهو مقيد اليدين) وكذا لما ذهب الإمام أحمد مع مجموعة من الأشخاص وفاتتهم صلاة الجمعة ثم صلوها ظهرًا في جماعة. فأحيانًا يذكر حدثًا معينًا ثم يذكر رأي الإمام أحمد فيه أو سؤاله له ويذكر دليله غالبًا من أثر أو حديث.

ومما أردت التعليق عليه في هذه الأثناء بعض الحوادث أوردها هنا:

- قال أبي: «**لما كان في شهر رمضان ليلة تسع عشر خلت منه، حولت من السجن إلى دار إسحاق بن إبراهيم (وهو وزير الداخلية في تلك الأيام)، وأنا مقيد بقيد واحد، يوجه إلي كل يوم رجلين، وهما أحمد بن رباح، وأبو شعيب الحجام يكلماني ويناظراني؛ فإذا أرادا الإنصراف، دعي بقيد فقيدت فمكثت على هذه الحال ثلاثة أيام، وصار في رجلي أربعة أقياد، فقال لي أحدهما في بعض الأيام في كلام الدار، وسألته عن علم الله، فقال: "علم الله مخلوق"، قلت: "يا كافر كفرت"، فقال لي**

الرسول الذي كان يحضر معهم من قبل إسحاق: "هذا رسول أمير المؤمنين!" فقلت: "إن هذا قد كفر"» (صـ٦٥).

فبعض الكهنة والمجادلين عن الطواغيت يكفروا ويقعوا في المكفرات التي تخرجهم من الملة، وهذا أمر متصور، فلا يمجّه أحد إن حصل في زماننا وقد حصل في زمن الإمام، ولاحظ أن اعتراض من كان يحضر تلك المناظرات على تكفير الإمام أحمد هو من جنس ما يعترض به البعض الآن (أن هذا رسول أمير المؤمنين!) يعني شيخ رسمي نصّبته السلطة، ومع ذلك لا تغير هذه التسمية من الأمر شيء. فالعبرة بالحقائق لا المسميات. مع الأخذ بالاعتبار أن تكفير الإمام أحمد بعد أيام من مناظرته لهم وإقامة الحجة عليهم وهو شخص مؤهل لإطلاق حكم التكفير ويفرق هذا قطعًا عن الجاهل الذي لا يميز هذه الأمور وليس مؤهل لأن يصدر الأحكام ويقيس هذه بتلك دون النظر إلى الفوارق في الأحوال والأهلية.

- وقد اجتمع الإمام أحمد مع كهنة المعتصم وعلى رأسهم ابن أبي دؤاد، وحصلت مناظرة بين الإمام أحمد وبينهم في حضرة المعتصم، وهو لم يكن مهتمًا بهذه المسألة بل قال للإمام أحمد في صدر المجلس: «**لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي ما عرضت لك**» المهم لما تردد في أمر الإمام أحمد قال له رأس السوء ابن أبي دؤاد: «**فهو والله يا أمير المؤمنين، ضال مضل مبتدع وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم**» ولما سألهم قالوا: «**يا أمير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع**». (صـ٦٩)

فالشاهد أن ليس كل شهادة أو حكم يصدره مشايخ السلطة يعني أنك بالضرورة كما صوروك، وأنَّ حكمهم هو الفاصل وهو الحق المبين، والعبرة ليست إن كنت في جانب السلطة أو ضدها، فهذه أمور شكلية، بل الحق قائمًا بذاته، فقد تكون أنت على حق رغم أن الكثرة على خلافك، وفي ذلك للإمام ابن القيم كلام بديع في إعلام الموقعين (٣/ ٣٩٨) يقول فيه: «**واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق، وإن كان وحده وإن خالفه أهل الأرض... وما عرف**

المختلفون أن الشاذ ما خالف الحق وإن كان الناس كلهم عليه إلا واحدًا منهم فهم الشاذون، وقد شذ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا فكانوا هم الجماعة وكانت القضاة حينئذ والمفتون والخليفة وأتباعه كلهم هم الشاذون وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة».

- ذكر الإمام أحمد أنه يرد على القوم فيما يعلم مما هو في الكتاب أو السنة أو ما ورد فيه من خبر أو أثر وأما ما يستدل به خارج هذا كان يقول: «لا أدري ما هذا» فرغم علمية الإمام أحمد إلا أنه لم يتكلم في كل شيء أو خارج حدود علمه وكان يُقر بعدم معرفته ويقف عند ما يعرف، وهذا مثل صنيع الإمام مالك بن أنس فخالد بن خداش بعثه قومه من العراق ليسأل الإمام مالك عن أربعين مسألة لم يجب إلا على خمس، وقال على البقية: لا أدري. كما حكى ذلك الإمام ابن عبد البر في كتابه (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء). أحيانًا أستحضر هذه النماذج وأنا أرى بعض الشيوخ وطلبة العلم يتقحمون كل باب من أبواب العلم مع عدم الإلمام أو المعرفة به فيأتون بالكوارث. وما ضرهم لو قالوا: لا أعلم وقد قالها من هو خيرٌ منهم.

- في ظل احتدام المناظرة قال ابن أبي دؤاد: «**يا أمير المؤمنين والله لئن أجابك لهو أحب إلي من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار**» (صـ٧٤) فتراجعك عن الحق أحب إلى أهل الباطل من الملايين.

- وفي ذلك الزمن وجد مفهوم «الإقامة الجبرية» فوزير الداخلية آنذاك وجه إلى الإمام أحمد بن حنبل توجيهًا وهو «**إلزم بيتك، ولا تخرج إلى جمعة ولا جماعة، وإلا نزل بك ما نزل بك في أيام أبي إسحاق**».

- وفي ذاك الزمن كانت الشرطة النسائية تدخل مع الجلاوزة إلى بيت المتهم لتفتش النساء يقول صالح: «**فقام مظفر وابن الكلبي وامرأتان معهما، فدخلا ففتشتا البيت، ثم فتشتا المرأتان النساء**». فما يحصل اليوم ليس بدعة من القول بل هو أمر قديم ينتهجه الطغاة.

- بعد اعتلاء المتوكل سدة الخلافة وإيقافه الإمتحان في مسألة خلق القرآن حاول جاهدًا أن يتقرب إلىٰ الإمام أحمد بإرسال العطايا والأموال والموائد له، وحاول أن يجعل ابنه تلميذًا لدىٰ الإمام أحمد ليتعلم علىٰ يديه، والإمام أحمد حاول جاهدًا أن ينفذ من هذا فلم يأكل مما يرسله الخليفة له ولأبنائه ولما أكل أبنائه منه خاصمهم لشهور، والأعطيات التي ألزم أن يأخذها وزعها جميعًا علىٰ الفقراء، وتوقف عن التحديث بالإسناد. وكان يبكي ويقول: «**سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم**».

فالبعض يظن أن المشكلة في امتحان الترهيب أي السجن والحبس والتعذيب، ولا ينظر للشطر الثاني من الإبتلاء وهو امتحان الترغيب وهو تقريب السلطان لك وبعثه للعطايا والهدايا، وكلا الأمرين وجهين لعملة واحدة، فمن لم ينفع معه الترهيب ربما أُوتي بالترغيب والعكس بالعكس، والواجب يتحتم علىٰ الشخص أن يُجابه الامتحانين معًا فلا يتقرب من الحكّام إن حاولوا أن يقربوه ويثبت إن قرروا أن يبتلوه وهو المقدّم في القوم.

والشاهد أن الكتاب قصير ولطيف وفيه من الفوائد الشيء الكثير، وهو قطعة ضمن لوحة واسعة عن سيرة الإمام أحمد، ولكن ما يميزها أنه روت من أقرب طرف إليه وهو ابنه، وكل المرويات أو أغلبها - إن صح التعبير - تجدها موجودة في مراجع أخرىٰ كما هو مثبت في هامش الصفحات، ولكن ما يميز هذا الكتاب هو جمع مرويات صالح في كتاب واحد وصفها حسب التسلسل الزمني للأحداث، وهو بذلك سد الثغرات التي قد توجد في هذه المراجع، فيوجد في كتاب الحلية ما لا يوجد في كتاب المناقب والعكس بالعكس.

٢٦ مايو ٢٠١٩م - ٢١ رمضان ١٤٤٠هـ

البحرين في دليل الخليج

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: البحرين في دليل الخليج.**
- **اسم المؤلف: جون غوردون لوريمر.**
- **اسم المترجم: عباس مرشد.**
- **عدد الصفحات: ٤٢٠.**
- **دار النشر: دار الفراديس.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب هو جزء من موسوعة (دليل الخليج) للوريمر، وهي موسوعة بقت في خانة السرية ولم يرفع عنها ذلك إلا عام ١٩٧٠م بعدما كانت مصنفة أنها مادة للعمل الرسمي فقط. وقد صنفت هذه الموسوعة بناءً على طلب من حكومة الهند البريطانية لهدف، وهو إيجاد دليل سهل لموظفي الدولة ودبلوماسيها العاملين في منطقة الخليج حتى يمكن الرجوع إليها للحصول على المعلومات اللازمة بعملهم في المنطقة من أجل تعزيز النفوذ البريطاني فيها. ومن أجل ذلك بدأ لوريمر ومعه فريق متخصص بجمع الوثائق والمعلومات والتقارير السرية وغيرها ووضعت بريطانيا تحت تصرفه وبعثته كل سجلاتها ومعلوماتها ووثائقها ليكتب كتابه هذا.

ومن المعلوم أن هؤلاء المستشرقين إن كان الغاية من تأليفهم هي مخاطبة الشعوب الإسلامية فإنهم لا يُبالون بل وقد يتعمدون وضع الشبهات وإيراد بعض الأمور غير الصحيحة، ولكن إن كان العمل من أجلهم هم، ومن أجل نفوذهم، فإنهم يتحرون الدقة والصحة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. لأنهم يعلمون أن هذه المعلومة التي وضعوها قد تنبني عليها سياسة ذات يوم. فمن أجل ذلك الكتاب هذا دقيق إلى حد ما، وهو مُقسم إلى قسمين:

- قسم تأريخي.
- قسم جغرافي.

يتكلم القسم التأريخي عن تاريخ الدولة الخليجية إلى عام ١٩٠٥م فهو يُغطي القرن التاسع عشر كله تقريبًا. وهو سرد لأحداث تأريخية من خلال المنظور البريطاني للأحداث والشخصيات، فلذلك لا تتوقع أن تجد إنصافًا لأي جهة قد قاتلت بريطانيا يومًا ما مثل القواسم أو حتى جهات لم تقاتلها بريطانيا آنذاك ولكن بينها صراع سياسي مثل الدولة العثمانية؛ فهنا السرد يتغير إلى شكل يُعطي بريطانيا الحق للتدخل وأن ما فعلته هو عين الصواب للمصلحة العامة. ويرى أن الاحتلال البريطاني لدول الخليج لم يكن بالشكل المعروف، وهو بسط نفوذ عسكري وإدارة الدولة المحتلة من قبل مواطنين بريطانيين بل أخذ شكل إبرام إتفاقيات حماية مع مشايخ الخليج، وترك هامش للحرية لهذه المشيخة لإدارة شؤون حكمهم، وإذا تعارضت أساليب حكمهم مع المصالح البريطانية فإنهم يزاحون عن الصورة بشكل مباشر أو غير مباشر، هذا ناهيك عن فرضها لبعض السياسات على تلك المشايخ وممارسة الابتزاز السياسي، إذا أردت أن نكون في جانبك أفعل كذا وكذا وإلا جعلوك فريسة في وجه المعتدين.

ويُلاحظ في القرن التاسع عشر كثرة التداخل التأريخي بين إمارات ودول الخليج، وهذا سببه كثرة الغزو والقرصنة وكثرة التحالفات وتغيرها من حين إلى آخر حسب ما يستجد من أحداث على الساحة، فلم تكن المنطقة مستقرة واتساع الدول يصغر ويكبر بشكل مستمر، ولم يكن بسط نفوذ البريطانيين على سواحل الخليج مانعًا من نشوب معارك واقتتال وغالبًا ما يكون التدخل البريطاني حفاظًا على أحد المشايخ التابعين لهم إن رأت أن هنالك تحرك جدي لإزاحته من أحد الأطراف التي لا تربطهُ معهم مصالح مشتركة أو ترى أن هذا الشيخ أفضل بالنسبة إليها من المهاجمين له.

ويُلاحظ كذلك - طالما أن الحديث عن البحرين - أن الأرشيف البريطاني بدأ يُسجل أحداث البحرين بعد طرد البرتقاليين على يد الإيرانيين بقليل، ولكن كانت المعلومات قليلة جدًا، فبدأ الاستطراد في السرد بعد تواجد البريطانيين في الخليج، وأصبحوا هم المراقبين للأحداث. ويُلاحظ كذلك أن البحرين خضعت تحت نفوذ الدول المحيطة بشكل متبادل بعد دخول العتوب لها بقيادة آل خليفة، ااحتلت البحرين من قبل العُمانيين وثم في وقت لاحق دخلت تحت نفوذهم ودفعوا الجزية وأصبحوا تابعين لهم، وفي وقت لاحق أصبحوا كذلك مع الدولة السعودية ودفعوا الجزية ودخلوا تحت عباءتها، وكذلك الأمر حصل مع المصريين والإيرانيين والأتراك، ناهيك عن خضوعهم أصلًا للحماية البريطانية، فلم يكن هنالك استقلال حقيقي خلال القرن التاسع عشر مطلقًا.

ومن خلال الأحداث ترى أن بريطانيا التي تزعم أنها لا تحتل دول الخليج، قد أزاحت أكثر من حاكم للبحرين بشكل مباشر أو غير مباشر، ابتداءً من عبد الله بن أحمد آل خليفة، والتي أعطت الضوء الأخضر لإزاحته ولم تدخر جهدًا لإفشال كل محاولاته لاستعادة ملكهِ، وقد كتبت مي آل خليفة كتابًا عنه بعنوان (عبد الله بن أحمد محارب لم يهدأ)، وثم أكملت هذا النهج مع خليفته محمد بن خليفة آل خليفة وقد نفته إلى الهند، وأخيرًا كان مع عيسى بن علي آل خليفة ولكن هذا الحاكم الثالث عند وقت تأليف الكتاب لم تبدأ إجراءات عزلة بعد، وإنما بدت بوادرها تطفو على السطح.

وأما عن الكتاب فالبعض لا يريد قراءة كل محتويات (دليل الخليج) من أجل البحث عن متعلقات بلاده لأنه ضخم ويقع في غير مجلد في ٥٠٠٠ صفحة، فسهّل عباس مرشد الطريق على من يريد أن يقرأ عن بلده البحرين فقط من بين كومة الأوراق هذه ونحى نحو من سبقوه في جمع كل متعلقات بلادهم من دليل الخليج في كتاب واحد مستقل مثل: (الكويت في دليل الخليج) لخالد سعود وكتاب (تاريخ بلاد السعودية في دليل الخليج) لمحمد بن سليمان الخضيري.

وطريقة عمل عباس المرشد في هذا الكتاب هو نقل (القسم التاريخي) المتعلق بالبحرين من كتاب دليل الخليج، ثم إردافه بملاحق تتكلم عن البحرين في أجزاء أخرىٰ قد تكلم بها المؤلف في بقية دول الخليج، فهو حاول أن يشمل كل كلام عن البحرين سواء كان الذي في قسمها أو الذي في قسم غيرها. وهذه الطريقة لم تُعنَ بالترتيب الزمني للأحداث، لذلك سوف ترىٰ تقلبًا دائمًا في التواريخ والأحداث، فلا بُدَّ أن تكون منتبهًا أو حافظًا للتواريخ أو للشخصيات، وهذا التكرار وإن طال في الجانب التأريخي وملحقاته إلا أني أزعم أنه سوف يرسخ المعلومة أكثر في ذهن القارئ.

ومن نافلة القول، ذكر أن الكتاب كان مليء بل طافح بالأخطاء المطبعية، فالكتاب طبع دون مراجعة ولا تدقيق، فلذلك توجد أحيانًا أخطاء في الكلمات والشخصيات بل حتىٰ والتواريخ، وأنت سوف تفهم المعنىٰ أو المقصد من خلال السياق وإن وجدت بعض الأخطاء في تسمية بعض الأشخاص أو الحوادث أو المعاني.

ومن خلال القسم التأريخي قد تستطيع تحديد الدخول الأول لبعض الأسر إلىٰ البحرين، مثل الدواسر الذي يقول المؤلف: «**يبدو أن الدواسر - الذين يقيمون الآن في بوادي البديع والزلاق - وصلوا أول مرة إلى البحرين في سنة ١٨٤٥**» كما في صفحة ٧٧.

وكذلك النعيم الذي يقول المؤلف: «**وفي خريف ١٨٧٧م تبين أن شيخ البحرين كان ما يزال على علاقة وثيقة بالنعيم في الزبارة، فكان يسمح لهم بزيارة البحرين**» ثم ذكر أنهم دخلوا البحرين بعد نوفمبر من عام ١٨٧٨ م كما في صفحة ١٠٤-١٠٥.

هذا فيما يتعلق بالجانب التأريخي، أما القسم الجغرافي فالكلام فيه نوعًا ما مخيف، إذ يبدو أن الإنجليز حاولوا عمل إحصاء دقيق لكل سكان البحرين ولم يكتفوا بذلك بل حتىٰ في ممتلكاتهم الشخصية. وتجد أن في الإحصاء الذي عملوه أن عدد السنة أكثر من الشيعة فكان عدد السنة ٥٩ ألف مقابل ٤٠ ألف، وشمل هذا الإحصاء المدن والقرىٰ.

وتكلم عن الأسر الموجودة في البحرين وعن أصلهم القبلي وتفرعاتهم - وخذ بالك أن صاحب الكلام بريطاني وليس باحث في علم الأنساب ولكن هكذا يصنع النفس الاستخباراتي لدى البريطانيين -؛ وذكر أن بعض العوائل حاولت الانتساب إلى بعض القبائل فرفضت هذه القبائل نسبتها إليها، وذكر أن بعض العوائل سميت على جدها الأكبر الذي كان خادمًا عند قبيلة أخرى (أي أنه لم يحترز كما يتحرز العرب عادةً في الكلام عن هذه المواضيع).

وتكلم عن المدن وأحيائها وعدد سكانها واختلافاتهم الاثنية وتنوع جنسياتهم، وعدد الأسر التي تسكن فيها، وعدد الخيول والحمير والماشية والبيوت التي فيها!!!

ولما تكلم عن التجارة تكلم عن الواردات والصادرات وكيفية احتساب قيمة اللؤلؤ عن بيعة في أسواق الهند، بشكل دقيق جدًا .

فكان المخيف في هذا الجانب هو دقة التوصيف والإحصاء الدقيق، فتشعر أنك كنت عارٍ أو مكشوف أمامهم، وكلما كنت مفهومًا أمام المحتل كلما سهل عليه إكمال احتلالك.

وهذا الكتاب دليل الخليج مرجع مهم لا يستغني عنه الباحث، في بيئة لم تكن الكتابة منتشرة فيها، وكانت تكثر الأمية فلم يكن هنالك مؤرخون كثر دونوا تاريخ تلك الفترة، خلا بعض الرحالة الذين كانوا يدونون الحياة الاجتماعية في بقعة جغرافية صغيرة هم عاشوا فيها، بخلاف هذه الموسوعة التي أتت على كل دول الخليج تقريبًا ومعهم بلاد فارس (إيران حاليًا)، فإنها كانت شمولية وكان أصحاب القرار هم من يكتبون لا مجرد رحاله للتو يتعرف على القوم الذين وفد عندهم ولا يكتب إلا ما يراه هو بشخصه فقط.

ودليل الخليج وإن كان جزئيًا يُسجل نظرة البريطانيين للأحداث إلا أنه لا يجزأ عن مذكرات القادة البريطانيين الموجودين في المنطقة ولا يجزأ كذلك عن الوثائق البريطانية، فكلاهما يكمل الآخر.

فلذلك كتاب مثل (البحرين ١٩٢٠-١٩٧١، قراءة في الوثائق البريطانية) قد يكمل الصورة ولكن في القرن العشرين أي أن فترة هذا الكتاب كانت بعد التاريخ الذي دونه كتاب (دليل الخليج).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٣ يونيو ٢٠١٩م - ٢٠ شوال ١٤٤٠هـ

التبرئة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: التبرئة: رسالة في تبرئة أمة القلم والسيف من منقصة تهمة الخور والضعف.**
- **اسم المؤلف: أيمن الظواهري.**
- **عدد الصفحات: ٤٠٤.**
- **دار النشر: دار التوحيد.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من قراءة هذا الكتاب مؤخرًا، وكان السبب من قراءته وجرده مساجلة حصلت بيني وبين أحدهم حول بعض محتوىٰ هذا الكتاب، فكنت قد احتجت أن أرجع إليه، وأجرده كاملًا وذلك لطول عهدي به للوقوف علىٰ بعض هذه الملاحظات وتدوين الرد عليها، وقد أرجأت هذه القراءة حوالي سنة لأن هناك ما هو أهم في نظري.

عمومًا هذا الكتاب أُلف علىٰ إثر زوبعة حصلت لَمّا نشر المرجع الجهادي الكبير (السيد إمام أو الدكتور فضل أو عبد القادر بن عبد العزيز) مراجعة «ترشيد الجهاد» من داخل السجون المصرية، وقد رأىٰ البعض أن هذا المرجع قد انقلب علىٰ أصحابه ونقض مذهبه، وأنها مراجعات من جنس مراجعات (الجماعة الإسلامية) لها ما بعدها من تقويض النشاط الجهادي.

وفي النظر في مراسلات قيادات القاعدة ضمن وثائق أبوت آباد، نرىٰ كالتالي:

- أنهم خلصوا إلىٰ أنه لا بُدَّ من كتابة الرد عليها؛ لأن الإعلام ضخّمها جدًا، وحاول أن يجعلها حديث الساحة، وساهمت في ذلك قنوات مثل قناة الجزيرة فقد خصصت لها أكثر من برنامج، فضلًا

عن الندوات التي نقلتها آنذاك الجزيرة مباشر، فكان عدم الرد عليها صور من صور الضعف وإن كان الرد عليها مفسدة؛ إلا أن مفسدة السكوت أكبر.

- الظروف غير المستقرة جعلت الردود تتأخر، فرغم إلحاح - صاحب الرسالة المجهول - إلا أن الشيخ أبو يحيى الليبي لم ينشر رده المعنون بـ(التبديد لأباطيل وثيقة الترشيد) إلا بعد ٨ شهور من نشر الوثيقة ونشر الجزء الأول منه، وقال لو نشر كاملًا لربما احتاج الأمر إلى سنتين! وإلى اليوم لم ينشر الجزء الثاني.

- من المتوقع أن السيد إمام سوف يُصدر ردًا عصبيًا مشحونًا مليئًا بالشتائم والسباب على ما سوف يكتب، وسوف يكفينا ذلك مؤونة الرد، وبذلك نكتفي بما كتب وأُصدر ونجعل خاتمة الموضوع هو سبه وشتمه.

- أن الشيخ الظواهري عندما ألف كتابه أرسل نسخًا منه لعدد من الأخوة لإبداء رأيهم من الناحية العلمية، ومن ناحية الأسلوب حتى يخرج من حظ نفسه، ولا ينجر لمستوى الوثيقة. وقد أجابه الشيخ محمود «عطية الله» والحافظ «سلطان».

- الرد في موضوع التأشيرة هل هي عقد أمان أو لا، وتوسّع الدكتور الظواهري في هذا ليس بسبب طرح السيد إمام، بل لاعتراضات قد أوردها عطية الله، رأى أنه من الضروري إضافتها جملة واحدة امتطائًا لاعتراض سيد إمام، وفي ذلك يقول صاحب الرسالة المجهول: «**وكما سترون فإن محمود «عطية الله» ركز على مراجعة الفصل السابع الخاص بالتأشيرة والأمان، وقد أعاد أبو محمد «الظواهري» كتابته مع الإجابة على الإيرادات التي أوردها محمود**».

أقول: في مواضع لاحقة ظهر أن عطية الله قد تبنى أو هضم ما كتب في كتاب التبرئة، إلا أنه لازال يقول عن مسألة التأشيرة بأنها «**مسألة محيّرة فعلًا ومعقّدة وشائكة، وفي ظنّي أنّها لم تنضج بعد، وأتمنّى أن يوفّق الله جماعة من أهل العلم المتمكنين الأمناء الصالحين إلى بحثها وتحريرها**».

فهي مسألة اجتهادية ونازلة لم تكن موجودة في العصور السالفة (دخول البلدان بالتأشيرة) فلذلك ترى أن الدكتور أيمن في خاتمة الفصل قال: «**فمن اطمئن لهذا الاجتهاد فليعمل به مع تقدير المصلحة، ومن لم يطمئن له فليبحث عن وسائل أخرى يجاهد بها الصليبيين المحتلين لديار الإسلام**».

رغم أن هذا هو اختيارهم، وهي أن التأشيرة لا تعد عقد أمان، إلا أنهم لم يشددوا في هذا الاختيار.

والرسالتان الواردتان في وثائق أبوت آباد الثالثة والرابعة كانت مذيلة باسم «المحب» دون بيان من هو هذا الشخص، وقد أُرسلت الرسالة الأولى بتاريخ ٢٧ محرم ١٤٢٩ هـ الموافق ٤ من شهر ٢ من عم ٢٠٠٨ ثم الرسالة الثانية كانت في ١٣ محرم ١٤٣٠ هـ الموافق ٩ من شهر ١ من عام ٢٠٠٩.

إذن قلنا أن القاعدة أصدرت بشكل رسمي عبر مؤسستها الرسمية السحاب ردين على السيد إمام، كان أولها رد الشيخ أبو يحيى الليبي ثم أعقبه ذلك رد الشيخ أيمن الظواهري، إلا أن رد الشيخ الظواهري أشمل من رد الليبي، فقد نشر كتابه دفعة واحدة كاملًا ولم يجزئه، ناهيك عن وجود تاريخ مشترك بين الراد والمردود عليه كونهما كانا في جماعة واحدة (جماعة الجهاد المصرية) فكان السيد إمام أمير الجماعة الأسبق ثم كان الدكتور الظواهري أميرها اللاحق إلى ذوبانها في القاعدة عام ١٩٩٨ وقد كانت ضمن فصول الكتاب والتعقيبات بعض الحوادث العرضية حصلت في حقبة جماعة الجهاد، مثل حادثة مقتل الطفلة شيماء.

فوجود تأريخ مشترك أفضى إلى وجود مساحة لذكر الحوادث التأريخية التي تدخل ضمن حيز «التأريخ والسرد» بدلًا من «التقعيد للمسائل الفقهية»، وهذا أمر مهم بلا شك خصوصًا إذا قلنا أن الكلام حول جماعة الجهاد وتأريخها قليل، والمتحدثين عن تلك الحوادث من شهود العيان قلة، ولم يخرج فيما أعلم إلا البوق نبيل نعيم وخلط فكان كلامه كتنجيم المنجم.

وهذه الحوادث ربما كانت مثل الحواشي لمتون الكتب، فكلام السيد إمام في كتابه الجامع أن هنالك أشخاص يجب جهادهم قبل حكوماتهم، مثل بعض الدعاة الذين يرفضون حكم الله...إلخ، أظهر

الدكتور الظواهري أن المقصود في هذا الكلام الشيخ عبد الله عزام فيقول الدكتور الظواهري: «**وقصة الواقعة التي أشار إليها الكاتب؛ أن الشهيدين أبا عبدالرحمن الكندي والشيخ عبدالله عزام – رحمهما الله – كان بينهما مشروع إغاثي مشترك، ثم حصل خلاف بينهما، فقررا أن يحيلاه للتحكيم فاختارا حكَمين، كان أحدهما كاتب الوثيقة، ولم أشهد التحكيم، ولكن كاتب الوثيقة قال لي: "إن الحكم خرج لصالح أبي عبدالرحمن الكندي ضد الشيخ عبدالله عزام – رحمهما الله –، وأن الشيخ عبدالله – على قول كاتب الوثيقة – قد تملص من تنفيذ الحكم. وأنا لم أسمع القصة من الشيخ عبدالله عزام ولا من الشيخ أبي عبدالرحمن الكندي – رحمهما الله –**».

وكذا قد أرّخ الدكتور الظواهري لموقف السيد إمام من الشيخ عبد الله عزام، فيقول: «**والعجيب أن كاتب الوثيقة بعد استشهاد الشيخ عبدالله عزام كتب رسالته (تعقيب على تعقيب)، أو رد على سفر الحوالي وتعليقه على كتاب الشيخ المجاهد عبدالله عزام (الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان)، وطلب مني أن أحملها لتلاميذ الشيخ، وأبلغهم أن هذه الرسالة تحية وفاء من جماعة الجهاد للشيخ عبدالله عزام. ولكن لما بدأ كاتب الوثيقة يأخذ طريقه بعيدًا عن إخوانه المجاهدين بدأ يُظهر هذه الأفكار التي سجلها في كتاب (الجامع)**». هذه حوادث ضمن الرد، هي أشبه بشهادات تأريخية نستطيع من خلالها عمل مقاربة لموقف الشخصيات من بعضها البعض.

وهذه لم تُحصر في الجانب المتعلق بتأريخ جماعة الجهاد المصرية بل حتى وامتد إلى باب التراجم، فعندما ذكر الدكتور الظواهري بعض المرجعيات أو بعض الشخصيات الدعوية والشرعية كانت مصادر التراجم هي:

- ما كتبوه هم عن أنفسهم.

- أو ما سمعه هو عمّن ينتسب إليهم أو مقرب لهم.

- أو ما رآه الدكتور نفسه شخصيًا من تعامل شخصي واحتكاك معهم.

فمثلًا الكلام عن الشيخ عمر عبدالرحمن قد نقل بعض الكلام عن الشيخ رفاعي طه، ومثلًا الكلام عن الشيخ محفوظ ولد الوالد كان ينقل بعض المواقف التي حصلت بينهما شخصيًا، وبعض الشخصيات اكتفى بنقل ما في كتبها أو ما كتب عنها الآخرون. وأحيانًا تكون قوة الترجمة إن قام شخص بترجمة لشخص قد عاصره واحتك به، وقد تضعف إن ترجم لهم شخص عن وسيط أو بشكل مرسل (نقلًا عن واسطة مجهولة) وهو لا تربطه به علاقة، ربما مثل ما صنع القمري في بعض تراجمه.

أما محتوى الرد فكان يخص في جانبه الأكبر المسائل الفقهية المرتبطة بالجهاد، ورأى السيد إمام أن جهاد الجماعات الجهادية في زماننا عبث، فقال:

فلا بُدَّ من وجود المقومات الست قبل إعلان الجهاد:

١. دار الهجرة والنُّصرة أو القاعدة الآمنة.

٢. التكافؤ في العدد والعدة.

٣. تأمين النساء والعيال.

٤. توفير النفقة.

٥. الفئة التي يمكن التحيز لها.

٦. تميز الصفوف.

وأن الجهاد الذي يُمارس حاليًا وقع في محظورات ست وهي:

١. قتل معصومين بدعوى الترس.

٢. استحلال أموال بالسطو والخطف.

٣. الغدر ونقض العهد.

٤. العجز عن تأمين الذراري.

٥. العمالة والارتزاق من الخارج.

٦. الاضطرار للجوء السياسي.

فإذا لم تتوفر المقومات فهنالك خيارات أخرىٰ مثل:

١. الهجرة.

٢. العزلة.

٣. العفو.

٤. الإعراض.

٥. الصبر.

٦. كتم الإيمان.

فمدار النقاش تمحور حول هذه النقاط، وكانت المساحة الأكبر من هذا النقاش لواقعية الحلول والنقاش الفقهي، فالنقاش الفقهي تمثل في:

- حكم استئذان الوالدين للجهاد في جهاد الفرض.
- أحكام التترس وتوابعها.
- أحكام الديار.
- أحكام التعرض للكفار الحربيين.
- أحكام التجنس بجنسية الكفار واللجوء السياسي.
- حكم التأشيرة هل هي عقد أمان؟
- وغيرها من المسائل التي تدور في فلكها.

والسيد إمام كان في موقف ضعف، لأن الطرف الآخر يناقشه بكل أريحية دون تقيد بقيود، وهو لا يستطيع أن يجاريه، فمن أجل ذلك حتىٰ يتملص في رده علىٰ الأسئلة المستقبلية التي قد تحرجه قال:

«أنا لست عالمًا ولا مفتيًا» حتى لا يقال له ما حكم كذا أو كذا إن كنت صادقًا، فقطع الطريق منذ البداية، ولكن هذا اللفظ انقلب عليه، لأن أغلب ألفاظه في وثيقة الترشيد «يجوز أو لا يجوز أو نحو ذلك»، وهذا جعل الدكتور الظواهري يقول: «**الرسالة متناقضة؛ صاحبها يقول أنا لست عالمًا ولا مفتيًا، ولكنه ملأها بقوله إن هذا جائز وهذا غير جائز وهذا واجب وهذا حرام، وتقرير أحكام شرعية في نوازل عظيمة، قَل أن يستقل بها أحدٌ من أهل العلم**».

الأمر الثاني، أن الرسالة كانت قد خرجت من السجن، وهو موطن لا يُوثق فيه بإثبات الأقوال ونسبتها إلى أصحابها بأريحية، فقد يتعرض الشخص لضغوط لكتابة ما يكتب، أو أنهم هم من أملوه عليه، أو أنه تأول أن يكتب هذا مقابل فكاك أو تسهيلات أو نحو ذلك، فدائمًا الكتابات التي تخرج وصاحبها في القيد يُنظر إليها بريبة ولو أقسم عليها الأيمان المغلظة، فكان الدكتور إمام يقول «**بأن يُنظر في الأدلة التي فيها ولا يُنظر للمكان الذي خرجت منه!**» فالعبرة بالدليل لا في المكان الذي خرجت منه.

إلا أنه في وقت لاحق خرج بلقاء في قناة ON-TV في مايو/ أيار من عام ٢٠١٢ يقول أنه كان ضباط المخابرات يعترضون على بعض ما يكتب ثم يقوم هو بإزالة ما كتبه، وأن من كان ينشر وثيقة الترشيد وينقلها للصحف كانوا هم ضباط المخابرات.

فضباط المباحث المرتبطين رأسًا مع أجهزة الاستخبارات الأمريكية أصبحوا يدورون مع الدليل، وأصبح همهم الأول هو ترشيد الجهاد حتى تتحرر الأُمَّة من مغتصبيها!

وَكَمْ ذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ   وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالبُكَا

ربما ما يعيب (التبرئة) هو التوسّع في بسط المسألة فيما لا نزاع فيه دون الوقوف على الشاهد أو موطن الخلاف، وأدى هذا إلى نقل صفحات كاملة بشكل متتابع من الكتب الفقهية وفيها كلام أشمل وأوسع من نقطة الخلاف.

وقولي «ربما» لأن هذا النقل وإن كان يُفيد القارئ بأن تجعله يحيط بالمسألة من كافة جوانبها.

وفي ظني أن الدكتور الظواهري أجاد وأفاد في رده من الجانب الفقهي، خلا بعض الملاحظات التي أضعها في أربعة صور:

١. قال السيد إمام: «**والفقهاء – رحمهم الله – وإن كانوا قد اتفقوا على أن إذن الوالدين إنما يشترط في الجهاد الكفائي، إلا أن بعض الفقهاء قد قال إن كان خروج المسلم لفرض العين من الجهاد فيه تضييع للوالدين أو أحدهما، لا يخرج**». وكان الرد يجب أن يكون بتحري مقولة الفقهاء هذه وعلى أي وجه ذكروها، ثم الرد عليها، لأن الدكتور أيمن نقل أقوال الفقهاء من المذاهب الأربعة في عدم وجوب استأذان الوالدين في جهاد الدفع وأرى أن هذا مجانب لنقطة الخلاف، فالمخالف هنا لا يعترض على ذلك وإنما يتكلم عن حالة جزئية وهي أن في خروج الابن في جهاد الدفع تضيع للوالدين وهي فرع عن أصل.

وهذا ما نص عليه ابن حزم في المحلى (٥/ ٣٤١): «**ولا يجوز الجهاد إلا بإذن الأبوين إلا أن ينزل العدو بقوم من المسلمين ففرض على كل من يمكنه إعانتهم أن يقصدهم مغيثًا لهم. أذن الأبوان أم لم يأذنا إلا أن يضيعا أو أحدهما بعده، فلا يحل له ترك من يضيع منهما**». فالرد على هذا، بأن يُقال سوف نسلم جدلًا أن البعض معذور كونه العائل الوحيد لأهله، ولا عائل غيرهم وبخروجه يحصل ضياعهم، ولكن هل يلتزم سيد إمام بلازم قوله؟ وهو إن كان لا يجب على الشخص أن يخرج لأنه سوف يضيع والديه بعده، فهل يجب أن يخرج إن كانا لن يضيعا من بعده ولو لم يأذنا له؟

٢. كان مما يعيب الرد هي النقولات المطولة التي قد تقع أحيانًا في صفحات كاملة، وفيه تقعيد للمسألة ككل دون الوقوف على نقطة الخلاف في المسألة وذكر الشاهد، فالسيد إمام لا ينازع في كل صور التترس ولا المعاملة بالمثل ولا البيات والقتال بما يعم إتلافه وإنما في صورة من صورها، وإن

كان هذا التطويل مفيد لمعرفة المسألة من كافة جوانبها إلا أنها قد تطيل الصفحات على ما لا نزاع فيه.

٣. الرد على استئذان الأمير في القيام بعملية كبيرة مثل الحادي عشر من سبتمبر، كان الرد فيما رأيت خارج نقطة الخلاف، فرد الدكتور أيمن كان بإظهار أن أمريكا كانت تمكُر قديمًا وتسعى حثيثًا لدخول أفغانستان وكان هذا من خلال استقراء نصوص تقرير لجنة أحداث الحادي عشر من سبتمبر (٩/ ١١ COMMISSION REPORT). وبعض المصدر الفرعية، فكان رد القاعدة بأنها تغذت بأمريكا قبل أن تتعشى فيها، وكل هذا لا يجيب على أصل الاعتراض؛ فهل كان هذا المكر الأمريكي يسوّغ للقاعدة أن تتصرف منفردةً دون أخذ إذن الإمام في هجوم قد يكون الرد عليه إزالة دولة الإمام كلها؟

في اعتقادي أن هذه نقطة سَوف يلج بها خصوم القاعدة إلى يوم الدين، والاعتذار عن هذا يمكن أن يكون بأن الإذن الذي أعطاهم إياه الملا عمر هو باستهداف اليهود كما نص على ذلك أمير القاعدة في اليمن الشيخ أبو بصير الوحيشي في (القصة غير المروية لأحداث ١١ سبتمبر) فتأول الشيخ أسامة بن لادن هذا الإذن باستهداف أمريكا كون أمريكا واليهود كلاهما وجهان لعملة واحدة. إلا أنه اعتذار قاصر في وجهة نظري والله أعلم.

٤. النقطة الرابعة هي نقطة لم تُحرر جيدًا فيما أظن حتى الآن. وهي مقولة الدكتور أيمن: «**الدولة المعتدية على المسلمين – أمريكا مثلًا – كيان معنوي واحد. الشعب الأمريكي كيان معنوي واحد. وهو وكثير من شعوب الغرب ارتضوا النظام الديمقراطي، أي أنهم جميعًا اختاروا أن يكون الحكم والقرار وإصدار القوانين للأغلبية، والأقلية تطيعهم برضا في ذلك، ولذلك فإن ما يفعله الرئيس الأمريكي مثلًا، يتم برضا الأغلبية، وبموافقة الأقلية على أن تصرفاته دستورية وصحيحة، لأن الأغلبية تؤيدها، ولذلك ترى الأقلية المخالفة له أن من واجبها وحقه عليها – حتى وإن خالفته في**

أمر – أن تطيعه وتذعن له. هذا أمر معلوم بالضرورة من أحوالهم». وقوله: «**ثم أفراد الشعب الأمريكي يدفعون الضرائب التي ينفق منها على العدوان علينا، ويخدمون في الجيش والأمن**».

وهذه النوازل لم يحررها العلماء فيما أعتقد تحريرًا يشفي غليل الصدور، فالشعب الأمريكي فيه مسلمون، يدفعون الضرائب ويشاركون في الانتخابات الديمقراطية، فما حكمهم؟ وهل يكونون ضمن الكيان المعنوي الواحد ويكونون ضمن الطائفة الممتنعة ويعاملون كما يعامل بقية الشعب الأمريكي على اعتبار أنهم كتلة واحدة؟ في اعتقادي الأمر يجب أن يُحرر ويدقق فيه، فالضرائب يدفعها الشخص وهو مُكره إذ لا يحب أحد أن ينفق ماله على الحكومة بدلًا من أن ينفقه على نفسه خصوصًا مع ارتفاع الأسعار وكثرة التكاليف، فالعلماء هنا يجب أن يفصّلوا في هذه المسألة، هل الدفع كُرهًا يقوم منزلة الدفع عن رضًا ورغبةً في أن تستخدم هذه الضرائب في أعمال عسكرية ضد المسلمين؟ وهل إذا دفعها الشخص لدفع الأذى عن نفسه يلزم منه ذلك أن يكون موافقًا ومؤيدًا لحروب دولته؟ والعلماء هنا نقلوا الإجماع بشكل متتابع أنه لا يجوز أن تقتل مسلمًا إن أُكرهت على ذلك ووضع السيف على عنقك، فمن باب أولى أن لا تدفع الضرائب فهي أهون من السيف الذي سوف يُنهي حياتك، ولكن ما الحكم الشرعي هنا؟ وهل المسلم المصوّت المنتخِب وكان ضمن الأقلية يلزم من ذلك أنه موافق على ما سوف تصدره الأقلية ويحترمه ويقبله؟ أنا لا أظن ذلك لأن الكثير من المصوتين المسلمين عبروا عن رفضهم لحروب أمريكا في العالم الإسلامي، بل حتى الذين صوتوا لبوش وكانوا آنذاك معتدلين أمريكيًا مثل الشيخ أنور العولقي (كما نص على ذلك جيريمي سكاهيل في كتابه الاستقصائي الضخم: حروب قذرة) فقد كانوا من أشد المعارضين لهذه الحروب رغم أنه صوت للجمهوري بوش الذي كان آنذاك يحوز حزبه الأكثرية. فلا تلازم بين الأمرين، وهذا قد يشمل غير المسلمين كذلك، وبنسب عالية إن كان لمراكز إحصاء الرأي العام – مثل مركز بيو للأبحاث – مصداقية في جرد وقياس نبض الشارع الأمريكي، والله أعلم. وهذه تمنيت من الدكتور أن يحررها كما حرر مسألة التأشيرة. ١٩ يوليو ٢٠١٩م – ١٦ ذو القعدة ١٤٤٠هـ

وجاء دور المجوس

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: وجاء دور المجوس: الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية.
- اسم المؤلف: محمد سرور زين العابدين.
- عدد الصفحات: ٥٠٠.
- دار النشر: طبعة خاصة.

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (وجاء دور المجوس) للشيخ محمد بن سرور زين العابدين، وقد كتبه باسم مستعار هو الدكتور عبد الله محمد الغريب.

وكُتِبَ أثناء الثورة الإيرانية وبعد انتصارها ومن الواضح أن آخر إضافة للنص في الكتاب في الطبعات اللاحقة كان بعد حادثة اقتحام السفارة الأمريكية في يناير ١٩٨١ ومع ذلك لم يتطرق للحرب العراقية الإيرانية التي بدأت في سبتمبر من عام ١٩٨٠ رغم أنها تخدم كتابه في فصل أطماع إيران في العراق.

لنقل أن الكتاب كان سباحة عكس التيار آنذاك؛ إذ كانت الثورة الإيرانية محل ترحيب من قيادات العمل الإسلامي أو لنقل لدى كثير منهم. ويرون أن انتصاراها هو من جنس انتصارات الحركات الإسلامية، وأنها سوف تكون دعمًا ورافدًا لنضالهم السياسي تجاه أنظمتهم.

والكثير من الشعوب تعاطفت معها فالشاه كان مستفز لعموم الأمة بتصرفاته، إذ كان الشاه محمد رضا بهلوي الذي ظن أن بتطبيعه مع إسرائيل وفتح سفارة لها في طهران، وتعميق علاقته مع

الولايات المتحدة إلىٰ أبعد مستوياتها، وتغريب البلاد ومسخ هويتها سوف يضمن له حكمه، إذ بعرشه يزول ولم تغن تلك التدابير عنهُ شيئًا.

أثناء تصفحك للكتاب - سوف تراه عاديًا - إن نظرت إليه بنظرة اليوم، لأن أغلب ما كان يقوله المؤلف لا جديد فيه!، ولكن غير العادي لو نظرت إليه بعين الأمس، وكيف أن المؤلف كان صاحب بصيرة بالمشروع الإيراني وكيف كان يحذر بينما كانت غالبية الناس تصفق، وكيف صدق تنبأه بالكثير من الأمور.

والكلام هنا عن الشيعة أو المشروع الشيعي لا يُقصد بهِ عموم الشيعة، وإنما الشيعة المرتطبين سياسيًا بإيران، فيوجد الكثير من الشيعة المغلوبين علىٰ أمرهم، أمثال الفرس الشيعة المعارضية للنظام الإيراني أو حتىٰ عرب الأهواز وغيرهم وهذا مما لا يتناولهم كلامنا.

بدأ المؤلف بعرض نبذة موجزة عن الأديان في إيران قبل الإسلام، والقواسم المشتركة فلسفيًا بينها وبين الطوائف الباطنية المنسوبة للشيعة، وعن أثر حركة الشعوبية، في محاولة انتقام غلاة الفرس من العرب من باب تأسيسهم لبعض الطوائف الباطنية أو الدخول إليها أو الدعوة إليها والتدثر بدثارها.

إلىٰ أن قال المؤلف بعض هذا العرض التاريخي المطول والموثق: «**هل من المصادفات أن يرجع البويهيون والقرامطة والعبيديون إلى أصول فارسية؟! هل من المصادفات أن تتشابه عقائدهم، وأن تكون هي نفسها عقائد مزدك وماني وزردشت؟! وهل من المصادفات أن يظهروا في أزمنة متقاربة: العبيديون ٢٩٦ هـ، والبويهيون ٣٣٤ هـ، والقرامطة ٢٧٨ ه؟ وهل من الصدف أيضًا أن يتقاسم العالم الإسلامي: البويهيون في العراق، والقرامطة في شبه الجزيرة العربية، والعبيديون في مصر والشام؟ وهل من المصدافات أن يلج هؤلاء جميعًا من باب التشيع؟! وهل من المصادفات أن يكون المسلمون السنة العدو اللدود لهؤلاء الضالين، وأن يتعاونوا مع كل عدو للإسلام والمسلمين؟!**».

ثم طفق يتناول بعض تصريحات العمل الإسلامي حول الشيعة وأن الخلاف معهم في الفروع لا في الأصول، وعرض في فصل أبرز الخلافات العقدية بيننا وبينهم، التي تجعل الخلاف في الأصول أمرٌ لازب.

ثم شرع يعالج تصريحات قادة الحركة الإسلامية، في التسليم جدلًا بأن هنالك خلاف عميق مع الشيعة في الأصول، ولكن الخميني شخص استثنائي وأنه متعدل، وهنا بدأ الشيخ محمد سرور زين العابدين بتنفيد هذه المقولة بجرد كتب الخميني نفسه، وإظهار أن الخميني ليس شاذًا عن عموم الشيعة في باب العقائد. ثم يأتي أطول فصل وهو عن البعد السياسي في الثورة الإيرانية في ٢٠٠ صفحة تقريبًا، وعن سبب تخلي أمريكا عن الشاه وعن الشخصيات المشبوهة في الثورة، وعن علاقات الثورة الخارجية بعد صعود الخميني، وعن علاقات الخميني آنذاك بشركاء الثورة وعن انفصام القول مع العمل لدى القيادة الإيرانية وعن صراع الآيات بينهم بين بعض. والفصل الأخير تكلم فيه المؤلف في ملاحق عن عدة مواضيع تتعلق عن حال إيران في السنة الأولى بعد الثورة وما فيها من فوضى وشيوع المخدرات والتعصب القومي والانهيار الاخلاقي (وكان هذا قبل أن يستتب الأمر للخميني تمامًا).

وتستفيد من هذا الكتاب عدة أمور:

- أهمية دراسة معتقدات وتاريخ الفرق والطوائف المنسوبة للإسلام، حيث لا تستفيد عقديًا فقط، بل تستفيد سياسًا، إذ تكون بصيرتك أوضح أكثر من الكثير من السياسيين، فلا تظهر بمظهر المغفل أو الساذج الذي يرحب بجلاده بل تأخذ حذرك وتُهيّئ نفسك لما هو قادم.

- عندما تخدم الغرب بكل إخلاص ثم تنتهي ورقتك، فما أسهل أن يتخلوا عنك كما يتخلى أحدهم عن ورقة المرحاض، فمحمد رضا بهلوي عندما انتهى حكمه، رفضت الدول الغربية استقباله

وجعلت طائرته تحوم إلى غير هدف معلوم، خوفًا على مصالحها في إيران أو مع إيران، ولما دخل أمريكا لم يكن مرحبًا به فخرج إلى مصر حيث هلك.

- السفارات أوكار تجسس وإدارة للعملاء في البلد، فبعض الشخصيات كُشفت عمالتها بناءً على اقتحام الطلاب الإيرانيين للسفارة الأمريكية في طهران، ووقع بعض الوثائق والمستندات في أيديهم، وهذا يذكرني بالفلم (Argo) الذي حصد جائزة أوسكار عام ٢٠١٣، فلما ظهرت لقطات الطلاب وهم يحاولون اقتحام السفارة كان العاملون فيها منهمكين في إتلاف الوثائق والأوراق!

- التقييم الحقيقي للسياسة الإيرانية، ليس الكلام المعسول بل هو عملهم في الميدان، وهدفهم المعلن هو التوسع والسيطرة، وهذا أمر معلوم مشاهد ميدانيًا، وأصبح لهم نفوذ قوي في العراق وسوريا ولبنان واليمن، فلماذا تظن أنك أنت في دول الخليج استثناء؟! بل مالذي يجعلهم بعد كل هذه الانتصارات أن يكفوا عن الطمع فيك؟! بل توغلهم كل هذا التوغل هو دافع لمزيد من التوغل في بقية البلدان.

- أمريكا رأت في الخميني أخف الضررين في الثورة الإيرانية، فكانت له جماهيرية ضخمة، وصاحب مشروع ديني إقليمي، فكان أهون من الأحزاب اليسارية أو الشيوعية المرتبطة بالاتحاد السوفيتي، فوقوع إيران في يدها، يعني أنها وصلت إلى المياة الدافئة، وهي لم تدخل أفغانستان وتخوض حربًا ضروسًا لعقد من الزمان إلا لذات الهدف؛ وهذا الذي جعل جنرالات الشاه يخضعون للأوامر الأمريكية من خلال قائد قوات الحلف الأطلسي في أوروبا الجنرال هويزر بعدم سحق حركة الخميني في ١١ فبراير، فكان مصير أكثرهم لما سمعوا هذه النصيحة ما بين مقتول ونازح ولاجئ!

- علاقة النظام الإيراني بالنظام النصيري في سوريا قديمة، وكان هو النظام الوحيد المستثنى من هجوم أنصار الخميني لحكام العالم الإسلامي، رغم علمانية الأخيرة وانحلاله، في ازدواجية غريبة،

وكان هو الممر لبسط نفوذ إيران في لبنان، وقد صح تنبأ المؤلف لما قال: «**كلام نائب رئيس الوزراء الإيراني عام نفهم منه أن الإيرانيين سيقفون إلى جانب النظام السوري النصيري... سيقف الإيرانيون مع النصيريين وسينضمون إليهم إذا تعرضوا لحرب أهلية داخل سوريا .. كما أن هذا التصريح بمثابة تهديد لكل من تسول له نفسه الاعتداء على حافظ الأسد ونظامه**». ألا ترىٰ هذا قد تحقق فعلًا؟! فإيران رمت بفلذات أكبادها ورجالاها من المليشيات الإيرانية والعراقية واللبنانية في الدفاع عن هذا النظام العلماني الفاجر المجرم في الوقت نفسه تهاجم أنظمة لا تختلف عنه في شيء! ما سبب هذه الازدواجية؟ لا يوجد غير المصلحة والبرغماتية والاتفاق الطائفي ووحدة العدو المشترك.

- هؤلاء لم يصلوا إلىٰ ما وصلوا عليه من خلال العمل العشوائي، بل عبر العمل المنظم الدؤوب، وقد تعوذ عمر بن الخطاب من جلد الفاجر وعجز الثقة. هذا فضلًا أنهم وجدوا من يدعمهم الدعم السخي من قبل نظام يؤمن بفكرتهم، بخلافنا أهل السنة الذين ابتلينا بأنظمة أكبر همها عَلمنة بلادها ومسخ هوية شعوبها والاتكال علىٰ أمريكا، فأصبح بيننا وبينهم فجوات كبيرة إذ أنهم سبقونا بالعمل.

علىٰ العموم أردف المؤلف كتابه هذا بكتب أخرىٰ مكملة لسلسلة (وجاء دور المجوس) وكان (الجزء الثاني: أمل والمخيمات الفلسطينية) بالإضافة إلىٰ (الجزء الثالث: أحوال أهل السنة في إيران). تكملة لمن أراد التعمق أكثر، والكتاب ينصح به خصوصًا أن مَن تعلمَ عقيدة قومٍ أَمِنَ مكرهم.

وللكاتب (عبدالإله الفايزي) تلخيص للكتاب في مقال مطول، إن كنت تريد أن تقرأه ولكن في نفس الوقت متردد، للوقوف علىٰ فصول وموضوعات الكتاب، لأني هنا أتكلم بشكل موجز جدًا.

١٩ يوليو ٢٠١٩م - ١٦ ذو القعدة ١٤٤٠هـ

مذكرات السلطان عبد الحميد

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني.**
- **اسم المؤلف: السلطان عبد الحميد.**
- **اسم المترجم: محمد حرب.**
- **عدد الصفحات: ٣١٨.**
- **دار النشر: دار القلم.**

التعليق والمناقشة:

ربما أكثر تساؤل وردني وأنا أضع اقتباسات للكتاب في حسابي على تويتر، هل المذكرات صحيحة؟!

ربما من الشائع أن هذه المذكرات منحولة وأن نسبتها إلى السلطان عبد الحميد لا تصح أو فيها نظر، لذلك كان في مقدمة المترجم للكتاب جواب شافي وكافي، وسردَ أسماء جهابذة المؤرخين الأتراك الذين وثّقوها واستدلوا بها، سواء كانوا باحثين مستقلين أو أساتذة أكاديميين.

ويُرى كذلك في الطبعة الثالثة وهي أجود الطبعات للمذكرات، أن المترجم حاول أن يستدل في الهامش بأقوال بعض الشخصيات مما ذكروه في مذكراتهم سواء التي كانت من أسرة السلطان أو من المقربين له أو من كبار قادة الدولة العثمانية، ما يجعل أن التفاصيل كثيرًا ما تكون متطابقه أو متقاربة، وهذا لا يمكن أن يكون كذلك إن كانت المذكرات منحولة.

وكان لدى السلطان عبد الحميد حس ممتاز في ضرورة التدوين فيقول: «**إن أحداث ٣٣ سنة من سلطنتي مرت ولا يعرف خباياها أحد غيري، أو بعض أشخاص ممن حولي. إذا لم أكتبها أنا، وإذ لم يتكلموا هم، فمن أين سيعلم التاريخ بهذه الحقائق؟!**» وكان هذا سبب تدوينه للمذكرات، ولكن

يظهر لي أن ما يُنشر الآن ويتداول، هو النسخة الثانية لمذكراته فقد سحب الجيش النسخة الأولى منها، لقصة ذكرها السلطان عبد الحميد في فصل (يخافون من مذكراتي) لما كان في الإقامة الجبرية.

القصة الأخيرة للدولة العثمانية يمكن أن تختزلها بالمثل الشائع: «لا يصلح العطار ما أفسده الدهر»، إذن ما كان دور عبد الحميد؟ هو فقط أبطأ الموت قدر المستطاع. وهي مذكرات مهمة جدًا جدًا لتبيّن بسبيل المجرمين والصراع الدولي ومكر المنافقين واختراق العلمانيين للدولة حتى العظم، وفي بيان الخصائص التي يجب أن يمتاز بها الحاكم.

كتب السلطان عبد الحميد مذكراته ولسان حاله يقول ما قاله المتنبي: «أَنَا الغَرِيقُ فَما خَوْفِي منَ البَلَلِ» فلذلك كان صريحًا جدًا في بيان أخطائه وأخطاء غيره، فلا تشعر أن هذه المذكرات كتبت من أجل تبرئة نفسه بقدر ما أن يقال الحق سواء كان له أو عليه. وكانت المذكرات هي إظهار للصوت المفقود، فعندما كان السلطان حاكمًا، كان الكل ينتقده ويصرخ بأعلى صوته، وكانت الصحف تكيل له التهم والمعارضة لا تبخل بذلك أيضًا، بل وسمي بالسلطان الأحمر لزعم خصومه أنه خاض بدماء معارضيه حتى أخمص قدميه! ولكن لم نسمع وجهة نظر الطرف الآخر. وصوت الطرف الآخر مهم لاستكمال الصورة ووضوح المشهد.

قد أملى السلطان عبد الحميد مذكراته هذه في شهر واحد، من أول مارت مارس/ آذار ١٣٣٣ رومية (١٩١٧ = ١٣٣٦ هجرية) إلى ١١ نيسان ١٣٣٣ رومية (من عام ١٩١٧) أي بعد ٨ سنوات من الانقلاب عليه ووضعه في إقامة جبرية، ونهب ثروته و بمقابله عملها معه قادة الجيش كانت نتيجتها «الأموال مقابل الحرية». واستخدم السلطان عبد الحميد التقويم الشمسي العثماني في التدوين، وقد كتب الدكتور محمد مطيع الحافظ مقالًا في بيانه بعنوان (التقويم الشمسي العثماني) وكذلك السلطان عبد الحميد في فصل (التقويم الغربي المضحك).

ويُستفاد من المذكرات عدة أمور، ولكن نسيت الكثير منها ذلك لأني قرأت الكتاب قبل شهور ولكن من بينها:

- أن المأسونية حق.. وأذكر لما قرأت رواية (حكومة الظل) للدكتور منذر القباني عن سقوط الدولة العثمانية كنت في قرارة نفسي أضحك، قلت ربما الدكتور مهوس بنظريات المؤامرة والمأسونية، ولكن هنا المأسونية محل إتفاق مع كل أطراف القضية، بل حتىٰ الذين نُسبوا إليها قد اعترفوا بها وبدورها في خلق الأحداث. (أمثال جويد باشا علىٰ سبيل المثال). والأمر هنا لا يقتصر علىٰ المأسونية فالمعارضة المرتبطة خارجيًا والمنافقين في الداخل وأصحاب حظوظ النفس القوىٰ الكبرىٰ الكل تمالىء علىٰ الدولة العثمانية في آخر حياتها، وكما قيل:

فَلَوْ كَانَ سَهْمًا وَاحِدًا لاَتَّقَيْتُهُ وَلَكِنَّهُ سَهْمٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

- أن الحاكم لا بُدَّ أن يكون حازم الشخصية له هيبة ومكانة، وهذا ما يعرفه حكّام المنطقة اليوم، إذ أن الأحكام التي يحكم بها من ينتقص منهم أشد وأكبر من الأحكام التي يحكم بها علىٰ من ينتقص الذات الإلهية أو نبينا محمد ﷺ أو أصحابه. فلذلك لا يجب أن يتساهل في ذلك بحجة فتح حرية التعبير. وقد قيل:

تَعْدُو الْكِلَابُ عَلَىَ مَنْ لَا أُسُودَ لَهُ وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الضَّارِي

فلمَّا يُفتح المجال للنيل من الحاكم، تسقط هيبته، ويتجرأ عليه الساقط واللاقط، وبذلك قد يظهر بمظهر ضعيف الشخصية أمام ضباطه ومرؤوسيه، وهذا الذي يجعلهم يتمردون عليه أو يجعلهم هم يدخلون أيضًا في حملة التشهير هذه.

نحن لسنا في المجتمعات الغربية، التي إن شتمت الحاكم طوال اليوم لا يؤثّر، بل هناك فوارق، إن كانت مجتماعتنا كمجتمعاتهم والكل يعرف ما له وما عليه، وهناك مؤسسات تضبط المجتمع لقيلَ لا

بأس. ولكن يظهر أن السلطان عبد الحميد اغتيلت شخصيته بالهجوم المكثف على شخصه، وألصقت فيه الكثير من الحوادث السياسة التي هو منها براء وحمل وزرها فأصبح ممقوتًا بين الشعب، مما سهل مهمة الانقلابيين لاحقًا.

- يجب أن يكون الحاكم حازمًا، مستعدًا للتضحية بالشأن الخاص مقابل الشأن العام، لما تحرك الانقلابيون فضّل السلطان عبد الحميد التنحي بدلًا من سحقهم بحجة حقن الدم التركي! فماذا جنينا من هذا الورع البارد سوى سقوط الدولة في يد العلمانيين، وتأثيرهم على الشعب لمدة قرن؟ أصبح الشعب أقرب فيه إلى الشعوب الأوروبية منه إلى الشعوب الشرقية الإسلامية، وأصبح إصلاح ما أفسده الدهر أمرًا عسيرًا ويحتاج إلى أجيال. كل هذا بسبب هذا الورع الذي لا يليق بالحكام ولا الملوك.

وبعض المعارضين الذين ذهبوا إلى دول الغرب وضاقت بهم السبل وأصبحوا خناجر مسمومة في ظهر الدولة العثمانية، لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ونقصتهم السيولة، قام السلطان عبد الحميد بدفع نفقتهم حتى لا يقعوا في حبل العمالة لعوزهم المادي! فبدلًا من أن يكسرهم هذا الموقف استمروا في هجومهم! هذا من مآسي أن تكون طيبًا أكثر من اللازم.

- البعض يظن أنك إذا عملت «نسخ ولصق» للنظم السياسية الغربية سوف تتطور البلد، والأمر أعمق من هذا بل لا بُدَّ من تغير مفاهيم أولًا، والدخول بتجربة خاصة، يتمخض عنها النظام السياسي الأنسب للبلاد، وأن الغرب لم يصبح هكذا بين يوم وليلة، بل تدرج عبر قرون حتى وصل إلى ما وصل إليه، فكيف نريد أن نصل إلى ما وصلوا إليه بالقفز عن كل هذه المحاولات لاختيار الأنسب وترقيع الثغرات ونظن أننا سوف نصل إلى ما وصلوا إليه إن عملنا «نسخ ولصق».

المهم في أواخر العهد العثماني، بدأ عهد الديمقراطية (أو المشروطة كما كانت تسمى في تركيا) وفتح مجلس المبعوثان «البرلمان» بل وعملوا ما لم يعمله الغربيين أنفسهم، فالدول الأوروربية كانت تسيطر

علىٰ الكثير من المناطق في آسيا وأفريقيا ولكن مع ذلك لم تدخل في مجالسها النيابية أعضاء من هذه الدول، وأما الدولة العثمانية فقد أدخلت الأقليات في البرلمان، من القوميات الخاضعة تحت سيطرة العثمانية.

فإتاحة الحرية المبالغ فيها جلبت الفوضى والتخبط واتخاذ القرارات دون أخذ العواقب بالحسبان، فقد صوتوا علىٰ الحرب مع روسيا، ولما تكبدت الدولة العثمانية خسائر جسيمة في ميزانيتها وخسرت بعض الأراضي ووقعت اتفاقية مذلة مع روسيا، لم يعتذروا بل لم تتم محاسبتهم بل ببساطة رموا اللوم علىٰ السلطان عبد الحميد الذي كان رافضًا للحرب أصلًا.

- الكتاب هذا رسخ قناعة أنا وصلت لها، وهي أن الأقليات في زمن ضعف الأمة ليست إلا خناجر مسمومة في ظهرها.

- ولما بدأت الحرب العالمية الأولىٰ، استعانت الحكومة الانقلابية بالسلطان عبد الحميد وأخذت مشورته في بعض الأمور، فكان هؤلاء يستفيدون من خصومهم بينما نحن نزهد في ذلك.

علىٰ العموم الكتاب مفيد ومهم جدًا وحوىٰ الكثير من النقاط التي تشبه ما يحصل في انقلاب النظم العسكرية علىٰ الجماعات الإسلامية التي وصلت إلىٰ سدة الحكم، وما الأمر إلا كما قال الشيخ عمر بن محمود في تعليقه علىٰ كتاب (حاضر العالم الإسلامي) للمستشرق لوثروب ستودارد: «**الأحداث هي نفسها ذات الأحداث فقط كل ما عليك أن تغير الأسماء، وترى الأخطاء نفسها**».

والكتاب حريّ علىٰ كل مسلم يريد أن يعرف مواطن الحفر في الماضي حتىٰ لا يقع فيها في المستقبل أن يقرأه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٩ يوليو ٢٠١٩م - ١٦ ذو القعدة ١٤٤٠هـ

أُسس قوام الشخصية الفاعلة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: أُسس قوام الشخصية الفاعلة.**
- **اسم المؤلف: عمر بن محمود أبو عمر (أبو قتادة الفلسطيني).**
- **عدد الصفحات: ٦٥.**
- **دار النشر: مركز النور الإسلامي.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من كتاب (أُسس قوام الشخصية الفاعلة)، للشيخ الفاضل أبي قتادة –حفظه الله –، وهو ضمن رسائله التي كتبها في السجن، حينما كانت تقِل أو تُعدم المراجع، فيكتب من الذاكرة كما يقول في كتابه: «**وعلى كل فأنا أكتب من الذاكرة**». ومع هذا تَجده كثير الاستدلال بالآيات والأحاديث وأقوال الرجال.

عنوان الكتاب (أسس قوام الشخصية الفاعلة) اختاره المؤلف لتفسيره سورة (الشرح) وهي سورة مكية من ثمانية آيات. إذا قلنا أن السورة صغيرة جداً ويحتاج شرحها أو تفسيرها إلى صفحة أو صفحتين فهل من المعقول أن يكون عدد الكتاب أكثر من ٦٠ صفحة؟ نعم، معقول جدًا، وهو أقل من كتاب ابن القيم (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) والذي هو واضح من عنوانه في الكلام عن آيةٍ من سورة الفاتحة، ومع ذلك يقع في عدة مجلدات وعدد صفحاته أكثر من ٣٠٠٠ صفحة. وهذا ليس من الحشو، بل ما يذكره المؤلف هو تفريعات على النقطة الأساسية، فهنالك معانٍ عامة، مثل «الصبر والعسر» وكم لها من أمثال ونظائر وتأملات وكم يسع المؤلف أن يسبح فيها بلا انقطاع!

علىٰ العموم المعاني المذكورة في الكتاب ليست منفصلة بل متصلة، وكلام المؤلف فيها أشبه بتكوّم كرة ثلج تكبر كلما استرسل المؤلف.

الكتاب مليء بالجوانب التربوية والإيمانية، وشيء من الجوانب التي قد تصنف علىٰ أنها حركية مثل (رفع شعار السلفية مقابل المذهبية) وأثر ذلك وما يترتب عليه.

[أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ]

في ظلال هذه الآية تكلم عن انشراح الصدر، وهنا كثر في لغة المؤلف «التعريف والتقسيم»، ومن هذا الاستطراد حول معنىٰ الإلهي للانشراح، وهو مزيج ما بين استقرار العلم ووقوع اليقين الذي ينتج ثباتًا، ولا يحصل إلا بعلمٌ وعمل وليس بالخبر المعرفي المجرد؛ وممكن نلخص ذلك في طلب إبراهيم عليه السلام: [**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**]، فهناك إيمان وعلم في الأصل وحصل اليقين بالمشاهدة وتم بالعلم والعمل.

ثم شرح الفرق بين انشراح الصدر للطاعة والمعصية؛ وكيف أن انشراحها للمعصية لا يصيرها طاعة، وأن المعصية يمقتها القلب من المرة الأولىٰ، ولكن مع كثرة تكرارها وموت القلب، فإن العاصي يفعلها بانشراح، وأن هذا الانشراح لا يدخل قطعًا ضمن الانشراح المحمود وإنما الانشراح المذموم.

وتكلم عن كراهية النفس للحق وعلل ذلك بتعليلين جامعين وهما: كراهية النفس للتكليف واستمراء النفس بالباطل وطول ألفتها له. فما المطلوب في هذه الحال؟ يجيب المؤلف قائلًا: «**ولذلك فالعاقل لا يتبع انشراح النفس ابتداءً، إنما يتبع الحق حتى لو كرهه، ففي الحديث الذي رواه أحمد عن أنس: أن النبي ﷺ قال لرجل: (أَسْلِمْ تَسْلَمْ) قال: "إني أجدني كارهًا"، قال: (أَسْلِمْ وإن كنت كارهًا). وهذا العاقل بعد اتباع الحق والصبر عليه سيجد لذة الانشراح له بعد ذلك**». وهل يحتاج

الداعية إلى انشراح الصدر ولماذا؟ يقول: «**وحاجة الداعي خصوصًا لشرح الصدر أكثر من حاجة غيره إليها، لأن الدعوة حمل وابتلاء، وآلام ومعاناة، ومن غير شرح الصدر للحق الذي يحمله فإن طول الطريق ستؤدي به حتمًا إلى الهرب والتخلي، وبشرح الصدر تصبح الدعوة للحق وتحمل البلاء في سبيله رغبة وفرحًا**».

وتكلم في هذا الكتاب أيضًا عن كيف تقع الذنوب وآثارها وموجبات الاستغفار وإزالة آثار الذنوب. وللمؤلف كلام جميل عن التعيير بالذنب يقول فيه: «**الذنب ليس مما يُعيَّر به المرء، فإن التعبير بالذنب، وما في معناه مما يفعله بعض الناس ممن يهتمون بالأرشيف وذِكر مثالب وأخطاء الدعاة والعلماء إنما هو طريقة فرعونية كما فُعِل مع موسى عليه السلام لما قال له حين جاءه داعيًا: [وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ]، وكان من فقه موسى عليه السلام أن أقرَّ بها، وأقرَّ بالتوبة وقال: [قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ]، وقد نهى الله عبيده عن هذا الفِعْل، وهو التعيير بالذنب الذي تاب منه صاحبه فقال سبحانه: [كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ]، فالذنب قدر الإنسان حيث هو، وإنما يُعيَّر المجاهر والمصر والمستكبر**».

وله كلام مطول في الرد على اللامذهبية كونها خيارًا بدلًا للمذاهب الفقهية يقول فيه: «**فالانتساب لهذه المذاهب ليس كما يصوره بعض الناس اليوم أنه علامة فُرقة عن الحق والسُنّة، وكون وقوع النزاع المذموم بين جهلة ومقلدي هذه المذاهب من الذين يزعمون العودة للأمر الأول هو أكثر مما سمعناه مما وقع من جهلة ومقلدي هذه المذاهب قديمًا، مع أن هؤلاء الزاعمين اليوم إنما هم مُقلدة جُدد، وأصحاب مذاهب جديدة، لكن هؤلاء يتسترون باسم السنة وفقهها لدفع هذه الحقيقة، ولم يعد الأمر إلا خروج المرء من مذهب إلى مذهب لا غير، ولا تغرك الأسماء ولا الألقاب [...] ولذلك فأنا أدعوا إلى إلغاء الانتساب للـ«السلفية» مقابل الانتساب لمذاهب الأئمة المرضيين المشهورين، فإن «السلفية» في معناها الصحيح؛ أي الانتساب للسلف الصالح تتحقق للمنتسب لهذه**

المذاهب، ولا يخرج متبع أقوال هؤلاء الأئمة عن «السلفية» الحقة في شيء، وهذه المذاهب تسع جميع طبقات الناس ومراتبهم في العلم، من علماء وعوام، وأما لفظ «السلفية» خارج هذا المعنى فهو مذهب جديد لا ضابط له، بل هو في أصل وصفه في هذا الزمان كان عباءة واسعة دخل فيها كل من أراد «التجديد» بحق أو بباطل، ففيه كان محمد عبده المصري، كما فيه رشيد رضا وأتباع الدعوة النجدية من أتباع محمد بن عبد الوهاب، ثم بظروف معينة، وبقوى خارج مفهوم العلم تحقق على جهة معينة دون غيرها، وصار يضيق شيئًا فشيئًا حتى صار علمًا على تقليد مشايخ لا يزيدون عن ثلاثة فقط، بل هو عند بعضهم تقليد شيخ واحد منهم بعينه دون غيره، وهذه القضية وهي التخلي عن هذا الشعار «السلفية» تحتاج إلى شرح مطوّل وبسط أكثر، لكن يكفي أن يرى المتابع اليوم أن هذا اللفظ لا يعني خيرًا خاصًا به ولا يوجد في مذاهب الأئمة المتبوعين، فإن كان فيه خير، وهو كذلك فيه، فهو في هذه المذاهب، ولكن صار سببًا لتفريق المسلمين، كما صار النزاع عليه شديدًا بين المنتسبين إليه، حتى صار بعض الناس يضع مقيدًا له ليدلل افتراقه عن آخرين انتسبوا إليه، كما صار أهل الجمع الواحد ينتسبون لواحد من أهله دون غيره التصاقًا به التصاق أتباع المذاهب بأصحابها.

نعم، أنا أعلم أن هذا القول قد لا يرضاه الكثير من أهل هذا الزمان، لأنهم يظنون أن من منجزات أهل هذا العصر هو رد «المذهبية» - زعموا -، وكأن في قولي عودة إلى «المذهبية»، هذا مع أنهم يعلمون أن المقلد لا مذهب له، وأن العالم الذي حاز أدوات النظر والبحث لو انتسب لهذا المذهب لن يكون هذا الانتساب سببًا للتقليد بلا علم، ثم هم يعلمون أنهم قد أدخلوا «العوام» في تقليد شيوخهم تحت ستار السنة والدعوة إليها، إذ ظنوا أن مجرد قول العالم المعاصر الحُكم ثم معه الحديث الذي ينصره هو الذي يحقق الانتساب للسنة، وكأن السابقين من أصحاب هذه المذاهب لم يكن هذا شأنهم بل كانوا يقولون بلا حديث أو بلا آية، وهذا هو ما يشيعونه من التزييف على أهل العلم السابقين، والغريب أن ما صارت إليه المذهبية المرَضَية في أطوارها البعيدة من فعل المتأخرين من المنتسبين إليها من صنع المتون بلا أدلة هي ما صارت إليه أقوال هؤلاء العلماء المعاصرين في حياتهم

وقبل موتهم، فإن متون فقههم واجتهاداتهم صارت في حياتهم، وأما المتون في مذاهب العلماء المشهورين فإنها صارت في الأطوار المتأخرة بعد تلامذتهم وتلامذة أتباعهم».

والكتاب جميل ومهم وتكلم المؤلف عن مواضيع متعددة متفرعة من معاني عامة من سورة الشرح، والكتاب أشبه بزاد الداعية، الذي يحتاج أن يرجع إليه من حين إلى آخر، ليرفع من همته ويقوي عزيمته، ويرى أن البلاء أمر لا انفكاك عنه، وأن العاقبة للمتقين.

٢٩ سبتمبر ٢٠١٩م - ٣٠ محرم ١٤٤١هـ

درك الهدى في اتباع الفتى

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: درك الهدى في اتباع الفتى.
- اسم المؤلف: عمر بن محمود أبو عمر (أبو قتادة الفلسطيني).
- عدد الصفحات: ١٢٤.
- دار النشر: مركز النور الإسلامي.

التعليق والمناقشة:

يتكلم هذا الكتاب عن إسقاطات ما في قصة الغلام وأصحاب الأخدود على الواقع المعاصر؛ ففيه كلام عن الطوائف الممتنعة وعن أن حصر القتال في شخص الحاكم هو جعل الجهاد حالة ذهنية يستحيل تطبيقها. وفيه كلام عن تحديات الدعوة وعواقبها وأنها قدر لازم لها (وهي نقطة مركزية في فكر الشيخ) وفيه ذكر ما هي العقبات التي تواجه الداعية وعن البلاء الملازم لكلمة الحق، وعن السجن والتعذيب والإكراه وطرق الثبات والرفعة والسمو والإمامة.

وفيه كلام عن جيل التغيير «وهم الشباب» مقابل جيل «الآباء» الذي رتع من المهانة والذل حتى استمرئ الوضع، وعن مفهوم حكمة الشيوخ وما هو ضابطها. وفيه كلام عن السحرة - الركن الأساسي في قصة صاحب الأخدود - وتشابه أثر السحر مع أثر مشايخ السلطة والإعلام في ترسيخ حكم الطاغية وخداع الناس. وفيه كلام عن آليات التغير، وعن تحالفات الجماعات الإسلامية المعاصرة، وأن التغيير لا يكون بالدخول في المنظومة الجاهلية بل في اقتلاعها من جذورها، وما دخلوها إلا إضفاء شرعية لها. وفيه كلام عن الفوارق مابين الصالح والمصلح فالراهب الذي اعتزل الناس في صومعته صالح والغلام الذي احتكّ مع الناس ودعائهم وأسلموا هو مصلح، وهذا ما دعا الراهب لأن يقول له: «أنت اليوم أفضل مني».

وهناك جوانب لا بأس بها في الكلام عن اليأس والصبر في مراغمة الطواغيت، وأين الخطأ الذي يقع به بعض الدعاة عندما يقع البلاء عليهم، وعن التحاكم إلىٰ الطاغوت والمحاكم الحالية وعن الفطرة متىٰ تصلح في معرفة الحق، وعن الكرامات الذي رأىٰ أن من أبرز علاماتها وجود فئة مجاهدة مستضعفة تقاتل من أهل قوىٰ العالم أجمع ثم بدلًا من أن تضمحل تتكاثر وتتوسع ويكثر أفرادها. وعن أعمال الحسبة مع الجهاد والأخطاء التي تقع في الجمع بين الأمرين.

وفيه كلام واستنباطات جميلة من قصة صاحب الأخدود والغلام، ونلاحظ أن هذه النقاط أغلبها داخلة في مجال الحركة؛ أي أنه أعطىٰ رؤية جهادية في قضايا الواقع المعاصر مغايرة لمنهجية الحركات الإسلامية الأخرىٰ.

وهي رسالة رغم قصرها إلا أنها جميلة، وكان لي ملاحظة فقط حول الكلام عن الطائفة المساندة علىٰ الحاكم لو جعل توضيح أن الكلام هنا عن الأمة الكافرة، وذلك يقول الشيخ: «**أما دعوى تجنيب ما يقال لهم بالمدنيين أي الأتباع من غير المقاتلين بحجة استضعافهم فهذا لا وجود له إلا في أذهان الجهلة من أمة محمد ﷺ، لأن هؤلاء المستضعفين - زعموا - هم مصدر قوة المستكبرين، فهم أمتهم، وهم شعوبهم، ومنهم تستمد الجيوش رجالها وقوتها، وقوة عطائهم في الصناعة والزراعة والكسب هي مصدر قوة الحكام والمستكبرين**». فقد يُقال أن الشيخ يحث علىٰ قتل الشعوب المسلمة لأن من الشعب يخرج الجيش وهم قوة مصدر الطواغيت... إلخ

٢٩ سبتمبر ٢٠١٩م - ٣٠ محرم ١٤٤١هـ

القواعد الأول في صناعة الإنسان والدول

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: القواعد الأول في صناعة الإنسان والدول.
- اسم المؤلف: عمر بن محمود أبو عمر (أبو قتادة الفلسطيني).
- عدد الصفحات: ٥٦.
- دار النشر: مركز النور الإسلامي.

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتاب القواعد الأول في صناعة الإنسان والدول، وهو شرح لمدلولات حديث عبد الله بن سلام أول ما أتى الرسول ﷺ المدينة، فالسلام وإطعام الطعام وقيام الليل أمور يراها البعض بسيطة ومندرجة ضمن الوعظ العام ولكن كيف يمكن لو تدبرها الشخص يرىٰ فيها أُسس إنشاء واستقرار المجتمع الاسلامي الناشئ.

فالسلام والعمل بمقتضاه هو لتوطيد صلة الناس في المجتمع والذي عكسه هو حصول الانقسام، وإطعام الطعام هو تحقيق للتكافل الاجتماعي والذي عكسه حصول الظلم والذي مآله إلىٰ غياب فضائل الأخلاق والتنازل عنها لفرط الحاجة فينتج عنه شيوع الفاحشة والجرائم والموبقات. وقيام الليل والناس نيام هي ذخيرة الداعية والمجاهد، فآيات القيام وردت بعدها صور البلاء والنصر فدل هذا لارتباط الأمور ببعضها البعض.

وذكر المؤلف غياب هذه النماذج الإيمانية عن واقع الحركات الاسلامية السياسية التي همّشت التعبّد وحضور ذكر الدار الآخرة في برنامجها وتطبيقاتها فكان الانحراف جزئيًا نحو التشبه بواقع الحركات

الجاهلية حتىٰ غدت تشبههم جدًا. وذكر الضابط ما بين العمل الحسن والعمل الإسلامي إذ هم يشتركون بنفس الفعل ولكن يتغايرون بتغاير النية والمقصد.

ذكّرني الكتاب بكتب إبراهيم السكران رغم أن مضامين الطرح قد سبقه بها الشيخ إذ ألف كتبه قبل السكران ولكن أُعجبت بالقواسم المشتركة وأكثرها حضورًا خفوت ظاهرة التعبّد والانكباب علىٰ مصادر الوحي من قرآن وسُنّة لدىٰ الحركات الإسلامية السياسية وأدّىٰ هذا إلىٰ تضخم جوانب معينة مقابل ضمور البوصلة التي تحدد صحّة الطريق.

الكتاب يعتبر وجبة خفيفة يُنتهىٰ منه في جلسة واحدة.

٢٩ سبتمبر ٢٠١٩م - ٣٠ محرم ١٤٤١هـ

على خطى الخليل عليه السلام

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: على خطى الخليل إبراهيم عليه السلام: كسر الأصنام قراءتان.
- اسم المؤلف: عمر بن محمود أبو عمر (أبو قتادة الفلسطيني).
- عدد الصفحات: ١٥٠.
- دار النشر: مركز النور الإسلامي.

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتاب (على خطى الخليل إبراهيم عليه السلام: كسر الأصنام قراءتان) للشيخ أبو قتادة عمر بن محمود، وهو كتاب تكلم صاحبه في المقدمة عن السبيل الصحيح في استنباط وقائع التاريخ وأخبار الصالحين التي وردت في الكتاب والسُنّة ووضعَ الضوابط في هذا مباينًا بعض الأحزاب والطوائف التي ضلّت في هذا والتي أرادت أن تسير أحداثها المعاصرة مثل الأحداث التي وردت في السيرة وبالترتيب من سرية الدعوة...إلخ. وفي ظني أن أبرز صنفين في هذا هم جماعة جهيمان الذين قالوا أن الجهاد لا يكون إلا بإيمان ثم هجرة، وحزب التحرير الذين ما زالوا ينشدون النُّصرة كنُّصرة الأنصار للرسول ﷺ ليتحقق لهم النصر.

وأما الفصل الأول تكلم عن الفوائد المستنبطة من قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام في تكسيره الأصنام وقد سبق الاستنباطات حديثٌ عن شخص إبراهيم عليه السلام كما جاء بها القرآن.

وأما الفصل الثاني فهي محاكاة تهكمية لتصريحات افتراضية من أحزاب وشخصيات وجماعات تعلق على حادثة تكسير الأصنام إذا حدث في زماننا المعاصر. وقد تستطيع أن تسقط هذه التصريحات على

أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وقد رأيت في أصناف هذه التصريحات بعض الدلالة على أصحابها وقد عرفت بعضهم ولم أعرف أكثرهم وهم:

- جماعة الإخوان المسلمين.
- حزب التحرير.
- الجماعة الإسلامية المصرية.
- يوسف القرضاوي.

ولم يناقش هذا الفصل الرد على شبه وطريقة اعتراض هؤلاء المفترض على حادثة تكسير الأصنام المفترضة وإنما كانت مجرد عرض.

والفصل الثالث والأخير عن طريقة تعامل الفقهاء الجدد مع النصوص الشرعية التي تجرد الدين من الكثير من معانيه. وهنا الاستدلالات تذكرك بكثير من ترّهات القرضاوي ومشايخ المقاصد والمصلحة والمفسدة. ولكن كان الشيخ يعرض الأثر (حادثة لصحابي أو للرسول ﷺ) ثم يعرض رأي الفقهاء الجدد المفترض ثم يقوم بنقضه. فترى أن الكثير من طرق استدلالتهم تكون بتضخيم الفرع حتى يعود على الأصل بالإبطال، حتى يصبح الفرع أصلًا والأصل فرعًا أو يلغي تمامًا.

٢٩ سبتمبر ٢٠١٩م - ٣٠ محرم ١٤٤١هـ

رواية: حي بن يقظان

المعلومات العامة:

- **اسم الرواية: حي بن يقظان.**
- **اسم المؤلف: ابن طفيل.**
- **اسم المحقق: رنا قواسمي.**
- **عدد الصفحات: ١٠٢.**
- **دار النشر: دار الأهلية للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

قصة ابن طُفيل المعنونة بـ(حي بن يقظان) هي أشبه القصص العربية بالأسلوب الروائي الحالي؛ وابن طفيل هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي (ت ٥٨١هـ). فابن طُفيل – كما يظهر من خلال القصة – كتبها ردًا على فئام من الناس وعلى العامة التي لا تستجيب لمن يدعو ويتكلم عن الكشف وذوبان الذات في غاية مقامات التنسك. فأنت لا تفصل ما بين نقمة حي بن يقظان في القصة وما بين كلام مؤلفها ابن طفيل على وجه الحقيقة، فالأفكار الموجودة في القصة ليست إلا انعكاسًا لأفكار مؤلفها. والمؤلف عمومًا لا يلتزم الأسلوب الروائي الحديث، فهو لا يفصل أحيانًا ما بين الكلام الباطني لـ«بطل الشخصية» وتعليق المؤلف، فالبطل في القصة كما هو مفترض شخص أُمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يتكلم لأنه لم يختلط مع البشر قط، ففي القصة يظهر على أنه يهيم في التأمل الداخلي ثم تُختم الفقرة بآية قرآنية.

حسنًا، عن ماذا تتكلم القصة؟

تتكلم عن حي بن يقظان الذي أُرسل وهو رضيعًا في جزيرة نائية ليس فيها بشر وعاش مع الحيوانات (وهذا يدل لك أن فكرة طرزان عربية في أصلها). أظهر المؤلف من خلال الطرح في مقدمة القصة على أن الكائن البدائي يتكيف مع الطبيعة بناءً على الغريزة والعاطفة وحب الفضول، وهما المحرك والدافع لكي يتأمل ويجرب ويكتسب خِبرة في تشريح الأمور وتقييمها.

هذه الفطرة الطبيعية والتأمل في الطبيعة والتوغل فيها - لا بُدَّ أن توصله إلى الخالق - فهو مقصد ثانٍ من القصة (كيف يمكن أن تؤمن بوجود الإله وحتى وأنت لم تعاشر البشر ولم تتطلع على ثقافتهم). ولم يكتفِ المؤلف بإظهار هذه الخبرة حول الطبيعة وقوانينها بل بالغ حتى جعل هذا الكائن البدائي في مقام الفلاسفة الطبيعيين، فهو يتأمل في الكون هل هو حادث أم قديم، وما اللوازم التي تترتب على كلا القولين (ويبدو أن ابن طفيل لم يحسم أمره في هذا وأظهر فساد كلا القولين ولم يرجح أو يأتي بخيارٍ ثالث).

حاول ابن طفيل في قصته أن يُفكك بعض مصطلحات الفلسفة بشكل قصصي مبسط، فتكلم عن حدوث وقدم العالم وما معناه وما لوازمه، والجسم وتنزيه الإله عنه، وعن فلسفة لكل حادث لا بُدَّ من حدث، وغيرها. وهذا يُفسر سبب شهرة هذا الكتاب في الغرب ولدى الفلاسفة على وجه التحديد. وهذا التبسيط في الأسلوب أمر صرّح به ابن طفيل في خاتمة الكتاب فقال: «**وأردت تقريب الكلام فيها على وجه الترغيب والتشويق في دخول الطريق**».

ومن المعلوم أن القصة من أفضل الأساليب لتعميق الفكرة وبثها بين عامة الناس وبالأخص في جوانب الفلسفة، وهذا ما تنبّه له الشيخ عمر بن محمود فقال عن قصة (الإيمان) لنديم الجسر: «**وعلينا ألا نقلل من قيمة القصة والحكاية والرواية؛ فهي فن ذكي يمكن من خلاله تعميق قيم علمية ونشرها، كما فعل الشيخ نديم الجسر في قصته (الإيمان)، وهي قصة ذكية علمية رائعة لا أعلم لها**

مثيلًا، صاغ فيها الشيخ قصة الفلسفة مع قضية الغيب والإيمان بالله بطريقة ذكية ممتعة تجعلك تسير معها سيرًا هيّنًا لا مشقة فيه، مع صعوبة مباحث الفلسفة كما هو مشهور».

وقد ذكر الدكتور عبد الوهاب مسيري هذا أيضًا في افتتاح رحلته الفكرية فقال: «**اكتشفت في أثناء سنوات عملي بالتدريس، أن رواية القصص وضرب الأمثال تنقل للمتلقي الأفكار المجردة الصعبة بسهولة ويسر**». ولا أخال حي بن يقظان وأسلوب ابن طفيل إلا أنها على هذا المنوال.

وقضية الكشف ومقدماتها لا ينتطح كبشان في بدعية هذا التوجه وضلاله، ومن طرائف ابن فضيل أنه يعترف أن الكشف لم يأمر به النبي ﷺ كما يقول: «**لماذا ضرب هذا الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي، وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس في أمر عظيم من التجسيم، واعتقاد أشياء في ذات الحق وهو منزه عنها وبريء منها؟**» لا أعلم لماذا هذه الثنائية مابين المكاشفة والتجسيم وكأنَّ لا يوجد خيار ثالث وهو رفض الاثنين معًا. على العموم من أفضل ما أُلف في هذا الباب في مناقشة هؤلاء - حسب أهل الاختصاص - هو كتاب (الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ) لمحمود عبد الرؤوف القاسم.

تبقى نقطة أخيرة مُلفتة وهي أن الكتاب أُلف في القرن الخامس الهجري، ومع ذلك ترى المؤلف يقول: «**وقد ثبت في علوم التعاليم بالبراهين القطعية، أن الشمس كروية الشكل، وأن الأرض كذلك، وأن الشمس أعظم من الأرض كثيرًا**».

وفي فصول متقدمة حاول أن يبرهن على ذلك.

وهذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٩ سبتمبر ٢٠١٩م - ٣٠ محرم ١٤٤١هـ

من بلاط الشاه إلى سجون الثورة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: من بلاط الشاه إلى سجون الثورة.**
- **اسم المؤلف: إحسان نراغي.**
- **اسم المترجم: ماري طوق.**
- **عدد الصفحات: ٣١٤.**
- **دار النشر: دار الساقي.**

التعليق والمناقشة:

هذه قراءة لكتاب (من بلاط الشاه إلى سجون الثورة) لعالم الإجتماع والمؤرخ الإيراني إحسان نراغي، وقد قدم له الأكاديمي الجزائري محمد أركون، وهذا الكتاب يعطيك مادة خام للتحليل في سيكلوجية الطاغية وأُسس الحكم الشمولي والثورة.

عندما اتسعت الثورة وأصبح النظام مشلولًا حيئنذ فقط قبل الشاه أن يُقابل أُناس ليسمع منهم المشورة ويغض الطرف عن أي انتقادات أو تشخيص قد لا يعجبه، فكان إحسان نراغي من هؤلاء الذين استطاعوا الدخول على الشاه في نهاية حكمه، وأدار جملة من الحوارات حول تشخيص وضع البلد والحلول التي يجب أن تتخذ وكانت كلها تصب في تقديم تنازلات حقيقية من الشاه من أجل إقناع الجمهور، ولكن كانت هذه الخطوات عبثًا في تلك اللحظة أو تأخر أوانها كثيرًا ولم يعد لها مفعول أو تأثير كبير.

الكتاب أُلف في التسعينيات - يعني بعد أكثر من عقد على سقوط ووفاة الشاه - ولكي يطمئن القارئ أن ما ذكره ليس من قبل استحضار الذاكرة، ذكر مراجع هذه المذكرات وهي ملاحظات

كتبها في الحوار مع الشاه وملاحظات سجلها مستشار الشاه حول فحوى اللقاءات وكذلك مصادر أخرى مثل الاعترافات والملاحظات التي أخذهم من المقربين من الشاه والمسؤولين الكبار وضباط المخابرات وغيره ممن استطاع الإلتقاء بهم في السجن لاحقًا وقد ذكر أسمائهم.

ربما كانت الظروف آنذاك جعلت من الشاه المتغطرس أن يقبل ببعض النقد الحاد والصريح من جنس ما يطرحه إحسان نراغي وربما لمس الشاه أن هذا النقد الصريح هو الأصدق في توصيف المشكلة مما يعني أن بالإمكان أن تتخذ حلولًا لإنقاذ البلاد على ضوئه. يُذكر أن المسؤولين السوڤييت كانوا يتهيبون من ستالين بأن يطلعوه على الحقيقة المرة خوفًا من نزول نقمته عليهم، ولكن قائد القوات السوڤيتية وبعد الاجتياح الألماني للاتحاد السوڤيتي في الحرب العالمية الثانية كان يكاشفه بكل صراحة وبصوت عالٍ وقد رأى ستالين أن هذا الأسلوب وإن كان فظًا إلا أنه يجعل القائد على بينه من أمره فلذلك قبله ولكن بعض الطغاة لا يريدون أن يسمعوا الحقيقة التي تنقذهم من مصيرهم إلى أن يهلكوا والبعض مثل الشاه قد قبلها ولكن بعد فوات الأوان.

ويظهر أيضًا من خلال المؤلف أنه مقرب من دوائر الحكم وإن كان أظهر ميول معارضة وذلك بانتقاداته في مؤلفاته لتغريب الشاه للمجتمع وبدعوته للعودة إلى دستور ١٩٠٦، وهو أقرب إلى فرح - زوجة الشاه - كما يظهر وذلك بوجودهِ مرافقًا لها في بعض المناسبات. وهذا انعكس على توصيفه لها والذي قد يكون لّمعها نوعًا ما بالمقارنة مع بقية أسرة بهلوي - وهذا مما يجب التحرز منه -.

إحسان نراغي بعد أن ناصح الشاه ولكن في وقت اتّسع الخرق فيه على الراقع وأُزيح الشاه عن الحكم تم وضعه في التوقيف لثلاث مرات، ولكن المرة الأطول هو عندما انشق تلميذه أبو الحسن بن الصدر -أول رئيس إيراني بعد الثورة- عن النظام ولجأ إلى فرنسا، تم ربط الإثنين ببعضهم.

هذه التوقيفات كلها تنبئك عن إشكالية «الدعاية» وطغيانها على الحقائق الموضوعية. أحيانًا تخرج شائعة عنك وتشيع بين الناس وتصبح من المسلّمات، حتى لو كانت كتاباتك كلها تنقضها يصبح من الصعب تغير هذه الصورة عنك أمام الناس. هذه إشكالية إحسان نراغي، المؤيد للشاه والذي كان ينتقده في كتبه، وتلميذه أبو الحسن الصدر الذي لم يره ولم يتصل معه منذ سنوات، هذه الصور النمطية في الربط هي ما تجعل البعض يقع ضحية السجون لسنوات طويلة يضيع فيها عمره على مجرد شائعة.

في هذا الكتاب ثمة كثير وقفات منها:

- أن الطاغية الذي بلغ قمة الترف وانغمس فيه واعتاد عليه؛ لن يشعر بك مطلقًا، ولا تظن قط أنه بينما أنت تتلوى من الألم، أنه مهموم ومغموم لما أنت فيه؛ وهذا ظهر من خلال حوار الشاه لما قال له المؤلف أن راتب سائقي هو ١٥٠٠ تومان، وأمده ببطاقة راتب السائق ليراها، يقول نراغي: «**كان واضحًا أنه لم يرَ في حياته بطاقة راتب من قبل. فالإضافة إلى ذلك لم يكن قادرًا على تصور ما يعنيه مبلغ ١٥٠٠ تومان**». فاضطر المؤلف أن يوضح ذلك بمثال فقال: «**بهذا المبلغ، يعجز المرء حتى عن استجار شقة بغرفتين في الحي الجنوبي**».

وهذه الملاحظة رأها الشيخ عمر بن محمود في قراءته لكتاب (السجينة) لمليكة أوفقير فقال: «**هذه الصورة في قصر الحسن الثاني من البذخ والحياة المترفة الغريبة جدًا، يدلّك على من الذي يحسّ بك، من يعرفك، من أنت، وما هي الشعوب؛ وكيف تعيش، وكيف تأكل، وكيف تشرب، هل يفكّر بك، هل يمكن في يوم من الأيام يحسّ بألمك؟ بجوعك؟ هؤلاء يعيشون ولا يحسّون بأمّتهم، ولا يعرفونها، ولا يعرفون هذه الأمة كيف تعيش، لا كيف تأكل ولا كيف تشرب ولا كيف تموت ولا كيف تحيى ولا يعرفونها، ولا يغرّنكم الصور**».

- كانت استراتيجية الشاه في تثبيت ملكه هي التطبيع مع إسرائيل من أجل نيل رضى اللوبي الصهيوني المؤثر في الدول الغربية وقام بعملية تغريب واسعة للمجتمع مصادمًا بذلك كل العادات والتقاليد وحارب رجال الدين وهذا من أجل نيل رضى الدول الغربية، وقام بالبطش بخصومهِ حتى يخلق جوًا من الخوف فلا يعترض عليه معترض، وظن هذا سوف يجعل الغرب يراه شريكًا مناسبًا للحكم، لأن البدائل له إما تيارات شيوعية أو دينية، فهو أراد أن يظهر بمظهر الحاكم النموذجي حسب المعايير الغربية وأن تلك الدول الكبرى مستعدة أن تبذل الغالي والنفيس من أجل إبقائه على الحكم ومع ذلك لم يشفع له هذا وسقط، وهذا ما جعل الشاه يشعر بمرارة كبيرة جدًا وجرح لم يندمل مع الوقت، كيف تخلوا عنه رغم كل ما فعل من أجل نيل العلامة الكاملة، وهذا يدل أن الأسياد قد يتخلوا عن العبيد في وقت من الأوقات حتى وإن قام العبيد بما يرضي الأسياد.

فالدول الغربية دول بَراغْماتيَّة تهمها المصالح في المقام الأول، فمن أجل الاستمرار في الطاعة لا بُدَّ من شروط، أولها أن لا يحاول العبد أن يرتقي إلى مقام السادة، وأن لا ينافسهم ويحاول تدريجيًا أن يأخذ مقام الند، فلا يفكر البتّة أن يطور بلده عسكريًا وتقنيًا بشكل يجعله في مصاف تلك الدول، فتلك الدول الغربية لا ترضى إلا أن ترى الدول الإسلامية في مؤخرة الركب، فلا تقبل المنافسة في التطور ولو كان على رأس تلك الدول رئيسًا غربيًا أشد من الغربيين أنفسهم! وهذا الخطأ الذي وقع فيه الشاه - كما يبدو - (انظر صـ٣٢ و٥١) من الكتاب، وهي نقطه تنبّه لها الشيخ محمد سرور زين العابدين في كتابه (وجاء دور المجوس) في الصفحة ٢٤ فيراجع.

ومن صور البَراغْماتيَّة كذلك، محاولة إمداد جسور مع المنتصر، فلا أحد يُراهن على الخاسر، والكل يريد أن يضع استثماراته في المركب السليم. وإن كان الخميني منتصرًا ولا بُد، فمن الأفضل التفاهم معه بدلًا من الاستثمار في الدفاع عن الشاه مما يؤثر سلبًا على مصالح تلك الدول، وهذا ما حصل مع أمريكا ومصر مثلًا عندما قبلوا باستضافة الشاه.

- في هذا الكتاب سوف تعرف أن المخابرات لا يمكن أن تعرف كل شيء ولا يمكن أن تحيط بكل شيء وأحيانًا تُصاب بشلل يؤدي إلىٰ سقوط النظام، وهذا ليس محصورًا علىٰ السافاك (مخابرات الشاه) بل حتىٰ علىٰ المخابرات المركزية الأمريكية فقد اتضح من خلال وثائق السفارة الأمريكية بعد اقتحامها أنهم لم يستطيعوا الإستنتاج أن الأمور سوف تصل إلىٰ ما وصلت إليه! فالصورة الخارقة والمبالغ فيها هي من الدعاية التي تحرص المخابرات أن ترسخها في أذهان الناس وهذا يؤدي إلىٰ الكف عن أي معارضة بحجة أن كل شيء مكشوف ومعروف! بينما الأمر ليس كذلك (وحبذا لو ترجع إلىٰ كتاب فن التجسس لهنري كرامبتون لتعلم أن الجهد الاستخباراتي جهد بشري وفيه من القصور والأخطاء الشيء الكثير، فالصورة في الإعلام شيء والواقع شيء آخر).

- ترىٰ في هذا الكتاب أن الشخص الذي تتعاظم شهرته يصبح من الصعب استهدافه وأن أي استهداف له هو بالضرورة إسقاط للمستهَدف وضرب المؤلف مثلًا بعلي شريعتي والخميني فيقول: «**صحيح أن الزعماء الدينيين لم يكونوا موافقين تمامًا على طريقته** -أي علي شريعتي- **في تفسير القرآن والأحاديث النبوية، لكن هؤلاء المرشدين أنفسهم، ما إن وعوا أن حركته آخذه بالاتساع حتى توقفوا عن انتقاده**»، ويقول عن الخميني: «**لن يجرؤوا - أي رجال الدين - على معارضة الخميني علانيةً. هم مرغمون على إخفاء أفكارهم وعلى الظهور بمظهر المؤيدين له خوفًا من الإنعزال عن الجماهير التي يستمدون قوتهم منها**».

بعض الشخصيات إن اعتقلت أو اغتيلت وتعاطف الناس معها، تكون عاطفة الناس مقدمة علىٰ كل الحقائق الموضوعية التي توضع عنها، فلا تقبل انتقادها في ذروة المصاب، فلا يسع الناقد إلا الانتظار لزوال هول الصدمة، وزوال السكرة، ليمارس انتقاده؛ هذا مما يستفاد من هذا النص من وجهة نظري. فهذه الشخصيات كان من الصعب انتقادها والبعض يسكت رهبة ورغبة، إلا أن انتقادها في وقت لاحق أصبح مباح ولو علىٰ نطاق معين. وعلىٰ هذا فقس.

ولكن لا يعاب كل أحد سبح عكس التيار وأنكر في وقت الذروة، وهذا الأمر يخضع لنوع المنكر والمصلحة في عدم تأخره، فثمّة أمور لا يجوز تأخر بيانها عن وقت الحاجة.

- نظم الحكم تقوم على موازنات، البعض تتعبه هذه الموازنات ويراها عائقًا فيما يراه من التقدم، فيحاول التخفف منها بإهمالها أو معاداتها، فتتحالف القوى التي تشكل توازنًا في المجتمع ضده وتؤدي في النهاية إلى إسقاطه، فالشاه مثلًا تصادم مع التيارات الدينية الشيعية بقيادة الخميني وكذلك الشيوعيين والجبهة الوطنية من القوميين أتباع مصدّق وأصحاب نظرية الملكية الدستوري أمثال كريم سجنابي وتجار البازار ناهيك عن من في الخارج مثل دول الجوار كالعراق الذي اتخذ - ولو جزئيًا قاعدة للمعارضين الإيرانيين - أو الشخصيات البارزة مثل الفيلسوف جون بول سارتر وغيرهم الكثير من الحقوقيين والناشطين. فاجتمع هؤلاء الفرقاء الذي يفرقهم كل شيء على هدف واحد هو إسقاطه، وبهذا تعلم أن الشخص لا بُدَّ أن يُراعي مثل هذه الموازنات ويقلل الأعداء قدر ما يستطيع، وأن كلما كثر أعداءه سَهُلَ إسقاطه.

- الثورة تستفيد من الكفاءات ولا تلغيها، الثورة التي حصلت في إيران أسقطت نظام، ولم تسقط حكومة، فأصبح هنالك تفكك وفوضى وأصبح من الضروري أن يُستفاد من خبرة رجال النظام السابق من أجل تسيير النظام الحالي، وليس المقصود هنا أوتاد النظام السابق ورجاله المخلصين وإنما الأفراد العاديين، فعندما دخلت إيران في حرب مع العراق، أُفرج عن الطيارين المعتقليين، فكان لهؤلاء الطيارين دور في ترجيح كفة الحرب خصوصًا أن طياري نظام الشاه تلقوا أفضل وأجود التدريبات في أمريكا. وكان هؤلاء الطياريين يحاولون أن يبرهنوا على وطنيتهم في التفنن في الحرب والدفاع بشراسة عن البلاد.

- من خلال محاورات نراغي مع الشاه، أظهر أن هنالك ثمة فرقًا جوهريًا ما بين المعارض الحقوقي والمعارض النخبوي، فدور الحقوقي يستطيع أن يقوم بهِ أي أحد، وهو دور مركز على جوانب محددة

(الإفراج عن المعتقلين أو إتاحة الحريات) دون توسع وشمولية، بخلاف المعارض الحقوقي الذي يجب أن يُلِمَّ بتاريخ البلاد ويستحضر الشواهد في عملية الإصلاح ويعرف اقتصاد البلاد وكيف يُدار، والثغرات التي تضر بالإقتصاد، وأين مكامن الفساد وهذا لا يتم إلا بمعرفة نظم الإقتصاد العالمي كيف تُدار وكيف تسير كمقدمة أولية، وكذا لا بُدَّ أن يكون محيطًا بعلاقات بلاده الخارجية فيعرف مواقفها وتقاطعها، حيئنذ يستطيع أن يشخص المشكلة ويعطي لها حلول، لذلك من يقدم نفسه معارضًا ذو رأي وفكر ثم يظهر أمام الناس جهله وعدم إلمامه فيما يخص بلاده، فمن الأفضل أن لا يتعدىٰ عتبة الصنف الأول من المعارضة وهو الجانب الحقوقي.

- كذلك من خلال الكتاب وقصة دخول نراغي السجن تستفيد من الاحتكاك القسري بين المعتقلين أصحاب التوجهات المختلفة، وهذا يجعل الفرد أكثر انفتاحًا وأكثر بعدًا عن الانغلاق الأيديولوجي الذي كان عليه، فمن خلال المحاورات مع الآخرين قد يكتشف أمورًا وتتسع آفاقه بشكل أكبر مما كان عليه في السابق، وهنا ليس القصد أن ينتكس الشخص عن فكرة المعارضة، وإنما تغيّر في بعض التكتيكات مع الثبات علىٰ الاستراتيجية. وربما تكون الاستفادة لو كانوا أفرادًا مجتمعين مع بعض أكثر مما لو كانوا مجموعات مع بعض، فالاصطفاف يكون حاجزًا أمام فكرة التأمل هذه، حتىٰ لا يظهر الشخص أمام رفاقه بالضعف.

وكذا تكلم نراغي عن تحوّل أفراد مجاهدي خلق في السجن إلىٰ التعصب للنظام الإسلامي، أي تحول من النقيض إلىٰ النقيض، وكانت استراتيجية مجاهدي خلق أو «المجاهدين» هي الجمع بين المسحة الإسلامية في القشرة والتصور الماركسي المادي في اللب، وكان السجن فرصةً لمعتقلي مجاهدي الخلق لبيان استحالة الجمع بين النقيضين فانحازوا في النهاية إلىٰ التصور الإسلامي الصرفً - حسب نظرهم - وهو نظام الجمهورية الإسلامية بقيادة خميني بتنقية الإسلام عن المادية. أحيانًا لا يستطيع الشخص أن يرىٰ هذه الغشاوة لولا هذه الظروف.

- تكلم نراغي بشكل مطول حول صراع النظام الناشئ وبين مجاهدي خلق أو كما أسماهم في الكتاب «المجاهدين»، ورغم ضراوة حروب العصابات بين الطرفين، كانت نقطة التحول في المعركة هي اغتيال كبار المسؤولين ومن بينهم رئيس الوزراء وبعض رجال الدين، وكان أثناء اجتماع لمجلس الدفاع الأعلى في إيران - أثناء الحرب الإيرانية العراقية - وهذا جعل مجاهدي خلق يظهرون بمظهر المعادي لوطنه، وهذه العملية أثارت استنكارًا كبيرًا في أوساط الشعب، واستغلها الخميني ونادى بواجب الكشف عن عناصر مجاهدي خلق، فأصبحوا في مواجهة عامة الناس المؤيدة بمجموعها لرجال الدين الواقفين مع الحكومة، فنتج عن ذلك أن الأسرة أصبحت تفضح ابنها المنظم لمجاهدي خلق فتقلصت قوتهم تدريجيًا إلى أن أصبح أثرهم ضعيفًا.

وهذا يدلك أن بعض العمليات وإن كانت مؤثرة وتضرب في الصميم إلا أن التوقيت قد يجعلها تعود بآثر سلبي على صاحبها، فبدلًا من أن تقوض هذه العملية الحكومة أدت إلى تقويض الحركة نفسها! فالتوقيت عامل مؤثر لا يجوز الاستثناء عنه أو إهماله من المعادلة - مهما كان الهدف كبيرًا -، ويدل أيضًا عدم الدخول في مواجهة مع عامة الناس مهما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فأي مواجهة مع عموم الشعب، يعني الموت المحتم لأي عمل، فالشعب هو الماء والهواء للحركة وإذا انقطع الماء والهواء ماتت الحركة.

- بقاء جملة من المعارضين في بلدٍ ما، ثم تواطئهم مع حكومة هذه البلاد واحتضانهم، أو دعم حكومة هذه البلد لهم - مع طول المدة - يجعلك تشك لزومًا بتطور هذه العلاقة من دعم بسيط إلى وجود ارتباط ما بين هؤلاء المعارضين وحكومة تلك البلد، وهذا ما حصل مع حزب توده الإيراني الذي كان بعض قياديه قد بقوا في الإتحاد السوفيتي لعقود، ثم رجعوا وهم «**كاثوليكيين أكثر من البابا نفسه**» كما يقول نراغي، وكان لهم دور في تأزيم الوضع بالتستر تحت عباءة الخميني ولعبوا دورًا حاسمًا في القضاء على حكومة برزكان وكانوا في الواجهة أنهم مناصرين للنظام الإسلامي والخميني

ولكن في الباطن كانوا يسعون لضرب الأطراف ببعضها، ولكن ما أجهض مشروعهم هو أمرين، استئثار من يسمون بالإسلاميين بالمناصب المهمة والرفيعة في الجمهورية، ورصدهم عن كثب من قبل الحرس الثوري، ولكن ما حسم المسألة هو انشقاق أحدهم وتقديم الأدلة على عمالة هؤلاء وأنهم يسيرون وفق مخطط مرسوم، ومع تراكم الأدلة تم إقصائهم من العملية السياسية تمامًا، وأجهضوا ذراع الاتحاد السوفيتي وأبعدوه عن المشهد. يقول نراغي أن «**هذا أثار رجال استخبارات الشاه الذين كانوا في السجن إذ كانت حكومة المعممين أفضل أسلوبًا من نظام الشاه في التعامل مع الشيوعية وإقصائها**». بعيدًا عن هذه الأحداث بعينها، لكن تستفيد منها بشكل عام في حال حصول ثورة بشعارٍ إسلامي، وهي عدم تولية من يعمل ضد المشروع الإسلامي في المناصب الحساسة والرفيعة (ولم يولي الرسول ﷺ منافقًا قط)، ويجب التشكك فيمن فعل ما يوجب الشك به! وقد قيل: أكون خائفًا حذرًا ولا أكون غافلًا مطمئنًا.

فخلاصة الكلام: أن هذا الكتاب ينبئك عن التغيرات الجذرية التي تطال المجتمعات بسبب الثورات، وعن برزخ التغير الذي يكون بين حالتين، حالة الفوضى والاستقرار، ومن الجيد أن يُستفاد من هذه التجارب؛ لكي يوفر المسلم على نفسه من الحفر التي قد يقع بسبب جهله بها، فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، سواء وجدت هذه الحكمة في مجتمعات نختلف أو نتفق معها، فمن الجيد أن يختصر الشخص على نفسه الطريق، وأن لا يطيله بسبب جهل - كان هنالك ثمة متسع - لكي يدفعه عن نفسه.

وفي الهامش: بيان ما يستفاد من هذه الأحداث ليس إقرارًا بحال لاستثمار النظام الإيراني لهذه العثرات من أجل مداواة نفسه والمضي قُدمًا، وإنما بيان ما يستفاد من هذه الأحداث لإسقاطها على وقائع أخرى، فرأيت أن بعض الكلام قد يُفهم منه ذلك، فأردت أن أضع توضيحًا في الخاتمة يقيد المحتمل من اللفظ.

والله أعلم.

١ نوفمبر ٢٠١٩م - ٤ ربيع الأول ١٤٤١هـ

النفيسي... رجل الفكرة والتقلبات

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: النفيسي... رجل الفكرة والتقلبات: سيرة غير تبجيليّة.**
- **اسم المؤلف: علي العميم.**
- **عدد الصفحات: ١٥١.**
- **دار النشر: دار جداول للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

في الفترة الأخيرة، كثر سؤال «هل شاهدت لقاءات النفيسي في برنامج الصندوق الأسود؟» تكرار هذا السؤال من أكثر من طرف ومن أشخاص ربما لا اهتمام لهم بالسياسة، أثار لدي الفضول، وتحتم علي تحت هذا الإلحاح المتصاعد أن أمهد لمشاهدته، وأضرب عصفورين بحجر.

فقرأت كتاب (من أيام العمر الماضي) كمدخل لهذه المقابلات، خصوصًا أن الكتاب يقف عند فترة زمنية معينة ولا يتجاوزها وهي (بدايات الغزو العراقي للكويت) فقلت من الجيد أن أقرأ هذا الكتاب لمقصدين، وهي أن أجعله مقدمة لمشاهدة اللقاء، وأكمل ما وقف عنده الكتاب، وأن أقارن ما بين أسلوب «الكتابة» و«الإلقاء» في التدوين.

وبعد أن أنهيت الكتاب، تصفحت في وجوه مكتبتي، لأختار الكتاب القادم، فظهر لي كتاب آخر عن سيرة النفيسي وهو للصحفي السعودي علي العميم (النفيسي... رجل الفكرة والتقلبات: سيرة غير تبجيليّة). فقلت في نفسي إن لم أقرأ هذا الكتاب الآن فلن أقرأه في قادم الأيام، هذه فرصة أن أضرب الحديد وهو حامي.

وبعد أن أنهيت كتاب العميم، أتت في ذهني عبارتين، الأولى «لم أرَ خيرًا منك قط» ورأيت أن هذا اللفظ يصلح عنوانًا للكتاب، فالكتاب باختصار هو تجميع لسقطات الرجل وإن لم توجد سقطات اختلقها لك اختلاقًا، ولا يقف عند ما هو منصوص بل يستنطق مالم يدل عليه النص، ويخرجه عن مداه وحده ومدلوله ليقول لك في النهاية: هذا هو تاريخ النفيسي، وزد على ذلك الجزم في بواطن النيات: النفيسي يقصد كذا والنفيسي فعل كذا لأجل كذا.

فرأيت أن هذا الكتاب حتى وإن أتى بنقدٍ موضوعي في بعض الجزئيات، إلا أن ما يعكر عليه عمومًا هو النفسية الناقمة التي تجعل من القارئ متعاطفًا مع الشخص المنقود أكثر من أن يتقبل هذا النقد وإن كان صحيحًا، ومن تصفح خانة المراجعات على Goodreads ورأى تعليقات القرّاء خلصَ إلى نفس النتيجة.

وأما العبارة الأخرى: «إن لم تكتب تاريخك كتبه غيرك» وأحيانًا تلك الكتابة قد تكون المصدر الوحيد المتوفر عنك، ومع شح المصادر قد يضطر الباحث اضطرارًا أن يعتمد عليها في تقريب الصورة. وهذا الخطأ غالبًا ما يقع فيه المؤثرين وأصحاب التجارب، فالبعض يقع في ورع بارد وسخيف، ليقول لك: «من أنا حتى أكتب مذكراتي؟!» مظهرًا شيئًا من ورعة وتواضعه في غير موضعه. فالمتردية والنطيحة قد كتبوا مذكراتهم وحتى من لا تأثير له ومن لا قيمة له، فلماذا يسترخص الشخص نفسه ويجعلها في مقام أقل من مقام هؤلاء؟ ثم إن لم تكتبها لهذا السبب، أكتبها بدافع حب الخير للآخرين على الأقل؛ فالشخص الذي مر بتجارب وسقطات وأخطاء من الجيد أن ينبه الناس عليها، فاكتب هذه المذكرات وما فيها محاولًا استنقاذ كل من يمكن استنقاذه! وأن تقي من كان بإمكانه أن يقع في نفس المطب الذي وقعت به.

الآن، بعدما كتب النفيسي مذكراته، بالله عليك من يريد أن يقتني كتاب علي العميم؟ فالماء يغني عن التيمم، فكتاب النفيسي هو بالضرورة إزاحة للكتاب الآخر. حسنًا، هل أصاب علي العميم في «بعض» انتقاداته للنفيسي؟ الجواب: نعم.

كنا نقول وما زلنا نقول، أن علوم الآلة (العقيدة والفقه والحديث...إلخ) مقدمة على الفكر الإسلامي، لأنها تحدد المسار وتضبطه، فحينئذ الشخص يضبط الفكر بناءً على النص ومخرجاته، ولكن إذا لم يكن يعرف النصوص كيف يمكن أن يضبط الفكر؟ ولا يلزم أن يتخصص الشخص في كل علوم الآلة وإنما يكفي لأن يأخذ الأساسيات.

النفيسي لم تتهيأ له الفرصة لأن يؤسس نفسه شرعيًا، ودخل المعتركَ الإسلامي من البوابة الحزبية والعمل الطلابي ابتداءً. وهذا له أثره في اضطراب النفيسي، وهذا الاضطراب أوضحه العميم في عرضه لكتابين صدرا بنفس العام (عندما يحكم الإسلام) و(مجلس التعاون الخليجي: الإطار السياسي والإستراتيجي) ببيان أوجه التعارض وعدم إلتزام النفيسي بكلامه الأوّل.

وأظن أن ما يمكن أن يُضاف هو تغيّر آليات التغيير المحبذة لدى النفيسي عبر امتداد الوقت، وهذا لا يجزم به ولكن يلتمس من مدحه للتنظيمات فأولًا مارس السياسة عبر البرلمان ثم آمن أنها طريق غير سوي لتطبيق الإسلام وأن من يظن ذلك هو واهم، ثم نصحه لحماس عدم دخول السياسة والاستمرار بالقتال والجهاد عام ٢٠٠٥، ثم في وقت لاحق قال الحل هي القاعدة وليست حماس عام ٢٠٠٩، ثم في نهاية المطاف خَلُصَ أن النموذج الأقرب هو نموذج حزب العدالة والتنمية في تركيا عام ٢٠١٧.

التغير في اتخاذ آليات التغيير قد لا يتم عن إيمان جازم بها أو قناعة تامة، وهذا سبب التغير من عمل سياسي ثم ثوري أو جهادي ثم سياسي بوجهٍ آخر. ولكن نحن نتكلم عن كتاب (من أيام العمر الماضي) ربما يكون من آواخر كتبه والتي تمثل خلاصة فكره، وذكر فيه أن التغيير يجب أن يكون من

الأسفل وأن إيمان الناس بأفكار معينة هو ما يفرض على من هم في الأعلى تطبيق توجهات من هم بالأسفل. وهذا قول مثالي لا واقعي، والسبب أن لا توجد دولة سوف تتركك تبث أفكارك ومبادئك في الناس حتى تكون لك قاعدة جماهرية كبيرة تضغط عليها وتؤثر عليها وتجعلها تطبق الإسلام وتحكم الشريعة وتبث العدل وتقضي على المحسوبية والفساد، فالحكومات مستعدة أن تبذل الغالي والنفيس من أجل أن تعزلك عن الجمهور وأن تجعل أثرك محدودًا أو أن تشوه صورتك وتغتالك إعلاميًا إن أبيت الانصياع أو تُنهيك بالاعتقال، فالخلاصة أن الدولة لها أدوات وأساليب تُلغي أي محاولة تأثير وضغط وتركيع لها. وجميع الحركات الإسلامية التي حاولت التغير من الأسفل لا بُدَّ أن تسأل نفسها ماذا كانت النتيجة بعد مرور عقود من هذا التصور؟! لم يزداد الناس إلا بُعدًا، فأنت تبني والدولة بسياستها تهدم فكأنك كالذي يحرث في الماء.

وكتاب علي العميم عن النفيسي نشر عام ٢٠١٢، وهو مستل من كتابه الضخم الآخر (شيء من النقد شيء من التاريخ: آراء في الحداثة والصحوة وفي الليبرالية واليسار)، وجزئية النفيسي هذه كتبها عبر حلقات في مجلة (المجلة) من أكتوبر/ ٢٠٠٤ عبر ثلاث حلقات، أي أنها بعد ظهور عبد الله النفيسي المتكرر على قناة الجزيرة في فترة الأحداث في السعودية سنة ٢٠٠٣-٢٠٠٤ وانتقاده المتكرر للسعودية. ربما هذا الكتاب هو ردة فعل على هذه اللقاءات؛ فالكتاب لم يصدر حديثًا وهذا واضح من المقدمة من أجل ذلك تراه لم يضمن العديد من المواقف والتصريحات التي قالها النفيسي بعد ٢٠٠٤ والتي قد تصب في خانة انتقادات المؤلف.

حسنًا، علي العميم كما يظهر أنه شخص مُطّلع، وناقد، ولكنه متكلف، ولا يكتفي بالظاهر أحيانًا للحكم بل ينبش عن الباطن ولا يكتفي بالظن بل يجزم أن مقصده هكذا، ولكن كتابه سلط الضوء على أمور ربما النفيسي لم يفصّل فيها في مذكراته لاحقًا وهي العلاقة مع جماعة جهيمان. وهذه الجزئية

علىٰ وجه الخصوص شطحَ فيها بعيدًا عن النفيسي؛ إذ هي زاوية نقد مشترك ما بين النفيسي واليسار المتمثل بدار الطليعة ومن يدعمها، فاستطرد هنا بنقد اليسار والازدواجية في أحكامه وأفعاله.

هذا والله أعلم.

١ ديسمبر ٢٠١٩م – ٤ ربيع الآخر ١٤٤١هـ

من أيام العمر الماضي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: من أيام العمر الماضي.**
- **اسم المؤلف: عبد الله النفيسي.**
- **عدد الصفحات: ١٨٤.**
- **دار النشر: مكتبة آفاق.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من كتاب الدكتور عبد الله النفيسي (من أيام العمر الماضي) طبعة مكتبة آفاق الكويتية التي طبعت الكثير من كتب النفيسي، وهي للأسف مكتبة سيئة الإخراج، لا تُكلِّف نفسها بتدقيق النص بل تطبعه بأخطائهِ كما أرسله المؤلف.

وهذا الجزء الأول من مذكراته وانتهت تقريبًا مع حل مجلس الأُمّة وبداية الغزو العراقي، فلم يذكر النفيسي مشاهدته في الغزو العراقي بقدر ما أجاب على سؤال وهو عنوان الفصل الأخير (الغزو العراقي للكويت: هل كان مفاجأة؟) والذي برهن فيه أن الغزو لم يكن مفاجئًا بل كان هناك شواهد حسية حقيقية لاستعداد العراق لغزو الكويت وقد تجاهلتها الحكومة الكويتية وأدت في النهاية إلى هذه الكارثة.

هذه المذكرات لم يبدأ فيها النفيسي منذ النشأة والجذور العائلية وتاريخ العائلة، بل أول ما بدأ بهِ هو رحلته في مدرسة ڤكتوريا الإنجليزية في مصر منذ ١٩٥١ إلى ١٩٦١ (أنهى المراحل التعليمية الثلاث فيها)، يقول النفيسي أن مستوى التعليم في هذه المدرسة ليس بتلك الجودة ولم يكن هو الهدف الرئيس من هذه المدرسة، وإنما الهدف من تأسيس هكذا مدارس هو إنشاء جيل موالي للثقافة الغربية

ولكن بأسماء عربية، فكانت هذه المدرسة حريصة على أن يكون التعلّم كله بالإنجليزي وأن تُدرّس الثقافة الغربية في الأدب والفن وتُعاقِب بصرامة من ضُبِطَ وهو يتكلم بالعربية مع زميله وتلزم الطالب أن يكتب I must not speak Arabic (يجب ألا أتكلم العربية) مئة أو مئتي مرة مما يجعل يد الطالب تخدر من كثرة التكرار عقابًا له فيحرّم الكلام بالعربية، وهذا ما جعل النفيسي ينشئ نشأة جاهلة جهلًا مركبًا في الدين واللغة العربية، فسنوات التأسيس الأولى قضاها في جو بعيد عن الدين وعن الثقافة، وهذا ما جعله يجاوز العاشرة وهو لا يعرف الوضوء ولا يحفظ شيئًا من القرآن ولا يعرف أساسيات اللغة العربية مما أبعد عنه فرصة الدخول إلى الأزهر أو كلية الشريعة في دمشق في وقت لاحق.

ويستفيد الشخص من هذه التجارب، أن قذف الطالب في مدارس خاصة ذات توجه غربي محض، دون حتى رعاية ولا مراقبة ولا توجيه، غالبًا لن يخرج الشخص إلا غربي أكثر من الغربيين أنفسهم، جاهلًا بثقافته محتقرًا لها، لا يعرف أساسيات دينه ولا لغته ولا يربطه بهذه الأمة رابط طالما فقد الشخص أدوات التواصل معها.

والخط العريض لهذه المذكرات هي السيرة التعليمية والسياسية على وجهٍ خاص، لذلك لا تجد ذكرًا للأسرة وأفرادها ولا قصة الزواج ولا طريقة تنشئة الابناء (كما هو الحال في رحلة الدكتور عبد الوهاب المسيري)، فكانت خط المذكرات للنفيسي يبدأ من الدراسة في مصر ثم إنجلترا (مانشستر) ثم قفل راجعًا إلى الكويت وثم الدراسة في لبنان ثم الدكتوراة في إنجلترا ثم التدريس في الكويت وفي أحد المعاهد البريطانية ثم جامعة العين الإماراتية ثم الدخول في البرلمان ثم الغزو العراقي.

أسلوب النفيسي في الطرح أسلوب «شعبوي»، فهو يتكلم في مسائل معقدة باللهجة العامية، لذا تجد له جمهورًا عريضًا، لأنه يتكلم في أمور معقدة بأسلوب يفهمه الكثير، وبالأخص الأفراد غير المتخصصين في هذا المجال وهم جمهور الناس (وحبذا لو تراجع كلام أحمد سمير في كتابه (معركة

الأحرار) عن نجاعة هذا الأسلوب). وهذا الأسلوب الشعوبي لا يخلو من طرافة، ولا يخلو من الكلام بالعامية وعدم الالتزام بالنص الفصيح وهذا ما يجعل غير الكويتي أو الخليجي لا يفهم ما المقصود من بعض الحوارت مثل ما هو موجود في ملحق الصور: عَجِبَ النفيسي من نشاط أحد كبار السن العمانيين، فسأله عن سر ذلك فقال له: «**وخر عن الأجل الدسم والنسا**» فرد عليه النفيسي: «**هذه چايدة**» فالرجل الكبير يقول له ابتعد عن الأكل الدسم والنساء فالنفيسي يقول هذه صعبة وعلى هذا قس.

ويظهر لي أن هذه المذكرات هي من كتابة النفيسي شخصيًا، أي أنها ليست نتائج سلسلة لقاءات صوتية ثم تفريغها على شكل كتاب. وعادةً من سلك هذا المسلك فإن لياقته تضعف مع طول الأحداث وتفاصيلها. فتجد في بداية الكتاب تفاصيل كثيرة وفي نهايته اختصار وقفز على المراحل. تستطيع أن تقارن مثلًا مواضيع الطرح في هذا الكتاب وسلسلة لقاءات في (الصندوق الأسود) تجد أن النفيسي في اللقاءات المرئية أكثر انبساطًا وتفصيلًا من الكتاب.

حسنًا، في فترة مانسشتر، تخصص النفيسي في دراسة الطب وأبلى بلاءً حسنًا، ولكن أقدار الله شاءت أن يترك هذا كليًا بقصة حصلت له، وهو مروره على محل لبيع الكتب المستعملة ووجد فيها كتابًا مستعملًا اسمه (لماذا لستُ مسيحيًا) للفليسوف برتراند راسل، فكان يُنظّر لفكرة الإلحاد من هذا الكتاب في نقد الأديان والمسيحية على وجه الخصوص، وأدى هذا إلى زرع بذرة الشك لدى النفيسي، الذي لم يجد بُدًا من الرجوع إلى الكويت وترك الدراسة وخسران البعثة من أجل القراءة عن الإسلام.

ومن هنا يعرف الشخص أهمية برامج «صناعة المحاور» التي تقي الشخص مثل هذه المزالق وتختصر عليه الطريق والوقت والجهد.

وفي فترة بيروت عندما التحق النفيسي ببعثة لدراسة العلوم السياسية في الجامعة الأمريكية، كانت تلك الحقبة تموج بالحراك السياسي والطلابي، ويذكر النفيسي هنا مفارقة بين بيروت ومانسشتر فيقول: «**وفجأة ارتفع صوت الأذان من مسجد قريب في بيروت .. فاغرورقت عيني من الفرح، وتذكرت مانشستر حيث لا يسمع هذا الصوت**». تكرار الأذان وحضوره الدائم قد يجعلك لا تعرف قيمته إلا اذا سكنت في مكان تبقى فيه بالشهور والسنوات لا تسمعه؛ الأذان نعمة لا يُقدّر البعض قيمتها إلا بفقدانها.

وفي تلك الحقبة احتكّ النفيسي مع جهابذة القومية العربية واليسار في هيئة التدريس بالجامعة الأمريكية في بيروت، من بينهم مؤرخ الحزب الشيوعي للعراق حنا بطاطو وفايز الصائغ وصادق جلال العظم وغيرهم وكل هؤلاء وقع معهم بقصة، ولعل أبرزها في نظري مع فايز الصائغ الذي كلفه بجمع قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بإسرائيل منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٥، هذه التجربة أفادت النفيسي كثيرًا فتراه يقول: «**كانت مهمة مفيدة لي شخصيًا لأنها أطلعتني على سُخف مقولة «الشرعية الدولية» و«القانون الدولي» و«المنظمة الدولية» وتفاهة القرارات الصادرة عنها، وأقنعتني هذه المهمة بأن سياسات القوة هي السائدة في العالم وأن اللهاث وراء سراب ميثاق الأمم المتحدة أو غيره من المواثيق ما هو إلا إطالة عمر الظلم الفادح الذي تتحمله الشعوب المستضعفة**».

البعض لا يريد أن يتعلم من تجارب من سبقوهُ للوصول إلى هذه النتيجة، لا بُدَّ أن يمر بمرحلة تعليق الأمل بهم ثم يكتشف مع الوقت أنهم متواطئين أو في أحسن سراب رأس ماله الإنكار والشجب الذي لا يغير من المعادلة شيء على الأرض.

حقًا كما قال أحدهم: «منطق السياسة في أيامنا لا يحترم إلا أصحاب الأقدام الثقيلة». (وحبذا لو ترجع إلى كتاب (تحت وابل النيران في سراييفو) للصحفي أحمد منصور، ورؤية موقف الساسة البوسنيين من دور الأمم المتحدة في الأزمة البوسنية)، في سورية احتاج البعض إلى سنوات ودماء

وفاتورة كبيرة حتى يعلم أن ما يسمى بـ«أصدقاء سورية» لا قيمة لهم ولا تأثير ولا نفع، وأن منظمة الأمم المتحدة لم تستطع أن تنقذ الناس من الحصار ولا أن تمنع القصف ولم تستطع أن تفرض حصارًا حقيقيًا على النظام حتى يسقط، فهي ليس لها إلا التنديد والوعود، وفي أي تجربة قادمة في المستقبل من يعلّق الأمل على هؤلاء فهو كمن اتكل ولم يتوكل. إن تحرير فلسطين لن يتم إلا بعد التوصيف الحقيقي للدول الغربية وهي أنهم في خندق العدو وليسوا وسطاء، فهؤلاء لم ولن يؤيدوك في تحرير فلسطين، بل أقصى أمانيهم هو التنديد ببعض ممارسات إسرائيل، ومن ظن غير ذلك فهو واهم.

وتكلم أيضًا النفيسي أنه بعدما أصدر كتابه (الكويت: الرأي الآخر) وسُحب منه جوازه ومُنِعَ من العمل وبعد أحداث مطولة استطاع الذهاب إلى الإمارات، ومن خلال سرد النفيسي تستطيع أن تعمل مقارنة بين الحريات السياسية الموجودة في الإمارات آنذاك وحالها الآن. فقد أصبح أستاذًا جامعيًا في مدينة العين الإماراتية، وقد طلبت منه وزارة الخارجية للإمارات أن يشارك في ندوة عن منظمة مجلس التعاون الخليجي التي تأسست للتو، فرفض أن يشارك لأن رأيه نوعًا ما شديد حول هذه القضية وقد أخبر الخارجية الإماراتية بذلك فرد عليه المندوب: «**الخارجية الإماراتية لا تُمانع أن تصدع برأيك ولو كان مخالفًا للرواية الرسمية**». وتكلم في هذه الندوة - وَجَلَدَ هذه المنظمة جَلْدًا - واعتبر أنها ليست إلا نزول للرغبة الغربية في تأسيسها، ويكمل النفيسي قائلًا: «**من الغد وفي الصباح الباكر اتصل بي السيد أحمد السويدي المستشار المقرب للشيخ زايد وطلب مني تأجيل عودتي للعين إذ أنه يرغب في دعوتي إلى الغداء في منزله لتبليغي رسالة من الشيخ زايد، .... فقال لي: "الشيخ زايد يسلم عليك ومسرور جدًا من المحاضرة ويقول زين سوّيت فيهم وأنت في ديرتك وبين أهلك"**». بل قال له وزير الخارجية الإماراتي آنذاك الدكتور سيف غباش (انتبه لهذا الاسم جيدًا): «**يا أخي تعال عندنا واترك الكويت فنحن أحوج لأمثالك**».

الغريب أن في الندوة تكلم النفيسي عن مشكلة الندرة السكانية في دول الخليج (الإمارات على وجه التحديد) واستيراد عمالة وافدة أجنبية بكثرة مما رجح الكفّة لصالح الوافدين الأجانب مما جعلهم يكونون أغلبية كبيرة (large majority) فسأله د.سيف غباش ما الحل لمعالجة هذه المشكلة؟ فقال النفيسي: «**الحل في اليمن، فاليمن فيه كثافة بشرية وفي الوقت نفسه اليمن قريب جغرافيًا. لماذا لا تعمل الإمارات على استيراد العمالة اليمنية وهي عَمالة أثبتت نجاحها في ميتشيجان، ديترويت في الولات المتحدة، وفي شيفيلد في إنجلترا، وثقافة اليمني وعاداته وأخلاقه ودينه ولغته قريبة جدًا من المجتمع الخليجي، والبديل اليمني قطعًا أفضل من الكم الهائل من الفلبينيين والهنود والكوريين وغيرهم... إلخ**» ماذا كان الرد على المُقترح؟ يكمل النفيسي: «**انشرح الدكتور سيف للفكرة وتحمس لها، ووعد بتفعيلها وطرحها على الشيخ زايد، وأظن أنه فعل، وأن الشيخ زايد وافق على هذا الحل كما علمت لاحقًا**».

فأظن أن توطين الجالية اليمانية - الذي حصل في وقتٍ لاحق في الإمارات - كان على ضوء اقتراح النفيسي هذا.

وأيضًا كما يظهر من خلال الكتاب، أن من ينهمك في السياسة قد يزهد بشكلٍ أو بآخر في الأدب، أنا أرى ذلك ماثلًا في نفسي، كلما أكثرت القراءة في الفكر أو السياسة ابتعدتُ تدريجيًا عن الأدب الروائي، وقد رأيت أن هذا الزهد في ظل الحرارة السياسية قد يكون حاضرًا لدى غيري كذلك، مثل كلام النفيسي هذا: «**تداولت مع د.سيف عدة مواضيع من ضمنها إعادة النظر كليًا في هيكل جامعة العين وتخصصاتها وكلياتها، فلسنا في الخليج - كل الخليج - بحاجة لدراسة شعر الغزل في العصر العباسي حتى نستورد المختصين بالغزل أو حتى الأدب والفن. هذه ميادين لا تهتم بها المجتمعات والدول إلا إذا استكملت أبنيتها التحتية والفوقية**». الأولوية غالبًا ما تطرد الأدب وتجعله على ضفاف الاهتمامات.

ويُلاحظ تغير أحكام النفيسي على الرموز والشخصيات مع تقدّم الزمن، ففي كتابه القديم (عندما يحكم الإسلام) تراه ينقل الإجماع على كفر الحكام وأنهم نصبوا بدعم القوى الكافرة المتربصة بالإسلام، وفي نفس الكتاب تراه يقول عن جهيمان العتيبي: «**جهيمان بن محمد بن سيف العتيبي ولإخوانه الأطهار الأبرار رحمهم الله وغفر لهم**».

ولكن في كتاب (من أيام العمر الماضي) ترى الآية انقلبت، فهو يترحم على الحكام الذين كفروا (كالسادات وغيره) ويقول عن جيهمان: «**له عند الله ما يستحق**» وزد على ذلك حذف الكلام عن جهيمان في طبعة الكتابة الثالثة سنة ٢٠١١ فيما يبدو لي.

وهنا لا بُدَّ أن نفصِل الشخصية عن مراحلها المتقدمة، فالنتاج الكلي هو ما استقرت عليه في ختام الأمر، وهو ينسخ ما سبق إن كان مخالفًا له. فالتغيّر قد لا يكون عيبًا بحد ذاته، وإنما العيب قد يكون في كثرته.

وتكلم النفيسي أيضًا عن دخوله الانتخابات لمجلس الأُمّة (البرلمان الكويتي) وفوزه ودخوله برلمان عام ١٩٨٥ الذي تم حله، وكان الحل بسبب ضغوطات خارجية على الكويت واشتداد المعركة ما بين إيران والعراق، فلم تكن الكويت –حسب وصف النفيسي – ناقصة مشاكل داخلية، فكان الحل غير الدستوري محاولة منها لسد جهة ضغط داخلية للتفرغ لبقية الجبهات، والنفيسي في هذا الوقت تكلّم عن نقد ذاتي وقال أنه لم يكن هناك داعٍ للضغط على الحكومة أكثر، وأن هذا الضغط حصل بسبب عدم وجود قنوات تواصل ومكاشفة حقيقية بين الحكومة والبرلمان، وأما التراجع الثاني قوله عن مرحلة البرلمان: «**قراران في حياتي ندمت عليهما أيما ندم. الأول تركي دراسة الطب في مانشستر سنة ١٩٦٢ والثاني: دخولي إلى مجلس الأمة سنة ١٩٨٥**».

ثم طفق ينتقد أسلوب الحركات الإسلامية وأدائها السياسي، وهذا قد تطرق إليه في التفصيل في كتابه (الحركة الإسلامية ثغرات في الطريق) وكذا في برنامج (المقابلة) مع قناة الجزيرة سنة ٢٠١٧.

اللفتة الأبرز هو كلامه عن دواوين الاثنين، والديوان هي مجالس شعبية يجتمع فيها الناس للحوار والنقاش وهي أشبه بالملتقى العام في بعض الدول الخليجية. أصبحت هذه الدواوين في الكويت بعد حل البرلمان سنة ١٩٨٥ هي الملتقى لتوجيه رسائل السخط على قرار الحكومة وأصبحت مكان لمعارضة قرار الحكومة. فعقدت الندوات واللقاءات ضد هذا الحل.

اللافت للانتباه هي الحادثة التي حسب وصف النفيسي جعلته يغسل يده من الجماهير، يقول: «**فبدأت الحديث بالقول إن الأمير لا يحق له حل المجلس بالطريقة التي تمت؛ لأن ذلك الحل هو حل غير دستوري ولأنه لم يحدد موعدًا للانتخابات – ستين يومًا – كما ينص الدستور، وهذا أمرٌ مرفوض ولا ينبغي أن نقبل به**». ماذا حدث بعد أن قال النفيسي كلامه هذا؟ يقول: «**فجأة ظهر صوت في الخلف عند مدخل الديوان قائلًا: "أنا النقيب هزاع الصلال من أمن الدولة أطلب منك دكتور عبد الله أن تكف الكلام." فقلت له: "أنا ضيف عند جاسم القطامي وهذا ديوانه ولست ضيفًا عندك، وإذا طلب جاسم القطامي مني أن أكف عن الكلام فلا أمانع." فقال مندوب أمن الدولة لجاسم القطامي: "اطلب من الدكتور عبد الله أن يكف عن الكلام." فقال لي جاسم القطامي: "أكمل أبا مهند." فأكملت الحديث مواصلًا، فما كان من الصلال ومعه شرطيان إلا أن اخترقا الصفوف متوجهان إلينا وعندما وصل إلينا طلب منّا مرافقته. الغريب في الأمر أن الجمهور كان متعاونًا مع الشرطة ومندوب أمن الدولة بطريقة وكأنها «تواطؤ»؛ لأنهم كانوا يفسحون الطريق لهم، ولم أسمع كلمة احتجاج – مجرد كلمة! – من هذا الجمهور الكثيف الذي قدّره جاسم القطامي فيما بعد بمفخر شويخ الصناعي بـ٧٠٠ مواطن كويتي... لا أخفي القارئ أن موقف الجمهور في ديوان القطامي وهو موقف سلبي للغاية اتجاه القضية واتجاه صاحب الديوانية الذي استضافهم لنصف قرن ولم يعترضوا حتى لفظًا على اعتقاله دفعني للتفكير العميق في طبيعة الكويتيين وخلصت إلى قناعة: ليسعك بيتك!**».

هذا الموقف يصلح مقياسًا لشعوب الخليج كافة، فالشعب الكويتي هو الأوعى سياسيًا والذي مارس السياسة عبر أحزاب وتكتلات وكانت هناك هوامش من الحرية غير موجودة في بقية الدول الخليجية. مما جعله الشعب الأوعى سياسيًا، ومع ذلك خذلت الجموع النخبة في قضية هم يتفقون معها في مشروعيتها.

فالشعوب الخليجية من هذا النص ومن خلال مشاهدة عينية تتفق معك في المبدأ ولكنها لا تمشي معك إلى نهاية الطريق. لياقتها ضعيفة، وهذا ما جعل جملة من النخب تشعر بالخذلان مما جعلهم ينكفئون على ذواتهم، ولا يطالبون بحقوق شعوب هم أول من يتخلى عنهم عند أول امتحان.

فشخّص كل التجارب السياسية في الدول الخليجية التي تحصل حدة الخصام بين الحكومة والمعارضة إلى ذروتها وفتش عن الجمهور تجد النتيجة ماثلة أمام عينيك وهي أنهم انتقلوا من مرحلة التأييد إلى مرحلة التفرج، ربما الطائفة الوحيدة التي تُحامي عن نخبها هم الشيعة، وهذا مشاهد.

حسنًا، الآن نرجع إلى اسم ذكره النفيسي وهو الدكتور سيف غباش وزير الخارجية الإماراتي. النفيسي يتكلم عن مرحلة تأسيس مجلس التعاون الذي أُنشئ عام ١٩٨١ بينما الدكتور سيف غباش اغتيل في سنة ١٩٧٧، فلا يعقل أن يشارك النفيسي في ندوة عن مجلس التعاون في سنة ١٩٨٣ ويلتقيه فيها الدكتور سيف بينما الدكتور سيف من المفترض أنه ميت قبلها بست سنوات.

أيضًا لو رجعت إلى سلسلة (الصندوق الأسود) تجد شيئًا من هذا القبيل، فمثلًا تكلم عن لقائه مع الملا عمر في أفغانستان في أواخر السبعينات ولكن الأرجح أنها حصلت في التعسنيات، بدليل أنه في ندوة في سنة ٢٠٠٩ بعنوان (العرب قبل وبعد الحرب على غزة) ذكر تفاصيل مشابهة لهذا اللقاء، ولكن في الندوة تكملة وهي قوله: «**أنا قابلت الملا عمر شخصيًا وشرفت بذلك، وهو رجل ليس من هذا العصر، كان لا يستقبل الوفود الغربية يقول لهم اذهبوا إلى كابل قابلوا وزير الخارجية بينما أنا جالس هنا في قندهار**»، فدلت هذه التكملة أن الملا عمر كان آنذاك أمير دولة ولديه وزير خارجية،

وهذا لم يتحصّل له إلا في مرحلة التسعينيات لا في أواخر السبعينيات التي كان فيها مجرد قائد عسكري عادي غير بارز وهذا تجده في كتاب (حياتي مع الطالبان) للملا عبد السلام ضعيف سفير الطالبان في باكستان وهو كتاب متوفر بالعربية بالمناسبة.

هذه النماذج تدل على أن الدكتور عبد الله مع تقدم العمر وكثرة الأحداث قد يخلط بين التواريخ والشخصيات أحيانًا. وهذا أمر لا يُسقط الشخص بالكلية؛ لأنه يحصل مع فطاحلة الحفّاظ قد يقع لهم مثل هذا، فيحصل لديهم شيء من الاختلاط والوهم في الرواية، والمحدثين في تشخيصهم يقولون أن هذا مترادف مع الكبر والتقدم في العمر في بعض الأحيان. (وارجع إن شئت إلى فصل: تحديث المعلومات عن الرواة برصد الإشكالات الطارئة من كتاب (تثبيت حجية السنة) لأحمد السيد).

وأنا شخصيًا قد جالست بعض كبار السن وسجلت لهم وهم يَروون شهاداتهم لبعض الأحداث والشخصيات التي مضت منذ وقتٍ بعيد، وقد رأيت أنهم يتذكرون الحدث ولكن يقع الوهم في تسمية المكان أو الشخص أو السنة، فمن خلال قراءات سابقة مؤرخة لا تلغي هذه الشهادة بل تعمل مقاربة لها من خلال ما هو مؤرشف في الوثائق والكتب التاريخية المعتمدة، فمن خلال أسلوب المقاربة بين الروايات تُثري الرواية التاريخية بدلًا من إلغائها جملة واحدة بحجة أن صاحبها يخلط أو يَهم في الأسماء أو السنوات.

وهذا يختلف جذريًا - بلا شك - عن من يكذب متعمدًا أو يُدلّس متعمدًا، فمثل هذا لا تؤخذ روايته ولا تقبل شهادته إلا إذا وافقت رواية غيره مثلما صنع سيد قطب في محاكمته لما استدل عليه بأقوال أحد القياديين معه في التنظيم وهو علي عشماوي؛ فقال: «**لا تُقبل روايته إلا إذا وافقت رواية بقية القادة**» كما ذكر ذلك سامي جوهر في كتابه (الموتى يتكلمون).

النقطة الأخيرة من خلال الرحلة في سيرة الدكتور عبد الله النفيسي، هل غطى برنامج (الصندوق الأسود) أغلب ما في كتاب (من أيام العمر الماضي)؟ الجواب: نعم بل زاد عليه الكثير من التفاصيل المهمة، فأسلوب السرد أكثر نجاعة وفاعلية في التوثيق من أسلوب الكتابة، لأن توجيه السؤال يقدح بالذاكرة في الرأس فيسترسل المجيب في الإجابة ويُطنب. وهذا أسلوب متّبع في الغرب في كتابة المذكرات، يقول الشيخ عمر بن محمود في نص طويل: «**كثير من الإخوة ممن يملكون معاناة أو تجربة مهمّة ولكن تمنعهم قدراتهم من الكتابة؛ فالطريقة المعاصرة هي طريقة جيّدة من أجل تجاوز هذا العجز، وتخليد هذه الذكريات لتاريخ وللأجيال، وهي كالتالي: يحضر صاحب القضيّة التي يُراد كتابة مذكّراته أو ذكرياته أو الأحداث التي يريد أن يتكلّم بها، فيحضر عند جلوسه مَن عندهم قدرة على كتابة الأسئلة، ويجلسون معه ويسألونه؛ مثلًا تبدأ بالتعريف بالشخصية: من أنت وما هي عائلتك وأين وُلدت، وهو يجيب ويتكلّم. هو لا يعرف الكتابة، هو يتكلّم كما نتكلّم نحن، وكأنه في جلسة انبساط، جلسة حديث عادية، فيتكلّم ويُسجّل له وهم يسمعون. ثم هذه الأجوبة تنتج أسئلة؛ أنت سُجنت في أي يوم؟ من سجنك؟ هم يعرفون هذه، هو ليس في ذهنه قدرة على صياغة قصة. قد لا يكون قصّاصًا جيّدًا، وبعضهم عنده القدرة على القصّ يعني أن يتكلّم، فتُسجل له الساعات؛ مائة ساعة، مائتي ساعة، وبعد ذلك يأخذون هذه الأشرطة ويفرغونها على الورق. ويبدأ بعد ذلك الترتيب؛ هذه توضع هنا، هذه تُزال، هذه تُرتّب، هذه نقطة غير بيّنة ارجع اسأله السؤال، فيحضّرون هذا السؤال مرة أخرى، وبعد ذلك يكوّنون هذا الكتاب.**

فالكتاب يخرج باسمه أنه ذكريات فلان. وهو لم يكتب، وإنما كتبه هؤلاء الصحفيون. عادةً هناك أناس في الغرب مختصون لهذا، وما أحد هناك من المشاهير سواء سياسي أو لاعب كرة قدم أو ممثّل إلا ويكتب مذكّراته بهذه الطريقة. لا يوجد عندهم أحد يأتي بمثل ما عندنا ويضع الكمبيوتر ويكتب مذكّراته ثم ينشرها، هذا لا وجود له، هذا انتهى عندهم».

وكذا المذكرات فهي مهمة من حيث قراءتها ومهمة من حيث كتابتها لأهل التجربة، يقول عمر عبد الحكيم في شرحه لكتاب حرب المستضعفين: «**فأنا أشجع الإخوة الذين يلمسون في أنفسهم هذه المبادرة، أن يبادروا للكتابة لأننا محتاجون إلى قوّاد يكتبون ويقرؤون، من أحب الكتب إلي مذكرات الزعماء، مذكرات تشرشل، مذكرات ديجول، مذكرات الإسلاميين، مذكرات العَلمانيين، مذكرات الملوك: مذكرات الملك حسين، مذكرات الملك الحسن، لأنها عصارة التاريخ، وعصارة التجارب**».

ثم هناك نقاط وجدت في الكتاب لم يتطرق إليها في برنامج (الصندوق الأسود)، ولكن بعضها هامشيٌ جدًا ولا يؤثر، باستثناء نقطة مهمة جدًا وأعتبرها سقط وهي لقاء النفيسي في لبنان لما كان طالبًا مع المصري الغامض الذي كان يبيع الكرفتات (ربطات العنق)، والذي استضافه لاحقًا في منزله المتواضع جدًا، ثم اتضح أن هذا الشخص ليس سوىٰ قائد السرب في سلاح الجو المصري سابقًا اللواء عبد المنعم عبد الرؤوف الذي كان له الدور الرئيس في انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان عضوًا في مجلس قيادة الثورة وهو الذي قام بقيادة الفرقة التي حاصرت قصر رأس التين في الإسكندرية ونجحت في إرغام الملك السابق فاروق علىٰ التنازل عن العرش. ولما بدأ هذا الأخير يسرد ذكرياته يقول النفيسي: «**في حضرته كانت سياستي "دعه يتكلم" فهذا رجل مخزون بالخبرة والقوة والفروسية. ولو تركني على حريتي لأحضرت معي آله تسجيل لأستعيد ما كان يقوله عن انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وعن زملائه في مجلس قيادة الثورة... إلخ**».

ربما لم يتطرق إلىٰ هذه النقطة رغم أهميتها أن عبد المنعم عبد الرؤوف قد كتب مذكراته في وقت لاحق بعنوان (أرغمت فاروق علىٰ التنازل عن العرش) وقد نشرتها دار الزهراء للإعلام العربي. ولكن أحيانًا يكون في الحوار ما هو غير موجود في الكتاب ويستفاد منه في تكميل المشهد، ومع ذلك لم تُذكر هذه الحادثة في البرنامج وأعتبرها هي السقط الوحيد.

تكلم النفيسي في خاتمة الكتاب عن غزو الكويت، وأن ما بعد التحرير، كُوّنت لجنة لتقصي الحقائق حول الغزو، وخلصوا إلى وجود مؤشرات متكررة نقلها بعض السفراء وغيرهم إلى القيادة الكويتية تحذرهم جديًا من حصول الغزو وأن هذا الغزو لم يحدث فجأة، الأمر الذي عجب له النفيسي هو ما قاله « **لم يقصَ أحدٌ من المسؤولين عن منصبه ولم يحاسب ولم يحاكم بل عاد الجميع إلى ما كانوا عليه**» لو حدث هذا في بلد غير الكويت لكان ما كان بعده؛ لكن ماذا نقول غير: الله المستعان على هذا الهوان.

وهذا مفارقة، فقد تجد في الدول الغربية لو ارتكب الوزير أو المسؤول خطئًا فقد يستقيل أو يُحال إلى الاستجواب والتحقيق، ورغم أن هذا الخطأ قد يكون محدود الضرر، ولكن في الدول الخليجية أو العربية عمومًا، قد تجد أن بعض المسؤولين قد تسبب إهمالهم في عدم الاستعداد والتحصن مما جعل الاحتلال يدخل بسهولة ويسقط الحكومة في ساعات، فخطئهم تسبب في احتلال بلد كامل، وما تلا ذلك من قتل واعتقال وتعذيب وانتهاك للأعراض ومآسٍ تجدها مؤرخة في مجموعة كبيرة من كتب التأريخ التي كتبها الكويتيون ولعل من أبرزها في نظري (الكويت وأيام الاحتلال) للمؤرخ محمد عبد الهادي جمال.

فمر حدث الغزو مرور الكرام، فلا مسائلة - رغم تشكل لجنة أثبتت حصول الأخطاء - ولا استقالة ولا محاسبة بل كما قال النفيسي: «**لم يُقصَ أحدٌ من المسؤولين عن منصبه**». فهذه هي عقلية الحكومات العربية، والآن البعض يريد من وزير النقل أن يستقيل لأن قطارين تصادما أو لأنه حصل حريق في أحد القطارات، فهذه دولة بأكملها احتلت ولم يُسائل أحد، وهؤلاء يريدون أن يُقيلوا الوزير على قطار.

ثم لم تكن هنالك أصوات تحذر من دخول العراق فقط، بل كانت هنالك أصوات علنية لا تحتاج إلى رجل استخبارات بقدر ما تحتاج إلى باحث أو راصد، تقول أن أمريكا تسعى بقوة للدخول إلى

جزيرة العرب، وأن هذا ضمن خطة استراتيجية أتى صدام حسين وطبقها على طبق من ذهب، وقد جمعها الدكتور سفر الحوالي - فرج الله عنه - في كتابه الشهير (وعد كسينجر) أو يعرف أحيانًا بـ(كشف الغمة عن علماء الأمة).

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ ديسمبر ٢٠١٩م - ٤ ربيع الآخر ١٤٤١هـ

تثبيت حجية السنة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: تثبيت حجية السنة ونقض أصول المنكرين.**
- **اسم المؤلف: أحمد بن يوسف السيد.**
- **عدد الصفحات: ١٣٢.**
- **دار النشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث.**

التعليق والمناقشة:

قد فرغت من كتاب (تثبيت حجية السنة) للشيخ أحمد السيد. وقد رافقت قراءتي هذه الاستماع إلى دورة (أفي السنة شك) والتي ألقاها الشيخ أحمد السيد في السودان وهي مكملة أو موجزة أو عارضة لما في الكتاب وبذلك تتعاضد المعلومات في ذهنك قراءةً وسماعا. هذا الكتاب غالبًا سوف يجعلك لا تتأثر بالشبه المعاصرة المثارة حول السنة وحجيتها وصحة علم الحديث.

يقول السيد أن بعض العلوم فيها دقائق تفصيلية وفيها خطوط عامة. وغير المختص تكفية الخطوط العامة.

وبما أن الكثير من الذين كتبوا في الرد حول الشبهات المثارة عن السنة قد تعمقوا وفصّلوا وتكلموا عن دقائق الأمور فقد تُشكل كتبهم على غير المختصين ممن يقع في مقدمات هذه الشبه، فأظن أن كتاب أحمد السيد، يحاول من خلاله أن يعالج هذا الأمر؛ فقد كتبهُ بصيغة مبسّطة سهلة الفهم، حاول أن يُعالج الشُبه المثارة ضد السنة لا من خلال كتاب أو كتابين فقط وإنما من خلال معايشة ومحاورة مباشرة لهؤلاء المشككين والمنكرين للسنة جملةً أو بعضًا منها. وقد أبرز في الفصول الأخيرة عن جمالية علم الحديث والتي جمع خلالها ما بين الإبراز والرد على الشبه في آن واحد. فإن أغلب

الشبه تتم عن جهل أو فاهم فاسد فمن خلال العرض الصحيح يرتفع الجهل والذي هو مؤذن بزوال فساد الفهم. وسوف يطمئن القلب وهو يرىٰ مجهودات علماء الحديث في حفظهم للمرويات وعنايتهم بها وتشددهم في قبولها وتمحيصهم لها لقبول صحيحها وفصله عن سقيمها؛ دقة في التوثيق قد لا تجدها إلا في هذهِ الأُمّة.

والكتاب ينقسم إلىٰ قسمين:

١. هو إثبات ركائز السنة من القرآن والإجماع والتواتر: وأثبت من خلالها أن الوحي لا ينحصر في النص القرآني، فقد ينزل وحي ولا يكون آية واستدل علىٰ هذا من خلال القرآن نفسه، فآيات تغير القبلة تدل أن هنالك قبلة قديمة أمر المسلمون بتوجههم نحوها ولكن لا تجد هذا الأمر في القرآن؟ أين الآية التي أمرتهم بالتوجه نحو بيت المقدس؟ فليست كل الأوامر والنواهي وردت في القرآن.

٢. في نقض أصول منكري السنة: وهنا لا يناقش أعيان الشبهة فحسب وإنما ينتقد المنهجية، لأن المنهجية هي الأصل التي سوف تولد الشُبه ولو ثبتَ بطلانها لما استطاع البعض أن يلج من خلالها.

مثل ذلك الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والأحاديث الصحيحة التي هي ظنية الدلالة في إثبات تناقض السنة مع العلم الحديث.

فلو قلت أن لا يستدل إلا بحديث صحيح قبل الإعتراض أو بقراءة شروح العلماء لبعض الأحاديث قبل الاعتراض لكفيت المؤنة ولما احتجت للرد علىٰ سيل كبير من الاستدلالات الخاطئة.

وهذا والله أعلم.

٢ ديسمبر ٢٠١٩م - ٥ ربيع الآخر ١٤٤١هـ

بؤس التلفيق: نقد الأسس التي قام عليها طرح محمد شحرور

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: بؤس التلفيق: نقد الأسس التي قام عليها طرح محمد شحرور.**
- **اسم المؤلف: يوسف سمرين.**
- **عدد الصفحات: ١٥٥.**
- **دار النشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث.**

التعليق والمناقشة:

في مطلع هذا العام فرغت من جملة من الكتب دفعة واحدة كان من بينها هذا الكتاب، المتكلم عن أطروحات شحرور من خلال جرد كتبه والوقوف على أهم أفكاره؛ ونقدها بعد تركيب الفكرة من عدة مصادر.

من خلال قراءتي لهذه الكتب عرفت كيف أن البعض يكون أسيرًا للكلمة المعقدة. فالبعض إن قرأ كلامًا معقدًا ظن هذا التعقيد قرين العمق. وفي السنوات الأخيرة بدأ البعض يتنبه إلى ذلك وأن التعقيد لا يلزم منه العمق كما نص عليه إبراهيم السكران في كتابه (مآلات الخطاب المدني).

فالمؤلف يوسف سمرين مختص في الفلسفة وقضايا المعتقد في الجملة، فجلس يحلل البعد الفلسفي لشحرور ويقيسه على قواعد العلم، فخلُص إلى أن منهج شحرور هو: لبن على تمر على سمك على جرجير؛ أي أن هذا المنهج لا يطّرد بل يتضارب في كل حين.

ولشحرور كتب عن القرآن ولكن أخطاءه اللغوية الفادحة حثت أمثال يوسف الصيداوي على أن يؤلف كتابه الشهير (بيضة الديك) الذي دلل فيه على الضعف اللغوي البارز لدى شحرور، فكيف لشخص لا يضبط اللغة أن يصدّر نفسه للكلام في القرآن؟! والله لا تعلم.

في هذا الكتاب ستجد أن مشكلة شحرور مع الأصول وقواعد الدين؛ فهو لم يقل إن ثمة انحرافًا وابتعادًا عن أصول الدين ولا بُدَّ من الرجوع للأصل؛ بل قال لا بُدَّ من إعادة تركيب الأصول من جديد؛ فدل على أن المسلمين منذ أربعة عشر قرنًا كانت أصولهم خاطئة في مخالفة صريحة لحديث (**إِنَّ أُمَّتِي لَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلالَةٍ**)[١٢٢].

ثم طفق المؤلف في التدليل على مغالطات شحرور في الاستدلال وبيان لوازم القول والتناقض وغيرها من الشطحات التي تجعلك تزهد في أمثال هؤلاء، ولا تلخص حال من يصفق له إلا بأنه يجهل ما يقرأ أو أنه يجهل دينه أصلا فلا يرى في هذا الكلام المذكور أي مشكلة.

والكتاب خفيف يتألف من ١٥٥ صفحة فقط ويُنتهى منه في جلسة أو جلستين. وبذلك ترى أن المبجلين لهذا الشخص إما أنهم لم يروا بأسًا بكلامه أو أنهم مؤيدون له أو أنهم مبجلون لأنهم لم يفهموا الكلام المعقّد وظنوه ذا دلالة عميقة وقوية.

٢٢ ديسمبر ٢٠١٩م – ٢٥ ربيع الآخر ١٤٤١هـ

[١٢٢] حسنهُ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٣١).

تلك العتمة الباهرة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: تلك العتمة الباهرة.**
- **اسم المؤلف: الطاهر بن جلّون.**
- **عدد الصفحات: ٢٨٨.**
- **دار النشر: دار الساقي.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتاب (تلك العتمة الباهرة) وهي شهادة تاريخية صاغها الروائي «الفرنكفوني» الطاهر بن جلّون على لسان المعتقل السابق في سجن تزمامارت عزيز بنبين. وقد فاز هذا المؤلف بجائزة (امباك دبلن الأدبية) عام ٢٠٠٤ على هذا الكتاب.

يصنف هذا الكتاب من أدب السجون. وقد كُتِبَ بالفرنسية وهذا يُنبئك بقوة ودقة مترجمه بسام حجار الذي قد يجعلك تظن أن الكتاب أُلف بالعربية أصلًا.

وتقريبًا جميع كتب سجن تزمامارت قد كُتبت بالفرنسية، ومن ثَمَّ تُرجمت إلى العربية، ككتاب محمد الرايس (من الصخيرات إلى تزمامارت: تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم) وقد ترجمه عبد الحميد جماهيري، وكتاب (تزمامارت: الزنزانة رقم ١٠) لأحمد المرزوقي وقام المؤلف نفسه بترجمته إلى العربية في وقت لاحق ونُشر ضمن مطبوعات المركز الثقافي العربي.

وقد كُتب على غلاف الكتاب «رواية»؛ وقد جرت العادةُ هذه الأيام، بتسمية بعض الكتب الأدبية في السير الذاتية داخل السجون بـ«رواية» رغم أن الرواية فيما اصطلح البعض على تعريفها «هي

القصة القائمة على الأحداث الخيالية لا الواقعية الحقيقية». فربما استخدام مصطلح الرواية قد يكون لأسبابٍ تجارية لا واقعية.

والكتاب لا يصلح لأن يكون مدخلًا لقضية تزمامارات، بل يصلح لأن يكون مُلحقًا؛ لأن المؤلف لم يكن معنيًا بشرح أحداث انقلاب الصخيرات في ١٠ يوليو ١٩٧١م، بل تكلم عن الأحداث وكأن القارئ لديه خلفية عن هذا الحدث. وكذلك المؤلف هنا لم يكن كتابه توثيقي مَعني في المقام الأول بذكر كل شاردة وواردة مثل كتاب أحمد المرزوقي، بل كان كتابًا أدبيًا يتكلم عن أحداث تاريخية فيمزج هذا مع ذاك، فلم يذكر كل الأحداث ولا كل التفاصيل. فالتأملات الأدبية البلاغية أخذت حيزًا قد تزعج القارئ الذي يقرأ بنفس المؤرخ.

وتكمن أهمية هذا الكتاب - فيما أرى - أنه الكتاب العربي الوحيد الذي يتكلم عن أحداث العنبر «ب» الأشد بؤسًا وأما كتاب المرزوقي والرايس فهي عن أحداث العنبر «أ» فتكاد تكون الشهادة الحية الوحيدة لما حصل في هذا العنبر.

باختصار الكتاب يتحدث عن معتقل تزمامارت الذي أُنشئ على خلفية انقلاب فاشل ضد ملك المغرب في منتصف السبعينيات من قبل أفراد وضباط مدرسة أهرمومو العسكرية، الذين دخلوا على القصر الملكي والملك يحتفل بعيد ميلاده الثاني والأربعين وكان لديه ضيوف من أعيان البلاد ودبلوماسيين وكبار رجال الأعمال وبعض المشاهير، فبدأ إطلاق النار من أجل اغتيال الملك وعلى إثر ذلك قُتل الكثير من ضيوف الحفل، واستطاع الملك في نهاية المطاف أن ينجو بنفسه وأن يقلب الطاولة على الانقلابيين وأن يُفشل انقلابهم، فأدى هذا في نهاية المطاف إلى محاكمات عسكرية أدت إلى إعدام رؤوس الانقلاب وسجن الضباط والجنود، الذي كان أكثرهم لا يعلم بشأن الانقلاب وإنما أُخبر بأن هناك مناورة عسكرية، وهذا ما جعل البعض يرمي سلاحه عندما رأى المجزرة تحصل، بل ادّعى بعضهم - مثل المرزوقي - أنه أنقذ ولي العهد آنذاك والذي أصبح ملكًا فيما بعد

محمد السادس، ولكن إثر تلك الفوضى تعذر فصل المشاركين في إطلاق النار عن الذين امتنعوا عن ذلك، فأخذ الكل بجريرة البعض.

فأراد الملك أن يجعل منهم عبرة، فأنشأ لهم سجنًا صحراويًا في شرق المغرب، ثم وضعهم فيه وكانت الأوامر من الملك هي قتلهم ببطئ شديد وجعلهم يعانون أشد المعاناة، فاختفى ذكرهم عن الناس، وأصبح من المحرمات الكلام عنهم في أول الأمر، وبدأوا يتساقطون الواحد تلو الآخر، إلى أن انتهت محنتهم في مطلع التسعينيات.

امتاز هذا المعتقل بالظلمة وعدم دخول النور إليه، لذلك عنون المؤلف اسم الكتاب بـ«العتمة»، فكانوا لا يرون النور إلا بعد وفاة أحد السجناء، فيضطر الحراس لإخراجهم من العنبر للدفن، ولكن توقف الحراس فيما بعد عن إخراجهم للدفن، فانقطع النور تمامًا عنهم.

كان الطعام خبزًا يابسًا وماءً وشايًا أو قهوة التي كان يقول المؤلف عنها أنها «**قد تكون بولًا**». هذا الطعام مع امتداد الوقت أصبح أداة قتل بطيئة. فأدت هذه الظروف بالإضافة إلى نشوء الأمراض نشوءًا طبيعيًا بسبب الوضع اللاصحي بالإضافة إلى الحالة النفسية نظرًا للظروف التي وضعوا فيها إلى جنون بعضهم ووفاته أو وفاته مباشرةً. لذلك تساقطوا تدريجيًا من ٢٢ معتقل في العنبر «ب» إلى ٤ ناجين فقط.

الكتاب موضوعي إلى حدٍ كبير، بمعنى أنه ذكر الكثير من الأمور التي قد لا ينبغي ذكرها، والتي فيها إدانةٌ حقيقيةٌ لنفسه مثلًا، كتسببه في وفاة أحد المعتقلين مثلًا، وكذلك طرق موت السجناء والتي كان الكثير منها مخزٍ إلى حدٍ كبير، وكذلك الكلام عن والده، فكان سقف المؤلف عاليًا وبدا وكأنه لا شيء يمكن التحفظ عليه.

أما مواضيع الكتاب الرئيسية فقد تمثلت بعرض نمط الحياة في السجن قرابة العشرين عامًا.

كيف يقضون وقتهم؟ ما أثر الطعام والشراب عليهم؟ مَن مات وكيف مات؟ شخصيات المعتقلين، كيف كانوا قبل المعتقل ودورهم في المعتقل وكيف استطاع الراوي استغلال وقته وما هي الأمور التي فعلها والتي مدت من عمره ولم يهلك مع الهالكين؟

تكلم مثلًا عن شخصية سجين معهم اسمه عشّار ومثل هذه الشخصيات هي التي تجعل السجن سجنين والهم همين، هي الشخصية الحقودة التي لا تراعي ظروف المعتقل ولا ظروف المعتقلين، فتبدأ باثارة الفتن وتسعير الخلافات والحنق على أي شخص لأي شيء إيجابي يحصل له، ولو كان هذا الشيء تافهًا. هذه الشخصية وإن كانت لئيمة إلا أنها أضفت نوعًا من الفكاهة على السرد.

وتكلم عن نمط حياة جنود مدرسة أهرمومو العسكرية والتي يظهر من خلالها نوع التنشئة الفاسدة التي يُنشّؤون العسكر عليها؛ والتي تخلو من أي مظهر من مظاهر الدين إلا ما كان ذاتيًا، فلم يكن هؤلاء الجنود من مرتادي المساجد بل كانوا من مرتادي بيوت الدعارة، وكانوا لا يعرفون شيئًا عن الدين بل كان بعضهم يشتم الدين، وبعض هؤلاء الجنود لم يحفظ الفاتحة إلا في المعتقل، وياليته حفظها بسرعة بل يقول المؤلف أنه حفظها بعد أشهر من المحاولات.

وتكلم المؤلف عن الجنون الذي بدأ يُصيب المعتقلين – وهم ليسوا قلة بالمناسبة –، وبدأ يضع فلسفة تُعنى بمقاومة الجنون في المعتقل، وهي عدم الاتكاء على غريزة البقاء من أجل النجاة بل بالتخلي عن أي تعلق بالخارج يؤدي إلى تقطع المعتقل تدريجيًا لهفةً وشوقًا تؤديان في النهاية إلى إصابته بالإحباط وخيبة الأمل والتي هي القنطرة إلى الجنون ثم الموت بعدها. فهو يقول: «**أنا قد نسيت نفسي واستطعت أن أتجاوز ذكرياتي فلم تبق تلك الذكريات تعذبني في كل حين إلى أن تقضي علي من الداخل**».

وفي بسط لهذه الفلسفة تذكرت رجلين من رجالات الإسلام، أولهما الشيخ عمر عبد الرحمن – تقبله الله – وهو يذكر أسباب مقاومته للجنون أو الأمراض العقلية كما في وصيته: «**ولولا تلاوة القرآن؛ لمسني كثير من الأمراض النفسية والعقلية**»، فلحفظ القرآن منافع متعددة، وهذه من أحدها.

وقد حُدِّثتُ أن أحد الشيخ سليمان العلوان قد سُحر في السجن، ورمي في الانفرادي حتى لا يساعده أحد، ولأنه كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب لم يحتج إلى أحد واستطاع أن يعالج نفسه بنفسه. ولو لم يكن حافظًا لتردّت أحواله من سيء إلى أسوأ.

والشخص الثاني وهو الشيخ المحدّث المعروف سليمان العلوان أيضًا وهو يقول في شريط (الثبات على الحق): «**بعض الناس إذا سُجن قال: ربي أخرجني! غلط بل قل: ربي ثبتني، فكم شخص سُجن وخرج صار منحلًا عن عقيدته منحرفًا ضالًا زنديقًا أو فاسقًا أو عارًا على أهل الحق، سلِ الله الثبات ولا حرج أن تسأل بعد ذلك المخرج**».

أحيانًا الرغبة في الخروج من المعتقل تكون طاغية إلى درجة الوقوع في الميكافيلية أي أن الغاية تبرر الوسيلة، فتكون فاتورة خروجه من المعتقل هو التخلي عن الحق هذا إن لم يكن ضده. وفي هذه الحالة كما نرى أن الرغبة الجامحة في الخروج وعدم التكيّف هذا الواقع الجديد، أدت إلى نفاذ صبر الكثيرين مما أدى إلى اضطراب عقولهم وجنونهم ووفاتهم في النهاية.

أظهر المؤلف كذلك أن الإنسان حتى لو جرِّد من الأدوات التي يحتاجها للمعرفة، فإن بطول التأمل والتجربة في ظروف بدائية قد تجعله يصل إلى بعض هذه المعارف التي يحتاجها، وبما أن الحاجة أم الاختراع أو كما قال المؤلف: «**فقد اعتبرت نفسي كمن أُعيد إلى عصر الكهوف فينبغي عليه أن يعاود اختراع كل شيء بأدواتٍ أقل من قليلة**». فأبسط الأشياء يُصنع منها أمورٌ مهمة، فكانت القطعة الحديدة الموجودة في طرف عصا المكنسة هي أداة الحلاقة لهم، فقد انتزعوها من المكنسة وجعلوها مسطحة وسنوها بواسطة حجر خشن ثم حلقوا ذقونهم بها.

وأما التأمّل الذي جعلهم يعرفون أحوال الخارج، فهو استقرار عصفور بقرب عنبرهم، ثم لاحظوا تغريداته إن كانت على نسق معين فهي تعني أن هذا الشيء قد حصل، فأصبحوا يعرفون موعد تبديل المناوبة وأحوال الطقس كل هذا بعد تأملات شهور في نسق تغريدة العصفور.

وكذا يعرفون علامات الموت من خلال صوت توعك أحدهم أو صوت أحد الطيور الذي أسموه بـ«الخَبَل». وهذا ذكرني بقصة ابن طفيل (حي بن يقظان) والتي عاش فيها الإنسان البدائي في جزيرة نائية من خلال التجارب والتأمل استطاع أن يطوع الكثير من الأشياء البدائية لصالحه.

وثم تكلم صاحب القصة عن أمر أنا أتفق معه فيه، وهو قوله: «**اختلط عليَّ الأمر؛ قتل الملك! ولكن لصالح من؟ لكي يستبدل بطُغمة عسكرية؛ جنرالات وكولونيلات، يتقاسمون السلطة وثروة البلاد؟ وبمرور الوقت، فكرت مليًا: لحسن الحظ أننا أخفقنا، أو بالأحرى: لحسن الحظ أنهم أخفقوا، فمن يدري قدر المرارات التي كنا سنتجرعها على يدِ دكتاتورية عسكرية أركانها القمندان أو المعاون عطا؛ إني أعرفهم جيدًا، وأعرف جيدًا ما أقول!**» وهذا لا يعني بحال أن النُّظُمَ الملكية الدكتاتورية نُظُمًا مثالية بل فيها من الطغيان والاستبداد والعمالة ما فيها، إلا أنها أهون من النُّظُم العسكرية، بل البعض أصبح يترحّم على النُّظُم الملكية عندما جرب جمهوريات العسكر. كما قال أحمد رائف: «**وفي الحقيقة بدأت مأساة الإخوان بضرب يوسف القرش في قصر عابدين حيث كان يقيم الخديوي إسماعيل رحمه الله وطيّب ثراه هو وآباءه وأبناءه الكرام البررة، إذا قارنا طغيانهم بطغيان من جاءوا بعدهم**»[١٢٣].

كما أن الإشكاليات الموجودة في النُّظُم الملكية ترى العسكر يتكؤون عليها لتسويغ انقلاباتهم، من ذلك صور البذخ وسوء التدبير الموجود لدى الأُسَر الحاكمة، ولكن بمجرد ما يتم الانقلاب إلا وتراهم يمارسون ذات الفعل، ويصدق المثل القائل: كأنك يا أبو زيد ما غزيت؛ يقول حبيب سويدية

---

[١٢٣] البوابة السوداء – صـ٢٥٢.

صاحب كتاب (الحرب القذرة) مثلًا عن نظام الجنرالات في الجزائر فيقول: «**وفي تلك الفترة – فترة الشاذلي بن جديد – كانت تُقلع طائرات عسكرية بصورة منتظمة من بوفارق، لحمل زوجات كبار المسؤولين ومستخدميهم إلى باريس وبالما ومدريد وروما من أجل التسوق... ممارسات مستمرة حتى اليوم**».[١٢٤] فهذا الأسلوب لا يختلف عن نمط الأُسَر البرجوازية في النظم الملكية.

دراسة جميع هذه الظواهر، كما دراسة تاريخ عالمنا العربي؛ تجعلنا نتبصر بطريقة لا مراءَ فيها، فمشكلة النظم الملكية المستبدة لا تُعالج بالجمهورية العسكرية، وهذا كمن يحاول أن يزيل النجاسة فيزيدها نجسًا، ويزيد الطين بِلةً.

ختامًا: مثلت أقصوصة (تلك العتمة الباهرة) أنموذجًا لصراع الجبابرة على الحكم، ومدى أثره على الخاسر في هذا الصراع، أظهر نموذجًا حسيًا للإنسان المقاوم بأبسط الأدوات بدائية الموت ومقدماته، أظهر كيف أن «الإنسان ذلك الظاهرة المعجزة التي لا تقولب في أُطر محددة سلفًا» كما قال الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه (الفلسفية المادية وتفكيك الإنسان)، وأظهرت جزءًا ظل مخفيًا من تاريخ المغرب السياسي، ظل طيَّ الكتمان لفترة طويلة، وكان هذا الكتاب من الشهادات القلة القليلة حول ذلك الحدث.

يستفيد المسلم من هذا الحدث الكثير من الأمور:

– المُلك عقيم: فالرجل يقتل أباه أو أخاه على الكرسي، فكيف بالغريب الأجنبي، الذي من أطراف البلاد ولا قيمة معنوية له ولن يثأر له أحد. فأي صراع على السلطة إن دخله الشخص فليتوقع أن يحصل له مثل ما حصل للمعتقلين في سجن تازمامارت. أي صراع وجودي يستنفذ كل طرف طاقته في إفناء الطرف الآخر وإن تمكن منه لن يرحمه.

---

[١٢٤] الحرب القذرة – صـ٤٤.

- أن النظم الجمهورية العسكرية ليست أحسن حال من النظم الملكية، بل هي أسوأ، وأن أغلب التجارب - إن لم تكن كلها - رفع العسكر فيها شعارات في مواجهة الملكية لم يطبقوها عندما وصلوا الحكم بل صار الحال أسوأ من قبل، وقد قيل: « المجرب لا يجرب».

- أن الصمود في المعتقل وفي ظل الظروف الصعبة يحتاج إلى أساليب وأدوات جزء كبير منها يحصلها الشخص قبل البلاء؛ وتحتاج قبل ذلك كله تعويد النفس على الصبر وطول النفس، وقبل ذلك كله التقرب إلى الله وتحويل المعتقل إلى فرصة مثالية لتصليح النفس ومكان للعبادة، فكانت هذه العبادات كما أظهر صاحب القصة سببًا في ثبات عدد غير قليل حتى ممن ماتوا، على الأقل ماتوا بسبب أمراضهم ولم يموتوا بسبب فقدانهم لعقولهم.

- (**وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**)[١٢٥] ولكن أحيانًا يؤيد هذا الدين بالرجل الكافر، وهذا واضح في القرآن والسنة، ومن ذلك قوله تعالى: [**وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ**] فالرهط هنا من حموا شعيب من الرجم، وهؤلاء الرهط هم من أهل الإشراك كما قال الشنقيطي في تفسير أضواء البيان: «**بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه شعيبًا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم كفار**»[١٢٦]. وكذلك حماية أبو طالب للنبي ﷺ وهو مشرك ومات على الشرك. ولو رأيت قصة (تلك العتمة الباهرة) ترى أن من كان سببًا في التخفيف من كربتهم كان حارسًا تعاطف معهم حميةً؛ لأن أحد المعتقلين من نفس قبيلته، فأصبح يهرب الرسائل التي يستخدمها المعتقلين ويوضحون فيها أحوالهم وظروف سجنهم؛ فيوصلها أهلهم إلى المنظمات الدولية التي تشحن حملات ممنهجة ضد حكومة المغرب، وأدى هذا في النهاية إلى تخفيف الضغط وتحسن الأحوال. فلا تستغرب أيها المسلم في سجنك إن وجدت من يريد نصرتك من الطرف المعادي لقاسم مشترك بينكما كالقبيلة أو العشيرة، ولا يستنكف الشخص عن

[١٢٥] صحيح البخاري (٣٠٦٢).

[١٢٦] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٥٥).

استغلال هذه الفرص بحجّة أن الطرف الآخر عدو، بل يستغلها ويستخدمها لصالحه كما استخدمها الأنبياء لصالحهم من قبلهم.

- إن أصحاب القضية الإسلامية في المغرب وغيرها من أقطار العالم العربي، لهم تجارب تقارب بشاعتها ما حصل في (تلك العتمة الباهرة) وعليهم أن يبقوا قضاياهم ويخترقوا سياج (الروايات) للوصول إلى أكبر عدد من القراء، فالكتب التأريخية لا يقرأها إلا المهتمين بالتأريخ، ولكن الروايات التأريخية يقرأها قراء الروايات ومحبي التأريخ، فأنت تستهدف هنا شريحتين، خصوصًا أن جيل الشباب اليوم يَغلب عليه قراءة الرواية.

وربما نسيت أن أقول أني سمعت باسم (تلك العتمة الباهرة) لأول مرة في داخل غرف التحقيق من جهاز أمن الدولة قبل سنوات خلت، فحرصت على أن أقتني نسخة منه، وبقيت لفترة طويلة مركونه على أرفف المكتبة ولم أبدأ بها إلا مؤخراً.

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ يناير ٢٠٢٠م - ٦ جمادى الأولى ١٤٤١هـ

أسياد الجاسوسية الجدد

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: أسياد الجاسوسية الجدد: داخل عالم التجسس العصري من الحرب الباردة إلى الإرهاب العالمي.**
- **اسم المؤلف: ستيفن غراي.**
- **عدد الصفحات: ٤٧٢.**
- **دار النشر: الدار العربية للعلوم – ناشرون.**

التعليق والمناقشة:

الكتاب قرظه – إن صحّ التعبير – جون ماكغافن وهو نائب المدير السابق لقسم العمليات السرية في الـCIA. وكتابه هذا – أسياد الجاسوسية – ليس كتابه الأول الذي اشتهر به، فكتابه الأول هو (Ghost Plane = الطائرة الشبح)، ومع ذلك ترىٰ بذل جهد مضني في كتابه هذا رغم أنه ليس رسالة دكتوراه أو رسالة أكاديمية، فقد ذكر في المقدمة أنه عمل لخمس سنوات علىٰ تأليف هذا الكتاب.

نَفَس ستيفن غراي في تعاطيه مع قضايا التجسس وما يحصل خلالها من انتهاكات يختلف عن نفس جيريمي سكاهيل صاحب كتاب (حروب قذرة) و(بلاك ووتر)، فيبدو أن سكاهيل ثائر علىٰ منظومة التجسس في العالم الغربي، بخلاف ستيفن غراي الذي تراه يحرص علىٰ تصويب أخطائها دون الثوران عليها.

يَذكر ستيفن غراي صفة امتاز بها كتابه عن كتب التجسس التي كتبها ضباط في الاستخبارات، وهي أنه كونه صحفي لم يكن ملزمًا كحال الضباط الاستخبارات (حتىٰ المتقاعدين منهم) بعرض كتابه علىٰ وكالة الاستخبارات وتنقيحه قبل نشره.

افتتح ستيفن غراي كتابه بذكر مصطلحات عالم التجسس، فكلمة (المُخبِر) تختلف في مدلولها عن (الجاسوس) في مصطلح الاستخبارات، فهو هنا يشرح مدلول المصطلحات وماذا تعني عند الاستخدام، وهذا يفيدك في قراءة الكتب والأخبار بمعرفة ماذا يعني هذا المصطلح وما الفرق بينه وبين المصطلح الآخر، ثم بدأ يشرح أسماء وكالات التجسس فهي تنقسم إلىٰ أقسام داخلية وخارجية وحتىٰ الداخلية والخارجية قد تنقسم إلىٰ أقسام، فيشرح أسماء وكالات الدول ومنطقة عملها، فمثلًا الـCIA تختلف عن FBI وكلاهما يختلف عن NSA وفي بريطانيا الـM15 تختلف عن M16 وهكذا... ويذكر في ماذا تختلف كل وكالة عن الأخرىٰ وهكذا... وعلىٰ العموم حفظ هذه المصطلحات قبل البدء في الكتاب مهم؛ لأنها سوف تتكرر كثيرًا في الكتاب.

ثم بدأ ينتقي حوادث تجسسية حصلت فيها أخطاء، ثم يستلخص من هذه الأخطاء الثغرة التي وقعت وكيف يمكن أن نعالجها: بدأ في محاولة الانقلاب الفاشلة التي دبرها البريطانيون علىٰ الحكومة البلشفية الجديدة في روسيا وكيف استطاع البلاشفة إجهاضها وكيف ارتدت سلبًا علىٰ البريطانيين، ثم قصة ستيكانيف القيادي في الجيش الجمهوري الأيرلندي والعميل المزدوج للبريطانيين، وتقييم تجربته في التجسس علىٰ قومه؛ وكيف أن «الصداقة» هي مفتاح مهم للتجنيد، وماذا يصنع العميل المزدوج في منظمة إرهابية يجب أن تنخرط في نشاطاتها حتىٰ لا يُشك فيك.

ثم ذكر قصّة أنطونيادس وكيف يمكن تحويل الجواسيس من عالم السياسة إلىٰ عالم الجريمة المنظمة، وكيف استطاع هذا أن يبرع في المجال، وكيف أن الجمارك البريطانية حمت هذا الجاسوس حتىٰ بلغت المدىٰ ثم انفرط عقدها وأصبح هذا الجاسوس مطلوبًا بعد أن كان يطارد المطلوبين.

وتأتي بعدها قصة عمر ناصري الذي اخترق الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر ثم القاعدة وكيف أن الانخراط في التجسس طويلًا في بعض المنظمات تجعل الشخص يحول ولائه وقد ينسى نفسه ويؤمن بأفكار الجماعة التي اخترقها، وكيف أن الشخصية المتمردة لا تعمّر كثيرًا في البيئة الاستخباراتية.

وبعدها تأتي قصة عاصم الجاسوس الفرنسي الذي اخترق خلية برشلونة واستطاع إفشال عملية جهادية كانت قاب قوسين أو أدنى، وكيف أن الشرطة الإسبانية استعجلت في عملية الاعتقال فاعتقلت هذا الجاسوس فيما اعتقلت وأصبح متهمًا في القضية فاضطر أن يكشف عن هويته الحقيقة علنًا وبذلك انتهت حياته التجسسية وكيف أن هذا أدى إلى خلاف ما بين فرنسا وإسبانيا.

وتكلم أيضًا عن قصة المرتد رافد أحمد علوان الجنابي الذي اختلق كذبة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل وكيف مرت هذه الكذبة حتى أصبحت سياسةً قطعيةً بُنِيَ عليها احتلال بلد بأكمله، فالمؤلف هنا يرصد مراحل مرور هذه الكذبة وتغلغلها وكيف وصلت إلى تبني دول لها.

وأتبعها بالكلام عن همام البلوي، وكيف جُنِّد وكيف تعامل مع المخابرات وكيف شائت الأقدار أن تنجح عمليته، (لو قرأ المؤلف كتاب (القصة الكاملة لعملية خوست) لاستطاع أن يستخلص الكثير من العِبر من هذه العملية).

وثم في الفصل التاسع تكلم عن مقتل أحد الناخبين الأفغان والساسة المعتبرين على يد الأمريكان على اعتبار أنه جاسوس مزدوج للطالبان، وفي هذا الفصل يثبت كيف أن الاعتماد على التقنية وحدها دون التجسس البشري يؤدي إلى مثل هذه الكوارث، ويرصد هنا الأخطاء والخلط التي جعلت أمريكا تعتقد أن هذا الرجل جاسوس مزدوج لصالح الطالبان وكيف أنها ما زالت تصر على موقفها.

وثم الكلام عن الجاسوس الدبلوماسي كروك الذي لعب دورًا مهمًا بين حماس وفتح من جهة وإسرائيل من جهة أخرىٰ في الانتفاضة الثانية، وكيف أن شذوذ المفاوض السري عن استراتيجية وكالة الاستخبارات وتطبيق رؤاه الخاصة تؤدي في النهاية إلىٰ طرده، فلا استقلالية في مجال الاستخبارات.

وثم تكلم عن الجاسوس الباكستاني الدكتور شاكيل أفريدي الذي استخدمه الأمريكان من أجل زيارة مجمع بن لادن في أبوت آباد بحجة تطعيم الأطفال بينما المقصد الرئيس هو رؤية سكان المجمع.

وفي الختام تكلم عن مشاكل التجسس المعاصر في العالم الغربي وما هي الحلول التي يجب اتخاذها من أجل تحسين أدائها. وكيف اختلف الوضع في وكالات الاستخبارات ما بين زمن الحرب الباردة وحرب الإرهاب وكيف أن التحديات الجديدة لم تكن لتوجد سابقًا.

ما سبق هو مجرد عرض لا مناقشة ولا استعراض لمضامين الكتاب الكثيرة، وإلا الكتاب مليء بالمعلومات ولو ناقشنا كل الفصول لخرجنا بكتيب. وهو كتاب مهم جدًا ومفيد جدًا، وأنصح به. ينتفع به الباحث في شؤون الأمن والسياسة الخارجية والمجاهد والناشط الحقوقي.

٢ يناير ٢٠٢٠م – ٧ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٤١هـ

فن التجسس

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: فن التجسس.**
- **اسم المؤلف: هنري كرامبتون.**
- **عدد الصفحات: ٣٨٩.**
- **دار النشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتاب (فن التجسس) لهنري كرامبتون، وهو كتاب متعدد الوجوه، يستفيد منه المهتم بقضايا الأمن، والسياسة، والعسكرية، والبيروقراطية وأثر القطاع الخاص والتكنلوجية على المجال الأمني في المستقبل. وقد كتب الأستاذ أحمد مولانا مقالًا في عدد سابق من مجلة (كلمة حق) عن جزئية قد ارتئاها، وهي «ثغر شاغر» في ترجمة الكتب والمراجع الأمنية التي لم تترجم إلى العربية حتى الآن. وأنا لن أتكلم عن كل النقاط التي تستحق أن تُعرض في هذا الكتاب؛ بل سأحصر الكلام في الغالب عن لب الكتاب وقضيته الأبرز: الغزو الأمريكي لأفغانستان على إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

يقع كتاب (فن التجسس) لهنري كرامبتون في ٣٨٩ صفحة من ترجمة وطباعة: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ومؤلفه قائد العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) والذي انتهى بهِ المطاف منسقًا في وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الإرهاب.

تأتي أهمية هذا الكتاب كون المؤلف هو قائد العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية أثناء الغزو الأمريكي لأفغانستان، وأن الكتاب تقريبًا كله يتمحور حول مكافحة الإرهاب ودوره الميداني في ذلك.

وهنا لا ننسى أمرين، الأول: أن غالبية كتب الاستخبارات التي كتبها الضباط المتقاعدون باهتة بلا طعم، وسبب ذلك ما ذكره الصحفي ستيفن غراي في مقدمة كتابه (أسياد الجاسوسية) إذ قال موضحًا النقطة التي يتميز بها كتابه: «**قد حاولت المحافظة على المسافة التي تفتقر لها معظم المنشورات الرسمية أو الكتب التي ألفها جواسيس متقاعدون، والذين - وإن لم يقروا بذلك - عليهم أن يسلّموا نصوص كتبهم لتوافق عليها أجهزة الاستخبارات**».

وطبعًا هنري كرامبتون لم يكن من الذين لم يقروا بذلك بل أقروا بذلك في خاتمة كتابه فقال أن: «**أعضاء مجلس مراجعة المنشورات في وكالة الاستخبارات المركزية قد أخطؤوا في بعض ما حذفوه**». لذلك تراه لا يُعيّن أسماء الدول عندما يذكر حوادث الجاسوسية، فيكتفي بالوصف العام؛ (في دولة أفريقية حصل فيها تمرد) ثم لو محّصت الدول لوجدت أن غالبية الدول حصل فيها تمرد مما يُضعف من شأن هذه الرواية التاريخية.

وثم أصبح الكلام في الكثير من الأحيان عن الإجراءات البيروقراطية من لقاءات واجتماعات ومناصب ونحوها من أمور. أي يمكن استنباط تاريخ اتخاذ القرارات وكيف حصلت. أكثر من الكلام عن العالم الخفي كما هو الحاصل في فصول أفغانستان.

الثاني: تلميع صورة وكالة الاستخبارات المركزية، يشتكي هنري من أن هنالك هجوم أو صورة نمطية مغلوطة عن دور الاستخبارات في الذهنية الأمريكية، وأن هذه الصورة وإن تحسنت بعد الحادي عشر من سبتمبر إلا أنه ما فتأت أن عادت إلى ما كانت عليه، ولا ننسى أن هنالك كتب أيضًا ساهمت في رسم تلك الصورة مثل كتاب (إرث من الرماد) لتيم واينر، وقد قال ستيفن غراي

عنه: «**فقد أثار هذا الكتاب - الذي يصف عقودًا من العثرات والإخفاقات الدموية، والنشاطات ذات النتائج العكسية - حنقًا في وكالة الاستخبارات المركزية التي أعلنت في بيان نادرٍ، إن لم نقل لم يسبق له مثيل بشأن الكتاب عن الوكالة أن واينر قد شوَّه التاريخ بشكل متكرر: "مدعومًا باقتباسات انتقائية، وتأكيدات شاملة، وافتتانٍ بالسلبيات، تغاضى واينر عن إنجازات الوكالة أو قلل من شأنها أو شوهها"**» فكان من الطبيعي أن يخرج من رحم هذه المؤسسة من ينافح عنها ويدافع بهذه الصورة؛ ولو أظهر شيئًا من المثالية النرجسية. فقد أعلىٰ المؤلف من شأن وكالة الاستخبارات المركزية مقابل غيرها من الوكالات الاستخباراتية في أمريكا، فمثلًا مما ينقمه علىٰ مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) أن تلك الأخيرة بسبب عملها تحت وزارة العدل؛ جعلت عملها متلازمًا مع إثبات الأدلة وإدانة الجاني، ويصبح عملها الاستخباراتي مترادفًا مع هذه المعاني التي رأىٰ فيها أنها تُقيّد من العمل الخفي وتجعله أكثر محدودية، وقد ذكر أنه عمل علىٰ سبيل الإعارة مع مكتب التحقيقات الفيدرالي (فقد كانت أجهزة الاستخبارات الأمريكية تعير أفرادها علىٰ بعضهم البعض من أجل كسب الخبرة)، وذكر وجوه من المقارنة بين الوكالتين وحصرها في عشر فوارق في الصفحات (١٣٦، ١٣٧، ١٣٨).

كما أنه غض الطرف عن الأخطاء والجرائم التي فعلتها الوكالة تحت إمرته، ففي فصل (العمليات في أفغانستان) يزعم أن من خلال ما اتخذ من إجراءات وتطور جاسوسي تمثل في ما أسموه بـ«الصندوق السحري» الذي يقول هنري عنه أن «**ببعض نقرات على المفاتيح يمكن عرض مواقع العدو مع طبقة تظهر كل الطرق في مقاطعة محددة، تتبعها طبقة أخرى للإحداثيات الدقيقة لمصدرنا مع طبقة أخرى للخريطة الطوبوغرافية. وبلغت تركيبات الطبقات العشرات. وتمكن كِنْ وفريقه في مآل الأمر من احتساب وعرض مئات التركيبات، وكل ذلك يتوقف على المعلومات التي نغذي بها النظام وعلى ما نريد، وقد ساعدنا النظام على إدارة المعطيات ووفر لنا قدرة على المشاهدة في الوقت الفعلي، وبات في وسعنا إلقاء نظرة على الخريطة الإلكترونية لنعرف الوضع على الفور**». ومع أمور

أخرىٰ مثل تمكين الأفغان المتعاونين مع الأمريكان علىٰ تحديد الإحداثيات بشكل دقيق وتعديل الأجهزة لتصبح سهلة الاستخدام.

وذكر أنه أعطىٰ أوامرًا بحماية بعض المنشئات من القصف كالمساجد وغيرها، ولكن الذين كانوا هناك وكانوا شهود عيان، رأوا أن القصف لم يكن دقيقًا بالصورة المثالية التي صورها المؤلف في كتابه، بل كان عشوائيًا ومحىٰ قُرىٰ من وجه البسيطة، ويذكر القائد الميداني عبد الله العدم أسباب انحيازهم من آخر معقل للطالبان في أفغانستان فيقول: «**بعد ذلك بدؤوا يستهدفون الناس مما أدى إلى خروجنا من أفغانستان وانسحابنا إلى الجبال والانحياز؛ حتى لا يؤثر ذلك على قتل المسلمين في أفغانستان؛ لأن الأمريكان بدؤوا يقصفون في قندهار عشوائيًا، ويستهدفون البيوت، والناس، وضربوا الأسواق، حتى المستشفيات لم تسلم منهم؛ فآثر المجاهدون بأمر أمير المؤمنين الانحياز إلى الجبال من أفغانستان حفاظًا على أرواح المسلمين**»[١٢٧]، فلم يناقش المؤلف هذه القضايا في كتابه واكتفىٰ أن القصف استهدف أرتالًا عسكرية للعدو، وكان القصف دقيقًا.

ولكن لماذا يُناقش مثل هذه الأمور أو حتىٰ يحاول تسويغها؟ لأنه لا يرىٰ اعتبارًا لآلاف القتلىٰ ممن سوف يقعون في هذه الحرب، ودليل ذلك حواره مع ماسي قبل بدأ الحملة العسكرية علىٰ أفغانستان، وقد دار علىٰ النحو التالي كما في الصفحة ٢٥٦: «**انتحى بي ماسي جانبًا وسألني: "هل أنت مرتاح لهذا؟" أنا مرتاح لهذا؟ ماذا يعتقد؟ انتظرت سنوات للقيام بهذا، حان الوقت الآن وليس لدينا وقت نضيعه بنقاش فلسفي متوتر ما. فقلت بفظاظة: "أنا أكثر من مرتاح يا جون." أمسك بذراعي وابتسم: "أنا لا أسأل عن العدو، بل عنك، هل جهزت نفسك لواقع أننا سنتحمل مسؤولية موت الآلاف؟" فقلت بفحيح: "يستحقون ذلك!"**».

[١٢٧] سلسلة صناعة الإرهاب، الدرس (٣٤).

وفي فصول أفغانستان، ترىٰ أنه كرر علىٰ نقطة مركزية أو جوهرية في الحملة العسكرية، أنه لا قيمة للجهود الأمريكية العسكرية من دون وجود عملاء وخونة في الجوار، ولم يفتأ هنري يُكرر هذا المعنىٰ؛ مثلًا تراه يقول: «**ركزت على حلفائنا الأفغان وقد علمت أنهم سيشكلون مفتاح النصر. فوحدهم يعرفون طبيعة الأرض، ووحدهم يمكنهم تجنيد أفغان آخرين للانضمام إلينا، ووحدهم يستطيعون اختراق الطالبان على كل المستويات، ووحدهم يستطيعون التحرك على الفور. فالجيش الأمريكي لا يعرف سوى القليل عن أفغانستان لأنها لم تشكل تهديدًا تقليديًا، وجيشنا تقليدي بشكل ساحق. ويحتاجون أشهرًا عدة لتحريك قوة لا بأس بها. ولم يعدّ الفيلق شبه العسكري في وكالة الاستخبارات المركزية سوى دزينات قليلة، وليسوا جميعهم منسابين لهذه المهمة. واعتمدت قدرتنا على التحرك السريع على نجاح حلفائنا الأفغان**».

وأضف إلىٰ ذلك أن لدعم هؤلاء مكاسب أخرىٰ فتراه يقول في موطن آخر: «**وأبلغت فهيم وعارف أننا سنوفر راتبًا شهريًا، ولكن لحاجاتٍ محددة وتجهيزات فحسب، إضافة إلى تمويل إضافي للمساعدة في تجنيد الهاربين من الطالبان. وجاء رقمي أقل بكثير من الذي طلبناه لكنه كان كافيًا. وهذا بالتأكيد أفضل من صرف مليارات الدولارات على القوات البرية الأمريكية بكامل قواتها، مما يوفر للعدو المزيد من الأهداف الأمريكية**» وقال عن القواعد العسكرية في الدول المحيطة بأفغانستان: «**فمن شبه المستحيل خوض حرب من دون موطئ قدم في دوشانبي وطشقند في أوزبكستان**» صـ٢٧٢. وذاكرًا دور دول الخليج: «**أدار الجنرال في سلاح الجو "مايك باز" وفريقه الذي ضم ممثلًا عن وكالة الاستخبارات المركزية الحملة الجوية من مركز قيادتهم في إحدى بلدان الخليج الفارسي**» صـ٢٤٣.

ولم يقتصر دول الخليج علىٰ الجانب الجوي فقط، بل يذكر الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش في مذكراته جانبًا من إسهام الغواصات الأمريكية المستقرة في الخليج بقصف أفغانستان فيقول عن

بداية الحملة الأمريكية على أفغانستان: «**وكانت الغواصات الأمريكية والبريطانية في الخليج العربي قد أطلقت صواريخ توماهوك**»[١٢٨].

وقد كان لبعض هؤلاء الأفغان المتعاونين مع الولايات المتحدة، تخوفات، أنها في يومًا ما تتفاوض مع الملا عمر، فلم يريدوا أن يكشفوا عن أنفسهم ويحرقوا أوراقهم، إن كانت أمريكا سوف تقوم بهذا، فأقاموا المجلس المحلي «الجيرغا» وقبل أن يعطوا موافقتهم على التعاون مع الأمريكان سألوا الأمريكان: «**هل ستتفاوض الولايات المتحدة مع الملا عمر؟**» فرد الضابط غريغ: «**قال رئيسي إما أن تكونوا معنا وإما أن تكونوا ضدنا. فكيف يمكننا التفاوض مع الملا عمر وهو لم يجلب لكم سوى الموت والمشقة؟ لن نفاوض هذا القاتل. سنحارب معكم حتى النصر**». فوافق هؤلاء الأفغان على التعاون.

مثل أمريكا [**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ**]، فالآن بعد عقدين على هذا التعهد، نرى أن أمريكا تفاوض جماعة الملا عمر على الانسحاب، وعلى ترك هؤلاء الخونة ليلاقوا مصيرهم، بعد أن أضاعوا الدنيا والدين.

على العموم هنري كرامبتون نفسه يقر أن أمريكا تخل بالكثير من اتفاقياتها والتزامتها فيقول أنه أثناء نقاشه مع العملاء الأفغان بعد أن عرضوا عليه سؤال «**هل يمكننا الاعتماد على الولايات المتحدة للوفاء بوعدها؟**» قال: «**أغفلت الجزء المتعلق بالالتزام الأخلاقي؛ لأنهم شاهدوا على مر العقدين الماضيين الكثير جدًا من الإخلال الأمريكي بالوعود**» وتجاهل أمريكا لعملائها أو حتى نسيانهم بعد أن قدموا لها الغالي والنفيس، وليس بغريب، بل يحكي هنري نموذجًا من ذلك في كتابه، فأحد الجواسيس الأفارقة «**قد خدم وكالة الإستخبارات المركزية بإخلاص وأنتج مئات التقارير**» كما يقول هنري، ثم ماذا؟ ثم ذكر أنه توفي في ظرف غامض أثناء مروره على معبر حدودي مغبّر مهجور. ثم

[١٢٨] قرارات مصيرية – صـ٢٤٨.

قال – وهذا هو الشاهد -: «**وبالطبع فإن هذا البطل/ العميل غير المعروف من العالم قد أصبح منذ زمن بعيد طي النسيان في داخل وكالة الاستخبارات المركزية إلا من زوجين مشغلين ومني أنا. تلك هي طبيعة التجسس**».

فطبيعة التجسس لدىٰ أمريكا أنها تنسىٰ من ضحّوا لأجلها. بل من الطرائف أن هنري كرامبتون يقول عن من يأتي إلىٰ السفارات الأمريكية من أجل أن يعطيهم معلومات استخباراتية من أجل المال أو تأشيرة الدخول إلىٰ أمريكا: «**قلة منهم متطوعون صادقون يريدون المساهمة في فتات من المعلومات لقاء أموال نقدية أو تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. وكادوا جميعهم يغادرون وهم مصابون بخيبة الأمل**». هنا قسَّم القادمين إلىٰ السفارات من أجل اعطاء المعلومات وذكر أن غالبيتهم محتالين، ثم ذكر القلة القليلة الصادقة! ثم إن هؤلاء الصادقين في خدمة أمريكا قد خرجت النسبة الغالبة منهم بلا شيء!

وعودًا إلىٰ «غريغ» الذي قال سوف نقاتل حتىٰ النصر، ولا بُدَّ لاستراتيجية معينة لتحديد النصر من الهزيمة، وماذا عن الإستراتيجية الأمريكية لمكافحة الإرهاب هل استطاعت أمريكا تحقيقها؟ يقول هنري كرامبتون: "**أخفقنا في تحقيق الأهداف الإستراتيجية الثلاثة لمكافحة التمرد: «إلغاء زعامة العدو» و«حرمانه من الملاذ الآمن» و«وتحسين الظروف التي يستغلها»**" صـ٣٢٤

ثم ذكر عظة غريغ في نفس المجلس حول ما كان يريد أن يرسخه في أذهان الأفغان، أنهم يقاتلون من أجل وطنهم ضد الدخلاء الأجانب مثل الشيشانيين والباكستانيين وغيرهم من المهاجرين، وأن يجب أن تكون أفغانستان للأفغانيين. فيقول: «**على الأفغان أن يقاتلوا القاعدة. أليست هذه مسؤولية المحارب وواجبه وشرفه؟ هل يسمح الرجال الأفغان الحقيقون للدخلاء العرب والشيشان والأوزبك والباكستانيين العاملين تحت لواء القاعدة تحديد مستقبل أفغانستان؟ وكيف لا يمكنهم أن لا ينضموا إلى الولايات المتحدة ضد هذا العدو المشترك؟ فالقاعدة غازٍ أجنبي اختطفت بلادهم**».

ألا يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه بعض المحسوبين على المعارضة في سورية؟ ماذا سوف يفعلون غدًا لو عرضت عليهم أمريكا أو غيرها من القوى التعاون من أجل طرد هؤلاء الأجانب وتمكين السوريين من العودة والحكم وفق أجندات هذه الدول؟ قد يجد هذا العرض آذانًا صاغية بشكل كبير!

حسنًا، تستطيع أن تحصر المتعاونين مع أمريكا في غزوها أفغانستان من القوى الداخلية إلى الشيعة الهزارة، فترى هنري يقول عنهم: «**رحبت الهزارة وهي أقلية شيعية بالولايات المتحدة بامتنان وبالتزام عميق بالحرب**».

والجبهة الموحدة لتحالف الشمال فتراه يقول عن رئيس استخباراتهم المهندس عارف: «**وقد عملنا معًا على مدار العامين الماضيين وتواصلنا بانتظام**». وقد خصص لهم مرتبات كما تقدم معنا في النصوص السابقة، ويقول عن قائدها أحمد شاه مسعود: «**احتجت زيارة إلى المنطقة ولقاء حليفنا وزعيم الجبهة الموحدة أحمد شاه مسعود، وقد سبق لنا أن أرسلنا في الأشهر الستة السابقة فريقًا إلى أفغانستان لمساندة مسعود والعاملين معه، ونحن نخطط لتوسيع هذا التعاون**»، وعين بعض الأسامي فقال: «**عبد الرشيد دستم وهو أوزبكي، ومحمد محقق وهو من الهزارة الشيعة، وأستاذ عطا محمد وهو طاجيكي**».

وإذا كانت قوات التحالف الشمالية مكونة من قوميات متعددة، فقد كانت المشكلة في القومية الأكثر والأبرز وهي البشتونية، فلا بُدَّ من إيجاد موطئ قدم في جنوب أفغانستان معقل البشتون الأول، فلم يجدوا أفضل من كرزاي وقبيلته، يقول هنري: «**وحده كرزاي تمكن بفضل قوة زعامته من ضمان تعاون قبيلته الأولى في تلك المنطقة. وقد رحبوا بفريق وكالة الاستخبارات المركزية والقوات الخاصة الصغيرة هذه ووفروا لها الحماية**».

ذكر هنري حادثة ذات دلالة وهي أنهم وصلتهم رسالة عبر وسيط من رئيس استخبارات الطالبان «قاري عماد الله» للتفاوض، وافق هنري على ذلك مع وضع ثلاثة احتمالات، الأول هو أن يتعاون معنا ولا يكتفي بالكلام بل لا بُدَّ أن يُبرهن على ذلك أو أن يقبل أن يكون مجندًا لصالح الأمريكان، والثانية اعتقاله والتحقيق معه، والثالث إذا لم يستطع اعتقاله قتله، واتفقوا على موعد ومكان محددين، ولم يأتي رئيس الاستخبارات الطالباني عماد الله بل أوفد على أحد أتباعه ولم يقبل لا بالتعاون ولا بالتجنيد، فأومأ المفاوض الأمريكي إلى القوات الأمريكية التي تدخلت واعتقلت المفاوض مع فريقه، وبعد التحقيق معهم اكتشفوا أماكن بعض القيادات، يقول هنري: «**كشف السجين الطالباني في غضون ٢٤ ساعة على أسره عن مواقع قيادة القاعدة والطالبان وغير ذلك من المواقع على امتداد الحدود الباكستانية**»، فذهبت طائرة بلا طيار وقصفت تلك التجمعات الموجودة وقتل من بينهم رئيس الاستخبارات الطالباني القارئ عماد الله.

فمن أراد التفاوض مع الأمريكان في حالة الحرب لا بُدَّ أن يضع اعتبارًا لمثل هذه الحادثة وانعكاسها السلبي عليه. كما أن الأمريكان لا يقبلون بمجرد الكلام أو التعاون اللفظي بل لا بُدَّ أن تبرهن لهم عمليًا على التعاون، ولا بُدَّ من رؤية الفعل والأمر به [**إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ**]؛ يقول هنري: «**سألنا قادة الطالبان الذين شهدوا في الغالب نهاية رفاقهم: أترغبون بالموت أو بالمكأفأة؟ اختاروا بشكل شبه دائم المكافأة، وطالبنا بما هو أكثر من مجرد كلماتهم. يجب أن يتجسسوا لنا، ويديروا بنادقهم صوب رفاقهم في القاعدة، بل وحتى خيانة قادة الطالبان الآخرين**». وأنا لا أصدق أن غالبية قادة الطالبان وافقوا على التعاون مع المحتل، ولكن أصدّق أن أمريكا لا تكتفي بمجرد إعلان التعاون بل لا بُدَّ من حيثيات ملموسة لتبرهن على تعاونك.

وكل حركة ذات أبعاد نضالية؛ لا بُدَّ أن يتعرّض قاداتها إلى شيء مماثل من هذا النوع، ولا بد أن يساومهم العدو ما بين التهديد والترغيب، والقادة الحقيقيون هم الذين يفضلون الموت على التعاون مع العدو، وعلى فقدان كل شيء إلا دينهم.

وذكر هنري في الكتاب أمرًا آخرًا، قد تفوقت فيه الدول العربية على الدول الغربية وهو مكافحة الجهاد وأهله، وأن ضباط وكالة الاستخبارات المركزية اضطروا أن يثنوا ركبهم لينهلوا من معين هذا الضابط العربي الذي بُعث خصيصًا لتدريسهم وتدريبهم، يقول هنري: «**جمعنا فريقًا من الاختصاصيين ضم علماء نفس ومحلّلين ومجنّدين. وعرفت بعد التجربة الأولى أن شيئًا ما ينقصنا. احتجنا إلى خبرة أوسع وتجربة أكبر، وطلبت من جهاز عربي حليف أن يرسل لنا مدربًا. امتعض بعض من في الجهاز الخفي بما يعكس غرورًا في غير مكانه بالنسبة إلى قدراتنا الذاتية. وحاججت بأننا دربنا أجهزة ارتباط في كل أنحاء العالم، فلماذا لا نستفيد من بعض من دربناهم؟ تكرم حليفنا العربي علينا بالموافقة وأوفد واحدًا من أكثر ضباط مكافحة الإرهاب خبرةً لديه لتعليمنا ومساعدتنا في تطوير مناهجنا. فعلَّم مركز مكافحة الإرهاب عشرات من ضباط العمليات من كل أقسام الجهاز الخفي**».

وأما بخصوص العلاقة المفترضة التي كانت ما بين القاعدة وصدام حسين والتي استخدمت بشكل أو بآخر لغزو العراق فيقول هنري عنها: «**لم يوجد في ما جمعناه من استخبارات أو تحليل ما يورط العراق في هجمات الحادي عشر من سبتمبر. بل إن صدام حسين على العكس من ذلك، طاغية عَلماني لا يأنس أبدًا بإيدلوجية القاعدة أو يعتبرها حليف مصلحة. وبالرغم من أن صدام إرهابي ويدعم مجموعات إرهابية، وبخاصة تلك التابعة للشبكات الراديكالية الفلسطينية، فإنه رأى في القاعدة تهديدًا أكثر مما رأى فيها حليفًا. أضف إلى ذلك أن القاعدة نظمت ودربت وخططت لهجمات الحادي عشر من سبتمبر من أفغانستان وليس العراق**». وأما الضابط في وكالة الاستخبارات المركزية مايك

سبان الذي وفق شهادة وليد محمد الحاج في برنامج شاهد علىٰ العصر أنه قُتل علىٰ يد اليمني مهند التعيزي فقد تكلم هنري كرامبتون عنه باستفاضة تحت فصل فرعي (قلعة جانجي).

وفي ختام الكتاب تكلم هنري كرامبتون عن عمله رئيسًا لقسم المصادر الوطنية، والذي يتخذ من القطاع الخاص جسرًا للتجسس، يقول أن الكثير من المدراء التنفيذون للشركات الأمريكية الكبرىٰ متعاونين مع أجهزة الاستخبارات، ويتكلم عن أحدهم فيقول: «**امتلكت شركته مكاتب في كل أنحاء العالم وفي وسع موظفيه الذهاب إلى أي مكان، وسيتوق أي شخص تقريبًا إلى لقاء ممثلي شركته بسبب ما تحظى به نوعية عمله من شهرة وقوة مالية. وأدرك ما يستجلب ذلك من مخاطر عليه وعلى موظفيه ومستثمريه. لكنه اعتنقه لأنه واجب يحتم عليه خدمة بلاده وحمايتها. وهو ممتن لأن وكالة الاستخبارات المركزية منحته هذه الفرصة في المساهمة. وهذا النمط سأعاينه المرة تلو الأخرى في سنتيْ رئاستي التاليتين للمصادر الوطنية**».

لك أن تخمن من هذه الشركة الأمريكية؟ فلذلك الشركات الأمريكية سوق خصب للتجسس والتعاون الاستخباراتي.

هذا ما بدا لي والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ فبراير ٢٠٢٠م – ٦ جمادىٰ الأخرىٰ ١٤٤١هـ

صائد الجواسيس

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: صائد الجواسيس.**
- **اسم المؤلف: بيتر رايت.**
- **اسم المترجم: عماد القسوس.**
- **عدد الصفحات: ٤٠٤.**
- **دار النشر: دار الشروق للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

قديمًا أثناء متابعتي لمواد الشيخ الفاضل عمر بن محمود أبو قَتادة رأيته غير مرة يمدح ويُثني على هذا الكتاب، فيقول في تغريدة له: «**هناك كتاب لا يفوتك اسمه: (صائد الجواسيس) لبيتر رايت، لتعلم الفرق بيننا وبينهم، ومقدار سذاجتنا في التعامل مع هذه القضايا، وخلافهم لنا في هذا**»[١٢٩].

وبعد قراءتي له أقول: أن هذا الكتاب من أفضل ما قرأت في هذا الباب، وهذا الكتاب يصلح معيارًا لقياس الكتب المعاصرة التي كتبها ضباط متقاعدون؛ فهي منزوعة الدسم، مجردة من كل التفاصيل المهمة إلا ما ندر، أما هذا الكتاب فهو كثير الدسم من أوله إلى آخره.

واستخدم عنوان (صائد الجواسيس) ربما لمسكه بغير جاسوس في الجرم المشهود، وتحقيقه في قضايا الاختراق المضاد، وإسهامه في أكبر قضية اختراق «خماسي كامبريدج»، وغيرهم الكثير ممن مضى على انتهاء عملاتهم عقود وأصبحوا على حافة الموت. تستطيع أن تقول أن الكتاب آرخ صاحبه لعقود من تاريخ الاستخبارات البريطانية الداخلية (IM5) بشكل مفصل ودقيق للغاية. وهذه الدقة

[١٢٩] الفرائد والقلائد .. الجامع لتغريدات الشيخ أبي قتادة الفلسطيني، صـ١٨٨، (تغريدة بتاريخ: ٢٢ من شهر ٣ من عام ٢٠١٦).

والتفصيل لا تعجب الساسة والمسؤولين ولا كذلك كبار رجال الاستخبارات، ومن ذلك منع الكتاب من التداول وأصبح محظورًا وبناءً على قاعدة كل ممنوع مرغوب، ازداد الطلب عليه وزادت مبيعاته إلى مبالغ كبيرة ولعلها كانت تعويضًا له، فهذا الكتاب أشبه بضربة مؤجلة الدفع قد سددها بيتر رايت إلى الحكومة البريطانية؛ لأنها حرمته من راتبه التقاعدي الكامل، بعد أن أُعطي وعدًا شفهيًا بضم سنوات عمله السابقة إلى سنوات عمله في الاستخبارات، ولكن فجأة قبيل التعاقد أصبح هذا الوعد الشفهي عديم القيمة.

وهذا التاريخ تكتشف من خلاله أن أجهزة الاستخبارات لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه حاليًا إلا من خلال عثرات وأخطاء عظيمة أُسيلت بسببها دماء وأُزهقت لأجلها أرواح، وأنها أجهزة اخترقت حتى العظم، وتجد مثلًا أن من التخبطات أن الكثير من الجواسيس دخلوا الاستخبارات ووصلوا إلى مناصب حساسة دون التدقيق في خلفيتهم والبحث في ماضيهم.

وقد أكلت بريطانيا «خازوق محترم» من جهتين:

الأول: من قبل خماسي كامبريدج؛ وهم خماسي كانوا يدرسون في جامعة كامبريدج في الثلاثينات وكانت لهم ميول يسارية، وأصبحوا يعملون لصالح الاتحاد السوفيتي، كان أبرزهم كيم فليبي، الذي عمل في الاستخبارات البريطانية الداخلية (MI5) والخارجية (MI6) ومسك مناصب كبيرة ومن أهمها مركز مكافحة التجسس السوفيتي، فكان الذي يحاول أن يصطاد الخونة هو الخائن.

ثم استطاع فليبي بعد انكشاف أمره الهروب إلى الاتحاد السوفيتي والعيش فيها إلى أن هلك، وله مذكرات مطبوعة ومترجمة بالعربي بعنوان (الحرب الصامتة) من ترجمة عبد الله كحيل. وتكلم ستيفن غراي بشكل موجز عن فليبي وخماسي كامبريدج في فصوله الأولى من كتابه (أسياد الجاسوسية الجدد). ولكن لا شك أن هذا الكتاب يعتبر من المصادر الرئيسية لتناول خلية خماسي كامبريدج وأثرها على الداخل البريطاني.

أما الخازوق الثاني الذي أكله البريطانيين، ولم يتكلم بيتر رايت عنه كثيرًا في كتابه هذا فهو جورج بليك الذي سرّب للروس أمر نفق برلين، والذي وشى بالكثير من الجواسيس البريطانيين داخل الاتحاد السوڤيتي.

أما الأطروحة الكبرى التي قام عليها الكتاب وهي احتمالية أن يكون رئيسMI5 وجر هوليس عميلًا سوڤيتيًا؛ ونشأ هذا الاعتقاد من فشل بعض العمليات بشكل متتابع؛ وكأنَّ أحدهم تدخل ليفشلها، وكما أن هذه العمليات المتنوعة لم يكن ليطلع عليها إلا الرئيس ونائبه، فأصبحا داخل دائرة الشك، فخاض بيتر رايت حربًا ضروسًا لإثبات هذا الزعم.

وكذا في خاتمة الكتاب تكلم عن عمالة رئيس الوزراء البريطاني هارولد ويلسون، وتقاطع السياسة مع الاستخبارات، وكيف أن الاستخبارات حاولت بكل قوتها أن تتدخل في السياسة من أجل إسقاط ويلسون التي ترى خيوط عمالته للاتحاد السوفيتي، والذي بوصوله إلى هذا المنصب سوف يكون هنالك ضرر نفسي، فلذلك ليس صحيح أن المؤسسات الاستخباراتية حيادية تمامًا، وأنها لا تتدخل في شأن السياسة الداخلية.

حسنًا بماذا نجح الاتحاد السوفيتي في اللعبة الاستخباراتية في هذا الكتاب؟ نجح في أنه استطاع أن يزرع دائرة الشك لدى خصومه، وقد استخدم أسلوب (المنشقين) لصالحه، وقد احتاجت الاستخبارات الغربية سنوات إلى أن تتعافى من هذا الأثر المدمر.

فهنالك ستار حديدي وضعه الاتحاد السوڤيتي على نفسه؛ أي جدار من السرية والغموض، فعندما يأتي منشق ذو منصب رفيع سوف تتلقفه وتتلقف ما يقول بالأيدي والأحضان، فانتهج السوڤييت سياسة مزدوجة اقتضت بأن يضحوا بجواسيس لهم من أجل أهداف استراتيجية بعيدة المدى؛ فضحوا بجاسوس من أجل زيادة الشك وعدم الثقة بين الأطرف الغربية المناوئة لهم.

وقد استطاع الاتحاد السوفيتي أن يكون متقدمًا بخطوة على قرنائه الغربيين في جانب الجاسوسية، حتى عندما كان في أضعف حالاته، فقد دحرج رؤس الجواسيس الأمريكان في الثمانينات بسبب العميل إريك إيمز الذي كان يعمل رئيس قسم مكافحة التجسس. ولم تكن بريطانيا في مبادرة الاتحاد السوفيتي، وبسبب النظام الديمقراطي واحتراق حقوق المواطنة، لم تستطع بريطانيا مثلًا استخدام أساليب التعذيب من أجل استخراج المعلومات، ولو رفض المشكوك في أمره التعاون لما استطاعوا أن يفعلوا حياله شيئًا إلا أن ينقلوه من مكان عمله -إن كان في موطن يطلع على أسرار البلاد-، وحتى لو اعترف فلا يستطيعون أن يحصلوا على اعتراف كامل، فقد تجد أن هذا الجاسوس يراوغ ويحمي أصحابه من خلال التضحية بنفسه، ولو تعجل ضباط المخابرات في القبض على الجاسوس قبل الجرم المشهود وحتى ولو عثر معه على أدوات استخباراتية لا يعني هذا الإدانة فقد برأت المحكمة جاسوسًا لأنه لا دليل أنه استخدم هذه الأدوات للتخابر مع جهة أجنبية من أجل الاضرار بمصالح البلاد.

هذا بخلاف الاتحاد السوفيتي، الذي لم يكن يجد نفسه مُلزمًا حيال مواطنه بهذا القدر من الالتزام والمراعاة، فلا مانع من تعذيبهم وسحقهم سواء توفرت الأدلة الكافية أو لم تتوفر، فلذلك أشعر أنه كان متقدم بخطوة على الغربيين في مجال مكافحة التجسس؛ لأن الخيارات لديه أكثر وأكبر مساحةً.

وكانت أغلب قضايا التجنيد والتي يتخذها الاتحاد السوفيتي مدخلًا هو الجانب الإيديلوجي، ففي ظني أي إيديلوجية تنتهج النهج الثوري وتكون خلفها مكينة إعلامية تسويقية إلا وتجتذب الشباب تلقائيًا.

حسنًا، في هذا الكتاب لن ترى أن الواقع البيروقراطي في المؤسسات الغربية واقع مثالي، بل تكتنفه الفوضى والتخبط؛ وأحيانًا يضيع حق أحدهم من الراتب التقاعدي بسبب هذا التخبط، وقد ينقص التمويل لهذه المؤسسات مما يجعل قدراتها محدودة حتى وهي في ذروة الحرب الباردة وفي مقدمة

الجبهة ضد الاتحاد السوفيتي! وقد تحصل الحروب بين الأقسام الاستخباراتية البريطانية وقد تحصل نوع من النزاعات بين الأقسام الداخلية داخل هذه المؤسسات، وسياسة الأقسام قد تتغير جذريًا بتغير الرئيس، فقد تمشي خمس سنوات وفق خطة معينة ويتغير الرئيس ويُلغىٰ المشروع أو تطرأ عليه تعديلات، فليست تلك مؤسسات ديمقراطية مطلقة بل للرئيس فيها صلاحيات تنفيذية مُلزمة. وإن لم تلتزم بهذه التعليمات (كما حصل مع آرثر) فسوف تطرد وإن طردت فقد يضيع حقك في الراتب التقاعدي.

المؤسسات الاستخباراتية أو العسكرية تميل إلىٰ أن يترأسها شخص من داخل المؤسسة، يعرف كيف تدار المؤسسة، بخلاف لو أتىٰ شخص خارجها لا يعرف كيف تدار فقد يُفسد أكثر مما يصلح، فلذلك ترىٰ مثلًا أن الاستخبارات البريطانية الداخلية IM5 عندما حاولت الجهات العليا فرض مرشح من خارج المؤسسة نزلت بكل قوتها سواء عن طريق الوسطاء أو من خلال الاستعداد من أجل العصيان الجماعي. وتجد أن المؤلف لا يألوا جهدًا في إثبات هذا التخبط وتقاطع السياسة والجاسوسية في الكثير من الأحداث، كأحداث قبرص وإيرلندا الشمالية.

علىٰ العموم له نص صريح ومهم إذ يقول: «**تركت قضية قبرص طابعها على السياسة البريطانية بخصوص المستعمرات. فقد تخلت بريطانيا عن مستعمراتها بنجاح أكبر عندما استطعنا أولًا هزيمة التمرد العسكري باستخدام الطرق المخابراتية بدل استخدام قوة السلاح وقبل البدء في التفاوض على حل سياسي مع قيادة حركة التمرد المهزومة ومن ثم من خلال استخدام الجيش البريطاني لتثبيت وضع الحكومة التي يتم تعيينها وهذا ما حدث فعلًا في الملايو وكينيا حيث بقي وضع حكومتيهما مستقرًا بحماية الجيش البريطاني. كانت المشكلة الرئيسية فيما يتعلق بالمستعمرات هي كيف يمكن إخراج السلطة الاستعمارية مع ضمان قدرة الجيوش المحلية على تعبئة الفراغ. وبمعنى آخر كيف يمكن أن تخلق سلطة محلية مستقرة؟ كانت وزارة المستعمرات متمسكة بالنماذج الديمقراطية**

والأكاديمية المعقدة – دستور هنا وبرلمان هناك – والتي كان قليل منها فقط يعمل بنجاح. بعد تجربة قبرص كتبت تقريرًا قدمته لهوليس شرحت فيه أفكاري. فقلت إنه ينبغي علينا أن نتبنى النموذج البلشفي، حيث ظهر أنه الوحيد الذي نجح. لقد فهم لينين أكثر من أي إنسان آخر كيف يسيطر على بلد ما، ومن ثم كيف يحتفظ بهذه السيطرة. بالنسبة له كلا الآمرين نفس المستوى من الأهمية. كان لينين يؤمن بأن على السلطة أن تسيطر على الناس بالبنادق وبجهاز المخابرات، وبهذا تستطيع أن تضمن عدم تحدي الجيش أو آية سلطة أخرى لها». صـ١٧٠.

أنا أتفق كليًا حول النموذج البلشفي؛ وقد أسماه بعضهم بـ«دكتاتورية البروليتاريا»، وهذا مهم لتشكيل النظام السياسي، فالنُّظُم الإسلامية مثلًا لن تُقام بتوافق كلي خصوصًا مع الأطراف العلمانية بكافة مللها ونحلها، فحينئذ لا بُدَّ أن يُفرض هذا النظام فرضًا بالقوة، ولا يكون هناك رأسين محتكمين في بلدٍ واحد، وبعد استقرار هذا النظام يتدرج في الإصلاح، إذ لا يمكن أن يصلح وهناك من له المجال لأن يهدم.

وركّز هذا الكتاب بشدة حول الأساليب التقنية الموجودة في الخمسينيات والستينيات في التجسس، ولفت انتباهي أن الحاسوب كان متاحًا في تلك الحقبة، رغم أني كنت أظن أنه لم يُتح إلا في الثمانينات. ويبدو أنه أصبح متاحًا للعامة في ذلك الوقت وإلا فالمؤسسات قد تستخدمة قبل ذلك الوقت بعقود.

وتكلم باستفاضة عن اختراقه للسفارة المصرية في بريطانيا، على إثر ما يسمى بأحداث قناة السويس، فبعدما عرفوا أن نظام التشفير المستخدم من قِبَل المصرين هو هاجلين وضعوا خطة من أجل كسر هذه الشفرة، بزر أجهزة تنصت في الغرفة التابعة للسفارة المصرية في لندن، فكانت الطريقة المفضلة لزرع الأجهزة هو في تعطيل هواتف السفارات، فتقوم تلك السفارات بتبليغ مكتب البريد، والذي يقوم بدورة بإرسال المصلحين والذين هم في الأصل جواسيس، فكان بيتر رايت قد دخل السفارة

المصرية على أنه مهندس سوف يُصلح الخلل، يقول بيتر: «**فقد مكنتنا هذه العملية المشتركة بين IM5 وقيادة الاتصالات الحكومية من قراءة الشفرة المصرية في لندن أثناء أزمة السويس. وكان المصريون يستخدمون في مختلف سفاراتهم في العالم أربعة مفاتيح شيفرة، تم حلها جميعًا [...] كانت أهم معلومة استطعنا الحصول عليها من حل الشيفرة هي المتابعة المستمرة للمباحثات المصرية السوفياتية في موسكو، والتي كان يتم إعادة بث تفاصيلها إلى القاهرة عبر السفارة المصرية في لندن مباشرة من السفير المصري في موسكو. أقنعت المعلومات التي تبث عبر هذه القناة لجنة الاستخبارات المشتركة بأن السوفيات جادّون تمامًا في تهديدهم بالدخول في أزمة السويس إلى جانب المصريين. كانت إحدى الرسائل متميزة في تأثيرها. فقد وردت فيها تفاصيل اجتماع بين وزير الخارجية السوفياتي والسفير المصري حيث أكد الروس نواياهم بحشد الطائرات للتحضير لمواجهة مع بريطانيا. وقد أدت محتويات هذه البرقية التي سلمت فورًا إلى اللجنة الاستخباراتية المشتركة إلى إجبار إيدن على الانسحاب. أما الآثر الثاني لهذه البرقية فقد كان على الأمريكيين إذ كانت قيادة الاتصالات الحكومية تطلع شريكتها الأمريكية -جهاز الأمن القومي- على المعلومات التي لديها. وأنا واثق من أن هذه المعلومات لعبت دورًا أساسيًا في الضغط الأمريكي على بريطانيا لإنهاء الأزمة**». صـ٩٤-٩٥.

ثم ذكر أن هذا يمثابة انجاز للاستخبارات الداخلية البريطانية ثم عرض بالـIM6 وأنهم لم يقوموا إلا بعملية خرقاء لاغتيال عبد الناصر، ثم شرحها في موضع متقدم فقال: «**في بداية أزمة السويس قامت IM6 بوضع خطة لاغتيال جمال عبد الناصر باستخدام غاز أعصاب. وقد وافق إيدن في البداية على العملية، ولكنه ألغاها فيما بعد عندما حصل على موافقة فرنسا وإسرائيل للقيام بعمل عسكري مشترك. وعندما فشل هذا العمل وأجبر على الانسحاب عاد إلى خيار الاغتيال مرة ثانية. وفي هذا الوقت كان جميع عملاء IM6 في مصر قد سيطر عليهم جمال عبد الناصر. فقاموا بتخطيط عملية أخرى تعتمد على الضباط المصريين المرتدين عن جمال عبد الناصر، ولكنها فشلت فشلًا**

ذريعًا. ويعود فشلها بشكل أساسي إلى أن المخبأ الذي وضعت فيه الأسلحة في إحدى ضواحي القاهرة كان معطوبًا». صـ١٧٢.

عمومًا تكرر اختراق النظام المصري في حروب مصر المصيرية، فمثلًا أستطاع أحد ضباط وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية الحصول على على كل خطط مصر وسورية العسكرية لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ والتي تذكر بالتفصيل ترتيب القتال وموضع كل وحدة كما ذكر ذلك ستيف غراي في كتابه (أسياد الجاسوسية الجدد، صـ٧٩).

عمومًا الكتاب فيه الكثير من التفاصيل، وأظن أنها مدخل مهم لمجال الاستخبارات في الحقبة الباردة، ولكن يعيب الكتاب كثرة ذكر الأسماء، بشكل تحتاج معه إلى ورقة خارجية لتعريف كل اسم وما دوره؛ فالمؤلف كما هو واضح وجه الخطاب إلى الداخل البريطاني وربما لم يكن مهتمًا بمن هم خارجها، فمن هم في الداخل في تلك الحقبة يعرفون تلك الأسماء ودورها في الحياة العامة، فلذلك ربما لم يكن مهتمًا في شرح أبعاد كل اسم يذكره، وهذا قد يُشتت القارئ الذي من خارج بريطانيا أو لم يعش تلك الحقبة ويعرف شخصياتها.

وهذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ مارس ٢٠٢٠م - ٧ رجب ١٤٤١هـ

الحرب الصامتة: مذكرات كيم فليبي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الحرب الصامتة: مذكرات كيم فليبي.**
- **اسم المؤلف: كيم فليبي.**
- **اسم المترجم: عبد الله كحيل.**
- **عدد الصفحات: ١٩١.**
- **دار النشر: دار المطبوعات الشرقية.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتاب (الحرب الصامتة: مذكرات كيم فليبي) كتاب مخيب للأمل، هذا الشخص عمل جاسوسًا لمدة ٣٠ سنة تقريبًا ومذكراته تقع في ١٩٠ صفحة فقط. وهذا يعني أنه لم يذكر التفاصيل بل مجرد مرور سريع بنقاط رئيسية:

مثلًا آخر فترة من حياته الجاسوسية كانت في بيروت، فيذكر أن هذه الفترة لن يتكلم عنها؛ لأن مثل ما الوثائق البريطانية لا يرفع عنها السرية إلا بعد ٥٠ سنة فمن باب أوّلى أن لا يتكلم عن أحداث مضى عليها ١٢ سنة فقط.

كيم فليبي هو ابن هاري جون فليبي الذي «اعتنق الإسلام» بعدها وأصبح اسمه عبد الله فليبي واستقر بالسعودية.

هذا الرجل -كيم فليبي- لما دخل جامعة كمبيردج كان يساريًا ولكن - كما يقول في مذكراته - بعد فشل حكومة العمال وسقوطها في بريطانيا، تعمّق أكثر في قراءة أمّات اليسار الأوروبي، ومع كثرة النقاشات وحِدّتها تحول إلى الشيوعية واعتنقها عن قناعة كاملة وبعد تخرجه نذر نفسه لأن يخدم هذه

القضية بكل ما يملك، ثم جُنِّد هو وأربعه من أصحابه كانوا في نفس الجامعة ويحملون نفس التوجه، عرفوًا لاحقًا في تاريخ الاستخبارات بـ«خماسي كمبيردج». وكانوا هؤلاء يعملون مع الاتحاد السوڤيتي. شائت الأقدار أن يعمل أثناء الحرب العالمية الثانية مع المخابرات البريطانية الخارجية (SIS أو IM6) وتدرج في المناصب إلى أن مسك منصب مكافحة التجسس في القسم الشيوعي، وتنقّل في المناصب إلى أن ضيِّق الخناق عليه وتراكمت المعلومات (عفوًا: نفت المعلومات هنا وهناك وتظافرت الشهادات أنه جاسوس سوڤيتي) فهرب إلى الاتحاد السوڤيتي معلنًا على هويته الحقيقة في كتابه: أنه ضابط في الاستخبارات السوڤيتية فكان هذا الرجل الذي اطلع على أخص خصوصيات الاستخبارات البريطانية والأمريكية في وقت لاحق (لما انتدب للعمل هناك) جاسوسًا سوڤيتيًا!

في الكتاب لم يذكر أي معلومة قد مررها إلى الاتحاد السوفيتي، ولم يناقش القضايا عن قناعة أيديولوجية بل كان مجرد راوٍ (تعوزه الكثير من التفاصيل)، ولا شك أن رجال الاتحاد السوڤيتي كان لهم دور في مراجعة الكتاب وغربلته وحذف الكثير من تفاصيله.

مثلًا تكلم عن طرق عمل الاستخبارات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، وتقسيمات العمل داخلها وكيف تطورت مع وبعد الحرب، وتكلم عن انتدابه للعمل في تركيا، وكيف كانت نظرة الدول الغربية لتركيا في خضم الحرب الباردة وتقييمه للمخابرات التركية ودورها، والعمليات التي كانت تقم من خلالها إلى الاتحاد السوڤيتي، ثم كيف ضاق الخناق عليه بعد هروب أصحابه إلى الاتحاد السوفيتي إلى أن لحقهم هناك.

فهو يقول في المقدمة أن ما أخّر نشر الكتاب هو استشارته لبعض الأصدقاء، ولا شك أن هؤلاء الأصدقاء ليسوا سعيدين إن تكلم بالتفصيل عن عملياتهم داخل الغرب مما قد ينبه الغرب أو يكشف تفاصيل تقود إلى خيوط جديدة.

تستطيع من خلال الكتاب دراسة سيكيلوجية (نفسية) العميل المزدوج، الذي ينسىٰ نفسه أحيانًا ويتماهىٰ في الكلام مع جهاز عدوه ويتكلم وكأنه شخص منهم ويدافع عنهم، وينسىٰ أنه في الحقيقة لم يوجد في هذا المكان إلا لهدم هذا الجهاز ونقضه.

وفيه معلومات مفيدة جدًا عن واقع الحرب العالمية الثانية وعملها الاستخباراتي؛ وعن تقاطع السياسة مع الاستخبارات (يعني آثر الثانية علىٰ الأولىٰ).

ولا أزعم أن الكتاب لا قيمة له بل كان مخيبًا للآمال، فقد كنت أتوقع تفاصيل غزيرة كالتي أوردها بيتر رايت في كتابه (صائد الجواسيس)، ولكنه كان رؤوس أقلام.

مما لفت انتباهي في الكتاب مقولته: «**ففي الشرق الأوسط وبناءً على تجربتي يُعتبر الصحافيون جواسيس، وهذا صحيح على وجه العموم**». (صـ٥٢).

١٩ مارس ٢٠٢٠م – ٢٥ رجب ١٤٤١هـ

حتى لا يعود جهيمان

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: حتى لا يعود جهيمان: حفريات أيديولوجية وملاحق وثائقية نادرة.**
- **اسم المؤلف: توماس هيغامر وستيفن لاكروا.**
- **اسم المترجم: حمد العيسى.**
- **عدد الصفحات: ٥٢٩.**
- **دار النشر: دار مدارك للنشر.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من قراءة كتاب (حتى لا يعود جهيمان) هو في الأصل كتاب مشترك ما بين ستيفان لا كروا (صاحب كتاب: زمن الصحوة) وتوماس هيغهامر (صاحب كتاب: قصة الجهاد في السعودية) فحددوا جهدهم لدراسة تيار أو فئة كانت على ضفاف دراستهم فلا هم إلى الجهاديين ولا إلى الصحويين وهم جماعة جهيمان.

أتى حمد العيسى وترجم الكتاب وأضاف إليه الكثير بل غيّر اسمه حتى، فكان اسمه (تمرد مكة: قراءة جديدة لقصة جهيمان العتيبي) فوقع في أول أخطاء الباحث وهو عدم الحيادية فقال (حتى لا يعود جهيمان)، فتخيل أن ستيفان لاكروا وتوماس هيهغامر في الأصل يعملان في وزارات الدفاع أو في الوزارات الأمنية مستشارين، أي أنهم في الخط الأول في محاربة الإسلاميين، ومع ذلك بالكاد تجد لهم تحيّزًا واضحًا في أبحاثهم ضد من يكتبون عنهم.

وعدم حيادية الباحث – الظاهرية – لم تقتصر على العنوان فتجده في أبهى حلة داخل الكتاب في غير ما موضع؛ ولعل سبب ذلك أن الباحث العربي لا يشعر بالأمان، وهذا ما اضطر حمد العيسى أن

يكتب تنبيهًا في مقدمة الكتاب، يقول فيه: «**من لزوم ما لا يلزم إلا في بلاد العرب عامة والسعودية تحديدًا هو أن نشير إلى حقيق بديهية وهي أن ترجمة هذه المادة وغيرها لا تعني بالضرورة الاتفاق مع محتوياتها من مصطلحات وأوصاف وتحليلات واستنتاجات وآراء ومقترحات... وباختصار فإن دور المترجم هنا هو فقط نقل المعرفة من اللغة الإنجليزية إلى العربية**»، والسبب كما يبدو أن الحكومات إذا ترجمت عن من عارضها دون أن تذمه فقد يُفهم أنك مؤيد له، وهذا ما يجد بعض الباحثين العرب يكثرون النقد بغير موجب في ترجماتهم أو في أبحاثهم ليبرّؤوا ذمتهم ولكي لا يُساء فهمهم!

المهم أن حمد العيسى أضاف فصلين وهما لـجوزيف كيشيشيان ورينية فان ديمن، الفصول الأولى عمومًا، تدرس حالة الحركة من جهة موضوعية نوعًا ما، فمن خلال العمل الميداني استطاع هؤلاء الباحثين أن ينقلوا شهادات من كانوا في جماعة جهيمان ليحلوا الأحجية ويسدوا الفراغات «**وإن كنت أظن أن شهادة الحزيمي في كتابه: (أيام مع جهيمان) قد سدت الكثير**».

في الفصل الأول (التمرد المكي) ذكرا المؤلفين قصة تشكل ما يسمى بالجماعة السلفية المحتسبة وتوجهاتهم ومصادماتهم، وبعض أفعالهم هي انعكاس لازم لتوجهاتهم، فمثلًا تكسير الصور يدل على تحريميهم للصور وهكذا، فقد بدأت هذه الجماعة برعاية من المشايخ الرسمين إلى أن حصلت المصادمة بين الشباب والمشايخ مما أدى هذا إلى الانشقاق في سنة ١٩٧٧ أي: قبل سنتين من حادثة الحرم وتكون جماعة لا تخضع لتوجهات المشايخ الرسميين. فالخلاصة أن هذه الجماعة لم تكن بدايتها كنهايتها، بل تطورت مع الوقت وهذه التطورات والقفزات أحدث انشقاقات فيها؛ وآخرها تبني المهدوية فقد انشق عنهم من كان يؤمن بأفكارهم بالجملة ثم فارقهم لهذا الموضوع وهذا في الأغلب الأعم، وهذا لا يعني أن كل من واصل معهم مع النهاية مؤمن بهذه الفكرة، فقد حكى الحزيمي أن فيصل قد دخل مع جهيمان في حادثة الحرم من باب النخوة فقط.

ثم تكلم المؤلفان عن إرث جهيمان فقالا: «**الشخص الأكثر أهمية من خلفاء جهيمان فكريًا هو أبو محمد المقدسي... كتابات المقدسي كانت متأثرة بشدة بأيديولوجية جهيمان... ولكن المقدسي كان أكثر راديكالية وتطرفًا من جهيمان في العديد من القضايا... أبو محمد المقدسي لم يبق مع الجماعة السلفية المحتسبة لمدة طويلة لأنه كان يجادلهم حول قضية التكفير**». وأظن أن هذا القول فيه مبالغة وعدم دقة في ضبط الألفاظ؛ فالمقدسي يختلف منهجيًا مع جهيمان في قضايا التكفير وما يتفرّع عنها؛ كما أنه لم يكن قياديًا في جماعة جهيمان، فكيف يكون أبرز خلفائه؟ وهو لفظ يليق بمن مشى على منهج جهيمان حذو القِذّة بالقِذّة وكان قياديًا بارزًا في الجماعة، فهذه صفات من يليق أن يكون خليفة لجهيمان، فـ«الخليفة الفكري» لا يخالف من يَخلفه في قضايا جوهرية، تتعلق بالأسماء والأحكام (كقضايا التكفير وما يتفرّع عنها)، والمؤلفان قد كتبا كتابهما في عام ٢٠٠٦ أي أثناء كتابتهم لرسالة الدكتوراه وقبل صدور سلسلة (ولكن كونوا ربانيين) في سنة ٢٠٠٩ وهي سيرة ذاتية للمقدسي ذكر فيها محطاته التاريخية، ومن بينها الانضمام إلى جماعة جهيمان في الكويت. وترى أنه تبنّى الأفكار التي هو عليها ليس قبل أن يدخل الجهاد الأفغاني ويحتك مع الجهاديين؛ بل من خلال مطالعات شخصية، أدت في النهاية إلى ترك جماعة جهيمان - فرع الكويت -، والمقدسي من خلال هذه السلسلة أظهر أن تأثره بالدعوة النجدية كان أكثر من جماعة جهيمان في قضايا مثل الجيوش والبرلمانات والحكام والجهاد، وأظن أن الخلفاء الحقيقين لجماعة جهيمان هم إخوان بُريدة، أصحاب بيت شبرا؛ وقد تكلما المؤلفان عنهم واستطردا. ويصح القول أن التأثر في جماعة جهيمان - دون المهداوية - بدايةً قد يؤدي إلى سلوك المنهج الجهادي في النهاية، وهذا قول معقول. مع ضرورة التفريق بين التوجهين.

ثم وضع المحرر هامش وشكك في نسب المقدسي، أي يَدعي المقدسي أنه من من الروقة في عتيبة، فقال: «**وهذه المرونة في تغيّر الاسم قد تدعوا لوضع علامة استفهام في نسبته لعتيبة**». وهذه ليست حُجّة، ولو اطّردنا بها، لشككنا في نسب كل شخص قد غيّر اسمه.

ثم أتى دور المَلاحق وهي جهود مكمّلة لهذه الأبحاث، فكان الملحق الأول هو نقل للرواية الرسمية وهي مقابلات مطولة مع ولي العهد آنذاك فهد آل سعود ووزير الداخلية نايف آل سعود، وهي مقابلات مهمة، ولكن يبدو أن المحرر وقع في خطأ فني، وهو عدم الاقتصار على الشاهد، فمثلًا مقابلة ولي العهد فهد حوت مواضيع متعددة فضلًا أنها مطولة جدًا (المقابلات الثلاثة جاوزت المئة صفحة) فكان ولي العهد يتكلم عن القضية الفلسطينية وتطبيع مصر والسادات مع إسرائيل وأسعار النفط ...إلخ، كل هذا لا يحتاجه القارئ في موضوع الكتاب.، فكان أولى من المؤلف أن يحصر المقابلة على الشاهد المطلوب (الكلام عن جهيمان) ويزيل البقية، حتى لا يُعتبر أن هذا حشوًا.

ولكن لفت انتباهي كلام وزير الداخلية نايف بن عبد العزيز آل سعود حول نسب المهدي المزعوم فقال: «**محمد بن عبد الله هذا ليس قرشيًّا، بل هو من أصل تركي حتى إن الناس يطلقون على أسرته لقب التركي حتى يومنا هذا، وهو قحطاني بالحِلف لأن أجداده ساكنوا قحطان في بلدة واحدة اسمها أحد-رفيدة قرب خميس مشيط في الجنوب؛ ولأنهم انزعجوا من لقبه التركي؛ فقد أعطوه صفة أو اسم القحطاني نسبة إلى القبيلة التي عاشوا في كنفها**».

ثم أفرد ملحقًا بعد هذه الشهادة الرسمية وهي (قصيدة منسوبة لجهيمان) ولكن المحرر عرضها مجردة هكذا، ولم يُبِن عن مصدره ومن قال أنها لجهيمان، أي لم يعطِ القارئ ولا المستقصي خيطًا يقوده إلى التوثّق من هذا الكلام. الفصل الذي يليه وهو كلام من تكلم سابقًا عن جهيمان في الكتاب الغربيين، وجاءت شهادات بعضهم قصيرة أي أن المؤلف وضع بيت الشاهد من فقرة وردت في كتب هؤلاء الغربيين، ولم يترجم فصولًا بأكملها.

أوردت شهادة الباحثة الأمريكية ساندرا ماكي التي قالت في كتابها عن السعودية: «**بعد شهرين من إنهاء التمرد، قال لي الشيخ عبد العزيز التويجري، نائب رئيس الحرس الوطني المساعد، إن الأسلحة**

التي استعملتها جماعة جهيمان جاءت مباشرة من مخازن الحرس الوطني، وانتقلت في قوافل من شاحنات الحرس الوطني».

أما شهادة الباحث الأمريكي تروفيموف في كتابه (حصار مكة) فقد أكد على هذا المصدر السابق، ونقل مواضيع متعددة من كتاب تروفيموف المذكور، منها (مقتل أمريكان سود في صفوف جماعة جهيمان) و(دور ابن باز) والملفت حسب شهادة تروفيموف أن جماعة جهيمان أرسلت مبعوثًا إلى ابن باز من أجل موضوع المهدي، ومع ذلك (اختار ابن باز أن لا يبلغ السلطات عن هذه المحادثة المقلقة)، والملفت أكثر هو كلام تروفيموف عن دور الضباط القوة الخاصة الذين قدموا من فرنسا إلى السعودية من أجل المساهمة في إنهاء الحصار، يذكر تروفيموف: «**أقامت الفرقة في الطائف وقام ضباط سعوديون باستخدام خرائط الحرم لشرح الأزمة [...] اقترح الكابتون بول باريل أن يشرف على تنفيذ العملية بنفسه لأن قصر الإليزيه أكد عليه بضرورة نجاح المهمة مهما كانت الظروف. وبعد مناقشة مع الضباط السعوديين، أعلن عن استعداده لاعتناق الإسلام حتى يدخل مكة، ولكن لم يُسمح له بذلك، وبقي في الطائف مع زميله**». لا شك أن هذا الكلام يتناقض مع شهاداتهما في وثائقي قناة الجزيرة (ما خُفيَ أعظم) والذي ذكرا فيه دخولهم إلى الحرم نفسه.

مع العلم أن الباحث الأمريكي تروفيموف كما يقول المحرر: «**حصل على ڤيزا لدخول السعودية من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض لتنفيذ هذه الدراسة، وسمح له بمقابلة العديد من الشهود على حادثة الحرم المكي ليكتب القصة شبه الكاملة في كتابه المذكور**»، والأبحاث الأنثروبولوجية في السعودية والتي تحتاج إلى تقصي وبحث ومقابلات لا تتم إلا من خلال موافقة الحكومة السعودية، ويبدو أن حظ الأجانب أفضل من حظ العرب أو السعوديين نفسهم، كما اشتكى من ذلك المحرر في موضع آخر من الكتاب، فيقول بعدما ذكر أسماء الباحثين الغربيين الذين درسوا حادثة الحرم وأنهم: «**حصلوا على تسهيلات من حيث مقابلة الشهود**

ومراجعة الأرشيفات وغيرها من أمور، نلاحظ أنهم للأسف أجانب وصغار السن. وهذا أمر يدعو للاستغراب لأن الوطن مليء بالكفاءات التي تستتطيع تنفيذ مثل هذا البحث بسهولة لو حصلوا على الفرصة نفسها وهم في رأيي أولى بل أقدر من هؤلاء الأجانب».

زد إلىٰ ذلك أن الباحث عندما يتناول مواضيع شائكة لا بُدَّ أن يبرهن علىٰ عدم حياديته في كل مرة تتاح له، ولا بُدَّ يدرج تعليقاته علىٰ متن الكتاب، باللعن والتشكيك والتقريع لخصوم الحكومة، وهذا تجده في هذا الكتاب، وفي الطبعة الأخيرة سوف تجد أنه وضح توضيحًا – يبدو أنه اضطر إليه – أن نقل هذا المحتوىٰ لا يعني تأييده والموافقة عليه.

فلذلك الباحث العربي العامل تحت ظل الأزمة يعيش في ظروف بائسة تجعل بحثه غير نزيه ولا حيادي ومنحاز بتكلّف.

أما الملحق الأهم هو برقيات السفارة الأمريكية، وهي برقيات مهمة جدًا؛ تعطيك بالتفصيل سير الأحداث وماذا حصل اليوم وما الذي تغير عن أمس، والملفت للانتباه أن الوثائق تنص علىٰ وجود طيار أمريكي يحلق بشكل منتظم فوق الحرم المكي وبشكل شبه يومي فيعطهم تحديث للوقائع ومدىٰ الأضرار، وكانت هذه الرسائل في غالبيتها من السفارة الأمريكية في جدة إلىٰ وزارة الخارجية وأحيانًا العكس، وهذه الوثائق تعطيك إجابة نموذجية لتساؤل قد يطرأ في ذهن القارئ والذي يقيم أحداث الأمس بعين اليوم، لماذا لم يفعل كذا في هذا الظرف؟ ولماذا حصل كذا؟ الحقيقة أن ما كان واضح لنا اليوم لم يكن كذلك عند وقوع الحدث، وكَثُرَت الشائعات وكَثُرَت الاحتمالات فالكثير من الأمور التي وجب الأخذ بها لم يؤخذ بها؛ لأن الرؤية غير واضحة. ومصدر هذه البرقيات يكون جهدًا ذاتيًا قامت به القنصلية أو وزراء أو أفراد من العائلة الحاكمة أو المرتبطين بهم.

من الملفت ما جاء في الوثائق الأمريكية أن صحيفة القبس الكويتية في وسط حومة حصار الحرم نسبت تصريحًا للخارجية الأمريكية، فعلقت السفارة على هذا: «**في هذا الوقت لا ننوي أن نرفع من قدر صحيفة القبس بإعلان النفي من هنا**».

أحيانًا بعض الجهات تقتات لتحصل على رد منك عليها والرد عليها هو إعلاء من شأنها، فالتجاهل والنفي بطرق غير مباشرة أفضل وسيلة. هذا مما يستفاد من حادثة السفارة الأمريكية والصحيفة الكويتية.

وفي الصحافة أيضًا يحكي السفير الأمريكي آثرتون أنه التقى بنائب الرئيس المصري آنذاك حسني مبارك وقال له هذا الأخير أنه علم بأن صحيفة الأهرام كانت تخطط ليكون عنوانها الرئيس عن الاضطرابات في خمس مدن سعودية ولكنه منع تلك الخطة. وهذا غيض من فيض في الدلالة على عدم استقلالية الصحافة في بلادنا، وقارن بما ذكره جورج بوش في مذكراته: قرارت مصيرية (صـ٢٣٨) لما قال: «**درست التايمز إمكانية نشر قصة تفضح برنامج مكافحة الإرهابيين. طلبت من ناشر الصحيفة آثر سولزبيرغر ومحررها بيل كيلر المجيء لمقابلتي في ٢٠٠٥/ ١٢/ ٥، كان طلبًا نادرًا، وأنا قدّرت استعدادهما للتحدث وجهًا، وجلسنا قرب موقد تدفئة تحت صورة لجورج واشنطن. قلت لهما إن الأُمّة لا تزال في خطر وإن صحيفتهما على وشك زيادة هذا الخطر من خلال الكشف عن برامج مكافحة الإرهابيين بطريقة يمكن أن تنبه أعداءنا ثم أذنت للجنرال هايدن أن يطلعهما على البرنامج. نظرت إلى سولزبيرغر وحثثته بقوة على حجب القصة لأسباب تتعلق بالأمن القومي، فقال إنه سيدرس طلبي. بعد عشر أيام اتصل بيل كيلر بستيف ليقول إن التايمز ستنشر القصة. فقد نشروا القصة على موقعهم على الإنترنت قبل اتصال كلير**».

وفي هذه الوثائق أسماء الدول العربية التي عرضت الدعم للحكومة السعودية مثل الأردن والمغرب ودول الخليج، وموقف مصر والتي آنذاك كانت على خلاف مع الدول العربية على إثر اتفاقية كامب ديفيد.

وختم المؤلف كتابه بعرض بعض المعلقين عليه في بعض المواقع والصحف.

ومن أراد أن يشتري كتابه فليتريث لأنه قال في آخر صفحة من الكتاب: «**ترقبوا في الطبعة الخامسة الإضافات التالية: حوارات ووثائقيات مهمة مع الأمراء عبد الله وسلطان ونايف، ومع وزير الإعلام محمد عبده يماني**».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ أبريل ٢٠٢٠م – ٨ شعبان ١٤٤١هـ

سابغات

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: سابغات: كيف نتعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة.**
- **اسم المؤلف: أحمد بن يوسف السيد.**
- **عدد الصفحات: ١٧٦.**
- **دار النشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت كتاب (سابغات) لأحمد السيد قبل فترة وهو كتاب لطيف خفيف جدًا تنتهي منه في جلستين، إذ كان مقصد مؤلفه الاختصار وذكر رؤوس النقاط والإيجاز في الطرح. وقدم لهذا الكتاب جملة من الأشخاص، على رأسهم والد المؤلف يوسف حامد السيد والدكتور علي العمري والشيخ عبدالله العجيري وعبد الرحمن شاهين وعبد الكريم الدخين.

ويمتاز الكتاب بحسن الهندسة في الفهارس، فالشيخ أحمد السيد يحسن فهرسة كتبه، وهذا يجعل الكتب أكثر ترتيبًا ولا تتداخل المواضيع بشكل يشوش على القارئ، وهذا الأسلوب أظن انتهجه في كل كتبه، فقد رأيت الترتيب والترقيم في النقاط في كتاب آخر له بعنوان (تثبيت حجية السنة). وكانت الطبعة الأولى من الكتاب في سنة ٢٠١٥، وقد يكون آنذاك كلام السيد لم يكن ظاهرًا أثره بشكل واضح، ولكن لا بُدَّ أن تستحضر تاريخ الطبعة الأولى وأنت تقرأ الكتاب، لترى أن الكثير من الظواهر التي كانت محدودة أصبحت شائعة جدًا، وأن أحمد السيد قد تبصّر بها، فآنذاك لم تكن النسوية مثلًا وما تحتويه من أطروحات قد برزت على السطح بهذا الشكل التي صيرها من مجرد حركة محدودة إلى شيء أشبه بالظاهرة.

تكمن أهمية هذا الكتاب في تصويره الشبهات الفكرية التي غزت جيل المراهقين والشباب وأدت إلى إلحاد بعضهم أو حتى طعنه في ثوابت هذا الدين. والجيل المراهق الحالي جيل لم ينشأ على غرار الأجيال التي قبله والتي زرعت فيه بعض القيم الإسلامية فشكّلت له هوية مبدئية، بل نشأ في ظل حومة العولمة، وتداخل الثقافات، وفي ظل تراجع دور المؤسسات الإسلامية في بلادنا بل وانكماشها تدريجيًا عن حياة المجتمع وتأثيرها على الفرد. فكان الكثير من أبناء هذا الجيل كالورقة البيضاء التي أول ما رسم فيها هي إفرازات العولمة، لذلك كان كثير التأثّر بما يراه من أفلام ومسلسلات مثلًا، مسقطًا ما فيها من قيم وثقافة على نفسه وجعلها معيار يقيم بها المجتمع دون أن يكون له معيار مستقل يقيم ما في هذه الأفلام بناءً عليه؛ يقول أحمد السيد: «**إن الأفلام والروايات من وسائل تمرير القيم الغربية بطريقة غير مباشرة إلى مجتمعنا، وليس هذا مؤثرًا قويًّا وحده ما لم يكن مصحوبًا بانهزامٍ حضاري داخل نفس المُسلِم**». (صـ٢٧).

وهذا النص جسّده ابن خلدون بالمقولة الشهيرة التي ذكرها في المقدمة: «**أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده**». رغم أن هذه ليست بإطلاقها كما يقول ابن خلدون بوصفة «أبدًا» بل «غالبًا» لأن ثمة هناك أُناس رفضوا الاقتداء بالغالب في الكثير من أموره رغم أنه ممن المغلوبين. والذي يضبط ذلك هو وجود مرجعية تقيه من هذا السقوط في وحل التبعية.

على العموم استدل أحمد السيد بشيء من هذا في كتابه لترسيخ قيمة النموذج المهيمن وتأثيره في المُهَيمَن عليه، واستدل بكلام المستشرقة الألمانية زيغريدهونكه من كتابها (الله ليس كذلك)، وقد ترجم كذلك بعنوان آخر وهو (الله ليس كما يزعم الغرب) وهذه المستشرقة أيضًا لها كتاب آخر شهير اسمه (شمس العرب تسطع على الغرب) وأظنها من المستشرقين القلة الذين أنصفوا الحضارة

الإسلامية ولم يكن من وراء استشراقهم أي مقصد خبيث، ولا أظن أنها من الزمرة التي شرّحها الأستاذ محمود شاكر في كتابه (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا).

وعودة إلى موضوعنا: إذا قلنا أن الجيل المراهق الحالي الكثير من أفراده لم يكن لديه قواعد شرعية يُقيم بعض المفاهيم والمضامين بناءً عليها، أي كان كالورقة البيضاء، فيأتي دور بعض المؤسسات الإعلامية مثل Netflix في تمرير بعض المفاهيم بشكل غير مباشر أو مباشر وجعل هؤلاء المراهقين يتبنونها، فالمثل الدارج يقول: «كثرة المِساس تُذهب الإحساس»، فإذا كان البعض يحس ويُنكر ولكن مع كثرة المشاهدة سوف يذهب إحساسه ويستسيغ الأمر، فكيف بمن لا يملك خاصية الإحساس أصلًا.

وللأستاذ ماهر أمير مقال بعنوان (الحلاوة الضارة) في بيان أثر شركة Netflix السيء على المتابع المسلم، فتجد أن هذه الشركة لها أثر يتمثل في نمط البث الليبرالي للقضايا الاجتماعية، المخالف للنمط المحافظ في الغرب، فتراها مثلًا تتبنى الشذوذ وتحاول أن تحشره في أفلامها ومسلسلاتها حتى لو كان هذا الفيلم أو المسلسل المقتبس من أحداث حقيقة مثلًا لا توجد فيه أي جانب للشذوذ مثل When They See Us أو طرح قضايا الإجهاض أو التسويغ للعلاقات المفتوحة داخل الأسرة مما يقوّض هذه المؤسسة ويجعلها مؤسسة شكلية أو غيرها من الأمور التي تميز النمطين عن بعضهما البعض.

الشاهد أن رفضي لهذه المضامين وهذه الأطروحات نابعٌ من وجود مرجعية أُنشئت عليها وهي الحكم لدي على كل ما يمر علي، فمن خلالها أقول هذا صح وهذا خطأ. ولكن الجيل الناشئ حُرِمَ من التأسس على هذه المرجعية ونشأ في وقت أصبحت فيه الأمور نسبية - كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري - وكانت هذه المضامين أول ما تشربها؛ فأصبحت هي معيار الحكم لا أن معيار الحكم شيء خارجي يقيمها بل أصبحت هي المقيمة.

وبما أن هذه المعايير والمفاهيم المقتبسة من هذه الأفلام والمسلسلات تدعو إلى فتح باب الشهوات فتحًا مُشرعًا، فإن النشء ممن تأثر بها يرون حرجًا من تكاليف الدين التي تضبط هذه الشهوات وتقيدها. ومع ضعف التأسيس الديني وقوة الشهوة، تجعل الناشئ منهم يرى أن الدين مجرد قيود وأن التحرر لا يتم إلا بالخلاص منه.

كما أن هذه الأفلام تُرسّخ التبعية والانهزام الحضاري بذكر جانب من جوانب الحقيقة دون كلها؛ مثلًا تصوّر واقع المرأة في المجتمع الغربي، فمن المعلوم أن كل شخص يُنكر واقعه وما فيه من أخطاء قد يظن أن المجتمعات الأخرى أحسن حالًا وذلك باستحضار نموذج أو نموذجين وتعميمعها على المشهد كله، فمثلًا الصورة في المسلسلات والأفلام شيء والواقع شيء آخر، وقد وجدت في نفسي هذا التناقض عندما كنت أكتب مقالات بالإنجليزية بمساعدة أحد الأحبة حول قضايا مثل العنصرية وتاريخ العبودية ونحو ذلك، فأتتني الإضافات على الفيس بوك من كل حَدَب وصَوب من الغربيين سواء كانوا مسلمين أو غير ذلك، فأتاح لي هذا فرصة للاطلاع على بعض ما يكتبونه من بثهم لمشاكلهم الخاصة، والتي قد لا تختلف عن مشاكل التعنيف الموجودة في مجتمعنا أو غيرها من الأمور.

ومع ذلك هناك حواجز تحول دون تفسير ذلك بشكل منطقي عن هذه المعضلة، فهناك صورة نمطية في الإعلام ومؤسسات وناشطات حقوقيات لدعم المرأة في الغرب وهم انتقلوا إلى مرحلة التبشير إلى بلادنا، فكيف يمكن أن يحصل ذلك في بلادهم؟! إلى أن وقعت على مقطع مصوّر للدكتور إياد القنيبي بعنوان (تحرير المراة الغربية) والذي أقامه على جملة من المراجع المعتبرة وإحصائات ودراسات معتمدة، وثم أعقبه بعدة حلقات حول ذات الموضوع، أحسب أنها جَلّت الموضوع لدي ولم أعد أشعر بهذا التناقض مطلقًا، فإن ما يبث في الأفلام أو المسلسلات في الكثير منه منفصم عن الواقع انفصاما كليًا؛ فتكتشف أن تعنيف وازدراء للمرأة والتحقير من قيمتها موجود في الغرب ولم

ينقطع وفي تكاثر مستمر، وأن هذه الإشكاليات لا توجد فقط في المجتمعات العربية. فالغرب ليست الجنة الموعودة ولا تطبيق مفاهيمه سوف يجعله كذلك.

وتكلم أحمد السيد أيضًا في موقع آخر من الكتاب عن أصناف الملحدين بسبب الشبهات الفكرية وأنهم ليسوا صنفًا واحدًا، وبما أنهم ليسوا كذلك فمن الخطأ اتباع استراتيجية واحدة معهم فكل حالة تختلف عن الأخرى، فقال: «**ينقسم المتأثرون بموجة الشبهات المعاصرة إلى قسمين: الأول: العابثون الفوضيون الباحثون عن أهوائهم الشخصية في ثنايا هذه الشبهات، وهم كثر. الثاني: الذين تأثّروا بالشبهات تأثرًا فكريًا حقيقًا أدى إلى تبنيهم لأفكار جديدة فيها مخالفات شرعية. وهذا يدفعنا إلى عدم تعميم الأحكام، وإلى الكف عن إطلاق التهم العامة، وعدم اختزال الظاهرة في صورة متجزأة، وإلى البحث عن سبل متنوعة للعلاج بما يتناسب مع اختلاف الحالات**».

فالبعض يختزل الإلحاد في نوع معين ويظن أن بالرد على هذا النوع قد رد على كل الملحدين وهذا غير صحيح.

وأنت ترى مثلًا، أن البعض يرفع عقيرته في الرد على الإلحاد من منطلق فلسفي مؤصّل، وهذا الكلام موّجه لقلة من الملاحدة، بخلاف الجمهرة الكاثرة التي هي دون ذلك بكثير، فهي لم تتبنى الإلحاد كمنظومة فلسفية أصلوا نفسهم من خلالها، بل هم أحقر من ذلك، ورأسمال إلحادهم هو مجرد الاعتراض على بعض أحكام الدين، أو أنهم رأوا في الدين تقييدًا لحريات يريدونها لأنفسهم ومن ذلك أن بعضهم يمارس فعلًا محرمًا ويعزّ عليه الانقطاع عنه فيشعر بالتناقض بين الممارسة والحكم؛ فرأى أن في التخلي عن المنظومة القِيمية التي تحكم على هذا الفعل أنه محرمًا أسهل عليه من أن يبقى خلالها ويقر على نفسه بالذنب. ولكن لا يمكن بحال إلغاء جهود من رد على الإلحاد بنقض منطلقه الفلسفي، بل هو ناجع في الرد على القلة وفي نفس الوقت يعري الكثرة بأنهم جهلة وفيه هدم لنظرتهم الفوقية التي قد يروا بها المسلمين بأنهم جهلة غير مثقفين ولا مطلعين.

وقد ترىٰ أن البعض يُلحد بسبب الانهزام الثقافي أمام النموذج الغربي، فمثلًا البعض يرىٰ أن أحكام الردة تتقاطع مع مفهوم الحرية الدينية الغربي، فهو يحاكم الدين بناءً علىٰ المفاهيم الغربية، بيما يغض الطرف أنه لو خرج شخصٌ شيوعي أو جهادي وينتقد الغرب نقدًا لاذعًا يُهدد الأُسس التي بُنيَ عليها المجتمع لما تسامحوا معه البتة ولأكلوا مفهومهم للحرية كما أكل الأعرابي صنمه الذي صنعه من عجوه.

كما أن مشكلة هذا الشخص الأولية ليست مع حكم الردة ابتداءً بل مع مفهوم التسليم وأن رضى الله أحب إلينا من تصفيق الغربيين ومدحهم لنا ولديننا ومفاهمينا. وهناك كتاب أنا أنصح الجميع بقراءته اسمه (سلطة الثقافة الغالبة) للشيخ إبراهيم السكران.

وتكلم أحمد السيد من معالم موجه الشبهات هي الطرح الذي يهدم ولا يبني.

وضربه مثلًا في عدنان إبراهيم، فقال: «**من الصور أيضًا للطرح الهدامي غير المنهجي: مشروع د. عدنان إبراهيم، وهو وإن استفاد منه بعض الناس إيمانيًا أو معرفيًا إلا أنه لا يقدم رؤية معرفية بنائية متماسكة بقدر الاضطراب المنهجي الذي يمارسه ومن ثم ينتقل إلى جمهوره، فالمتابع له لا يخرج بموقف واضح تجاه عدد من القضايا الشرعية المهمة [...] وقد وقفت على حالات ترك أصحابها الإسلام، مصرحين بأن أول خطوة في انحدارهم ذلك كانت: متابعة عدنان إبراهيم**» (صـ١٧).

وهذا عدنان إبراهيم يطرح الأمور بطريقة فيها ثقة مفرطة بالنفس وبأسلوب يكون محببًا لدىٰ المستمع، فهو بليغ وفصيح، وكأنه ظهر بمظهر الثائر الذي يجلي من الأمور ما سُكت عنه أمام ثلة من مشايخ الدين الذين يحاولون الترقيع والتدليس وإخفاء الحقائق.

عمومًا قد لاحظ أحمد السيد أن عدنان إبراهيم وإن كان ظاهره ضد الإلحاد وله سلاسل في نقد الإلحاد وغيره إلا أنه كان من أبرز القناطر المؤدية إلىٰ الإلحاد، بسبب أن عدنان إبراهيم «يهدم ولا يبني»، فكان دوره مقتصرٌ علىٰ تفريغ المستمعين له ثم لا يقوم بملئ هذا الفراغ بخطاب متماسك.

حسنًا، عرفنا مِن عدنان إبراهيم مثلًا أن طريقة المحدّثين وأهل الصنعة الحديثة كانت خاطئة في نقل الأحاديث وأنهم قد نقلوا لنا أحاديث مكذوبة أو لا تصح فما هو البديل؟! وماهي الطريقة التي نميز بها بين الأحاديث؟! لا تجد أي حل ولا أي طريقة فقط يرسّخ هذه الصورة في ذهنك ثم يتركك تتخبط والشكوك تدور في رأسك. وبما أن عدنان إبراهيم انتقد الكثير من مفاصل الدين ورجاله نقدًا ثائرًا؛ فإن المستمع سوف يفقد ثقته بهذا الدين ورجاله، وبما أن المستمع قد غدا فارغًا فإنه سوف يبحث عن من يسد هذا الفراغ، وقد يجده في الإلحاد أو الربوبية.

ولكن إذا كان عدنان إبراهيم شخص بهذا السقط، فكيف استطاع أن يؤثر في جيل واسع من المراهقين؟! ذكر أحمد السيد أمرين في الكتاب، أرىٰ أنهما يفسران الأمر وهما:

- ضعف التأصيل الشرعي، فبعض المواضيع تحتاج إلىٰ مقدمات حتىٰ تُفهم بالشكل الصحيح، فغالبية العلوم إن لم تكن كلها تحتاج إلىٰ مداخل ومراحل مبدئية ثم تتبعها مراحل متقدمة في داخل العلم نفسه، فإن لم يكن الشخص مُلمًا بالمقدمات فالأسلم أن يقف عند عتباتها، ولكن الذي يحصل أن البعض يتقحم المسائل المتقدمة دون أن يكون ملمًا بالمقدمات، فيرمي نفسه بالتهلكة.

وهذا أمر لا تراه يطبق إلا مع الدين، فالبعض يتحفظ في الكلام عن الطب لأنه جاهل فيه، والبعض يتحفظ عن الكلام في الفيزياء أو الكيمياء أو غيرهما؛ لأنه ليست لديه معرفة أولية ولم يدرس مقدمات هذه العلوم، ولكنه لا يتحفظ في الوقت نفسه عن الكلام في الدين وهو علم أيضًا ويحتاج إلىٰ مقدمات؛ مثل هذا الذي ينتقد القرآن لأنه يحوي أخطاءً نحوية وهو لا يكتب جملة دون خطأ نحوي، فالجاهل في اللغة العربية أصبح يقيّم من اتفق علماء العربية علىٰ جودة كلامه، ولو عرف قيمة نفسه ومقدارها وعدم تخصصه وإلمامه بالأمر لَمَا تجرأ ابتداءً علىٰ ذلك النقد.

علىٰ العموم لو كان الشخص لديه إلمام بعلوم الآلة - حتىٰ لو كان إلمامًا مبدئيًا - لَمَا أصبح لقمة سائغة لكل ناعق يبث الشبه هنا وهناك.

- غياب العقل الناقد، وهو حسب تعريف السيد: «**العقل الفاحص؛ الذي لا يقبل دعوى دون دليل، ولا يقبل الأدلة الفاسدة، ولا تُمَرَّر عليه المغالطات المنطقية**». (ص٤٥)، وغياب العقل الناقد تكاد تكون صفة مشتركة بين المتأثرين بنماذج عدنان إبراهيم، فهو يستمع إلى عدنان إبراهيم وما يقرره وكأنه مسلمة ولا يفترض - مجرد افتراض - أنه حرّف الكلم عن موضوعه وهذا قد ثبت عن عدنان إبراهيم أكثر من مرة، ولا يفترض أن الكلام مجتزأ وهذا أيضًا ثبت عن عدنان إبراهيم ولا يفترض أن الكلام خطأ أو غير ثابت ولا أصل له من أساسه، ولا يكلف نفسه حتى أن يرجع ويراجع المسألة ويرى صحتها وتمام انطباقها قبل أن يتبناها وينادي بها.

وعلى سبيل المثال قد تجد بعض الأشخاص يتبنى رأيًا حول الصحابة، ولما يطالب بمستند قوله يقول منتفشًا أنه هذا ورد في تاريخ الطبري، وهذا من الجهل في طرق الاستدلال، لأن ليس كل ما ورد في تاريخ الطبري يصح الاستشهاد به، لأن ليس كل ما فيه صحيح، يقول السيد: «**فنحتاج أن نرجع إلى تاريخ الطبري؛ لنتأكد من إسناده إلى هذه القصة، هل هو صحيح أم لا، أم أنه ليس له إسناد أصلًا! لأن الطبري لم يشترط الصحة في كتابه، وبالتالي فالعزو للطبري ليس تصحيحًا للكلام، وإنما إحالة إلى مصدر يخضع للدراسة**». (صـ٦٤)، فلو كان هذا الشخص يعلم أن تاريخ الطبري لا يقوم مقام الصحيحين، وعرف كيف يميز الصحيح من السقيم لما اجترأ أن يأخذ موقفًا من أحد صحابة رسول الله بناءً على مروية تاريخية في كتاب تاريخي جامعٍ للصالح والطالح من المرويات.

وأنت ترى أن بعض الأمور قد أرقت أصحابها فجلسوا يبحثون ويدرسون وينقشون من أجل الوصول إلى حقيقتها مثل ما حكى الدكتور عبد الله النفيسي في كتابه (أيام من العمر الماضي) لما قرأ كتاب إلحادي وأرقته بعض مضامين الكتاب، فلم يقبل بما في الكتاب ويجلس بل تطلب الأمر أن يترك بعثه الطب في بريطانيا ورجع إلى بلاده من أجل أن يقرأ ويبحث ويسأل عن ما أشكل عليه حتى اهتدى إلى حقيقة الأمر وتجلى الأمر عنه، بينما الكثير من الشباب اليوم يكفيه أن يشاهد مقطع

مرئي لشخص يتكلم بكلام ما فيتبناه دون أن يبحث عن صحته وأصله وجهة تنزيله، وإن أتته شكوك فلا يستفرغ جهده من أجل الوقوف على حقيقتها، وإنما يتعاظم الشك لديه حتى يصبح إلى حقيقة.

وأحيانًا يستسلم البعض أمام الشبهة لأنه لم يجد لها جوابًا، فإذا لم يجد لها جوابًا فهذا يعني أن لا جواب لها! وهذه مغالطة منطقية يقع فيها البعض فيستسلم أمام الشبهة، يقول أحمد السيد: «**أن عدم علمنا بالجواب، لا يعني أنه لا يوجد جواب، وحين ندقق في بعض هذه الإشكالات التي أوجبت الريب نجد أن الكلام فيها قد قُتِلَ بحثًا، فلو أن المُستَشكِل قام ببحث سريع على المواقع الموثوقة في الشبكة لوجد عشرات الإجابات حاضرة أمامه**». (صـ٥٨).

وأحيانًا قد لا يقرأ الشخص ما يجلي الشبهة عنه فتراكم عنده وتترسخ، ولا يقرأ في جانب واحد وهو الذي يرسخ هذه الشبهة لديه، فهذا لا يحق له بأي حال من الأحوال أن يدعو الآخرين وبالأخص الصنف المتدين لأن يقرأوا للمخالفين لهم وأن يخرجوا من بتوقتهم، لأن هذا الشخص لا يختلف عن من يذمهم، فهو لا يقرأ إلا لمن وافقه! ومع ذلك يطالبك بمطلب هو لا يطبقه أصلًا.

وتكلم أحمد السيد أيضًا أن هنالك ثمة خير من تحت هذا الشر؛ أي شر الإلحاد واللادينية والطعن في ثوابت الدين. مثل شيوع روح البحث والمناظرة وتكيف طالب العلم الشرعي لعلمه على واقع الشبهات.

مثلًا طالب المختص في السنة والحديث يرى الشبهات الموجهه ضد علمه المختص به ثم يقوم ويصيغ ردًا بناء على هذه الشبهات. وهذا تراه كثيرًا، فمثلًا الدكتور مصطفى السباعي لما كتب كتابه (السنة ومكانتها في التشريع) بنى كتابه على واقع شبهات المستشرقين ومن نحا نحوهم من الأدباء (للنظر إلى أصل هذه المشكلة أرجو قراءة كتابين: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» لمحمود شاكر و«التأول الحداثي للتراث» لإبراهيم السكران)، ولكن في نظري أفضل ما نشر من خير جراء هذا

الشر هو تغير لغة الخطاب، واضمحلال الخطاب التقليدي البالي في مجابهة الشبهات الفكرية؛ مثلا كثُر الاهتمام بالخطاب العقلي الذي يدعم النص ولا يتعارض معه. وهذا تجده هذا في خطاب الشيخ عبد الله العجيري وأحمد السيد مثلًا وغيرهما من نفس الدائرة، فهذه الثقافة والاطّلاع على تلك الموضوعات وحسن توظيفها في دعم الخطاب الشرعي قد بدّل صورة مرسخة في أذهن الناس وهي أن طالب العلم أو الشيخ جاهل في تلك المواضيع وثقافته العامة محدودة.

ولك أن ترى تفاعل الناس مع محاورة الشيخ عبد الله العجيري مع عمر الغامدي مثلًا، فقد استطاع عبد الله العجيري النفاذ إلى جمهور الغامدي بينما الأخير لم يستطع. وقد اشتكى أحمد السيد عمومًا من وجود فجوة بين المختصين الشرعيين وعموم الشباب ومن قلة تنويع الأساليب الدعوية بما يناسب مع مؤثرات الواقع ومستجداته (صـ٣٣).

وتكلم أحمد السيد أيضًا حول جزئية أرى أنها مهمة وكتبتها لما رأيت أنها تكررت، وهي عبادة الله على حرف، فيقول: «**أذكر أكثر من حالة جرى بيني وبينها نقاش حول الإيمان بالله سبحانه، وكان سبب وجود الإشكال عند الطرف الآخر بعض الضغوط والابتلاءات التي لم يستطع التخلص منها، وكثيرًا ما يكون الضغط النفسي الذي يعاني منه الإنسان سببًا في سخطه على قضاء الله وقدره، ومن ثم قد يجحد وجود الخالق سبحانه**». (صـ٣٠) فالشخص إذا أتاه الخير رضي بالدين وإذا مسه الشر شكك بالدين وبالله نفسه. فهو لا يريد أن يبتلى بل يظن أنه طالما أنه مؤمن ومتدين فلا بُدَّ أن لا تصيبه النكبات.

وقد رأيت هذا تكرر في جملة من كتب قد قرأتها مثل (السجينة) لمليكة أوفقير لما ذكرت أن عائلتها ارتدت للنصرانية لأنهم دعوا الله كثيرًا بعد أن اعتقلوا حتى يفرج عنهم فلم يستجب لهم، وفي كتاب (كوخ العم توم) لما كفرت الزنجية بدين المسيح بعدما كانت متدينة فتعرض أبنائها للخطف فرأت أن الإيمان لم يكن ليعصمهم. وكذلك في رواية (ثلاثية غرناطة) لرضوى عاشور لما صورت ذلك

الفقيه الذي كان يأمل بتحرر الأندلس من السيطرة القشتالية ولما تمكنوا أكثر فأكثر وحرقوا الكتب والمخطوطات الإسلامية، قال إذا ذلك حصل فإن الله ليس موجود.

هذه أطروحات من ثقافات متعددة كلها تنحو نحو ذات الاتجاه، وقراءة بسيطة للقرآن – ولا أقول معمّقة – تُجَلِّي كل ذلك.

فليس صحيح إن آمنت فإنك لا تتعرض للمصائب والابتلاءات، بل إن أفضل الناس عند الله وهم الأنبياء تعرضوا لها: [**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ**]، وذكر أن الابتلاء والفتنة لا بُدَّ أن تحصل لهم [**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**].

بل وذكر الله عز وجل أن أفضل الناس لديه وهم الأنبياء قد تعرضوا للقتل فقال: [**وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**] فحقيقة الإيمان لا يعني أنك لا تتعرض للقتل أو الفتنة أو الابتلاء والزلزلة الشديدة، حتى إذا حصلت لك قلت: ولكن أنا مؤمن لماذا يحصل معي كل هذا. وكذلك قد تراه عندما يكفر أو يُلحد بسبب هذا الابتلاء فإن الابتلاء لا يزول بمجرد كفره أو إلحاده، فلماذا لا ينفي إلحاده بنفس الطريقة التي نفى فيها إيمانه، مع اشتراك العلة في الصورتين؟!

وتكلم أحمد السيد في ذكر العوامل والمؤثرات الخارجية التي تساهم في التأثر بالتشكيكات المعاصرة في الإسلام وثوابته، فذكر الفراغ الوقتي والذهني والروحي، فقال: «**أذكر حالة لامرأة أصيبت بوسواس عقدي من أشد من رأيت وسمعت في حياتي، وقد اجتهدتُ في إقناعها بطرق التخلص من الوسواس فلم تستجب لذلك، فأرشدتها إلى أعمال عملية ومعرفية تقوم بها تملأ وقتها وذهنا – فقد كانت متفرغة تمامًا – فكانت النتيجة أفضل وأقرب مما توقعت، لقد توقفت أسئلتها التي كانت**

كالسيل في وقتٍ قياسي جدًا، والمراد أن الفراغ الذهني والروحي يجعل الذهن والقلب عرضة لأي شاغل ولو كان سيئًا» (صـ٣٢).

وهذا أمر ملحوظ قد أورده ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة) بشكل آخر فقال: «**وقرأت في سير ملوك السودان أن الملك منهم يؤكل ثقة له بنسائه يُلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر، لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تتشوف إلى الرجال»**. (صـ١٦٦).

وهذا قد لا يكون صحيح بإطلاقه، ولكن الشاهد في الاقتباس أن الفراغ قد يؤدي بالشخص إلى الوقوع في كل ما هو سيء، وأظن أن أكبر فئة مستهدفة من الفراغ هم الشباب الذين تخرجوا ولم يعملوا، فيكون لهم وقت فراغ كبير جدًا.

ولما تكلم السيد عن وسائل تعزيز اليقين طرح مجالًا أنا أميل إليه ومن أنصاره، وهو وسيلة «التفكر والتأمل»، فيقول: «**فإن التأمل والتفكر في النفس وفي الآفاق يؤدي إلى اليقين بصحة القرآن" أو بوجود الله "وأرجو أن لا تكون المدنية الحديثة سببًا في حجبنا عن عبادة التفكر في السماء والنجوم والنفس والحيوان»**. (صـ٤٢).

التفكر في المشاهدة في أي مخلوق من مخلوقات الله يؤدي إلى تعزيز اليقين بوجود الله، وأن الكون لم يخلق عبثًا، فمثلًا بعض الحيوانات لو ولدت مستقلة ولم تحتك بأحد من بني جنسها، لرأيتها تفعل الفعل نفسه، مثل طريقة قضاء الحاجة أو التزاوج، ولرأيتهم يفعلون نفس الفعل بشكل تلقائي، وكأن هناك غريزة غرزت فيهم مع ولادتهم فلم يحتاجوا إلى أحد ليعلمهم إياها. ومثل ذلك تراه في الطفل المولود، من الذي جعله يرضع الحليب من صدر أمه مباشرة بعد ولادته، هل أحد من البشر علمه ووجهه إلى ذلك؟ كلا بل هي فطرة ولدت معها، فمن الذي زرعها فيه وجعلها بديهية لديه.

وكنت قديمًا في نهاية كل أسبوع أشاهد بعض الأفلام الوثائقية بجودة Blue-ray عن الطبيعة وعن الحيوان، وكانت هذه موادًا دسمةً للتفكر والتأمّل، بالأخص وثائقيات قناة BBC أو ناشيونال

جيوغرافيك، فكنت أجلس أتأمّلها، وأحب أن أرىٰ إبداع الخالق وإحكام صنعه، وعظيم القدرة الإلهية فيما يتعلق بالكون.

وإن أتاك الشيطان وقال لك: «إن ما تفعله مضيعه للوقت» اصفعه بأثر أبو ذر رضي الله عنه كما في مسند ابن شيبة برقم (٣٥٧٢٨) عندما قال: «**تفكّر ساعة خيرًا من قيام ليلة**» وكذلك بآدلة القرآن الداعية إلىٰ التفكر.

والكتاب فيه الكثير من المواضيع وهذا ما أتىٰ في ذهني التعليق عليه، والكتاب عمومًا إذا أردنا أن نعرض هيكليته بشكل موجز:

معالم الموجة التشكيكية المعاصرة وأقسامها، ثم تكلم عن الخير المنطوي من موجة الشبهات هذه، ثم تكلم عن أساليبها وأنواعها، وثم تكلم عن سمات الخطاب الديني المؤثر في الساحة الفكرية المعاصرة، وطرق مخاطبة العقول، وثم القواعد الوقائية من الشبهات المعاصرة، وقواعد التعامل مع الإشكالات والشبهات بعد ورودها والأمثلة علىٰ ذلك، وثم عن القواعد الحوارية والجدلية مع أصحاب الشبهات، وثم تكلم عن إجمالي لخارطة الشبهات المثارة ضد الإسلام وثوابته في الوقت الحالي والرد عليها بشكل موجز. وهذه الأخيرة قد أخذت الحيز الأكبر من الكتاب.

***

وقد أحال أحمد السيد في كلامه عن بعض النقاط علىٰ الكثير من الكتب لمن أراد التوسع، وقد جمعتها، ونسردها هنا ملحقًا للمراجعة:

الكتب التي تكلمت عن «**الإشكالات بوجه عامٍ في أبواب معينة، منها موسوعة بيان الإسلام، وكتاب تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى الطاعنين لمنقذ السقار، ومن أفضلها في نظري رسالة الدكتوراة لسلطان العميري بعنوان: ظاهرة نقد الدين في الفلسفة الحديثة، وأختم السمات بالإشارة**

إلى مرجع يفيد في وصف الإلحاد الجديد ألا وهو كتاب: مليشيا الإلحاد لعبد الله العجيري». (ص٢٠-٢١).

وأما عن الكتب التي بحثت أسباب الانحرافات الفكرية المعاصرة كالانبهار بالغالب وضعف التسليم لخطاب الشرع «كتاب: ينبوع الغواية الفكرية لعبد الله العجيري... ومن الكتابات المثرية أيضًا في هذا الموضوع، كتاب: سلطة الثقافة الغالبة لإبراهيم السكران». (صـ٢٧-٢٨).

وأما عن المراجع والكتب التي تبين الخطاب العقلي في القرآن فهي «كتاب الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد للدكتور سعود العريفي، وكتاب بلاغة اللاحتجاج العقلي في القرآن الكريم لزينب الكردي، وكتاب مناهج الجدل في القرآن لزاهر بن عواض الألمعي». (صـ٣٥).

وأما الكتب التي اهتمت ببيان دلائل صحة أصول الإسلام من الكتب المعاصرة فهي «كتاب (النبأ العظيم) لمحمد عبد الله دراز وكتاب (براهين وأدلة إيمانية) لعبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، وكتاب (نبوّة محمد من الشك إلى اليقين) لفاضل السامرائي، وكتاب (الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد) لسعود العريفي، وهو كتاب كبير ذو مستوى عالي من التحريرات العلمية، وكتاب (كامل الصورة) الجزء الثاني منه». (صـ٤٣).

وأما الكتب التي تدعو إلى تعزيز اليقين والإيمان بالله «فمن الكتب التي اعتنت بهذا الباب، كُتب الإمام ابن القيم رحمه الله، وخاصة كتابه مدارج السالكين، وقبله كثير من المتصوفية والمستنكة والعباد، لهم كلام متفرق ومجموع فيه، وحلقات برنامج بالقرآن اهتديت لفهد الكدري وفقه الله، وهو من أجل البرامج في هذ المجال». (ص٤٥).

وأما المواد التي فيها تبسيط لبعض العلوم الشرعية «فمن الجهود الجيدة في تحقيق هذا التسهيل، ما يقدمه الدكتور عامر بهجت في دوراته المتميزة في الفقه وأصوله، وهي مرفوعة على موقع اليوتيوب بعنوان: (تنبيه الفقيه) و(الطريق إلى أصول الفقه)، وغيرها». (ص٤٧).

وأما عن **الطبيعة وطبيعتها ومصادرها** «فإن للشيخ عبد الله العجيري محاضرة مرئية في موقع اليوتيوب بعنوان (مدخل لفهم نظرية المعرفة)، وتصلح في المرحلة الأولى لتكوين التصور العام تجاه هذه النظرية ومتعلقاتها وطبيعة المعرفة في الإسلام، ثم يحسُن الانتقال إلى كتاب (مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي) للدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، ثم كتاب (المعرفة في الإسلام) للدكتور عبد الله القرني وهو كتاب متميز غير أن فيه صعوبة على المبتدئ والمتوسط، ثم الانتقال إلى كتاب الدكتور عبد الله الدعجاني في موقف ابن تيمية رحمه الله من المعرفة بعنوان (منهج ابن تيمية المعرفي)، وهي رسالة جميلة مفيدة نافعة وفيها أيضًا صعوبة على المبتدئ والمتوسط». (صـ٤٩).

وأما عن موضوع **التسليم للنص الشرعي** وعلى أي شيء يستند «فمن المراجع المهمة في جانب التسليم كتاب (ينبوع الغواية الفكرية) لعبد الله العجيري، وكتاب (التسليم للنص للشرعي) فهد العجلان». (ص٤٩).

وأما **الكتب الوقائية في الرد على الشبهات** «ومن الكتب المناسبة في مجال الرد على الشبهات المعاصرة وتُقرأ على سبيل الوقاية: كتاب (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) لمصطفى السباعي، وكتاب (كامل الصورة) بجزئيه الأول والثاني». (صـ٥٠).

وأما الكتب تتكلم عن **ترتيب هرم الغائيات الكبرى** على حسب مراد الله «فمن الكتب المهمة جدًا في هذا الموضوع: كتاب مآلات الخطاب المدني لإبراهيم السكران». (صـ٥١).

وأما فيما يتعلق في باب **إثبات وجود الله** «فمن المراجع المهمة في باب إثبات وجود الله سبحانه وتعالى ودلائل الفطرة والعقل على ذلك كتاب (شموع النهار) للشيخ عبد الله بن صالح العجيري». (صـ٧٤-٧٥).

وأما فيما يتعلق **بالتأمّل والتدبر** «فمن المراجع في معرفة الاتقان في المخلوقات كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) لنخبة من علماء الطبيعة الأمريكيين». (صـ٧٥).

وأما في نقد نظرية داروِن «وألف – أي د. مايكل بيهي أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة ليهاني في بنسلفانيا – كتابًا في ذلك وهو (صندوق داروِن الأسود)، وقد أحدث ضجةً في الأوساط الفكرية، وقد قام مركز براهين بترجمة الكتاب وطبع في مركز تكوين في ٤٣٠ صفحة». (صـ٨٢).

وأما في نقد من حاول التوفيق بين نظرية داروِن وبين الإسلام «وممن عرض أقوال هؤلاء وناقش استدلالاتهم هشام عزمي في كتابه (التطور الموجه) والذي طبع في مركز براهين، والشيخ سلطان العميري في رسالة الدكتوراة». (ص٨٣).

وأما في الرد على فرضية الأكوان المتعددة «يوجد على موقع اليوتيوب ثلاث مواد مرئية يعطي مجموعها تصورًا أكثر تفصيلا على الفرضية وفيها رد على من استدل على إلحاده، وهذه المقاطع:

١. حلقة حوارية بين د. محمد العوضي والبروفيسور الفيزيائي المسلم محمد سالم الطائي بعنوان: فرضية الأكوان المتعددة والموازية.

٢. مقطع بعنوان: سؤال حول نظرية الأكوان المتعددة، للفزيائي مصطفى قديح.

٣. حلقة بعنوان الأكوان المتعددة لرشاد القرني في برنامجه إرجع إلى لأصلك، وبالمناسبن لأخ رشاد مناقشات جيدة لعددة من المعطيات العلمية التي يستدل بها عدد من الملاحدة في برنامجه المتميز السابق ذكره». (صـ٨٥-٨٦).

وأما الجواب على سؤال لماذا الله خلقنا؟ ولماذا أمرنا بالعبادة وهو غني عنا؟ «فمن المراجع في هذا الباب كتاب (لماذا يطلب الله من البشر) عبادته للدكتور سامي عامري من إصدار مركز تكوين». (صـ٨٩).

وأما الجواب على سؤال لماذا توجد الشرور في العالم؟ «فمن المراجع المهمة في هذا الباب كتاب (مشكلة الشر ووجود الله) للدكتور سامي عامري». (صـ٩٢).

وأما الجواب على سؤال كيف نجمع بين القضاء والقدر وبين تعذيب الكافر على كفره؟ «ومن المراجع في هذا الباب كتاب (شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل) للإمام ابن القيم رحمه الله». (صـ٩٦).

وأما قضية درء التعارض بين الآيات التي يوهم ظاهرها التعرض «إن من العلماء من أفرد هذه القضية في كتاب يعالجها، ومن أشهرهم الإمام محمد الأمين الشنقيطي عبر كتابه (دفع إيهام الاضطرب عن آي الكتاب)» (صـ١٠٣).

وأما في المجال الأخلاقي والمنظومة القيمة السلوكية في القرآن والسنة فقد «أشرت إلى شيء من ذلك في كتاب (كامل الصورة) الأول تحت عنوان "ماذا يقدم الحديث النبوي للسلوك الإنساني؟" وقد كتب الدكتور محمد دراز رحمه الله كتابًا كبيرًا بعنوان (الدستور الأخلاقي في القرآن)» (صـ١١٢).

وأما باب برهان المعجزات الحسية «فمن أراد الاستزادة فليراجع كتاب (دلائل النبوة) للبيهقي». (صـ١١٢).

وأما في أخبار النبوات السابقة المبشرة بالنبي ﷺ «فمن الكتب في هذا الباب (تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله ﷺ) لنصر الله أبو طالب، و(يجدونه مكتوبًا عندهم) لفيصل علي الكاملي، و(هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟) لمنقذ السقار». (صـ١١٧).

وأما عن الشبهات المثارة في السنة حول سن زواج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها «وقد ناقشت عددًا من الإشكالات المثارة في هذا الموضوع في مقال بعنوان: (مناقشة رأي د. عدنان إبراهيم في سن عائشة عند الزواج) وخير من هذا المقال وأوسع، كتاب (السنا الوهاج في سن عائشة عند الزواج) لفهد الغفيلي. وقد قدم الأستاذ حسام عبد العزيز ثلاث حلقات عبر يوتيوب تحت برنامج (بالعقل) عن سن عائشة عند الزواج، وهي جميلة وممتعة ومفيدة، وتصلح للنشر». (صـ١١٩).

وأما الشبهات حول النهي عن كتابة السنة وما يتعلق بتاريخها وتدوينها «ومن المراجع في هذا الباب لتوسع: كتاب (تقييد العلم) للخطيب البغدادي وكتاب (تدوين الحديث) للسيد مناظر الكيلاني مكتوب بالأُردية ومترجم للعربية طبعته دار الغرب وكتاب (دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه) لمصطفى الأعظمي وكتاب (السنة قبل التدوين) لمحمد عجاج الخطيب وكتاب (تدوين السنة النبوية)، لمحمد مطر الزهراني». (صـ١٤١).

وأما استشكال أحاديث الصحيحة معينة بدعوى التعاوض فقد «أُلفت كتب كثيرة مختصة في هذا المجال - قديمًا وحديثًا - يطول سردها، أذكر منها على سبيل المثال والإشارة: (اختلاف الحديث) للشافعي، (شرح مشكل الآثار) للطحاوي، (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة. ومن الكتب المعاصرة: (دفع دعوى المعارض العقلي عن الأحاديث المتعلقة بمسائل الاعتقاد دراسة لما في الصحيحين) لعيسى النعمي، و(التعارض في الحديث النبوي) للطفي الزغير، و(أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين) لسلمان الدبيخي، وقد ذكرت في كتاب (أفي السنة شك؟) قواعدَ منهجية للتعامل مع الأحاديث التي يتوهم تعارضها مع القرآن، ومع روايات حديثية أخرى، ومع العلم الحديث، فلتراجع». (صـ١٤٣-١٤٤).

لماذا لا يكون النص الشرعي مفتوحًا لقاءات متنوعة متعددة، يأخذ كل قارئ له ما يهمه منها، دون تخطئة لأي قارئ آخر؟! «للاستزادة راجع المزلق الأول من مزالق هدر النصوص ضمن كتاب (ينبوع الغواية الفكرية) لعبد الله العجيري». (صـ١٥٠).

وأما عن شبهة رجم الزانية «وقد أجبت في كتاب (كامل الصورة) الأول عن بعض ما أُثير عليه، وأحيل من يرغب التوسع في هذا الموضوع إلى كتاب (شبهات حول أحاديث الرجم وردها) للدكتور سعد المرصفي». (صـ١٥٣)

وأما عن شبهات حول عقوبة الردة «وقد ذكرتُ في كتاب كامل الصورة الأول عشر اعتراضات على عقوبة الردة والإجابةَ عنها، كما أن مِن الكتب المفيدة جدًا في هذا الباب كتاب (فضاءات الحرية) لسلطان العميري، وكتاب (الردة بين الحد والحرية) لصالح العميريني». (صـ١٥٥).

وأما عن دعوى تعارض العقل مع العقل «فسأذكر ثلاثة مراجع في هذا الباب: (ينبوع الغواية الفكرية) في حديثه عن إهدار النص بسبب العقل و(مختصر الصواعق المرسلة) لابن القيم والموسوعة الضخمة (درء تعارض العقل والنقل) لابن تيمية، ولكنها لا تصلح للمبتدئ ولا للمتوسط، وهي موسوعة ضخمة وفيها صعوبة، ولكنها شاملة في هذا الباب». (صـ١٦١).

وأما حول التعارض بين العلم الطبيعي والدين «فإن الموضوع متشعب، ولا بُدَّ فيه من قراءة تاريخ العلم الحديث وشيء من فلسفته ونقده، وللاستزادة في هذا الباب: كتاب (النظريات العلمية الحديثة: مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر الغربي في التعامل معها) للدكتور حسن الأسمري وكتاب (العلموية) للدكتور سامي عامري ومبحث: (النزعة العلموية) من رسالة الدكتوراه لسلطان العميري وفصل (درء تعارض العلم التجريبي والنقل) من كتاب (مليشيات الإلحاد) لعبد الله العجيري ومحاضرة للدكتور سامي عامري على موقع يوتيوب بعنوان (العلموية عرض ونقد)» (صـ١٦٥).

وأما حول الحرية في الإسلام: «كتاب (فضاءات الحرية في الإسلام) لسلطان العميري وكتاب (الحُريات السياسية المعاصرة في ضوء فقه الصحابة) لفهد العجلان وكتاب (آفاق الحرية) لعلي حمزة العمري وكتاب (الاستدلال الخاطئ بالقرآن والسنة على قضايا الحرية) لإبراهيم بن محمد الحقيل وكتاب (مفاهيم الحرية وتطبيقها في الدين والنفس والمال) لعبد العزيز الحميدي». (صـ١٦٨).

١١ أبريل ٢٠٢٠م – ١٨ شعبان ١٤٤١هـ

الجهاد في السعودية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب.**
- **اسم المؤلف: توماس هيغامر.**
- **اسم المترجم: أمين الأيوبي.**
- **عدد الصفحات: ٤٠٠.**
- **دار النشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.**

التعليق والمناقشة:

كتاب (الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب) للباحث النرويجي توماس هيغامر قد يصدمك عنوانه وتظن أنه ممنوع بينما هو مسموح به في السعودية نفسها، وهو يتكلم باختصار عن تشكل نظيم القاعدة في جزيرة العرب من الجذور إلى الظهور، ويقع في ٤٠٠ صفحة، من إصدارات الشبكة العربية، وترجم ترجمة محترمة ذات جودة عالية على يد أمين الأيوبي.

وأصل الكتاب رسالة دكتوراه، وكأغلب الباحثين في شؤون الجماعات الجهادية في الغرب يعملون مستشارين في وزارات الدفاع أو الداخلية (الأمن)، وهذا يثبت أن في العمل المؤسسي الغربي لا يوجد شخص يبحث عن الحقيقة لمجرد الحقيقة؛ بل ليقف عليها ويتصورها تصورًا صحيحًا ثم يحاربها على بصيرة ليُحجّم من آثارها، ومن أراد الاستزادة في هذا فليرجع إلى كتاب (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) لمحمود شاكر.

وأظن أن الأنموذج المثالي لدراسة الظواهر الإسلامية من تنظيمات وأحزاب هو إخضاعها للتحليل السوسيولوجي، وهي دراسة بنية التنظيم من خلال تشخيص أعضائه اجتماعيًا، وهو معني بتحليل

العلل الكامنة لا السبب الظاهر، فيُقال إن فلانًا انضم إلى الجماعة الفلانية، فيفصلون ما بين الحدث الظاهر «الانضمام» و«الدافع»، فيُقال: دعنا ندرس خلفية فلان الاجتماعية، فنرى أنه حاول العمل وبقي عاطلًا لسنوات، وهذا ما دفعه إلى الانضمام إلى جماعة تنادي بالتغيير الشامل والجذري للأوضاع في المجتمع، هو آمن بمبادئ الجماعة وتجذرت فيه ولا يزايد أحد على إخلاصه لها، ولكن الدراسة تبحث العلل الكامنة، وهذا الأسلوب وإن كان جيدًا في التشخيص أحيانًا، إلا أنه أسلوب مادي، يربط كل التصرفات بالمادة في غالب الأحيان، فمثلًا قد لا يتصور أن الإيمان هو السبب ودافع الحركة، لا الوضع الاجتماعي أو النفسي.

وهذا تجدهُ في كتاب (جهاد النساء: لماذا اخترنَ داعش؟) لفتحي بن سلامة وفرهاد خسروخاور، فقد شخّصوا أسباب انضمام النساء الأوروبيات إلى داعش سوسيولوجياً وسيكولوجيًا (اجتماعيًا ونفسيًا)، فتضاءلت دائرة الدين وغدت وكأنها رد فعل لا فعل بذاته.

دعنا نعود إلى الكتاب؛ الكتاب وضع سؤالًا عريضًا في المقدمة «**لماذا حصلت الأحداث سنة ٢٠٠٣ بالضبط لا قبل ذلك؟**» وهذا التساؤل قد يكون مدخلًا لتشخيص الحالة تاريخيًا ثم يتفرّع منه عدة أمور، أي كأنها نقطة محورية والنقاط الأخرى تُرد إليها.

فالكتاب تكلم عن مشاركة السعوديين في الجبهات الجهادية المختلفة (أفغانستان الأولى، البوسنة، الشيشان، طاجيكستان) ثم نحت مصطلحات لفرز الحالات عن بعضها البعض:

- **الجهاديين الكلاسيكيين**: هم الذين انضموا إلى جبهات قتال ضد محتل كافر لأرض مسلمة.
- **الثوريين الاجتماعيين**: هم الذين ثاروا على النظم في دولهم مثل الجزائر ومصر.
- **الجهاديين العالميين**: هم الذين آمنوا بمبدأ مقاتلة العدو البعيد قبل العدو القريب، وقدّموا أمريكا على عملائها.

وبعد فحص العينات، وجد أن غالبية السعوديين هم من الجنس الأول «الجهاد الكلاسيكي» الذي ينادي بالذهاب إلى أرض إسلامية يحتلها عدو كافر مثل الشيشان وأفغانستان والبوسنة، ولم يكن أغلبهم يريد أن يقاتل حكومته «الثوري الاجتماعي» أو يقاتل أمريكا والنظام الدولي «الجهادي العالمي».

ثم يرصد الكتاب كيف استطاع أسامة بن لادن أن يجذب من خلال التجنيد الطرف الأول ويجعله جهاديًا عالميًا. والذي لا شك فيه أن مشايخ مدرسة الشعيبي والعييري وشبكات التجنيد لعبت دورًا هامًا في هذا.

فكانت هناك عدة نقاط لتحوير الاهتمام من «الجهاد الكلاسيكي» إلى «الجهاد العالمي»، تتمثل بأن الشيخ بن لادن ومَن معه يرون بأن أي دعم للطالبان من قِبل المشايخ هو بالضرورة دعم لهم. فكان دعم الشيخ حمود الشعيبي وغيره من العلماء والمشايخ للطالبان هي القنطرة للتجنيد. فعندما يُذكر أن الطالبان دولة إسلامية وتحكم الشريعة قد يغري هذا بعض مريدي الشيخ الشعيبي للذهاب والعيش في أكناف هذه الدولة، وعندما يذهب لا بُدَّ أن يسأل أو يحتك أو ينضم مع العرب الذين هم من بلده، وهذا يعني بالضرورة دخوله معسكرات القاعدة وتأطيره على مفاهيمها، فقد يكون هذا المجند غير مقتنع بالجهاد العالمي في الابتداء ولكن بمجرد ما يصل إلى أفغانستان ويدخل معسكرات القاعدة يبدأ في التغير والاقتناع.

وكذلك استغلال أفغانستان نقطةَ تدريبٍ؛ فقد يتحمّس الشاب للتفاعل مع قضايا الأُمّة؛ فيقال له إن أردت الجهاد في فلسطين فلا بُدَّ من الذهاب إلى أفغانستان للتدريب أولًا أو نحو ذلك. وبمجرد ذهابه تتغير قناعته ويرى أن سقوط أمريكا يعني تحرر فلسطين بالضرورة وهذا يعني أنه تغير من المفهوم الكلاسيكي للجهاد إلى المفهوم العالمي.

ثم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وذهاب مركزية «القاعدة» واضطرار رجوع بعض أعضائها إلىٰ بلاده، يبحث الكاتب سبب تأخر الحملة العسكرية لسنة ونصف تقريبًا (منذ بداية ٢٠٠٢ حتىٰ مايو/ أيار ٢٠٠٣)، والذي فسّره المؤلف بحملة محمومة لترتيب الأوراق ورصّ الصفوف وجعل الأمر مركزيًا - قدر الاستطاعة - وتهريب العتاد والسلاح، ولكن قد بدأ الأمر قدرًا، عندما انفجرت قنبلة في أحد الملاجئ في شهر مارس ٢٠٠٣ وقتل من حاول تركيبها، مما جعل الشرطة تكتشف المكان وما حوىٰ من بيانات ومعلومات وأوراق وأسلحة وأموال، وحينها لم يعد هنالك مجالاً للتراجع بعد أن كشفت الأوراق.

ثم أورد المؤلف أسباب ضعف القاعدة وكيف تقلص تأثيرها إلىٰ أن وصل إلىٰ حده الأدنىٰ بمقتل قائدها الأخير الجوير عام ٢٠٠٦.

ثم تحدث المؤلف عن وجود خلايا مختلفة، لديها أمر عام بالعمل ولكنها منفصلة علىٰ أرض الواقع. فخلية الناشري تعمل بشكل مستقل عن خلية العييري، وعمل الأولىٰ وتفككها أدىٰ بالضرورة إلىٰ التعمية عن الثانية؛ إذ كان البعض يظن أن خلية الناشري هي القاعدة وبتفككها تفككت القاعدة ولا داعي للخوف، فلم يأخذ بالاعتبار أن هنالك خلية ثانية نشطة.

ثم تكلم المؤلف عن أحداث المواجهات وتسلسلها وتصنيفها الموضوعي، ولم يعتمد التسلسل الزمني، بل الموضوعي؛ فصنف العمليات التي استهدفت الشرطة وحدها، والعمليات التي استهدفت الأجانب وحدها، وهكذا.

وعرض من بداية العمليات إلىٰ انتهاء القاعدة في السعودية بمقتل قائدها فهد الجوير مطلع عام ٢٠٠٦، واعتقال المئات من أفرادها وأنصارها.

ولم يكن الكتاب محصورًا في الكلام عن ظاهرة تنظيم القاعدة في السعودية، بل تكلم كذلك عن الدور السعودي في الجهاد الأفغاني الأول، من حيث الدور الحكومي إذ فاق الدعم السعودي

للمجاهدين الأفغان المبلغ الذي دعمت به الحكومة السعودية منظمة التحرير الفلسطينية، فمثلًا بلغ مجموع ما حصلت عليه منظمة التحرير الفلسطينية من السعودية في نحو ١٤ سنة ٩٩٢ مليون دولار، بينما حصل الأفغان على ١.٨ مليار دولار خلال ثلاث سنوات فقط.

وامتد الدعم السعودي ليشمل الدعم المالي للجمعيات الخيرية ولحزب الاتحاد بقيادة عبدالرسول سياف، وكان الدعم يمرر من خلال منظمتي الهلال الأحمر واللجنة الشعبية لجمع التبرعات التي أسسها حينها الأمير (والملك الحالي) سلمان بن عبد العزيز، وسلم وزير الخارجية سعود الفيصل منظمة المؤتمر الإسلامي شيكًا بمبلغ ٢١ مليون دولار لمساعدة اللاجئين الأفغان، وزاد عليها الأمير أو الملك سلمان مبلغًا إضافيًا بقيمة ١٣ مليون دولار لحكومة باكستان لذات الغرض.

وتعاون الدبلوماسيون السعوديون أيضًا مع مكتب الخدمات التابع لعبد الله عزام، فقد ساعد السفير السعودي في إسلام آباد على نقل جرافة من السعودية إلى باكستان واستخدمت هذه الجرافة في بناء معسكرات التدريب في أفغانستان، وقدمت الخطوط الجوية السعودية خصومًا بنسبة ٧٥٪ من ثمن تذاكر السفر المتجهة إلى بيشاور، وكان التلفزيون السعودي يبث محاضرات لعبد الرسول سياف، ونشرت الصحافة السعودية بعض المقالات المتحدثة عن كرامات الشهداء العرب الذين استشهدوا في أفغانستان، وترأس الأمير أو الملك سلمان لجنة تبرعات باسم لجنة نُصرة المجاهدين الأفغان. ونفس الخطوات تقريباً اتخذت في قضية البوسنة. وقد ذكرها المؤلف في مقدمة فصول الكتاب.

ثم تكلم حول القضية الأفغانية على وجه التحديد، جغرافيا التجنيد، ودور منظمات الإخوان المسلمين في التجنيد، وكيف اتّسعت رقعة المنظمين السعوديين إلى الجهاد الأفغاني منذ ١٩٨٥ وما فوقها، فالمؤلف هنا يتكلم بكلام إحصائي جميل أحسب أنه يغربل لك الكثير من الصور النمطية الخاطئة التي يتناقلها الإعلام بشكل مغلوط من أجل المناكفات ولأغراض سياسية.

ولكن إذا أردنا أن نتكلم عن المؤلف أو منهجيته، فالمؤلف بدأ رسالته في الوقت الخاطئ، في وقت قبضة أمنية أكثر شدة بالسعودية حول هذه المواضيع، والذي يتكلم كان مصيره الاعتقال. وكان هذا سنة ٢٠٠٧.

والسعودية وإن سمحت للباحثين الغربيين أن يكتبوا أبحاثهم وإجراء اللقاءات الميدانية، لكنها لم تسمح لهم بلقاء معتقلي القاعدة وسماع روايتهم، والتي قد تكون مكذّبة لرواية الحكومة أو مشوشة عليها، أو خوفاً من دعاية المعتقلين لأيديولوجيتهم خلال شهادتهم.

وأذكر فقط أنه في أحد المرات التي نقل فيها المؤلف رواية عن فارس الزهراني - نقلها عبر سجين سابق - تبيّن الأثر المدمر لمداهمة القوات الأمنية بتاريخ ٢٠ يوليو/ تموز ٢٠٠٤ على المقر الإعلامي للتنظيم، والذي أدى إلى اكتشاف تسجيلات وصور ووثائق سهّلت وأدت إلى الوصول للعديد من الأفراد غير المعروفين.

ولو كتب المؤلف بحثه سنة ٢٠١٢ لربما حصل على معلومات أكثر؛ إذ كان هناك هامش من الحرية، وأُفرج عن الكثير، وأصبح الجهاديون يكتبون بأسمائهم الصريحة. ويناصرون الجماعات الجهادية علنًا، ومن المعلوم أن الحكومة انتهجت سياسة الخلط بين المعتقلين، فكان معتقلو القاعدة وأنصارها والإصلاحيون والصحويون في مهجع واحد.

والاحتكاك الدائم يؤدي إلى الفضفضة في الكثير من الأحيان، فحتى إن لم يستطع القاعدي المعتقل الإدلاء بروايته بشكل مباشر إلا أنه يُستطاع معرفتها من خلال وسطاء قد سمعوها منه.

مثلاً أدلى بعض المفرج عنهم بمعلومات عن حصول انشقاق في فرع السعودية بسبب تفجيرات الوشم وما جرى بعدها من تداعيات، فقد حُكي أن هذا سبب انشقاق الرشود وذهابه إلى العراق، بينما كان الرشود سابقًا يفضل البقاء في مكانه على الذهاب الى العراق كما قال: «**وإن كان شرفاً لي مشاركة إخواني في جهادهم المقدس في العراق ضد الصليب وحلفائه المرتدين، إلا أن ثمة حقيقة**

أَعْجَبُ من تجاهل كثيرٍ من الصادقين لها، ألا وهي أنّ تحرير جزيرة العرب من حكم وأنظمة هيئة الأمم المتحدة والعمل على إخراج اليهود والنصارى والهندوس والمرتدين منها أولى بالنسبة لنا»[١٣٠].

وحكى بعض المفرج عنهم أيضاً عن تراجعات، مثل الشيخ عبدالعزيز الجربوع، أو خلافات حصلت داخل السجن بين الشباب وبعض المشايخ، كما نسب إلى الشيخ أحمد الخالدي أنه دخل في صدام مع جملة من الشباب وصل إلى حد المقاطعة حول تكفير أعيان الطائفة الممتنعة، ونحوها مما سُرِّبَ وشاع خبره بعد حملة الإفراجات عام ٢٠١٢.

على العموم المؤلف بذل جهده في تقصي بعض الروايات في كتابه، فتجد في بعض الأحيان مواضع يقول فيها إنه نقل هذه المعلومة عن «**إسلامي سعودي رفض الكشف عن هويته**»، وشهود العيان هؤلاء لا يمثلون صنّاع الحدث (الحكومة أو القاعدة)، وإنما طرف مقرب من أحد الأطراف، وبالتالي قد يشهد بما رأى أو ينقل ما سمع. إذا أضفنا إلى ذلك أنه مجهول فذلك يُضعِف من قوة شهادته عموماً.

وكذلك نقل المؤلف رواية ضباط أمن سعوديين، وكذلك بعض الشخصيات الإعلامية أو الإسلامية سابقاً مثل علي العميم ومنصور النقيدان وعبدالله العتيبي وأضرابهم.

ورغم استشهاد المؤلف بالروايات الشفهية في بحثه؛ إلا أنها لم تكن بغزارة صنيع ستيفن لاكروا في كتابه (جيل الصحوة)؛ إذ مثّلت الروايات الشفهية أكثر من ثلث ذلك الكتاب.

حاول المؤلف أن يعتمد على المصادر الرئيسية والمباشرة مثل مواد القاعدة الرسمية سواء كانت مرئية أو مسموعة أو مكتوبة. ورغم أن هيكلية عمل القاعدة في السعودية المتمثلة في شكل خلايا عنقودية جعل المعلومات محدودة، لأنه لو ضُربت خلية أو قتل أغلب أفرادها وهربت البقية أو أُسرت فلا يوجد هناك من يعطي القيادة شهادة عيان تمثّل وجهة نظرة القاعدة الإعلامية، فلذلك الكثير من

---

[١٣٠] مجلة صوت الجهاد، العدد الرابع، (صـ٢٤).

الأحداث قد سقطت سهوًا في مجلة صوت الجهاد، أو تكون ناقصة، مثل ما حصل في أحد الاشتباكات التي وقع أحد المقاتلين فيها صريعاً ولاذ البقية بالفرار، وأُعلن في مجلة الجهاد استشهاد هذا الرجل، ثم اتضح لاحقاً أنه وقع مصاباً لا قتيلاً.

والاستدلال بالمصدر الرسمي أمر مهم، وهذ ثغرة يسقط فيها الكثير أو بعض المحللين، الذين يعمدون إلىٰ مصادر وسيطة تشوّه المعلومة أو تضيف إليها أو تحرفها، فيقع الباحث في الفخ ويبتلع الطعم وينقل الخطأ كما هو.

ولكن كذلك ليست كل روايات شاهدي العيان دقيقة، فقد ترىٰ مثلًا أن أحد المجامع السكنية التي أصرّت القاعدة علىٰ أنه مجمع غربي يتضح خلاف هذا الزعم عندما فُجرت، واتضح أنه يوجد فيه مسلمون عرب، وأحياناً القرائن تخون الشخص، فليس كل مجمع سكني ذي حراسة أمنية مشددة هو مجمع يسكنه غربيون.

ثم إن الحقيقة التاريخية في بعض طياتها قد دُفنت بموت أصحابها، فبعض الوقائع لا زالت لم تُحَل ولم يُعرَف لها جواب من الطرفين، سواء من طرف الحكومة أو قيادات القاعدة المعتقلة، أبسطها مكان دفن بعض القيادات الذين قُتلوا، مثلاً ترىٰ القيادي فارس الزهراني الذي أُعدم سنة ٢٠١٥ يقول في كتابه (الجواب المسدد) الذي هو أجوبة علىٰ التهم التي وجهت له من قبل النيابة العامة: «**وقمت أنا وفيصل الدخيل وفهد الدخيل وعواد العواد ونايف العوشن وخالد السنان رحمهم الله بالذهاب به إلى خارج الرياض، في مكان لا يعلمه إلا فيصل الدخيل وخالد السنان؛ حيث كنا مُغمضي الأعين وذلك كإجراء أمني حتى لو تم اعتقال أحد منا فلا يدل على القبر... وقد أتاني بعد اعتقالي رئيس التحقيقات الأسبق اللواء عائد الحازمي ومعه عدد من الضباط منهم اللواء محمد بن سعد البقمي رئيس التحقيقات السابق الذي خَلَفَ الحازمي، واللواء سعد الشهري رئيس التحقيقات الحالي والذي خَلَفَ البقمي، وآخرون وقد أحضروا صوراً لي وأنا أحفر قبر راكان الصيخان رحمه الله**

وأيضًا وأنا أدفنه كان الإخوة صوّروها لتنشر فيها بعد، وجعلوا يسألون عن القبر وأين هو فلم يجدوا جوابًا لأنّي لا أعرف مكان قبره»[١٣١].

وعلى هذا فقِس، على العموم لدى الحكومة السعودية العديد من الوثائق والحصريات التي لو أُتيحت للعامة لاستطاع الباحث أن يدرس ظاهرة القاعدة في السعودية دراسة صحيحة، وقد عرضت الحكومة جزءًا يسيرًا من هذه الأمور الحصرية ضمن إصدار (كيف واجهت السعودية القاعدة)، الذي نُشرته قناة العربية في ثلاثة أجزاء ضمن حملة لتمهيد إعدام قيادات القاعدة الذي تم لاحقًا. ولكن هذا نقطة من بحر، وفي نهاية المطاف لا أظن أن السعودية تنشر موادًا تطعن فيها وفي شرعيتها ولكن على الأقل لو تتاح للباحثين المختصين.

أسقط المؤلف أمورًا مهمةً جدًا لدراسة تيار القاعدة في السعودية، وهي الخلاف مع بعض المشايخ حول العمل المسلح. وهنا لا يُعذر، كون هذه النصوص منشورة معلنة، ولكن للأمانة قد تعرض لجانب بسيط من هذا الخلاف الكبير، وهو خلاف «الجهاديين الكلاسيكيين» مثل أبي عمر السيف في الشيشان مع رؤية العمل داخل السعودية، وهذا ما جعل القاعدة تردّ عليه علناً في الأعداد الأولى من مجلة صوت الجهاد.

على العموم هناك من اعترض على هذه العمليات سواء في حينها أو لاحقاً كمراجعة، مثل الشيخ عطية الله الليبي إذ يقول: «**أما الرياض فهذه بلا شك التفجير فيها ليس مما نسلّم بمشروعيته، وليس هو مما يرى مشروعيته أكثر أهل العلم والدعوة، فهذا من الخطأ الذي نردّه، وهذا من التوسع الذي ننكر!**»[١٣٢].

---

[١٣١] الجواب المسدد لمن بدل دين الرسول محمد ﷺ، صـ٢٨٣.

[١٣٢] الأعمال الكاملة للشيخ عطية الله الليبي، جمع وترتيب: الزبير الغزي، الطبعة الأولى: ٢٠١٥، (صـ١٣٧٩).

وكذلك الشيخ سليمان العلوان في رسالة (حقيقة الجهاد والأحداث الداخلية)، فردّ عليه طالب علم وأحد أفراد تنظيم القاعدة في السعودية وهو سلطان بن بجاد العتيبي في مقالة أغلظ عليه فيها بعنوان (حوار هادئ مع العلوان). وللشيخ سليمان العلوان كذلك (فتوى الورنتل) التي ردّ عليها الشيخ يوسف العييري في رسالة لم تنتشر كثيرًا.

ويقول الشيخ ناصر الفهد: «**أمّا المواجهة مع الدولة فقد كنت أنصح الشباب بالابتعاد عنها؛ لعدم تكافؤ القوى ولأن الدولة ستستغل هذه الأحداث في تصفية الشباب واحداً بعد الآخر، وستقوم بملء السجون منهم ومن غيرهم وقد حصل ما توقعته فعلًا**»[١٣٣].

وأرسلت شخصية مقربة من الشيخ أسامة بن لادن رسالة تنتقد فيها العمل العسكري في السعودية (وهي الرسالة رقم: SOCOM-2012-0000018 ضمن وثائق أبوت آباد) وفيها إغلاظ في العبارة.

لذلك فأحداث السعودية ليست محل اتفاق بين الجهاديين أنفسهم.

ولو تأخر المؤلف قليلاً في تأليف رسالته أو كتبها بعد أحداث الربيع العربي. لربما توسّعت واتّضحت الكثير من الفجوات. مثل تسريب كتاب الشيخ فارس الزهراني الضخم ولقاءات داود الشريان مع خالد الفرّاج (خصوصاً أن المؤلف أورد معلومة خاطئة حول الفرّاج فقال إنه اقتحم مع مسلحين بيته عندما سمعوا بوجود الشرطة مما أدى إلى مقتل والده، والصحيح أنه كان مع والده والشرطة عند اقتحام المسلحين، وكذلك أدلى الفرّاج بشهادة مختلفة في برنامج داوود عما كتبه المؤلف عن والده فيما أذكر). وشهادات بعض الناشطين حول رؤيتهم لمعتقلي القاعدة بالداخل أو على الأقل عمد إلى تنقيح كتابه كما فعل صاحبه ستيفان لاكروا في كتابه (زمن الصحوة)، فمثلًا ستيفان

[١٣٣] التراجع عن التراجع المزعوم، صـ٤.

قد استشهد بكتاب (أيام مع جهيمان) لناصر الحزيمي. وهذا الكتاب صدر بعد كتاب ستيفان لاكروا بسنوات.

لا زال سدُّ بعض الفجوات ممكنًا حتىٰ بعد إعدام العشرات من قياديي القاعدة سنة ٢٠١٥.

أبرز اسم ذُكِرَ في أحداث السعودية هو القائد سيف العدل، ولا زال هذا «القائد» حياً يكتب الأبحاث والدراسات. ولا شك أن شهادته سوف تجلي الكثير وتوّضح الرؤية وتضع النقاط علىٰ الحروف. بالأخص أن هذه التجربة انتهت تقريبًا في تلك البقعة الجغرافية وأصبح جل أهلها ما بين قتيل ومعتقل محكوم عليه بسنوات كثيرة. فأعتقد أنه لا ضرر من كتابتها والله أعلم.

وكذلك أبو حذيفة السوداني (المذكور اسمه في الكتاب صفحة ٢٠٥ والذي تزعّم عملية استهداف مطار سلطان العسكري، والذي ألقي القبض عليه في نهاية المطاف)، فقد أُفرج عن أبي حذيفة بعد أكثر من عقد قضاه في السجون وهو الآن حر طليق في بلاده. ورغم أن هذا الأخير كتب خواطر سجونية ولكن لا علاقة لها بالشهادة التاريخية.

وختامًا هذه أفضل دراسة كتبت عن تنظيم القاعدة في السعودية، ولدراسة التيارات الإسلامية في السعودية يفضل أن تقرأ هذا الكتاب بالإضافة الىٰ كتاب (زمن الصحوة: الحركات الإسلامية المعاصرة في السعودية) لستيفن لاكروا بالإضافة إلىٰ أول فصلين من كتاب (حتىٰ لا يعود جهيمان) وهما لستيفن لاكروا وتوماس هيغامر، وأضف إليهم كتاب (الإسلاميون والإصلاح السياسي في السعودية) للدكتور منصور الشامسي.

وكل هذه الكتب هي في الأصل رسالة دكتوراه باستثناء كتاب (حتىٰ لا يعود جهيمان) وكتاب الدكتور منصور الشامسي كتب في بحث دكتوراه بجامعة أكستر البريطانية ومعروف أن هذه الجامعة تتزمّت من ناحية أسلوب البحث العلمي عند كتابة البحث من حيث المراجعة ودقتها. كما يفضل أن تقرأ هذه الكتب دفعة واحدة لأن كل واحد منها يفسر الآخر، بالإضافة طبعًا إلىٰ كتاب (أيام مع

جهيمان) لناصر الحزيمي، هذه الكتب تعطيك خلفية جيدة عن التيارات الإسلامية المعارضة في السعودية.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢ مايو ٢٠٢٠م – ٩ رمضان ١٤٤١هـ.

فقه السيرة

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: فقه السيرة.
- اسم المؤلف: محمد الغزالي.
- اسم المحقق: ناصر الدين الألباني.
- عدد الصفحات: ٣٦٠.
- دار النشر: دار الشروق للنشر والتوزيع.

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتاب (فقه السيرة) للشيخ محمد الغزالي ومن تخريج الشيخ الألباني.

وسيرة النبي ﷺ ليست من السير الذي يتمنّى الشخص أن يفرغ منها بسرعة أو يقرأ الكتاب القراءة العادية، فكلما أطال النفس وحاول أن لا يقرأ إلا بصفاء ذهن، كان مردود الفائدة عليه أكثر.

يبدو أن الشيخ الألباني خرّج أحاديث الكتاب من باب الإعجاب به؛ لأن نَفَسَهُ في التخريج ليس نَفَسُ الشخص الناقم الذي يريد أن يفسد الكتاب، بل يصوّب الكثير من الروايات التي يرويها المؤلف، فقد يرويها المؤلف من طريق ضعيف فيأتي الألباني ويذكر أنها تصحّ من طريق آخر. ومع ذلك تجد الألباني يقول عن بعض المرويات «**لم أقف عليها**» فهذا عجيب لشخص مثله! ولم يعقّب الشيخ الغزالي ذاكرًا مصدرها لكمال الفائدة.

وفي نهاية حياة الشيخ الألباني عمل على كتاب أسماه (صحيح السيرة) وكان هو تنقيح للسيرة النبوية التي أوردها ابن كثير في البداية والنهاية ولكن توفي الألباني قبل أن يتمّ كتابه وقد وقف عند حادثة الإسراء والمعراج.

وقد اكتفىٰ الألباني في كتاب الغزالي بتخريج الأحاديث مع شيء قليل من الآثار وأوردها بشيء يسير من التعقيب علىٰ متن الكتاب، وقد ردّ عليه الغزالي في مقدمة الكتاب حول منهجية الاستدلال في السيرة، فحكىٰ أنه يجوز الاستدلال بالأحاديث الضعيفة سندًا إن كان متنها موافق للقرآن أو حديث صحيح آخر، ثم حكىٰ أنه قد يستدل بأحاديث ضعيفة تكون مقدمة تمهيدية لأحاديث صحيحة - مثل قصة غزوة بني المصطلق -، فالغزالي يرفض الاستدلال بما في الصحيح رأسًا والذي ذكر فيها الغزو الذي حصل علىٰ حين غِرّة ويرىٰ أن هذا يتعارض مع مبادئ الإسلام في حال الحرب، وأن لا بُدَّ أن تكون هناك مقدمات لحصول ذلك ومن بينها الرواية التي أوردها ابن جرير والتي وهّنها الألباني.

ويبدو أن الغزالي أهمل تخريجات الألباني والتعقيب عليها مع الوقت، ففي بداية الكتاب قد تجده يعلّق علىٰ بعض التخريجات ويقول: «**ومع نقد الأستاذ لهذا الحديث، فنحن نقبله لأن معناه يوافق الآية، ولأنه من الفضائل**». وأحياناً تحصل شيء من المناكفة في الهامش فيقول الغزالي مثلًا معقبًا علىٰ كلام الألباني: «**الحق ما قلنا، وليس للشيخ وجه في اعتراضه**» وذلك لأن الألباني - كما أسلفنا - لم يكتفي بالتخريج فكانت له بعض الملاحظات اليسيرة علىٰ ما وُجِدَ في المتن. وأطول ردٍّ للغزالي علىٰ الألباني كان في قصة الراهب بحيرا كما في هامش صـ٥٤.

وللغزالي رؤية معينة في النظر الىٰ أمثال المعجزات وعلم الغيب، فطمسَ ذكرهم تقريباً من السيرة، وقد أوضح منهجه هذا في المقدمة، وهو أنه ضد التوسّع المذموم لهما مع إيمانه بهما، ولذلك قد تراه يتكلّف أحياناً في تأويل بعض صوره، مثل حديث عدي في البخاري لما قال له الرسول ﷺ: (**ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى**)، فيقول الغزالي معقبًا: «**والحق أن هذه الأحاديث وأشباهها لم تكن إخباراً بغيب، وإنما تصديقًا لوعد الله بأن المستقبل للإسلام، وبأن هذا الدين سيسود المشارق والمغارب**».

ولم يلتزم الشيخ الغزالي بسرد الأحداث التفصيلية في السيرة بل يكفي أن يستدل ببعض الشواهد ويهمل البقية، ويركّز على إحداها وقد يسقطها على الواقع المعاصر أو يحكي الفائدة منها بأسلوبه الأدبي الجميل. ولو أسمى المؤلف كتابه لمحات من السيرة لكان أفضل لأن (فقه السيرة) قد يفهم منه أن المؤلف سوف يستنبط أحكام فقهية وهو لم يفعل غالباً.

وأنا أرى أن الفائدة تكون أكثر عندما يقوم مؤلف الكتاب بتحليل الأحداث بدلًا من أن يرويها كما هي. فقد يلفت انتباهك لأمور لم تكن منتبه لها. وأحسب أن الغزالي في بعض المواضع جعلني أفهم الموقف بشكل أوضح من فهمي لها أثناء قراءتي كتاب (الرحيق المختوم) مثلاً؛ وذلك لأنه كان يحلل أحيانًا أو يقرّب لك تداعيات الحدث وآثاره.

وفي خاتمة الكتاب تخللت بعض الفصول شواهد هي ضمن حياة الرسول ﷺ ولكنها ليست ضمن السرد التاريخي، مثل الردّ على شبهة حول تعدد الزوجات ونمط حياة الرسول ﷺ ، فقد أجاد وأبدع محمد الغزالي في الردّ على هذه النقطة وقد ذكرها قبل عودة الرسول الى مكة ومرضه وثم وفاته ﷺ.

وتلمح في كلام الغزالي توصيفًا جيدًا لواقع الحكّام المعاصرين، كما في صـ٢٧٣، وصـ٢٧٦، والغزالي من الرعيل الأول للإخوان المسلمين، ولكن حصل له خلاف مع المرشد حسن الهضيبي، أدّى ذلك الى ترك الجماعة، وله كتاب اسمه (من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي) فيه شيء من ذكرياته وانتقاداته لرفقاء الدرب والإغلاظ عليهم، فأقول: يمكن – والله أعلم – أن هذه البصيرة بالواقع كانت نتيجة الحياة الحركية التي عاشها الغزالي مبكرًا.

وختامًا أقول أن الكتب التي تكلمت عن سيرة النبي ﷺ والفوائد المستنبطة منها قد تعددت، وأحيانًا لا يخلو الإسقاط الأيديولوجي عليها، وأحيانًا هذه الكتب تكون مجرد تجميع وأحيانًا تنقيح كما هي مشاريع (صحيح السيرة) وأحيانًا تشريح كما صنع منير الغضبان، الذي ألف كتاباً من ١١

مجلد بعنوان (المنهج التربوي للسيرة النبوية) في الجانب السياسي والجهادي والقيادي والفقه والأخلاقيات، وله كتاب مشهور أيضًا (المنهج الحركي للسيرة النبوية). وكانت هذه المؤلفات مما نُصحت بها بشدة.

هامش: شيء من اقتباسات الكتاب مع بعض التعليقات عليها:

- «أذكر أنه قابلني نفر من أهل المغرب يزعمون أنهم قدموا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن، فأتهمتهم أنهم فارون من الزحف؛ لأن إخوانهم يقاتلون الفرنسيين الغزاة. وهم مجرمون بتركهم المجاهدين يحملون وحدهم عبء هذا الكفاح». (صـ٨)

- « ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجذبة إلى أرض مخصبة. إنها إكراه رجل آمن في سربه، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه، والتضحية بأمواله، والنجاة بشخصة فحسب، وإشعاره - وهو يصفي مركزه - بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان. ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طيّاش، فكيف وهو ينطلق في الطول البلاد وعرضها يحمل أهله وولده؟ وكيف وهو بذلك رضيٌّ الضمير وضّاءُ الوجه؟ إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش! وإيمان بمن؟! بالله الذي له ما في السموات والأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير.

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن، أما الهيَّاب الخوَّار القلق، فما يستطيع شيئاً من ذلك». (صـ١٢٠).

- «وتنشئة الأولاد في البادية ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف. إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش. ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما

يعود إليه - إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنع. ونحن نقدر لاهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه. ويبدو أن هذا حلم عسير التحقيق». (صـ٥٠).

- في غزوة مؤتة وبعد استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة... لماذا رفض ثابت بن أقرد أن يأخذ الراية؟! يقول الشيخ محمد الغزالي: «**وأخذ الراية التي تداولتها أيدي الأمراء الثلاثة ثابت بن أقرد وصاح: "يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم" قالوا: "أنت" قال: "ما أنا بفاعل" فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. وثابت أبى القيادة لا نكوصًا عن الموت بل شعروا بوجود الأكفّاء منه في الجماعة، وحملانه الراية خشية أن تسقط، من آيات الجرأة في هذا الموقف العصيب. وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم التي يستحقونها، فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته**». صـ٢٨٢، فقلت: وياليت قادة الجماعات الإسلامية ممن ينطبق عليها هذا الوصف الأخير أن يقتدوا بثابت بن أقرد رضي الله عنه.

- أثر التنشئة الإسلامية على الأطفال في المجتمع الإسلامي... لتسأل أي جماعة إسلامية نفسها وقد سيطرت على الأراضي لفترات طويلة. هل نجحت في صناعة هذا النموذج؟ يقول الشيخ محمد الغزالي: «**إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هي قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت الأُمّة كلها أُمّة كفاحٍ غالٍ عزيز. وحسبك أن جيش مؤتة لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون: "يا فُرّار، فررتم في سبيل الله؟" إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فرار يقابل بحثو التراب. أيُّ جيلٍ قويٍّ نابهٍ هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟! أيُّ نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة**

أولئك الأطفال العظام؟ مَن آباؤهم؟ مَن أمهاتهم؟ كيف كان الأباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يُدَلِلن؟! إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس» (صـ٢٨٣).

- لتعرف أثر نعيم الجنة على الشهداء! فهؤلاء الشهداء لم يسروا أن يكونوا في الدنيا والذي كان فيها النبي ﷺ وأهاليهم وقرابتهم وأحبائهم وكل من يعز عليهم .. أيُّ نعيم قد نالوه! يقول الشيخ محمد الغزالي: «**تحدث النبي ﷺ عن قادة الجيش الذين قتلوا، فقال لأصحابه: (ما يسرهم أنهم عندنا) أجل، إن الجوار الذين صاروا إليه أحب لنفوسهم وأقرّ لعيونهم من الدنيا وما فيها. أما أُسَرُهم ففي كفالة الله، وهو نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير**». (صـ٢٨٣).

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٤ مايو ٢٠٢٠م – ١١ رمضان ١٤٤١هـ

طوق الحمامة

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: طوق الحمامة في الألفة والألاف.**
- **اسم المؤلف: ابن حزم الأندلسي.**
- **اسم المحقق: إحسان عباس.**
- **عدد الصفحات: ٣١٨.**
- **دار النشر: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من فترة من كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، من تحقيق إحسان عباس والذي ضمّنه عباس ضمن رسائل ابن الحزم الواقعة في أربعة أجزاء وقد ضغطت في مجلدين من نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

وهذا الكتاب قد نُشر كثيرًا في طبعات متعددة وتصدىٰ لتحقيقه جمهور غير قليل من المحققين، وأنا لم أستطع أن أقرأ كل الطبعات وأقارن بينها ولكن طبعة إحسان عباس طبعة فاخرة، فهو شخص موسوعيٌ بحق، ومتخصص في تاريخ الأندلس - إذ أن هذه الرسالة فيها ما يسمىٰ Side Story أو قصة جانبية، يتكلم فيها ابن حزم عن بعض الشخوص وبعض الحوادث ويؤرخ فيها لبعض الأمور، فهو لم يفصل قصص الحب عن الواقع الحياتي في الأندلس، وما يمسه من أحداث سياسية أثرت بشكل أو بآخر في القصص التي يقولها، فكان لا بُدَّ من وجود شخص مختص في باب التاريخ والتراجم في آن واحد يشرح لك من هؤلاء الذين يتكلم عنهم ابن حزم.

وقد يذكر أحيانًا ابن حزم القصة أو الحديث بالمعنىٰ؛ وهذا المعنىٰ فيه خلاف للنص الأصلي، فيكون دور المحقق هنا هو وضع القصة نصها الأصلي أو الحديث كما هو في الهامش. وكان إحسان عباس معلقًا في بعض الأحيان علىٰ بعض الأمور، التي ترىٰ أن في استدراكه علىٰ ابن حزم فائدة، مثل كلام ابن حزم عن أن النساء لا تفشين أسرار العلاقات.

ومن خلال استقرائي لتحقيق إحسان عباس رأيت أن عمل التحقيق يفضل أن يقوم به الشخص في ذروة إنتاجه العلمي، أي بعد أن يمتلئ المحقق مطالعةً وبحثًا وبذلك تكون نسب الوقوف علىٰ مصدر الأقوال أرجح بكثير عندما يبدأ محققًا وهو للتو في مرحلة الجرد، وكذا يظهر من خلال أسلوب إحسان عباس أن ضبط اللغة العربية ركيزة أساسية لعملية التحقيق، فبعض كلام ابن حزم يحتاج إلىٰ محقق حذق لتوجيهه الوجه الصحيح، وهذا يكون بإجادة اللغة وضبطها ضبطًا حسنًا وبمعرفة كلام العرب وسياقاته ومدلولاته، وثانيًا بالوقوف علىٰ عدة مخطوطات وسوف ترىٰ في تحقيق إحسان عباس أن بعض الكلمات تراها أوضح معنىٰ في المخطوطة الأخرىٰ.

في مقدمة طوق الحمامة أظهر ابن حزم منهجه في التأليف وأبان أن سبب تأليف هذه الرسالة ليس رغبة عابرة وإنما استجابة لصديق له بعث برسالة طلب منه أن يؤلف في هذا الباب، وأنت ترىٰ أن ابن حزم يقول لو لا هذا الطلب لما كتبت هذه الرسالة، وذلك في قوله: «**وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، [...] فبدرت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فهذا من العفو، والأولى بنا مع قِصَرِ أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غدًا**».

وأظهر أيضًا في المقدمة أن ما ينقله من قصص في هذا الكتاب هو مما شاهده أو وقف عليه أو حدثه به الثقات ممن عاصرهم، ولكن في الوقت ذاته كنّىٰ عن أسماء هذه الشخصيات وقال أن سبب التكنية فهي «**إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحافظ في ذلك صديقا ودودًا**»، وأما الذين سماهم

في قصصه التي أوردها فذكر بسبب ذلك وقال: «**وحسبي أن أُسَمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيبٌ في ذكره، إما لاشتهارٍ لا يغني عنه الطيٌّ وترك التبيين، وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره وقلة إنكارٍ منه لنقله**». فتجد أن هذه الأخبار ليست نقلًا عن كتب المتقدمين أو ما شاع عن الأعراب المتقدمين، بل هي أخبار اقتصر زمانها المكاني على فترة ابن الحزم (٣٨٤هـ - ٤٥٦هـ) وهي مفيدة للباحث في علم الاجتماع والوقوف على عادات الناس في ذلك العصر.

وأظهر في المقدمة أيضًا أن أغلب الأشعار التي قيلت في الكتاب هي من صنع ابن حزم نفسه على لسان هذه الشخصيات التي تكلّم عنها، ومما يجدر به الذكر أن ابن حزم ذكر في الكتاب، أن نشأته الأولى في الشعر وتحفيظ القرآن والكتابة كانت على يد النساء، فهن ساهمن مساهمة كبيرة في صناعة هذا الرجل الموسوعي.

ومع ذلك النسخة التي كانت المصدر لكتاب (طوق الحمامة) التي نسخت في مستهل رجب عام ٧٣٨هـ ذُكر في خاتمتها: «**كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة بعد حذف أكثر أشعارها وإبقاء العيون منها تحسينًا لها وإظهارًا لمحاسنها وتصغيرًا لحجمها**». فليست كل أشعار ابن حزم التي ذكرها في كتابه هذا قد وصلتنا.

والكلام عن أمور إنسانية مشتركة بين كل البشر مثل «الحب» يجعل الكتاب مفيدًا في كل زمان ومكان؛ لأن هذه غريزة إنسانية باقية في الإنسان ما بقي، فكلام بعض المؤلفين عن آثار الصفات الإنسانية في حقبة ما، تجد غالبًا الفائدة فيه رغم مرور القرون عليها. ولا أدل على ذلك من كتاب (العبودية المختارة) للفليسوف الفرنسي إتين دي لابويسيه، فكتب كتابه في القرن الخامس عشر مستدلًا بشواهد من زمان الإغريق والرومان قبل الميلاد ورأى أنها شواهد صالحة للاستدلال على حالته في القرن الخامس عشر، ونحن نرى أن هذا الكتاب المكتوب في ذلك الزمن والذي استدل فيه كثيرًا بما ورد في زمن قبل الميلاد صالح للاستدلال على حالتنا في القرن الواحد والعشرين، ما الذي

جعل هذه الصلاحية سارية كل هذا الوقت؟ وهي تشابه صفة «الطغيان» لدىٰ الإنسان وما يترتب عليها من آثار.

ولأن الحب صفة إنسانية مشتركة؛ فسوف تجد الكثير من نظائر ما كتبه ابن حزم في بعض كُتب الأدباء العالميين عندما يتكلّمون عن الحب، فمثلًا في الجانب النظري ترىٰ ابن حزم يقول: «**ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه قسرًا إلى طباع من يحبه**»؛ ثم تجد تطبيق ذلك في رواية ليو تولستوي (السعادة الزوجية) علىٰ لسان ماريا ألكسندروڤنا لما قالت: «**الكتب التي كانت حتى ذلك الحين لا أقرأها إلا دفعًا للضجر ومنعًا للسأم أصبحت فرحًا من أكبر أفراح حياتي، لا لشيء إلا لأننا تبادلنا بعض الأحاديث عن الكتب أو قرأناها معًا، أو جاءني ببعضها**».

أو حتىٰ في كلامه عن العيون في إيصال المشاعر لما قال: «**وأعلم أن العين تنوبُ عن الرسلِ، وَيُدْركُ بها المرادُ، والحواسُّ الأربع أبوابُ إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملًا**»، وهذا يُذكرك بما قاله الروائي محمد بن صالح الشمران في روايته (أميرة) لما قال: «**لغة العيون وحدها التي تستطيع إيصال ما في القلوب من غير نفاق أو مصانعة**».

ثم ما الذي جعل هذا الكتاب يكون علامة فارقة لدىٰ المستشرقين وينال هذا الاهتمام الكبير؟ هو لأنه من الغريب أن يتكلم ما يسمىٰ بـ«رجل الدين» في هذه الأبواب ولا يأتي بكلام عام، وإنما يفصّل ويشرح تفصيلًا دقيقًا.

رغم أن ابن حزم قد قيّد كلامه في آخر بابين من الكتاب، فباب (قبح المعصية) هو فيما أظن من أطول الأبواب ثم تلاه بفصل (فضل التعفف)، ليعمل موازنة فيما طرح سابقًا حتىٰ لا يتماهي الشخص مع هذه القصص وينساق لهواه.

وفي الفصلين وضع جملة من الضوابط والنواهي حتىٰ لا يقع الشخص في المحظور الشرعي ورغب في الحلال وزينه. ومع ذلك توقع أن يُنكر عليه من أسماهم «المتعصبين» لتأليفه مثل هذا الكتاب

فقال في الخاتمة: «**وأنا أعلم أنه سينكر عليَّ بعضُ المتعصبين عليّ تأليفي لمثل هذا ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أُحلّ لأحدٍ أن يظنَّ فيّ غير ما قصدته**».

القصة الجانبية في الكتاب هي بعض المذكرات، ككلام ابن حزم المتفرق عن نفسه، حكى في غير موضع عن تعلقه الشديد بجارية اسمها نُعْم وموتها وحزنه الشديد عليها، ولقد ماتت وهو في العشرين من عمره، إلا أنه تراه يقول: «**فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل غداءً لفديتها بكل ما أملك من تليدٍ وطارف، وببعض أجزاء جسمي العزيزة عليّ مسارعًا طائعًا، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيتُ ذكرها، ولا أنست بسواها، ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده**».

وحكى عن شيخه الذي كرَّه إليه فعل القبائح، وحكى عن نفسه أنه لم يزن قط، وذكر تواريخ وفاة والده والأجواء التي هيمنت على العزاء آنذاك، ولكن تكرر كلامه عن تلك الجارية التي تعلق قلبهُ بها في ثلاثة مواضع، وكان أحيانًا عرض موجز ولكنه أطال النفس في أحد المواضع.

ويرى ابن حزم أن المتحابين لا يتحابون حبًا حقيقيًا إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفقات الطبيعية، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة، وأصل لهذا الموضوع من الناحية الشرعية والفلسفية والواقعية، وفي الوقت نفسه لا يؤمن ابن حزم بقضية الحب من أول نظرة، فيقول: «**وإني لأطيل العجب من كلَّ من يدّعي أنه يحبّ من نظرةٍ واحدةٍ، ولا أكاد أصدَّقه، ولا أجعل حُبَّه إلا ضربًا من الشهوة، وأما أن لا يكون في ظني متمكنًا في صحيح الفؤاد نافذًا في حِجاب القلب فما أقدر على ذلك، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا وأخذي معه في كل جدٍ وهزل**».

ويذكر ابن حزم أن من علامات الحب «**نحول الجسم من دون حرٍّ يكون فيه ولا وجعٍ مانعٍ من التقلّب والحركة والمشي**».

وهذا الأمر حاضر في أذهان العامة، فعندما يرونك ضعفت فجأة يمازحونك قائلين: هل تحب؟! فهو شاخص في أذهانهم أن الحب يضعف، وأن هذا أمر مشاهد منذ القدم.

ويذكر أيضًا ابن حزم من علامات الحب «**أنك ترى المحبَّ يحبُّ أهلَ محبوبه وقرابتَهُ وخاصَّتهُ...**».

وأنك ترىٰ هذا في كثير من العشاق، وهذا تجده في قول عنترة:

أُحِبُّ بَني عَبسٍ وَلَو هَدَروا دَمي لِأَجلِكِ يا بِنتَ السَراةِ الأَكارِمِ

ففي هذا البيت يقول أنه يحب بني عبس لا لأنهُ منهم بل لأجل عبلة حتىٰ وإن هدروا دمه!

وقد بوّب ابن حزم (باب من أحبَّ بالوصف) وقال في مقدمته: «**من غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة؛ [...] فإن للحكايات ونعت المحاسن ورصف الأخبار تأثيرًا في النفس ظاهرًا**».

ولأن الرجل قد يتأثر بذكر وصف المرأة - حتىٰ دون أن يراها - وقد يهيم فيها ويُفتن بها؛ قد نهىٰ الرسول ﷺ كما في البخاري أن تباشر المراة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها. ورغم أهمية هذا الحديث في هذا الباب إلا أن ابن حزم لم يأتي علىٰ ذكره وأظنه سقط سهوًا.

وبوّب أيضًا (باب المراسلة) وقال: «**فرب فضيحة كانت بسبب كتاب**». الآن هناك ما يُعرف بـ«أدب الرسائل»؛ وفيه جزء لا بأس به عن مراسلات حب؛ ولعل أشهرها كتاب (الشعلة الزرقاء) الذي حوىٰ رسائل جبران خليل جبران ومي زيادة؛ وكذا صنيع غادة السمان في نشرها رسائل غسان كنفاني. ولعل هذه الأخيرة يصلح لأن تكون داخلة ضمن كلام ابن حزم، فهنالك جوانب بلاغية جميلة وهو ما ركزت عليه الغالبية من القراءة؛ إلا أن هناك جانبٌ اجتماعي غُفل عنه، فكانت رسائل غسان كنفاني إلىٰ غادة السمان وهو متزوج بامرأة أخرىٰ، وفي نفس الوقت يهيم حبًا بامرأة

غير زوجته، ويريدها أن تبادله مشاعر الحب ذاته! وبقي خلفها سنوات تلو سنوات وهو على هذا الحال، ولما نشرت هذه الرسائل وأظهرتهُ على هذا الحال أظن أن ذلك من الفضيحة.

ولم تكن لتحدث هذه الفضيحة من غير المكاتبة والمراسلة؛ فهي الدليل الدامغ، فلو كان الكلام شفهيًا لكانت هناك مداخل - لا مدخل - لتكذيبهِ وهو مما لا يحصل مع الكتب التي يُستطاع من خلالها عمل مقارنة بلاغية بين أسلوبه في كتبه وأسلوب الرسالة، والصوت والصورة أشد توثيقًا من الكتب وهو أمر لم يدركه ابن حزم.

وقد قرأت هذا الكتاب في فترة خطوبتي فقلت آنذاك مغرداً: «**كتاب طوق الحمامة لابن حزم من الكتب التي يفضّل قراءتها لوجود مناسبة ذات علاقة، مثل الاقتران أو الخطوبة، هذا يجعلك تعيش جوها أكثر وتمازج ما بين النظرية والتطبيق**».

ملحق:

جرت العادة في وقتٍ سابق، أن أقرأ أنا وصاحبي كتابًا متفقًا عليه، ثم نجلس نتبادل أطراف الحديث حوله، وكل شخص يسرد ما ظهر له من الكتاب، وفوائد هذه الطريقة أنها قد تظهر لك بعض الجوانب من الكتاب لم تنتبه إليها وقد انتبه لها صاحبك، أو العكس، وهذا يؤدي إلى تنمية أساليب النظر في الكتاب، ثم فرّق بين انتظامنا تصاريف الأقدار، وكلٌ سلك طريقة الخاص فيما يقرأ.

وقد اتفق قدرًا أننا قرأنا كتاب (طوق الحمامة) في وقتٍ متقارب، فأردنا أن نتذاكر أيامنا الخوالي، فسألته: «ماذا استفدت من الكتاب؟» فأجاب: «لقد ظهرت لي نقطة مركزية في فكر ابن حزم في هذا الكتاب، وهو من البديهيات التي لا يحتاج أن ينص عليها ابن حزم ولا غيره، بل هي أشبه بالعملية الرياضية التي لا يفوت أحد نتائجها، ولكن قد تخفى على البعض؛ كأن ابن حزم في كتابه يقول، أن الأخطاء والذنوب الكبيرة تحصل في الانتهاء لعدم الالتزام بالأحكام الشرعية في الابتداء».

فقلت له: «هل يمكن أن تضرب لي أمثلة لتوضّح لي؟»

قال: هناك قصتان ذكرهما ابن حزم في كتابه، الأولى عن امرأة، حكت قصتها أنها عادت من الحج مع نسوة عبر سفينة، فاستلطفن ملاح السفينة (أو ربانها) واستلطفهنَّ، إلى أن وقع الفحش بينهم. (ارجع إليها في رسائل ابن حزم: ١/ ٢٨١) حسنًا، ما هو الخطأ الأول هنا الذي جر إلى الخطأ الثاني؟! هل الاستلطاف بمعنى أنهن لو لم يستلطفنه لما جرّ ذلك إلى تجرأ الربان عليهن؟!

قبل الإجابة دعني أحكي لك القصة الثانية ففيها توضيح أكثر: وقصتها أن صديقًا ألح على صديقه أن يبيت عنده لليلة، وقَبِلَ صديقه ذلك، ولكن قدرًا أصاب صاحب رب البيت ظرفٌ طارئ جعله يخرج من منزله ويترك صديقه وزوجته وحدهما في المنزل.

ولا يختلي رجلٌ بإمراة إلا أن يكون الشيطان ثالثهما، لم ترو عن الرسول ﷺ فقط، بل رويت حتى عن أئمة الأدب الماركسي أمثال أليكسي تولستوي في ثلاثيته (دروب الآلام) وهو غير الروائي المشهور ليو تلستوي صاحب (الحرب والسلم).

وزيّن الشيطان للمرأة أن تتقرّب من الرجل، فأحس الرجل بمراد المرأة، وهو إنسان في نهاية المطاف قد تنتابه الشهوات وقد يضعف أمامها، فلم يجد ملجئًا ولا معصمًا إلا أن يضع اصبعه في النار، ليطرد الشهوة بالألم، ويتذكر العاقبة، ولم يزل يكرر ذلك حتى حتى «**اصطلمت**» أصبعه وكلّت المرأة واستسملت. (تجدها في رسائل ابن حزم: ١/ ٢٩٦).

الآن المقصد واضح إن شاء الله، ما هو الخطأ الأول؟ الخطأ الأول في كلا القصتين، هو عدم وجود المَحْرَم. كيف تسافر نسوة في رحلة تستغرق أيامًا من غير مَحْرَم؟! وهل تتوقع إن كانت تلك النسوة مع محارمهن أن يتجرأ القبطان ليقترب من إحداهن ليفعل ما قد فعل؟!

وأما القصة الثانية، فعدم وجود المَحرم وهو الزوج في هذه القصة جعل الزوجة تستسلم لنزواتها ولحسن الحظ أن صاحبه لم يستسلم.

وهل تظن أن صاحب الزوج الذي ظهر ورعه في القصة، لو قال له صاحب البيت: «اعذرني يا بو فلان حصل لي ظرف طارئ والبيت ما فيه إلا الحرمة» أنه سوف يغضب أو يزعل؟ بالعكس سوف يتفهم الموقف ويعذر صاحب البيت.

وجميع هذه القصص تدل على عدم الالتزام بالأحكام الشرعية ابتداءً تُفضي إلى تراكم الخطأ والوقوع في المعاصي الكبيرة انتهاءً. هذا والله أعلم.

فشكرته على إيضاحه لهذه النقطة والتنبيه للنقاط المركزية وربط قصتين وردتا في فصلين مختلفين برابط قد يخفى على بعض القرّاء.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٠ مايو ٢٠٢٠م – ١٧ رمضان ١٤٤١هـ

من واحة السنة والأدب

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: من واحة السنة والأدب.**
- **اسم المؤلف: شكيب أرسلان.**
- **عدد الصفحات: ٦١.**
- **دار النشر: الدار التقدمية.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من كتيب (من واحة السنة والأدب) لشكيب أرسلان، وهو كتيب يقع في ٦١ صفحة فقط وتنتهي منه في جلسة واحدة؛ والأصل في عنوان الكتاب أنه من اختيار الدار التقدمية التي قامت بتنسيق الكتاب، ومادة الكتاب في الأصل هي مقدمتين كتبهما شكيب أرسلان لكتابين وهما (النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي) لمحمد أحمد الغمراوي وأما الآخر فهو (قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث) لمحمد جمال الدين القاسمي.

المقدمة التي كتبها لكتاب القاسمي صغيرة جدًا (ثلاث صفحات فقط)، وأما بقية الكتاب فهي حول الكاتب الذي يتحدث عن الشعر الجاهلي، وأنت تلاحظ - كما يقول الشيخ عمر بن محمود - أن الرادين على طه حسين حول كتابه في الشعر الجاهلي قد يتفاوتون في الأداء، فمن كان خارج المنظومة الأكاديمية كان يأخذ راحته في مسح البلاط بطه حسين، ولا تحتاج أن تذهب بعيدًا لترى الأمثلة على ذلك، فشيخ الأزهر العلامة محمد الخضر حسين لما ألّف كتابه (نقض الشعر الجاهلي) ترى في ثنايا كتابه الكثير من الهجوم الشرس المباشر، وأما من هو أشد منه فهو صنيع مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تحت راية القرآن) رغم أن طه حسين حاول أن يتألف الرافعي في كتابه حول الشعر الجاهلي، فكان مما قاله عن الرافعي: «**وهذا الفن الأدبي تناول الحياة العربية والإسلامية**

كلها من ناحية خيالية لم يقدّرها الذين درسوا تاريخ الآداب العربية قَدرها، لا أكاد أستثني منهم إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي؛ فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء، كما فطن لأشياء أخرى قيّمة وأحاط بها إحاطة حسنة في الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب»[١٣٤].

وفي المقابل من هذا؛ ترى ناصر الدين الأسد، في تأليفه لرسالة الدكتوراه (مصادر الشعر الجاهلي) والذي تتضمن ردودًا صريحة على طه حسين لم يصرح حتى باسم طه حسين في بحثه وإنما فعل ذلك في الطبعات المتقدمة في الكتاب كما ذكر في المقدمة

وتأطير الشباب حول بعض المعاني والسيطرة على مراكز التعليم لبث وترسيخ بعض الأطروحات، كما صنع طه حسين وأضرابه قد تكلم عنه الدكتور محمد حسين بكلام جزيل جميل في كتابه (حصوننا مهددة من الداخل)، ولذلك فإن التعليم والسيطرة عليه مدخل مهم لبث المفاهيم في جيل كامل من الشباب، وقد نجحت الصحوة في السعودية بذلك، لذلك عندما وصلت إلى مرحلة الصِدام مع النظام في السعودية، كانت أول خطوة قام بها النظام بعد القبض على رموز الصحوة، هو إعادة هيكلة تنظيم هيئات التدريس في الجامعات كما حكى ذلك ستيفان لاكروا في كتابه المهم جيل الصحوة، فكان ستيفان لاكروا يحكي في كتابه هذا إن الصحوة بعد السيطرة على مراكز التعليم أنشأت جيلًا على أفكارها ومؤيد لها، وأن هذا لم يتم لولا أنهم لم يسيطروا على التعليم.

وعودًا إلى شكيب أرسلان، ورغم أن الكتاب مجرد مقدمة بسيطة - كما يفترض - إلا أنه أطال النفس وجاوز الـخمسين صفحة ويبدو أنه كان لديه الكثير ليقوله، وقد حاول أن يرد على طه حسين من خلال المنطق العقلي، فمثلًا يقول أنه نسبت لي ثلاثة قصائد فهذا لا يعني أن كل قصائدي منحولة ومكذوبة، فوجود بعض الشعر المحرف والمنحول لا يُلغي وجود الشعر الصحيح فلا

---

[١٣٤] في الشعر الجاهلي، طه حسين، تقديم ودراسة وتحليل: سامح كريم، الدار المصرية اللبنانية (صـ٢٠٩-٢١٠).

يُشكك في الصحيح لأنه يوجد قصيدتين مكذوبتين على الشاعر الجاهلي عنترة أو امرئ القيس أو غيرهما، أو كما يقول شكيب أرسلان نفسه: «**أفنقول بعد هذه المقدمة: إنه لما كان قد عزي إليّ شعر لم أقله، وذلك مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو عشرًا، وكانت قد وردت هذه النسبة في جرائد سيَّارة أو صحف منتشرة، لزم من هذا أن يكون شعري الذي يبلغ مئات من القصائد، ونثري الذي يملأ ألوفًا وألوفًا من الصفحات هذا كله منحولًا لي ومصنوعًا علي وإني أنا لست بصاحبه؟ لا نظن في الدنيا منطقيًا ولا عاقلًا يقبل هذا القول، فالحادثة والحادثتين والحوادث النادرة لا يُبنى عليهما حكم عام أبدًا**». (صـ١٠)

ثم تكلم شكيب أرسلان عن تقليد الأوربيين في ما ليس من علومهم - وهو صنيع طه حسين - وذكر أن هذه «**عقيدة في الشرق وهي أن الأوروبي لا يخطئ أبدًا، وأنه من حيث اخترع الأوروبي سكة الحديد والغواصة والطائرة والسيارة والتلغراف اللاسلكي وما أشبه ذلك، فلا شك أنه صار يفهم جيمية الشماخ ولامية الشنفرى أحسن مما يفهمها سيبويه والخليل بن أحمد. وإنه لما كان قوله الفصل في الكيمياء والطبيعيات والطب والهندسة... إلخ لزم أن يكون قوله الفصل أيضًا في المفاضلة بين الفرزدق وجرير والأخطل**». (صـ١١).

وهذا يشير إلى تأثر طه حسين بـ المستشرق مرجليوث في قضايا الشعر الجاهلي وأنه أكذوبة اخترعها المسلمون وأن هذه الشخصيات لم توجد وأن المسلمين اخترعوا هذا الشعر بدافع ديني محاولين طمس كل معالم الوثنية التي سبقتهم وغيرها من الدوافع، وأنا أذكر أثناء قراءتي قديمًا لكتاب محمد الخضير حسين أنه كان يثبت سرقات طه حسين من مرجليوث وليس مجرد تأثر بما طرحه، وأنت ترى من مضحكات القدر، أن طه حسين يتكلم عن انتحال الشعر وكتابه يكاد يكون كله منحول مرجليوث.

وكان عمدة مرجليوث ومن بعده طه حسين في هذه النفي أن الشعر الجاهلي لا يمكن أن يلقىٰ علىٰ لهجة قريش؛ لأن هذه اللهجة لم تصبح هي المعتمدة أدبيًا إلا بعد أن نزل القرآن بها، وإلا فكل قبيلة تتكلم بلهجتها الخاصة، وتلقي قصائدها – لزومًا – بلهجتها، فوجود قصائد لشعراء جاهليين ليسوا من قريش قد قيلت علىٰ لهجة قريش دلالة علىٰ كذب هذا الشعر، وبالتالي لا يصح أن يستدل عليه لتصويب لغوي في تفسير القرآن، ولا لضبط قواعد لغة العرب.

وأذكر أن من أفضل من رد علىٰ هذا الزعم الساقط – ويا للغرابة – هو علي الوردي، الذي يقطن مع طه حسين في نفس المستنقع في كتبه (أسطورة الأدب الرفيع) وذكر دور سوق عكاظ في ترسيخ لهجة قريش كلهجة في الجانب الأدبي الرسمي، فقال: «**كانت قريش تبذل في الأسواق الأدبية على الشعراء بقدر ما تبذل في موسم الحج على زوار بيت الله الحرام. فكانت تنظر في القصائد التي تتلى في سوق عكاظ أو غيره فتختار منها الجيد وتعلقه على الكعبة. وقد ساعدت قريش بعملها هذا على إنشاء لغة موحدة بين القبائل العربية فنحن نعلم أن لهجات القبائل يومذاك كانت متباينة من نواح عديدة. ولكن شعراء تلك القبائل كانوا يحاولون نظم الشعر باللغة الموحدة التي ترعاها قريش وتمنح فيها الجوائز. أما الشاعر الذي كان ينظم بلغة قومه، فلم يكن يعني به إلا قومه. ولهذا فهو غير قادر على عرض قصيدته في عكاظ أو في غيره من الأسواق الأدبية. وصار الشعر الجاهلي من جراء ذلك في غربلة متصلة فما تستحسنه قريش منه يروى ويمجد، وما لا تستحسنه يهمل**» [١٣٥]

والوجه الآخر أن من فسدت عنده الأصول فمن الطبيعي أن تكون فروعه فاسدة، فالمستشرقون وأذنابهم لا يرون في السنة علىٰ أنها مصدر من مصادر الاستدلال المعتبرة، بل كانت أغلب حروبهم

---

[١٣٥] أسطورة الأدب الرفيع، علي الوردي، دار كوفان، الطبعة الثانية: ١٩٩٤ (صـ١١٠– ١١١).

ضدها أصلًا، وإلا فقد جاء في الصحيحين عن الرسول ﷺ أنه قال: (**أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: "أَلَا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ"**)[١٣٦]، ويقصد ما قاله لبيد في بعض أشعاره:

أَلَاَ كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهُ باطِلُ وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ [١٣٧]

ومن المعلوم أن لبيد بن ربيعة العامري من قبيلة هوازن القيسية، ومع ذلك يقول شعره على هذا النحو، ولَبيد هذا من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الإسلام وأسلموا وتوقفوا عن الشعر بعد الإسلام ولم يقل إلا بيتًا واحدًا[١٣٨]، وإن قصيدته هذه التي حفظت لم تكن من معلقته وهذا يكفي للرد على من حصر الصحة في شعر المعلقات فقط من الأشعار الجاهلية على اعتبار أنها صاحبة الصيت والتي اعتنى البعض بحفظها وروايتها، فقد رواها ابن الأنباري والأصمعي. وهذا دليل واضح وصريح من السنّة الصحيحة على صيغة الشعر الجاهلي، وأن الشعر كان يُلقى على هذا النحو من البحور والأوزان.

ومما يُضاف إلى ذلك ما جرى في غزوة الأحزاب أو الخندق، فعن البراء بن عازب: لما كان يوم الأحزاب، وخندقَ رسول الله، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عني الغبارُ جلدةَ بطنِه، وكان كثير الشعر. فسمعته يرتجز بكلماتِ ابن رواحة، وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فـأَنْزِلَنْ سَكِينةً علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إنَّ الأعداءَ قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا [١٣٩]

---

[١٣٦] صحيح البخاري (٣٨٤١)، صحيح مسلم (٢٢٥٦).

[١٣٧] ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، (صـ١٣٢).

[١٣٨] الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، دار المعارف، تحقيق: أحمد شاكر (١/ ٢٧٥).

[١٣٩] صحيح البخاري (٤١٠٦)، صحيح مسلم (١٨٠٣).

هذا الشعر موجود في الصحيحين ونسبته إلىٰ عبد الله بن رواحة الخزرجي الأزدي، وتجد في شعره نفي الأوزان والبحور التي استخدمت في الحقبات الإسلامية المتتابعة! فمن شكك في نسبة أشعار الجاهلية إلىٰ أصحابها لاختلاف اللهجات لزمه أن يُشكك فيما رُوىٰ في الصحيحين، والمستشرقين لا يرون حرجًا في ذلك، وإنما كل الحرج علىٰ من حاول أن يضع له قدمًا في كلا الموضعين المتضادين.

وعندما تكلم شكيب أرسلان عن الغربيين وبعض أخطائهم ذكر أمرًا ملفتًا فقال: «**ونعود إلى الخصال التي أُولع بها الأوربيون، وليسوا فيها على حق، بل أصبحت عندهم أشبه بمرض أو هوس منها بعادة أو خصلة؛ وذلك أنهم يبالغون في القليل ويريدون أن يجدوا لكل حادثة أسبابًا غريبة وعللًا لا تخطر على بال، فيأتون من هذا النوع بالغث الذي يكاد يقيء له القارئ العليم من شدة غرابته**». (صـ١٣)

وقد وجدت أثر هذا الكلام بعد قرابة القرن علىٰ هذا الكلام، وذلك لقراءتي لكتاب جيل الصحوة لستيفان لاكروا وإدخال قضية الخضيري والقبيلي في شأن لا علاقة له بهما، ثم وجدت الدكتور محمد الأحمري يعقّب علىٰ شبه مماثل حول أطروحة كتبها ذات المؤلف ومعه شخص آخر حول جهيمان في كتاب (حتىٰ لا يعود جهيمان) فقال الأحمري في المقدمة: «**ولقد وددت أن تنجو هاتان الدراستان من عيوب الدراسات الاستشراقية المكرورة، وقد سلمِتا لحسن الحظ إلى حد بعيد من تلك العيوب، ولكن في الوقت نفسه أكدت الدراسات بعض العلل المعروفة عن عمل المستشرقين، أولى هذه العلل: غربة الكاتب عن بيئة وفكر وثقافة المجتمع، وثاني هذه العلل: الهاجس التنظيري والقبض على وعي الحدث من خلال نظرية ما مفسرة ولو متعسفة أحيانًا في غير مكانها، مثل البحث في مسألة البدو والحضر والقبيلة**». [١٤٠]

[١٤٠] حتىٰ لا يعود جهيمان، ستيفن لاكروا وتومهاس هيغامر، وتحرير حمد العيسىٰ، منتدىٰ المعارف، الطبعة الثالثة: ٢٠١٤، (صـ٨).

ثم جاوب شكيب أرسلان على سؤال وهو هل من صالح الإسلام مَسح ذكر الأديان السابقة في الشعر؟! فيقول: «**ولعمري إن حفظ ذكرى هاتين الأديان كان ضروريًا ليتبين الفرق بين الحالة السابقة والحالة اللاحقة، وليعلم الناظر المتأمل كيف نقل الإسلام العرب من عبادة الشجر والحجر وأصنام العجين إلى عبادة الإله الواحد الذي لا إله إلا هو، ومن وأد البنات إلى الرحمة، ومن البغاء إلى العفة، إلى غير تلك مما كانوا فيه وصاروا إلى عكسه... وبضدها تتبين الأشياء**». (صـ٢١)

ثم يبرهن شكيب أن المسلمين نقلوا الشعر الذي يعتز صاحبه بالنصرانية ويعلن عن امتناعه عن قبول الإسلام كحال شعر الأخطل الذي قال فيه:

ولستُ بصائم رمضان عمري ولستُ بقائلٍ ما عشتُ يومًا

ولستُ بآكل لحم الأضاحي قبيل الصبح حيَّ على الفلاحِ [141]

فإن كان قد رووا وحفظوا هذا الشعر الذي يعتز فيه الشاعر بدينه أمام الإسلام، فما الذي يحملهم على تزوير الشعر الجاهلي وإماتة ذكر الدين الوثني فيه؟!

بل ويقول شكيب أرسلان: «**ورووا** - أي المسلمون - **جميع أخبار يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر، وأنشدوا الأهازيج التي قيلت في رسول الله وأصحابه ومنها:**

لعبت هاشم بالدين وما نبأٌ جاء ولا وحيٌ نزلْ

ليت أصحابي ببدر علموا جزع الخزرج من وقع الأسلْ

وأوردوا الشبهات التي كان أعداء الإسلام يوردونها على الإسلام، فتجد كتب السير مشحونة بتلك الأقوال، وأغرب من هذا أن عبد المسيح الكندي النصراني كتب رسالة في الرد على دين الإسلام بعث

---

[141] ذكرت بنحو مقارب في: شعر الأخطل أبي مالك بن غياث بن غوث التغلبي، دار الفكر، الطبعة الرابعة: ١٩٦٦، تحقيق: فخر الدين قباوة، (صـ٤٩١- ٤٩٢).

بها إلى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي في أيام عز الدولة العباسية وسلطانها، وتناقل المسلمون كلامه ولم يطمسوا منه شيئًا. وإن من يقرأ السير النبوية وتراجم الصحابة كالطبقات الكبرى لمحمد بن سعد يعرف أنَّ رواة صدر الإسلام لم يكونوا ليعرفوا نشر شيء وطي شيء من الأخبار والآثار، فكل ما اتصل بسمعهم نقلوه، وأنهم رووا من الأحداث ما يجوز أن يتخذ الخصم حجة عليهم وما يكون في نظر المجادل أقرب إلى الذم منه إلى المدح». (صـ٢٣-٢٤-٢٥)، فما الداعي إذًا إلى تحريف الشعر الجاهلي وهم يفعلون كل هذا؟!

وطه حسين لم ينسج كتابه على أرضية صلبة، وقد اتخذ منهجًا يبدو أنه لم يفهمه كمعيار لتقييم الأدب العربي القديم، وهو فلسفة الشك التي انتهجها الفيلسوف ديكارت، فقد بنى كلامه في التشكيك بناءً على هذه الفلسفة، فيقول شكيب أرسلان معقبًا: «**ثم إن الأستاذ الغمراوي تكلم على مذهب ديكارت الذي هو سلاح طه حسين بزعمه، والمحور الذي أدار عليه مباحثه واستخلص منه أن ديكارت لم يبدأ بالشك لأجل أن يستمر بالشك بل ابتدأ بالشك لينتهي إلى اليقين... فقاعدته كانت أشبه بالشهادة: أولها النفي، ونهايتها الإثبات الذي لا شك فيه من ناحية من نواحيه... وإني أرى أحدًا متفلسفًا لمذهب ديكارت هو طه حسين الذي ما زال على أن ألقى شبهات وأورد خوانس، ثمَّ لم ينته منها إلا إلى حيرة عمياء ليست في شيء من مذهب ديكارت. وأقول أيضًا لو سلمنا جدلًا بأن مذهب طه حسين هو مطابق لمذهب ديكارت. فمن يقول إن ديكارت كان معصومًا من الخطأ؟ وإنه إن قال ديكارت فقد قضى الأمر وجفّ القلم؟ فلا ديكارت ولا فيلسوف آخر تلقى الحكماء جميع كلامه بالتسليم**». (صـ٥٦-٥٧)، وعمومًا استمر شكيب أرسلان في إحراج طه حسين حول مدى تماسك بحثه، وأمطره بوابل من الأسئلة المحرجة حول توقيت الانتحال وصاحب القرار، ولماذا سكت الجميع ولم ينبه أحد، وإن اشترك المسلمون فلماذا سكت أهل الملل والنحل وهم ما فتئوا يبحثون عن الثغرة الواحدة؛ للطعن في الإسلام وأهله؟! وبدأ يرد على العبارات التي استخدمها طه

حسين من أجل المباهاة، كقضايا الأدب الجديد والقديم، فأحالها إلى أضحوكة تضحك القارئ العابر.

ومن الجيد عمومًا في مناكفات الشعر الجاهلي، بعد أن تقرأ الردود هو تفتّح الأفاق، وكيف أن العلوم تمتزج مع بعضها البعض، فالتاريخ والأنساب واللغة، أو اللسانيات والدين، كل هذا ينصهر في بوتقة واحدة في تقرير قضية واحدة.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١١ مايو ٢٠٢٠م – ١٨ رمضان ١٤٤١هـ

الأسر التميمية في حوطة بني تميم

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الأسر التميمية في حوطة بني تميم.**
- **اسم المؤلف: إبراهيم بن راشد التميمي.**
- **عدد الصفحات: ٣١٨.**
- **دار النشر: الدار العربية للموسوعات.**

التعليق والمناقشة:

فرغتُ من فترة من قراءة كتاب (الأسر التميمية في حوطة بني تميم) للأستاذ إبراهيم بن راشد التميمي، وقد قدّم لهذا الكتاب عضو مجلس الشورىٰ عبد الرحمن أبو حميد، والشيء الجيد في هذه المقدمة هو ذكره للكثير من المراجع التي ذكرت قبيلة بني تميم قديماً أو حديثاً (تقريبًا ٢١ مرجع) قد وقف عليها بنفسه.

واستهل المؤلف المقدمة بذكر الآثار الواردة في قبيلة بن تميم، ثم أفرد فصلاً في ترجمة جد التميميين الذين من بطن بني العنبر في الحوطة وهو محمد بن سعود بن مانع، ثم ذكر ذريته وفي الفصل الثاني ذكر البطن التميمي الثاني في الحوطة وهم بطن بني حنظلة بن مالك ومنهم أسرة آل شيخ التي منها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتكلم في الخاتمة عن البطن الثالث التميمي في الحوطة بني سعد وختم الكتاب بملحق عن القصائد التي قالها شعراء بني تميم من الحوطة.

وأظن أنه كان حرياً بالمؤلف عندما ذكر نبذة عن بني تميم أن لا يُسقط ولا يهمل كلام العلامة حمد الجاسر في كتاب (جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد)، فقد حكىٰ شيئاً وافياً عنهم، ولكن قد يعز علىٰ المؤلف أن يستدل بكلام الآخرين عند الكلام عن قبيلته. وعموماً أظن أن المؤلف استعجل في

تأليفه للكتاب، ولم يأخذ وقته في تقصي بعض المراجع وجردها، وأذكر أن مسمى حوطة بني تميم قد مرَّ علي أثناء قراءتي أو تصفحي لكتب بعض الرحالة الغربيين، وكذلك مرت معي في كتاب (دليل الخليج) لوريمر، ولا يلزم أن كل ما أوردوه كان صحيحاً، بل يُكتفى بأخذ الأمور الصحيحة التي تجبر النقص الموجود لدى المؤلف حول بعض الأمور.

ومع ذلك هناك نقاط مهمة في هذا الكتاب، قد يُقال لماذا يُتعب الشخص نفسه ويؤلف كتاب كامل في أنساب أسرة أو أُسر في مكان واحد، فليقم برسم مشجرة عائلية وانتهى الموضوع! ولكن ما يميز الكتاب على المشجرة هو أن الكتاب عبارة عن مشجرة ناقطة. يوجد الكثير من الأشخاص الموجودين في المشجرات العادية ينقطع عندهم النسب ولا يذكر شيئاً عن حالهم، ولكن في هذا الكتاب يقول لك أن هذا الشخص ليس له ذرية أو مات صغيراً أو يقول لك أنه هاجر الى بلاد أخرى وانقطعت أخباره، هذه أمور قد تساعد الأشخاص الذين من ذرية هذا الشخص إن أرادوا أن يتواصل مع قبائلهم، فقد ترك لهم المؤلف طرف خيط، ويستطيع الباحث منهم بناءً على هذه المعطيات أن يتأكد ويستوثق أكثر أو يستبعد الإلتقاء معهم وفقاً للمعطيات المذكورة.

ومع ذلك وددت أن يعرض المؤلف في الملحق صوراً من مشجرات العوائل -إن أمكن- كما صنع عباس المرشد في إعداده لكتاب (البحرين في دليل الخليج). فقد كانت هذه الطريقة جيدة وسهلة فالبعض قد لا يستسيغ الطريقة الموجودة: فلان أنجب فلان وثم فلان أنجب أربعه وهؤلاء الأربعه هم كذا وكذا وهؤلاء الأربعة أنجبوا وهؤلاء هم ذرياتهم...إلخ، هنا المسألة كلها مرتبطة بحفظ أو الانتباه الى الأسماء الأولى لتفهم تسلسل النسب، خصوصاً إذا طالت الأنساب وتشعّبت.

وما يميز الكتاب أيضًا: أن القبيلة مع تقدم الزمن تتفرع، ويكثر أُناسها. وتخرج افخاذ وأُسر وبيوت.

أحياناً يكون لكل فرد من هذه الأسرة إنجاز أو سيرة ذائعة ولكن يصعب إفرادهُ في كتاب لقلة المعلومات وصغرها. ومع طول الزمن والتسويف قد يموت الموضوع وتموت المعلومات معها مما

يعني فقدان جزء من تاريخ هذه البلاد - إذا كان إنجاز الشخص على مستوى البلاد - أو تاريخ القبيلة.

فهذه الكتب أمثال هذا الكتاب المذكور تحل هذه المعضلة وتجمع هذه الاقصوصات كلها في قالبٍ واحد وتحفظه من الضياع. فلذلك حوت الهوامش الكثير من المعلومات المهمة التي فيما أظن أن هذا الكتاب هو المرجع الوحيد الذي ذكرها وانتقل بها من طور الرواية الشفهية الى التوثيق الكتابي.

وأما المزية الثالثة: ذكر المؤلف في هوامش كلامهِ عن الأسر مصدره في اِستقاء هذه المعلومات؛ كأن يقول أن الشخص فلان هو من أمدني بالمعلومات والوثائق عن أسرته، وهو أتاح بذلك للقارئ العادي مدخلاً لمن أراد التوسع والتوثق أكثر من المعلومات الواردة بالاتصال مع المصدر مباشرة.

وتوجد نقاط قد تعاب على الكتاب وهو عدم التوسع في ربط المعلومات الشفهية بالمراجع المكتوبة أحياناً؛ ومن ذاك أن بعض أهل الحوطة الذين أتوا الى البحرين، قد اعترض أحدهم على سياسة الإنجليز ونُفي إلى الهند، والحقيقة لم يمر معي هذا الكلام؛ لأن حسبما ما قد مر معي أن من تم نفيهم هم الشخصيات التي عارضت عزل الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في العشرينيات، وكذلك الشخصيات الوطنية في الخمسينيات، ولم يوجد بينهم الاسم المذكور وهو إبراهيم بن أحمد، ولو كان هنالك مرجع أخر لتحديد الاسم أو السَنة لكان حسناً وحتى إذا لم يكن هناك مرجع مكتوب لكان من الجيد استنطاق أحفاد المنفي للخلوص إلى معلومات أكثر تسد ثغرة موجودة في تاريخنا البحريني.

وهذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٣ مايو ٢٠٢٠م – ١ شوال ١٤٤١هـ

مزاد الجواري والعبيد في الجزيرة العربية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مزاد الجواري والعبيد في الجزيرة العربية.**
- **اسم المؤلف: الشريف محمد الحسيني.**
- **عدد الصفحات: ٢٨٧.**
- **دار النشر: الدار العربية للموسوعات.**

التعليق والمناقشة:

فرغت قبل فترة من كتاب (مزاد الجواري والعبيد في الجزيرة العربية) للشريف محمد الحسيني.

كان الكتاب رديئاً من جهة الاستدلال، وفيه أخطاء في التوثيق لا يقع بها الباحث المبتدئ، وهو نسخ للمقالات كاملة من المنتديات أو الويكيبيديا. وأشعر أن الكاتب كان يريد أن يتكلم عن العبودية في الحجاز فقط ولكن يبدو أن البعض أشار عليه أن يجعله عن جميع الجزيرة العربية ولعدم إلمام المؤلف بالموضوع على هذا الاتساع قد استعاض بهذه النقولات عن مجاهيل لا تعرف ما هي مصدر أخبارهم.

وأما فصله المفضل وهو الكلام عن الحجاز، فاستعاض بكتب التواريخ الغربية على غرار دليل الخليج لتوثيق الأحداث المتعلقة بالعبودية.

ويبدو أنه أسقط الشهادات الشفهية، فالمؤلف ابن الحجاز ولو نقل ما سمعه عن الأجداد ممن عاصروا العبودية، لكانت هذه الشهادات فيها إسهاماً مهمًا. وقد رأيت أنه نقل عن بعض الكبار ولكن يبدو أن هذا النقل كان نسخاً من أحد المنتديات أو أحد المقالات، فهنالك فوضى في طريقة

التوثيق، ولعل الإسهام الوحيد الحصري في الكتاب هو بعض الصكوك الشرعية والتي وضعت في مُلحق الكتاب.

من الواضح أن سوق النخاسة كان نشطاً في الحجاز، وكانت الضفة الموجودة في الجانب الآخر من البحر الأحمر هدفًا استراتيجيًا لتجار العبيد! فسكان هذه مناطق الصومال وإرتيريا وجيبوتي وأثيوبيا والسودان كانوا أهدافاً لتجار العبيد.

ومع ذلك اختلف العرب عن الغربيين في الصنف المستهدف للعبودية، فالعبودية المباشرة في العالم الغربي تكاد تمس الأفارقة حصراً فيما أعلم أو فيما هو مشهور. نعم قد يوجد رقيق أبيض ولكن بنسبة لا تذكر مقابل السود، ولكن في الخليج تجد أنهم استهدفوا عدة قوميات، منها: الأفارقة والبلوش والملاويين (جنوب شرق آسيا) وحتى الصينيين من سانغافورة بل وحتى العرب في شبه الجزيرة العربية نفسها.

وقولي «العرب» يعني حصول حروب قبلية والقبيلة المهزومة قد يؤخذ أحد أفرادها أو بعضهم رقيقًا أو ينتهي بهم المطاف كذلك كقصة عيد بن سالم أحد الذين تم أسرهم في معارك إخوان من أطاع الله كما حكى المؤلف في (صـ١٣٤)، أو مثل ما يحصل عند اختطاف الأطفال الصغار وبيعهم بسعر مرتفع وقد حكى المؤلف في (صـ٨٤) قصة اليمني عبد الله الذي اختطفه البدو وهو صغير عندما كان يرعى. وكذلك (صـ١١٣) حكى عن امرأة يمنية اسمها صفرار يعتقد أنها كانت مملوكة.

والقصة المرتبطة ببلوشستان كانت بارزة لاعتبارين، الأول أنها وثّقت بشكل مستطرد في كتاب كامل، والثاني أنها ارتبطت ببيت أحد الأسر الحاكمة في الخليج، والحادثة المقصودة هي ما حصل لوالدة سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود، فأمه اختُطفت من بلاد البلوش لثارات قبلية وانتهى بها المطاف في قصور آل سعود وأنجبت ولدها هذا الذي وثق حياتها وحياته في كتابه الشهير (قلب من بنقلان) ثم سحب الكتاب من الأسواق.

وعوداً إلى كتاب (مزاد الجواري) فقد تكلم عن تجار ووكلاء الرقيق في الحجاز، وعرض بعض الإحصاءات، وتكلم عن طرق وأساليب الاسترقاق، وعرض جزء من البرقيات والوثائق الغربية عبر القنصليات الموجودة في جدة وعن دورها في معالجة هذه الظاهرة عبر الضغط أو الإلزام، وتكلم عن تطور التجارة واضمحلالها وإنهائها وأفولها في الخمسينيات والظروف المؤدية إلى ذلك.

ويقول المؤلف أن بعد إعتاق هؤلاء العبيد «**حمل بعضهم أسماء القبائل والعوائل التي كانوا مملوكين لها**»، ومن خلال الهيئة والشكل واللون تستطيع أن تميزهم، وهذه للأسف أصبحت في الوقت المتأخر أشبه بالسُبة والدلالة على أنهم كانوا عبيدًا لهذه القبيلة أو تلك! بينما لو لم يتسموا باسم تلك القبائل لربما ظن البعض أنهم ممن أتى إلى مكة واستقر بها ثم تنقل بين المناطق ولما عيّروا بذلك.

وتكلم المؤلف أيضاً عن تجذر بيع الرقيق في المجتمعات إلى درجة أن أهل مكة أعلنوا الجهاد ضد الأتراك بعد أن أصدر الأتراك مرسوماً يقضي بمنع بيع الرقيق، فنظروا إلى الموضوع على أنه تحريمٌ لما أحله الله - حسب رواية المؤرخ أحمد زيني دحلان - ويقول هذا الأخير عن أهل مكة: «**نادوا بالثورة واشتبكوا مع الأتراك في قتالٍ عنيف وامتد القتال إلى المسجد الحرام**». مما دفع الأتراك إلى التراجع أو التغاضي عن هذا القرار.

ومن الواضح أن تجار النخاسة قد هدموا كل شيء جميل عن تجار الاسلام الأوائل، والذين أسلمت الشعوب على أيديهم، فجل المستهدفين هم من الشعوب المسلمة.

بل وذُكرت قصة المرأة المكية التي كانت في ميلاو تحفظ القرآن ثم طلبت من إحدى الأسر أن تأخذ ابنتهم معها عندما تعود إلى مكة من أجل أن تحج بها. ولما عادت ادعت هذه المرأة أن هذه الفتاة مملوكة عندها، وحاول أهلها السفر والإتيان بها وتخليصها من عبوديتها، ولم يفلحوا إلا بعد أن أصبح موضوعها متداولاً بين الصحافة الدولية!!

وتختلف قصص العبيد ونهايتها في الحجاز، فمنهم من يهرب أو يأتي أهله للبحث عنه وتخليصه عنوةٍ أو يعتق فيعود إلىٰ أهله. ومنهم من طال به الأمد فلم ير له أهلاً إلا من خدم عندهم فلم يرد أن يُباعدهم. وأحد هؤلاء وهو عبد الله من خطف وهو صغير فلا يتذكر من هم أهله وإلىٰ من يعود ولا يعرف إلا أنه من اليمن.

ثم أصبحت السفارات الغربية في جدة هي الملجأ لمن أراد التحرر، مثل الوضع في شرق الخليج، فكانت الدول الغربية وبالأخص بريطانيا تحرر العبيد اللاجئين إليها عنوةً، وقد اتخذت من محاربة تجارة الرقيق حجة للتدخل في شؤون الدول الخليجية وانظر إلىٰ كتاب الدكتور عبد الله التركي (غزاة باسم الإنسانية) لترىٰ أثر التدخل الانجليزي علىٰ عُمان والتي حولتها من أقوىٰ دولة في المنطقة إلىٰ دولة منكفئة علىٰ ذاتها وتعاني، وقد ذكر محمد الشريف طرفاً من ذلك في كتابه.

وبما أن القضية متجذرة منذ عقود في المجتمع العربي، فلم يكن من السهل معالجتها فوراً، فالملك عبد العزيز قال أنه سوف يعالجها تدريجياً، ولم تنته الفصول الأخيرة إلا في عهد الملك فيصل.

وتحرير العبيد في زمن الملك فيصل لم يكن تحرير دون الأخذ في الاعتبار الخسائر التي سوف تحصل للملاك. فأعطت الدولة تعويضًا علىٰ كل عبد يعتق. فاستخرجت صكوك الحرية مقابل تعويضات من الدولة.

ولكن لا أعلم إن رفض البعض العتق وأخذ التعويض، واستمر الحال حتىٰ نشوء الجنسية التي تساوي بين الجميع ولا تعترف بالعبودية، وانعتاق هؤلاء العبيد تحت الأمر الواقع، فما الحكم الشرعي لمثل هذه الحالات؟ فهل أبناء هذا العبد وأحفاده يعتبرون عبيد شرعاً للعائلة التي امتلكت جدهم؟ وكيف يعتق العبد شرعاً؟

وكانت من مقاصد شراء العبودية هي التسري بالنساء، هذا أنتج فئة اجتماعية جديدة تسمىٰ لدينا في الخليج بـ«المولد» أو «المولدين» أو «المواليد» وهم الهجين. والدهم عربي وأمهم غالباً تكون أفريقية

مملوكة، وهؤلاء المولدين يعيشون تقريباً حياة العبيد لأن أسر والدهم لا تعترف فيهم وإن اعترفت فلا تعطيهم نفس الحقوق التي لدى غيرهم؛ يعني نفس حالة عنترة بالضبط.

ثم ذكر في الختام، العادات الاجتماعية الموجودة في الخليج وأصلها من أفريقيا، جلبها العبيد معهم. مثل: ما يسمى حفلة الزار، وهي ليست موجودة في الخليج فقط بل في مصر والدول المغاربية أيضاً. وكذلك بعض الفنون الشعبية الغنائية مثل الطنبورة والليوة وفن دق الحب، كل هؤلاء قد أتى بها العبيد من بلادهم إلى دول الخليج واستنسخها أهل الخليج وأصبحت من موروثهم الشعبي.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٣ مايو ٢٠٢٠م – ١ شوال ١٤٤١هـ

مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق: الأخلاق والسير.**
- **اسم المؤلف: ابن حزم الأندلسي.**
- **اسم المحقق: محمد مطر الكعبي.**
- **عدد الصفحات: ٢٥٦.**
- **دار النشر: دار القلم.**

التعليق والمناقشة:

فرغت من هذا الكتاب الجميل اللطيف الخفيف الذي تنتهي منه في جلستين فقط فهو يقع في ٢١٦ صفحة إذا ما استثنيت المقدمات والفهارس... إلخ.

يتكلم فيه ابن حزم بعد أن تقدّم به العمر وعرّكته الحياة وأهلها، عن فوائد اكتسبها من هذه المعايشة والمخالطة مع أجناس الناس.

ففي كلامه سوف تجد بعض المعالجة الشرعية والعقلية لبعض العلل النفسية المتعلقة بالصفات البشرية (الحسد، الحقد، البخل... إلخ) وسوف تجد كتالوجًا للتعامل مع الناس، وقد حوىٰ الكتاب نصائح شتىٰ يستفيد منها الشخص اجتماعيًا وسلوكيًا ونفسيًا، فهو كما قيل: يبز الكتب المرذولة المسماة بالتنمية الذاتية أو البشرية.

ومع علو قدم ابن حزم، فلا يجب أن يُسلّم له بكل ما كتب في هذا الكتاب، ففيه بعض المبالغات والإطلاقات التي لا تصح.

وأنا أضمن لـك أنك سوف ترىٰ الكثير من الوجوه التي تحتك معها يوميًا في هذا الكتاب من خلال ذكر أوصافها.

ومن الاقتباسات الجميلة: «**وأعلم أن كثيراً من اهل الحِرْصِ على العِلْم يَجِدُّونَ في القراءةِ، والإكباب على الدرس والطلب، ثم لا يرزقون منه حظاً، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقهُ، فصحَّ أنه موهبةٌ من الله تعالى، فأيُّ مكانٍ للعجب هاهُنا؟! ما هذا إلا موضعُ تواضُعٍ، وشُكْرٍ لله تعالى، واستزادةٍ من نعمه، واستعاذةٍ من سلبها**». صـ١٥٠.

٣٠ مايو ٢٠٢٠م – ٨ شوال ١٤٤١هـ

الحياة الاجتماعية للحمض النووي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الحياة الاجتماعية للحمض النووي.**
- **اسم المؤلف: ألوندرا نيلسون.**
- **اسم المترجم: وافي الثقفي.**
- **عدد الصفحات: ٣٠٢.**
- **دار النشر: دار الجداول.**

التعليق والمناقشة:

الكتاب يرصد أثر فحوصات الحمض النووي التي يجريها السود في أمريكا على واقع حياتهم الاجتماعية، فيعرفون القرابة ويرسمون شجرة الأنساب، بل ويرتبطون بالدولة الأم التي عُرف أن أصولهم منها، فتحدث نوعاً من الازدواجية بين كونهم أمريكان وكونهم ينتمون الى بلد أفريقي آخر في الوقت نفسه.

الشغف بمعرفة الأصول وقطع الشك باليقين كل هذه أمور تستطيع أن تحصلها من خلال فحص الحمض النووي الذي أصبح متاحاً وتقوم به شركات تجارية، وكلما اتسعت قواعد بياناتها كلما حصلت على نتائج أكبر، ومن المعروف أن السود في أمريكا أصبحوا تقريباً مقبلين على شركة African Ancestry التي تقوم بفحص السلالة الذكرية والأنثوية للشخص، وتبيّن له أنه أفريقي من أي اتجاه، إذ ليس كل الأمريكان السود أصولهم من جهة الأب من إفريقيا، وسوف يأتي الكلام عن هذا لاحقًا.

طبعاً تجد حتى لدى المتجمعات المتطورة والمادية التي تكثر فيها النزعة الفردانية، تجد لدى بعض أفرادها حب الفضول في البحث عن أصوله، لذلك تجد أن موقع FamilyTree تقريباً أكثر الفاحصين عن أصولهم هم من أمريكا وبريطانيا، وأظن أن في المستقبل القريب سوف تتغير الصدارة مع دخول العرب رويداً رويداً وإنشاء هذه الشركات أفرع لها في الدول العربية، وتصدّر العرب يكون من باب أولى فهم ممن يعتزون بأصولهم وأنسابهم، ويرون أنها تعطيهم مكانةً اجتماعية في مجتمعاتهم.

ومع ذلك هناك باعث حثيث لدى السود أكثر في البحث عن أصولهم، لأنهم يعرفون إنما وُجدوا في تلك الديار بسبب أن أجدادهم الأوائل استرقوا وأُتي بهم إلى أمريكا عبيدًا، وأن أصولهم وهوياتهم الأصلية وثقافاتهم الاجتماعية طمسها الرجل الأبيض وأطر عبيده تأطيراً على أن يكونوا جزءًا من ثقافته، وأول معالم هذا التغير يكون بتغير اسم العبد نفسه ومن ثم إجبارهم على نمط الحياة الغربي وعاداته وتقاليده ولغته، ثم بعد ذلك ينشأ جيل بعد جيل على هذا النحو مما يجعل الأصل يضيع، والمعالم الأساسية تفقد.

وعوداً إلى العرب والأنساب، أذكر أنه قد مرت معي مقولة الخفاجي في قوله: «**وأما مراعاة الأنساب وحفظها، وذكر الأصول والبحث عنها، فباب تفردت به العرب فلم يشاركها فيها مشارك، ولا ماثلها فيه مماثل**»[١٤٢]، وهو قول صحيح على هذا الوجه، والدليل عليه كثرة كتب الأنساب، ورفع القبائل العربية أنسابها إلى آلاف السنوات وهذا قد لا يبارزهم فيه أحد، ولكنك تجد لدى بعض الأمم مثل بعض القبائل الأفريقية من يحفظ تاريخ قبيلته وأفرادها بشكل لم تعتد عليه العرب، وقد استغربت من هذا أثناء قراءتي مقدمة رواية (الجذور) لهيلي أليكسي عندما تتبع أصوله وذهب إلى قبيلة جده الأول الذي مر أكثر من قرن على وفاته، والتقى بالمهتم بتاريخ القبيلة وسرد عليه الكثير

[١٤٢] سر الفصاحة، صـ٥٢.

من التفاصيل المتعلقة بجده قبل أن يختطف كعبد، وهذا ينبئك أن حفظ تاريخ القبيلة قد يكون بشكل متزمت أكثر مما اعتادت به العرب، فالعربي عندما يكتب عن قبيلته لا يحتاج أن يترجم إلا من ذاع صيته واشتهر، ولكن انظر إلى هذه القبيلة الأفريقية فإنهم يورثون حفظ التفاصيل المتعلقة بأفراد القبيلة من شخص إلى شخص، وحتى وإن كان هذا الشخص مغموراً.

بل واستطاعت بعض الأُسَر الأمريكية أن تكتب شجرة لأسرتها، ويعود ذلك إلى أن جدها الأول كان شخصاً فريدًا، ومدوناً مهماً، مثل حالة فنتشر سميث، العبد الذي استطاع أن يدوّن تجربة عبوديته ابتداءً من نمط حياته في أفريقيا إلى خطفه ووصوله إلى أمريكا، وعندما يكون الشخص الأول فريدًا؛ فإن ذريته دائماً ما تُربط بهِ، ويقال أنهم أبناء فلان، وبذلك تكون لدى الأسرة معالم واضحة في ربط فروعها بالجذر الأساس، تقول المؤلفة: «**وبفضل وفرة ما حوته سيرة سميث الذاتية، أصبح لأقاربه اليوم معرفة واسعة عن أسلافهم. لقد تعاون أحفاد سميث مع كارل ستوفكو مؤرخ مدينة إيست هدام لتوثيق عشرة أجيال من ذرية فنتشر وزوجته مارغاريت. وقد أحاط أحفادهم بأسرتهم وبزواجاتهم وشراكاتهم ومن كان من تبنٍّ رسمي أو غير رسمي إحاطة عميقةً واسعة، ووضعت ذرية سميث شجرةً عائلة طويلة متفرعة، بدأت من القارة الأفريقية وامتدت فروعها حتى اليوم. والواقع أن أفراد ذرية سميث بلغوا مكانة يغبطون عليها، فلديهم علم عن أسلافهم أكثر مما يأمل كثير منا أن يعرف عن أسلافه**».

على العموم في هذا الكتاب سوف ترى ألوندرا تتكلم كثيراً عن أشخاص سود مختصين بالأنساب، وهي تقصد بطبيعة الحال الأنساب القصيرة للسود الموجودين في بقعة جغرافية معينة وفي فترة زمنية محدودة.

والكتاب تكلم باستطراد عن رواية (الجذور) لأيلكسي هيلي ومدى الزلزلة والانتشار والتأثير الذي صنعه على السود الأمركيين في تعريفهم بتاريخ أجدادهم في الرق، ومع ذلك كانت هنالك سلبيات

عديدة حول عمل أليلكسي هيلي تقول الكتابة عنه: «**ولم تلبث قصة هيلي أن تعرضت للنقد بعد البدء في تداولها، وعِيبَ عليها تاريخها الذي يفتقر إلى الدقة. واتهم بالسرقة الأدبية في أحداث عدة؛ وأُتفق في إحدى القضايا على أن يكون هنالك تسوية، ما جعلها بمنزلة إقرارٍ بما حدث**».

وحكت أيضاً أن مؤرخ الحرب الأهلية ويلي لوز قد لام هيلي على بحثه التاريخي غير الجيد ومع ذلك «**لم تكن هذه التهم عائقاً أمام قوة القصة وظلت رمزاً ثقافياً مهيمناً ومخطوطة وطنية وحكاية عنصرية**». عموماً هذه النصوص تنبه الباحث أن الجذور ليست هي المكان الصحيح لتصور التاريخ كما هو بل تعطيك تصوراً مقارباً وربما غير دقيق لما حصل فعلاً.

وربطاً للمواضيع ببعضها، ففي قصة (الجذور) دلالة على موضوع تأطير السيد الأبيض لعبيده ومسح هويتهم، فكانتا كونتي رحمه الله وهو المذكور في قصة حفيده أليكسي هيلي، كان مستمسكاً بهويته وعاداته، أولها الحفاظ على اسمه، وجلد وعذب لأنه رفض الاسم الذي أعطاه سيده وهو توبي، وكان يصلي صلاة المسلمين وحذر بأن ذلك سوف يجر عليه المصائب، وكان يحفظ بعض مصطلحات قومه وبناءً عليها سمى ابنته بـ«كيزي». عدم انصهار كنتا كونتي في الثقافة الغالبة جعلت أخباره تنتقل من جيل إلى جيل من أحفاده حتى وصل طرفها إلى حفيدة المؤلف.

وكان هذا الرجل فريدًا، ولكن الكثيرين قبلوا بالأمر الواقع ونسوا هوياتهم إن لم يكن طوعاً فكُرهاً، فلا يخبر أبنائه ولا أحفاده هويته ولا أصوله ولا عاداته ولا تقاليده، إما خوفًا على نفسه وعليهم من العذاب؛ خشيةَ أن يزرع ذلك في عقولهم حب الحرية ومحاولة الوصول إلى ذويهم فيهربون ثم يكشفون ويجلدون ويعذبون، أو أنه لا فائدة من ذلك وهذا يعد رضوخاً للأمر الواقع وأن التفكير في هذه الأشياء لا يجدي.

ومع جميع هذه المعطيات، تبرز أهمية موقع أفريكان أنسيستري للأمريكان السود، وقد طور مؤسسه ومديره العلمي كيتلز بعض أساليب البحث عن الجذور عبر تقنيات الحمض النووي عبر مساهمته

ومشاركته في البحث عن المقبرة التاريخية للعبيد السود في منهاتن، بالإضافة إلى امتلاك موقعه بيانات كثيرة تقارب الثلاثين ألف فحص للأفارقة الأصليين والذين يتمثلون في ثلاثين دولة أفريقية وأكثر من مائتي جماعة عرقية في أفريقيا، وقدر عدد الفاحصين في موقعه خلال عقد تقريبًا بأكثر من ١٥٠ ألف فاحص

المشكلة قد تكمن أحياناً في النتائج الصادمة للفاحص، فقد لا يكون الفاحص مرتبطاً بأفريقيا من جهة الأب وإنما من جهة الأم فقط، مثل المدير كيتلز نفسه فيقول أنه عندما فحص السلالة الذكرية الموجودة لديه تبين أن نسله من جهة الأب يعود إلى ألمانيا، بل وذكر هو نفسه أن «**أكثر من ٢٠٪ من الكرومسوم الذكري (الصبغيات) لدى الرجال الأمريكيين الأفارقة ينحدر من أوروبا**»، بل والمفاجأة أنه أُقيم فحص لذرية ماركوس غارفي (وهو أحد القوميين السود في القرن الفائت) وفحص آخر لذرية الناشط السياسي والحقوقي الشهير مارتن لوثر كينغ (وتحديداً ابنه كينغ الثالث)، وتبيّن أن هؤلاء من جهة الأب يعود الأول إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وأما الثاني فيعود إلى إيرلندا، فأبرز المناضلين السود ليسوا من أصول أفريقية من جهة الأب.

وتستطيع أن تفهم ذلك من خلال جماع السيد الأبيض لإمائه السود وإنجابه منهم أطفالًا يكونون عبيداً له، وبذلك لا يضطر أن يدفع آلاف الدولارات من أجل شراء عبيد جدد. وبذلك أيضاً يضمن استمرار أيادي عاملة للعمل في حقوله تخدمه وتخدم أبنائه الشرعيين من بعده.

تكلمت المؤلفة في فصلين متتابعين عن المقبرة التاريخية التي تم العثور عليها في التسعينيات في منهاتن وهي تابعة للسود الأحرار منهم والرقيق، والتي أنشئت في أمستردام (نيويورك الآن)، ويعود تاريخها إلى آواخر العقد الأول من القرن السابع عشر، وكانت سلطات المستعمرة الهولندية وبعدها الإنجليزية لا تسمح بدفن موتى السود داخل أسوار المدينة، فاضطر السود إلى دفن موتاهم خارج حدود البلدة، ومع زيادة العمران واتساع المدينة أصبحت ضمن حدودها.

وتكلمت باستطراد عن النزاعات حول آليات إجراء الدراسات وطرقها ونتائجها، وعن توسع إطار الدراسة ليشكل نواحٍ متعددة لدراسة رفاة هؤلاء السود ليحددوا أصولهم وكيف ماتوا وكيف كانت صحتهم... إلخ

الذي لفت انتابهي هو قولها: «**ولفت الأجساد في كفن، مما يشعر أن صاحب القبر كان مسلماً**»، فقلت: سبحان الله إن كان هذا صحيحًا، فرغم الفقر المدقع وعدم وجود حقوق البتة والظلم لم يترك هذا الميت ما يميّز أهل الإسلام عن غيرهم، ولم يترك تعاليم دينه، رغم أنه في بعض الحالات لو تركها لكان معذورًا.

والأمر الآخر الذي يلفت الانتباه هو تغلغل الإسلام بين الأمريكان الأفارقة، فمثلًا منسقة في الفريق الذي كان مسؤولًا عن المقبرة المكتشفة كانت فاطمة جاكسون وهي أخصائية أنثروبولوجيا (أنسنة) من جامعة ميريلاند، وكذلك شوماركا عمر يحيى كيتا وهو مختص في الأنثروبولوجيا الطبيعية والثقافية، وكان أحد المساهمين في فحص مقبرة الزنوج، وأما كيلتز صاحب موقع أفريكان أنسيستري، أكبر موقع يضم قواعد بيانات للأمريكان الأفارقة يقول أن أكثر من أثر عليه فكرياً كان من بينهم علي مازوري.

فالكثير من الاكتشافات التي يكتشفها الغرب يكون ضمن الفريق العامل عليها مسلمين، فليست كل اكتشافات الغرب قام بها غربيون خلّص من غير مسلمين.

ويرجع انتشار الإسلام بين السود فيما أظن إلى عدة عوامل من بينها نشاط جماعة أُمّة الإسلام وتصويرها الإسلامَ على أنه دين يقف مقابل البيض ودينهم المسيحي في الابتداء، وهي جماعة مرتدة لها تصوراتٌ تحرّف الإسلام وتنقضه من أصله، وحاول ابن مؤسسها أن يرجعها إلى مسارها الصحيح ويصحح بعض أفكارها، وكان لمالكوم إكس بعض الأثر كذلك، وللدكتور فهد السنيدي

كتاب مهم لتصوّر هذه الجماعة وغيرها من الجماعات في أمريكا بعنوان (أشهر الفرق الأمريكية المعاصرة المنتسبة للإسلام وأثرها العقدي)، فيرجع له.

وكذا دعاية أليكسي هيلي في كتابه الجذور وتصوير الأفارقة العبيد الأول أن الكثير منهم كان مسلماً فأصبح جملة كبيرة من السود على هذا الدين.

ومن مفاجأت الحمض النووي أيضاً، هو اكتشاف أن أحد الآباء المؤسسين لأمريكا والكاتب الرئيسي لاستقلالها وثالث حكامها وهو توماس جفرسون والذي كان منادياً بحقوق الإنسان ومتحدثاً باسم الديمقراطية، لديه أبناء من امرأة زنجية كانت مملوكه لديه! وكذلك كانت دعاوى مماثلة على رئيس أمريكي آخر، وهو الرئيس الذي بعده، والذي يسمى بأب الدستور وهو جيمس ماديسون، ولكن هذه التسوية والإثبات لم يتم لعدم تعاون أحد الأطراف، ولكن الشاهد – كما تقول المؤلفة – هو: «**أن الحقيقة الوراثية للقضية مهمة وما يمكن أن تكشفه من نفاق كان موجوداً في وقت تأسيس الدولة. إن الآباء المؤسسين من كَتبَ منهم بشغف عن الحرية، كان لهم إماءٌ وربما لهم أبناءٌ من نساءٍ يُعتقد أنهن أقل مرتبة من الناحية البيولوجية وليس لهم حق في الحرية الشخصية. إن تقبل هذا التاريخ تقبلاً كاملاً والإقرار به إقراراً تاماً يمكن أن يعيد تشكيل الأساطير التي قام عليها المجتمع الأمريكي**».

فمن كان يبشّر بحقوق الإنسان والديمقراطية وأبٌ للدستور كان لهم إماء وأنجبوا منهن أبناءً بالسر ورفضوا الاعتراف بهم! فيبدو أن هذا النفاق وعدم تطابق الظاهر مع الباطن هو الأصل الموجود لديهم منذ التأسيس حتى يومنا هذا.

وأما الكلام عن التسوية، فهي تتكلم عن تعويض أبناء هؤلاء الرقيق عن ما لحق بهم ولحق بأجدادهم من ظلم وتعسف، وتكلمت الكاتبة عن نضال السود من أجل نيل حقوقهم عبر القضاء والترافع في فصلين متتابعين، وكان أصل هذه المشكلة تكمن في إخلاف الوعود – كعادة الحكومة

الأمريكية – أثناء الحرب الأهلية مع الولايات الجنوبية، تقول المؤلفة: «**ومع اقتراب الحرب الأهلية، أصدر الجنرال وليم شيرمان الأمر الميداني الخاص رقم ١٥، الذي يقضي بالإبقاء على قطعة أرضٍ كانت الحكومة الفيدرالية قد صادرتها من جنود التحالف، وكذلك أجزاء من جنوب ولايات فلوريدا وجورجيا وساوث كارولاينا. كانت هذه الأراضي ستقسم إلى أجزاء، كل جزء منها أربعون فداناً، كي يعاد توزيعها على العبيد الذين اعتقلوا مؤخراً، ومنهم من حارب مع جيش الاتحاد [...] وفي عضون أشهرٍ توقف السير نحو التعويض توقفاً مفاجئاً، وعقب اغتيال الرئيس أبراهام لينكون تجاوز الرئيس أندرو جاكسون وهو حديث عهد بالرئاسة أمرَ شيرمان آمرًا بإعادة الأرض التي خصصت للعتقاء السود إلى الجنود الفيردراليين الذين أعفوا لقاء مبايعتهم الولايات المتحدة**». فأمريكا أعطت جنود الولايات المنشقة الأراضي باسم العفو، وتنكّرت للسود الذين قاتلوا في صفوفها.

فالخلاصة أن هذا الأمر أُحيي مع مطلع القرن العشرين ولكن ورفعت دعوة قضائية على الحكومة الفيدرالية الأمريكية، جراء هذا النكث وما ترتب عليه من تردي أوضاع السود المعيشية «**لكن مقاضاة الحكومة الفيدرالية الأمريكية لم تكن ممكنة لما تتمتع به من حصانة سيادية، ولذا قضت المحكمة أنه لا يمكن أن تكون الولايات المتحدة طرفاً في القضية دون موافقتها، فأقرت المحكمة العليا هذا القرار**».

وفي مطلع القرن الحالي سعت خريجة القانون فارمر بالمان إلى تغيير التكتيك باعتبار أنه «**بوسع أحفاد المستعبدين من الرجال والنساء رفع دعاوى قضائية بالأجور غير المؤداة على أحفاد مالكي العبيد السابقين ووكلائهم وفقاً للمبدأ القانوني لاستعادة الأموال**» ثم تكلمت المؤلفة عن شركات التأمين ودورها في المد من عمر العبودية، وكيف أنها أصبحت في واجهة المدفع من قبل المطالبين بالتعويضات، وثم دور تحليل الحمض النووي في الترافع، إلى انتهاء الأمر برفض القضية لاعتبارات

متعددة ومن بينها «**أن المدعين لم يثبتوا صلة دقيقة بينهم وبين العبيد السابقين، وهكذا لا يمكنهم المطالبة بمظالم باعتبارهم أحفاداً لهم**».

وفي الفصول الأخيرة تكلمت المؤلفة عن لمّ الشتات الأفريقي، وأثر ذلك على من عرف أصوله العرقية، وإلى أي قوم أو بلد ينتمي، فمنهم من رجع إلى بلده الأم حاملاً معه المشاريع الخيرية والإغاثية مثل مكافحة وباء إيبولا، ومنهم من أصبح مزدوج الجنسية، فكان تحليل الحمض النووي أثرًا اجتماعيًا مهمًا جعل هؤلاء الفاحصين يعرفون أصولهم وينهون الشتات والتيه الذي تسببت به العبودية قبل قرون.

وفي الختام: هذا الكتاب ربما ليس مهم للقارئ العربي، ومواضيعه لا تهمه كثيراً، ولكن أنا أرى أن هذا الموضوع يصح إسقاطه على الواقع العربي بعد عقد أو نحوه، خصوصاً مع إقبال العرب وبالأخص القبائل العربية على فحوص الحمض النووي وانعكاس ذلك إلى رسم خريطة جينية تنوب على المشاجرات التقليدية، وعن النزاع الدائم حول تحديد الأصيل من الدخيل في القبيلة، وأنا أرى أن هذه الفحوصات لها انعكاسات اجتماعية مهمة، فقد ينبذ من هو عال مقامه في القبيلة لأن نتيجته قد خرجت عن عموم القبيلة، وأن هذا الحمض قد أنهى مفهوم الحليف وأعاد كل فرع إلى أصله، وأتاح للباحثين الأنثروبولوجيين فرصة في معرفة كيفية تشكل القبيلة وكيفية اندماج الأفراد في المجتمع تحت مظلة واحدة رغم اختلاف أصولهم، وعن تداعيات الأحداث السيرة التي سببت الهجرات أو جلبت الرقيق، كل هذا مجال خصب ومادة خام للباحث العربي، الذي ما أن يطأ هذا المجال إلا وسوف تفتح عليه أبواب جهنم، إذ أن هذا الحقل مليء بالألغام، والعربي أغلى ما لديه بعد دينه، نسبه.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٧ يونيو ٢٠٢٠م – ١٦ شوال ١٤٤١هـ

الغريبة

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: الغريبة.
- اسم المؤلف: مليكة أوفقير.
- اسم المترجم: حسين عمر.
- عدد الصفحات: ٢٤٦.
- دار النشر: المركز الثقافي العربي.

التعليق والمناقشة:

بعد أن فرغت من الكتاب الذي بين يدي كان لا بُدَّ أن أختار كتابًا آخر، فوقعت عيني على كتاب (الغريبة) لمليكة أوفقير، وهو الكتاب الوحيد الذي لم أقرأهُ لهذه الأسرة المنكوبة، فقلت لا بُدَّ أن أحلل قيمته وأُنهي قراءة جميع ما خطتهُ هذه الأُسرة، فقد كان لكتاب (السجينة) صدًى كبيرًا، ولا زلت أقول أنه أفضل ما قرأت في أدب السجون، لا تعاطفًا مع الضحية ولكن استفادةً لتشخيص الجلاد وطرقهِ ونفسيتهِ ووضعه، وكان كتاب (الضيوف) لرؤوف أوفقير هو الكتاب الذي يُشبع نهم من أراد أن يقرأ انقلاب أوفقير من زاوية سياسية، ومن أراد التفاصيل الدقيقة والجزئيات الصغيرة، وكان كتاب (حدائق الملك) لوالدتهم فاطمة أوفقير هو جبر لرواية الهروب، إذ كان أبناؤها مليكة ورؤوف وعبد اللطيف هم من هرب وأما البقية فقد بقت في السجن، وفي كتب هؤلاء قد ذكروا الأحداث من زاويتهم عندما كانوا في الخارج ولكن لم يذكروا بالتفصيل الأحداث التي حصلت لمن بقى في السجن، وهنا تأتي أهمية شهادة فاطمة في تكميل الأحداث. وأما الكتاب الأخير (الحياة بين يدي) لسكينة أوفقير الأخت الصغرى هذا من أتفه ما يمكن أن يُقرأ.

وقد قام حسين عمر بترجمة أغلب هذه الكتب التي أصدرها المركز الثقافي العربي، ولهذا الشخص أسلوب غير حسن في الترجمة، وأغلب من ينتهج أسلوب الترجمة الحرفية يقع في هذه الأخطاء من قبيل وضع الفواصل كما هي عند الترجمة، والصحيح أنها تُحذف أحيانًا وتوضع وفق قواعد اللغة العربية؛ فإن أكثرت المؤلفة وضعها من غير داعٍ فلا توضع في الترجمة كما هي، لذلك ترىٰ الكثير من الكلمات وهي مشرَّحة ومقطعة ومجزئة بالفواصل.

حسنًا، وأما كتاب (الغريبة) فهو كتاب لا قيمة له علىٰ الحقيقة، أحيانًا يغترّ الشخص بالنجاح الأول، فيريد أن يعقبه بنجاح ثانٍ فتكون النتيجة كارثية، يتمحور الكتاب حول نقطة مركزية واحدة وهي كيف حاولت مليكة التأقلم مع الحياة بعد انقطاع دام عشرين سنة تقريبًا، وما هي العثرات وما هي التحديات.

طبعًا الكلام هنا لا يفيد السجين بالضرورة؛ لأن كل واحد له أسلوبه ونفسيته في التأقلم بعد السجن، وأغلب جوانب كلامها انحصر في الصراع النفسي «مواجهة الخوف والتردد» الذي أحدثته العزلة لعقدين.

ويجب التنبيه أيضًا أن أسرة أوفقير لم يكتبوا كُتبهم للعرب في الابتداء، وغالبًا ما يكون نمط العوائل البرجوازية أو المخملية - كما يقول البعض - أشبه بنمط الحياة في الغرب، فهم يرون اتصالهم بالغرب أكثر من اتصالهم بدولهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، بل انظر إلىٰ مليكة وهي تقول مثلاً: «**أتكلم الفرنسية في بيت أهلي والعربية في القصر**». (صـ٤٠) وطبعًا الكلام بالعربية لم يكن حبًا بها بل هو تقليدٌ متبع، ولكن الشاهد أن هؤلاء لا يتكلمون مع بعضهم إلا بلغة غيرهم.

فلذلك لا تعجب أخي الكريم عندما ترىٰ بعض الأمور المقززة، مثل سَردها لعلاقاتها الجنسية بعد السجن، فأنت لست في الحسبة ولم يوجه الكلام لك ابتداءً.

ومع ذلك أظن أن في هذا الكتاب أمور تُناقض الكتاب السابق، مثلاً في كتاب السجينة صـ٢٤١ تقول: «**وبما أننا رفضنا الإسلام لأنه لم يقدّم لنا أي شيء جيد اخترنا العقيدة الكاثوليكية**»، فهم يرون أن أثناء محنتهم في السجن وأثناء دعائهم وابتهالهم إلى الله لم يتحقق أي فرج، فمن خِلال مبدأ الربح والخسارة رأوا أن هذا الدين لا فائدة منه ومن هذا المنطلق قرروا اعتناق الديانة المسيحية من باب لعل وعسى.

ولكن في كتابها الآخر تقول أنها تحاورت مع امرأة يهودية أثناء التوقيع على كتابها فتقول أن اليهودية سألتها: «**كيف حدث أن وافق الملك على تبنيك على الرغم من أنكِ يهودية؟**» فتجيب مليكة: «**لستُ يهودية أنا مسلمة**» ثم تنتقد اليهودية وتقول: «**ستتخلص من شهادة تلك التي ظنتها داعية للتعايش الديني، وإذ بها في الواقع ليست سوى مسلمة!** » (صـ١٥٥)

ثم وجدت أثناء تحريري لهذا الكلام أن في مقدمة كتابها السابق قالت محررة الكتاب ميشال فيتوسي في المقدمة عن مليكة وجانب من اختلاف الخلفية الاجتماعية لكلتيهما: «**فهي مسلمة وأما أنا فيهودية**» (صـ١٦).

فأظن أن هذا الدين ليس أمرًا محوريًا لدى هذه الأسرة بل أشبه بالملابس، تُرتدى لحاجة وتُنتزع لحاجة! وهو على العموم مطمور الجانب، لا ذكر له إلا فيما يندر.

وأيضاً لاحظت أنها تقول في كتابها الجديد أثناء روايتها القصص لأسرتها في المساء عندما كانوا في السجن «**كنت أركز على الحب العظيم أكثر من المتعة الجسدية كي لا أحبط المستمعين إليّ وأُشعرهم بالكبت، وخاصة كي لا أحبط نفسي**» (ص١٨٦). ولكن لو ترجع إلى كتابها السابق تراها تقول: «**غالبًا ما كنا نتحدث فيما بيننا عن موضوع الجنس، كنا بحاجة ماسة إلى تعويض هذا النقص، والتنفيس بأي طريقة. مع الزمن يزول حاجز الحياء بين الأهل والأولاد تدريجيًا. كنا نقول كل ما يمر برأسنا من أفكار بعيدًا عن العيب والمحرمات**» (ص٢٢٣).

هذا الاضطراب في الوصف يصحح لك بعض الظنون التي تتوجه إلى كل من كتب مذكراته، أنهُ حاد الذاكرة بالضرورة، بل تختلط عليه أمور ويثبتها ثم ينفيها أو العكس.

والكتاب قليل الفائدة، ولا يُقدم أي مهم؛ فالكتاب السابق، كان ذو أهمية كبيرة، فهي تكشف المستور، فالكلام عن الحياة في القصور الملكية من المحرمات، وليس كل أحد التقى الحسن الثاني له الجرأة أن يصفه كما هو أو يفصّل في تشريح شخصيته ويذكر ما له وما عليه، وأهل السياسة والمؤرخين المهتمين بتاريخ المغرب المعاصر تهمهم التفاصيل التي كانت بين الملك وبين رجاله الخواص مثل أوفقير، وكذلك الغموض الذي أُحيط بهذه الأُسرة وماذا حصل لها تفصيلًا كان دافعًا كبيرًا للانكباب على الكتاب السابق، من أُناس ذو اهتمامات متعددة، وبعد أن أفرغت مليكة وبقية أسرتها ما في جعبتهم، لم يعد هناك حاجة أو أهمية لأن أقرأ عن انطباعات مليكة أو رؤيتها أو تحدياتها، فهي ليست شخصية مهمة بذاتها، زد أن الكتاب الجديد حوى تكرارًا مملًا واستصحابًا لنفس التفاصيل مع زيادة قليلة لا قيمة لها.

ربما الفوائد الموجودة في الكتاب قليلة من وجهة نظري مثل كلامها عن الصحافة لما أرادوا أن يأخذوا رأيها حول وفاة الملك، وكلامها في الفصل ما بين الملك والوطن فالملك ليس هو الوطن! فتقول: «**سأحب المغرب إلى الأبد، وسأدافع عنها. أنا التي سرقت المغرب عشرين عامًا من عمرها في مواجهة أولئك الذين يقدحونها. وطني ليس الملك المتربع على عرشه. وطني ليس تلك الآلة القمعية التي يعبث بها رأس متوّج كما يعبث بسلاحٍ. وطني هو هذا الشعب الذي يمد يده إليك دون أن ينتظر منك أي مقابل**» (صـ١٤٧).

ويُحسب للكتاب أيضًا رفع عقيرة المؤلفة حول الملك. أشعر أو يتهيّأ لي أن في كتاباتها أو كتابات أسرتها إذا استثنينا سكينة كانوا يتكلمون باتزان عن الملك – رغم ما فعلهُ بهم – إلا أن الحقد والكره في كتاب مليكة الجديد كان واضحًا ولا تخفيه.

وقد أخبرني أحد الفضلاء أن أسرة أُوفقير زودتها حبّتين في استجداء العواطِف، فأقول: «إن هذا ضرب من ضروب الانتقام، فلو طرحت مظلمتك بشكل بلاغي تقول فيها أنك تعرضت لكذا وكذا وكذا من هذا الشخص فأنت تلقائيًا تجعل الناس تكره من فعل بك هذا، فلا شك أن سمعة الحسن الثاني تضررت كثيرًا جراء هذه الشهادات وغيرها».

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٣ يوليو ٢٠٢٠ م – ١٢ ذو القعدة ١٤٤١ هـ

مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي.**
- **اسم المؤلف: ابن رجب الحنبلي.**
- **اسم المحقق: طلعت بن فؤاد الحلواني.**
- **عدد الصفحات: ٨١٤ (مجلدين).**
- **دار النشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.**

التعليق والمناقشة:

فرغت مؤخراً من قراءة رسائل ابن رجب الحنبلي رحمه الله، وهذه الرسائل أتت في وقتها، يحتاج الشخص أحيانًا إلىٰ من يذكّره بالله، ويلين القسوة التي طرأت علىٰ قلبه، ويخفف من انغماسه بالدنيا وزينتها، ولا شكّ أن المواد الوعظية خير وسيلة لتحقيق الغاية من الوعظ وهو الإنابة والتوبة ومراجعة الذات ومحاسبتها علىٰ ما يطرأ من تقصير أو غيره.

والمجلد الأول لم يحتوي إلا علىٰ الرقائق، فحتىٰ شروحات الحديث كانت في الرقائق، بخلاف المجلد الثاني فتجد نفس ابن رجب اللغوي في شرحه للآية [**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**] ونفسه الفقهي الذي مزجه مع نفسه الحديثي في رسالة (أحكام الخواتيم)، ولا شك أن نفسية الشخص وأسلوبه في الأمرين يختلف وكما قال الشيخ عمر بن محمود عن ابن الجوزي: «**ومثل الواعظ يُعفى له عن أمور؛ فابن الجوزي واعظًا ليس كابن الجوزي محدثًا**»[١٤٣]، ويَقصد أن الواعظ قد يتساهل في رواية بعض الآثار التي في إسنادها مقال وقد ينبّه عليها أو يرويها بصيغة التمريض كأن يقول: روي أو يروىٰ عن

[١٤٣] الإفادة في جمع رسائل ومقالات الشيخ أبي قتادة، صـ٦٦١.

النبي ﷺ كذا وكذا، وذلك أن هذا الحديث وإن كان ضعيفاً إلا أن معناه صحيح فيستدل فيه في الوعظ، ولكن عندما يحدّث فإنه يُشدد، ولم أرى ابن رجب قد استرسل حول الكلام عن سند الحديث إلا في رسالة (البشارة العظمى للمؤمن بأن حظه من النار الحمّى)، وإلا فإنه يكتفي بإشارات بسيطة أحياناً، وبالمناسبة تَصلح هذه الرسالة المشار إليها لمن أُصيب بالكورونا، فلعلها تخفف عنه ما فيه.

ويلحظ كذلك من ابن رجب كثرة الاستدلال بأقوال السلف في تقرير بعض المسائل، فينقل لك صفحة أو صفحة نصف من آثار السلف، وهنا يجب الانتباه الى نقطة وهي أن لو فعلها الشخص اليوم لما كان الأمر مُلفتاً للانتباه مع كثرة برامج البحث من غوغل والمكتبة الشاملة وغيرها، ولكن أن يقوم شخص فيما سبق وينقل لك عدة أقوال من مصادر متعددة في موضوع واحد عبر جهد ذاتي اقتضى القراءة والجرد، فهذا أمر ملفت أن تكتنز هذه الأقوال في ذاكرته ويسردها إن أراد الكلام في موضوع واحدة دفعة واحدة.

كثرة النقولات وكثرة الحِكَم تجعل الشخص يَحتار ماذا يقتبس وماذا يترك.

ويلحظ أيضاً أن أساليب السلف تتفاوت، فمنهم من يريد أن يلقى الله – أي يموت – بأسرع وقت اشتياقاً له، ومنهم من يريد أن يُعمّر ليستغل عمره في الطاعة، ونظائر هذا كثيرة، وكل فرد منهم فعل ما يناسبه أو ما يميل إليه، فلذلك لم يكن السلف في هذا الباب على طريقٍ واحد، فمن الطبيعي أن ترى أساليبهم تتناقض أحياناً، وقد نقل ابن رجب عن بعضهم أمورٌ منكرة اقتضت من المحقق أن يستدرك عليها في الهامش، وهي ثلاث مواضع فقط، كأن يقول مثلًا «**كان بعض السلف يمشي أبدًا على قدميه من الشوق، وكان بعضهم كأنه مخمور من غير شراب**» فعلق المحقق: «**لم يكن هذا هدي النبي ﷺ وصحابته ولا خير في هدى جَانَبَ هديَه ﷺ**» صـ١٣٠ وكذلك انظر الصفحات ١٢٨ و١٨٠.

وتقريبًا كانت مواضيع الرسالة مختلفة، ولم أجد تكرارًا ونسخًا لنفس الكلام في موضعين إلا في الكلام عن رؤية الله عز وجل في الجنة.

ومن الرسائل الجميلة في هذا المجلد (شرح حديث ما ذئبان جائعان)، والحديث وإن كان يقتضي الكلام عن كل مسلم إلا أن ابن رجب حاول أن يخصّه بالعلماء، فالعالم إذا فسد من مدخل الشهرة والجاه والمال يكون فساده أشد من فساد الفرد العادي، وهذه الرسالة يحتاجها العالم ويحتاجها طالب العلم حتى لا يتخذ دينه غَرَضًا ويحتاجها كل شخص طالبٌ للسلامة، وفيها كلام عن عدم السعي إلى حب المدح والإطراء وكراهية الشهرة، وعدم طلب العلم للتباهي وعدم العمل بما علم، والجرأة على الفتوى، وكراهية الدخول على السلاطين وغيرها.

وتكلم عن عدة قضايا في رسائله المتعددة، من بينها وما علق بذهني، مسألة عدم الجمع بين كمال حاجة الروح والجسد في هذه الدنيا، فمن طلب العلم وسهر للعبادة والخشوع ومحبّة الله فلن ينغمس بملذات الدنيا فلا بُدَّ حاجة تطرح الأخرى. وقضية الموت وكيف أن الحياة نعمة يتمنّاها الميت حتى يُصلح ما أفسد في حياته السابقة، وكيف أن البعض السلف يستثمرها ويستغلها في تحصيل الحسنات، وغيرها من الأمور، ولا يفوتني الذكر أن قصيدة ابن رجب في ذم قسوة القلب هي من أفضل ما قرأت من الشعر.

وابن رجب نجح في جعلي أتفكّر كلامه كل ليلة قبل النوم، ومن كلامه الذي قاله وهو مخيف: «**يا من إذا تشبه بالصالحين فهو عنهم متباعد، واذا تشبه بالمذنبين فحاله وحالهم واحد، ويا من يسمع ما تلين به الجوامد وطرفه جامد، وقلبه أقسى من الجلامد، يا من برد قلبه عن التقوى، كيف ينفع الضرب في حديد بارد؟!**» (صـ٢٥٤).

يعني تخيل أن تقرأ كل هذه المواعظ من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وأحواله وأحوال صاحبته وتابعين والعباد والزهاد من أعلام هذه الأُمّة ويكون هذا وصفك؟! بل وانظر الى كلامه

كذلك في صـ٣٤٨، فالبعض لا يريد أن يحسم الأمر ويعزم على الرشد بل يبقى متردد، هل أترك هذه الأمور أم لا، وفي كلام ابن رجب خيرُ ردّ.

ومن الرسائل الجميلة في مجموع ابن رجب الحنبلي رحمه الله ذكره لسيرة عبد الملك بن عمر عبد العزيز – رحمهم الله جميعاً – وهذه السيرة القصيرة فيها الكثير من العبر، من بينها:

أن تنشئة أبنائك نشئه صالحه لن تقف فائدتها عليهم وحدهم بل سوف تنعكس عليك أنت أيضاً. فقد يؤثر الأبناء في آبائهم، مثلاً كان بعض مشايخ أهل الشام – حسب ما روى أبو نعيم في الحلية – يقولون: «**كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك**».

وهل توقف تأثير عبد الملك على أبيه هنا فقط؟ أي في جانب التعبد والزهد؟ الجواب: لا، بل حتى في جوانب الحكم وإقامة العدل.

فلما تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة جمع قرّاء أهل الشام، وقال: «**لقد أهمّتني هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي، ما ترون فيها؟ قالوا: ما نرى وِزرها إلا على من غصبها**» وأما عبد الملك فقد أجاب جوابًا بديعًا فقال: «**ما أرى مَن قَدِرَ على أن يَرُدَّها فلم يَرُدَّها والذي غصبها إلا سواء**»! ولم يقل: المشايخ أبخص ودام أفتوك ما عليك ذنب، وشوف لي إذا لي نصيب منها.

حسنًا، الآن استقر الأمر على رد هذه المظالم، ولكن المشكلة كانت في التوقيت، كان يرى عمر بن عبد العزيز أن يأخذ قيلولة ويردّ هذه المظالم بعد أن يستيقظ ويصلي الظهر، فأبى عليه ابنه عبد الملك هذا، وقال: «**ومن لك أن تعيش إلى الظهر؟ وإن عشت فمن لك أن تبقى لك نيتك؟!**»، وهذا ما جعل المنادي ينادي أن الصلاة جامعة، وقطع عليهم أمر قيلولتهم وردت المظالم «**وجاء بكتب القرى**

والأملاك التي كانت في يده من إقطاع بني أمية، فمزّقها كلها وردّ تلك القرى إلى بيت مال المسلمين».

وكان يقول لأبيه: «**يا أمير المؤمنين، ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقًا لم تحيه وباطلًا لم تمته؟!**» ويقول: «**يا أبه، ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك**»، وكان يقول: «**يا أبه، أقم الحق ولو ساعة من نهار**».

وكان عمر بن عبد العزيز عندما يراه يُنكر عليه ديانةً، لا يُغضب من ذلك بل كان يقول: «**الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني**»، ولما توفي عبد الملك في حياة أبيه قال عنه أبوه: «**رحمك الله يا بني، فوالله إنك لعظيم البركة، ما علمتك على أبيك نافع الموعظة لمن وعظت**».

الغريب في الأمر أن هذا صاحب الأثر الكبير على والده توفي وعمره تسعة عشر عامًا فقط.

كثيراً ما نذكر عدل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ولكننا نغفل عمن كانوا مؤثرين عليه ويُكثرون من نصحه ويحثونه على إقامة العدل ممن كانوا من حوله كابنه عبد الملك.

وقد كانت في سيرة عبد الملك بعض القصص التي تستحق التوقف كقصة حواره مع التابعي الجليل ميمون بن مهران حول إخلاء الحمام، ففيها عزة العالم وما يجب أن يكون في تعامله مع السلاطين.

الآن بقي الكلام عن التحقيق وهو هامش المراجعة، لا شكّ أن هذه النسخة التي بين يدي لأبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني من طبعة دار الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢ من أردأ الطبعات، وحتى المحقق نفسه استدرك على الكثير من الأخطاء في الطبعة اللاحقة، وفيها أمور تقنية وفنية، من بينها أن المحقق يقول في المقدمة: «**استفدت من حكم بعض مشايخ عصرنا على الأحاديث كالشيخ الألباني... إلخ**»، رغم أن المؤلف يكتفي غالبًا بذكر أن الحديث قد رواه الترمذي وابن ماجه ويسكت، والألباني لن تراه إلا نادرًا في هذا الكتاب، فلا تعلم هل الأحاديث التي أمامك صحيحة

أو لا، وفي بعضها يذكر لك أن أحد رجال السند ضعيف أو متروك، ولكن في المقابل الكثير من هذه الأحاديث لا يظهر لك حالها، وأحيانًا لا يخرج الأحاديث، وأحيانًا يخرج الآثار وأحيانًا لا يفعل، آيات القرآن تكون مرة مُشكّلة ومرة لا، ومرة يكون الحديث بخط غامض وأحياناً لا وكذلك الآثار، وأحياناً يكون الأثر مُشكلًا وأحيانًا لا، وأظن أن هذه الأمور استُدركت في الطبعات اللاحقة.

وأما أنا فقد اشتريت هذه الطبعة بعد استشارة شخص متعجل، فأوصاني بها، ولم أعلم أن هناك طبعات لاحقة أُضيفت لها عدة رسائل وأصبحت ٥ مجلدات بدلاً من المجلدين اللذين اشتريتهما، ولكن لله الحكمة البالغة.

هذا والله أعلم وصلى صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٤ يوليو ٢٠٢٠م – ٢٤ ذو القعدة ١٤٤١هـ

الفتنة السوداء: ثورة الزنج

المعلومات العامة:

- اسم الكتيب: الفتنة السوداء: ثورة الزنج.
- اسم المؤلف: محمد عثمان جمال.
- عدد الصفحات: ٧١.
- دار النشر: دار السلام للطباعة والنشر.

التعليق والمناقشة:

كنت قد قرأت كتيبًا اسمه (الفتنة السوداء: ثورة الزنج) لمحمد عثمان جمال. وهو كتيب صغير يقع في ٧١ صفحة من القطع الصغير يعطيك خلفية موجزة عن ثورة الزنج في جنوب العراق، كيف نشأت ومن أنشأها وما أسباب استعارها، وكيف تعاملت دولة الخلافة معها وكيف انتهت، ثم اختتم الكتاب بقصيدة لابن الرومي يرثي فيها مدينته البصرة، وهذا أظن قبل أن يموت ابنه ويختلط.

أنا – كما ذكرت – أن هذا الموضوع (القرامطة والزنج) مهتم به من مدخل علم الوراثة ، وقد رأيت أن ثمة أُسَر في جنوب العراق وشرق الجزيرة العربية ينتمون إلى سلالات جينية شرق أفريقية وتواجدها ليس بقديم في المنطقة، أي خلال الفترة الإسلامية، فكنت أقول لو كان هؤلاء هم امتداد للزنج والقرامطة؛ هذا يعطيك أي أثر ممكن تتداخل وتتلاحم الشعوب والأفراد مع بعضها البعض كما ذكر ابن خلدون في مقدمة مقدمته.

وقد وجدت أن البعض يستدل بهذه الحوادث من مدخل سيكيلوجي، في بيان أن نفسية الأفريقي الغربي (الذي أُرسل الى أمريكا) تختلف عن الأفريقي الشرقي الذي كان مصدرًا حيويًا لسوق الرقيق

في المنطقة العربية، فيقول أن الصنف الأول لا توجد لديه أَنَفَة وقابل للاستعباد بالفطرة، فهم لم يحذو حذو أخيه الشرقي الذي ثار في ظل وجود الدولة العباسية وكاد أن يسقطها.

وقلت هذا ليس بدليل سليم خال من المعاريض، والسبب أن نمط الحياة الإقطاعي في الجنوب الأمريكي يختلف تمامًا عن الوضع في جنوب العراق، فاستفاد الرجل الأبيض من تجارب السابقين، ووضع طرقًا من شأنها أن تئدَ أيَّ خطرٍ قبل أن يتنامى، من بينها أنه منع الزنوج من القراءة والكتابة حتى لا يستفيدوا هذه المعرفة لصالحهم، والأمر الآخر، أن المناطق الإقطاعية في أمريكا التنقّل بينها بشكل علني خطر على الزنجي الذي يوقف من قبل صائدي الزنوج الذين كان مهنتهم في كسب المال وهو تتبع الهاربين فيقبض عليه بتهمة الهروب ما لم يكن معه تصريح، وقد جعل الزنوج تحت رقابة المشرف في المزرعة الذي كما يقول مالكوم إكس يكون أحيانًا هو من نفس الزنوج ويكون مَلَكَيّاً أكثر من الملك ويكون عينًا ورقيبًا عليهم، وأي شخص يخالف أو يتمرد لا بُدَّ أن يُجعَلَ منه عبرة لكل شخص تسوّل نفسه أن يحذو حذوه، كل هذه القيود منعت من وجود قيادة مركزية توحد الزنوج في أمريكا كما حصل في جنوب العراق تحت يد صاحب الزنج، ويحكي في الكتاب أنَّ صاحب العمل العربي كان يجمع أعدادًا ضخمةً منهم في مكان واحد وهذا جعل هناك فرصة لأن يلتقي هؤلاء ويتفاهموا في ما بينهم، وكان الكثير منهم يهرب من سيده، وهذا يدل لك على عدم وجود مطارة قوية كالتي وجدت في أمريكا، ولا توجد مراقبة ولا إجراءات احترازية كجمع عدد كبير في مكان واحد، وهذا سهّل لهم التخطيط والتواصل والتراسل والتوحد والقيام بعمل منسّق.

هناك موضوعات أيضًا مغرية للكلام عنها في سبر حالة العالم الإسلامي في القرن الرابع، ورؤيتي أن الإجراءات التي تتخذها الدول اليوم لضبط أمنها هي إجراءات صحيحة في أصلها خاطئة في تطبيقها، بمعنى كأنها كلمة حق أُريد بها باطل.

وجود العيون أمر ضروري لضبط أمن الدولة الداخلي، والكثير من الثورات التي حصلت في فترات الخلافات الإسلامية لم تستطع الدولة التنبّأ بها مبكرًا حتى كَبُرَت وتضخمت وأصبح من الصعب التعامل معها.

فمثلاً تجد أن هؤلاء يخططون لسنوات ويتراسلون ويتناقلون ويدعون الناس، والدولة نائمة.

وكذلك قضية منع حيازة السلاح لغير رجال الدولة، وتحجيم دور حكام الأقاليم من خلال إحلال قوة عسكرية في ذلك الإقليم تابعة للمركز أو وضع حكام إقليميين مبعوثين من قبل المركز، وقد قرأت أن هذا الأسلوب هو الذي اتبعه عبدالرحمن الناصر في الأندلس ونجح في إخماد الثورات المتلاحقة في الأقاليم، لأنه قَلّمَ أظافرهم.

وكذلك مما يغري الكلام عنه هو حروب العصابات، التي ركّعت الدولة العباسية في غير مناسبة، سواء مع ثورة الزنج وكذلك القرامطة، وأظن أن ثمة هناك تقصير للكلام حول هذه الجوانب، وهي موضوعات جاهزة لمن أراد العمل عليها.

١ أغسطس ٢٠٢٠م – ١٢ ذو الحجة ١٤٤١هـ

التعالم وأثره على الفكر والكتاب

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: التعالم وأثره على الفكر والكتاب.**
- **اسم المؤلف: بكر أبو زيد.**
- **عدد الصفحات: ١١٤.**
- **دار النشر: دار الراية للنشر والتوزيع.**

التعليق والمناقشة:

كتاب (التعالم) للشيخ بكر أبو زيد من الكتب المهمة التي يجب أن يطّلع عليها الناشئ أو من وضع له برنامجًا علميًا؛ فيجب عليه أن يقرأه قبل أن يبدأ في برنامجه.

فالتعالم مثل المرض الخفي، الذي ينشأ ويكبر في صمت وقد يقتل صاحبه ويُنهيه علميًا دون أن يشعر به، فحتى يكون الشخص متبصّرًا بهذا المرض عارفًا لأعراضه؛ واقيًا نفسه إياه، لا بُدَّ أن يكون مطّلعًا عليه وعارفًا به.

مثل قضية «النفاق» و«الكفر» إن لم يعرف الشخص ما هو النفاق والكفر وأعراضهما وصفاتهما قد يقع بهما دون أن يشعر، فالعلم ضروري لوقاية الذات من الضرر الدنيوي والأخروي.

افتتح الشيخ بكر أبو زيد كتابه بذكر ١٥ قصة رواها السلف عن التعالم، القاسم المشترك في هذه القصص - وحتى في قصص زماننا - أن المتعالم لا يلبث أن يُفضح أمره؛ فإن خَفي في الابتداء فلن يستمر على الدوام.

ويرىٰ الشيخ بكر أبو زيد أن من أسباب التعالم في زماننا هذا قِصَرُ الهمّة في طلب العلم، فالبعض لا يريد أن يتعب كما تعب الأوائل في التحصيل، فيريد أن يحرق المراحل، ويتسلّم منزلة المشيخة في أقرب الأوقات، رغم أن الأوائل يقرّون أن العلم لا يتحصل إلا بالتعب.

ومن صور التعالم التي ذكرها بكر أبو زيد شراء الشهادات الجامعية المزوّرة، وهذا الضرر له جوانب دنيوية ودينية، الآن عندما يسمع أن هذا الشخص دكتور في الفقه (والشهادة ليست بمعيار) إلا ويستمع العامة له بعناية علىٰ اعتبار أنه من أهل الاختصاص، فلا تسل - إن لم يكن مختصًا ولا عارفًا - عن حجم الإضلال والكوارث المترتبة عليه، وأما الضرر الدنيوي فهو اعتلائهم المناصب الوظيفية بغير وجه حق، وكم سمعنا من خلال الحملات الحكومية في بعض البلدان عن سقوط مسؤولين كبار كانت شهاداتهم مزورة.

وقد لفت انتباهي ما أورده الشيخ عن الإمام الشعبي لما قال له تلامذته: «**إنا نستحي لك من كثرة ما تُسأل فتقول: "لا أدري."**»، فتذكرت أني لم أجد شيخاً من مشايخ الفضائيات استُضيف يومًا يتلقىٰ الأسئلة من الجمهور وقال عن أحد الأجوبة: «لا أدري»، رغم أن الكثير من هؤلاء لا يعدِلون أصغر تلاميذ الشعبي.

وفي هذا الفصل عمومًا الذي أورد فيه مقولة الشعبي وتلامذته نقولًا عن الخوف من الفُتيا وأن البعض يُحيل ويعرض من كبار الأئمة والعلماء، فربما البعض يظن أن قوله: «لا أدري» منقصةً له وإظهاراً لجهله، بينما هي السلامة التي لا يعدلها شيء.

ويرىٰ الشيخ بكر أبو زيد أن للإمام أن يحصر الفُتيا في أُناس معينين، تأسياً بما فعله عمر في موسم الحج، وهذا قول قد يترتب عليه لوازم، فلو أتىٰ حاكم وأنشأ مؤسسة صنعها علىٰ عينه وعين من هم علىٰ هواه وقال لا يُفتي في الناس إلا هؤلاء، لضاع الحق، فالمؤسسات الدينية الرسمية في بلادنا لا تعارض الحكومة ولا تكاد تجد فتوىٰ تخالفها فيها، ومن خالف فُصِلَ من تلك المؤسسة، فالشيخ بكر

رأىٰ أن في هذا القول مصلحة من أجل الحَجر علىٰ المتعالمين الجهلة ولكن في نفس الوقت قد يستخدم هذا التقويض استخدامًا خاطئًا وبدلًا من أن يكون أداة بناء يصبح معول هدم.

وكذا تكلم الشيخ عن التعالم في أبواب الفقه، من قبل ما أسماهم بـ«مدرسة الفقه العصرانية» فضرب أمثلة لسوء استخدامهم لبعض القواعد والألفاظ الفقهية مثل «دعوىٰ تغيّر الفتوىٰ بتغيّر الزمان» و«فتح باب الاجتهاد» وهي كلمة حق أُريد بها باطل، و«التلفيق المذهبي» وهو النبش عن شذوذ الأقوال «لتلاقيها مع النظرة التبريرية لواقع المسلمين اليوم» كما يقول الشيخ و«تقنين الشريعة» وللشيخ بكر أبو زيد رأي شديد في هذه المسألة قد أحال علىٰ كتابه الآخر (فقه النوازل) وغيرها من المسائل التي تراها تتقاطع مع ما كتبه الشيخ إبراهيم السكران في رصده لهذه الظاهرة في كتبه مثل: (مآلات الخطاب المدني) وغيره.

وكذا عن التعالم في باب التحقيق، وله نص بديع في هذا يذكر أن هؤلاء المحققين يُكثرون من الحواشي والتعليقات بغير داعٍ، مثلاً: يعرفون المُعرّف، كأن يوردون ترجمة لكل صحابي وتابعي ويُعرّفون بالمواضع المشهورة مثل مكة والمدينة وغيرها، مما ينتج عن هذا تضخّم الكتب أكثر عن حجمه بأضعاف المرات وهذا يؤدي بالضرورة إلىٰ ارتفاع تكلفة الطبع ثم ارتفاع سعر البيع.

وهذا أمر يُزعج الكثيرين، وقد قرأت شيئًا من هذا للشيخ عمر بن محمود في كتابه (فن القراءة)، الذي قال فيه: «**ومما يقزز النفس هذه الأيام هذه التعليقات الجاهلة السمجة التي تدور في هوامش كتب التراث، وفيها من تضخيم الكتب تورمًا ومرضًا، ومن أجل التجارة والتكسب**»، وكذا مرّت علي تغريدات لفارس العجمي عن هذا الموضوع في بيان تضخم المجلدات التي قد تطبع في مجلدات يسيرة حتىٰ يتضاعف حجمها ضعفين بسبب هذه الحواشي.

وذكر غيرها من الموضوعات، ولكن بلا شك أن الشيخ بكر أبو زيد كان يكتب من واقع معايشته للبيئة العلمية، وهذه النماذج المشوّهة التي كان يراها كانت أكبر محفز لكتابة مثل هذا الكتاب، وكل نقطة وكأن خلفها شخص ما.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٤ أغسطس ٢٠٢٠م – ١٥ ذو الحجة ١٤٤١هـ

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا.**
- **اسم المؤلف: محمود شاكر.**
- **عدد الصفحات: ١٨٢.**
- **دار النشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.**

التعليق والمناقشة:

(رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) هي رسالة صدّر بها كتاب (المتنبي)، وإن كنت أظن أن مقدمات المتنبي لها صلة بمضمون هذه الرسالة وكذلك الملاحق التي بعنوان (بيني وبين طه) وهي مساجلات حصلت بين محمود شاكر الذي كان طالبًا آنذاك وبين عميد كلية الآداب طه حسين حول المتنبي، فكلاهما قد أصدر كتابًا في هذا الموضوع.

والكثير من معارك الأدب بين الكبار يكون سببها أحد الشعراء، فمعركة محمود شاكر مع لويس عوض كان سببها شعر المعري وضمنت في كتاب (أباطيل وأسمار) ومع طه حسين حول شعر المتنبي وضُمِّنت في ملحق الكتاب الضخم (المتنبي)، وارتكزت معركة الرافعي والعقاد حول شعر ابن الرومي في أغلبها كما في كتاب (على السَّفود).

وفي كتاب (رسالة في الطريق الى ثقافتنا)، تكلّم محمود شاكر في الابتداء عن منهجه في تذوق الكلام، وهو أسلوب قد يؤثر على القارئ عندما يرى تطبيقاتها، وهذا التذوق هو محاولة الوصول الى أبعد حد ممكن من الحقيقة في نص قصير ضئيل، ومن تطبيقاته في غير هذه الرسالة، هو انتقاده للجاحظ في مقدمة رسالة (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام)، وهو الوقوف على تحديد عمر الشعر

العربي، وهذا النقد والاستقصاء يستلزم من الشخص أن يكون قارئًا نهمًا في علوم شتى ليربط الخيوط ببعضها البعض، فمحمود شاكر أظهر المصدر الخفي الذي اتكأ عليه الجاحظ في تحديد الشعر العربي وانتقد صحة روايته.

وثم قام بتطبيق هذا المنهج في كتاب المتنبي، ولفت حينها انتباه الكبار إليه وهو لا يزال صغيرًا بعمر السادسة والعشرين، وبعد أن قضى عشر أعوام وهو يقرأ في كتب التراث ويستغرق في تأمل النص وتذوقه للوقوف على خفاياه، ولكن يقول أنه شريك أيضًا في هذا الفساد وعدم استدراك الأمر مبكرًا بعدم إظهار المنهج الذي سار عليه في كتابه (المتنبي) وكتم ذلك لأربعين سنة، ويعني أنه يتكلم لأول مرة في (رسالة في الطريق الى ثقافتنا) التي صدرت بعد الكتاب الأصلي (المتنبي) بأربعين سنة، فربما لو تكلم عنه حيئنذ لما اتّسعت عجلة فساد الحياة الأدبية بحيث أصبح إعادتها إلى دفتها الأولى مستحيلًا.

هذا التذوق في الكلام سوف يطبقه محمود شاكر في هذه الرسالة على أحداث تاريخية قديمة حصلت، كانت هي السبب في نظره لفساد الحالة الأدبية في مصر، فمثلًا يتسائل الشخص ما الرابط ما بين غزو نابيلون لمصر في خواتيم القرن الثامن عشر ميلادي بفساد الحالة الأدبية في مصر في مطلع القرن العشرين؟!

الفساد في نظر شاكر كان مرتكزاً بشكل كبير على الاستشراق والمستشرقين وطريقة تعاطي كبار الأدباء والنخبة المثقفة معهم، وعدم وقوف هؤلاء الكبار على حقيقة هذا الاستشراق جعلهم يقتبسون أو ينتحلون بعض أو الكثير من أفكارهم في تعاطي مع تراث أُمّتهم، فالجيل المعلَّم تسرّبت إليه هذه الأفكار ثم بثّها إلى الجيل الصاعد، الذي طورها فيما بعد حتى وصلوا إلى مرحلة القطيعة مع هذا التراث والانجذاب الكلي لأدب الدول التي تعلموا فيها.

وقد كتبت على طرّة الكتاب بعد أن انتهيت من قراءته: «**هذا الكتاب يصلح أن يكون مدخلًا للشخص المرتبط بتراث أمته قبل أن يدخل المعترك الأدبي فهو من الكتب التأسيسية التي سوف تحدد الكثير من اختياراتك وميولك ومن الكتب التي سوف تجعلك منتشيًا لفترة لا بأس بها، ويثبت لك بجلاء أن تاريخ مصر ليس حكرًا عليها وأن المركز لا يكون بتأثير الهامش**».

١٨ أغسطس ٢٠٢٠م – ٢٨ ذو الحجة ١٤٤١هـ

شيخ الفريج: جبر بن محمد آل مسلم

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: شيخ الفريج: جبر بن محمد آل مسلم.**
- **اسم المؤلف: بشار الحادي.**
- **عدد الصفحات: ٢٣٥.**
- **دار النشر: طبعة خاصة.**

التعليق والمناقشة:

المؤرخ بشار الحادي له جهد لا يُشكر وبذل لا يُطمر في التأريخ والأرشفة، ويكاد يكون غطّى الكثير من الشخصيات التاريخية وكتب تراجمها عبر سلسلته (أعيان البحرين)، وغيرها من الكتب ذات الصلة، ولم يسبق لي أن اطّلعت على إحدى مؤلفاته من قبل، إلى أن قرأت هذا الكتاب، وخشيت أن منهجه في التأليف قد عممه على بقية مؤلفاته، فهذا أمر مؤسف.

ملاحظاتي على منهاجية البحث في هذا الكتاب هي:

١ . أن المؤلف قد لطش الكلام عن جبر آل مسلّم من مقال لشخص آخر وهو عبد الرحمن الدوسري ونشره في عدة مواقع أحدها موقع صحيفة الحد قبل أن يُنشر الكتاب بسنتين؛ فقد نسخه دون الإشارة الى المصدر الأساسي فقط قام ببعض التعديلات على النص الأصلي، وكان حرياً أن ينقل النص ويقول قد عرضته على أحفاد المترجم له وأقروا ما فيه، وبذلك لا يكون لأحدهم مدخل على المؤلف.

٢. أن المؤلف لم يستفرغ جهده في البحث، فأثناء بحثي وتصفحي السريع في بعض كتب تاريخ البحرين، وجدت أن مصادر وأطروحات تتكلم عن الشخص المترجم له ولم يضعها المؤلف في

كتابه، فمثلاً هنالك قصة كاملة تقع في عدة صفحات عن جبر آل مسلّم نفسه في كتاب (نوادر وقصص من البحرين) لمحمد قاسم الشيراوي. وقد وجدت بعض كذلك في (يوميات بلجريف) عدة مواضع تكلّم فيها بلجريف عن جبر آل مسلّم نفسه، وكذلك بعض المواضع من مجلة الوثيقة. وإن كان المؤلف أقام بعض اللقاءات مع أحفاد جبر وإحدىٰ قريباته، ولكن هناك شخص آخر من المسلم كان حرياً أن يقيم معه اللقاء، فهو لديه بعض التاريخ، وقد أنبأني ببعض تفاصيله، وفيها تفاصيل مهمة عن الأشخاص الذين سافروا من قطر وترتيبهم من الأصغر الىٰ الأكبر. ثم كذلك يسأل عن الأحياء الذين عاصروا هذه الشخصية، ثم يجهز أسئلة تدعم البعض وتكمله، فالتاريخ أحيانًا يكون مكتنزًا في ذاكرة الكبار، وبذهابهم يذهب. وكذلك الكلام عن قبيلة آل مسلّم عموماً كان مختزلاً – أي اكتفىٰ الباحث بالنظرة العامة دون التأصيل المقعّد –، وكان بودي لو استطرد حول هذه القبيلة وأثرها وامتدادها والأحداث التي شاركت فيها بشيء من التفصيل، وهذا يستلزم الباحث أن يكون ملمًا بالتاريخ الخليجي وتحديدًا القطري.

٣. وكذلك كلامه مثلاً عن مساكن آل مسلّم، فهو يستشهد لك بمراجع قديمة، مثل دليل الخليج، فالكلام المذكور صحيح ولكن هذا قبل مئة عام، هل لازال آل مسلّم يسكنون نفس المناطق التي ذكرت قبل مئة عام في البحرين؟ وكذلك في قطر؟! مثلاً يقول أن آل مسلّم ينتشرون في عدة مناطق وذكر من إحداها الحويلة رغم أن الحويلة الأن أصبحت محمية طبيعية في قطر، ودمرت كل مساكن المسلّم فيها، ثم يسرد مقولة العلامة حمد الجاسر حول مساكن المسلّم في الإحساء، مع العلم أن حسب رواية أحمد الشبّاط التي نقلها عن محمد بن فهد المسلّم أن آل مسلّم الموجودين في الإحساء (استقروا فيها ثم بعد فتره رجعوا لقطر)، وهذه مهمة حتىٰ تكتمل الصورة.

والكتاب عمومًا اتّخذ منهج سرد الوثائق والعرائض والصكوك، فبقية الكتاب بعد هذا السرد التاريخي يكاد كله أن يدور في هذا الباب، ومن الجيد أن المؤلف بشار الحادي قام بتفريغ نصوص

الصور، لأنها غير واضحة، وليست هناك أمور «حصرية» غير المواد الخاصة بجبر آل مسلّم التي يحتفظ بها أفراد أسرته ونشر الحادي بعضًا منها في كتابه.

والشخص المترجم له جبر بن محمد آل مسلّم شخص يُحب، لاعتبارات، منها أنه لم يكن بعض الطواويش والنواخذة الذين يشددون على الغوص، فترى في بعض الوثائق أنه أسقط بعض الديون أو أرجأ بعضها، وكذلك أعماله الخيرية كدعم فلسطين والمحتاجين وغيرها من الأمور، ولكن أحب أعماله إلي هو منافحته عن الشريعة الغرّاء التي نحّاها الانجليز مع تنحية حاكم البحرين الأسبق الشيخ عيسى بن علي آل خليفة عن الحكم.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٩ أغسطس ٢٠٢٠م – ٢٩ ذو الحجة ١٤٤١هـ

الحركات والجماعات السياسية في البحرين

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: الحركات والجماعات السياسية في البحرين ١٩٣٨-٢٠٠٢.**
- **اسم المؤلف: فلاح المديرس.**
- **عدد الصفحات: ١٩٢.**
- **دار النشر: دار الكنوز الأدبية.**

التعليق والمناقشة:

زرت منذ عدة سنوات المكتبة العامة في مدينة عيسى، ووجدت كتاباً يتحدث عن الجماعات في البحرين ولا أدري إن كان الكتاب عامًا أم خاصًا بالإسلاميين، وكان يتحدث بشكلٍ تفصيلي عجيب، فأثار إعجابي، ولكن للأسف لم أحفظ اسمه ولا اسم مؤلفه، ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عن الكتب التي تكلمت عن الجماعات في البحرين لعلي أجد بُغيَتي فيها، ومن هذه الكتب التي سعيت للحصول عليها – استعارةً – هو كتاب (الحركات والجماعات السياسية في البحرين) للمؤرخ الكويتي د. فلاح المديرس.

والكتاب عليه بعض الملاحظات:

- أن المؤلف ليس من أهل البلد، فلذلك قد تراه يخلط خلطًا عجيبًا في كلامه عن بعض الجماعات، مثلاً خَلَطَ ما بين الجمعية الإسلامية (ذات التوجه الأشعري) وجمعية التربية الإسلامية (ذات التوجه السلفي)! وكذلك خلطُهُ بين جمعية الإصلاح والإخوان المسلمين، فجعل منهما جماعتين منفصلتين في البحرين رغم أن الشيخ عبد الرحمن الجودر الذي قال أنه مؤسس جماعة الاخوان المسلمين في البحرين كان نائب رئيس جمعية الإصلاح بالبحرين!!

- أن المؤلف اعتمد على المواد والمراجع المكتوبة، ولم يعتمد على الروايات الشفهية التي سوف تثري بحثه وسوف تضيف شيئاً جديداً، فلذلك لن تجد أي جديد في كتابه فهو فقط مجرد التقاط من هنا وهناك، كما أن في جانب الجماعات الإسلامية ثمة قصور كبير في المراجع، وفيه بعض الاختصارات خصوصاً في المراحل الأخيرة، وهي مرحلة الانتخابات بعد الانفراجة السياسية، كأن المؤلف استعجل من أجل إصدار الكتاب وكان هذا على حساب جودة البحث.

- أن المؤلف قفز من مجرد التوصيف إلى إصدار الأحكام بنَفَسٍ يساري، فيصفُ بعض الجماعات الإسلامية على أنها رجعيّة ويصف حركة القوميين على أنهم شوفينيون! كما أنه وجه انتقاد للإسلاميين والقوميين ولم يفعل ذات الشيء مع الحركات اليسارية.

ولكن يمتاز الكتاب بأنه يعطيك نبذة عامة عن أصول الجمعية السياسية الموجودة حاليًا، فمثلًا سوف تعلم أن المنبر التقدمي هو امتداد لحركة جبهة التحرير... إلخ، وذلك أن بعض أفراد التنظيمات عندما صدر العفو الأميري ورجوعهم الى البحرين، قرروا الدخول إلى المعترك السياسي ولكن دون استخدام الأسماء السابقة، وأحياناً تكون الأسماء الجديدة هي مكونٌ تَحالفي بعد مراجعات قد حصلت لدى البعض، والكتاب يُسلّط الضوء على بعض التراجعات والتغيّرات حتى القديمة منها مثل انشطار حركة القوميين وتبني أحد فصائلها التوجه الاشتراكي العلمي بعد هزيمة ١٩٦٧، ثم تغير توجهة الحركات الشيوعية بعد سقوط الاتحاد السوڤيتي من اعتماد العنف الثوري إلى التغيير السلمي، وتخلي بعض الجماعات عن هدف إسقاط النظام الى إصلاح النظام، فأصبح هناك تغيرٌ في المقاعد، فبعض الفرقاء سابقاً تقاربت أفكارهم وصاروا شيئًا واحداً؛ فلذلك بعض الجمعيات قد يصح أن ترى أنها امتدادٌ سابق لحركة ما ولكن البعض لا تُرى إلا على أنها حلف جديد من أشخاص كانوا من جماعات شتى سابقاً.

وكذلك يمتاز الكتاب بإعطائك خارطة بيبليوغرافية، فثمة قائمة كبيرة للمراجع تستطيع أن تعرف ما الذي ينقصك وأين تبدأ وتبحث.

وكذلك المؤلف صاغ كتابه بَنفس مؤرخ، فهو يلخص الأحداث وأحياناً يعطي رأيه، بخلاف بعض الكتب التي أدخلت التحليل والدراسة في تأريخها لواقع الحركات السياسية في البحرين مثل كتاب (التنظيمات والجمعيّات السياسيّة في البحرين) لعبد الهادي الخواجة وعباس المرشد.

وكذلك فهو شامل لكل الحركات - رغم القصور الذي فيه - وهذا بخلاف من أرّخ لبعض التوجهات كصنيع عبد النبي العكري وكتابه (التنظيمات اليسارية في الجزيرة والخليج العربي)، وكما أحببت أن أقول أن ثمة إضافات كثيرة فيما أظن حول تاريخ الحركات اليسارية تمت إضافتها مؤخرًا من قبل كتابي فوزية مطر (أحمد الشملان: سيرة مناضل وتاريخ وطن) وكتابها الآخر بالاشتراك مع سبيكة النجار (المرأة البحرينية في القرن العشرين)، فأجزاء لا بأس بها تكلمت عن النضال السياسي وهم شهود عيان وأصحاب تلك المرحلة وسجلوا ووثقوا لبعض من عايشها معهم من باب التوثيق.

كما يوجد بحث أو دراسة عن الجماعات في البحرين سمعت عنها للدكتور غسان شهابي، ولكن لم أعثر عليها، وقد قرأت دراسةً عن الجهاديين والجماعات الجهادية في البحرين بعنوان (داعش بيننا: الدولة البحرينية وصعود الإسلام الجهادي) وهي دراسة تافهة لا تساوي قيمة الحبر الذي طبعت به، وكتبت بنَفَسِ الضرائر، التي تُلوىٰ فيه الوقائع فقط من أجل الإضرار بالخصم (الحكومة) لا بغرض الدراسة الموضوعية التي تهمّ أيَّ باحثٍ.

هذا والله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٨ سبتمبر ٢٠٢٠م – ٢١ محرم ١٤٤٢هـ

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.**
- **اسم المؤلف: عبد الرحمن الكواكبي.**
- **اسم المحقق: محمد عمارة.**
- **عدد الصفحات: ١٤١.**
- **دار النشر: دار الشروق.**

التعليق والمناقشة:

أول لقاء لنا مع الكواكبي كان ضمن مادة (الفكر الإسلامي والعربي) في الجامعة، ودرّسها البروفيسور السيد عمر وهو نفسه مُترجم كتاب (التوحيد) لإسماعيل الفاروقي، ولكنني –للأسف – أتلفتُ السواد الأعظم من المُسوَّدات الجامعية بعد الزواج، والآن ندمت على ذلك؛ لأني بتُّ الآن أراها ضرورية لتقيّم الشخص لنفسه كيف كان وكيف أصبح، أو حتى لتقيّم المضامين التي يعرضها الدكتور عليك، وهل كان توافقه على طرحه أم ترى أنه أخطأ، وإن أخطأ فهل كان خطأه جوهري أو عَرضي، وهذا مما يُنمي حاسّة النقد والتقييم لدى الطالب أو الباحث.

وقررت أنا صاحبي أن نقرأ كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) للكواكبي كونه كتاب قصير فرأيناه يصلح للمناقشة المشتركة، وكانت لدينا نسختين للأعمال الكاملة للكواكبي، والتي أملك إحداها ومن خلالها قرأت كتابه هذا، وهي نسخة الدكتور محمد عمارة، وقد صدّرها بمقالة عن الكواكبي (هل الكواكبي عَلماني) ثم دراسة في آراء الكواكبي أخذت أول ١٧٦ صفحة تقريبًا، وعادةً ما أهرب من قراءة هذه الدراسات في الابتداء حتى لا تؤثر علي في القراءة، وتوجهني من

حيث لا أشعر، ولكن أحب أن أرجع إليها بعد القراءة لأرىٰ مدىٰ التطابق والموافقة بيني وبين صاحب الدراسة.

وأسلوب الدكتور محمد عمارة ليس سديدًا في التحقيق، بمعنىٰ أنك قد تقبل من أي مؤلف مصري حذف الياء واستبدالها بالألف المقصورة تقليدًا لرسم المصحف، ولكن محمد عمارة في تحقيقه للكتاب أراه أنه حذف التنوين من علىٰ الألف مطلقًا، وكذلك لم يشكّل ما لزِمَ تشكيله في الكثير من الأحيان، فكان أسلوب الكواكبي أسلوبًا أدبيًا يحتاج الكثير من التشكيل حتىٰ تتضح المعنىٰ المراد، فأحيانًا المعنىٰ يتضح من خلال السياق وأحيانًا لا.

أما التحقيق الآخر فهو للسوري محمد جمال الطحّان، ولعل الطحّان أكثر تأثّرًا بالكواكبي وهذا قد تشهد عليه بقية مؤلفاته التي لا يكاد يخلو ذكر الكواكبي منها أو عنه.

عمومًا الكواكبي وُجِدَ في وقتٍ كَثُرَ فيهِ التساؤل بين المفكرين في القرن العشرين عن أُسّ المشكلة التي أصابت الأُمّة فجعلتها ترزح تحت الاحتلال والتخلّف بعد أن كانت في الصدارة، ثم طرح كل طرف الحل حسب رؤيته، ولا شك أن كفلًا من الناس رأوا أن تقليد الغرب في عاداته وقوانينه هو سبب التقدم؛ وهذا أفرز بالضرورة نفورًا من قيم مجتمعهم باعتبارها هي أصل الداء، وهذا أدّىٰ إلىٰ سَلخ مجتمعهم بالكلية عن ما كان عليه وإحلال النمط الغربي بدلًا منه، كما صنع مؤسس جمهورية تركيا الحديثة كمال الدين أتاتورك، والردّ علىٰ من ربط بين الدين والتخلّف تجدهُ حاضرًا في كتابات شكيب أرسلان وهو يفنّد هذا الزعم، ولعل أشهر كتبه في هذا هو (لماذا تراجع المسلمون وتَقَدّم غيرهم؟) وهو جواب علىٰ سؤال مسلم ربما وجد هناك فجوةً ما بين النص والواقع، فيسأل هل بالإمكان أن يكون التقدم حاصلًا مع الحفاظ علىٰ الدين أو لا يكون إلا بالتخلي عنه؟!

ومن الغرائب أن هذا الطرح لا زال يَلقىٰ رواجًا رغم عدم واقعيته علىٰ الأرض، فمن قال أن الدين هو سبب التخلف، يَلزم أن الدين أو رجاله هم من يديروا سياسيات الدول العربية الحالية، بينما

الواقع يَشهد أن كل دولنا عَلمانية، ولا تَضربُ اعتبارًا بعلماء الدين في رسم سياستها الداخلية أو الخارجية، فإذا لماذا يكون الدين هو سبب التخلّف ولا يكونوا الطغاة وسياستهم الذاتية هو سببها؟! إن عدم التصريح هذا نابع من الرهبة كما قال الكواكبي: «**والحقيقة أن المرجع الأول في الكل هو الاستبداد، الذي يَمنع حتى أولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيب**»[١٤٤].

هذه الحرقة على الوضع الحالي جعل البعض يطلب السلامة في تشخيصه للواقع، فيلقي بالأئمة على الدين ورجاله على الوضع الذي وصلنا إليه، تهربًا من مواجهة الحقيقة المُرّة، فلذلك ترى هؤلاء في بعض المناسبات يترصّدون للمشايخ عند إطلاقهم لبعض الفتاوى، فيقولون: "الغرب وصلوا القمر وهذا لا زال يتكلم عن حكم كذا وكذا"، وهذه بلا شك مغالطة منطقية؛ لأن الشيخ ليس تخصصه أن يوصلنا الى القمر فهو ليس رائد فضاء، إضافةً إلى هذا فهو ليس هو المانع من الوصول إلى القمر؛ لأن قرار إنشاء مشروع للفضاء لا يملكه هذا الشيخ ولا الدولة تضرب لهُ اعتبارًا حتى تسأله وبناءً على فتواه تنشئ المشروع أو لا، بل الذي جعلنا لا نصل إلى القمر، هو عدم وجود مشروع حكومي لهذه الغاية، فكان من الأَوّلى أن تلوم الحكومة على عدم وصولنا للقمر لا هذا الشيخ الذي لا يملك من الأمر شيئًا!

ويكمن سبب تخلّف الحكومات العربية في هذه الأبحاث عادةً إلى إنفاقهم المتقصّد غاية الاقتصاد على مشاريع البحث العلمي، فكم إنفاق الحكومات العربية على مشاريع البحث والاكتشاف؟! بالمقابل كم هي مصاريف رؤساء الحكومات وحواشيهم ومن حولهم؟! أحيانًا تكاليف سفرة واحدة لهؤلاء تعادل نفقة سنة كاملة على مشروع علمي، وكذلك كم هو مقادر المال العام المهدور الذي تَنهبه العصابات الفساد والرِشَا، والذي لو يجمع يعادل ميزانيات سنوات كاملة في البحث العلمي.

---

[١٤٤] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الثالثة: ٢٠١٤ (ص٢٥١).

هذا السبب الذي جعلنا لا نصل إلى القمر لا ذلك الشيخ الذي لجبننا نُحمّله الملامة.

وكما قال شكيب أرسلان في الرد على من علّق سبب التخلف بالدين: «**كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم فتفلت من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها، فيكون فساد الأخلاق هو على السقوط، ولا يكون الدين هو المسؤول، وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجيه غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة،وتزلزل أركانها، وقد تهدمها من بوانيها، ولا يكون القصور من الشريعة نفسها، فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة؛ بل من الجهل بالشريعة، أو كان من عدم إجراء أحكامها كما يبنغي. ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيمًا عزيزًا**»[١٤٥]، فعكس الصورة فجعل التخلف للابتعاد عن الدين لا تطبيقه!

عمومًا، لا شك أن تقدم الزمن وكثرت التجارب أدت في النهاية إلى تنوّع التشخيص وزيادة عدد الحلول بالضرورة، فخرجت نظرية القاعدة الصلبة والبعث الإسلامي وغيرهما[١٤٦]، وتبلور الأمر في نهاية المطاف إلى سجال بين الحركات الإسلامية المعاصرة حول آليات التغيّر الذي هو امتداد فيما أظن للنقاش الأول بين المفكرين في مطلع القرن العشرين، ويمكن أن نجمل اللفظ في توصيف طرق التغير ما بين (تغيّر من الأسفل) أي من القواعد والذي بالضرورة سوف يؤدي إلى تغيّر في الأعلى، أو (تغيّر من الأعلى رأسًا) والذي يمكن من خلالها أن يتم تغيّر الأسفل، وأنا من أنصار القول الثاني وقد ذكرت هذا في أحد مقالاتي في مجلة (كلمة حق) في تعقيبي على كتاب الدكتور عبد الله النفيسي، وأحسب أن الشيخ عمر بن محمود وُفّق في نقض هذا القول لاعتبارات منطقية حسية مشاهدة في مناقشته لكتاب (واقعنا المعاصر) لمحمد قطب، وقد دلّت الشواهد أن أي محاولة تغير جادة من الأسفل عبر إصلاح المجتمع وتكوين قاعدة صلبة سوف يُنبّه المفسدين من أصحاب

---

[١٤٥] لماذا تأخر المسلون وتقدم غيرهم، شكيب أرسلان، دار البشير للطباعة والنشر، (صـ١١٩).

[١٤٦] البعث الإسلامي نظرية صاغها سيد قطب في كتابه (معالم في الطريق) وأما القاعدة الصلبة فهي أطروحة مماثلة صاغها شقيقة محمد قطب في مجموعة كتب له منها: (مفاهيم يبنغي أن تصحح) و(كيف ندعو الناس) وغيرها كما أن نظريات التغير لا تنحصل على هؤلاء فقط.

السلطة إليها والتي بطبيعة الحال لن ينتظروا أن تكبُر وتصبح ككرة الثلج لتجرفهم بل سوف يَئدونها في مهدها، والأجهزة الأمنية يقظة ولعلك تراجع كتاب (العقلية الأمنية) لأحمد مولانا، فترىٰ أنهم يمتحنون حتىٰ المشايخ الألفيين والذين قد كثرت قواعدهم بشكل مقلق [١٤٧].

رغم أن العلاقة بين الجماعات التي تختلف سُبلها في التغير علاقة تنافسية لا تكاملية؛ إلا أن أحياناً يستفيد كل طرف من الآخر، فلما تمكّنت الأحزاب الإسلامية من الصعود بعد ثورات الربيع العربي، استغلّت أجواء الحرية لجماعات كانت مكبوتة أمنيًا للدعاية الىٰ أيدلوجياتها وللتجنيد، وتجد كذلك أن جماعات التبليغ التي لا شأن لها بالسياسة والتي سَبيل تغييرها يكون بالدعوة بين المسلمين، تكون رادفًا مهمًا للجماعات التي تخالفها في منهجها وفي طريقتها للتغيّر، فهي تأخذ العاصي من الشارع وتضعه في المسجد، ثم تتلقفه الجماعات من داخل المسجد لتدخله ضمن أُطُرها التنظيميّة أو الفكريّة، فيصبح مؤمنًا بالتغيّر عبر السياسة أو السلاح رغم هذا لم يكن مقصد جماعة التبليغ عند دعوته في الابتداء.

ثم إن أصحاب المشاريع لم ينجحوا في تطبيق مشاريعهم إلا بعد مسكوا دفّة القيادة، فالأفكار الشيوعية سوف تبقىٰ حبر علىٰ ورق مالم تحدث الثورة البلشفية، ونظريات البعث لم تجد طريقها إلىٰ النور مالم يحصل انقلاب الأحزاب البعثية في العراق وسورية، ونظرية ولاية الفقيه كادت أن تكون مغمورة لو لا الثورة الإيرانية، ولم يَتنفّس أهل الصلاح الصعداء إلا بانتقال السلطة في الدولة الأموية عبر تداول تقليدي من خلال الوراثة أفضىٰ إلىٰ تقلّد عمر بن عبد العزيز الأموي منصب الخليفة .

---

[١٤٧] يقول أحمد مولانا: (تكتشف الوثائق الأمنية عن اتسام أداء أمن الدولة بالحذر الشديد، فهو يحاول متابعة كافة الفعاليات التي تقوم بها التيارات الإسلامية مهما كانت بسيطة تحسبًا لطروء ما يعكر صفو التوازنات علىٰ أرض الواقع، فنجده عندما يسمح مثلاً لأحد الدعاة المشهورين بإعطاء الدروس العلمية في مدينة كبيرة بعيدة عن العاصمة؛ نجده بعد مدة يقوم بمنعه ليرىٰ مدىٰ رد الفعل من محبي الشيخ، فلما مر الأمر بسلام دون إثارة مشاكسات سُمح للشيخ مرة ثانية بإعادة دروسه؛ حيث تيقن أن الشعبية الواسعة ليست ذات جذور قوية تهدد بخطورة مستقبليه).
[العقلية الأمنية في التعامل مع التيارات الإسلامية، صـ٩٣]

تختلف الظروف والأسباب، ولكن هذه الرؤى لم تكن لتطبق لو إن لم يكن المؤمنون بها في الأعلى، وبتواجدهم هناك – فقط – استطاعوا تطبيقها.

ولكن هذا يختلف في بعض النظم الغربية، فبعض اللوبيات تدعم رجل السياسية ماليًا ليكون في مجلس النواب أو الشيخ ليدعم حقوقها وإن لم يكن مطبقها على نفسه في أرض الواقع، فقد تجد نائبًا يدعم حقوق الشواذ وهو ليس شاذ، فقط لأن للشواذ يد عليه، فهذه اللوبيات لا تحتاج دائمًا أن يخرج من بين جَنَباتها شخص سياسي بل أحيانًا يستعاض بفكرة دعم رجل سياسي ليدعم حقوقها وإن لم يكن نفسه هو مطبقاً لها في واقعه الحياتي.

وعوداً إلى الكواكبي؛ فقد ألّف الكواكبي كتابه هذا في سنة ١٩٠٢ تحت اسم مستعار وهو (الرحالة ك)، وكذلك لم يُسقط كلامه على أشخاص معينين أو دول معينة فتراه يقول في مطلع الكتاب: «**وأنا لا أقصد في مباحثي ظالمًا بعينه ولا حكومة أو أُمّة مخصوصة، إنما أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل**»[١٤٨]، فكان يتكلم كلامًا عام، ومع ذلك أُغتيل الكواكبي في نفس السنة والتي قد يكون كتابه هو أحد الأسباب، وكلام الكواكبي بلا شك استند على واقع معاش، لن يستخرج هذه النماذج في الدلالة والتوصيف من فراغ أو عبر تخيّل أمور لم تحدث، فقد كان يَكتب الخطابات للمتظلّمين على نحو ما كان يفعل محمد بن أبي عامر في الأندلس، وهذه الكتابة جَعلتهُ يَطل على نافذة واسعة على مشاكل قومه والتي لكثرتها كان يُحللها وقد أرجعها الى أصلٍ جامع وهو الاستبداد، والشخص لا يَصل إلى تشخيص معقول مالم يَكن مطلعًا على جملة واسعة من القضايا في ذات الصدد، فمثلاً لو كان الشخص يُرجع إليه في القضايا الزوجية ويتوافد عليه الكثيرين بعرض مشكلاتهم الزوجية عليه لأصبح مرجعًا كبيرًا في هذا الباب، ولكوّن بلا شك خلفية كبيرة عن الموضوع، ولاستطاع أن يضع حلول جامعة للكثير من المشاكل التي تَرد إليه.

---

[١٤٨] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ١٨٢).

وكان مما يُحسب للكواكبي أن تبلور هذه القضية لديه لم تكن عن عزلة عن المجتمع فكتب كتابه وهو المراقب البعيد لما يجري بل كان مدرّسًا ومحاميًا وكاتبًا في القضاء الشرعي، وطبيعة هذه الوظائف تجعلك تحتك كثيرًا بالناس، وهذا الاحتكاك قد حُرم منه من تقوقع على نفسه ومن وافقه في التوّجه، فيعيشون في عزلةٍ عن المجتمع، فتصبح رؤياهم مع الوقت نرجسية منفصمة عن واقع الناس، فيصبحوا هم في واد والناس في واد آخر.

ثم إن قد خطه الكواكبي كان حصاد مصادمات عديدة جَرت بينه وبين العُثمانيين في حلب، أولها حاول الكواكبي أن يزاوج ما بين النظرية والتطبيق بسعيه الإصلاح عندما كان رئيسًا للبلدية، ولكن رأى أنه بدأت توضع العراقيل في طريقه من قبل الوالي العثماني في حلب، وكذلك أوقفت مجلاته التي كان يصدرها وهي مجلتي الشهباء والاعتدال، وذلك لانتقاده لبعض سياسية العثمانيين، وسحبوا منه نقابة الأشراف منه، ثم اتّهم تحت دعاوى محاولة اغتيال الوالي والتخابر من جهات أجنبيه ضد العثمانيين، وشُهّر به بسحبه أمام الناس مكبلًا وتم تصويره على أنه مجرم إلى أن برئ في نهاية المطاف.

فالشاهد أن الدولة العثمانية بخلاف ما يصورها البعض، على أنها ملاك مطلق أو خيار انموذجي، فلا يُماثل هذا المصوّر ما بين السيء والأسوء بل يجعل المعادلة هي ما بين الأحسن والأسوء!

فالدولة العثمانية تصادمت مع بعض سكان الولايات العربية وحدثت بينهما مشاكل، وبعض هذه المشاكل حق وبعضا باطل، ولكن الإشكالية تكمن في رسم التاريخ بطريقة انتقائية، فَتُحذف أجزاء وتُحضر اخرى ويُعمم المشهد كله عليها، وهنا لا نتكلم عن الروايات الرسمية للحكومات التي وقفت مع الإنجليز ضد العثمانيين فحسب، بل حتى المعارضين للحكومات وللاحتلال الإنجليزي للمنطقة، أحيانًا يرسم صورة حالمة لم تحصل ويقفز عن هذه المشاكل ويصور الأمر بشكل مبتور، فمثلًا كنت أتسائل حول مسلسل السلطان عبد الحميد هل عرضت هذه الإشكاليات الخاصة في

الاستبداد أم أُظهر بمظهر المصلح مطلقًا؟! وهذه إشكالية لا تَمس السلطان عبد الحميد نفسه في الدراما بل الكثير من الشخصيات التي لها وعليها ولعلك تجد ذلك حاضراً في مسلسل (ربيع قرطبة)، حول مؤسس الدولة العامرية في الأندلس محمد بن أبي عامر الذي أُثير حوله لغط كبير.

عمومًا، أظن أن ثورة العربية الكبرىٰ التي حصلت ضد العثمانيين وإن امتطيت من قبل الانجليز، إلا أن التجييش الكبير لها بين القبائل العربية لم يكن من دون سبب معتبر، عمومًا كانت هنالك مشكلات حقيقة فعلًا بين الأتراك والعرب، وزادت أثناء تفشي الطورانية بين بعض الجنود الأتراك، هذا الحس القومي أدىٰ كنتيجة حتمية له الىٰ ازدراء غيره ممن لا يجانسه في اللغة والعادات والتقاليد، والتحزب تحت راية القومية لا بُدّ أن يُفضي الىٰ إنشاء ردة فعل مماثلة، والقومية العربية التي مهّد لها هم القوميين الأتراك أنفسهم، ولعلك تراجع لكتاب عصمت سيف الدولة (عن العروبة والإسلام) فقد تكلم عن هذا الآثر المضاد.

ومن خلال قصة هجرة الكواكبي الىٰ مصر واغتياله، تَعلم أن الشخص لا يركن إلىٰ طاغية في مناكفة طاغيةٍ آخر، حتىٰ ولو كان بين هؤلاء خِصام بيّن وعداوة مستعره؛ وذلك لأن السياسة متغيرة، وتختلف المصالح بناءً علىٰ هذا التغيّر، فما كان بالأمس واجبًا أصبح اليوم محرماً علىٰ غِرار ما صوّر الوضع في رواية (١٩٤٨) لجورج أورويل عندما تتصالح الدول المستبدة مع بعضها البعض؛ وأحياناً يكون عربون الصلح هو التضحية بكش فداء وهذا الكبش لا بد أن تكون التضحيته به مُفرحةً للحكومة المستبدة الأخرىٰ، وأحيانًا يَدخلُ هذا المصلح في صدام مع الحكومة المستضيفة له عندما تريد إلزامه بالسكوت بعد تغيّر الأوضاع فيأبىٰ، فيصبح في مواجهة طاغيتين بدلًا من واحد، وأظن أن هذا ما حصل للكواكبي فقد كانت هنالك خصومة بين عباس حلمي خديوي مصر والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، ولما تمّ الصلح بينهما أراد خديوي مصر أن يُلزم الكواكبي بالذهاب معه الىٰ زيارة السلطان عبد الحميد، فَنصح أصدقاء الكواكبي صاحبهم بعدم الذهاب لأنه

يشتبه بحصول مكيدة في هذه الرحلة، وذلك بتسليم الكواكبي للسلطان عبد الحميد، فلما أبى الكواكبي وأعتذر أُغتيل بفجنان قهوى مسموم؛ وكان الأولى لمن شاهد هذه التجارب، أنه بمجرد ما يلمس بوادر مصالحة قوية بين دولته التي فرّ منها والدولة التي استضافتها أن يبحث له عن دولة ثالثة يُهاجر إليها ويكمل مشروعه لا أن يبقى ويكون هو كبش الفداء لهذا الصلح.

وعودًا إلى كتاب (مصارع الاستبداد) وهو أبرز أعمال الكواكبي، فتستطيع أن تعتبر هذا الكتاب هو مشروع عمر الكواكبي، الذي أمضى عليه ثلاثين عاماً من الدراسة والبحث كما ذكر ذلك في مقدمة الكتاب، لذلك في مشاريع الفِكر لا يَنصح أن يتعجل الشخص في التأليف قبل أن تتخمر الفكرة في سنواتٍ معتبرة، وأنا أرى أن «الفكر» هو خلاصة القراءات المتعددة ونتاجها، فالشخص قبل أن يُقبل عليها لتسويد رؤيته الغائية لابد يكون أن اجتمع في مخزونة الثقافي الشيء الذي يؤهله لصياغة هذا التصوّر الجامع، إذ مثلاً لا يَصحُ أن يقفز الشخص في الكتابة في الفكر الإسلامي وهو لا يعرف شيء عن تاريخ الإسلام! ولم يقرأ قبل ذلك كتب أمهات التاريخ ولا مرة واحدة! فالفكر هو نتاج فترة طويلة من الاطّلاع والبحث ويزداد بحث الشخص تشوّهًا كلما استعجل الشخص الثمرة بالتأليف قبل الأوان.

والكواكبي عموماً ليست لديه أعمال كثيرة، فبالاضافة الى هذا الكتاب لديه (مؤتمر أم القرى) ومقالات ورسائل مبثوثة هنا وهناك، وله كتابين مفقودين وقد فقدا بعد اغتياله وهما (صحائف قريش) و(العظمة لله)، وهنا تكمين أهمية نشر المواد بعد الانتهاء منها خوفًا من مصادرتها أو ضياعها أو حصول ما يضطر الشخص أن يتلفها مما يعني ضياع جهد كامل قضى لأجله الليالي والأيام في بحث ومراجعة وتصويب.

وهناك من سبق الكواكبي في التأليف حول ذات الموضوع مثل الفيسلوف الفرنسي (إيتان دا لا بوسي) صاحب كتب (العبودية المختارة)، وهنالك فوارق بارزة بين الكتابين رغم اشتراكهما في ذات

الموضوع، منها أن اتيان دا لا بوسي كتاب مقالة مطولة ولم يؤلف كتاب بالمعنى الحقيقي، وهذا تجده في أن الترجمة العربية تقع في ٩٠ صفحة من القطع الصغير! لذلك كان الكواكبي أوسع في الطرح وأشمل وأغزر في المعالجة وضف إلى ذلك أن الكواكبي تكلم عن قُطر أنت تعيش في كَنفه وتتطبع بطبعه، فتجد طرحهُ أقرب إليك من الكلام عن غيره، وكذلك أن هذا الفليسوف الفرنسي كان يَستشهد كثيراً بأحداث السابقين للدلالة على بعض المضامين التي يطرحها وفقًا للمقولة الشائعة (وبالمثال يتضح المقال)، ولم ينحُ الكواكبي هذا المنحى كثيرًا أو على نفس الوتيرة التي جرى بها لابوسي رغم أن كلاهما لم يُسقطا هذه النصوص على أسماء معينة مثل دول وأشخاص ولكن الكل يعرف أنهم يقصدون طغاة زمانهم وأقطارهم. وتستطيع أن تعتبر أن كتاب (العبودية المختارة) هو ملحق لكتاب (مصارع الاستبداد) به تكتمل الفائدة.

والاستبداد صفة قديمة تكاد تتشابه صوره عبر العصور، فلو قرأت عند استبداد الاغريق والرومان تجد أنك تستفيد منه في واقعك المعاصر لاشتباه الفعل واشتراكه في العلّة! وهذا لا يعني قطعًا أن صور الاستبداد لا تتغيّر أو لا تضعُف أو تزيد حسب كل ظرف، وهذا ما يجعل القارئ لكتابه يستحضر الكثير من المشاهد من ذاكرته ويسقطها على نصوص الكتاب، وهذه فائدة عدم التسميه فإنها تنشط الذاكرة للبحث فيها عن ما يطابق هذا النص من واقعه المعاصر، ومثال ذلك أني لو ذكرت استبداد ستالين ربما البعض لا ينتبه الى الاستبداد الذي حوله فيربط الاستبدادين ببعضهما البعض؛ لأني سميت الشخص والتسمية تُلغي وجود الآخر أحياناً، ولذلك ترى أهمية عمل جورج أورويل في رواية (مزرعة الحيوان)، ومن الفوائد كذلك هو الترفع عن خوض النقاش حول الإسقاطات، فلو ذكرت قاعدة عامة وأردفتها بحادثة فعلها طاغية ما، قد يكون هنالك تشغيب من أنصار هذا الطاغية في أصل ثبوتها أو في تأويلها، فيكون بينك وبينهم نقاش طويل حول هذا الفعل ويكون هذا النقاش صارف عن أصل الفكرة لما جرى من تشغيب، ومن الجميل استخدام أسلوب (ما بال أقوام) في تمرير الفكرة وهذا أدعى للقبول خصوصاً لمن تعصب لجماعة أو فئة أو دولة ما.

ومما يُحسب للكواكبي كذلك في إيصاله للفكرة هو استخدامه لأسلوب التشبيه وهذا ما زاد أسلوبه جمالًا في الوصف.

ويُحسب له أيضًا أنه لم يكتفي بوصف الاستبداد أو تشخيص الواقع، بل حاول أن يضع الحلول، وإن كان يُختلف في بعضها أو أكثرها، ولكن هذا عبء أكبر لا يستطيعه الكثير من يتكلم عن الواقع المعاصر، فقد ترىٰ البعض يمارس دور الحقوقي في إشهار مثالب الطاغية والمناداة ببعض الحقوق، ولكنه يعجز أن يوجد نموذج بديل لنظام الطاغية، وهذا ما نسميه نحن بوجود المشروع، فالكثير من الجماعات والشخصيات تُحسن الهدم ولكنها لا تُحسن البناء، فرؤاها قاصرة فمن الطبيعي أن لا يثق الناس بها ويتخوّفوا منها، ولذلك تجد أن الكواكبي من الحلول التي وضعها في خاتمة الكتاب «**قبل مقاومة الاستبداد تهيئة بماذا يستبدل الاستبداد**»[١٤٩]، وهذا مما يُستفاد من تجارب الآخرين، فالثورة الفرنسية التي خلعت الملكية المستبدة وأوجدت جمهورية مستبدة مارست نفس أفعال الملكية وأشد، وذلك لعدم اتضاح الرؤية لما بعد الثورة أو لوجود هدف جزئي تركزت الأنظار عليه وهو إسقاط لويس السادس عشر دون تجاوزه، وهذا يوجد في الثورات المسلحة التي يُقال أن الهدف هو إسقاط نظام طاغوتي وإيجاد نظام إسلامي، لا تعرف كُنهه، وبما أن الجوهر لا يعرف، فَيُفتح بابًا واسعًا للتأويل، فيحصل هنالك تضاد بيِّن ما بين الشعار والممارسة، فترفع أن الغاية هي إعادة خلافة راشدة ولكن الممارسة هي ملك عضوض، وهذا من أجود الأساليب لضرب المشروع الغائي وهو الخلافة بمثل هذه الممارسة التي أحد أسبابها عدم وضوح الرؤية منذ البداية. وقد وضع الكواكبي ٢٦ سؤال في كتابه أظن البحث عن إيجاد جواب لها ممكن أن يمهد الأرضية لوجود مشروع.

والحلول التي وضعها الكواكبي تدور في تكوين شخصية المصلح أغلبها لا خِلاف عليه، ومن قرأ سيرة الكواكبي علم أنه أنتقاها من الأحداث التي مرت به، فإشهاره لآرائه جعلهُ مستهدف من قبل

---

[١٤٩] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٣٠٠).

الطغاة فوضعوا العراقيل أمامه للإصلاح ومن هذا تعرف لماذا أوصىٰ أن يكتتم الشخص ولا يشيع أرائه التي قد تعكر عليه سَعيه، وأما الشخصية التي رسمها الكواكبي فهي التي تزداد من العلوم النافعة وتبرع فيها، والتي تكتم أرائها، ولا ترتبط بقوىٰ معينة وتسقط بسقوطها، والتي تَصل بعض كبار القوم بضوابط، والتي لا تتصل مع الطغاة وأعوانهم إلا للضرورة، وهي شخصية محافظة متحفظ في إبراز ما عنده، تحرص علىٰ مكارم الأخلاق، تنتقي جيدًا من تماشي. وقد قدم الكواكبي مكارم الأخلاق علىٰ العلم إن حصل تعارض، فيقدم صاحب الصفة الخلقية علىٰ العلمية ولكن لا يُصار إلىٰ الضد من ذلك.

ثم ذكر الأسباب التي من أجلها يثور العامة، ولا شك أن هذا الترقيم للأسباب فيه إجابة شافية حول سؤال يَرِدُ علىٰ أذهان الكثيرين وهو: لماذا لم يثُر الشعب الفلاني؟! فالعامة تثور لهذه الأسباب، إما لتحصل أحدها أو بعضها ولا يلزم من ذلك أن تحصل كلها، فقد تثور لسبب من هذه الأسباب ولا تثور لآخر.

ومن القواعد التي وضعها الكواكبي حلولًا لمشكلة الاستبداد هي «**كون الأُمّة التي لا تشعر بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية**»[١٥٠]، فشرط حصول التغير أو النهوض استشعار ومقت هذا الاستبداد أصالةً، وأظن أن هذا أمر متعذر أن يتحقق بسهولة، كثير من الثورات حصلت بسبب الظروف المعيشية وليس بسبب الاستبداد السياسي، ولكن الأول عَطف علىٰ الثاني، فالناس إن كثرت فيها البطالة وارتفعت تكاليف الحياة وكثرت الضرائب ثارت ولم تثر لأنهم اعتقلوا فلانًا من وجهاء البلد الذي قد أبدىٰ رأيًا مخالفًا في مسألة ما، ولما ثاروا لأجل ذلك أو طالبوا بحقوقهم استغربوا ردّة فعل الحكومات من اعتقالهم وتعذيبهم أو التضيّق عليهم وهذا قد يؤدي الىٰ انفجار أكبر، فكان هذا الاستبداد هو الزيت التي زادت من اشتعال الناس لسوء حالاتهم المعيشية.

[١٥٠] المصدر السابق.

ولكن إذا كانت الناس رافضة الاستبداد أصلًا فلا يمكن أن تقبل به حتىٰ ولو تحسنت أحوال الناس المعيشية وهذا من الوعي الذي يَرتقي بالأمة للنهوض من كبوتها.

وللكواكبي فصل عن علاقة الاستبداد والعلم، وكيف أن الطغاة والمستبدين يكرهون العلم العلم الذي ينّور العقول، ولا شكّ أن العلم يزيد الشخص بصيرةً بسبيل المجرمين، فإن الحكومات تضيقُ ذرعاً ببعض الخبراء المختصين، فلو مررت قرار اقتصادي ما، فالعامة لا تنتبه الىٰ مراد الحكومة ولا الىٰ أثر هذا القرار، ولا ينتبه إليه إلا أهل الاختصاص في الاقتصاد الذين قد يُحدثون ضجيجًا حول هذه القرارات فتنتبه العامة له، فلو كان الناس كلهم جهلة لما شَرقت الحكومة بأمثال هؤلاء، ومن الخطأ أن يَعيب البعض علىٰ بعض اليوتيوبر دورهم في الوعي باعتبار أن هذه الحلقات لا تغيّر واقعًا ولا تحدث نكايةً، وهذا التشنيع خاطئ لأن الفعل يحتاج إلىٰ وعي في الابتداء، والوعي هو مصدر الفعل، فالناس لن يرتفع صوتها دون وعي أوليّ، فلا يمكن أن يُطالب أحد بمطالب يجهلها، ولا يمكن أن يخطّئ أحد الآخر بفعل يجهل الصواب من الخطأ فيه. ومن هنا يحدث التكامل لا التعارض المتوّهم.

ومع ذلك بقيَ هناك إبهام في حلول الكواكبي، فهو علّق التغيير بمشروع نخبوي يتمثّل في أفراد يُحدثون أثرًا من الداخل، ورفض استخدام العنف في التغيير فتراهُ يقول: «**الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدًا**»[١٥١]، ولكن علّق الآمال علىٰ حدوث ثورة «**الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها افتنة انفجارًا طبيعيًا**»[١٥٢] وحيئنذ نصح هؤلاء النخب بعدم الدخول فيها إلىٰ أن تقوم هذه الثورة بحصد المنافقين وحينها يكون دورهم هو توجيه للثورة، وهذا قول غريب؛ لأن الثوّار عادةً لا يُسلّمون زمام الأمور لمن كان منعزلًا أو منزويًا أو

[١٥١] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٣٠٣).

[١٥٢] المصدر السابق.

معتزلًا وظاهر الأمر أنه كان على الحياد، فيرون أن هذه النماذج لا تملك أهلية مشاركتهم المَغنَم لأنهم لم يشاركوهم المَغرَم!

وهذا هو اجتهاد الكواكبي، وكل فردٌ من يطرح مشروع للتغير إلا وتجد أن فيه ثغرات، أو يصلح لبيئة معينة ولكن قد لا يصلح لبيئة أخرى.

وأمّا بعض الملاحظات على بعض ما جاء في كتاب الكواكبي، فهي:

أن الكواكبي ليس دقيقًا في اختيار الألفاظ بل لديه تعميم في العبارة، وهذا التعميم يجعله يتناقض، فيصف الأسراء (أي الأسرى تحت نظام الاستبداد حسب تعبيره) بصفة ثم في موضع آخر قد يصفهم بما هو ضدها! وأحيانًا الإشكالية تكمن في الوصف المطلق بينما هذا الوصف صحيح على الأغلب أو الكثرة دون الكل! أو حتى بعدم وجود اللازم مثل كلامه عن الإنسان: «**ثم انتقل – ولا يقال ترقى – قسم كبير من الإنسان إلى المعيشة الحضرية: فسكن القرى، يستنبت الأرض الخصبة في معاشه، فأخصب ولكن في الشقاء؛ لعله استحق ذلك بفعله؛ لأنه تعدّى قانون الخالق، فإنه حلقه حرًا جوالًا يسير في الأرض ينظر آلاء الله، فسكن، وسكن إلى الجهل والذل**»[153]، لا أعرف كيف ترتبط الأمور ببعضها، فهل السير والنظر في الأرض يستلزم من الشخص أن لا يكون بلا مسكن مستقر؟! وهل عدم الاستقرار في أرض تعدٍ على قانون الخالق؟! وهل يَصح هذا الإطلاق على كل من سكن باعتباره سكن الى الجهل والذل؟! وهل يَشمل هذا الأنبياء الذين استقروا في أماكن معلومة؟! هذه من الإطلاقات والمجازفات التي لا تصح.

وأن لدى الكواكبي مبالغة في تعليق كل كارثة على «الاستبداد السياسي»، وهذا فيه نوع من التكلّف، وثم إن هناك نواحي أو أطراف كما يقول ابن خلدون تكون خارج السيطرة المباشرة للدولة المركزية فَتسيس نفسها بنفسها، ويكون واقع الاستبداد أخف بكثير إذ يكون التراحم بين العمدة وسكان

[153] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٢٩٢).

القرية حاضرًا، ومع ذلك لا زالت ترزح تحت نيّر التخلّف والجهل، فلذلك يجب أن لا يستبعد الكواكبي أن الجهل هو أيضًا سبب من أسباب التخلف وكذا قلة الإمكانيات المادية فلا يحصر الأمر في الاستبداد السياسي!

أن للكواكبي طرح طوباوي مثالي لم يحدث في تاريخ البشر باعترافه هو؛ فيقول: «**أما بلوغ الترقي بالأمم إلى المرتبة القصوى السامية التي تليق بالإنسانية فهذا لم يسمح الزمان حتى الأن بأمة تصلح مثالاً له**»[154]، ويلزم من ذلك أن حتى الرسول ﷺ لم يَرْتَقِ بأمّته إلى المرتبة القصوى، وأن هذه المرتبة لم يبلغها أحد، فهل هي واقعية؟! وكما أخبرنا البروفيسور السيد عمر أن أصحاب الطرح المثالي لا يمكن أن يحققوا مشاريعهم قط! فلا يمكن أن تبرهن على شيء لم يحدث في تاريخ البشرية ولم يستطع فعله حتى الأنبياء.

وكذلك تمركز الكواكبي حول فكرته الأم، وهذا أثر على تعاطية مع نصوص الوحي التي قد تتطاقع مع فكرته، مثلاً يقول: «**ولبسطاء الإسلام مسليات أظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهي نحو قولهم: إن الدنيا سجن المؤمن، المؤمن مصاب، واذا أحب الله عبداً ابتلاه، وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل ... ورد في رسائل بولس من نحو "فالتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله"، وقد صاع وعاظ المسلمين ومحدثوهم من ذلك قولهم: "السلطان ظل الله في الأرض"**»[155].

فالحديث أصبح مُخترعًا من قِبل وعّاظ المسلمين ومحدثوهم على أعتبار أن أهل الحديث تخصصهم هو وضع أحاديث من عندهم! لا وفوق هذا استنباطاً من رسائل بولس! فقط لأن مضمونه لا يتوافق مع فكرة الكواكبي.

[154] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٢٨٧).

[155] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٢٦٠).

وكذا إطلاق الأمور والجزم بها رغم أنها على الضد من ذلك كقوله: «**وأما في القرون الوسطى فلا تؤثر أبحاث منفصلة في هذا الفن** - أي السياسة - **لغير علماء الإسلام**»[١٥٦]، وهذا غيرُ صحيح بل هنالك أبحاث في القرون الوسطى لقساوسة نصارى في الغرب تناولوا الشأن السياسي أمثال القديس أوغسطينوس (ت: ٤٣٠ م)، والقديس توما الأكويني (ت: ١٢٧٤م) وخارجها مثل مارسيلو البادوي (ت: ١٣٤٣م)، وكذا صاحب كتاب الأمير نيكولو مكيافيلي (ت: ١٥٢٧م)، ووكذلك من نشبه كتابه بكتاب الكواكبي وهو الفيسلوف الفرنسي إيتان دا لابوسي (ت: ١٥٦٣م) صاحب كتيب (العبودية المختارة).

ولعل هذا القصور راجعٌ إلى ضعف في عملية الترجمة في ذلك الزمن من لغات الدول الأوروربية الى العربية، وهذا ما يجعل فكرهم السياسي غير واضح بالشكل الذي هو موجود فيه حاليًا بزماننا.

وكذلك مما يُعاب على هذا المؤلف ضعف صاحبه بالعلم الشرعي، وإن كان مختصًا بارعًا في علم الاجتماع السياسي، وكذا استحضاره للنصوص الشرعية وحَرقته على الأُمّة لا تعنيان بالضرورة إلمامه بالمسائل الشرعية إلمام قوي، فلذلك أحيانًا تصدر منه أخطاء شنيعة ربما صدرت منه لجهل أو لعدم معرفة لوازم أقواله، وهذا ما جعل البعض يَتهمهُ بالعَلمانية أو بالدعوة إليها، وكنت في نقاش مع أحد الفضلاء فرأى أن الكواكبيّ عَلماني بتفضيله لبعض الحكومات الغربية، فقلت أن هذا ليس بلازم؛ لأنه صدَّر كلامه في أن الكثير من الأوامر الإسلامية تخلّت عنها الأُمّة والتقطها غيرهم وطبقها، فتراه يقول مثلًا: «**وسيدوم بكاؤها** - أي الأُمّة - **إلى يوم الدين إذا لم تنتبه لاستعواضه بطراز سياسي شوري؛ ذلك الطراز الذي اهتدت إليه بعض أمم الغرب؛ تلك الأُمم التي لربما صح أن نقول: قد استفادت من الإسلام أكثر مما استفاده المسلمون**»[١٥٧] فقد يُفسّر هذا الإعجاب بالآخر باعتباره طَبّق ما دُعينا نحن إلى تطبيقه في الأساس أو ما كان بحوزتنا منذ البداية وتَخَلّينا عنه،

[١٥٦] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ١٨٥).

[١٥٧] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٢٠٠).

فإعجابه هنا هو إعجاب بالأوامر الإسلامية المطبّقة علىٰ يد غير المسلمين، ولكن من خلال قراءتي للكتاب رأيت أن بعض النصوص تحتمل نَفَسًا عَلمانيًا أو قد تكون حمّالة أوجه، فلا يُبنىٰ عليها؛ باستثناء ما وجدتهُ صريحًا في قوله التالي: «**يا قوم: وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أجلكم من ألا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فهذه أمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني. فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها؟ دعونا نتدبّر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط**»[158].

فالأديان لا تحكم في الدنيا وإنما فقط في الأخرىٰ، وأنه لا بُدّ أن نقتفي أثر أمريكا في اتحاد الشعوب علىٰ أساس وطني وذلك بأبعاد الدين.

وهذا الرجل يجعلك في حيرة، أحياناً يُعلي من شأن الدين ويجعلهُ أساسًا في المشروع الإصلاحي، فيقول ناصحًا الجيل الصاعد من الشباب والذي يرَقب فيهم الأمل: «**أما أنتم حماكم الله، فنرجو لكم أن تنشئوا على غير ذلك، أن تنشؤوا على التمسك بأصول الدين، وأن تتبعوا سُنن النبيين**»[159].

فما أهمية التمسك بأصول الدين إن كان النموذج المُحتَذَىٰ به يُنَحّي الدين ويجعله حكمًا في الآخرة فقط؟!

وهذا الضعف في مسائل الشرع جعل الكواكبي ينتقل من أقصىٰ اليمين الىٰ أقصىٰ الشمال، فمن خلال تأصيله للعلمانية هناك يقول هنا: «**بناءً عليه فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطرٍ أو يجامله ولو بالسلام، يكون خسرَ أضعف الإيمان، وما بعد الضعف إلا العدم؛ أي فقد الإيمان والعياذ بالله**»[160].

[158] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٢٨٠-٢٨١).

[159] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٢٨٤).

[160] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ٢٨٠).

فهنا نفي مطلق للإيمان؛ أي بالضرورة الانتقال بالشخص من بحبوحة الإسلام الىٰ دائرة الكفر، وتعليق ذلك بمناطات لا تَصحّ حتىٰ أن ترتقي الىٰ درجة الكفر، وهذا ما يُسميه الفقهاء في ديننا بالمداهنة، صحيح أن بعض المداهنات تخرج الشخص من دينه من أجل دنياه؛ ولكن ليس من ضروب هذا الإخراج مجرَّد السلام علىٰ الطاغية!

وهذا ينبئك بأهمية ما خطّه الدكتور الراحل محمد محمد حسين حول تقديم دراسة علوم الآلة علىٰ الدراسات الإسلامية لأن «**الدراسات الإسلامية التي تُبنَى على غير هذه الأساس ستكون حتمًا دراسة متحررة؛ لأن صاحبه وهو يزعم أنه متخصص في الدراسات الإسلامية سيفتي بعقله الحر من عند نفسه**»[161]، وهذا الشخص قد يُفتي بأقوال لم يسبقهُ بها أحد!

ولعل البعض يقول أن مقصود النص يمكن تأويله علىٰ معنًىٰ سليم وهو موافق لما جاء في حديث النعمان بن بشير: (**ألا إنها ستكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم ومالآهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه**)[162]، ومع ذلك فإن نص الحديث لا يتطابق مع كلام الكواكبي الذي يقول أن مجرد السلام من غير اضطرار ولو بالمجاملة يَنفي الإيمان، والسلام ليس فيها إعانة علىٰ الظلم ولا تصديق للكذب كفعل مجرد، فالإيمان ينقسم الىٰ ثلاث أقسام:

- **أصل الإيمان**: الذي إن زال زال الإيمان المطلق الذي يتحول الشخص بزواله من مسلم الىٰ كافر.
- **الإيمان الواجب**: الذي إن قصّر به ينقص إيمانه ولا يزول بالكلية.
- **الإيمان المستحب**: الذي يزيد بفعل الخير ولكن لا ينقص بترك الأمور المستحبة.

[161] حصوننا مهددة من داخلنا، محمد محمد حسين، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولىٰ: ٢٠٠٨ (صـ٢٦٠).

[162] حسّنهُ الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٤٤).

وهذا ضروري لتأويل معنىٰ الكلام عن الإيمان، وعدم حمل كل كلام للإيمان علىٰ أن المقصود هو أصل الإيمان، بينما يُحتمل ما هو دونه.

ثم إن الكواكبي قد صدّر دراسته بقوله: «**فزرت مصر واتخذتها لي مركزًا أرجع إليه مغتنمًا عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سميّ عم النبي عبّاس الثاني الناشر للواء الأمن على أكناف ملكه**»[١٦٣]، أليس عبّاس حلمي الثاني طاغية؟! وأليس الكواكبي نفسه غيّر مصطلح «الناشر للواء الحرية» إلىٰ «الناشر للواء الأمن» دلالةً علىٰ ذلك؟! فكيف هنا يُبيح لنفسه ما يُشدد بِهِ علىٰ غيره؟!

الخلاصة من هذه الملاحظات:

أن بعض الكُتب تُرَّفع إعلاميًا ويكون لها زَخمٌ وصدىٰ، ويكون لها حضور إعلامي مُشاهد وتُحدث ضجيجًا عاليَ الصوت ما يغطي به علىٰ أي مناكفة لا تماثلها في الضجيج فتظل باقية وتُقدّم علىٰ أنها من أبرز ما كُتب رغم احتوائها علىٰ بعض الشطحات إما في أصول التأليف أو في بعض الجزئيات، ومن قرأ كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين؛ وقرأ الردود عليه مثل رد د. ناصر الدين الأسد ومحمد الخضر حسين علىٰ سبيل المثال، يَعجب كيف أن هؤلاء لم ينالوا شُهرة المؤلف المردود عليه رغم أنهما أعلىٰ منه كثيرًا في مادة التأليف.

والشخص الذي يذوب في اللحظة الراهنة وتحت رنين هذا الضجيج، فإنه سوف يَقبل كل ما يَرِدُ عليه من نصوص ومضامين بعد أن أن أصبح أسيرًا لهذه الهالة الإعلامية، وهذا بالضرورة سوف يؤدي الىٰ تعطّل الحس النقدي لديه ويُدخل القارئ في جوف المؤلف تمامًا، دون أن يفترض أو يرىٰ أن هذا المؤلف قد أخطأ خطأً شاطحًا، ودون أن يناقش ويأخذ ويرد، ومن النصوص الجملة التي رأيتها في هذا الباب قول الشيخ عمر بن محمود: «**بعض الكتب فيها سطوة هائلة تجعل القارئ أسيرًا لها بالكلية، وهنا تأتي أهمية القراءة الناقدة؛ وهو أن تجعل بينك وبين الكتاب حاجزًا، هذا الحاجز**

[١٦٣] عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، (صـ١٨١).

الذي لا يجعلك تذوب مقابله أو تلغي نفسك معه، فتذكر دائمًا أنك لست الذي في الكتاب بل أنت القارئ المراقب، تنظر وتتمعن وتصفّي وتختار وتقرّر، فلك شخصية مستقلة يجب أن تمنعك من التحدث على طريقة الممثل الذي يعيش الآخر ماحيًا نفسه ملغيًا لوجوده وشخصيته. القراءة صراع بين الكاتب وقدراته وبين استقلالك، هذا في القراءة الإنسانية، فالكاتب يستخدم كل فنون السحر الكتابي ليمحوك في داخله»[١٦٤].

فالشاهد أن التقعّر في الألفاظ وصعوبتها وهذه الهالة الإعلامية أو حتى اتّساع اطّلاع المفكّر أو المؤلف لا تعصِمانه من الزلل، ولا يجب أن يُلغي الشخص ذاتهُ أثناء القراءة، هذا لمن أراد أن يكون مستقلاً في البحث والتفكير، ولكن من أراد أن يظل ذيلاً على الدوام فلتأسره تلك الحالات وهذا سوف يعيش في تناقض على الدوام، فيقرأ للمؤلف الأول فيأسره طرحُه ثم يقرأ للمؤلف الثاني الذي يناقض طرحَ الأول فيأسره طرحُه ويبقى هكذا متنقّلًا بلا زمام يصفّق لكل ما يقرأ.

وهذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٣٠ سبتمبر ٢٠٢٠م – ١٣ صفر ١٤٤٢هـ

---

[١٦٤] فن القراءة، عمر بن محمود أبو عمر، دار الكتاب العالمي، الطبعة الأولى: ٢٠١٨ (صـ١٨٨-١٨٩).

البلاء الشديد والميلاد الجديد

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: البلاء الشديد والميلاد الجديد.
- اسم المؤلف: فايز الكندري.
- عدد الصفحات: ٥١٢.
- دار النشر: جسور للترجمة والنشر.

التعليق والمناقشة:

تكمن أهمية هذا النوع من الأدب في تأريخ للجانب الحقوقي في فترة زمنية وبقعة جغرافية معيّنة تَصلح للمقاربة في أزمان لاحقة للدلالة على تغيّر الأحوال أو أن الوضع لازال على ما هو عليه منذ ذلك الوقت، وتعطي دلالةٍ واضحة لما قد يَتعرض إليه المصلح إن تحول من «صالح» إلى «مصلح»، وتُجرَّد المتحمّس من حماسته إذا ظن أن السجن والاعتقال مجرد نزهة، وقد يُستدل أحياناً للمقارنة بين تعاطي الدولة لتيارات سياسية معينة، فهل معاملة الإسلاميين كمعاملة الشيوعيين في المُعتقل؟! وكذا هو حقل خصب للباحثين في علم النفس لرؤية كيفية تكيّف الإنسان في أسوء الظروف، وغير ذلك من الجوانب المهمّة التي يحملها أدب السجون في طيّاته، والذي غالبًا ما يُختزل بالقشر الخارجي وهو رؤية صمود الأشخاص وثباتهم، والذي قد يكون ذو أهمية لكثرة الساقطين والمتخاذلين، فأصبحت هذه النماذج عزيزة نادرة، تذكّرك بثبات الأسلاف في غابر الزمان كما كان الإمام أحمد وغيره.

وقد قرأت كثيرًا في هذا الأدب، وقد توقفت خشية أن تتحول قراءتي هذه إلى متعة، فالشخص عندما يكتب تجربته لا بُدّ أن تختلجه الكثير من المشاعر المؤلمة والذكريات المزعجة التي يوّد نسيانها، ولكن يُقابل ذلك بنوع من عدم الاكتراث والمتعة أحياناً من بعض القراء، وهذه المتعة أشبه بالرقص على

جراح الآخرين، والاستماع برؤية آلامهم، وكُتب أدب السجون عادةً مجرد تسويد لقهر الرجال على الورق، ورؤية المعتقل في أسوء حالاته، ثم تنحصر أكثر الحالات في عرض كيفية تكيفه في المعتقل وقصص بقية المعتقلين الذين معه إلى أن يتم الإفراج، دون أن تكون هناك فقرة لشفاء الصدور، ودون أن توجد مدافعة ترفع السئامة واليأس من نفس القارئ، وهو لا يرى إلا القهر والذل، ولكن بعد أن تقرأ الكتب التي كتبت عن غوانتنامو تجد أن ما يخفف من هذا المصاب هو وجود نوع من المدافعة وأنه كما يتألم السجناء فإن السجانين يتألمون ولو بشكلٍ أقل (تحول هذا الأمر في وقت لاحق إلى فلسفة في غوانتنامو وهي محاولة الإضرار بالجنود ولو بشكل قليل ولكن المهم أن يشتركا في الألم أو كما يقول المؤلف: «**من الجدير بالذكر أن معاناة المعتقل أكبر بكثير من الضرب والإهانة والتقييد من معاناة الجنود بالحر والتعب، لكن مجرد إيصال أدنى تعب للجنود كان يريح المعتقلين ويشعرهم بأنهم يؤلمون كما يتألمون**»[١٦٥]، ولما وصلني كتاب فايزٍ الكندري كنت أظن أنه لن يكون هناك جديد وأظن أني قد أكتفيت، ولكن قلت هذا الكتاب إن لم يُقرأ الآن في ذورة حديث الناس عنه فلن أنشط له لاحقًا، ولكن ما إن نهلت من معينه رأيت نفسي أمام نموذج فريد، أمام طرحٍ تمنيت أن أراه منذ زمن؛ جَمَعَ فيه بين قوة المبنى والمعنى في آن واحدة، فكنت أرى الأنموذج المثالي الذي كنت أتصوّره لأي كتاب يُكتب في أدب السجون، فلذلك صدّرت هذا الكتاب على قائمة أدب السجون لديّ.

ربما يتسائل البعض؛ بأنه يوجد الكثيرين الذين كتبوا عن سجن غوانتنامو، ومن نشرت كتبهم بالعربية مثل (وليد محمد الحاج) و(سامي الحاج) و(عبد الرحيم مسلم دوست) و(حسين عبد القادر) و(محمدو ولد صلاحي) و(معظم بيك) و(عبد السلام ضعيف)، وهنالك من نُشرت لهم تسجيلات حول تلك الفترة مثل (عبد الله العجمي)، وربما يوجد غيرهم وبلغات مختلفة.

[١٦٥] البلاء الشديد والميلاد الجديد، فايز الكندري، جسور للترجمة والنشر، الطبعة الأولى: ٢٠٢٠ (ص٢٩١).

ربما ما يميّز كتاب فايزٍ الكندري هي غزارة السرد، الكتاب ضخم ويقع في ٥١٢ صفحة، حاول فايزٌ أن يجمع بين مشاهدته هو ومشاهدات غيره في مواقف لم يشهدها مثل قصة تفاوض الوفد العربي حول أصنام بوذا، وقصة الغدر التي تعرض لها ابن الشيخ الليبي في باكستان، وأحيانًا يسمي المصدر تسمية ضمنية كأن يقول أن «**أحد الطلبة**» هو من أخبره، وأحياناً يبقيه طيّ الكتمان مثل كلامه عن معلم أول قول عندما قال «**أخبرني من أثق**»، وأحيانًا تكون روايته للأحداث هي عبارة عن قصة داخل قصة، فعندما جلس بجانب المعتقل الجزائري الذي شهد أحداث التسعينات في الجزائر، فجأة تجد نفسك خرجت من جو غوانتنامو ودخلت إلىٰ جو آخر تماماً تختلف فيه شخصياته وظروفه، ثم بعد أن يفرغ تعود الى جو غوانتانامو من جديد.

وهذا الكم الكبير من الأخبار والقصص لعله راجع إلىٰ نية فايزٍ منذ البداية إلىٰ كتابة كتاب يؤرّخ ما جرىٰ له فتراه يقول في مقدمة كتابه: «**لقد قررت كتابة هذا الكتاب بل وتحديد اسمه منذ الشهر الأول من قدومي المعتقل في مايو سنة ٢٠٠٢**»[١٦٦].

ربما يعود هذا التميّز إلىٰ أن بعض الكُتّاب حاولوا أن يركّزوا علىٰ ما رأوه، وقد يكون أن البعض حاول أن يذكر بعض الشواهد فقط للدلالة علىٰ الفكرة لا كل ما جاء في الباب، وأحيانًا قد يكون البعض زاخرًا بالقصص ولكن عندما يكتبها يفتقر إلىٰ وجود السياق المناسب لها، وليس كل أحد يجيد كتابة المقدمات ليمهّد لهذه القصص التي لو ذُكرت مجرَّدة لرآها الكاتب أنها مجرد حشوٍ لا قيمة له فَيُزيلها. وامتاز فايزٌ بالتمهيد لبعض القصص التي يقولها بمقدمة وخاتمة، وهذا ما جعل من ذكرها أمرًا مقبولًا؛ لأني كما أسلفت لو ذُكرت مجرّدة لما كانت ذات أهمية.

ما يميز هذا الكتاب أيضًا عن غيره، هو أسلوب الكاتب الأدبي، وكانت هذه مفاجأةً حقيقةً، لأنك عندما تقرأ تغريدات فايزٍ أو تشاهد حلقاته، ترىٰ طرحه في تلك المواضع طرحًا مباشرًا، بخلاف

[١٦٦] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص١٤).

الكتاب الذي تفنن في صياغة حروفه، فكان شخصًا مُكتنزًا بالمفردات ويحسن صياغتها وسبكها بشكل بديع، فأنت تقرأ إذ تقرأ هذا الكتاب فإنك تقرأ لأحد الأدباء؛ جمال هذا الأسلوب هو ما قد يجعلك تقرأ الكتاب في وقت قصير رغم ضخم حجمه؛ لأن الأسلوب هو ما يرطّب من جفاف السرد في كثيرٍ من الأحيان. ومن هنا تتبيّن لك أهمية القراءة الأدبية، فالذي يُدمن الاطّلاع على كتب الأدب تكثُرُ لديه المفردات التي ينوّع منها أثناء الكتابة وقد يُكثر من استخدام الأساليب الأدبية كالتشبيه وغيرها، وتكمن أهمية ذلك أن تزيّن حجتك وتزيد على قوّتها الأصلية قوةً البلاغية، وتستهدف أكبر شريحة ممكنة من الناس في المخاطبة.

وكذلك ما يميّز الكتاب عن أغلب الكتب، هو كونه أكثر موضوعية، فهو يقول ما له وما عليه، أي يذكر جوانب الإنسان في المعتقل، من ثبات وسقوط، ومن قوةٍ وضعف، ومن حزن وفرح، فكل التناقضات في الإنسان موجودة في الكتاب، وهذه اللوحة الفسيفسائية تردع من تشوَّف إلى البلاء، وقال: أنا أصبر على الضرب كما صبروا هم، وليكن! ولكنك قد لا تصبر على النساء إن فتنوك بهنّ، وإن صبرت على النساء فقد لا تصبر على الجوع، وإن صبرت على الجوع فقد لا تصبر على ألم المرض، وغيرها.

هذه اللوحة المتنوّعة في تفاصيلها وأحداثها، قد تدخلك في جوف المشاعر المتضاربة المتناقضة، فتضحك أحيانًا وتدمع عينك أحياناً أخرى، فهذه القصص وما حوته من مشاعر والتي ذكر فايزٌ أنها «**أضحكتني أحيانًا وأبكتني أحيانًا، وأسعدتني أحيانًا، وأحزنتني مرات ومرات**»[١٦٧]. وقد استطاع فايزٌ أن ينقلها إلى قرّاء كتابه.

وهذه اللوحة الموضوعيّة سوف تزيل الصور النمطية عن معتقلي غوانتنامو، بأنهم كلهم على توّجه واحد وتيارٍ واحد، وحصرهم وحَشرهم في خانة (القاعدة والطالبان)، فالمعتقل فيه قرابة الخمسين

[١٦٧] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص١١).

جنسية، فيهم من دون العشرين (مثل: عمر خضر) وفيهم من فاق المائة سنة (مثل الأفغاني المُضرب عن الطعام)! وفيهم الإغاثي والمجاهد والدعوي ومن لا ناقة له ولا جمل وبيع على الأمريكان بيعة مغشوشة واتّضح أنه مجنون صدقًا لا ادعاءً!

والصورة النمطيّة موجودة لدى عموم الناس وبما فيهم أنصار التيارات الجهادية؛ باعتبار أن كل فَرد في غوانتنامو كان مجاهداً بالضرورة، أو إن لم يكن كذلك فلا بُدّ أنه تأثّر بهم في المعتقل تأثرًا مطلقًا، وهذا غيرُ صحيح، فلذلك من الخطأ محاكمة فايزٍ الكندري وِفقَ هذا الأساس، لأن فيه تضاربٌ في بعض الرؤى والتوصيفات والأحكام سواء في ما يتعلق بالحكومات العربية أو الثورات أو بعض الجزئيات في أساليب التغيير.

وأما قولي أن ما يميز الكتاب عن (أكثر الكتب) باعتباره موضوعيًا؛ فهو لأن هنالك كتبًا ذكرت جوانب الإخفاق بلا تحرز مثل كتاب (القيود المحطمة) لعبد الرحيم مسلم، ولكن ما يميز كتاب الكندري هو إدخال جانب الوعظ أثناء السرد وليس مجرد الإخبار أن فلانًا تنصّر أو أن فلانًا أصبح عميلًا، فأحيانًا يكون انكسار الشخص لمعصية قد عبّدت الطريق أمام الانكسار ليأخذ مجراه، فيتحول من حالٍ إلى حال، فهنا ترى الكندري يحاول أن يربط الحالتين ببعضهما، فمثلًا قصة ذلك الذي كان يُشكك في إخوانه ويتهمهم بالعمالة بتخرّصات لا حقيقة لها ويُغلظ عليهم القول، انتهى به المطاف أن أصبح هو المتهم ومن يُشك فيه؛ لأن الكثير من الأخبار لا يعرفها إلا هو أصبح الأمريكان يُواجهون بها المعتقلين في التحقيق! فكأن ما وصل إليه هو من جنس ما رمى به غيره، فتعلم من هذه القصة خطورة رمي الآخرين بلا بيّنة فتُبلتى بجنس ما رميت به غيرك!

وأحيانًا يكون الوعظ غير مستندٍ على أمور جرت بين المعتقلين، لكن يكون بالنظر إلى شواهد معينة مثل طائر الغُربُل، فقد جعلة الكندري منبرًا لتوصيل رسالة وترسيخ مفهوم ما، رغم أنه مجرد طائر يأتي غوانتنامو ويذهب ولا شيء مهم حوله!

وكذلك مما يُحسب للكتاب، هو أن صاحبه غير محسوب على تيار فكري ما أو جماعة ما، وهذا أدعى للانتشار، فالمناكفات بين التيارات الإسلاميّة توجد نوع من التوجس من أي طرح خارج حدود مدرستهم، فلو كُنتَ محسوبًا على مدرسةٍ ربما صوتك لن يصل الى بقية المدارس والتيارات الإسلامية، لما بين مدرستك وهذه المدارس من مناكفات، ثم تأتي بقية الاعتبارات أن الناس تخاف أن تقرأ لأشخاص معينين من توجهات إسلامية معينة، لأسباب أمنية أو غيرها، أو حتى إذا قرأت قرأت بصمت، وأضف إلى ذلك نُفرة الناس عمومًا من المتأدلجين باعتبارهم لا يقولون المعاني الشرعية لذات المعاني إنما للتسويق لجماعاتهم وأحزابهم، فكل هذا من دواعي حصر الطرح في أُطُر ضيقة جدًا ويكون مانعًا من الانتشار.

ومما يميز الكتاب أيضًا أن المؤلف خرج متأخرًا من غوانتانامو وبخلاف أكثرية الكتب التي كتبها أشخاص خرجوا في وقتٍ أبكر، ففي كتاب فايزٍ الكندري مثلًا تراه يَنقل لنا مواقف متأخرة، مثل كيف كانت الأجواء عند حدوث ثورات الربيع العربي وكيف كان الوضع في غوانتنامو عند مقتل الشيخ أسامة بن لادن، وأصبح لديهم تلفاز يشاهدون منه الأخبار بخلاف الوضع السابق التي كانت تُعطى لهم صحف مع طمس الأخبار السياسية منها، وغير ذلك من الأمور.

بخصوص محتوى الكتاب وعلى ماذا يتضمن من الداخل، فقد تكلم عن منهجيته في المقدمة، وهي مقدمةٌ فريدةٌ تستحق الوقوف عندها طويلًا، فقد حوت بعض الرسائل المنهجية في التأليف، خصوصًا حول قضية خشية التصنيف، فالبعض يطمس الكثير من الأمور التي تستحق الذكر عن بعض الشخصيات فقط حتى لا يُربط بينهُ وبينها فيصنّف على هذا الاعتبار، وهذه الخشية أحيانًا قد تتحول إلى نوع من الفوبيا فلا تقف عند حد الشخصيات بل يصبح مجرد راوٍ دون ربط هذا الحدث بالمعاني الإسلامية (حتى لا يُصنّف أنه إسلامي!)، فيلقي عليك الأحداث باردةٍ بلا روح. وأحسب أن فايزًا استطاع الموازنة بين هذا وذاك، فتراه يذكر ما يُعد منقبةً لبعض الشخصيات دون القدرة على

تصنيفه أنه منهم أو أن تحسبهُ عليهم، ويقول ما يراه حقًا ولو وافق هذا الحق أقوال بعض المصنَّفين ومع ذلك لا تستطيع أن تَربطهُ بهم، فقد حافظ على وجود خط فاصل، ثم ذكر في هذه المنهجية سبب ذكره الأخطاء ونبّه على قضية عدم ذكر هذه الأسماء، وأن الفائدة تُستخلص من الحدث لا بتسمية الشخص نفسه، وذكر أن ذكره للأخطاء لم يكن لمجرد الذكر بل لأخذ الدروس منها ولكي لا يكررها غيرهم.

وذكر في المقدمة كذلك قصة تأليف هذا الكتاب، وكيف كانت الفكرة، وكيف كانت التوطئة لهذا الكتاب، فقد كان يستغل الأوراق المتاحة لهم لكي يكاتب بها محاميه لسرد الكثير من التفاصيل لتكون توطئة لهذا الكتاب، حتى قال أحد المعتقلين متهكمًا بعد أن يراه يَعكف الساعات في الكتابة: «**لمن تكتب؟ هذه رواية وليست رسالة!** »[١٦٨] ووجود بعض الخطوط العريضة (كالأفكار المدوّنة، وأطرافًا من الأحداث) تُسهِّل على المؤلف البدأ في التأليف.

وقد بدأ فايزٌ قصته منذ النشأة وكيفية تربية والديه وماذا زرعوا فيه من سلوكيات ومفاهيم، وثم الدراسة والتخرج، والذهاب إلى جامعة الإمام محمد بن سعود في السعودية، وهنا تجد فايزًا يَشتكي من قضية أني أقرأ وأحفظ ولكن لا أجد ذلك الأثر الكبير في نفسي، كأن هنالك أمرٌ ناقص يَحولُ بين حفظ النص والإحاطة به واستشعاره داخليًا والتأثّر به وتشربه، ثم سوف تكتشف أن ما يقصده سوف يعتبر من الأفكار المركزية في الكتاب، فسوف تراه يتكرر كثيرًا بأشكال متنوعة، وهي أن المعاني الشرعية تترسّخ بشكل أكبر لو خالجها نوع من الابتلاء، هنا تقرأ القرآن وكأنك تقرأه لأول مرة، وكأنَّ هنالك حاجب بينك وبين تدبّر النص والإيمان العميق به لايكون إلا حين ما تبتلى في سبيل رب القرآن، فبعض الأحاديث أبلغ شرحٍ لها أن تعيشها واقعًا، هنا يكون تأثيرها عليك أكثر من قراءة الشروح، فللمعايشة تأثير أكبر على النفس من مجرد المعرفة، فهي ترسّخ المعاني وتثبتها في

[١٦٨] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص١٤).

قلب المؤمن، ومن كلامه في هذا: «**درست العقيدة قبل الأسر، وحفظت المزيد من النصوص لكن إيماني لم يزد، قرأت كتب التفسير فعرفت معاني المفردات وأسباب النزول لكني لم أفهم القرآن إلا في المعسكر الخامس**»[١٦٩].

ثم تكلم عن أحداث غزو الكويت وما جرىٰ من جرائم ومغامرات تورط بها مع الجيش العراقي، ثم ذكر قصة الذهاب الىٰ أفغانستان، وهي أن والدته مَرضت بالسرطان ومن باب (**دَاوُوا مَرضاكُمْ بِالصَّدقةِ**) ذهب الىٰ أفغانستان لحفر بئر وبناء مسجد في أحد القرىٰ القريبة من العاصمة كابل، استطاع أن يذهب هناك وأن يدوِّن كافة التفاصيل من اسم القرية وعمدتها والتكاليف وغيرها من المعلومات في «دفترٍ أزرقَ» والذي خصص له فايزٌ الكندري حلقةً كاملة عنه!

ولكن قد يُقال أن هذا السبب قد لا يكون السبب الحقيقي لذهاب فايزٍ فهو لا يريد أن يثبت التهمة علىٰ نفسه فأوجد سببًا مغايرًا للسبب الحقيقي، فأقول: لو تقرأ الكتاب لعلمت أن المؤلف ليس من هذا النوع من الناس، فهو إن تبنّىٰ اختيارًا لا يخجل من مواجهة الناس به، وقد رجاهُ بعض المعتقلين أن يأخذ بالرُخص عند المحاكمات، ومع ذلك كان يقول ما يعتقد وكان هذا يسبب له ضررًا بقضيته، بل «قد» تلمَس في كلامه شيئًا من الانتقاد لمن ذهب الىٰ أفغانستان للجهاد، بالقول أن «**أغلب النافرين لهذه الساحات لم يؤزهم من بيوتهم الآمنة قناعة فكرية ناشئة عن البحث العلمي للوصول الى الدليل، بل هي العاطفة الجياشة التي تطأ عقلها حين تسمع خرير الدماء، وشهقات المحتضرين، وترى أكفّ الأطفال تتبدى من تحت الركام**»[١٧٠].

ثم حصلت أحداث سبتمبر وبشكل دراماتيكي حصل الغزو الأمريكي لأفغانستان، ومع تسارع الأحداث وسقوط المناطق، واتخاذ الطالبان قرار الانسحاب والانحياز من المدن، حُشرَ بعض الأجانب من عربٍ وغيرهم في منطقة حدودية جبلية محاذية لباكستان وهي (تورا بورا) بغية الخروج

[١٦٩] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٢٤١).

[١٧٠] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٣٦).

إلى باكستان وذهاب بعضهم الى سفارات بُلدانهم، فهنا بدأ فايزٌ سردًا أشبه باليوميات عند ذكر أحداث تورا بورا، فترى مثلًا كيف يغلف الجيش الأمريكي جُبنَه من اقتحام المكان باختلاق قصصٍ بثها عبر الإعلام أن هنالك محطات للطاقة الكهرومائية ومكاتب وفندقًا وأنظمةُ تهوية في الكهوف! ثم ذكر كيف أن الموجودين في تلك المنطقة كانوا يتندّرون على هذه الأخبار بشيء من السخرية، فيشيرون على بغلة تحمل حاوية الماء وهم يقولون: «**هذه هي محطة الطاقة الكهرومائية**»، ويشيرون على خندقٍ على حافة الجبل وهم يقولون: «**هذا هو الفندق!**»[١٧١] وهذه الروح الفكاهية يبدو أنها طغت على الموجودين في تورا بورا فكانوا مثلاً –حسب رواية شخص آخر عاصر الأحداث غير فايز– يسمون الهاون الوحيد الموجود آنذاك بـ«**البغل**»، ولما انتهت القذائف قالوا: «**البغل قد انتهى العلف منه**»[١٧٢].

من الجميل أن فايزًا هنا لم يَغفل عن سرد اختلاف الآراء مما يعكس رؤية باحث عن أُطُر التفكير التي كانت تسيطر على الجهاديين في ذلك الوقت، فمثلًا كان يحكي أن المجاهدين اختلفوا في أولوية القتال، فالبعض يقول أن المنافقين أَوْلى والآخر يقول إن قتالهم يعني أنك حققت ما أراده الأمريكان، ويعقّب ثالثٌ مذكّرًا مآلات هذا القتال على الأُمّة، ثم يذكر التساؤلات التي كانت تسري بينهم وعن أسباب الصمود في تورا بورا، ولا يَنسى أن يذكر إنكار بعضهم على الآخر أثناء القصف، إذ كان البعض يأبى الانحناء فيُنكر عليه الآخرون فعله، ومع اشتداد القصف وضرورة الانحياز وإعطاء أولوية للمصابين وكبار السن كيف أن البعض قد اندّسوا بينهم يريدون النجاة بأنفسهم، وكيف أن أحدهم كان من أشدّ الشجعان ولكنها لحظة انكسار صعبة! هذا الانكسار أشبه

---

[١٧١] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٤٨).

[١٧٢] أيمن الظواهري، أيام مع الإمام، الحلقة السادسة، مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي، ٢٠١٤م.

بانكسار بعض صحب ابن الشيخ الليبي الذين قرروا عدم مساعدته في ذلك الظرف الرهيب لأنهم «**لا قِبَلَ لهم بأمريكا**»[١٧٣] ثم انحازوا إلى باكستان.

وهذه الجوانب غالبًا ما تُغفل أثناء التدوين؛ إما أن تُطمس وتعتبر ليس ذات أهمية أو لا يذكر إلا جانبٌ أُحاديٌ منها لا يعكس كل الصورة.

ثم تكلم في فقرة مستقلة عن الشُهب التي رأوها تظهر متلاحقةً بشكل غريب جدًا، حتى إن بعض سكان المنطقة ممن كان معهم قالوا هذه أول مرة نراها بهذا الشكل. طبعًا فايزٌ لم يَجزم ولكن وضع تساؤلًا إذا كان هذا مرتبطًا بالمشاريع السرية التي تقوم بها وكالة الاستخبارات الأمريكية في (علم ما وراء النفس = الباراسيكولوجيا)، التي تدرس الإدراك فوق الحسي كالحدس والتخاطر الذهني والرؤية عن بُعد والتبنؤ واستباق المعرفة وغيرها، فالغرب «**على الرغم من تفوّقهم التقني إلا أنهم لا يفوتون أيّ مصدر إضافي ليتغلبوا على عدوهم**»[١٧٤]. كما يقول فايزٌ، وضرب مثالًا بالسحر في غوانتنامو – رغم أنه لم يستطرد في الكلام عنه بالكتاب –، فهل كانت هذه الرؤية لها علاقة بأمثال هذه الظواهر؟! وأنا أذكر أني شاهدت حلقة ضمن برنامج (رحلة في الذاكرة) تتكلم عن التجربة السوفيتية في نفس هذا المشروع بعنوان (نائب رئيس الـKGP يكشف لأول مرة أسرار الظواهر فوق الحسية)، والملفت في الانتباه ما ذكره سمير خان في كتيبه (التوقعات الكاملة)، تحت فصل (أهمية الأذكار)، فالأمر ليس مستبعدًا ولا مستغربًا.

ثم بعد قصف القرى المجاورة وقطع خط الإمداد على الحاضرين في تورا بورا قرر ابن الشيخ الليبي الانسحاب من تلك المنطقة عبر دفعات، مجموعة ابن الشيخ الليبي وقعت في قبضة الجيش الباكستاني، والذي قرر ابن الشيخ أن يستسلم لهم دون قتال وكانت حجته «**أخشى من قتل من يقول لا إله إلا الله بمجرد الظنون إن قاومنا يعني المواجهة المسلحة التي ستؤدي حتمًا إلى استئصالنا**

[١٧٣] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٥٤).

[١٧٤] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٤٩).

في نهاية المطاف»[175]، وأما فايزٌ فذهب مع دليلٍ أفغاني ولكن لم يصلوا إلى باكستان بل تداركتهم الطائرات الأمريكية وقصفت مقدمة الركب فتناثرت الدفعة بين جريح وقتيل، وكانت هذه الفقرة من الأحداث مزعجة للغاية، إذ أصابت أمريكا نوبةٌ من سعار فغدت تستهدف البشر والحجر والشجر فيصف فايزٌ المشهد: «**أطلق صاروخٌ مضيءٌ فتحول الوادي إلى ما يشبه الملعب الرياضي المضاء بالكشّافات الساطعة .. بدأت الصواريخ المشبعة باليورانيوم تنهمر علينا، كانت تشعل الوادي ناراً .. نظرت حولي وإذا بي أرى العجب، لقد تغير المشهد تمامًا، الأشجار الخضراء تحولت رمادية**»[176] ثم رأى أنه نتج عن القصف «**حفرة عميقة قطرها خمسة أمتار عمقها متران يتأجج اللظى من جمرها، وأشجارٌ تحترق**»[177]، هذا غير «**الجثث عن يميني وشمالي**»[178].

ثم ذكر قصة أسره، فقد أصبح العربي بغض النظر عن ماهيته، أو توجهه شخص مطلوب في باكستان وأفغانستان، أيّ تحول في نظرِ عديمي الإيمان إلى كيس مال يمشي على الأرض، فمن استطاع أن يحصل على واحد فقد ضمن مستقبلة الدنيوي – أو هكذا ظن! –.

وأحيانًا يتأثر بهذا الجو حتى من كان فيه شيء من الخير، وينشأ في داخله صراعٌ محموم بين بقايا الإيمان والمنفعة المادية، وهذا تراه واضح في قصة اعتقال فايزٍ الكندري، فيبدو أن من اعتقله من الأفغان قد غيّر الصف الذي كان يقف فيه مع تقدم الحرب وتأكّد سقوط طالبان؛ لأنه كان قبل أن يعتقلوه قد رآهم يساعدون الجرحى والمصابين، يَحكي فايزٌ الكندري أنهُ بعدما أُسِر هو وشخص آخر معه استطاع هذا الآخر أن يفلت ويشتبك مع الأفغان الخونة فيقتل منهم ويقتلوه ثم يقول فايزٌ: «**كان أحدهم يصيح غاضبًا متحسّرًا، ظننته يتأوه على القتيلين، وإذ به يشير إلى صاحبي وهو يوشك**

[175] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٧٦).

[176] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٤٩-٥٤).

[177] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٦٦).

[178] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٥٩).

على البكاء قائلًا: "مسلم"، كان نادمًا على مشاركته هذا الجمع الخائن مقابل حفنة دولارات، كان يصرخ على القاتل في غضب، وكاد أن يحدث بينهما اشتباك لو لا تدخل آخرين»[١٧٩].

ثم تنقّل فايزٌ بعدها عبر المعتقلات الأمريكية في بغرام وكابُل وقندهار، ربما مما يُستفاد من تجربة التحقيق في هذه المعتقلات، هو أن يحسن الشخص التفرقة بين المواقف التي تحتاج إلى الأخذ بالعزيمة والأخذ بالرخصة، فالرخصة والعزيمة في ذلك الوضع لا ترفع عنك العذاب ولكن العزيمة تزيده أكثر بلا مقابل، فبعد اعتقال فايزٍ الكندري حقق معه أمريكيٌ من أصول لبنانية، فسأله عن رأيه بالولايات المتحدة الامريكية، وكان فايزٌ للتو رأى المجازر التي قامت بها أمريكا، – والتي من المضحك أن قائد الحملة الأمريكي في وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية لغزو أفغانستان هنري كرامبتون في كتابه: فن التجسس، يقول أنه كان يُشدد ويحرص على تجنب قصف المدنيين! فلو قرأت كتاب فايزٍ لرأيت هذا الحرص على أيّ معنى يُحمل! –، وبعد أن قال في التحقيق أن أمريكا مجرمة ثم استرسل في الكلام في ذمها والقدح فيها فيقول فايزٌ عن نفسه: «**انطلقت كالسيل المتدفق الغاضب، كنت أعمى لا أرى إلا مشاهد الجثث ولون الدماء، لم يكن هنالك أي فرصة للحكمة أن تتدخل، أن أحمي نفسي من غضبة المارد الجبّار، كنت أمده بالحبال وما عليه إلا أن يلفّها حول عنقي، كان يسجل كل ما أقوله، ثم دفعت ثمن كل كلمة في معتقل باغرام وقندهار**»[١٨٠]، فقد ازداد العذاب عليه حتى تكسّرت أضلاعه وأشفق عليه بقية المعتقلين الذين ظنوا أنه مات جراء هذا التعذيب بعد التوصية التي تلقاها الجنود من المحقق.

ثم بدأت رحلة غوانتانامو، وهنا تغيرت طريقة العرض في الكتاب، من ترتيب الأحداث عبر التسلسل الزمني إلى عرض موضوعي، فأحداث غوانتانامو ليست متسلسلة زمنيًا بل حسب الموضوعات، وهذا مفهوم في أوضاع السجن، إذ أن بعض الأحاديث تأتي بلا سياق أو تسلسل

---

[١٧٩] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٧٠-٧١)، بتصرف يسير

[١٨٠] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٨٢).

معين، فإذا ذكرتها في البداية أو في النهاية لا يؤثر، ولكن يُجتهد قدر المستطاع بترتيب الأحداث زمنيًا، فمثلًا مما يعاب على الكتاب هو عدم الترتيب، فحادثة الدخول على دكتور التاريخ اليهودي وسؤاله عن القضية الفلسطينية واضح أنه حصل في أول أيام دخول غوانتانامو، ولكنك تقرأه في منتصف الكتاب، وكان يفضّل أن يوضع الكلام عن «معلم أول غول» في بداية الأحداث في غوانتنامو لمرور القارئ حديثًا على أحداث تورا بورا، ولكن وضعت في آخر الكتاب! وكذلك الأجواء التي اكتسى بها غوانتنامو بعد مقتل الشيخ أسامة بن لادن، كانت في منتصف الكتاب ويفضل أن تؤخر إلى آخره، وفي أحداث من الصعب فصلها وتجزيئها حتى تفهم في سياق واضح مفهوم، مثل قضايا الإضراب والتي كانت ضمن أطول الفصول في الكتاب، كما أن الكتاب صيغَ حسب فقرات معنونة وليست فصولًا بالمعنى المتعارف عليه، ولكن سوف نسميها فصولًا تجوزًا.

المهم أن المؤلف اجتهد في عرض ما يمكن من القصص التي توجد خلفها فائدة، ومن الصعب أن أستعرض بعضها أو كلها، إذ أن غوانتانامو هو العنوان الرئيسي في الكتاب فلذلك من الطبيعي أن يأخذ الجانب الأكبر منه، ولكن سوف أذكر ما استفدته من هذه القصص:

- أن المثقف المسلم لا بُدّ أن يكون متكلمًا أي لا بُدّ أن يحاول أن ينمي هذه المهارة لديه، فلا يكتنز تلك الثقافة داخل جوفه، ولا يُحسن عرضها ولا المجادلة عن الحق بما يملك من ثقافة، أو كما يقول الدكتور إياد قنيبي: «**الذي يتعلم ويتعلم ولا يمارس الدعوة أحيانًا بتصير معاه حالة احتقان علمي وتصبح المعلومات فاترة في حسهِ ويظن أن كل الناس يعلمون**»[181]، وسوف تمرّ معك قصصٌ مبعثرةٌ في الكتاب يَصح أن تضعها تحت فصل (مناظرات فايزٍ مع المحققين)، فهو يُفحم المحققين الذين يحاولون بث الشبهات حول الإسلام في قضايا تتعلق بفلسفة وجود الشر ودليل وجود الله والحجاب والنظرة إلى غير المسلم، فلم يكن ليجادل هؤلاء ويفحمهم وهو يحسن الحفظ ولا يحسن

[181] مقطع: لماذا ترك هذا الشاب الإسلام؟ وكيف عاد؟ ، ١٧ أكتوبر ٢٠١٠، (الرابط)

العرض، وكان أسلوب فايزٍ المفضل في إلجام هؤلاء هو امتلاك المعلومات المناسبة ثم استخدام أسلوب الإلزام والمقارنة، وهذا ما زاد من حنقهم عليه، لأن هذه الشبهة قد يكون لها مفعول مؤثر مع بعض المعتقلين ولكن وجود شخص مثقف ومطلع يبدد هذه الغيوم عنهم فيقل تأثيرها، فهو يَهدم ما قد يبنوه في نفوس بعض المعتقلين.

- تكلم فايزٌ في فصل (نعم؛ لقد أخطأت)، وعرض حواراً جدليًا أو مناظرة بين مجاهد وإغاثي، واختلاف الرؤىٰ في العمل لخدمة الدين، وحُجج كل طرف مقابل الآخر، هذا الفصل يكرّس أن الحالة بين جماعات العمل الإسلامي هي ليست حالة تكامليّة بل تنافسية، وأحيانًا لا يقوم بعضها إلا علىٰ أنقاض المشروع الآخر، وقد استطاع العدو أن يجعل المقاوم له مكروهًا لدىٰ التيارات الإسلامية المتنوّعة، بتصويره السد الذي يحول بينها وبين تطبيق مشاريعها، فضرب العصافير بحجر، والأجدىٰ أن يلام العدو الذي يريد أن يحتل البلدان الإسلامية ووكلائه، فهم من عطلوا الأعمال الإغاثية لا أن يُلام من يدافع عن الأُمّة، ويوضع بين ثنائية إما أن تترك الدفاع أو أنت الملام! فالعدو وضع خطوط نفسية جعل هؤلاء أُسراء لها، فلو فكرت في خارج الصندوق لوجدت أنه هو الملام الأول لا غيره!

- يذكر فايزٌ أن معتقل غوانتنامو لا يوجد فيه شيء يُترك للصدفة بل كل شيء مدروس - كما يقول فايزٌ -، وقد صُمم لكسر إرادة المعتقلين أو ترويضهم - حسب المصطلح الأمريكي -، ولكن أن تخرج دفعات كبيرة ثابته علىٰ ما هي عليه وبعضها ذهب وقاتل أمريكا، هذا ينبئك عن فشل كبير وقع فيه هذا المشروع! وأن هناك فرق شاسع جدًا بين نفسية المسلم ونفسية الغربي الذين أقروا أنهم لو هم من مُورس عليهم هذا التعذيب لفقدوا عقولهم لذلك سوف تجد في مواطنَ كثيرة من الكتاب، أن المحقق أو الضابط يستغرب بشدة كيف أن هؤلاء يضحكون أو يلهون أو لم ينكسروا.

- من الأفكار التي ضمّنها الكندري في كتابه، هو أن الحقّ يحتاج إلى قوة لكي يجد له القبول، وضرب مثلًا في أن المعتقل الذي يدخل في مناكفات دائمة مع الجنود، عندما يتحدث من الجنود يجد نوعًا من الإصغاء والقبول أحيانًا، بخلاف المعتقل الهادئ الذي يحاول أن يكسب ودّهم فرؤيته بهذا الضعف تُذهب احترامهم له وبالتالي تمنع قبول الكلام منه، وهذا مشاهد في المعتقلات، ففي أحد الدول العربية بعد أن رأى الضابط ثبات المعتقلين الإسلاميين قال لهم: «**والله إنني أحترمكم وأحبكم ويشرفني لو أغسل ملابسكم!!**»[١٨٢]، فالناس عمومًا تحترم من يثبت على موقفه ويُبتلى فيه أكثر من المتلوّن المتنقّل والذي يكثر من أخذ الرخص. فلذلك قد تجد أن هؤلاء الجلاوزة في قرارة أنفسهم يكرهون هؤلاء ولكنهم يحترمونهم لإخلاصهم لمبادئهم أكثر من المتزلفين لهم وكما قال أحد الجنود الأمريكان: «**أحترم الشجعان وإن كانوا أعداء وأحتقر الجبناء وإن كانوا أصدقاء، أكرهكم لكني أحترمكم**»**!**[١٨٣].

- كذلك ما زاد من رصيد هذا الاحترام، هو رؤية تكاتف الإخوة مع بعضهم البعض. يضرب الأول فينتصر له الثاني وهو يعلم أنه سوف يتعرّض لعذابٍ أشدّ من الأذى الذي تعرّض لهُ الأول! فيضحي بنفسه من أجل أخيه، بل والغريب أحيانًا أنهم انتصروا حتى للجنود المتعاطفين معهم إن تعرّضوا للإهانة من قبل الضباط! فرؤية هذا الإيثار أثّر كثيرًا على الجنود الأمريكان التي تشيع بينهم الأنانية وينعدم بينهم الإيثار. وبعض قصص الإيثار هذه غريبة حتى على المسلم إن قرأها، مثل قصة نافع العتيبي رحمه الله الذي رفض إطلاق السراح من غوانتنامو وقال: «**أرجع إلى أحبابي بينما يظل إخواني يعذبون هنا؟!**» ثم مزّق ورقة الإفراج وهو يقول: «**سيكون كرسيي شاغرًا**»[١٨٤]، فقد رأى في بقائه هنا منفعة للدفاع عن إخوانه من أن يكون في الخارج، وفعلًا رجعت الطيارة من دونه، واستمر

---

[١٨٢] بين عساكر التوحيد وعساكر الشرك والتنديد (ج٣/ ص٥).

[١٨٣] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص١٨٧)

[١٨٤] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٢٨٢)

في الاضراب أملًا في تعديل بعض القوانين التي يتأذّىٰ بسببها المعتقلون إلىٰ أن مات، وقد ذكر الكندري قصة فتوىٰ (الإضراب حتىٰ الموت) التي أفتاهم إياها أحد طلبة العلم داخل المعتقل، وهذه الفتوىٰ وهذا الطرح خط أحمر في بعض المعتقلات العربية ومن أصّل لها ونادىٰ بها يُهجَر.

- كذلك من النقاط المهمة التي ذكرها فايزٌ هي حضور عزّة المسلم حتىٰ في ظل الهوان، فالله عندما أنزل هذه الآية: [**وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**] فإنها قد نزلت علىٰ إثر هزيمة أُحد، فالمسلم يبقىٰ في علوّ حتىٰ في لحظة الانكسار، وهذا قد تجده في بعض المواقف، فلما دخل عليهم الجنرال ميلر في المعتقل وهو المقدّم بين قومه ومن كبار الشخصيات العسكرية في أمريكا، لم يجد أحد المعتقلين بأسًا أن يقول له أمام الجميع: «**ما هذه النجوم على جبتهك إلا كبصقة في جبين حمار أحمق**»[١٨٥]! وهذا ذكّرني بشكل أو بآخر بحادثة الشيخ عُمر بن محمود عندما دخل عليه اللورد كارلايل الزنازنة بعد أن كذب عليه في الإعلام، فوجّه الشيخ حذائه في وجهه ثم يقول الشيخ حاكيًا هذه القصة: «**ووقف على سريري لمدة مادًا يده لأسلّم عليه، فلا أعطيه إلا الحذاء، وهو بصفاقة يطيل الوقت لأمدّ له يدي، وأنا غير آبه له، ثم خرج مخزيًا. لما حدّث الأخوة العجم آباءهم بهذه الحادثة صُعِقُوا، ذلك لأن آباءهم يعظمون كلمة «لورد» تعظيمًا شديدًا، ولم يدروا أن أبناءهم كفروا بهذه الألقاب**»[١٨٦].

فلم يكن منصب الجنرال ولا اللورد يمنع الأسرىٰ أن يُعاملوا سجانيهم بما يستحقون رغم أَسرهم وضعفهم وقوة أولئكم وسلطتهم!

- من خلال السرد الذي طَرحهُ الكندري في فصل (ثلاثية الصمود) تستشف أن الابتلاء يحتاج إلىٰ عدّة مسبقة، فالمقبل علىٰ الخطر يحتاج إلىٰ أن يُحصِّل ما يحميه من هذا الخطر من أسباب، ولو تبحث

---

[١٨٥] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٣٨٤).

[١٨٦] الفرائد والقلائد .. الجامع لتغريدات الشيخ أبي قتادة الفلسطيني، صـ١٠٠، وانظر كذلك: حوار الشيخ عادل عبد المجيد مع الشيخ أبي قتادة المحتجزان في احدىٰ السجون البريطانية، صـ١٩.

في أسباب انتكاسة المنتكسين في المعتقلات، تجد أن هنالك سببٌ قد يكون مشترك للكثيرين، وهو عدم تثبيت القضايا الإيمانية في دواخل النفوس قبل الولوج في مواطن البلاء، فالبعض رأىٰ أن سماع الأناشيد والصراخ ورفع العقيرة والمباهاة وحب الظهور المغلف بالصدع بالحق وغيرها أسباب كافية، مع إهمال الفروض والنوافل وتدبّر القرآن وحفظه والتخلق بأخلاقه وتهذيب النفس وتزكيتها، فالابتلاء مثل الامتحان، عندما تدخل لا تستطيع أن تقول للممتحن أني سوف أخرج وأعود، بل تدخل بما تملك من إعداد فإن كنت خاويًا من الأساس ففرصة رسوبك كبيرة، وإن كنت تملك أصلًا فتستطيع أن تزيده وتبني عليه!

- ذكر الكندري تفاعله مع الثورة السورية من داخل المعتقل، وذكر أنه أرسل لهم هذه الرسالة عبر اتصاله مع أهله فيقول: «**أتذكر جيدًا أن مأساة هذا الشعب البائس قد استحوذت علي، كنت قلقًا على مصير ثورتهم لأني أدرك جيدًا أنهم لا يقاومون الطاغية بشاراً وحده، بل هنالك العديد من القوى العالمية تعمل في الخفاء لإفشال ثورتهم؛ كنت متأكداً أن تفرقهم شيعًا وأحزابًا سيوفر ثغرة يسهل التسلل منها، وأن أصعب مهمة عليهم هو التمييز بين الصادقين والانتهازيين ثم التوحّد تحت قيادةٍ واحدةٍ مؤمنةٍ تضع نصب عينها صلاح هذا الشعب الجريح، قلت لأهلي في الاتصال: "بلغوا إخواننا في الشام سلامنا ودعاءنا وأخبروهم أننا نقنت في صلاتنا لهم قبل أنفسنا، قولوا لهم: يجب عليكم أن تعرفوا إخوانكم من أعدائكم، يجب أن تفرّقوا بين المسيح عليه السلام والمسيح الدجال، يجب أن تفرقوا بين موسى الكليم وموسى السامري، يجب أن تفرقوا بين هارون وقارون، يجب أن تفرقوا بين أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي دؤاد، إن الأُمّة التي لا تعرف أبناؤها أُمّة لا تستحق النصر"**»[١٨٧].

[١٨٧] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٤٣٢).

هذا كلامٌ جميل، وأردت أن أزيد - ولو استطرادًا خارجَ الموضوع -: أن الدول عادةً تَهتم في فتح قناة اتصال مع الجماعات أو الجماعة المهيمنة إذا كادت هذه الجماعة أن تصل إلى الحكم ورَجَحَت الكفة لصالحها في صراعها مع النظام، باعتبار أن في يدها الحل والربط وتستطيع أن تقيم الصفقات ومن الممكن أن تصبح هنالك مصالحُ مشتركة بين هذه الدول والجماعة التي وصلت إلى الحكم حديثًا باعتبارها جهة رسمية قانونية، ولكن إذا وصلت الجماعات إلى حافة الانهيار، فحيئنذ عادةً لا تجازف الدول بفتح قناة اتصال أو دعم فلا تضع بيضها في السلة الخاسرة، فتتخذ الدولة المنتصرة موقفًا منها لسببها هذا.

أما خذلان الدول للشعب السوري، فهذا قديم، بل حتى في ثورته في الثمانينات، وهذه الخلاصة التي توصّل إليها القائد في الطليعة المقاتلة السوريّة أيمن شربجي رحمه الله إذ تراه يقول: «**وتوالى سيل البرقيات من أكابر مجرميها، وظهر بكل وضوح أن الشرق والغرب مصمم على دعم نظام المجرم الأسد، وهذا ما أكّد لنا الحقيقة الكبرى التي سرنا على ضوئها وما زلنا عند قناعتنا بها، ألا وهي: أن جميع حكومات العالم تحارب وصول الإسلاميين إلى الحكم في سورية، حتى وإن كان ذلك خيار الشعب وقراره وانتخابه**»[١٨٨].

وفرنسا من الدول الداعمة قديمًا وحديثًا، وتربطها علاقات ومصالح استراتيجية مع نظامي الأسد (الأب والأبن)، ويوجد كتاب بعنوان (دروب دمشق: الملف الأسود للعلاقات الفرنسية-السورية) لكريستيان شينو وجورج مالبرونو، من ترجمة وطباعة (شركة المطبوعات)، وسوف يتبيّن لك أن فرنسا تمارس نوعًا من الازدواجية في الخطاب، فهي معارضة علناً داعمة سرًا! إذ لغة المصالح في الغرب تفوق أخلاقياته ومبادئه إذا كانت الضحية مسلمة، لذلك تعجَب من تصريحات بعض الفصائل تجاه فرنسا ومحاولة تطمينها أو مدّ الجسور معها، وكأن فرنسا سوف تضحي

[١٨٨] على ثرى دمشق، أيمن أحمد الشربجي، آفاق للدراسات والنشر، الطبعة الأولى: ٢٠١٧، (ص٣٧٨).

بمصالح امتدت لعقود من أجل تصريح إحدىٰ الفصائل في حين أن النظام بات يسيطر علىٰ غالبية سورية اليوم، لذلك يجب دراسة هذه التصريحات ومتىٰ تُقال وما هو المردود منها، إذ واضحٌ أن فرنسا في ظل الحالة الهستيرية التي تعيشها اليوم ضد المسلمين والإسلام ليست مستعدةً أن تفتح علاقة رسمية مع تنظيم إسلامي مسلح! ومن الواضح أنها لن تغيّر سياستها، فذهب هذا التصريح علىٰ لا شيء! بل هو أشبه بالإهانة أن تمدّ الخيط ويتجاهلك الطرف الآخر، وهذا ذكّرني بفصل (المصافحة) في كتاب الكندري، والذي ذكر فيه أنه حاول أن يسلّم علىٰ أحد الجنود المتعاطفين معهم فرفض هذا الجندي السلام عليه! فشعر بالإهانة والتي ربطها كعادته بموعظة بليغة.

- ومن المؤاخذات التي تؤخذ علىٰ فايزٍ الكندري كلامه عن أسلوب الأمريكان في الوقيعة بين المعتقل وحكومته، قال: «**يخبر الجنود المعتقلين أن هذا الوفدَ الأمنيّ جاء من البلد الفلاني، فيستقبله المعتقلون بالسباب والشتائم، كنت أتأمّل الحدث، لماذا تتصرف الولايات المتحدة بهذه الطريقة؟ بغض النظر عن السبب الحقيقي لمجيء الوفود الأمنية لغوانتنامو، أتساءل لماذا تستثير الولايات المتحدة المعتقلين ضد حكوماتهم ثم تؤلّب حكوماتهم ضدهم؟ لماذا الإبقاء على هذا التوتر والعداء بينهما، هل تخشى الولايات المتحدة الأمريكية التقارب بينهما أن تحول فكرة التمرد على الاحتلال من حصرها في تنظيم أو جماعة أو فئة لتصبح فكرةً أممية تسعى للنهوض من جديد؟**»[189].

ليس شرطًا، فالعلاقة الطيبة والمثالية بين الوفد والمعتقل لن تجعل الدولة تتبنىٰ فكرة التمرد علىٰ الاحتلال، وأقرب مثال الأخ فايزٌ نفسه، فالكويت ضغطت بقوة من أجل الإفراج عن فايزٍ الكندري بل وبسعيٍّ من أمير الكويت نفسه، فالتقارب بين الطرفين لم يثمر عن شيء، وأغلب الظن أن صنيع الحكومة الأمريكية هذا من أجل أن تحصل منافرة بين المعتقل والوفد مما يؤدي إلىٰ تخلي الوفد عن المعتقل، فيؤدي هذا إلىٰ شعور بالإحباط لتعقّد قضيته، فتستثمره الولايات المتحدة في

[189] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٢٢٣).

المعتقل من أجل كسره وتطويعه، أو حتى لغرض حماية نفسها وذلك بجعل المستهدف لها لا يستهدفها لوحدها ويستهدف بقية الدول فتكون في مأمن نوعًا ما في تشتت الضربات بدلًا أن توجه لها حصرًا، وفايزٌ الكندري ذكر في كتابه أنه قرأ أدب السجون وذكر في موضع آخر أن الأعمال القذرة للولايات المتحدة الأمريكية تَنيط بها لعملائها، وكل هذه الشواهد أظن أنها من المفترض أن تجعله يعلم أن لا يوجد ألعن من الولايات المتحدة الأمريكية غير الحكومات العميلة لها، وأن هؤلاء هم من وضعوا أنفسهم كالترس لها فكيف يمكن أن يتبنوا فكرة المقاومة لها؟!

- من النقاط المهمة في الكتاب، هو إظهار ما دار في التحقيق من أسئلة وأهداف، فواضح أن الدول الغربية لا زالت على النمط الاستشراقي الذي يقول أن أفضل طريقة للسيطرة على الشعوب هو بدراستها بشكل تفصيلي فتظهر لك المنافذ التي يمكن السيطر عليها من خلالها، وهذه الثغرات أو المنافذ لم تكن لتظهر لولا هذه الدراسات المعمّقة[١٩٠]، وهذا يوضح شغف أمريكا لدراسة المجتمعات والسؤال عن أدق التفاصيل في التحقيق مع المعتقلين، لقد اعتقلوا الإغاثي والمجاهد والداعية والباحث من أجل دراسة النفسيات والتوجهّات، وهذا الشغف لو جد في أُمّتنا لعلمنا أننا نسير على الطريق الصحيح؛ هزيمة الآخر تبدأ من فهمه والإلمام به.

***

في نقاط سريعة أحببت أعلق عليها في الكتاب:

[١٩٠] ومع ذلك تجد في الصف الغربي من ينتقد القصور الذي بدأ يطرأ على قومهم في دراسة وفهم الآخر، فهذا الصحفي الاستقصائي ستيفن غراي مثلًا يقول: «**قد ترافقت العولمة بشكل مميت مع تقاعُس متزايد في الغرب عن استكشاف الأفكار الأجنبية أو التعلّم عنها. فقد أدّى انتشار أفلام هوليود وبرامج التلفيزون الأمريكي إلى تشجيع العالم على فهم الغرب، وإلى تثبيت همة الغرب على فهم العالم. وتزايد تعلّم اللغة ببطء في الولايات المتحدة بالأخص منذ العام ٢٠٠١، لكن عدد الأشخاص الذين يتكلمون لغات أجنبية لا يزال قليلًا على نحو يُرثى له. وتعرضت الصحف ومحطات التلفيزون لتخفيضات كبيرة في عدد الموظفين، وأصبح المراسلون الأجانب للصحف نادرين. فالبيانات تنقل في كل مكان عبر العالم، لكن نادراً ما تحمل تفسيراً**»، أسياد الجاسوسية الجدد، ستيفن غراي، الدار العربية للعلوم -ناشرون، الطبعة الأولى: ٢٠١٦، (ص٤١٣).

- قضية «النووي» المصطلح الذي ذاع صيته أثناء مقابلة المعتقل وليد محمد الحاج مع أحمد منصور، المؤلف لم يستخدمه هنا ولم يُكثر الحديث عنه، ولكن ذكر أول من استخدم هذه الطريقة وسنّها بين المعتقلين، وهو معتقلٌ أفغانيٌ مجنون.
- وكذلك قصة معلم أول غول في تورا بورا يُستنبط منه فقه تبنّاه الشيخ أسامة بن لادن وهو اختراق العدو بالدخول إلى صفوفه، وهذا طرحٌ غير شائع في المدرسة الجهادية، بل الشائع هو الضد من ذلك وترى تأصيل ذلك مسطرًا في كتاب أبو عبد الله المهاجر (حكم الانتماء لجيوش الكفر مخادعةً لهم).
- وكذلك ذكر فايزٌ الكندري أن سبب عدم دخوله في مصادمات قدر المستطاع في المعتقل هو ادّخار قوته لشيء أهم، وهذا ذكرني بعبد الله البرغوثي فيما حكاه في مذكراته، أنه مرّ على مظاهرة دون أن يدخل ويشارك معهم وكان مشغولًا بشيء أكثر نكايةً، فبعض الأمور تتركها ليس تخاذلًا بل لإحداث فائدة أكبر.
- تحيرت من عدم ذكر أسماء الأشخاص الذين قاموا بأمور جيدة، وخرجت أن المؤلف لم يستطع استئذانهم لأنه ليس الكل يريد أن تسلط عليه الأضواء، فالكثير من المعتقلين السابقين يريدون أن يندمجوا من جديد في المجتمع وتسلط الأضواء أو ذكرهم يعيق هذا الأمر.
- في السلسلة المرئية (المعتقل: ٥٥٢) وجدت بعض القصص لم تُذكر في الكتاب، والكتاب حسب ما علمت أنه نقح في الطبعة الثانية بإضافة بعض السقط وحذف المكرر، فبعض الفصول هي مجرد تكرار لكلام سَبق في فصل آخر مثل فصل (السلحفاة).
- تكلم الكندري أن بعض الدول احتفلت بما جرى في تورا بورا وأخرجوا أغنية في هذا الصدد، ولكن الاحتفال أو التشويه وصل حتى إلى بلاده، فهناك مسلسل كويتي اسمه (تورا بورا) يتكلم عن شخص ذهب إلى تلك البقعة؛ ولا يَخفى أن الدراما العربية لا يمكن أن

تشذ عن الأُطر المعتادة عليها، فالمؤكّد – عندهم – الذاهب هناك عاق لوالديه ومتعصب فإذن جميع من كانوا هناك هكذا، فإذن لماذا ننصرهم؟! فالبعض يسوّغ تخاذله بهذه المعادلات التعميميّة.

- تكلم الكندري عن شخص عدَّ الانحناء عند القصف من خوارم المروءة لفرط شجاعته، ولكن سقط في معتقل غوانتنامو، فالنجاح في الموطن الأول لا يعني النجاح في الموطن الثاني بالضرورة، وأن الشخص يجب أن يكون متواضعًا لله إن نجّاه الله وثبّته من أحد الابتلاءات، لا أن يسترزق من هذا الابتلاء من أجل رفعة نفسه أمام الناس، فـ«**تنوع الاختبارات في الدنيا يجعلك متوجسًا من نفسك فلا تحفل إلا بالفوز حين تطأ قدماك الجنة**»[١٩١] كما قال المؤلف، وأيضًا يستنبط من هذه الحادثة أن المعتقل أكثر ابتلاءً من ساحات القتال، وهذا يُفسِّر خروج المقولة الشائعة بين الجهاديين: «**المَنِيّة ولا الدّنِيّة**».
- ذكر الكندري أن وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد وضع تعريفًا جديدًا للتعذيب من أجل استخدامه ضد المعتقلين «**فأخرج منه الحرمان من النوم والتجويع والوضعية الجنينية الأيام والإغراق بالماء، فما دام المعتقل لم يفقد حياته أو عضوًا من أعضائه أو حاسةً من حواسه فهذا لا يُعد تعذيبًا بزعمه**»[١٩٢]، والطريف أن هذا التعريف وأساليبه الجديدة أُقِرّت قانونيًا من قِبَل وزارتي العدل ووكالة الاستخبارات الأمريكية كما يقول الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش في مذكراته: «**أجرِت وزارة العدل ووكالة الاستخبارات المركزية، بتوجيهٍ مني، مراجعةً قانونيةً دقيقةً خلصت إلى أن برامج الاستجواب المتطور يتوافق مع الدستور وجميع القوانين المعمول بها، بما في ذلك التي تحظر التعذيب**»[١٩٣]!! ثم طفق يتكلم عن

---

[١٩١] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٥٣).

[١٩٢] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص١٣٨).

[١٩٣] قرارات مصيرية، جورج دبليو بوش، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى: ٢٠١٢، (ص٢٢٩).

أساليب محاكاة الغرق مثلًا وتعارض المُثُل الأخلاقية مع أساليب التحقيق وتقديم التحقيق عليها؛ لأن الأمن أولًا!

- هناك من انتقد فايزًا وعدم دقته في بعض الألفاظ عند التوثيق، مثل قوله: «**كانت قوات أحمد شاه مسعود مستميتة على انتزاع العاصمة من يد الطلبة، والذين صرحوا مرارًا بأنهم سينهون الحكم بالشريعة**»[١٩٤]، فيقال أن أحمد شاه مسعود لم يصرّح بذلك بل قال: «**أول ما نريده هو أن نحل مشكلة أفغانستان عن طريق المفاوضات، هذا هو طلبنا، هم - أي الطلبة - يريدون تطبيق الشريعة، ونحن جاهزون لذلك**»[١٩٥]، وللرد على هذا الكلام: إن فايزًا الكندري هنا شاهد عيان ينقل ما كان يُقال وما كان سائدًا، إذ كان من السائد أن هؤلاء لن يطبّقوا الشريعة، ويُستدل على ذلك بحالهم عندما وصلوا إلى الحكم وحال مناطق سيطراتهم ودعم الدول الغربية المناوئة لتطبيق الشريعة لهم.

***

في الختام: احتوى الكتاب على الكثير من النقاط، وقد ركّز فايزٌ كما ذكرت في المقدمة على ذكر القصص التي خلّفها عبرة وفائدة، وجزء غوانتناموا حوى عشرات الفصول أو الفقرات، فمن الصعب أخذها كلها، واستنباط الدروس والعبر، وليست كل الدروس والعبر تُكتب للمراجعة فبعضها تستوعب ذاتيًا ويكتفي بذلك القارئ.

نستطيع أن يفاخر التيار الإسلامي بعد أن وجد هذا الكتاب في حيز أدب السجون، فأعطى طرحًا مغايرًا أو مختلفًا نوعًا ما عن السائد، وهذا الكتاب هو من الكتب التي طرحُها يتعدى موضوعها، فهذا ليس أدبًا للسجون وتوثيقًا لِما جرى من انتهاكات فحسب، بل هو قد يستخدم لأثر الصراع ما بين الحق والباطل، وما بين فقه الواقع وتوعية الأُمّة بأعدائها، وتزكية النفس وترسّيخ معانٍ

[١٩٤] البلاء الشديد والميلاد الجديد، (ص٣٦).

[١٩٥] كنت في أفغانستان، تركي الدخيل، العبيكان للنشر، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨، (ص١٣٦).

إسلامية؛ كل هذه الموضوعات تأتي ضمن «السرد»، فالمؤلف كان موفّقًا في تمرير كل هذه الرسائل والمعاني ضمن القصص.

وأظن أن هذا الكتاب سوف يبقىٰ علىٰ قائمة كتب أدب السجون لدي لفترة طويلة، إذ كان كتابًا موفّقًا، وأنا أنصح به، وأحثّ الناس علىٰ قراءته لِما فيه من منفعة دينيّة ودنيويّة!

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٥ أكتوبر ٢٠٢٠م – ٨ ربيع الأول ١٤٤٢هـ

رائحة المسك

المعلومات العامة:

- اسم الكتاب: رائحة المسك: قصة شهيد عربي في أفغانستان.
- اسم المؤلف: عيسى بن عبد الله الغيث.
- عدد الصفحات: ١٤٣.
- دار النشر: دار الوطن للنشر.

التعليق والمناقشة:

وجدتُ هذا الكتاب في محل قديم لبيع الكتب، وكان سعره كما بيع لأول مرة! (٥ ريالات)، جلست لقراءة الكتاب وأنهيته بجلسة وذلك لصغر حجمه وقلة صفحاته، فهو يقع في ١٤٣ صفحة من القطع الصغير.

وفي ظني كتاب أنموذجي لمن أراد أن يكتب ترجمة لشهيد، ويكفيه فقط أن يستنسخ الخطوط العريضة في الكتاب، مثل أن تذكر قصة نشأته والتزامه ومواقفه في نُّصرة الدين وحبّه للجهاد وقصة نفيره ومواقفه في الجهاد وقصة استشهاده وكلام الذين يعرفونه ورسائله وقصائده ووصيته.

والكتاب عمومًا يتكلم عن سيرة مجاهد اسمه مصعب سعود آل عوشن، استُشهد في أفغانستان، فالكتاب عمومًا من خلال هذه السيرة يحرّض الشباب على اقتفاء أثره. فهو يذكر جانبًا من سيرته، منذ الميلاد حتى الاستشهاد.

وأغلب الكلام في الكتاب كان من جانب والده سعود آل عوشن، الذي كما يبدو أنه يملك قلمَ صحفي، ويبدو أن دور مؤلف الكتاب وهو الدكتور عيسى آل غيث هو فقط تنسيق الموضوعات، فالكلام في الكتاب لا بُدّ أن يكون لأحد معارف الشهيد.

وأظن الكتاب لم يقع بين يد توماس هيغامر الذي تكلم عن الجهاد بالسعودية، والذي بلا شك سوف يستفيد منه في تحليله وتقييمه لتعاطي المجتمع مع الجهاد في الفترة الأفغانية الأولى، فترى مثلًا أن الجامعات أو المعاهد أو المدارس قد تعطي إجازة وتتساهل مع الطالب الغائب لأنه في الجهاد، وقد ترى الكثير من الأساتذة والدكاترة يذهبون مهنئين ومعزين في استشهاد طلبتهم وتلامذتهم، فهنا لم يحُل الحائل الذي أوجد الفصام النكد بين الناس عمومًا وفريضة الجهاد.

وقبل أن أضع مراجعتي في موقع (القودريدز) وجدتُ مراجعةً كُتبت من قبل، أظهرَ فيها كاتبها جهدًا مشكورًا في تتبع بعض نقاط الكتاب، ولكني وجدتُ فيها شيئًا من التكلف في نقد الكتاب، فمثلًا من الأخطاء الموجودة في الكتاب إظهار الجانب الإيجابي في شخصية المُترجَم بشكل مبالغ فيه، كأن يصور زهده في ترك لعبة كرة القدم بلفظ قد يُفهم منه الذم أو القدح في من يلعبها، والصواب أن الإنصاف ها يقتضي الموازنة، فبعض الأخطاء تُغمَر في السياق العام، فلو كان المؤلف يريد أن يرسّخ عدة سلوكيات إسلامية يرغب فيها الشاب المسلم وأخطأ في أحدها، فهنا تعمل موازنة، بمدح هذا الصنيع والتحفظ على بعض العبارات لا بالتركيز على هذه العبارات فقط بشكلٍ ينسف كل ما سبق.

كما أن هذه الشطحات لها سياقها التي تُفهم من خلالها، ففي ذلك الوقت شاع الاهتمام بالقضايا الإسلامية الى حدٍ أصبح التحذير من بعض أساليب اللهو أمرًا شائعًا، فمثلاً كتب آنذاك الشاعر وليد قصّاب قصيدة في ذم كرة القدم، وكان الشيخ سليمان أبو غيث يتغنّى بها في شريط (كتائب الأحرار)، ليقارن بين نموذجين! نموذج الجد واللهو.

والنقطة الثانية، وهي ذمّ أسلوب العرض، بعرض آي القرآن ثم الأحاديث ثم أقوال أهل العلم المعاصرين، وهذا أسلوب شائع في التأليف، ولو أطردنا في ذمّ هذا الأسلوب لذممنا الكثير من الكتب، كما أن المؤلف قصد من كتابه هذا فئةً وهي الشباب السعودي، فمن الطبيعي أن يخاطبه من

خلال المشايخ المؤثرين عليه وليس لأن الحق لا يكمن أن يقوله إلا هؤلاء، وهذه نقطة تُحسب على المؤلف لا عليه!

فحتى من ناحية حزبية لا يستقيم الأمر، فالشيخ عبد الله عزّام محسوب على الإخوان المسلمين، وابن باز ليس كذلك، كما أن ابن باز وابن عثيمين ليسوا في مستوى واحد في التوَّجه مع الدكتور سلمان العودة، فالأخير محسوب على توجه حركي بينما أولئك من المشايخ الرسميين للدولة.

فلو انتقدنا العرض من زاوية حزبية أو أيديولوجية لقيل أن من عُرضت أسمائهم كلهم على اتجاه واحد ومستوى واحد، والأمر ليس كذلك. وكذلك الحديث على القدوات، فمن الخطأ أن نقيّم الكتاب بعين اليوم لا بالزمن الذي أُلف فيه.

والنقطة الثالثة، وهي انقلاب المؤلف على نفسه بعد أن أصبح عضوًا لمجلس الشورى، والقول: مَن قال أن ريحة مسك خرجت أصلًا؟! فهو محجوج؛ لأنه عدد في الكتاب أسماء الذين قالوا هذه المعلومة وهم ممن كان مع الشهيد في الخندق، فهذا جواب على اعتراضه، ومن فمه يُدان.

والنقطة الرابعة، القول أن الحلم بجيش إسلامي موحد حلمٍ نادر بين الإسلاميين دون تعميم، فهذا أظن غير صحيح، فالجهاديون وحزب التحرير وحزب الأمة بل حتى الإخوان المسلمون قبل تغيّر توجهاتهم وترى أثر ذلك في مذكرات مرشدهم عمر التلمساني ترى كل هؤلاء يرنون الى خلافة تجمع المسلمين في دولة واحدة! والتي من الطبيعي أن يكون لها جيشٌ واحد! فإذا كان كل هؤلاء يتمنون حدوث ذلك، فأين النّدرة في الموضوع؟!

الخلاصة: أن الكتاب جميل، ولا يقدح في ذلك توَّجه مؤلفه الذي تبرأ مما كان عليه، ولا يقدح في ذلك بعض الأخطاء في الكتاب، ومن الجيد أن يرى المجاهد بعض السلوكيات التي يحتاجها في رباطه ومعسكره، فالاتّصاف بهذه الصفات ليس أمرا متعارضًا مع الانضباط، بل يمكن الجمع بينها، ونحن في وقت نحتاج أن نبث كل ما فيه تزكيةٍ للنفس، في الوقت الذي يُفصل فيه ما بين

العقيدة والسلوك، فيظن من أُصيب بهذا الفصام أن ضبطه للعقيدة يُغنيه عن الاتصاف بالسلوك الحسن.

كما أن الكتاب من ناحية تاريخية تُظهر لك مدى الفجوة التي حصلت في التعاطي مع بعض الأمور، فهذا الأب يكتب هذا الكلام ولهُ مقالات في مجلة الجهاد باسمه الشخصي، ولم يُمس بسوء في الوقت الذي أصبح من يقول عُشر معشار هذا الكلام ولو تعريضًا يُعاقب!

وهذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٩ أكتوبر ٢٠٢٠م – ١٢ ربيع الأول ١٤٤٢هـ

مذكرات سياسي عراقي

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: مذكرات سياسي عراقي.**
- **اسم المؤلف: حردان التكريتي.**
- **اسم المحقق: أحمد رائف.**
- **عدد الصفحات: ١١٤.**
- **دار النشر: دار الزهراء للاعلام العربى.**

التعليق والمناقشة:

هذا الكتاب هو جزء من مذكرات وزير الدفاع العراقي الأسبق حردان التكريتي، الذي كان وزيرًا في زمن الرئيس العراقي الأسبق أحمد البكر.

- أحمد رائف ارتبط اسمه بنقد نظام البعث، فله أكثر من بحث وكتاب في هذا الصدد، لا أعلم إن كان مقتنعًا حقًّا بالتفرغ لنقد النظام البعثي أو لـ«الرز» الخليجي دور.

- أما هذه المذكرات فهي الجزء الأول منها، ولم أعثر خلال بحثي على البقية، ولكن صدر كتاب آخر من تأليف سيف الدين الدوري بعنوان (الفريق حردان التكريتي: ضحيّة الخيانة والغدر)، قد زودت فيه أسرة حردان التكريتي بالوثائق والرسائل التي وجهها من منفاه بالجزائر إلى الرئيس الأسبق أحمد حسن البكر، فلعلها تكمل الصورة وتوضح المشهد أكثر.

- العنوان المبرّز على المجلد هو يعكس المضمون الفعلي للكتاب، كأن حردان يقول: قلتم أني فاسد وحرامي؟ صحيح، ولكن لست وحدي بل معي فلان وفلان وفلان أتذكرون ذلك اليوم لما حدث كذا وكذا؟! فهو كتاب كب للعشا -إن صح التعبير-.

- حاول حردان أن يتملص من المسؤولية الأخلاقية عن بعض تصرفاته لما كان في دائرة القرار، فكان يقول أن فعلت هذا الشيء رغمًا عني أو كنت غير مقتنع به أو خوفًا على نفسي، ولكن تبقى هذه كلها تسويغات سامجة.

- المذكرات هذه جاءت ردّ فعل انتقامي على اغتيال زوجة حردان عبر تسميمها أثناء سفرها لزوجها في الجزائر وموتها وسط أبنائها في الطائرة، فلذلك أجواء المذكرات هي أجواء انتقامية قد يدخلها التجني والانتقام بنشر أمور كاذبة لم تحصل. فيجب الاحتراز وعدم التسليم لكل ما جاء فيها.

٥ نوفمبر ٢٠٢٠م – ١٩ ربيع الأول ١٤٤٢هـ

العرب وجهة نظر يابانية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: العرب وجهة نظر يابانية.**
- **اسم المؤلف: نوبوأكي نوتوهارا.**
- **عدد الصفحات: ١٤١.**
- **دار النشر: دار الجمل.**

التعليق والمناقشة:

العرب وجهة نظر يابانية لنوبواكي نوتوهارا من الكتب غير التقليدية في ما أظن، فنحن نحتاج إلى شخص لا يجامل في عكس انطباعاته تجاه شعب ما؛ لأنه عاش معهم لفترات طويلة، ولكن في الوقت نفسه لا نحتاج شخصًا لا يرى إلا أخطائنا.

فمثلاً الكتاب يرى في تشخيصه للواقع العربي أن الاستبداد والطغيان السياسي هو ما أوقعه في هذا التخلف -تقريبًا نفس رؤية الكواكبي للموضوع-، فيعوز استبداد الأب مع ابنه أو عائلته والأستاذ مع طلبته وكل استبدادٍ مصغّر في المجتمع العربي إلى الاستبداد السياسي الكبير في الابتداء؛ ويرى أن هذا الاستبداد يورّث عدم المسؤولية في المجتمع؛ وهذا ما جعله يأخذ موقفًا من كل أديب تزلّف للحكومات المتستبدة مثل الأديب حنا مينة.

ثم أفرد فصلًا يدلل فيه على أن الطغيان الصغير سببه الطغيان الكبير من خلال قصص ومشاهدات عاشها في العالم العربي عنونه بـ(كارثة القمع وبلوى عدم الشعور بالمسؤولية)، فلا ترى إلا المثالب والأخطاء، ثم أظن لّما رأى نفسهُ قد أكثر من هذا، ذكر في صفحة ونصف موقفين جيدين يتعلقان بالكرم!

ربما ظنَّ أن ما سوف يصحح البوصلة لدىٰ القارئ هو تنبيهه علىٰ أخطاء مجتمعه أكثر من ذكر محاسنه التي قد تؤدي بشكل أو بآخر الىٰ تصالحه مع الذات وعدم التغيّر الىٰ الأفضل!

وذكر في هذا الفصل «**لا أقصد هنا المفاضلة ولست من القائلين بتفوق شعب على آخر. ولقد كرت مرات عديدة أن علينا الا نسقط قيمنا المسبقة على المجتمعات الأخرى**»، ولكن كان الفصل كله مقارنة بين مجتمعه والمجتمعات العربية؛ وأن الأمر في مجتمعه أفضل من حال المجتمعات العربية فهو قد فاضَلَ بشكل أو بآخر، والإشكالية الثانية أنه بدأ يُسقط قِيَمَهُ علىٰ المجتمعات الأخرىٰ، كما في (صـ٤٦) عندما تكلم عن حكم غضّ البصر وتقيّد المرأة بالجلوس في منزلها!

الفصل هذا لا يخلو من أشياء صحيحةٍ نتفق معهُ فيها، ولكن الناس عمومًا لا تستسيغ النقد إذا كان مكثقفًا، فحتىٰ لو كان صحيحًا فإن الناس ترفضه وتمجّه وتراه غير منصف.

ويبدو أن المؤلف قد امتعض من أجواء المدن والتحضر، فلذلك تراه مدهوشًا بالبداوة والفلاحة، وفي الفصل الذي يليه تغيّرت لهجة المؤلف قليلًا؛ فأصبح يرىٰ مناقب في البدو لا يجدها في اليابانيين!

فامتدحهم من حيث البساطة وقوة الصبر وحسن التدبير؛ فالبيئة الصحراوية وقلة الأدوات تَستلزم من البدوي أحيانًا أن يخترع بالقليل المتاح طريقة لتعدد الاستخدامات مثل استخدام العقال في عدة أمور، هنا يقول المؤلف: «**أما نحن اليابانيين فعلى العكس من ذلك نجد الكثير من المؤسسات الخاصة التي تستخدم خبراء ليقدموا لنا الحيلة عندما نحتاج بدلًا م أن نتدبرها بأنفسنا**». وكذا من حيث الكرم بل تراه يقول: «**في اليابان نستخدم كلمة البخل بين الأصدقاء بصورة عادية وأحياناً إيجابية، أي بالمعنى الاقتصادي تحديدًا، ولا نُحَمّلها معنًى سلبيًا، أمّا عند البدو العرب؛ فإن البخل ليس فيه أي معنى إيجابي على الإطلاق!**» إلخ ....

ثم في الفصول الأخيرة من الكتاب تكلّم المؤلف عن الروائيين العرب الذين ترجم أعمالَهم إلى اليابانية، فأصبحت أعمالهم هي مدخلًا للعرب في اليابان، وأغلب الأعمال هي انعكاساتٌ لتوّجه المؤلف نفسه وهذا لا يعيب بحد ذاته، فإبراهيم الكوني هو المدخل إلى ثقافة الصحراء والتي كما أسلفنا جذبت المؤلف، فأراد أن يستزيد منها قراءةً ومعايشةً، وأما عبد اللطيف اللعبي فهو المعتقل من قبل طغاة العالم العربي والذي يمقتهم المؤلف، وأما يوسف إدريس فهو كاسر التّابو المتعلق بالدين ورجاله وكما تقدم أن المؤلف امتعض من حكم غضّ البصر وامتعض كذلك من إبقاء «النساء الجميلات» في المنزل وامتعض من سلوك الأستاذ علي حسن السمني المستقيم وفق الشريعة الإسلامية واعتباره أن من يتقيّد بهذه القيود لن يتقدم؛ فهو يقيس الأمور وفق منظورٍ مادي.

ففي هذه الفصول الثلاث استعراضٌ لأدب هؤلاء ورواياتهم وآراء المؤلف فيها، ثم أتى الملحق وهو في نظري أهمّ من هذا كله، وهي لقاءات قديمة مع المؤلف الذي وُصِفَ بـ«المستعرب»؛ وذلك أن لفظ المستشرق قد لا يكون ملائمًا له فهو قابعٌ في أقصى الشرق فيكون حينئذٍ مُسْتَغْرِبًا إن اهتمّ في الشأن العربي باعتبار أن العالم العربي يقع غرب اليابان، ولكن حُدد وصفه بـ«المستعرب» تميزًا عن أي ثقافةٍ في الاتجاه الغربي لليابان.

كانت هذه اللقاءات والأخص اللقاء الثاني تتكلم عن المجتمع الياباني، والذي في ما أظن لدينا قصورٌ كبيرٌ في فهمه، أو لا يُفهم إلا من خلال ثقافة الأنمي والمانجا والدراما، رغم أن هذه ليست مقياسًا حقيقيًا، فالمضمون الترفيهي أحيانًا لا تجزم أنه انعكاس للواقع الياباني، ولكن تستطيع أن تستخلص من القواسم المشتركة بينها = الانعكاس الحقيقي، فمثلًا قد يَلحظ الناقد وجود صورةٍ نمطية للشخصيات النسائية في هذه الأعمال، وهذا يَعني أنها مطلوبة بشدة من المشاهدين في هذا القطاع، فالمنتج الذي يريد زيادة عدد المتابعين لأعماله وبالتالي الأرباح لا بُدَّ أن يخضع لشروط

المشاهدين، فالمفهوم هنا يتقاطع مع المال، فمن خلال هذا تستطيع أن تخرج بصورة عن المجتمع الياباني من خلال الأعمال الترفيهية؛ وذلك لأن المال لا يكذب.

نعم من المهم أن تقرأ للآخرين وهم يتحدثون عنك؛ ولكن الأهم أن لا تعطل عقلك وتلغي ذاتك وتسلم بكل ما قيل، لأن صاحب الكلام أكثر تطورًا –وفق المفهوم المادي– منك، فقد يكون ما قاله مجرد هراء لا قيمة له، أو سوء فهم، أو خطأ محض، لأن المعيار لتقويم الأمور ليست أقوال الآخرين بل الحق الذي ننطلق منه وبه نقيس الأمور، ونحتاج إلى مَن ينبهنا إن حِدنا عنه، لا أن يخترع لنا سُبلاً جديدة بدلًا عنه.

٢٦ ديسمبر ٢٠٢٠م – ١١ جمادى الأولى ١٤٤٢هـ

السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.**
- **اسم المؤلف: مهدي رزق الله أحمد.**
- **عدد الصفحات: ١١٥٩ (مجلدين).**
- **دار النشر: إمام الدعوة.**

التعليق والمناقشة:

فرغت قبل فترة من كتاب (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية) للدكتور مهدي رزق الله أحمد والواقعة في مجلدين من طبعة دار إمام الدعوة للنشر.

أظن هناك اهتمامٌ مرتبط بتنقيح السيرة مما علق بها مما لا يَصح من الأحداث والآثار، فلذلك تجد البعض ميّالًا إلى تصحيح المرويات على نفس المنوال الذي يُستخدم مع الحديث، فيظن الظان أن هذا الكتاب جرى على نفس هذا المنوال، خصوصًا مع لفظة «المصادر الأصلية»، والصحيح أن الكتاب ليس كذلك، بل يستخدم الأحاديث الضعيفة لجبر الثغرة الموجودة في السيرة النبوية، وذكر المؤلف منهاجيته في مطلع الكتاب، فذكر أنه «**إذا قالت عن رواية أنها معلقة أو بدون إسناد أو منقطعة أو معضلة أو مرسلة لا تنجبر أو من رواية الواقدي وغيره من المتروكين والضعفاء فهذا يعني أن الرواية ضعيفة أو ضعيفة جداً، وذلك للتقليل من التكرار**»[١٩٦]. ولكن حاول الاحتراز في أمر وهو «**وإذا لم أجد الصحيح ذكرت مرويات ضعيفة، فيما لا يتعلق بالعقيدة والأحكام**»[١٩٧].

[١٩٦] مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دار إمام الدعوة، الطبعة الثانية: ١٤٢٤ هـ، (١/ ١٥).

[١٩٧] المصدر السابق.

وهو مضطر لذلك، فبعض الأحاديث لا توجد فيها مرويات صحيحة، مما يعني القفز على بعض الأحاديث والتي تجعل بعض الأحاديث اللاحقة غير مفسرة بشكل واضح؛ أي أنها تترك مجالًا كبيرًا للتأويل. وبعض الأحداث لا يترتب عليها أثر، فما هو الحكم العقدي أو الفقهي إذا كان عدد المسلمين في بدر ٣١٣ أو ٣١٩؟!

وفي بعض الكتب اعتمد المؤلف على أحكام أصحابها، مثل اعتماده على حكم المحققين د. همام وأبي صعيليك في حكمهم على الأحاديث الموجودة في سيرة ابن هشام وكذلك اعتماده على أحكام محققي الموسوعة الحديثة وغيرها. ولكن أحيانًا كثيرة سوف تَلحظ أن المؤلف نفسه هو مَن يصحح الأحاديث ويجعلها «حسنةً لغيرها» لكثرة الطرق والشواهد الدالة عليها!

وذكر المؤلف أنه تَجَنّبَ الاعتماد على المصادر الثانوية إلا فيما نَدَرَ جداً، وهذا صحيح ولكن المشكلة تكمن في إيراده لخبر من هذه المصادر الثانوية لا أصل له ضمن هذه الندرة، وهو ما حكاه الإمام المباركفوري في (الرحيق المختوم) نقلاً عن المصفوري في كتابه (رحمةً للعالمين)، وهو أن قريش أعتقلت علي رضي الله عنه النائم في فراش الرسول ﷺ غداة الهجرة، فضُرِبَ قرب الكعبة وعُذِّبَ من أجل الحصول على المعلومات لكن دون فائدة، فالمؤلف هنا بنفسه يقول: «**ولم نقف على مصدر صاحب الرحمة**»[١٩٨]، فالاستشهاد بالمصادر الثانوية في السيرة حبذا أن يكون على استنباط للفوائد؛ أي محاولة ترجيح قرائن على قرائن أخرى، أو استخلاص الفائدة العامة أو الحكم الفقهي من الحدث، أو تحديد التواريخ الميلادية -كصنيع المباركفوري- المقابلة للتواريخ الهجرية، وهذا ما صنعه المؤلف في الكثير في ثنايا كتابه، فهنا تكون الإضافة، لا أن تورد أخبار لا أصل لها فيشغل القارئ بها لا أصل له.

[١٩٨] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (١/ ٣٢٢).

والمؤلف اعتمد كثيرًا علىٰ هذه المصادر الثانوية خصوصاً في جزئية «الدروس المستخلصة من الحدث»، فيخرج لك بحكم فقهي أو فائدة عامة أو تربوية أو نحو ذلك، ولكن حتىٰ لا يكون الكتاب كتاب تجميع كان لا بُدّ أن يضع المؤلف لمساته الخاصة والتي أحسب أن الدكتور مهدي نجح في ذلك.

المؤلف افتتح كتابه بذكر منهجيته ثم في التعريف علىٰ المصادر الأصلية التي اعتمد عليها في كتابه، فالقرآن مثلًا مصدرٌ أصلي تُستنبط منه أحداث السيرة، ثم تأتي السنة ثم المغازي ثم كتب الشمائل والنبوات... إلخ، ويضع تعريف لكل هذه المصادر وكيف يكون آثرها في كتب السيرة، وأحياناً يستطرد مثل كلامه عن باب المغازي يضع لك طبقات رجال المغازي ثم أبرزهم ثم يذكر ما طرأ عليهم من إشكالات أو اضطراب في تعديلهم أو جرحهم مثل ابن سحاق والواقدي.

وتكلم عن بعض كتب الأدب التي تستخدم كذلك للتدليل التاريخي مثل (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، ونقل بعض المراجع التي ناقشت أن هذا الكتاب لا يَصح أن يعتبر مرجعًا تاريخيًا.

نعم، يُستفاد من هذا الكتاب أدبيًا لكن لا يؤخذ كل قولٍ تاريخي بعين الاعتبار وكونه نص قطعي، وهذا الأمر إن كان يُستخدم مع كتب التاريخ الأصلية ككتاب تاريخ الطبري فهو من باب أَوْلَىٰ من الكتب الأدبية التي علىٰ هذا النسق.

ورجوعًا إلىٰ الطبري، فالإشكالية الموجودة في ذهن البعض أن: أَلَيْسَ الطبري مثلًا يُعتبر إمام المؤرخين فإيراد أخباره حُجّة علىٰ أهل التراث؟ وهذا تصوّر قاصر، والأمر كما قال أحمد السيد: **«وهنا ملاحظة في التفريق بين «صحة النقل» و«العزو». مثال ذلك: البعض يعتمد على طعنه على الصحابه ببعض الأحداث التاريخية؛ فإن قلت له: أثبت ذلك، قال: هذا موجود في تاريخ الطبري، في الصفحة كذا، في الجزء كذا. وهذا في الحقيقة ليس تصحيحًا إنما هو عزوٌ فقط، فنحتاج أن نرجع إلى تاريخ الطبري؛ لنتأكد من إسناده إلى هذه القصة أم لا، أن أنه ليس له إسناد أصلًا!؛ لأن الطبري لم**

يشترط الصحة في كتابه، وبالتالي فالغزو للطبري ليس تصحيحًا للكلام وإنما إحالة إلى مصدر يخضع للدراسة»[١٩٩].

وقد رأيت هذا الأمر جرىٰ مع مي آل خليفة في كتابها (من سواد الكوفة الىٰ البحرين)، في إيرادها لأخبار خلاف الصحابة من من مرويات الطبري، فأنت لما تقرأ من دون أي خلفية لكيفية ضبط النص التاريخي أو حتىٰ دون معرفة أن كتاب الطبري هو في الأصل جمع للمرويات -كما قال الدكتور المحقق بشار عواد أن الطبري ابتلع مرويات زمانه وضَمّها في كتابه-، وهي تحتوي الصحيح والسقيم دون أن يشترط فيها الصحة، إذا قرأت الكتاب دون هذه الخلفية سوف تجد أمامك أن الصحابة أُناسٌ شهوانيون يُؤْثِرون الدينا علىٰ الدين، والبعض لمّا نقدها مثل الداعية محمد رفيقي الحسيني[٢٠٠]، لم يضع يده علىٰ أصل الاشكال، فعندما تقول لشخص أنك تسيء للصحابة، فمن البداهة أن يردَّ عليك ويقول "هذا ليس كلامي بل كلام الطبري؛ فوجِّه انتقادك له!" ولكن عندما تقول له أنك لا تُحسن الاستدلال، فمرويات الطبري ليست كلها صحيحة؛ وعدم معرفتك بهذا أول السقطات في طريقة الاستدلال، ثم تَعَقّبها ببيان الخطل في بعض المرويات لإبراز جانب الضعف لدىٰ المستدل بهذه المرويات في طريقة الترجيح، هذا أنكىٰ من مجرد الصراخ والقول أنك تسيء الىٰ الصحابة، مع العلم أن مي آل خليفة ليست جاهلة بمنهج الترجيح بين المرويات بدليل أنها استخدمتها في أخبار القرامطة، وأغفلتها مع الصحابة!

عذراً علىٰ الاستطراد خارج موضوع الكتاب ولكن الشيء بالشيء يذكر.

كما يَلحظ أن المؤلف كان طويل النفس في الابتداء فيفرّع تفريعات ضمن عرضه للأحداث ثم أصبح يميل إلىٰ السرد والاختصار، فمثلاً في المجلد الأول تراهُ تَكَلَّمَ بشكلٍ مُطوّل عن حكم الحديث المرسَل وبطلان قصة الغرانيق من عدة وجوه والرد علىٰ منير محمد الغضبان في قضية سرية

[١٩٩] أحمد السيد، سابغات: كيف نتعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة، مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الخامسة: ٢٠١٩، (ص٦٤).

[٢٠٠] قناة واصال، حلقة: أمنا عائشة بين الأبناء والأعداء، ٢٩ أبريل ٢٠١٢.

الدعوة ثم تفقد هذه التفريعات ويصبح الوضع ميالًا إلى الاختصار، فحتى الحديث المُطوّل يأتي على أبرز ملامحه لا كلها. وهذه صفة تجدها في أكثر من كاتب، أن يكون مستسرسلًا في الابتداء ميالًا إلى الإيجاز في الانتهاء.

وقد تجد بعض الأخطاء وقع فيها المؤلف وهي خارج مجال تخصصه، كقوله مثلًا عن ميثاق المدينة: «**إن هذه الوثيقة تُعَدّ أقدم دستور مكتوب في العالم**»[٢٠١]، والصحيح أنها مِن أقدم الدساتير المكتوبة بالعالم، ويوجد ما هو أقدم منها مثل شريعة حمورابي التي يدور تاريخ تأليفها ما بين ١٧٩٢ قبل الميلاد إلى ١٧٥٠ قبل الميلاد وهي سنوات حكم حمورابي.

وكقوله عن صورة نبي الله إبراهيم في التوراة «**يصورون إبراهيم عليه السلام ديوثًا في سبيل حرصه على الحياة والمنافع الدنيوية. فيذكرون في توراتهم أنه أغرى زوجته سارة بالذهاب إلى بيت فرعون بصفتها أخت إبراهيم من أجل الحصول على حظيرة من الغنم والحمير، قال لها: قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك**»[٢٠٢].

وأوعز هذا الاقتباس الى الإصحاح الحادي والعشرين من (سِفر التكوين)، والصحيح أنه الإصحاح الثاني عشر، ولكن أظن هناك لبسٌ في مفهوم النص، فنبي الله إبراهيم حسب وصف التوراة لم يُغري سارة للذهاب الى فرعون، بل دخل مصر لحلول المجاعة في المكان الذي كان فيه، وتوقع أن يَلفت جمال سارة انتباه المصريين، فإذا حصل هذا "قولي أنك أختي"، وهذا يختلف في المعنى أن يقول: "إذا دخلنا لمصر اذهبي إلى فرعون!"

---

[٢٠١] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (١/ ٣٧٣).

[٢٠٢] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (١/ ٨٦).

وهذا قوله: «وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ».

مع العلم أن المؤلف في الطبعة الثانية لم يزِد أمور بسيطة، بل أضاف فصولًا كاملةً فهي تَفرِقُ عن الطبعة الأولى بشكل مؤثر، فتحوّلت من مجلد إلى مجلدين (!!) فالفصول المُضافة هي خواتيم الكتاب وهي فصول عن شمائل وصفات ومعجزات النبي ﷺ، ولكن حتى في الطبعة الأولى أو في مقدمات الكتاب، فمثلاً الجزئية «الحكمة من أقوال أهل الكتاب في صفة النبي ﷺ» لم تكن موجودةً في الطبعة الأولى وهي جزئيةٌ تقع في قرابة ٥ صفحات تقريبًا ومهمة.

والكتاب مهم ولا تقدح في قيمته هذه الملاحظات، ولعل أكثر مَن يستفيد منه طلاب الحديث، وقد قرأت هذا الكتاب ضمن (قُرّاء الجرد) والذين قفزوا على المقدمة النفيسة في بيان المصادر إلى السيرة مباشرة، وهذا يفوِّت على بعض القُرّاء الذي نالتزموا بالجدول حرفيًا الكثير من الفوائد.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٢ يناير ٢٠٢١م – ٩ جمادى الأخرى ١٤٤٢هـ

أنا والكتب

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: أنا والكتب.**
- **اسم المؤلف: طريف الخالدي.**
- **عدد الصفحات: ١٦٨.**
- **دار النشر: منشورات الجمل.**

التعليق والمناقشة:

فرغت قبل فترة من كتاب (أنا والكتب) للدكتور طريف الخالدي، وكان أول لقاءٍ جمعني مع المؤلف كان مع كتابه (الإنجيل برواية المسلمين) التي نشرت سلسلةَ مقالات أشرفَ عليها إدوارد سعيد ثم نُشرت في كتاب لاحقًا، وعند قراءتي لمقدمة هذا الكتاب أزعجتني بعض العبارات جدًا ولا أذكر فحواها الأن وهل كنت مصيبًا أو لا.

والدكتور طريف الخالدي لا بأس أن تقرأ له في منهاجية البحث في التاريخ الإسلامي، فهذا تخصصه، ولكن أن تقرأ له في الإسلام نفسه، فهنا سوف ترىٰ تخبطًا، علىٰ غِرار صنيع المؤرخ الكبير حسين مؤنس، فهو مؤرخٌ مختص في التاريخ الإسلامي ولكن يستحسن أن تَفْصِلَ بين سرده وترجيحاته في التاريخ الإسلامي وآراءه في الدين؛ سوف تتيقن من هذا عندما ترىٰ سبب امتداحه لكتاب معروف الرصافي حول السيرة النبوية.

كتاب (أنا والكتب) هو سيرة ذاتية مرتبطة بالكتب أو النشاة العلمية ومشاريع الأبحاث علىٰ شكل سيرة أو قصة تقريبًا فيها شبه من (رحلتي الفكرية) لعبد الوهاب المسيري، ولكن لا أظن أن

الخالدي قد حاول أن يُقلّد المسيري بل ذكر في مقدمة كتابه أن هذا الكتاب كان تأثرًا بكتاب الأكاديمي البريطاني جون كاري (البرفسور غير المتوقع: سيرة في أكسفورد).

وهذه الكتب عمومًا ترفع الهمّة، فلذلك أنا لا أقرأها إلا اذا وَجدتُ فتورًا لديّ، ومزية هذه الكتب أنها تعطيك تصورات عن كتب أخرىٰ أو تعريفات لها، وهذا قد يُجرَّك لاقتنائها علىٰ غِرار القاعدة التي ذكرها الشيخ عمر بن محمود: «القراءة تولّد القراءة»، بمعنىٰ أن بعض الكتب تتكلم عن كتب أخرىٰ وتعرض لك محتواها وتبرز مدىٰ أهميتها، فهذه القراءة الأولية سوف تجرّك للبحث أو اقتناء هذه الكتب التي تكلّمت عنها؛ فمثلًا لو لا كلام طريف الخالدي عن كتاب (مغامرة الإسلام) لمارشال هودجسون والذي صَدر مترجمًا مؤخرًا لما اهتممت بهذا الصدور ولا سعيت لحيازة الكتاب.

بدأ الخالدي كتابه بالكلام عن قصته الأولىٰ مع الكتب في القدس، وأثر الأهل ومكتبة الأهل والمدرسة عليه لكي يَسلك هذا الطريق العلمي الشاق، ومما ذكره ويُستفاد منه:

- أن بعض التخصصات التي يَنتهي إليها الباحث في نهاية عمره قد تكون اختارها في بداية عمره بشكل عَفوي، فمثلاً يَحكي لنا الخالدي سبب اختياره التركيز علىٰ تخصص التاريخ فيقول: «**مدرستي الاولى كانت مدرسة الأُمّة ورئيسها المربي الفلسطيني الكبير شكري حرامي الذي كانت نظرةٌ واحدة منه تكفي لإسكات أعلى الصفوف ضجيجًا. كان يعلِّمنا التاريخ ولربما كنت حينها أسعى جاهدًا لنيل رضاه فأصبح التاريخ ومن ذلك الزمن السحيق مادتي المفضلة**»[٢٠٣]، فالدكتور الخادي الذي غدا مختصًا بالتاريخ أصبح كذلك لأنه عندما كان طفلًا كان يحاول دائمًا أن ينال إعجاب أستاذه في مادة التاريخ، فأصبحت هذه المحاولات مدخلًا لحب هذه المادة! فذهب الاستاذ وبقيَ الحب باقيًا.

---

[٢٠٣] طريف الخالدي، أنا والكتب، منشورات الجمل، الطبعة الأولىٰ: ٢٠١٨، (ص١٣).

ومما يُستفاد منه أيضًا أهمية أن يكون لدى الأسرة ميول واهتمام ثقافي، فهي قد تشجع وتحثّ أبنائها على العَلم، وتَرصد تعثراتهم وتتدخل وتحاول أن تصلح، وهذا ما حصل مع الدكتور طريف الخالدي وأسرته، فكان والدة شخص مثقف وله صلة وعلاقات وصداقة مع مؤلفين أمثال خليل السكاكيني وكامل الكيلاني وغيرهم بل كان مُساهمًا مع السكاكيني في صياغة نظرية جديدة في تعليم القراءة تقتضي بأن الطفل يبدأ بتعلم الكلمات كاملة وليس بحرف الهجاء! ووالدته كانت مترجمة وترجمت (الإياذة والأوذيسة)، وكان أخيه محبًا وحافظًا للعديد من الأبيات الشعرية، فنشأ في جو ثقافي يُقدّس من قيمة العلم وزادت هذا الأمر مع النزوح من القدس بعد النكبة فيقول: «**أصبح العلم والتعلم أمرًا في غاية الأهمية فتقلصت مساحة الطفولة وحريتها**»[٢٠٤]، وكان أثر ذلك أنه لمّا ترك قراءة الروايات وهو صغير واتجه الى الكوميكس (وهي القصصة المصورة) تدخل الأهل لمحاولة تصحيح المسار والارتقاء بأبنهم فيقول الخالدي: «**وسرعان ما تَدَخّل الأهل: ماذا أرسين لوبين؟ وما هذه الكوميكس؟ وماذا سيحلّ به اذا استمر على هذا المنوال المتدهور؟ تدخل عندئذ أخي أسامة رحمه الله الذي قرر أن الدواء الناجع لإنقاذي من الانحطاط يكمن في التحول إلى الشعر العربي القديم**»[٢٠٥]، ثم أَعقَبوه بخيار آخر وهو ابتعاثه للدراسة في مدراسة داخلية بانجلترا وكما يقول الخالدي: «**ولعل قرارهم هذا جاء من شعورهم بأن عملية إنقاذي لم تكن قد اكتملت والله أعلم**»[٢٠٦]، فعجيبة همّة هؤلاء الأهل في تتبع ابنهم ثقافيًا وماذا يقرأ وما هي اهتمامته وتُقوّم ذلك والتدخّل حينما رأو نقاوس الخطر قد دق، هذا الأمر بِتْنَا لا نراهُ كثيرًا، وربط الطفل بالكتاب والثقافة والعلم يكون بعدة طرق من بينها:

---

[٢٠٤] أنا والكتب، (صـ١٥).

[٢٠٥] أنا والكتب، (صـ١٦-١٧).

[٢٠٦] أنا والكتب، (صـ١٩).

- حتىٰ لو لم يكن والداه وأسرته توّجهه في القراءة فَيكفي أن يوفروا له مكتبة، فقد تكون هي المحفز لإنشاء علاقة بين الطرفين، بين الكتاب والقارئ، وهذ تجد في أكثر من سيرة، فمثلاً الدكتور محمد موسىٰ الشريف يقول: «**ولا أجد سببًا سوى أنني جُذبت إلى القراءة لتوافر شيء من مدتها في بيت العائلة لسبب أو لآخر، وهذا يبرهن على أهمية وجود مكتبة في البيت مهما صغرت أو قل عدد كتبها**»، مع أنه ذكر أن والديه لم يَتَدَخّلَا في توجهيه في القراءة، فيقول: «**وقد جرى كل ذلك بدون توجيه من الوالدين تقريبًا، فالوالدة حفظها الله تعالى كانت مُدرّسة وربّة منزل فاجتمع لها من الأعمال ما ملأ وقتها كله ... والوالد رحمه الله تعالى لم يكن ممن يشجع على القراءة ويوجه على أنه كان قارئًا نهمًا لما يحب قراءته فنشأ من هذا أني لم أجد من يوجهني**»[٢٠٧].

وقصة الدكتور محمد الشريف مقاربة لقصة المعتقل السابق في سجن تزممارت الرهيب عزيز بنبين الذي كان يُكثر من انتقاد والده في كتاب (العتمة الباهرة) لتملصه من مسؤولية الإنفاق عليهم أو تربيتهم وإلقاء عبء التربية وتوفير كافة المتطلبات الأسرية علىٰ والدته، فيقول: «**كان أبي يمتلك مكتبة كبيرة، قسم منها لا يُستهان به، مخصص للمخطوطات العربية التي كان يهوى جمعها، أما القسم الآخر فمكرَّس لمؤلفات باللغتين الفرنسية والانجليزية، حتى لو لم يقرأها كلَّها، فقد كان يهوى شراء الكتب وصفَّها على الرفوف، ويعمل على تجليدها وتصنيفها بحسب الموضوعات. لطالما تأففت أمي مما يفعل لأنها كانت لا تملك مالًا لشراء كتبنا المدرسية فيما يقضي أبي معظم أوقاته لدى الكتبيين بحثًا عن مخطوطة تكلفه مبلغًا طائلًا. غير أنَّ نشأتنا بين الكتب لم تكن قليلة الأثر على تربيتنا. فإخوتي وأخواتي جميعاً يعشقون الكتب ويعشقون القراءة**»[٢٠٨].

- ومما قد يَستفيدهُ الأهل في تنشئة أولادهم ثقافيًا وعلميًا هو عدم الانصياع لهم إن أظهروا بعض التمنّع في بداية الأمر، فكل طفل يحب أن يلعب ويلهو أكثر من أن يحب أن يدرس ويحفظ، فمن

[٢٠٧] محمد موسىٰ الشريف، رحلتي مع القراءة، مركز إبصار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ: ٢٠١٧، (صـ١٢).

[٢٠٨] الطاهر بنجلّون، تلك العتمة الباهرة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية: ٢٠١٧، (صـ٩٧).

الطبيعي أن يظهر بعض التمرد وعدم الانصياع والكره للدراسة والتثقف، ولكن مع الوقت وإصرار الوالدين قد يَخضع ويحب ما يَكره، وهذا ما حصل مع الشيخ الشعراوي، الذي حاول أن يُتلف عينيه حتىٰ لا يدخل الأزهر وحاول أن يرسب في امتحان تسميع القرآن أيضًا حتىٰ لا يدخل الأزهر، ولمّا دخل حاول أن يشتري كتب كثيرة لغير السنة الدراسية التي هو فيها، ولكن لمّا وجد أن أباه مصراً وثابتاً علىٰ موثقه قال: «**من يومها أصبحت طالب علم فعلًا، وتوقفت تمامًا عن حكايات الكتب، والغرفة التي سرقت، وما إلى ذلك من التصرفات الصبيانية**»[٢٠٩].

- وأحيانًا لا يكون للطفل مكتبةٌ في المنزل وربما لا يكون والديه مثقفين فيوجهانه، وتلعب المدرسة دورًا بديلًا في تحبيب الطالب للعلم والقراءة، ويقع هذا غالبًا علىٰ عاتق الأستاذ، يحكي عمر بن محمود في سيرته طرفًا من ذلك فيقول: «**وإذا كان كاتب هذه الكلمات يشعر أن أهم رافد نمّى لديه حب الحرف والكتاب واللغة فهو ذلك الأستاذ الذي وقف أمامه في الصف الرابع الابتدائي، طويلًا، عريض الجسم، درسه متعة جميلة لهذا الطالب الصغير**»[٢١٠].

ويَحكي كيفية التفاعل بين الأستاذ وتلميذه في تحبب العلم، وهو تقصي التلميذ لحكاوي الأستاذ ومفاجأة الأستاذ بها الذي يَحتفي بالتلميذ احتفاءً باذخًا، فيقول عن أستاذه أنه كان يحاول أن يُعالج إشكالية الموجودة لدىٰ الطلاب القرويين في نطق القاف الذي يُنطق في كلامهم بالكاف فيقولون (كنبلة) بدلًا من (قنبلة). فذهب عمر بن محمود باحثًا في دواوين الشعر ووقع قَدراً علىٰ بيت حافظ إبراهيم:

يُرغي ويُزبِدُ بالقافاتِ تَحسَبُها قَصفَ المدافِعِ في أُفْقِ البَساتِينِ

[٢٠٩] الراوي هو الشعراوي: مذكرات إمام الدعاة، تحرير: محمد زيد، دار الشروق، الطبعة الثالثة: ١٩٩٨، (صـ٤٧).

[٢١٠] عمر بن محمود، فن القراءة، دار الكتاب العالمي، الطبعة الأولىٰ: ٢٠١٨، (صـ٦٠).

ففاجأه الأستاذ به، فما كان من الأستاذ إلا أن يقف «**راميًا ببصره الحنون، باسمًا بسمة الحب الأبوي، وفتح باب الفَصل وغاب دقائق ثم عاد وإذا معه مدير المدرسة مع مجموعة من المعلمين يدخلون الصف ويطلب من الطالب إعادة البيت، وهكذا فعل الطالب، وهكذا بدأت رحلة الكتاب الأولى مع (ديوان حافظ) لطالب غر صغير يحاول صعود حائط طويل أملس لوحده**»[٢١١].

ولمّا تكلم الأستاذ عن بيت شعر ونَسبه لحافظ إبراهيم ثم أكتشف التلميذ أثناء قراءته لكتاب (الشوقيات) أنه لشوقي أخبر الأستاذ بخطأهُ لم يُعنفه بل كان موقف الأستاذ أنه «**بَشَّ له المعلم وربّت على كتفه، وهكذا انطلق الطالب نحو خزانة الكتب في المدرسة متعرّفًا عليها**»[٢١٢].

ومن هذه القصة تَعلَم أهمية دور المعلم وأثره على التلميذ في تحبيبه للقراءة، فلو وجد التلميذ تشجيعًا من الأستاذ فإن هذا يكون دافعٌ له للاستمرار.

ومن الغريب أن هذه الأساليب تجدها كلها طُبقت مع الأديب علي الطنطاوي كما حكى هو في المجلد الاول من ذكرياته، فقد أُجبر على أخذ دروس خصوصية وهو غير راغب، ولعبت مكتبة والدة في منزلهم دورها في تقريبه للعلم، وكذلك كان دور المعلم الموَّجه.

والأمر لا يَنحصر على ما ذُكر هنا، فقد تكون هناك أسباب وعوامل أخرى، ولكن مَن أراد أن يبحث هذا الأمر بشكلٍ مُستقلٍ، فعليه بتتبع المذكرات والسير الذاتية للقراء من مشايخ ومفكرين ومثقفين، فلا بُدّ أن يذكروا في مقدمتها سبب حبهم للقراءة، إذ أن هذه العلاقة عادةً ما تَنشأ معهم منذ الصغر ولا تطرأ عليهم في أوقات متأخرة.

وأما أنا فقد لعبت والدتي دورًا حيويًا في تحبيبي للقراءة، ولكن لم أكن على نسقِ أغلب مَن قرأت لهم، من قراءتهم للكتب الجادّة أو الأدبية، بل كانت عبر مجلات خاصة للأطفال، مثل مجلتيّ ماجد

[٢١١] فن القراءة، (صـ٦١).

[٢١٢] فن القراءة، (صـ٦٢).

وسِنان، فكانت تشتريهما لي، وكنت أجد فيهما السلوىٰ والمتعة، فهي قصص متناسبة مع عمري آنذاك، فضلًا عن ممارسة بعض هذه المجلات أسلوب التشويق، فتضع قصة من جزء واحد ثم تقول أن تكملتها في العدد القادم، فتجلس منتظراً صدور العدد الجديد علىٰ أحرّ من الجمر، فهناك قصص طفولية أخذت طابع بوليسي أو جنائي، مثل قصة (الصقر الأبيض) في مجلة ماجد، والتي تتكلم عن قصة النقيب خلفان والمساعد فهمان في حل الغموض الذي يحيط ببعض الجرائم، ولمّا رأت والدتي أني وقعت في شبكة القراءة رفعت يدها، فأصبحت أنا مَن أشتريها بمصروفي الخاص، فأجمع مصروف يومين وأحرم نفسي شراء الحلويات لأجل المجلة، ولمّا كَبِرْتُ وصرتُ مراهقًا لم أدخل في السكّة المطلوبة بقراءة الكتب النافعة، بل استثمرت حبي الطفولي للقراءة بقراءة مجلات الرياضة، مثل مجلة (سوبر) التي كانت تصدر كل أربعاء وتوجد في أسواقنا يوم الجمعة، فكنتُ أشتريها بعد خروجي من صلاة الجمعة، وكنت إذ ذاك أقرأها أكثر من مرة علىٰ امتداد أسبوع حتىٰ يصدر العدد الجديد، وأظن أني كوّمت جبال من هذه المجلة التي فقدتها أثناء انتقالنا إلىٰ مسكننا الجديد، ولكن لم أتجه إلىٰ القراءة النافعة إلا بعد أن عرفت طريق المسجد[٢١٣]، وأحسب أن حبي للقراءة منذ الصغر ساعدني علىٰ استكمال مشوارها وأنا كبير. ومن هنا تعرف أهمية تحبيب الصغير للقراءة وكيف يمكن أن تؤثّر عليه في بقية حياته عبر العديد من هذه القصص والنماذج.

وعوداً إلىٰ كتاب الخالدي، فإذا أردنا الكلام بشكل موجز ومختصر عن فصول الكتاب، فقد حكىٰ تفاصيل دراسته في المدرسة الداخلية في انجلترا، فيحكي لنا مثلًا قصة تعلمه اللغة اللاتينية

[٢١٣] أول ما أنشئت مكتبة خاصة بي، كانت الكتب الموجودة فيها: (البداية والنهاية) لابن كثير، و(الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة) من تأليف الندوة العالمية للشباب الإسلامي، و(رسائل الرسول ﷺ) لفالح حنظل، و(اليهود: الموسوعة المصورة)، و(الإمام أحمد بن حنبل: السيرة المصورة)، و(فلسطين التاريخ المصور) و(الأندلس التاريخ المصور) وكل هذه الكتب المصورة للدكتور طارق سويدان، وكذلك (أطلس الخليفة أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي الله عنهما) لسامي المغلوث، وكذلك (أطلس السيرة النبوية) لشوقي أبو خليل، و(الثورة الفرنسية) لحسن جلال، و(مؤامرات الدويلات الطائفية) للشيخ محمد بن سرور زين العابدين، و(فيدل كاسترو) لإبراهيم جلال، و(كفاحي) لأدولف هتلر، و(أسامة بن لادن: واحد من مليار) لعماد نداف، و(موسوعة الصلاة) لحمد الذوادي، و(قاموس المترادفات وأضدادها) لجرجس جرجس وجوزيف شهدا، فكانت هذه الكتب هي الأصل وهي القاعدة التي بنيت عليها مكتبتي.

واليونانية في المدرسة باعتبارهما مدخلًا للتراث الأوروبي، وتستفيد من هذه القصة أن ضبطك لنحو لغتك قد يساعدك على تعلم بعض اللغات، فيقول الخالدي: «**ولم يكن تعلم اللاتينية أمر صعبًا خصوصًا لإلمامي بالصرف والنحو ساعدني على فهم أصول الصرف والنحو اللاتيني؛ فالمرفوع والمنصوب والمجرور تجده في اللاتينية كما علم العروض اللاتينية يشبه في الكثير من نواحيه ما يقابله في العربية**»[٢١٤].

ثم يحكي نوعية الكتب التي كانوا يدرسونها في تلك المدرسة، ومدى أهميتها وعن ماذا كان تركيزهم منصبًا، ثم يحكي لنا قصة تخصصه في جامعة أكسفورد وعن ميوله ومشروعاته البحثية، إلى تخرجه وتوظفه في الجامعة الأمريكية في بيروت، فيقصّ لنا عن منهاجية التدريس ثم يستطرد الخالدي في عرض بعض مضامين الكتب الكلاسيكية التي كانت تقرأ على الطلبة في الجامعة مثل (الإلياذة) و(جحيم دانتي) و(تاريخ الحرب البلبونيسية) و(الأمير) لميكافيلي وأطروحات بعض الفلاسفة والمفكرين مثل أفلاطون وسقراط ودي موتين.

فأنت سوف تمر على تقويم الخالدي لهذه الأطروحات ورؤيته لبعض مضامينها من نقدٍ وتصويبٍ وإطراء أو حتى بعرضٍ مجرّدٍ لها.

ثم ذكر قصة حصول على الدكتوراه في جامعة شيكاغو، وقصص تأليفه لبعض الكتب ومشاريعه البحثية.

وهذه السيرة لا تخلو من فائدة سواء اتفقنا مع صاحبنا في أمور أو اختلفنا معه، فما مما يُستفاد:

- أنه أحيانًا لا بُدّ من استغلال فترة الدراسة العليا في جرد الكتب التي لم تستطع أن تجردها قبل ذلك، وهذا الأمر قد يكون أسهل من القراءة خارج هذا الإطار، فالشخص الملتزم ببرنامج وبوقت

---

[٢١٤] أنا والكتب، (صـ٢٠).

محدد يكون جادًا في القراءة يَدفعهُ الحافز للاستمرار والانتهاء، بخلاف من ليس لديه دافع ولا وقت محدد، بل هذا أدعىٰ الىٰ التسيُّب وعدم الانضباط والذي يفضي بالضرورة الىٰ عدم الإنجاز.

- أن الشخص لا بُدّ أن يعلم حدود نفسه، وأن ضبط الفن الواحد قد يحتاج إلىٰ تمضية عمرٍ كامل، فمن الاستحالة أن يختصّ شخص في فنون متعددة، ولكن لا يوجد تلازم بين الاطّلاع وأخذ المعرفة الضرورية وبين ضبط الفن، والأجدىٰ أن يختار الشخص علمًا يميل إليه ثم يطّلع علىٰ بقية العلوم بما لها صلة مباشرة أو غير مباشرة يحتاجها في علمه الأم، مثل ما صنع طريف الخالدي الذي رأىٰ في تخصصه للتاريخ صلةً ببقية العلوم مثل الجغرافيا وبعض العلوم الطبيعية والمعتقدات، فمثلاً تراه يَدرس أثر الجانب العَقَديّ في صياغة النص التاريخي؛ فالرواية التاريخية وفق منهج الحديث تختلف مثلًا عن الرواية التاريخية وفق المنهج الكلامي من حيث العرض، وأحياناً يتداخل العلمين مع بعضهما البعض في تحرير مسألةٍ ما مثل: المعجزات، وهو موضوع تجده في السير والمغازي وتجده مبحوثًا كذلك في باب العقائد، فاطّلاع الخالدي علىٰ النقاش العَقَديّ حول هذه المسألة ومحاولة الإلمام بها لا يصيرهُ مختصًا بباب العقيدة وإنما يمتنّ إلمامه بتخصصه الأم وهو التاريخ.

رغم بداهية هذا الأمر؛ إلا أن البعض يَصعب عليه فهم هذا، فيظن أن قراءتك في أكثر من تخصص أو أكثر من باب يعني الادعاء أنك مختصًا من كل فن، وأنت ترىٰ هذا الانموذج أمامك يقول: لا تلازم! بل هذه القراءة الجمعية تُكوِّن فكرةً عامة في المقام الأول ثم تُردف تخصصك الأم بما يَلزم من بقية العلوم.

هذه نقاط كتبتها علىٰ عجالة للكلام عن كتاب (أنا والكتب) للدكتور طريف الخالدي؛ وإلا الكتاب فيه مواضيع أكثر ويستحق وقفات أطول، هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٤ فبراير ٢٠٢١م – ٢٢ جمادىٰ الأخرىٰ ١٤٤٢هـ

معالم تاريخ المغرب والأندلس

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: معالم تاريخ المغرب والأندلس.**
- **اسم المؤلف: حسين مؤنس.**
- **عدد الصفحات: ٤٠٠.**
- **دار النشر: دار طابع المستقبل.**

التعليق والمناقشة:

حسين مؤنس هو المؤرخ المصري المشهور، واختصّ -تقريبًا- بتاريخ الأندلس، وله كتب متعددة في نفس الموضوع مثل (فجر الأندلس) و(رحلة الأندلس: الفردوس المفقود) وهي زيارة قام بها الىٰ الأندلس ودَوَّنَها في هذا الكتاب، وكتاب (شيوخ العصر في الأندلس)، وكتابه المختصر عن المغرب والأندلس يقابله كتاب موسوعي عن الأندلس في ثلاث مجلدات، لذلك القارئ في الخيار، فمن أراد التوسع فعليه بالكتاب الموسوعي ومن أراد الوقوف علىٰ المختصرات فعليه بهذا الكتاب.

وله غيرها من الكتب التاريخية أو الأدبية من تحقيق أو ترجمة.

ولكن الشاهد أن اهتمامه بعَدْوَتَيّ الأندلس والمغرب لم يكن اهتمامًا طارئًا تكوَّن فيما بعد، بعد كان معه منذ الجذور الدراسية، فمثلاً كانت رسالة الماجستير (فتح العرب للمغرب)، فيبدو أنه من البداية كان محدد مسار اهتمامه الذي تخصص فيه فيما بعد.

وقد رأيت أن البعض يضيق من معنىٰ المؤرخ ويَقتصر علىٰ من كان شاهدٍ علىٰ عصر ودون شهادته في عصره أو جمع الأخبار في عصره لتوثيق فترة زمنية معينة مثل كتاب (الانتفاضة السورية من الألف إلىٰ الياء) لمنىٰ مطر، فهذه جمعت الأخبار عن الثورة السورية قبل تحولها ثورةً مسلحةً من

مواقف قيادات وتطورات ميدانية، ربما هي لم ترها رأيَ العين ولكن جمعتها من المصادر الرسمية وأرّختها في الكتاب.

فالبعض لا يقنع بمسمى المؤرخ إلا على مَن كان بهذا الشكل، ولكن الوصفَ/ المسمى أوسع من ذلك، فمن اختص بالتاريخ وألَّفَ كتبًا في التاريخ يُدَوّن فيها بعض الوقائع ويجتهد غاية الاجتهاد في تدوينها بالشكل الصحيح بعد غربلة صحيحها من سقيمها فهو مؤرخ.

زد إلى ذلك أن حسين مؤنس توسع في علم التاريخ، من مجرد سرد وترجيح وقائع إلى كتابة في فلسفة التاريخ وأدواته، وله كتب من هذا القبيل مثل (التاريخ والمؤرخون) وكتاب (تنقية أصول التاريخ الإسلامي).

وقد يؤخَذ على حسين مؤنس أنه وإن كان اختص بالتاريخ الإسلامي في الأندلس والمغرب، ولكن في نفس الوقت هو لم يكن مختصاً بالعلوم الشرعية، فعندما يأتي الى تحرير موقف الإسلام فقد يخطئ ويسيء، لذلك كان تحت طائلة نقد بعض المشايخ كالشيخ حسن أيوب رحمه الله كما أخبرني بذلك الشيخ حسن الكتاني.

وهذا خطأ يقع فيه الكثير في الدخول بالعلوم الانسانية والطبيعية دون قاعدة شرعية راسخة، فيُعمل العقل في التقويم وإن كان هذا التقويم مضاداً لنصوص الشرع من وجهةٍ من الوجوه، وقد تكلم في ذلك الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (حصوننا مهددة من الداخل)، لمَّا ذكر أن الدراسات الإسلامية تكون قبل الإلمام الأولي بعلوم الآلة.

ومن نافلة القول أن حسين مؤنس لم يكتب سيرته الذاتية مثل بعض المحققين المقاربين له في مجال تخصصه كالدكتور إحسان عباس الذي كتب سيرة ذاتية بعنوان (غربة الراعي)، ولكن ابنته منى كتبت أطرافاً من السيرة بعنوان (في بيت حسين مؤنس)، وهذا يُذكرك بعنوان كتاب (في بيت أحمد أمين) الذي كتبه ابنه حسين، فأحياناً حتى لو الشخص يكتب سيرته الذاتية مثل أحمد أمين، إلا أن

أبنائه يرون أن هناك ثمة جوانب لم يتطرق إليها أبيهم ولم يُدَوّنها فيزيدون عليها بكتابة مذكرات أو سير ذاتية تتعلق بأبيهم، بل أحيانًا حتى في مذكراتهم الشخصية يكشفون جوانب عن أبيهم لم يتطرق إليها، مثل ما صنع الابن الآخر وهو جلال أحمد أمين الاقتصادي المصري المعروف وهو أيضًا ابن أحمد أمين هذا، وله سير ذاتية صَدَّرها في عدة كتب من بينها (هكذا علمتني الحياة) و(رحيق العمر)، فقد ذكر أن والده لم تكن له صلة بالدين قوية لا في نفسه ولا في بيته ولا تصوراته ولا في كل مراحل عمره، وقد يتفاجئ البعض –مثل محمد موسى الشريف- كما ذكر ذلك في كتابه (رحلتي مع القراءة) من هذا كيف يمكن أن يحصل وقد كتب أحمد أمين كتبه المشهورة فجر (الإسلام) وضحى (الإسلام) وظهر (الإسلام)!

فالشاهد أن بعض المذكرات قد تجلي وتكشف ما قد خفيَ أو لم تذكُرُهُ الشخصية عن نفسها! وهذا قد يسبب نوع من الصدمة، وإن كان أغلب الأبناء لا يكونوا موضوعين في مسألة النقل فينقلون الحسن ويطمسون السيء، ولعل جلال أمين لم يرَ في ما نقله عن أبيه أي بأس لأنه هو أيضًا لا صلة له بالدين الا الرسوم والأسماء. وأحيانًا يكون الأبناء على خلاف الوضع المعتاد؛ فيذكرون المثالب وقد يذكرون المحاسن على استحياء كصينع عمر بن لادن في كتاب (إنه بن لادن) لجين سوسن.

يحتاج الشخص أن يرفع عن نفسه الأمية في قراءته لقطر من أقطار المسلمين، فيحتاج أن يقرأ كتابًا بسيطًا من الكتب التي تصنّف تحت مسمّى «المدخل» الذي يعطيك خلفية تاريخية دون تعمق، فكان هذا الكتاب، وقد قرأته في طبعته الأولى التي ملئت بالأخطاء المطبعية حتى في آي القرآن! وقد اشتريته من سوق الكتبة المستعملة، ولم يألُ صاحب الكتاب السابق جهداً في تصحيح ما بدى له من أخطاء.

وحسين مؤنس في هذا الكتاب يعطيك خلفية عن إقليمين متداخلين تاريخيًا، المغرب والأندلس، تقاطع أقرته التغيرات السياسة، فأحيانًا يكون حاكم الأقليمين واحد، فيكون الأندلس تابعًا للمغرب أو أجزاء من المغرب تابعة للأندلس. وهكذا.

وقد استطاع حسين مؤنس في نظري أن يُبرهن بما يجب عليه أن يكون المؤرخ أو المختص في التاريخ.

فهذا العلم يحتاج أولًا مَن يستطيع أن يدرس اللغات ويجيدها، تاريخ الأندلس تاريخ مشترك بين المسلمين والنصارىٰ، والمراجع في ذات التاريخ مشتركة، وقد استطاع حسين مؤنس أن يدرس المراجع الإسبانية في تاريخ الأندلس، كالكتب الرئيسة وغيرها، واستطاع بذلك سد فجوة من فجوات التاريخ من خلال إعمال المقاربة بين الروايات.

وهذا يحتاجه تقريبًا كل شخص، فتاريخ منطقتنا الذي أُخضع للاحتلال الأجنبي، جعل الكثير من التفاصيل لم تدوّن إلا من خلاله، ولم يُترجم منه كله، وأحيانًا تكون الترجمة غير دقيقة، فهذه الأمور وغيرها من العوامل تؤدي الىٰ اعتماد الشخص علىٰ نفسه وتعلّم اللغات، للحصول علىٰ معلومات ومعرفة أكبر.

واستطاع حسين مؤنس كذلك أن يَلم إلمام قوي بجغرافيا الأندلس، وهذا أمر يلزم المؤرخ أو المهتم بالتاريخ، في معرفة جغرافيا المناطق وأهميتها في سير المعارك، تخيل لو أن هنالك مؤرخ لا يعرف الاتجاهات ولا يعرف كيف يصف ولا يعرف المناطق وأهميتها وما تمتاز وكيف تؤثر سلبًا أو إيجابًا فكيف راح تكون مادته التاريخية؟!

واستطاع حسين مؤنس أيضًا أن يُثري المادة بالترجيح والتحليل، أي لم يكن طرحه طرحًا سرديًا مجرَّدًا، بل كان يرجح ويخطّئ ويقارب ويصوّب، وترىٰ هذا واضحًا في الكثير من كتابه ولعل أبرز المواضع هو كلامه ابن تومرت.

ويستطيع الشخص الذي يعتمد هذا الأسلوب أن يستنطق النص، فمثلاً بعض القرائن والأحوال تدل على أمورٍ معينة لم يذكرها المؤلف نفسه.

مثلاً: شخص معدد متزوج ٣ أو ٤ زوجات في بيئة فقيرة جدًا يعيش أهلها أوضاع صعبة وبالكاد أحدهم يستطيع الزواج، فضلًا أن يُعدد، هذه الحال ينبئك بلا شك أن هذا الرجل المعدد غني ومقتدراً مالياً رغم أن المؤلف لم يذكر هذه المعلومة عنه، ولكن المحلل هو من يستطيع أن يستنطق النص فيما لم ينطق به أبداً، وهذه حالة سهلة وبسيطة ضربتها للمثال.

وأيضًا مما يهم المؤرخ هو قدرته على التعامل مع المخطوطات، فالكثير من المخطوطات لم تحقق ولا زالت مخطوطة، فالمؤرخ الذي يعتمد على المطبوع منها، سوف يقف عند حد معين من المعلومات، وهذا القدرة في التعامل راح يجعلك لا تقف عند رحمة المحققين. ولو تلاحظ مراجع بحثه سوف تجد العديد من المخطوطات التي أستدل بها ولم تحقق وتطبع إلى الآن!

كان أسلوب حسين مؤنس هو تلخيص المراجع في مادة هي أشبه بالمدخل، يستطيع الشخص أن يَلج من خلالها إلى ما بعدها من الكتب التخصصية، أو المراجع الرئيسية. وقد وضع في خاتمة الكتاب مراجع كثيرة جدًا لمن راح التخصص، ووضع في المقدمة الببليوجرافية تعريف ببعض هذه المراجع ذكرًا أهمية بعض هذه المراجع ودورها وخصوصيتها في كتابة تاريخ الأندلس لمن أراد التوسع واختيار ما يناسبه منها.

عمومًا حسين مؤنس كتب كتابه (معالم تاريخ المغرب والأندلس) لطالب الجامعة في الابتداء، حتى يكون هناك ثمة كتاب يعطي خلاصة غير مختزلة ولا مطولة تجعلهم يقفون على المعالم الأسياسية والرئيسة من حوادث وشخصيات وتواريخ، وكان مهتمًا في نقل كافة المراجع حول هذا الموضوع في قائمة المراجع في خاتمة الكتاب؛ لأنه يراها مهمة للأساتذة والطلبة على حدٍ سواء لمن أراد التخصص والتوسع، ومن أراد أن تكون لديه خلفية رئيسة فالكتاب يَكفي ويُغني. وقد نصح أن الطالب إن

أراد التوسع لا بُدَّ أن يكون هنالك من يرشده ويوجّه وأن الدراسة لا تستقيم بغير توجيه من أستاذ أو معالم على قاعدة (من كان شيخه الكتاب فقد كثر خطؤه).

في هذه المناقشة لن أتكلم أو ألخص الأحداث التاريخية لكلى القطرين، لأن هذا يحتاج الى كتيب لوحده، ولكن سوف أتكلم عن بعض النقاط الجزئية؛ من بينها **كيف أصبح إقليم المغرب إقليم عربي**؟ فالمغرب تسكنه قبائل البربر، وهم على قسمين:

البربر البدو ويسمون بالبتر، يرى حسين مؤنس أن أصولهم قبائل جنوبية وتحديدًا من الجنوب الغربي من قلب القارة الأفريقية وأتوا عن طريق وادي النيل إلى شرق ليبيا الحالية أولًا ثم انتشروا غربًا الى بقية الدول المغاربية ويرى أن أصولهم من الجنس الأسمر واختلطوا مع السكان الأصليين والذين هم البربر الحضر، ورغم أن البدو ينقسمون الى أجذام وبطون كثيرة إلا أنه يطلق عليهم مسمًى عامًا أحيانًا وهو زناتة.

وأما الحضر فيسمون بالبرانس، ويرى حسين مؤنس أنهم هم أصل البربر وهذا بخلاف الوضع عند العرب، وهم يسكنون بصفة عامة في الشريط الساحلي وفي سفوح جبال الأطلس، بل إن حتى ملامحهم متقاربة مع ملامح سكان جزر البحر المتوسط فتجد أنه تنتشر بينهم الشُّقرة وبياض اللون وزرقة العيون. وهؤلاء وإن كثروا وتنوعوا إلا أنهم لا يطلق عليهم لفظ عام مثل البدو بل كل قبيلة لها اسمها الخاص ومنطقتها الخاصة، وهم الذين كان لهم الدور الأبرز في تاريخ المغرب السياسي.

فالسكان الأصلين هما من هذا النوع، أضف إليهم الروم أو البيزنطيين الذين كانوا محتلين أو مسيطرين على هذه المنطقة، وبعد الفتوحات الاسلامية بقت فلول منهم في المغرب وقد اندمجت مع السكان الأصليين واضف الى هؤلاء أيضاً اليهود الذين كانوا موجودين.

فلا يوجد أي وجودٍ عربي ذو بال قبل الفتوح الاسلامية، ولكن مع ذلك أصبحت اللغة العربية هي السائدة الآن، وأصبح يسمى هذا القطر بالمغرب الإسلامي.

وبعد الفتوحات استقر بعض العرب من أجل تعليم البربر الدين، وهؤلاء العرب هم البذرة الأولى لما راح يُعرف لاحقاً بـ(العرب البلديين)، ثم زاد هذا الوجود بعد إنشاء عقبة بن نافع لمدينة القيروان، التي اتّخذها العرب الفاتحون قاعدة للفتوح.

ثم بعد استقرار الأمر للوالي اللاحق موسى بن نصير وبعد أن وضع الأساس الادارية لكل ولايات المغرب، فوسع من هذا الوجود وأعطاه الصبغة القانونية، فوضع في كل عاصمة من كل هذه الولايات الخمس قاعدة عربية واستقرت جماعات من العرب فيها لتعليم أهل الناحية قواعد الإسلام فكان هذا باكورة انتشار العربية في تلك النواحي أدت هذه الهجرات الى اختلاط الشعبين وأدى الى خروج جيل بربري مسلم مستعرب، وأصبح البربر جنبًا جنب مع العرب في الجيش، فكل هذه العوامل أدت إلى تقوية من الوجود العربي في المغرب الإسلامي.

ولكن بعدها تعرض هذا الوجود إلى نكسات، من أبرزها ثورة البربر على الحكم الأموي في شمال أفريقيا، فكان بنو أمية كما هو معروف لا يولون إلا العرب في الغالب، ولديهم عصبة لبني جنسهم، وهذه العصبة قد تتحول إلى شيء من المحاباة والاستئار بالسلطة والثروة والخيرات، وهذا أدّى إلى نشوء ثورة قادها ميسرة الحقير أو الفقير، وخيضت معركة سميت بمعركة الأشراف لكثر من قتل فيها من أشراف وسادات العرب، وانهزم العرب، ثم زاد الطين بِلّةً حصول بعض الاضطرابات بين العرب أنفسهم، فالعرب القدامى الذين سكنوا في المغرب مع طلائح الفتح وسموا بالعرب البلديين ثاروا على دولة بني أمية في القيروان أيضاً، وأرسلت الدولة الأموية جيش من العرب الشاميين لإطفاء هذه الثورة ولكنها لم تفلح بل هزمت هذه القوات، ثم بعد ذلك انتهى عصر بني أمية تقريبًا، فمن الفتن الداخلية خلا الأمرين لطائفتين داخل المغرب وهما العرب البلديين والبربر، وتقاسموا السلطة، فرضي العرب بأفريقيا (تونس) وللبربر ما عدى ذلك.

المهم أن التداخل بين الجنسين جعل من الصعب الفصل بينهما في بعض الحالات، فمثلًا عندما تكلم حسين مؤنس عن قوة قبائل البربر البترية قال أنه تزعمها أُناس عرب دخلوا مع البربر أو بربر استعربوا وأصبحت أسمائهم عربية وأصبح من الصعب التمييز أو الفصل بينهم.

ثم مما زاد من الوجود العربي أيضًا، القوات الرسمية للخلافة التي كانت تُبعث لإخماد الثورات، من العرب الشاميين، فهؤلاء رغم انكسارهم إلا أن فلولهم عاشت في بعض مواطن المغرب العربي واستقرت فيه.

وحتىٰ مع زوال دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس كان لهذا الأمر أثرٌ في زيادة عدد العرب في المغرب، فأرسلت الدولة العباسية أولًا الأغلب التميمي وأتىٰ مع قومه بني تميم واستقروا في أفريقيا ولكثرة عددهم أصبحوا هم غالبية العرب فيها ولا زال البعض في تونس ينتسب الىٰ بني تميم هؤلاء، ثم بعثة المهلب بن أبي صفرة الذي صحب معاه قومه من الأزد، وفي فترة استقرار المهالبة في الحكم، يحكي حسين مؤنس هنا أن ما يسمون بالعرب البلديين اندرجوا في غمار الناس في أفريقيا (أي تونس) وأصبحوا من جملة أهل المغرب وسيكون لاندراجهم هذا أثر بعيد في تعريب البربر.

وكذلك دخول المذهب المالكي إلىٰ المغرب علىٰ أيدي تلاميذ الإمام مالك مثل عبد الله الفارسي وعبد الله بن غانم والبهلول بن راشد وأسد بن فرات مع العلم أن أسد بن فرات هذا استُشهد بالطاعون أثناء فتح صقلية، المهم أن ترسيخ مذهب الإمام مالك في المغرب ساهم في ترسيخ العربية، فأي شخص يريد يتفقه في المذهب لا بُدّ أن يلم بالعربية حتىٰ يقرأ النصوص ويضبط الفقه.

في فترة الدولة العبيدية التي تأسست في المغرب ثم انتقلت إلىٰ مصر وقد ولّت الولاة علىٰ أقاليم أفريقيا يدينونَ لها بالطاعة ولو كانت شكلية، ولكن استقلت القبيلة البربرية بني زيري وتسنن قائدها المعز بن باديس ودخل في طاعة الدولة العباسية؛ فقض ذلك مضجع الدولة العبيدية، التي كانت عاجزة عن اتخاذ إجراءٍ مباشر، فلاحت في ذهن الوزير العبيدي أبي محمد الحسن بن علي

اليازوري فكرة وهي ضرب الهلاليين (= بني هلال وبني سليم) الذين استجلبتهم دولة العبيدية من الجزيرة العربية وأسكنتهم صعيد مصر ولكن كثرت مشاكلهم هناك مع السكان الأصليين، فكانت الفكرة الرئيسة إذا تمكن هؤلاء الهلاليون بالقضاء علىٰ دولة بني زيري كان هذا خيرًا للعبيدين واذا قضت دولة بني زيري علىٰ الهلاليين فقد تخلصت الدولة العبيدية من مشكلة الهلاليين دون أن تخسر شيئًا. وأُعطي الضوء الأخضر فدخل هؤلاء بأعداد يقدر بعضها حول مائة ألف، ولكن عبر دفعات، ومن نافلة القول أن دخولهم المتقطّع وخوضهم بداية الأمر معارك مع البربر الزناتيين في إقليم طرابس جعل لأخبارهم صدىٰ يصل لابن عمومتهم في مصر الذي نظم أحدهم ما يعرف بالأدب بـ(الغزوة الهلالية) التي بطلها أبو زيد الهلالي، ولكن حسين مؤنس يقول أن هنالك فرق بين الحقائق علىٰ الأرض وقيل في هذا النظم.

ويرىٰ حسين مؤنس أن الهلاليين ذوي الأصول البدوية لا يعرفون قيمة وأهمية العمران فخلال معاركهم ساهموا في تدمير وتخريب وإفساد المدن التي عبروا خلالها، ولعل أكثر من تناول سيرتهم عند دخول شمال إفريقيا هو ابن خلدون في تاريخه، ولحسين مؤنس رأي شديد حول دخول بني هلال وما فعلوه بالعمران والناس، فيقول: «**وجعلت مع دخولهم البلاد نكبة كبيرة على تاريخها، بل يبلغ الأمر أننا في تأريخنا للمغرب نقول أن غزوة بني هلال تعتبر الخراب الأكبر للمغرب، فقد قضت على عمرانه وعلى جهود الدولة الماضية في بناء حضارته، فكان على أهله أن يعيدوا إنشاءها من جديد**»، ولكن يذكر الجانب الإيجابي في ظل هذه القتامة وهي أنهم قدموا خدمة كبرىٰ بالنسبة لعروبة المغرب فقد ساهمت جهودهم في إضعاف القبائل الزناتية البربرية، وقد انتشر الهلاليين في كل ناحية من المغرب وسكنوا السهول والجبال والسواحل وصاهروا الناس، ويقول حسين مؤنس: «**فتحولت بلاد الجريد في تونس وبلاد المغرب الأوسط –الجزائر حاليًا– الى بلاد عربية إسلامية خالصة تتكلم العربية وتحس بأنها جزء من العالم العربي، ولو لا الهلاليين لما صار المغرب عربيًا على الصورة التي نراها الآن**».

فالخلاصة التي نستخلصها من كيفية تحوَّل إقليم المغرب الىٰ إقليم عربي؛ ليس باستيطان طلائع الفتوحات وإلا لتحولت جميع الأقطار الإسلامية الىٰ عربية، وليس من خلال دخول المذاهب الفقهيه التي دخلت بلاد الأعاجم فلم تنفِ العجمة عنها، وليس بكون العربية لغة الدولة الرسمية، ربما تكون هذه عوامل مساعدة ولكن في الحالة المغربية يتضح أن الهجرات القبلية العربية الكبرىٰ ودخولهم بأعداد كبيرة وهزميتهم للبربر وربما إضعافهم من خلال المعارك، وانسحابهم في الإقليم واختلاطهم مع الناس كل الناس، جعل العوامل السابقة عوامل فعاله أدت الىٰ تعريب الإقليم.

***

وأما الأمر الثاني: فيلحظ في تاريخ الفتوحات أن **ما يعيق الفتوحات أو يؤخرها أو يلغي فرصة استثمارها هي الخلافات حول المُلك والجاه والسيطرة** وهي سمة عامة للأسف، فمثلاً موقعة سبيطلة الذي قُضي فيها تقريبًا علىٰ القوة البيزنطية في شمال أفريقيا، نجد أن عبد الله بن سعد بن أبي سراح لم يستثمر هذا الأنصار من أجل تثبيت الوجود العربي في شمال افريقيا، وكان هذا بسبب خلاف شديد حصل بينه وبين كبار أبناء الصحابة وأبرزهم عبد الله بن الزبير، فمن أجل ذلك وجد أن أفضل شيء يفعله أن يرجع إلىٰ مصر بعد هذا النصر دون أن يقيم حامية عربية أو يثبت الوجود أو السلطان العربي في تلك الناحية.

ثم توقفت الفتوحات تمامًا بعد فتنة عثمان رضي الله عن وما ترتب عليه من أحداث ولم تستأنف الفتوح إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية بن أبي سفيان.

ولمّا تقدم عقبة بن نافع وفعل الأفاعيل في المغرب الإسلامي وقبل أن يستمر ويكمل عمله تجده يعزل بتوصية من والي مصر الذي طمحت نفسه لأن يسيطر علىٰ الأقليم الذي جنبه وكان ذلك بعزل عقبة وتولية أحد أتباعه وهو أبي المهاجر بن دينار لكي يكون مسيطرًا. ولم يرجع عقبة بن نافع الىٰ منصبه إلا بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ويفقد والي مصر تأثيره علىٰ خليفته وهو يزيد!

وبعد استشهاد عقبة بن نافع أيضًا توقفت الفتوحات بعد النكسة التي حصلت للعرب من سيطرة البربر على القيروان واستشهاد قائدها، وتوقف الفتوح كان بسبب الخلافات التي حصلت في البيت الأموي من وفاة يزيد وتولي ابنه معاوية وصولًا إلى تولي مروان بن الحكم الحُكم وثورة عبد الله بن الزبير وبعد وفاة مروان تولي ابنه عبد الملك الذي انشغل باستعادة العراق من أنصار عبد الله بن الزبير ولم يستأنف أمر الفتوح إلا بعد استقرار الأمر لعبد الملك بن مروان.

ونجد أن الطمع يعود مجددًا منطلقًا من مصر الى المغرب، فبعد أن قام حسان الغساني بالقضاء على فتنة الكاهنة وقام بإنشاء نظام إداري من الصفر وحاول أن يثبت من الوجود العربي في المغرب بإنشاء ميناء تونس، وقطع دابر الروم بتدمير مدينة قرطاج، تجده بكل بساطة يعزل بين ليلة وضحاها، والسبب أن أخو الخلفية وهو عبد العزيز بن مروان والي مصر عندما رأى التطور والازدهار في المغرب وتحول هذا القطر الى قطر غني فُعزله وولي أحد رجاله وهو موسى بن نصير! الذي يرى حسين مؤنس وإن كانت نهاية جهود موسى بن نصير افضت الى اتمام فتح المغرب؛ إلا أنه ينتقدهُ جدًا في سياسته مع البربر التي أدت الى تشويه صورة الفاتحين.عمومًا لم تكن نهاية موسى بن نصير أفضل ممن سبقه.

بل كلاهما مات في الظل، أي الوالي السابق حسان الغساني الذي أقسم أن لا يتولي أي أمر بني أمية وكذلك موسى بن نصير بعد أن عزل وغرم فبعد أن عفى عنه الخلفية لم يسمع له أي أثر ومات في الظل.

وهذا الأمر سوف يكون سمة عامة في الأندلس لاحقًا، كيف أن الصراع على لعاعة الدنيا لا يوقف الفتوحات فحسب بل يجعل الشخص يتأمر مع العدو الصليبي على بني جلدته، والشواهد في عدوة الأندلس كثيرة، ولعل أبرزها فترة ما يسمى بدويلات الطوائف، فالدول الصغيرة المتصارع قادته على فتات الدنيا، وأن تنفى معه المبادئ لأجل الحكم؛ فهذا الأَوْلَى أن يُزال ففي عدم زواله زوالٌ

للمسلمين من أرضهم. بل رأينا أن أفضل فترات الأندلس عندما كانت تحت حكم شخص واحد، ومن خلال تجربة عبد الرحمن الأوسط تعلم أن الناس لا تحترم الشخص الضعيف بل تتجاسر عليه وتتحين الفرص للاستقلال، فلا بُدَّ من شخصية تفرض –لا أقول احترامها بل قوتها- على الجميع لينصاعوا له، وليظل هاجس السيف حاضرًا يخيف من تسوّل له نفسه.

وكما من خلال تجربة محمد بن أبي عامر لا بُدَّ أن تُقاس التجربة لا بأفعالها الآنية بل بمآلاتها، فابن أبي عامر شخص داهية استطاع أن يضرب لوبيات الحكم –إن صحّ التعبير- ببعض، فيحكم هو بنفسه في الأخير مستقلًا، أو مقوضًا دولة الخلافة، وكان هذا التقويض هو ما أدخل البلاد في فتن من بعده أوجدت ما يسمى بدويلات الطوائف التي أضعفت الوجود الإسلامي في الأندلس انتهاءً الى نهايتها تمامًا. وحسين مؤنس له رأي شديد جداً في محمد بن أبي عامر.

كما يلاحظ أن إشكالية التعاون مع العدو الصليبي لم تطرأ فجأة منذ عصر دويلات الطوائف، بل كان لها امتداد قديم، وهي أشبه بالامر المتداول، وعندما يَعمُّ البلاء في أمرٌ ما، يجب أن يُكثر الكلام عنه، ويوضح حكمه ويعاد ويزاد فيه، حتى يستوعب الناس حجم الضرر وخطر الصنيع، حتى لو كان الأمر متداولًا وتخشى أن يُفهم من كلامك لهذا الإيضاح أنك تقصد حاكم الإقليم الذي أنت تتواجد به.

***

سأضع الآن بعض الاقتباسات والتعليقات من الكتاب:

١- يحكي حسين مؤنس في كتابه (صـ٢٨٣) عن الفتنة التي حصلت في الأندلس في زمن عبد الرحمن الأوسط، فيقول:

«ظهرت في أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصب النصرانية، أثارها نفرٌ من الرهبان، إذ كانوا يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل، وأن دولتهُ لن تلبث حتى تزول، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشتد يوماً بعد يوم، وإماراته تزدهر، ومجمعته يزداد رخاءً وثباتاً، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللاتينية أو آدابها، بينما ينفقون جُهداً كبيراً في دراسة العربية ومطالعة آدابها بل برع الكثيرون منهم في كتابة العربية، وقد شكى ذلك قس متعصب يسمى "البارو" في رسالة مشهورة.. ».

ويقصد حسين مؤنس الرسالة التي أوردتها المستشرقة الألمانية الشهيرة زيغريد هونكه في كتابها (الله ليس كما يزعم الغرب)، واختلفت عنوانيه حسب ترجمة مترجمي الكتاب، والنسخة هذه التي بين يدي ترجمتها نوال حنبلي من الألمانية مباشرة، المهم أن هذا القس المذكور يقول في هذه الرسالة نصًا:

«يقرأ كثير من رفاقي في العقيدة أشعار العرب وحكاياتهم، ويدرسون كتابات رجال الدين والفلاسفة المسلمين ليس بهدف نقضها أو معارضتها ولكن من أجل أن يتعلموا التعبير بالعربية بأسلوب صحيح ورشيق! إن جميع الشبان المسيحيين الذين يلفتون الأنظار الى مواهبهم لا يعرفون سوى لغة العرب وأدبهم! إنهم يقرؤون الكتب العربية ويدرسونها بحماس شديد .... يا للألم! لقد نسي المسيحون لغتهم ولا يكاد المرء مسيحياً واحداً من بين ألف مسيحي يستطيع كتابة رسالة مقبولة باللاتينية. وفي المقابل يستطيع عدد لا يُحصى التعبير بالعربية بأرقى مستوى من الرشاقة!» [صـ٤٤].

هذه النماذج مع تغير ميزان القوىٰ قد انعكست، فأصبحت تنطبق علىٰ الكثير من العرب الآن في زماننا، فالبعض أصبح مولع بثقافة الغالب ويزدري ثقافته.

كما يجب التنبه الىٰ أن مَن حقق النهضة العلمية لأوروبا ليس أولئك النفر الذين انصهروا في الثقافة الغالبة وذابوا فيها، بل الذين دخلوا بلادنا ولبسوا لباسنا وتكلموا بلساننا ولكنهم في الوقت نفسه كان همهم رفعة أمتهم وأخذ العلوم المتطورة في بلادنا من أجل أن يستفيدوا منها في بلادهم، وهذا

فارق مؤثر بين الطرفين، وبهذه النفسية تتحقق النهضات، وأحيلك إلى كتاب (رسالة في الطريق الى ثقافتنا) لمحمود شاكر، وهي رسالة قصيرة الحجم عظيمة الفائدة، لتبصر موقع قدميك في هذا الصراع.

٢- إن الأرض لا يحوزها إلا الجدير بها، والجدير بالأرض هو الذي يستطيع الدفاع عن حوزتها وحمايتها من العدوان. (صـ٣٨٢، بتصرف يسير).

٣- ونشير هنا إلى حقيقة تجلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ وهي أن أكثر مما أذى الإسلام في الأندلس هو خلاف المسلمين بغضهم على بعض، فقد كان ذلك أشد وطأة عليهم من أي خطر آخر. (صـ ٣٨٧).

٤- ومن الغريب أن اقدام مسلمي عصور الانحطاط كان لا يظهر إلا اذا حاربوا أخوانهم المسلمين، أما اذا حاربوا أعداء ملتهم فهنا لا نرى إقدامًا ولا بسالة. (صـ ١٩٦).

٥- وكان لقب الموحدين الذي أطلقه على أتباعه غير ذي معنى؛ لأن كل المسلمين موحدون .. وإنما هي تسمية أراد محمد بن تومرت بها أن يوهم الناس أن دعوته تتجه الى إحياء عقيدة التوحيد الخالص. (صـ ١٨٤).

٦- ولا بُدَّ على هذا من التفريق من مصطلحي الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي، وقد كان القدماء يلفظون لفظ المغرب على ذلك كله، ولكننا الآن نقتصر اسم المغرب على بلاد المغرب المعروفة، ونطلق اسم الغرب الإسلامي على ما ذكرنا، وهو مصطلح جديد ابتكره أهل الغرب من الفرنسيين. (صـ ٢٠).

٧) وقد تحرى عقبة بن نافع أن تكون المدينة [أي مدينة القيروان] **ملائمة لمطالب العرب في ذلك العصر، وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال، وهي سلاحهم الأكبر في عمليات الفتوح، فكانوا**

يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز التي ينشئونها وسط أقاليم مراع لتسرح فيها الخيول والجمال في غير أوقات الحرب ليستجم الظهر كما كانوا يقولون. (صـ٤٠).

٨- وفي نهاية ولاية موسى بن نصير تنتهي فترة الفتح في تاريخ المغرب الإسلامي، وهي فترة طويلة تصل إلى فوق السبعين سنة، فنحن الآن في السنة ٩٨ هـ وفتح المغرب بدأ سنة ٢١ هـ، ولهذا فإننا نعتبر فتح المغرب عصرًا قائمًا بذاته ...، في حين أن فتح مصر استغرق سنتين، وفتح الشام استغرق حوالي أربع سنوات، وفتح العراق وإيران لم يستغرق أكثر من ثماني أو تسع سنوات! (صـ ٦٤).

٩- ومن المؤسف أن ابن خلدون عندما تحدث عن العرب في مقدمته كان متأثراً في كلامه وأحكامه بما فعله الهلاليون في المغرب؛ فجاءت صورة العرب في المقدمة قاتمة جداً. (صـ١٥٦).

١٠- وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والإيبرية الرومانية، فإن الأندلسي كان يقول: كِيْروكاس دَلما (أريد كأس ماء)، و مِى ألما حزين دا اليوم (نفسي حزينة اليوم)، و اشتريت من السوكو سبانية بلانكنا (اشتريت من السوق غطاء فرش أبيض)، و ازداد فولانو ولد سمرلو وبنت شقريلا (ولد لفلان ولد أسمر وبنت شقراء) وهكذا، وهذه اللغة التي كان الناس جميعًا يتحدثون بها ويفهمونها في الأندلس. (صـ ٣٤٠).

وأنت خليك مصدق انهُم كانوا يتكلمون بالفصحى مثل ما في المسلسلات!!

١١- أُعجب عبد الرحمن الأوسط بلحن صاغه الموسيقي زرياب، فأمر بصرف ٣٠،٠٠٠ دينار له، فامتنع صاحب الخزانة من صرف المبلغ لأنه تضييع لأموال المسلمين، فلم يستطع الأمير ارغامه على الدفع! (انظر: صـ ٣٣٣).

والآن تقام الحفلات الغنائية بالملايين ولا أحد يجرأ أن يقول مقالة هذا الوزير!

***

وأختم بما ختم بهِ مالك الكتاب السابق الذي كتب في آخر صفحه بعد أن اتم قراءته:

«قال تعالىٰ: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

في رثاء الأندلس:

بعد قراءة في التاريخ جلت بها في اتجاهها وامتطيت بها فرسي أجول في نواحيها، عاصرت ميلادها وشهدت وفاتها، شهدت شخوصها وتجولت بأسواقها، عشت مجدها وعثرتها، سعدها ونكبتها، فرأيتها العروس التي تزينت لطالبها، وتهيأت له ولكنها مع ذلك العصية علىٰ الطلب، الممتنعة عن الخطاب، فلم ينلها سوىٰ عالي الهمة، ومن بلغ بالفطنة والحلم القمة، تخضّبت رمالها بدماء الأحرار من ذوي المروءة والعباد والزهاد والجبابرة القساة، واللصوص الأفاقين، كما الدنيا رأيتها غنّاء مزدانةً، علك في سبيلها الكثيرون، وتساقط دون ثمارها الرجال كما تساقط أوراق الشجر، ونال منهم من شاء الله تعالىٰ بحظ وافر، هي قلب الأرض، وجنة الدنيا ومواطن الروح وعاصمة الفن، هي النور والنار، هي الأم الرؤوم، والناكر الجَحُود، والفردوس المفقود.

أبو غالب عبد الرحمن الصيادي المرادي».

***

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٧ فبراير ٢٠٢١م – ١٥ رجب ١٤٤٢هـ

رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار – سيرة ذاتية غير موضوعية.**
- **اسم المؤلف: عبد الوهاب المسيري.**
- **عدد الصفحات: ٧٦٠.**
- **دار النشر: دار الشروق.**

التعليق والمناقشة:

[هذه ملاحظات على شكل رؤوس أقلام قد كتبتها في دفتر ملاحظات بخط اليد أثناء قراءتي لكتاب (رحلتي الفكرية) للدكتور عبد الوهاب المسيري، ولم أكملها ولكن ارتئيت نشرها على حالها].

- ينقسم الكتاب الى جزئين رئيسين: (التكوين و عالم الفكر؛ وتحتهما تتفرّع الفصول المذكورة في الفهرس.

- الجزء الأول من الكتاب يتكلم عن النشأة الأولى في مدينة دمنهور المصرية، وهو جزء قد يهم الباحث في التاريخ المصري الحديث وعن الفلكور المصري والمقارن بين العادات والتقاليد في دول العربية.

- وكان مكان النشأة المنطلق للكلام عن فلسفة التعاقد والتراحم في المجتمعات التقليدية والحديثة. (المجتمع الذي يغلب عليه التراحم هو من يساعد بلا مقابل، والمجتمع الذي يغلب عليه التعاقد هو مجتمع يلتزم بالعقد المادي الذي بينك وبينه ولا يهتم لمساعدتك إن أحتجت لأن هذا ليس عمله وليس ملزوم بذلك) وهنا استدل بنماذج من المجتمع المصري والأمريكي لتوضيح هذه الفلسفة دونما تعميم مطلق.

- لم يلتزم المؤلف بتسلسل تاريخي للأحداث، وهذا نصَّ عليه في المقدمة.

- نصَّ في المقدمة أيضًا على أن الكتاب هو مذكرات فكرية؛ عُنيَ بالمقام الأول في بيان الالتزام بمنهج فلسفي ما ثم التقعيد له ثم الشكوك ثم التغيّر، فلذا جزءٌ كبير من هذه الرحلة هي كلام عن الفكر من تشخيص ثم نقد ثم نقض؛ ووظّف الحياة الشخصية لخدمة الفكرة لا العكس.

- ما يهوّن من تعقيد الفلسفة في الكتاب هو شرحه لكثير من النماذج الفلسفية من خلال قصص وأمثلة والنكت؛ فيجعل المجال للقارئ أن يقابل القصة بالمصطلح الفلسفي فيحقق نسبة فهم لا بأس بها.

- الكتاب أُلّف سنة ٢٠٠٠ ولكن من الواضح في النسخات اللاحقة أنه أُضيفت له بعض النصوص الجديدة وبعض التعديلات، فكان المسيري يتكلم عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر وغزو العراق. ولذا فمن المهم جداً أن لا يقرأ الشخص الطبعات الأولى. (مثل النسخة الرقمية الوحيدة المنتشرة في الشابكة -حسب علمي-).

- كتاب (رحلتي الفكرية) يصلح لأن يكون مدخلًا لفكر المسيري، فهو قد عرف مصطلحاته التي «ينحتها» هو بنفسه، وقد لا يُعرّف بها في كتبه العلمية الأخرى، ويلاحظ أيضًا أن بعض الاطروحات التي وضعها في الرحلة الفكرية قد أودعها بكتاب مستقل مثل (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان) فقد استطرد هناك وطرح الفكرة بشكل أكاديمي علمي.

- يلاحظ أيضًا أن مضمون ندوة (التيارات الفكرية الغربية المعاصرة وأثرها في الشرق المسلم) للمسيري أغلبها موجود في كتاب الرحلة الفكرية. وهي مادة مناسبة تصلح لأن تكون مدخلًا للكتاب.

- يلاحظ أن المسيري في الجزء الأول من الكتاب -على الأقل- لا يتكلم بِنَفَسٍ إسلامي بيّن، وإنما ينقض الفلسفات الغربية المادية بأدواتها ومن داخلها وباظهار آثارها السلبية التي تفوق آثارها الإيجابية على الإنسان، وقد اعترف في الكتاب على أنه عَلماني جزئي يؤمن بانفصال الدين عن الدولة. (راجع كلام إبراهيم السكران عن المسيري في كتابه: مآلات الخطاب المدني) ففيها تعليل لكمية الأخطاء الشرعية التي قد تجدها لدى المسيري.

- المسيري ابن البيئة الغربية، فحتى عندما هاجمته الشكوك إثر مخرجات الفلسفة المادية، كان أول من كسر حاجز الحيرة إلى طريق الإيمان، قصائد المدرسة الرومانتيكية واطروحات عالم الاجتماع الألماني Max Weber، وهذا مهّد لتبني الإسلام دينًا وعقيدةً/ أيديولوجيةً في وقت متأخر.

- ورغم قول المسيري أنه قرأ في التراث العربي والإسلامي وأصبح يمارس شعائر الإسلام في آخر مراحلة الفكرية، إلا أنك ترى أثر هذه القراءة ضعيف عليه، فنادر ما ترى يستشهد بها هو في التراث، ولا يَجعله قَيِّمًا على أثر الفلسفات الغربية، بل استمر حتى نهاية الكتاب في نقض الفكر الغربي بالفكر الغربي وإظهار الجوانب السلبية التي تفوق الإيجابية.

[هذا والله أعلم].

٢ مارس ٢٠٢١م – ١٨ رجب ١٤٤٢هـ

المجريات

المعلومات العامة:

- **اسم الكتاب: المجريات.**
- **اسم المؤلف: إبراهيم السكران.**
- **عدد الصفحات: ٣٤٤.**
- **دار النشر: دار الحضارة.**

التعليق والمناقشة:

انتهيت من كتاب (الماجَريات) مؤخرًا للشيخ إبراهيم السكران، ويُعالج من خلاله مشكلةً يقع فيها أغلبنا وهي إضاعة الأوقات على مواقع التواصل الاجتماعي ورؤية السجالات الحاصلة والتعليقات وآخر الأخبار مع شيء من التوهم أن الشخص في قلب المعركة وأن التطور في ذاته والقفزة النوعية في فكره وثقافته سوف تُكتسى من خلال هذه المتابعات اليومية.

وضرب مثلًا في افتتاح الكتاب كيف أن شخصًا عزم أن يقرأ كتابًا وبدأ بالصفحة الأولى ثم قرر أن يأخذ جولة في جواله ليرى آخر المستجدات ورأى أن هنالك ثمة سجالًا بين تيارات فكرية مختلفة حول قضية معينة ثم بدأ يصور هذه المساجلات ويرسلها إلى المجموعات التي فيها أصدقائه وبدأ أصدقاؤه يعلقون عليها ونشأ نقاش متفرّع عن النقاش الأول إلى أن وعى على صوت أذان الفجر وهو لم يجاوز الصفحة الأولى من كتابه!

فالسكران يرى أن هذه ليست حالة شاذة بل أشبه بالآفة أُصيب بها جَمْعٌ من الشباب مع طفرة التواصل الحديثة، يعني الآن لا يكاد يجلس الشخص يقرأ بضع صفحات إلا ويفتح جواله وقد ينشغل به تمامًا على كتابه الذي نوى قراءته!

في الفصل الثالث من الكتاب أراد السكران أن يرد على من يتوهم أنه بانشغاله وخوضه في متابعة الأحداث والأخبار والمناكفات أنه بذلك أصبح مصلحًا حقيقًا، وأن المنشغلين في التحصيل وتكوين ذواتهم علميًا أنهم ليسوا مصلحين! فعرض جانبًا من سير بعض المصلحين أمثال البشير الإبراهيمي ومالك بن نبي وأبو الحسن الندوي والمسيري وفريد الأنصاري وكيف أن هؤلاء قد انشغلوا بمشاريعهم عن المناكفات والقيل والقال؛ فأنتج هذا طرحًا إصلاحيًا أشد نجاعة من طرح مَن غرق في وحل المناكفات اللحظية واستغرق في «الماجَريات» وأنكر على مَن ترك سبيله وانشغل بنفسه!

الخلاصة أن هذا الكتاب مفيد وتستطيع أن توَّجهه لكل شخص يميل إلى المناكفات والردود ويعطيها أغلب وقته، ويصرف وما فَضُلَ منه إلى القراءة التي غالبًا ما تكون غير منهجية.

وهذا الكتاب مهم وضروري وأزعم أنه سوف يُحدث تغيّرًا جذرياً لدى البعض إن قرأه ممن يعاني من مشكلة تسرب وقته على مواقع التواصل الاجتماعي. إلا أن هنالك ثمة بعض الملاحظات البسيطة عليه.

مثلاً أعتبر السكران أن الكلام حول الرحلات والسفر من الماجَريات التي يجب أن يترفع الشخص عنها -اتباعاً لكلام الغزالي في الإحياء-.

فيقول الغزالي: «**وحَدّ الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلامٍ لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حالٍ ولا مال، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم، فهذه أمور لو سكتّ عنها لم تأثم ولم تستضر**».

وقد يُقصد في كلام السكران = اللغو من الحديث من كلام الأسفار.

وإلا فكلام الرحالة لا يخلو من فائدة، فلو تكلم المسافر عن أطباع أهل البلاد = لاستطاع المستمع أن يتجنب ما يكرهون من أفعال وأن لا يقع معهم في مشكلة بسبب هذا.

وذِكر المسافر للأخطاء التي وقع فيها على العموم تقي المستمع من أن يقع فيها، ويختصر الطريق على نفسه.

وفي حديث المسافر عن القوم الذين زارهم وذكرهُ لأطباعهم فيه تحقيق للمعنى الشرعي في التعارف [**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**].

كما أن الرحلة لو أصبحت كتابًا فهي تدخل ضمنًا في كتب التاريخ، قد لا تكون مهمة في عصرها؛ لأنها مألوفة ولا جديد بها، ولكنها مهمة للعصور اللاحقة في معرفة أنماط الحياة في العصور السابقة.

وهي على العموم داخلةٌ في جنس ما يحبه السكران من كتب لما قال عن استصعاب قراءة الروايات: «**وهذا بخلاف كتب التراجم والسير الذاتية والتاريخ فإنني أرى فيها مادة يتلهف الباحث لاستثمارها كمعطيات للتحليل والاستنتاج**».

ففي هذا النوع من السرد يستطيع الشخص أن يستثمرها معطًى للتحليل والاستنتاج.

فرحلة ابن فضلان فيها ذكر لسبب اعتناق الروس السلاف النصرانية الأرثوذكسية وليس الإسلام وحتى الكاثولكية؛ ويستفيد الداعية من هذا التفضيل وأسبابه.

كما أن ليس كل ما تتعجب منه من مشايخ البلاد الذي زرته يكون لغوًا، فلو ذكرت لمستمعيك همتهم في التعبّد والتنسّك أو في طلب العلم، لخرج هذا الحديث من اللغو الى رفع الهمة لفعل الخير.

ولا أظن أن شخصًا مثل إبراهيم السكران -فكّ الله أسره- قد يخفى عليه هذا، وأظنه يقصد اللغو من الحديث من كلام الأسفار، ولكن لضبط اللفظ اقتضى توضيح بطلان لوازمه.

عودًا علىٰ كتاب السكران وعرض بعض النقاط التي حواها الكتاب، أقول أن الكتاب –بالنسبة لي– خير مثال لمقولة «القراءة تولّد القراءة» وهي قاعدة قدمها الشيخ عمر بن محمود في كتابه الماتع (فن القراءة).

ومفادها أن القراءة لشخص ما سوف تجرك للقراءة لآخر، فعندما يقرأ القارئ المبتدئ لابن القيم مثلًا ويراه مُكثرًا من قول (وقال شيخنا ابن تيمية كذا وكذا) سوف يستفزّه الفضول، ويقول من هذا ابن تيمية؟! وهذه القراءة الأولية سوف تجرّك الىٰ ابن تيمية بدافع الفضول.

وفي كتاب السكران (الماجَريات) سوف تتوسّع قاعدة المعارف لديك حول الكتب والمؤلفين، والسبب أن أطول فصول الكتاب وهو الفصل الثالث والذي حوىٰ عرضًا لجملة من الشخصيات من مفكرين ومشايخ وباحثين ومصلحين، استعرض الشيخ إبراهيم السكران تراجمهم وأحوالهم ومؤلفاتهم وذكر طرفًا مما حوتهُ هذه المؤلفات.

مثلًا حتىٰ وإن لم تطّلع علىٰ فهرس الآثار للبشير الإبراهيمي سوف تعرف أن المجلد الخامس هو المجلد الذي ذكر الشيخ سيرته فيه، وذلك من خلال استعراض إبراهيم السكران للكتاب، وسوف تعرف في المحصلة أن للإبراهيمي مذكرات.

ولكن لا ينحصر الحد عند هذا المجال، فعندما تقرأ لمذكرات البشير الإبراهيمي، سوف تراه وهو يعدد المتون التي نشأ عليها، ثم يأتي السكران ويعطيك نبذة عن هذه المتون وأهميتها في علم الآلة.

الآن؛ ماذا كانت المحصلة؟!

القراءة الأولية لـ(الماجَريات) عرّفتك بمذكرات البشير الإبراهيمي ضمن آثاره والتي هي بدورها عرّفتك علىٰ بعض المتون التي كنت قد غفلت عنها في تقوية علوم الآلة.

فالتولد هنا استمر الىٰ ثلاث درجات. وهكذا تصنع القراءة علىٰ العموم، فكلما استمررت بها تفتّحت بصيرتك بمضامين الكتاب العامة وتصانيفها.

لذلك فالقراءة مثل الباب ما أن تَفتحهُ حتىٰ تجد أمامك بابًا آخرًا؛ وهذا يجعلك تعيد تصفّح وجوه الكتب في المكتبات التي تزورها باستمرار، لأنك قد تجد كتابًا قد عرفته وكنت تجهل أهميته سابقًا.

ثم نأتي إلىٰ النقطة الثانية، وهي أن السكران يعرّفك ببعض مضامين الكتب، قد تعرف أن كتاب (الفجور السياسي - والحركة الإسلامية بالمغرب) للشيخ فريد الأنصاري يتكلم عن نقد الحركة الإسلامية في المغرب وهذا هو العنوان العريض، ولكن ما هي خطوط وأفكار الكتاب؟ هل الأسلوب والموضوع الموجود داخل الكتاب يهمك؟ فيأتي السكران هنا ويعرض أفكار المؤلف من كتبه، فيقوم بمسحٍ سريع علىٰ ما في الكتاب. فتتفاجئ أن بعض المواضيع تهمك وتبحث عنها مثل موضوع التعصّب والتحزّب للجماعة أو الحزب وقد ينتهي هذا المسح بشراء بعضها لأنك تبحث عن مضمونه ولكنك كنت تجهله سابقًا.

ويدخل في هذا، لو أردت أن تقف علىٰ تاريخ الحركة الإسلامية في المغرب مثلًا، فيأتي السكران ويتناولها سريعًا (في فصل فريد الأنصاري) ولكن يترك خلفه جملة من المراجع –لمن أراد التوسّع–، فهو عبّد الطريق وسهّله لمن أراد التوسّع واختصر لك الطريق وجمع لك المراجع كلها في مكان واحد مما يغنيك عن السؤال.

النقطة الأخيرة، أحيانًا ما يولّد القراءة هو الثناء المفرط خصوصًا إن خرج من أحد العلماء تجاه شخصٍ بعينه، وفي كتاب الماجريات تجده واضحًا في فصل الشيخ البشير الإبراهيمي، الذي كان مجهولًا في الجزيرة، لولا إطراء الشيخ بكر أبو زيد له والثناء عليه في كتبه. بل تجد السكران يقول: «**بل الذي أعلمه أنه لم يكن عالم في بيئتنا العلمية يتحدث عن البشير الإبراهيمي قبل إشاعة الشيخ بكر لآثاره وكتبه وإطرائها في حواشيه ورسائله**».

ثم ذكر نُتفاً من هذا الإطراء والثناء.

فهذا المدح عرّف الكثيرين بأمثال الشيخ البشير الإبراهيمي وبتزكية من أحد الشيوخ المعتبرين أقبل طلاب العلم على تتبع آثاره واتنقائها وجردها.

فالخلاصة أن القراءة تولّد القراءة في كتاب (الماجَريات) أخذ أشكالًا متنوعة منها:

- العرض المتداخل أو المتفرع.
- العرض الموجز.
- تجميع المصادر.
- العرض الإطرائي.

فكل هذه الأساليب تجرك الى قراءة أخرى منبثقة من سابقتها.

***

وهنا بعض الاقتباسات والتعليق عليها:

- منهج السكران في قراءة الروايات: «**للشيخ فريد أيضًا رواية أخرى بعنوان (كشف المحجوب) وذكر بعض النقّاد أن فيها شيئًا من تجربته وهمومه الروحانية، وللأسف فإني لم أقرأها أيضًا، فالله أعلم بمحتواها، وأعتذر للقارئ بأن منشأ هذا يعود لعجز قديم عندي عن قراءة الروايات معينة لفهم تشكّلات المخزون الفكري في سياق أدبي معيّن، ولكن يسيطر عليّ أثناء قراءة الرواية أن كل ما أمامي إنما هي أحداث اصطنعها خيال المؤلف ذات مساء عليل فتُشل قدرتي وتخور قواي عن مواصلة القراءة، وهذا بخلاف التراجم والسير الذاتية والتاريخ فإني أرى فيها مادة يتلهف الباحث لاستثمارها كمعطيات للتحليل والاستنتاج والنمذجة**». (صـ٢٣٧)

وهذا خلاف الشيخ عبد الله العجيري الذي له إسهامٌ في هذا المجال، وله كتاب رصد فيه الأطروحات الفكرية المنحرفة التي بثت على شكل رواية ونشره تحت عنوان (من عبث الرواية) وقد قدم له الدكتور بندر الشويقي.

- من فوائد التدوين، يقول الشيخ إبراهيم السكران عن الشيخ البشير الإبراهيمي:

«فتح الشيخ عينه في بلده الجزائر والاستعمار الفرنسي تهدر قواته فوق رؤوس الناس، حيث ولد الشيخ عام ١٨٨٩/ ١٣٠٦ كما ذكر هو بنفسه تاريخ مولده، ولم يكن تاريخياً تقريباً بل ذكر الشيخ مولده باليوم والساعة بالضبط، وكان يعرفها عبر طريقة طريفة كان يصنعها جده، كما يقول الشيخ: (قرأته بخط جدي الأدنى على ظهر كتاب من كتبه سجل فيه مواليد الأسرة ووفياتها) وهذا أيضاً من القرائن على أن هذا البيت بيت علم حريص على التدوين وليس بيتاً أمياً». (صـ٨٣).

وكانت هذه الطريقة طريقة متطورة في ذلك الزمان، الذي كانت تعرف أعمار الناس بشكل تقريبي وغير دقيق خصوصًا عند تحويل التاريخ من هجري إلى ميلادي أو العكس.

ففي تلك الحقبة في بعض الدول لم تكن هنالك جوازات سفر بعد، وفي حقبة لاحقة بعد أن استخدمت الجوازات للدلالة على أن «فلان» من رعايا الدولة الفلانية، لم تكن التواريخ دقيقة أيضاً لأن الآباء يكبرون أعمار أبنائهم حتى يحصلوا على الجواز مبكرًا، فقد يولد أحدهم في ١٩٢٥ ويوضع في الجواز أنه من مواليد ١٩٢٠. وقد كنت حددت أعمار أجدادي بربطها بحوادث حصلت في سنة ولادتهم. فقال والد جدي أن ولدت في السنة التي هاجرت القبيلة الفلانية إلى البقعة الجغرافية المعينة، ومن خلال كتب التاريخ مثلاً تستطيع أن تحدد سنة الهجرة وبالتالي تحدد سنة الولادة.

وهذا أمر متداول، يقول حمد الحمد في كتابه (الزلفي والكويت: روايات ووثائق وذاكرة زمن، صـ٢١)، عن أحد أجداده: «**يقول كان ميلاده كما سمع من الأهل عام ١٨٩٠م في الزبير حيث كان الميلاد مرتبط بأحداث تاريخية**»، فمن خلال الأحداث التاريخية حدد تاريخ ميلاده بدقة.

- غياب بعض المشايخ عن فقه الواقع: يلخص لنا الشيخ إبراهيم السكران أسباب غياب هؤلاء المشايخ عن فقه والواقع ويذكر أسبابه فيقول: «**ومن يميل للانكفاء والغياب عن فقه الواقع فهذا له بواعث مختلفة جداً:**

- فقد يكون ذا تكوين روحاني لا يطيق صخب الواقع.

- وقد يكون مستتغرقًا في علم نظري بميول ومتعة ذاتية حتى تجده منصرفًا عن التزامات شؤونه الشخصية فضلًا عن تتبع قضايا الشأن العام.

- وقد يكون غير مقتنع أصلًا بجدوى فقه الواقع وله اجتهاد في أن غيره من العلوم أنفع أو أن هذا ليس هو التوقيت المناسب لفقه الواقع.

- وقد يكون المناوئ لفقه الواقع ليس لدافع نفسي ولا علمي وإنما قد يكون من اتجاه الغلو السلطاني الذي يرى أن هنالك علاقة عكسية بين فقه الواقع والطاعة الكسروية. وقد يكون لبواعث أخرى». (صـ٢٧).

وفي نظري أن أبرز سبب هو الخوف من بطش السلطة، وهو ما يجعل الشخص يخاف من الكلام في شأن فقه الواقع، وهذا مثال واضح تراه في زمن الثورات العربية، فعندما ارتفع السقف قليلًا رأيت الكثير من المشايخ يتكلمون عن فقه الواقع وانخرطوا تصحيحًا وتوجيهًا في السياسة، وما أن حصلت الثورات المضادة إلا وانصرف جل هؤلاء المشايخ عما كانوا عليه وانحصر مجال كلامهم في حدود ضيقة تتعلق أحيانًا بالرقائق والفقه المحض أو الكلام في السجال الفلسفي.

البيئة الصحية هي أكبر باعث لخوض المشايخ للكلام في فقه الواقع، وعدم انعدامها لا يعني السلبية بحال، بل الواجب عليهم الصدع بالحق، فإن سكتوا فمن يتكلم؟! لو سكت الإمام أحمد والنفر القليل الذين كانوا معه لقيل أن الأُمّة أجمعت على القول بخلق القرآن، ومن قرأ كتاب (الأثر السياسي للعلماء في العصر المرابطي) يعلم مدى أثر العلماء في حركة الأُمّة.

- إشكالية انحراف البوصلة داخل الجماعات الإسلامية كونها جماعة إسلامية تنطلق من أُسس عقدية تقوم بضبط مسارها إلى جماعات أشبه بالبراغماتية يكون معيارها مصلحتها الخاصة وإن عارضت مصلحة الشرع أمر دارج عند بعض الجماعات المنتسبة الى العمل الإسلامي، ومثال ذلك ما نقله إبراهيم السكران في كتابه (الماجَريات) وهو يستعرض مسيرة د. فريد الأنصاري الحزبية وسبب انسحابه من حركة التوحيد والإصلاح إذ يقول:

«**في العام ٢٠٠٠م قرر د. فريد انسحابه من حركة التوحيد والإصلاح لأسباب ذكرها، منها حسب رأيه وتوصيفه ووجهة نظره: شيوع ذهنية المناورات والمراوغات والتحالفات داخل الكيان الحركي بما يؤدي للميكافيلية التيارية لصالح جناح داخل الحركة، وهيمنة الشخصيات الوصولية والانتهازية على الحركة؛ ولأن حزب العدالة والتنمية بدلًا من أن يكون ذراعًا سياسيًا منفصلًا فإنه لم يتم الوصل فقط، بل صارت الحركة هي التابع والحزب هو الأصل النافذ، والنتيجة بحسب عبارته أنه صارت الدعوة خادمة للسياسة**». (صـ٢٧٧).

ولكن هذه الجماعات قد تستخدم خطابًا شرعيًا في ظاهره، ولكن كيف تعرف مدى التزامها به؟! وهو أن لا تتناقض فتعيب على غيرها أمورًا ثم تقوم بها، وإن أصّلت شرعًا لخطابٍ ما فإنها تلتزم به وتثبت عليه، وإن خالفته في المستقبل فلا بُدّ أن يكون لديها الشجاعة والجرأة أن تخرج وتقر بخطئها لا أن تسكت وكأن شيئًا لم يحدث!

٢ مارس ٢٠٢١م – ١٨ رجب ١٤٤٢هـ

ملحق: كارل ماركس والتفسير المادي للتاريخ

مقدمة:

عادةً نختار كتاباً -نحنُ طلبة العلوم السياسية- الذين جَمَعَتْنَا الجامعة وفَرّقتنا التوجّهات سواءً كانت جزئيةً أو كليّةً، فَنُقَسّمُ فصولَه، وكل شخص يعرض الفصل الذي لديه في المناقشة الجماعية، فالقراءة الجماعية تُلزم الشخص بقيّدٍ أخلاقي لا يَسَعُهُ وفقَ الظروف العادية أن يَتَخَلّف عنه، فتكون مُعينةً له علىٰ ديمومة القراءة، ويأتي دَوْرُ العَرض (presentation) في ترسّخ ما قرأ، وترفع من مستوىٰ إلقائه وتحضيره للمواد، وأظن أن في «زمن الكورونا» قد كَثُرَت هذه اللقاءات عن بُعد، والتي تؤثّر بشكلٍ تدريجي علىٰ نفسية الشخص في مواجهة الجمهور، فالبُعد الافتراضي يُسهّل علىٰ الفرد أن يقول كلمته أكثر من القُرب الوقعي عندما تُلقيها أمام أشخاصٍ موجودين أمامك.

وبعد تقسيم فصول كتاب (فلسفة التاريخ : مدخل إلىٰ النماذج التفسيرية للتاريخ) للدكتور عبد الحليم ماهورباشة، اتُّفق أن أتناول فصل (كارس ماركس والتفسير المادي للتاريخ) ولكن لم أُوَفّق لعرض المادة بسبب حضور ضيوف من غير ميعاد وانقطاع الشابكة بعد ذهابهم!

والأمر كما قال الشاعر:

ولو كان سهماً واحداً لاتقيتهُ ولكنـه سهـمٌ وثـانٍ وثـالـثُ

فقررت أن أُعوّضهم عن العرض المرئي بمنشور مكتوبٍ عن نفس المادة.

ومن خلال إعدادي لمنشورٍ صغيرٍ حول الموضوع الذي أردت الكلام عنه، احتجت إلىٰ سبر بعض المراجع، وكانت فائدة التنقّل بين المراجع والقراءة فيها هو تقييم المادة التي تنطلق منها وهي مادة ماهورباشة، فاتّضحَ لي أن هذه المادة دون المطلوب، فكان من الخطأ الاعتماد علىٰ مادةٍ واحدة لإعداد ما أردت، فكانت المادة أشبه بالمتن الذي يحتاج إلىٰ هامش لشرحه؛ فبدلاً من أن يكون مدخلاً مُيسّراً

بحد ذاته، أصبح يَلزم منه التنقّل بين المواد لشرح ما فيها، فكانت هذه المادة خالية من النماذج التفسيرية التي كان يستخدمها المَسيري مثلاً والتي تُقرّب الفهم رغم أن ضمن عنوان الكتاب (مدخل إلى النماذج التفسيرية)!! وكأن ماهورباشة يكتب لشخصٍ لديه خلفيةٌ مُمكّنة عن هذه المذاهب في قراءة التاريخ، فلذلك استعضتُ ببعض المواد لتقريب الصورة، ومن بينها محاضرة (نظرية التاريخ عند ماركس) للدكتور هشام الغصيب، والدكتور هشام رجلٌ ماركسي له العديد من المحاضرات حول الماركسية.

فكانت هذه المحاضرة أوضح في المضمون من كتاب ماهورباشة؛ باعتبارين اثنين، أن هشام ماركسي أصالةً فهو قد جَرَدَ مؤلفات ماركس جرداً فهو عندما يتكلم عن الماركسية فيتكلم بين أرضه وجمهوره؛ فلذلك ترى هنالك مفارقة أن ماهورباشة كان يَستدل بكتاب (الأيديولوجية الألمانية) باعتباره الكتاب الأبرز الذي يمكن استنباط فلسفة للتاريخ لماركس وهذا حقٌّ ابتداءً، ولكن ترى في طرح د.هشام ذكراً لِمُسَوّدةٍ متأخرةٍ كتبها ماركس فيها استدراكات على كتابات سابقة فكان من الأَوْلَى -إن كان يستطيع الوقوف عليها أو فهم إحدى ترجماتها – أن يأخذ رؤية ماركس حول التاريخ من خلالها باعتبارها طرحاً لاحقاً ينسخ أو يستدرك على الطرح السابق، والثانية أنه ينتقده، أي مارس العملية النقدية في عرضه لفلسفة ماركس، ومن ذلك أنه أشار إلى القصور الذي اعترى نظرية ماركس للتاريخ باعتبارها نظرية غير نهائية؛ فأوجد مفارقةً بين نظرية ماركس للتاريخ والنظرية الماركسية للتاريخ باعتبار أن الثانية هي النظرية النهائية والتي أكمل بنيانها الماركسيون اللاحقون أمثال الإنجليزي بيري أندرسون.

وكذلك اطّلعت على كتاب (التاريخ والمؤرخون) للدكتور حسين مؤنس، فكان مؤنس أفضل في الطرح من ماهورباشة بنظري، فكان حسين مؤنس خلال اطّلاعي على فصل الماركسية يذكر الجَذر التاريخي والتدرج ويستحضر سيرة ماركس كلما اقترنت بمضمونٍ أيديولوجي ما، وكان يضرب

الأمثلة والشواهد، مستطرداً في ذلك دون أن يعرض فكرة جزئية ويسكت فيكون الارتباط بين النقطة الأولى والثانية مبهماً، ثم ينتقد ويُعَقّب ويستدرك، ولكن لم نأخذ هذا الكتاب؛ لأننا نريد الاطّلاع على فلسفة التاريخ بصفتها مدخلاً للتاريخ نفسه، أي نُبحِرُ في التاريخ بعد تملّك بعض الرؤى الفلسفية لغربلته وهذا الموضوع يُعتبرُ جزءاً في كتاب حسين مؤنس لَا كُلَّ الكتاب.

وكذلك استشهدت ببعض المراجع الأخرى التي سوف تجدها في هامش المقال.

أفتتح ماهورباشا فصله عن ماركس بنبذة أستلها من أحد كتب ستالين، ولكن عرضها مختصرةً عن أصلها[٢١٥]. فلو عدت الى أصلها لوجدتها أكثر فائدةً في الربط ما بين سيرة ماركس وفلسفة ماركس. فرؤاه الغائية كان لها أصلٌ مُبكّر، أي أنه كان متأثراً منذ الابتداء وفي سنوات الدراسة بفلسفة هيغل ولكن على نمط معين يصفه لينين فيقول: «**كانوا يحاولون أن يستخلصوا من فلسفة هيغل استنتاجات إلحادية وثورية**»، فحتى أثناء تأثره بالفلسفة التي طرحها هيغل كان يريد أن يصل إلى هذا وفي سنٍ مُبكّرة، ثم من الأمور التي تَلفتُ الانتباه في هذه السيرة، أن والده تركَ اليهودية وأصبح بروتستانياً فنشأت الأسرة على ذلك باعتناقها هذا الدين وكان آخر من تَنَصّر منهم هي الأم[٢١٦]؛ فلذلك لا أعلم أين موضع إقحام اليهودية باعتبارها فاعلاً مؤثراً في شخصيته كما كان البعض يدندن أمثال المؤرخ الكبير حسين مؤنس وجعل تفضيل ماركس للندن على روسيا لتعامل هاتين الدولتين مع اليهود! [٢١٧]

ثم تجد في هذه النبذة صفات تكاد تجدها في كل المؤثرين في التاريخ، أول صفة أنه كان فاعلًا مع محيطته وبيئته، وهذا يَتّسق مع تعريف ماركس للإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً، فالبعض يريد أن يصنع التأثّر وهو معتزل الناس! والصفة الثانية أنه حاول إيجاد أُطُرٍ تنظيميةٍ ليُدخل هذه الأفكار إلى

[٢١٥] انظر الى النص كاملًا في لينين: المؤلفات المختارة (٥/ ٢٢٦)، ط: دار التقدم – موسكو، ترجمة إلياس شاهين، (١٩٧٦).

[٢١٦] جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة: الطبعة الثالثة: ٢٠٠٦، (صـ٦١٨).

[٢١٧] حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار الرشد، الطبعة الثانية: ٢٠٠١، (صـ١٢٥).

حيّز التنفيذ، فالأفكار التي تبقىٰ حبيسة الرفوف والمكاتب تموت مع الزمن، فلا بُدّ من يدٍ تتحرك لتطبيقها علىٰ الأرض عبر عملٍ مُنَظّمٍ يحشد الجهود ويوجهها لبلوغ الغاية، والأمر الثالث هو حصول الابتلاء -لا بمعناه الشرعي- ولكن بمعناه اللغوي، بنفي وهروب هذا الشخص من عدة دول بسبب آراءه وأفكاره والتضييق عليه بينما البعض لا يريد أن يُخدَش خدشاً في سبيل أفكاره!

إن كارل ماركس لم يوجد جذور التفسير المادي للتاريخ، وإنما هو بَنَىٰ علىٰ مَن سبقوه في صياغة هذه الرؤية بشكل أمتن مما سبق، وإلا فإنك تجد في الكتب التاريخية ولدىٰ بعض المؤرخين مَن صوَّر الصراع الطبقيَّ دافعاً لتقدم التاريخ وتطوره وحركته، ومن بين هؤلاء سان سيمون أحد فلاسفة الثورة الفرنسية، وكذلك تلميذه المؤرّخ الرومانتيكي أوجستان تييري، وكذا عصريُّ هذا الأخير فرانسو مينييه الذي كان مؤرّخاً وأمين محفوظات وصحفياً وثورياً وزميلاً لمن أصبح لاحقاً رئيساً للجمهورية الفرنسية أدولف تيير [٢١٨] وذهب البعض إلىٰ أن كارل ماركس لم يكن مسبوقاً في رؤاه التاريخية فحسب، بل حتىٰ في نظرياته الأخرىٰ أمثال النظرية العلمية لحتمية حدوث الأزمات الاقتصادية حدوثاً منتظماً وكذا النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة وكذا دكتاتورية البروليتاريا ونظرية القيمة المبنية علىٰ العمل والاستغلال وقيمة الفائض[٢١٩]. أي أن ماركس لم يوجد هذه الأمور من العدم وإنما طوّرها وهذا أمر متقرر، فالعلماء والأكاديميين السوفييت أقروا أنها طور بعض النظريات فتجدهم يقولون: «**وكانت تجربة الثورات البورجوازية في أوروبا ذات أهمية كبيرة في تطوير ماركس لنظرية الثورة الاشتراكية وصراع الطبقات ولفكرة دكتاتورية البرولتاريا، وتكتيكات البروليتاريا في الثورة البورجوازية**»[٢٢٠].

---

[٢١٨] التاريخ والمؤرخون، (صـ١٢٠-١٢٢).

[٢١٩] انظر: عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم الملايين، الطبعة الأولىٰ: ١٩٧٥، (صـ٤٠-٤١).

[٢٢٠] الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين بإشراف م. رُوزنتَال، وب. يُودين، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، الطبعة التاسعة: ٢٠١١، (صـ٤٣٩).

وإن رؤية ماركس أو فلسفته والتي تنبثق منها حركة تفسيره للتاريخ قائمة على عكس المبدأ الذي استخدمه هيغل، أو كما وصف إينجلز: «**وضع ديالكتيك هيغل على قدميه بعد أن كان واقفًا من قبل على رأسه**»[221]، أي وذلك بإخراج الوضع الجدلي (الديالكتيك) من مجال الفكر، فكان هيغل يرى أن النقص للإنسان يُفضي إلى تكوَّن فكرةٍ جيدةٍ من جانب ولكنها تحمل نواقضها من جانب آخر، وهذا ما يُسمّى بـ«نقيض الفكرة»، فيبدأ صراع الأفكار وتتولّد أفكار جديدة من رَحِم هذا الصراع، ومن ديمومة طرح الأفكار ونقائضها يتقدم البشر طوراً بعد طورٍ في سُلّم التقدّم[222]، وما فعله ماركس هو إخراج هذا الجدال من ساحة الفكر إلى ساحة الواقع المادي؛ فرأى أن المادة تَسبق الفكر، فالفكر ما هو إلى انعكاس للصراع الطبقي الذي يتمحور حول الاقتصاد وعلائق الانتاج، فترى ماركس يقول: «**إن طريقتي الديالكتيكية (الجدلية) لا تختلف عن الطريقة الهيغلية من حيث الأساس فحسب، بل هي ضدها تمامًا، فحركة الفكر -هذا الفكر- الذي يُشخّصه هيغل ويطلق عليه اسم الفكرة هي في نظرة خالق الواقع وصانعه، فما الواقع إلا الشكل الحداثي للفكرة. أما في نظري فعلى العكس، ليست حركة الفكرة سوى إعكاس الحركة الواقعية، منقولة إلى دماغ الانسان ومستقرة فيه**»[223].

بمعنى آخر كما يقول الدكتور عبد الوهاب المَسيري: «**فالمادية الديالكتيكية تصدر عن الإيمان بمفهوم المادة التي تعني الوقع الموضوعي المعطي للإنسان في أحاسيسه والذي تصوره أحاسيسنا وتعكسه، ولكن وجوده غير مرهون بها. أما الوعي فهو صفة المادة الرفعية التنظيم، ويظهر بظهور المجتمع.**

---

[221] فرديك إنجلز، التفسير الاشتراكي للتاريخ، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية: ١٩٦٨، (صـ٦٤).

[222] جاسم سلطان، فلسفة التاريخ: الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، مؤسسة أم القرى، الطبعة الرابعة: ٢٠١٠، (صـ٨٩-٩٠).

[223] كارل ماركس، رأس المال: نقد اللاقتصاد السياسي، دار التقدم، الطبعة الأولى: ١٩٨٥، (١/ ٢٧).

والوعي يعكس الواقع الموضوعي ويكون صورة ذاتيه منه، وهو ما يعني أسبقية المادة على كل شيء»[٢٢٤].

ويرى ماركس أن الفلسفة المثالية التي ربطت التاريخ بصراع الأفكار قد منعت الرؤية الحقيقة للتاريخ، فأصبح التاريخ ما تحرّكه هي العناوين المرفوعة من دين وسياسية، فأصبحت نظرتهم للتاريخ ظاهرية دون أن يتمكّنوا من الولوج إلى المعنى الباطن الذي يُفسّر المعنى الظاهر ويرجعه إليه، فلذلك تراه يقول: «**إن إنتاج الحياة الفعلي يظهر في أصل التاريخ، بينما التاريخ حقاً وفعلاً يبدو كأنه منفصل عن الحياة العادية، شيئاً خارج الأرض وفوقها. ومن هنا فإن علاقة الإنسان بالطبيعة تنفى من التاريخ، الأمر الذي يَتَرَتّب عليه التعارض بين الطبيعة والتاريخ. ونتيجة ذلك؛ فإن أنصار هذا التصور للتاريخ لم يتمكّنوا من أن يروا في التاريخ إلا الأحداث التاريخية والسياسية الكبرى، والصراعات الدينية ومختلف أنواع النضالات النظرية، ولم يكن لهم بُدٌّ بصورة خاصة في كل عصر تاريخي من المشاطرة في وهم هذا العصر**»[٢٢٥].

هذا الفصل أدّى إلى تصوّرٍ لدى هؤلاء المؤرخين مفاده أن هنالك محركًا للتاريخ يتمثل في قوة لاهوتية خارقة، ولهذا يرى ماركس أن الألمان فلاسفةً ومؤرخين يَغلِبُ عليهم هذا التصوّر المثالي للتاريخ الإنساني[٢٢٦]؛ لذلك تجد أن ماركس انتقد هذا الفكر بحدّه في كتابه (بؤس الفلسفة) باعتبار أن التاريخ تحركة قوًى ميتافيزيقية تتجاوز حدود العقل الإنساني[٢٢٧].

هناك مفاتيح للوقوف على رؤية ماركس للتاريخ:

---

[٢٢٤] عبد الوهاب المَسيري، الفلسفية المادية وتفكيك الإنسان، دار أفاق معرفة متجددة، الطبعة السابعة: ٢٠١٨، (صـ١٩).

[٢٢٥] كارل ماركس، فريديك إنجلز، الإيديلوجيا الألمانية، دار دمشق، الطبعة الأولى: ١٩٧٦، (صـ٥١).

[٢٢٦] عبد الحليم ماهورباشة، فلسفة التاريخ: مدخل إلى النماذج التفسيرية للتاريخ الإنساني، مركز نماء، الطبعة الأولى: ٢٠١٦، (صـ١٢٢).

[٢٢٧] انظر: كارل ماركس، بؤس الفلسفة، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي ودار التنوير، الطبعة الرابعة: ٢٠١٠، (صـ١٦٣).

المفتاح الأول: الصراع الطبقي، فماركس يرى أن التاريخ عبارة عن صراع بين الطبقات كما نص على ذلك في افتتاحية كتابه المشترك البيان الشيوعي، فتراه يقول: «**إن تاريخ أي مجتمع حتى الآن ليس سوى تاريخ صراعات طبقية**»، وقيدها هارمن دونكر في أن التاريخ المقصود هو التاريخ المكتوب[٢٢٨]، بمعنى آخر تاريخ الحضارة، وإلا فالإنسان قبل أن يؤسس الحضارة كان إنساناً بدائياً صياداً وكان يعيش في مجتمع تكون فيه الملكية مشاعيَّة؛ أي لم يظهر بعد تقسيم الأراضي وملكيتها، فالإنسان لا يأكل إلا وفق حاجته، وبذلك لم يكن هنالك صراع، رغم أن النص القرآني يثبت وجود الصراع – ربما رغم انعدام الملكية– في الجيل الأول البشري، كما في قصة قابيل وهابيل [**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ** ...]؛ فدلَّ أن أسباب الصراع لا تنحصر على الملكية بل قد تأخذ أشكالاً أخرى وفق النص القرآني.

وسبب الصراع بين الطبقات هو وجود الفائض في الإنتاج، فلو كان الإنسان لا ينتج ويستهلك إلا وفق حاجته لما كان هنالك داعٍ إلى الاصراع؛ إذ أن الكل قد حقق اكتفائه الذاتي، ولكن الفائض هو سبب الصراع بين الطبقة المنتجة والطبقة التي تملك أدوات وشروط الإنتاج، وبدأت الحضارة مع إنتاج الفائض وهو إنتاج ما فوق الحاجة، فمدار الصراع حول من يأخذ هذا الفائض[٢٢٩].

المفتاح الثاني: البناء التحتي والفوقي، إن البناء التحتي والتي يتمحور حول الصراع على الإنتاج هو ما يفرز البناء الفوقي ويكون انعكاسًا له، فالأيديولوجيا والفن والفكر والدين ليست أموراً مستقلةً بذاتها تَنشأ بشكلٍ منفصل عن الصراع الطبقي حول وسائل الإنتاج؛ وإنما هذا الصراع هو مَن يُفرزها، ويقول كارس ماركس في ذلك: «**الأخلاقيات والدين والميتافيزيقا وكل بقية الأيديولوجيات وأشكالها المتطابقة من الوعي لا تعود تحتفظ بمظهر الاستقلال. أنها لا تاريخ لها، لا**

---

[٢٢٨] كارل ماركس، فرديك إنجلز، البيان الشيوعي: النص الكامل مع دراسة وتحليل لهرمان دونكر، دار الفارابي، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨، (صـ٥٣).

[٢٢٩] انظر: هشام غصيب، نظرية التاريخ عند ماركس، الجمعية الفلسفية الأردنية، قناة الفينيق، الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=1PjVEhLqUYY

تطور لها، غير أن الناس وهم يُطوّرون إنتاجهم المادي وتفاعلهم المادي يتغيّرون مع هذه الأمور وجودهم الحقيقي وتفكيرهم ومنتجات تفكيرهم»[٢٣٠].

وقال كذلك في موضع آخر: «**إن إنتاج الأفكار والتصوّرات والوعي مختلط بادئ الأمر بصورة مباشرة ووثيقة بالنشاط المادي والتعامل المادي بين البشر، فهو لغة الحياة الواقعية. أن التصورات والفكر والتعامل الذهني بين البشر، تبدو هنا أيضاً على اعتبارها إصداراً مباشراً لسلوكهم المادي. يطبق الأمر نفسه على الانتاج الفكري كما يُمثّل في لغة السياسة ولغة القوانين والأخلاق والدين والميتافيزياء** إلخ ..»[٢٣١].

فـ«**إن الأحوال أو الأوضاع الاقتصادية لأي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها، وكل مظاهر حضارتها، فإذا أردنا أن نفهم نظام أي مجتمع ونظامه السياسي، أو حتى طبيعة عقيدته الدينية وإنتاجه الفني والفكري، فلننظر أولاً إلى نظامه الاقتصادي**»[٢٣٢]. فالماركسية ترىٰ في نسق هذه العلاقات الإنتاجية الأساس والقاعدة الحقيقة لكل مجتمع، عليها يرتفع بناء فوقي سياسي وقانوني واتجاهات مختلفة للفكر الاجتماعي[٢٣٣]. فبالتالي «**يجب البحث عن منشأ حياة المجتمع العقلية، وعن أصل الأفكار الاجتماعية، والنظريات الاجتماعية، والآراء السياسية، والأوضاع السياسية، لا في الأفكار والآراء أو في الأوضاع السياسسة نفسها، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع، في الموجود الاجتماعي الذي تكوّن هذه الأفكار، والنظريات والآراء وما إليها انعكاساً له**»[٢٣٤].

---

[٢٣٠] الأيديولوجيا الألمانية، (صـ٣١).

[٢٣١] الإيديلوجيا الألمانية، (صـ٣٠).

[٢٣٢] التاريخ والمؤرخون، (صـ١٢٧).

[٢٣٣] الموسوعة الفلسفية، (صـ٤٣٢).

[٢٣٤] جوزيف ستالين، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، دار دمشق للطباعة والنشر، (صـ٥٥).

فلذلك «**لا يوجد قانون مطلق أو أخلاق مطلقة في هذا العالم، وإنما هذه كلها انعكاسات لأسلوب الإنتاج**»[٢٣٥]، ويضرب البعض مثلاً تطبيقياً يُصوّر فيه تغير المفاهيم الأخلاقية في المجتمع البحريني بناءً على تغير أدوات الإنتاج في المجتمع، فظهور النفط ساهم في تطور المجتمع، فبعد أن كانت زوجة الغواص تخرج وتكدح في الخارج وكان هذا مستساغاً، جعل النفط حال الأسر ميسورة، فأصبح خروج المرأة عيباً، وهذا الأمر يُصوّره البعض بأن تَغُيّرَ المفهوم راجعٌ إلى تَغَيُّرِ أداة الإنتاج في المجتمع!!!

المفتاح الثالث وليس الأخير ولكن أختم به هو: مراحل التاريخ تختلف باختلاف أدوات الإنتاج، فالتاريخ لدى ماركس يمر بحقبٍ، وما يميز كل حقبة عن الثانية هو «نمط إنتاج معين»، وأن كل حقبة جديدة تكون ارتقاء عن الحقبة التي قبلها، وذلك أن تطور أدوات الإنتاج يُفضي إلى تطور والارتقاء بالمجعتمات، فالتاريخ له صيرورة مضطردة ارتقاءً إلى الأعلى ومتوازيةً مع تطور أدوات الإنتاج، «**فكل مرحلة تنتج مرحلة مطابقة لعلاقات الإنتاج. أولًا: كانت هناك حقبة الأدوات الحجرية التي تطبق على الشيوعية البدائية في وسائل الإنتاج وتوزيع المنتجات. ومع مجيء الأدوات المعدية انقسم المجتمع إلى سادة وعبيد وهذا هو الشكل الأول للمجتمع الطبقي، ثم جاء الاقطاع الذي قام على المصنع الذي يدار باليد، وأخيراً الرأسمالية الصناعية القائمة على المصنع الذي يُدار بالبخار أو الآلة التي تدار بالكهرباء بصفة عامة**»[٢٣٦]. فمعنى ذلك «**أن تاريخ تطور المجتمع هو قبل كل شيء تاريخ تطور الإنتاج، تاريخ أساليب الإنتاج التي تتعاقب خلال العصور**»[٢٣٧].

ولا بُدّ الإشارة الى أن أنماط الانتاج في العصور قد تتداخل وتتشابك، ولكن الضابط لمرحلة الاتقال هو نمط انتاج رئيسي وتتطبع القاعدة الانتاجية بطبعه، فيدخل المجتمع من طور إلى طور آخر،

---

[٢٣٥] التفسير الإسلامي للتاريخ، (صـ٦٠).

[٢٣٦] أوجين كامنكا، الأسس الأخلاقية للماركسية، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى: ٢٠١١، (صـ١٨١).

[٢٣٧] المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، (صـ٧٣).

والانتقال من طور يُفضي الى تضاعف القدرة الإنتاجية، فالقدرة الإنتاجية في النظم الرأسمالية الأن هي أكثر بأضعاف المرات من القدرة الإنتاجية في زمن الفراعنة مثلاً، والتطور يُفضي إلى الارتقاء في التاريخ، فالشكل الجديد يكون أفضل من الشكل القديم، أو يكون أقل سوءاً منه[٢٣٨].

وقد ذكر ماركس في مقدمة كتابه المشترك (الأيديولوجيا الألمانية) مراحل التاريخ حسب نظره وما صفة كل مرحلة وميزتها عن الأخرى.

و ومراحل التاريخ لدى ماركس هي: المرحلة البدائية ثم العبودية ثم الاقطاعية ثم الرأسمالية ثم الاشتراكية، وتكون المرحلة الأخيرة هي المرحلة التي تملك البروليتارية وسائل الإنتاج وتصبح في يدها، ويتخلص من البرجوازية وتسود العدالة الاجتماعية فهي آخر مرحلة تتطور عندها قوى الإنتاج، فتلاحظ أن ماركس نظر إلى التاريخ على أنه «**مسارٌ خطّيّ مستقيم، تُمثّل نقطته الأولى الإنسانيّة في حالة المشاعية التي تكون الملكية فيها جماعية، لينتهي التاريخ عند النقطة الأخيرة، فبعد مرحلة الاشتراكية تسود الشيوعية التي تكون وسائل الإنتاج ملكية جماعية، وتختفي كلُّ أشكال الملكية الخاصة، ورآها ماركس نوعاً من الحتمية التاريخية التي لا جدال فيها**»[٢٣٩].

فتطور التاريخ لدى ماركس حتمي، وحتمية هذا التغير أوجدت فَجوةً صراع بين الماديين الماركسيين والماديين اللا ماركسيين، فهناك من يؤمن بالتغير الثوري المباشر وآخرون يرون أن التغير حتمي وسوف يَحدث في نهاية المطاف فلماذا نعرض أنفسنا للخطر؟ وكان ردّ الماركسيين أن «**التضحيات التي يقدمها العمال عند القيام بثورتهم أقل بكثير من خسائرهم إذا تركت العملية تتم من تلقاء نفسها ببطء**»[٢٤٠].

---

[٢٣٨] هشام غصيب، نظرية التاريخ عند ماركس.

[٢٣٩] فلسفة التاريخ: مدخل إلى النماذج التفسيرية للتاريخ الإنساني، (صـ١٢٩).

[٢٤٠] التاريخ والمؤرخون، (صـ١٢٦-١٢٧).

إن هذه الفلاسفة هي التي تُفسّر أحداث التاريخ لدىٰ الماركسيين، فيقرؤون التاريخ بناءً علىٰ ضوءها، فيتجاهلون العناوين الكبرىٰ سعياً خلف المحرك الفعلي للتاريخ، وإن كان البعض أمثال الماركسي هشام غصيب يرىٰ أن نظرية ماركس حول التاريخ غير نهائية وإنما أفكارٌ علميةٌ تُخْتَبَرُ باستمرار فلا توجد نظرية شاملة لماركس في التاريخ كما هو الحال في الاقتصاد السياسي، وحاول صديقه إنجلز أن يسدّ هذه الفجوة فكتب حول تاريخ ألمانيا والمسيحية، ولكن اكتملت النظرية التاريخية في الماركسية علىٰ يد الماركسين اللاحقين أمثال الإنجليزي بيري أندرسون الذين استندوا علىٰ الهيكل الرئيسي الذي وضعه ماركس ابتداءً.

وهنالك من نقد فلسفة ماركس بَنفَسَ إسلامي، مثل الدكتور عماد الدين خليل في كتابه (التفسير الإسلامي للتاريخ)، وكذلك الدكتور محمد عمارة في كتابه (التفسير الماركسي للإسلام) ومحمد قطب في كتابه (الإنسان بين المادية والإسلام) وهنالك من كتب بنفس ليس إسلامي ولكن نقدي للمادية وهو الدكتور عبد الوهاب المسير في كتابه (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان).

وفي هذه الرحلة أو القراءة في هذه المراجع سعياً لاستخلاص الأُطُر العامّة لنظرية ماركس في التاريخ وهي نقض للفلسفة المثالية لهيغل؛ انتابني فضولٌ لمعرفة رأي مَن أثق به حول تفسيره لموضع الإسلام في هذا التضاد الفلسفي، فأجابني أستاذنا الفاضل عمر بن محمود قائلاً:

«اعترف ماركس في رسائل باريس باستفادته من هيغل ونظرته للتاريخ، واعترف أن أساس فكرة الجدل أخذها منه، واعترف أنه قضى خمس سنوات متواصلة وهو يقرأ هيغل، وهيغل لا شك ذكي جداً، ومميز في فهم التاريخ، وعدم اهتدائه لمعنى التاريخ في القرآن أوقعه في أخطاء، حتى اقترب من العقيدة الجبرية، لكن هيغل لم يخرج عما يُسمّى «الفلسفة المثالية» وهي تتعلق بجدل الأسبقية بين المادة والفكر، أنا لم أقرأ الحوار الأخير حول هذه النقطة ولكن قرأت ما نشر حولها من نقاشات، ودعني أذكر ما عندي، وما أفهمه من المسلمين جميعاً حول هذه النقطة لا يخالف فيها العامي الفيلسوف

المسلم. الحق حسب القرآن هو الواقع وهو اليقين، وأساس الوجود هو قدرة الله وعلمه فهو الذي خلق، لكن بالنسبة لربنا فإن العلم هو السابق، وبالنسبة لنا فإننا ندرك المادة ثم نرتقي للفكر. الباقلاني قال إن آيات سورة البقرة قررت أن المادة عرضت على الإنسان ثم عُلِّمَ أسماءها، فالخلق بالنسبة لنا هو الحاضر ثم العلم يأتي ليخبر عنه وكذلك الله الحق يقين ثم يأتي الخبر عنه، عند الفلاسفة يوجد عقل عالِم، يملك المعرفة،وهذا أساس الفكر المشائي والمثالي، وعند ماركس هناك مادة تصنع معرفة عقلية، وتصنع قيما اجتماعية، وهي أساس حركة الوجود، هذا لا يعني موافقة المسلم لماركس وأن المادة قبل الفكر، لأنها عنده مصوغة لأسبقية المادة في الوجود على معنى الاستقلال، وعندنا أننا أدركنا العلوم من خلال حق الواقع المخلوق، وحصلنا المعارف من خلال مستويات متعددة، منها الفطرة ومنها المادة ومنها الوحي، هذا باختصار يوافق الحال».

وأعتذر على الاطالة، فقد كنت قررت أن أختصر قدر المستطاع، ذاكراً رؤس الأقلام مختصراً من المراجع التي قرأتها وجامعاً لها في قالبٍ واحد، ولكن أُنَوَّه أن كتب المدخل مزيتها أنها تبسط المعنى للقارئ ولكن قد تعمل شيء من التشويش عليه، فأنا لو نشرت مراجعة لأحد كتب المدخل لوجدت أن بين ماركس وبين القارئ لمقالي شخصين وهما أنا وصاحب كتاب (المدخل)، كلانا يتناول ماركس حسب فهمه من النصوص، فهناك وسائط وليس وسيط بين المصدر والمصدر المتلقي، فمن أراد أن يضبط فلسفة التاريخ لدى رجل معيّن ورأى أن علم التاريخ هو مصدر اهتمامه فلا تغنيه كتب المداخل عن جرد كتب هذا الرجل، ربما من التزمّت أن تفرض قراءة جميع الكتب، ولكن تُقرأ الكتب التي تدور حول اهمتمامك وقد تقرأ لغيرها إن كانت تفسّر للكتب التي في دائرة اهتمامك، كما أن هنالك عدة مداخل ليستطيع الشخص أن يطوّع ما تَعَسَّرَ عليه فهمه من الطرح الفلسفي (وانتبه هنا أني أُناقض نفسي!) وهو تنويع مصادر التلقي، ما بين رواية تَشرح لك الأطروحة الفلسفية مثل (العقب الحديدية) لجاك لندن حول الفلسفة الشيوعية في رؤيتها للواقع

المعاصر، فَيُبَسّط ما صَعُبَ ويُيَسّر ما تَعَسَّرَ[241]، وذلك أن الأطروحات الفلسفية غالباً تكون معنية بشرح القضية نظرياً وقد لا تتناول الأمثلة التطبيقية لتقريب المعنى، فيكثر تساؤلك عند القرءة لها (ماذا يعني بهذا هل يقصد كذا أو كذا؟) وقد يستوعبها غيرك فيبثّها في رواية أو في محاضرة أو مقال بشكل أبسط، وهذا التعقيد يصبح مفهوماً عندما تتحول المادة من نص مكتوبٍ إلى محاورة أو بثٍ مرئي، وهذا يَشمل حتى الفلاسفة المعقدين أنفسهم، فقد تنبّه لذلك إبراهيم السكران فنقل في أحد كتبه مقولة الناقد جون ستروك «**أما فوكو ودريدا فإن درجة صعوبتهما أعلى من درجة صعوبة بارت، مع أن كُلاً منهما قادر على الخطاب المباشر، فهناك جانبٌ صحفي في كتابات فوكو يجعله في لحظات نادرة مفهوماً تماماً**»[242]. فالشخص يجب أن ينوّع من مداخله حتى يستوعب المراد، ولا ننسى سؤال من يعلم عن ما لا نعلم وكما في الحديث (**أَلَا سألوا إذ لم يَعْلَموا؛ فإنَّما شِفاءُ العِيِّ السؤالُ**)[243].

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[241] حتى الروايات التي لا يكون موضوعها يتناول هذه المذاهب بشكلٍ مباشر، قد تجد منها فائدة لفهم ما تدعو إليه هذه المذاهب، وقد قرات قديمًا قصة (حي بن يقظان) لابن الطفيل، لشخص ولد في جزيرة نائية بين الحيوانات، فأستطاع أن يصوغ مفاهيم بناءً على تعامله مع المادة المحيطة به، وذلك بتجريدها، وتطويعها لحاجاته، وهذا يعطيك انموذج لكيفية أن المادة سابقة للوعي وأن الوعي انعكاس لها.

[242] إبراهيم السكران، مآلات الخطاب المدني، دار الحضارة، الطبعة الثالثة، (ص٢٤٧).

[243] حسنهُ الألباني في صحيح أبي داود: ٣٣٦.

ملحق: وحلق لحيته!

التقيت بالدكتور فواز الشروقي في أحد الندوات الأدبية حول الأدب العراقي، فوجدته دمث الأخلاق، ولكن لفت انتباهي قوله أن كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي وكتاب علي الوردي (أسطورة الأدب الرفيع) قد هزته! وهذه الاطروحات لا ترتقي حتى أن تهز ورق الشجر!

أحياناً تكون النفس قد تعبت من سلوك طريقٍ ما، فتتعلق بأي قشة حتى تخرج مما هي فيه، فيكون تغيرها الفكري لا عن دراسة وتعقيد ومقاربة بين الاطروحات بقدر ما يكون هو تململ للوضع القائم، لذلك بمجرد ما تجد الطرح المناسب لتغيرها فإنها تتلقفه دون أن تسأل كثير سؤال عن صحته، لذلك هُنا تعاد إشكالية أن يسمع الشخص من طرف ما ثم يصم أذنيه عن غيره، والغريب أن هذا الاعتراض غالبًا ما يواجه فيه الإسلامي المتدين، ولكن كما ترى أنه ليس حالة خاصة فيه، بل قد امتدت حتى الى أصحاب الفكر والثقافة والأدب؛ لانه لو اطّلع على الردود على هذه الكتب لوجد أنها ليست بشيء.

والمتتبع لكتاب الدكتور فواز الشروقي (ثمّ حلقت لحيتي) قد يلمس الضعف العام الموجود في ثنايا الكتاب في تبرير أسباب انتقاله من ضفة الى ضفة، الانتقادات التي وجهت الى التيارات الإسلامية الثلاثة التي انضم إليها الدكتور (التبليغ والإخوان والسلفيين) تعود غالبًا إما إلى ضعف في صاحب التجربة أو أنها لا تسوّغ ترك المرء التزامه وتخليه عن الأمر الشرعي، فكأن الأمر صور أن الشخص لا يتعبّد الله إلا من خلال هذه الجماعات، فهو ألغى شخصية الإسلامي أو المتدين المستقل، وعندما تكثر الجماعات وتحدث الفتن فإن الوصية النبوية كانت باعتزال تلك الجماعات كلها وفي الحديث الموجود في صحيح البخاري: (**فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**)، ولم يقل تَحَلّل من الأمر الشرعي!

ثم يلمس أيضًا القارئ لهذا الكتاب ضعف الشخصية التي لازمت الدكتور أثناء وجوده في هذه الجماعات، فيبدو وكأنه كان يحرك يمينًا ويسارًا وعندما لا يقتنع يترك دون أن يجادل ويُنكر، وقد وجدنا في سير البعض الذاتية أنه عندما كان يختلف الشخص من جماعته حول مسألة ما، كان يعكف في القراءة عليها ويفندها ويألف رسالةٍ فيها، وهذه حالة صحية، تنمي الحسّ النقدي للشخص وتجعله أجرأ على المواجهة بدلًا من الانزواء منسحبًا في كل مرة!

عمومًا هذه تعليقات يسيرة على الكتاب الذي وجدت نسخه منه نصية في أحد المواقع ثم اختفت ولم أستطع أن أكمل التعليق عليها وقد كتبتها قبل سنتين ونصف.

***

من الأمور التي تعاب على طرح المؤلف، هو الاستدلال بالاحاديث الموضوعة لمعاتبة الناس! فيقول: (**ولكم كنا نسير مع شيخنا ونتحدّث باللغة العربية الفصحى متحسّرين على عدم تحدّثنا مع أصحابنا في المدرسة وأسرتنا في البيت بلغة أهل الجنّة**).

ويَعني حديث: (أحبوا العرب لثلاث لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي).

هذا الحديث حَكم عليه أهل الصنعة الحديثة -ليس بالضعف فقط- بل الوضع أي أن الحديث هذا تم اختلاقه ونسبته إلى النبي كما ذكر ابن جوزي في (الموضوعات) والذهبي وكذا الألباني في (السلسلة الضعيفة)[٢٤٤].

فالملام هنا هو من قَصُرَت همته عن تَنقيح أدلته وتمييز الغث من السمين قبل أن يستدل بها وينزلها على المجتمعات ويُحاكم الناس إليها.

[٢٤٤] انظر: السلسلة الضعيفة للألباني: ١٦٠، ميزان الاعتدال للذهبي ٣/ ١٠٣، موضوعات ابن الجوزي ٢/ ٢٩٢.

ثم إن المجتمعات كل واحدة تتكلم العربية بلهجتها الخاصة، ومن المستحيل أن يتكلم كل هؤلاء بالعربية الفصحىٰ فهذه هي طبيعة المجتمعات فكل مجتمع له لهجته الخاصة وهذا ليس وليد اليوم بل منذ الجاهلية، واللهجة العامية أضعف وأردئ من العربية الفصحىٰ، فتطورها عبر الزمن –كما قال الدكتور محمد محمد حسين في كتابه حصوننا مهددة من داخلها– يعني إنشاء لغة جديدة تضاهي العربية، ومن هذه الزاوية قد يخاف البعض من الإيغال في العامية، وأن يحب الفصحىٰ كونها لغة أدبية مشتركة بين عموم العرب وهي لغة القرآن والدين، وكل هذه أسباب قد تجعلك تتحسر علىٰ عدم اعتياد البعض الكلام بالفصحىٰ واعتياده علىٰ العامية لا أن يُستند فيه علىٰ حديث موضوع!

ولكن عدم ضبط مصدر الأدلة سوف يظهر جلياً في النص الذي بعده؛ ففعل مالم تسبقه حتىٰ جماعة التبليغ الذي كان منتمي إليها آنذاك ولم يَفعلهُ حتىٰ من يوصفون بالتشدد والغلو والتنطع، فيقول: (**أذكر أنّ مؤذن المسجد تعارك معي لأنني كنت في كلّ مرة أذكر له أنّه يجب أن يؤذن من منارة المسجد باستخدام حنجرته مثلما كان يفعل بلال في فيلم الرسالة، بدلاً من استخدام مكبرات الصوت الكهربائية**).

فلاحظ كيف أستدلَّ بفلم، وليس بنص شرعي، ليدخل في شِجار مع المؤذن!!!

ولاحظ أن جماعة التبليغ نفسها التي كان ينتمي إليها المؤلف تستخدم مكبرات الصوت في مسجدها (مسجد النور) بالرفاع!!! فهي بالضرورة ليست مسؤولة علىٰ هذه الشذوذات التي يقوم بها الدكتور.

ولاحظ أن تركي البنعلي أحد منظري تنظيم الدولة (داعش) كتب مقالاً في أحد الصحف قديماً يقول أن الأذان من خلال المكبرات هي من المصالح المرسلة!!!

وهذا النص ذكرني بنكتة كانت متداولة في السجون، وهي أن أحد الجلادين قد عذّب أحد المعتقلين الإسلاميين الذي كان التزم حديثًا، فدعىٰ هذا الأخير علىٰ جلاده قائلًا: حشرك الله مع أبو سفيان!

فاستدرك عليه أحد السجناء قائلًا: يبدو أنك لم تكمل مشاهدة فلم الرسالة فقد أسلم أبو سفيان في النهاية!

فلذلك لماذا تتحمل الحركة الإسلامية والجماعات الإسلامية تبعاتك الفردية في أمور هي منها براء؟!!!!

ثم يُكمل منتقدًا استفتاء الناس للمشايخ فيقول: (**المشايخ، نعم المشايخ، هم أصحاب الأمر والنهي، هم من يملكون أزمة الأمور، وهم من يتحكم في الناس، وهم من ينصّبهم الناس أصنامًا لتقرّبهم إلى الله زلفى، وهم من عيّنهم الناس وكلاء لله في الأرض، فليس بمستغرب أن تجد هواتف المشايخ لا تسكت من المتصلين والمتصلات، فكلّ شؤون الدين ومعظم شؤون الدنيا يملك أسرارها الشيخ، ودخول الجنة مرهون بمدى استطاعة المرء تجنّب ما قرّره الشيخ حراماً**).

أولاً: الناس تسأل المشايخ عن شؤون الدين أو شؤون الدنيا المرتبطة بالدين، وليس شؤون الدنيا، فلِمَ أسأل شيخ مثلًا ما هي أجود أنواع الاسمنت؟! ولكني أسأل عن المعاملة التجارية لشراء الاسمنت ومدىٰ مشروعيتها -دون أن أبخس حق البائع أو يبخسني-!

ثانيًا: بخصوص انتقاد الناس في استفتائهم المختصين في أمور الدين عن الدين، هذا أمر مضحك، وهو أشبه بمن يقول: لماذا تسأل الدكتور عن أفضل دواء لحالتك؟!! ومن قال لك أن هذه الأمور يُرجع فيها الىٰ الدكاترة فقط؟!

ثالثًا؛ قد يحصل أن يأتي أحد ويفجر نفسه فقط لفتوىٰ أفتاها إياها شاب غرُ مثله في جموع من المسلمين المسالمين، فهل هذا يأثم لأنه لم يرجع الىٰ المشايخ المختصين ويسألهم عن الحكم؟! بيد أنه ليس من المهم سؤالهم ولا استفتائهم ويجوز سؤال غيرهم!!!

رابعًا: الناس -الذي عاب عليها المؤلف صنيعها- لم تفعل أكثر من الامتثال لأمر ربها الذي أمرها فقال: [**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**]!!! فمشكلتك ليست من الناس ولا مع المشايخ بل مع هذا الأمر الرباني ومع المنطق العقلي!

يكمل المؤلف ويقول: (**وبما أنّي قد افتقدت شيوخي الأوائل، بسبب (ضعف إيماني) الذي دفعني للاستغناء عن غترتي المسدولة على صدري، وثوبي القصير، ومسواكي ذي الرأس الأشعث، فلم أجد ملجأ لمعرفة الحرام إلا من خلال الأشرطة السمعية**).

لم أفهم، يعني المشايخ تركوه لأنه ترك غترته المسدولة والثوب القصير والمسواك؟! ما رأيك أني أذهب أحيانًا إلى الدروس ببرموده وفانيلة رياضية؟! وعلاقتي مع المشايخ كلهم على أحسن ما يرام!

فتصوير المشايخ على أنهم يطردون الطلاب ويقاطعونهم لأنهم لم يظهروا بسمتٍ معين، أمر مضحك، والدليل أنهم يلقون دروسًا يبينون فيها الحلال من الحرام بعد الصلوات على أشخاص يلبسون ألبسةً متنوعة وأشكالًا مختلفة، ولو كانوا يقاطعون ويفاصلون لمجرد اللبس لفاصلوا الناس جميعًا ولما ألقوا عليهم الدروس!!

يكمل كلامه فيقول: (**أعجبتني تلك الأشرطة، وعرّفتني بعوالم جديدة، وبنواحٍ جديدة (وما أكثرها)، وبقصص مثيرة ربما أمتع من رحلات السندباد ومغامرات علي بابا، فلأول مرّة أتعرّف على الشجاع الأقرع الذي ينتظر الميت العاصي في القبر ليلتفّ عليه ويهشم عظامه**).

ولكن نسي أن هذه القصة "المثيرة" -التي صورها كأنها من قصص ألف ليلة وليلة- من قالها ليس المشايخ بل الرسول نفسه! والمضحك أنها ليست في القبر -ولاحظ أن المؤلف لا يتثبت مما يسمع ولا يتأكد- بل هي عذاب من بخل عن ماله ولم يُعطه الفقراء يوم القيامة.

فقد جاء في الصحيحين: (**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا: ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير**).

فمشكلتك مع النص الشرعي المتفق عليه.

يكمل المؤلف كلامه ويقول: (**دخلت المسجد، وبدأ الدرس، كان درساً في الفقه، عن الطهارة "الطهارة مرة ثانية؟!"**).

طبعاً آخر شخص يحق له أن يعترض هو المؤلف، لأنه هو نفسه لا يعرف ماذا يعني الغسل فيقول: (**درس حول الماء المعدّ للوضوء، واختلاط الماء بالنجاسة، والوضوء، والاغتسال -كنت أعتقد أنه الاستحمام الصباحي للذهاب للمدرسة-، وهناك فصل مضى عليه سريعًا حول المني والمذي والودي، ولم أكن أعرف معناها ولم أسأل**).

فهو لا يعرف ما معنى المذي ولا المني ولا الأحكام الشرعية المترتبة على كلاهما ومع ذلك يقول باستنكار: الطهارة مجدداً!!!

ثم هل المطلوب من الشيخ قبل أن يبدأ بالدرس أن يعمل استفتاء، فيقول للحضور كم شخص درس الطهارة؟! فإذا كانت الأغلبية قد درست فإنه يهمش حق الأقلية؟! ثم إن دراسة الباب الفقهي مسبقًا لا يعني ضبط الباب بالضرورة والنموذج الفعلي على هذا الكلام هو المؤلف نفسه، بل قد يحتاج إلى مراجعة ومدارسة حتى لو كان قد درس فقه الطهارة بل لا بُدَّ أن يدرسه "مرة ثانية!" وثالثة الى أن يتم المراد.

يكمل المؤلف كلامه: (وأذكر أنّ أحدًا من أعضاء الجماعة رأى في يدي كتاب الكبائر للإمام الذهبي، وقد تصفّحه وأشار لي بأن الكتاب جيّد، ولكنه يتّسم بشيء من التشدّد، إذ لا يمكن - بحسب رأيه - أن يدرج الإمام الذهبي إطالة الثوب ضمن الكبائر ويضعها في مقام واحد مع الزنا وشرب الخمر وأكل مال اليتيم، ولقد سكتّ منبهرًا: هل هناك امرؤ يجرؤ على تخطئة إمام بحجم الإمام الذهبي؟!).

هذا رد مَن لم يقرأ الكتاب أصلًا! أو قرأ ولكن لم يستوعب المضمون، فكون إسبال الثوب كبيرة هذا لأنه ورد فيها الوعيد كما في صحيح مسلم: (**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنان فيما أعطى، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**)، فليس هذا من كيس الذهبي، وقد أورد الذهبي هذا الحديث، والشخص الطبيعي يستطيع أن يحتج بنحو هذا الكلام الذي ذكرته لكل معترض على إيراد إسبال الثياب في مقام الكبائر! ولكن المؤلف لم يفعل.

بل خرج بمخرج آخر لا يُسعفه، فقال: (**هل هناك امرؤ يجرؤ على تخطئة إمام بحجم الإمام الذهبي؟!**)، وهذا اعتراض مَن لم يقرأ الكتب الشرعية، لأنه لو قرأها لوجد أن هناك مَن خطّأ ابن عباس رضي الله عنه في تحليله للمتعة، وأن هناك مَن خطّأ ابن مسعود رضي الله عنه في كلامه حول المعوذتين، ولو وجد أن هناك مَن خطّأ الإمام علي رضي الله عنه عندما أعدم بعض الزنادقة في آلية الاعدام، فإن وجد أن هناك مَن يخطّأ هؤلاء العمالقة فلن يتهوَّل عندما يرىٰ مَن يخطّأ من هو دونهم.

***

قد توقفت إلى هذا الاقتباس قبل أن أفقد المصدر الذي وضع الكتب كنص للقراءة، وعندما رأيت عنوان الكتاب (ثم حلقت لحيتي)، ظننت أن الأسباب التي سوف تطرح -لا أقول لها مسوغها لأن ينحرف الشخص- ولكنها تفهم من خلالها لماذا انحرف زيد أو عبيد من الناس، وهنالك مسببات قوية، وتتجسد في مقولات على غرار (كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي المغسل) أو بعض

الجماعات التي تطبق سياسة ما أُريكم إلا ما أرىٰ، أو كثرة المفاصلة علىٰ ما يسوغ الخلاف فيه، فطمعت أن يكون الكتاب قد تكلم عن هذا، ولكن رأيت أن مستوىٰ الطرح متدنٍ وفيه كلام عن أسباب لا يَصح أن تطرح بين يدي الباحثين الجادين لدراسة بعض الحالات داخل المدارس الإسلامية لفهم بعض ظواهر الانتكاسة فيها.

وقد رأيت أن بعض الأطروحات هنا لا تُلام الجماعة الإسلامية التي كان الدكتور فواز فردًا فيها؛ لأنها لا تطبق ما يقوم به بل تكون علىٰ العكس من ذلك (مثل الأذان بالمُكَبّرات الصوتية عند جماعة التبليغ) أو ينتقد فيما لا يصح الانتقاد فيه (مثل تدريس درس الطهارة لأنه هو قد درسه! حتىٰ ولو لم يضطبه) أو عدم استيعاب المسائل في الكتب التي يقرأها فتتكوّن لديه الشبهات دون القدرة أن يرد عليها ردًا علميًا منضبطًا (مثل مسألة إسبال الثوب عند الإمام الذهبي).

لذلك هذا الكتاب مضيعة للوقت إن دخلت عليه من باب البحث الأكاديمي، ولكنه ينفعك في تقويم شخصية مؤلفه، والأمر كما قال الخطيب البغدادي: «مَن صنَّف فقد جعَل عقلَه علىٰ طبقٍ يعرِضُه علىٰ الناس»، ومن حق الناس أن تُقوّم هذه العقليه أو تفهمها.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.